4 (1356/57=1937/38)

السنة الرابعة (ربيع الآخر سنة ١٣٥٦هـ - يونيه سنة ١٩٣٧م) العدد الأول

صحيفة دار العلوم

ص (ح ١٩٣٤) ع

مجلة الأدب واللغة والتربية والاجتماع

تصدرها جماعة دار العلوم
كل ثلاثة أشهر

قررت وزارة المعارف ومجالس المديريات «صحيفة دار العلوم» فى جميع مدارسها

المدير
محمد نجيب حتاتة

رئيس التحرير
محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية
ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى
المدرس بدار العلوم

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى ..... ٢٠ قرشا
خارج القطر ..... ٦ شلنات انجليزية
ثمن العدد ..... ٥ قروش

المطبعة الزمانية بمصر

UNIV. BIBL.
TÜBINGEN

15
ZE 83

مقدمة

بهذا العدد تبدأ صحيفة دار العلوم سنتها الرابعة ، سائرة على نهجها ، ماضية على سنتها ، مؤمنة برسالتها التى لها أنشئت ولها تجاهد ، وفية بالعهد الذى أخذته على نفسها من أول يوم : أن تكون لسان الأدب الصحيح ، ومجال الرأى الصريح ، ومعرض الفكر الناضج ؛ وأن تكون اللسان الناطق لأبناء دار العلوم عامة ، تعبر عن أغراضهم ، وتكشف عن مواهبهم ، وتبلغ رسالتهم إلى الشرق والغرب .

وإنه ليسر الصحيفة وقراءها أن يكون ماضيها المنشور فى صحائف سنواتها الثلاث ، شاهداً بما بذلت من جهد وما تسعى إليه من غاية ، معبراً أبلغ التعبير عما بلغت من نجاح فى سبيل الغرض الذى عاهدت قراءها عليه .

ومما يضاعف سرورنا أن نرى صحيفتنا — على حداثة عهدها — تشق طريقها فى مضاء وعزم إلى مختلف المجامع الأدبية فى الشرق والغرب ، وأن تنال حقها من التقدير فى كل البيئات الأدبية التى تعنى بالعربية : من أدباء العرب فى فلسطين وسوريا والعراق وبلاد المغرب ، ومن علماء المستشرقين فى أوربا وجامعاتها العلمية . وهذه ترجمة رسالة من الاستاذ ادوارد روبرت سون أستاذ اللغات السامية بجامعة منشستر تعبر عن رأيه فى صحيفة دار العلوم :

« حضرة المحترم مدير صحيفة دار العلوم :

« سيدى العزيز

« وصلتنا مجموعة « صحيفة دار العلوم » التى تفضلت جماعتكم بإهدائها إلى قسم دراسة اللغات الشرقية على يد الأستاذ مهدى علام ؛ وإنى أود أن أشكركم شخصياً وأشكر أعضاء الجماعة على هذه الهدية النفيسة لمعهدنا ، وإنى لشديد الإعجاب بما وصلت إليه صحيفتكم ، وبالمستوى الأدبى والعلمى الذى تحافظ عليه ، وأرجو الله أن تستمر ماضية فى خطاها إلى الكمال .

« ويسرنى كذلك أن أعبر لكم عن عظيم سرورى لمزاملة الأستاذ علام لنا فى معهدنا ، وإننا لنعرف له مكانته ونقدر خدماته أجل تقدير .

« وإنى أكرر شكرى ، وأرجو أن تتفضلوا بقبول تحيتى الخالصة »

* * *

على أن ما بلغناه من نجاح لا يعفينا من تجديد العهد لقرائنا وأصدقائنا فى الشرق والغرب ، على أن نضاعف الجهد للوصول بالصحيفة فوق ما وصلت إليه ، دائبين على العمل لرفع مستواها الأدبى والعلمى ، حراصا على أن تكون صحيفة دار العلوم هى عنوان دار العلوم التى تعمل منذ نيف وستين عاماً على إحياء العربية وتجديد آدابها .

* * *

وإنه لما يدعونا إلى التفاؤل والاستبشار ، أن نبدأ عامنا الجديد ومصر فى أول عهدها السعيد ، متفائلة مستبشرة بما حطت عن كاهلها من قيود كانت تحد من سلطانها التشريعى وتحرمها أن تحيا الحياة الصحيحة . وأن يكون على عرش مصر مليكها الشاب المحبوب فاروق الأول ، الذى تتطلع الأمة كلها فرحة إلى اليوم السعيد الذى يبلغ فيه جلالته سن الرشد ويضع على رأسه التاج المجيد

وإذ كان تتويج جلالته سيكون فى الشهر الآتى فاننا نستعجل البشرى فنهنىء مصر بجلالة مليكها العظيم ، ونهنىء جلالته بمحبة هذا الشعب الذى اجتمع قلباً واحداً على تمجيده والولاء له .

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن نهنىء حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا وزملاءه أعضاء الوفد الرسمى على ما أحرزوا فى مؤتمر الامتيازات من نجاح سيكتب لهم فى التاريخ بمداد الخلود .

* * *

ولقد انتهت السنة الثالثة من الصحيفة وهناك أمر ذو بال يهم كل المشتغلين بالأدب العربى وبالثقافة العربية فى هذا البلد ، ذلك هو منهج الأدب العربى للسنة التوجيهية فى المدارس الثانوية .

لقد كان للسنة التوجيهية منهج فى الأدب اشترك فى وضعه عميد كلية الآداب بالجامعة مع حضرات مفتشى اللغة العربية بوزارة المعارف ، ولقد عالجت

صحيفة دار العلوم أكثر موضوعات هذا المنهج فى العدد الرابع من السنة الثالثة وفى هذا العدد ؛ وهى ماضية فى الكتابة عن بقية المنهج فى العدد القادم ، وفاء بعهدها لقرائها ، وعوناً للمعلمين على أداء واجبهم . ولكن فكرة ما خطرت فجأة فى رأس صاحب العزة عميد كلية الآداب ، فإذا هو يتقدم بمشروع جديد إلى وزارة المعارف لتعديل منهج الأدب فى السنة التوجيهية ، تعديلا لانريد أن نكشف عن الدافع إليه ، وحسب القراء أن يقرءوه فيما يلى فيفهموا منه مالا نريد أن نقول .

كان فى هذا العمل معان لم تخف على أبناء دار العلوم ، فاجتمعوا على رأى واحد رفعوه إلى وزارة المعارف يأخذون فيه مآخذهم على هذا المنهج المقترح ، وسننشر فيما يلى ذلك المنهج ورد جماعة دار العلوم عليه . ويقيننا أن وزارة المعارف ستقدر هذه الملاحظات الصائبة التى أبداها أبناء دار العلوم فى منهج الدكتور طه حسين بك .

السنة التوجيهية

القسم الأدبى

منهج الأدب

الأدب بمعناه الخاص وهو الجيد من منظوم الكلام ومنثوره . الأدب بمعناه العام وهو الإنتاج العقلى على اختلاف أنواعه . المؤثرات العامة التى تعمل فى نشأة الأدب ورقيه وانحطاطه ـ تقسيم الأدب إلى إنشائى ووصفى . تقسيم الأدب الإنشائى إلى شعر ونثر . تقسيم الأدب الوصفى إلى نقد وتاريخ أدبى .

النثر وأنواعه

الكتابة الفنية وأنواعها : نشأتها والمؤثرات التى تعمل فى رقيها وانحطاطها . الخطابة : دواعيها . نشأتها والمؤثرات التى تعمل فى رقيها وانحطاطها . أنواع الخطابة : الخطابة السياسية . الخطابة القضائية . خطابة المحافل والمشاهد العامة وخصائص كل . أجزاء الخطبة : الابتداء . الموضوع . الخاتمة ، وما ينبغى لكل .

الخطابة كما يتصورها اليونان والرومان . الخطابة كما يتصورها العرب . الخطابة كما يتصورها المحدثون ، وتمثيل ببعض الخطباء البارعين فى هذه الأمم .

التاريخ : من حيث هو فن من فنون الأدب . وقفة عند أشهر المؤرخين ـ هيرودوت ـ تيوسيديد (من اليونان) ؛ تتليف ـ تاسيت (من الرومان) ؛ الطبرى ـ ابن خلدون (من العرب) ؛ اثنان من المؤرخين الأوربيين يجوز أن يتغيرا من عام إلى عام

فلسفة التاريخ : كيف تصورها قدماء اليونان والرومان . كيف تصورها العرب . كيف يتصورها المحدثون من الأوربيين .

الفلسفة : من حيث هى مظهر من مظاهر الحياة الأدبية ، ومن حيث تأثيرها فى تنظيم الفكر وضبط التعبير الأدبى . سقراط . أفلاطون

أثر علم الكلام الإسلامى فى الأدب العربى . تمثيل ببعض البارعين من المتكلمين المسلمين كبشر بن المعتمر والنظام والجاحظ وابن أبى دؤاد ويحيى بن أكثم وثمامة بن أشرس

بعض فلاسفة الغرب الذين أثروا فى آداب لغتهم تأثيراً عميقاً كد يكارت وفلتير وليبنتز واستوارت ميل وسبنسر

الشعر : تعريفه . نشأته . المؤثرات التى تعمل فى رقيه وانحطاطه

أنواعه : ــ (ا) الشعر القصصى : خصائصه . هوميروس وآثاره

(ب) الشعر الغنائى : خصائصه وتمثيل ببعض البارزين فيه من القدماء والمحدثين

(ج) الشعر التمثيلى : وتمثيل ببعض الشعراء البارزين فيه من القدماء والمحدثين: سوفكل (من اليونان) ، شكسبير (من الانجليز) ـ أحد الشعراء التمثيليين الثلاثة الفرنسيين . كرنى. راسين . موليير . تقسيم التمثيل إلى التراجيديا (التمثيل المحزن) والكوميديا (التمثيل المضحك) وخصائص كل منهما . خروج التمثيل عن الشعر إلى النثر وأسبابه ـ التمثيل الغنائى

١ ــ الآداب الأجنبية الكبرى التى اتصلت بالأدب العربى فتأثرت به أو أثرت فيه وكيف كان هذا الاتصال

(ا) الأدب اليونانى (ب) الأدب الفارسى (ج) الأدب الهندى

صلات هذه الآداب بالأدب العربى القديم فى العصر العباسى

٢ ــ تأثير الآداب العربية فى آداب الفرس المسلمين من جهة ، وفى الغرب الأوربى أثناء القرون الوسطى من جهة أخرى . أدلة واضحة على هذا التأثير

الآداب الأجنبية الحديثة الكبرى التى اتصلت بالأدب العربى فتأثرت به أو أثرت فيه .

أمثلة واضحة لتأثر الآداب الأجنبية بالأدب العربى فى العصر الحديث

كيف اتصل الأدب العربى بكبار الأدباء الأوربيين المحدثين وأثر فى أدبهم شعراً ونثراً

كيف اتصل الأدب الأوربى بأدباء العرب المحدثين وأثر فى أدبهم شعراً ونثراً .

أمثلة واضحة صريحة لهذا كله . اهـ

رد جماعة دار العلوم

حضرة صاحب المعالى وزير المعارف :

تتشرف جماعة دار العلوم ، باعتبارها الهيئة الممثلة للمعلمين القائمين بتدريس اللغة العربية وآدابها ، فى جميع المدارس المصرية على اختلاف أنواعها ، برفع ملاحظاتها الفنية ، على الاقتراح المقدم من حضرة صاحب العزة عميد كلية الآداب ، بشأن تعديل المنهج الخاص بالأدب العربى وتاريخه فى السنة التوجيهية ، الذى كان حضرته أحد المشتركين فى وضع مناهجها والموافقة عليها ، منقدمين بهذا التمهيد الذى جعلناه أساساً لما نبديه من الملاحظات فيما يأتى :

أولا ــ اتفق المربون فى مصر وفى غيرها من بلدان العالم الراقية على تقسيم التعليم النظامى إلى مراحل ثلاث :

(ا) التعليم الابتدائى . (ب) التعليم الثانوى (ج) التعليم العالى

وهذا التقسيم يرمى إلى غرضين أساسيين تدعو إليهما حاجة المجتمع : أولهما تخصيص كل مرحلة من المراحل بنصيب من المعارف والتهذيب يلائم عقول المتعلمين وقواهم الذهنية ، ويؤهلهم لمزاولة الأعمال العامة على قدر استعدادهم وثقافتهم ، وثانيهما أن تكون كل مرحلة أساساً للتى تليها وتمهيداً صحيحاً لها ، ليسهل على الطلاب التحصيل والاستفادة فى كل مراحل التعليم .

وإن نظام السنة التوجيهية الملحقة بمرحلة التعليم الثانوى شاهد بطبيعته على وجود ثغرة بين المرحلتين الثانية والثالثة تقوم هذه السنة التوجيهية بسدادها على أنها تكميل لمرحلة التعليم الثانوى ، كما نصت على ذلك المذكرة التفسيرية لخطة الدراسة الثانوية ومناهجها (ص ٥٧)

ثانياً ــ واتفق المربون أيضاً على أن دائرة المعارف الانسانية ترجع فى جملتها إلى الدين والعلم والأدب والفلسفة ، وأن كل نوع من هذه الأنواع قد تحدد الآن موضوعه وطرق البحث فيه فلم يعد يقبل فى دائرة حدوده أى دخيل ، فما لم يكن من الفلسفة مثلا لا يذكر فى تاريخها العام ولا يحشر فى نوع منها ولا فى مذهب من مذاهبها ، وكذلك أدب اللغة الواحدة سواء أكان عاما أم خاصا لا يرضيه أن يتسرب إليه أى مزاحم فى أبوابه وفصوله ، وإن كان الأدب العام منه يتعرض لوصف الحياة العقلية العامة ، ولكن ذلك بمقدار لا تتغلب فيه هذه الدراسة على شىء من الأدب الخاص ، وهذا واضح الدلالة على أن المعارف الانسانية قد رتبت وعين اختصاص كل منها فى البحث والتبويب والوضع والتعليم والتعلم ، وهى فى مجموعها وفى كل ما يسديه بعضها إلى بعض من المعونة عبارة عن الثقافة الانسانية العامة المنتظمة المهذبة .

وعلى ضوء هذا البيان السابق ترى الجماعة أن المنهج المقترح غير محقق للصلة بين المرحلتين ، ولا يجوز أن يكون فى جملته موضوعا دراسياً فى السنة التوجيهية ، لما يأتى :

أولا ــ يقول الاقتراح عند الكلام على التاريخ وأنه فن من فنون الأدب : وقفة عند أشهر المؤرخين ــ هيرودوت وتيوسديد من اليونان ــ تتلف ــ تسيت من الرومان . ثم أضاف إلى ذلك دراسة اثنين من المؤرخين الأوربيين يجوز أن يتغيرا من عام إلى عام . وقد بحثت الجماعة فى هذه الفترة وأدارت عليها وجوه الرأى لالتماس أية علاقة بين الأدب العربى وتاريخه وبين مؤرخ للتاريخ العام كهيرودوت الذى كتب

تاريخه فى القرن الخامس قبل الميلاد، أى قبل أن يعرف الأدب العربى وتاريخه بقرون طويلة ؛ وإن اقحام هؤلاء المؤرخين للتاريخ العام على هذا النظام من الكثرة والتكرار فى تاريخ الأدب العربى يعد مناقضة ظاهرة للنظرية القائلة بتعيين اختصاصات العلوم وتحديد موضوعاتها وعدم تسليم العلماء بصحة الخلط بين مباحث هذه العلوم .

ثانياً — ذكر الاقتراح الفلسفة وأنها من مظاهر الحياة الأدبية ، ورتب على ذلك دراسة سقراط وأفلاطون من قدماء فلاسفة اليونان ؛ ولو كان كل ما يعد مظهراً من مظاهر الحياة الأدبية ، يجب دراسته فى تاريخ الأدب العربى ، ما بقى شىء من علم ولا فن ولا صناعة لا يتعرض له تاريخ الأدب العربى ويترجم للمشهورين من رجاله ، على أن سقراط وأفلاطون يدرسان بتوسع فى المنهج الخاص بالفلسفة وتاريخها ، فما الداعى إلى حشره فى منهج الأدب العربى مرة أخرى .

ثالثا — ذكر أثر علم الكلام الاسلامى فى الأدب العربى ، وساق طائفة من أسماء علماء الكلام كلهم من المعتزلة . ودراسة هؤلاء الرجال ستفضى إلى بيان مذاهبهم فى الخلاف على أهل السنة وهم جمهرة المسلمين ، ومن شأن هذه الدراسة أن تفتح الباب للشبهات وذكرما استحدثه المعتزلة من أنواع البدع فى الاسلام . ومواجهة هذه العقول الغضة بأمثال تلك الشبهات يعد إفساداً لروح الدين وتوهينا لقوة العقيدة فى نفوس نشأ البلاد الذين هم فى أشد الحاجة إلى الايمان الراسخ واليقين الثابت ، ويجب إبعادهم عن مثار تلك الشبهات وتقريبهم من تعاليم الاسلام الصحيحة بدراسة طائفة من رجال أهل السنة وأعلام علماء الكلام من السلف الصالح ، وذلك هو أقوى أساس تبنى عليه حياة الشعوب القائمة على عزة الدين وكرامة الاعتماد على النفس ؛ ومما يوجب الأسف والدهش أن يعنى المنهاج المقترح بدراسة المعتزلة فى تاريخ الأدب العربى دون غيرهم . وفى ذلك ماقد يلقى فى شعور الطلبة الميل إلى مذاهب المعتزلة دون غيرها من مذاهب علماء الكلام . وقديما قال أهل السنة وهم كثرة المسلمين وجمهرة علماء الكلام الاسلامى فى المعتزلة : إنهم مارقون يظهرون العقائد الفلسفية فى لباس من الجدل فى الكلام

وفى هذه الفقرة نفسها ذكر جماعة من فلاسفة الأوربيين الذين أثروا فى آداب لغاتهم تأثيراً عميقا كديكارت وفولتير وليبنتز واستوارت مل وسبنسر ويلاحظ أن ديكارت وليبنتز ذكرا أيضاً فى المنهج الخاص بالفلسفة . وظاهر مما زعمه من وصف أولئك الأسماء بتأثير أصحابها العميق فى آداب لغاتهم أن التلاميذ فى السنة التوجيهية بل والسنة التى تليها لايستطيعون أن يتحملوا هذا القسط العنيف من الدراسة العميقة لهؤلاء

الفلاسفة . وما الذى يبقى للتعليم الجامعى أو للثقافة العليا بعد دراسته تلك الأعلام فى السنة التوجيهية على هذا النمط من التعمق والبحث ؟

رابعا ـ فى منهج الشعر التعريف بهوميروس وآثاره وسوفوكل اليونانى ، وشاكسبير الشاعر الانجليزى ، وكورنى وراسين وموليير الفرنسيين ، وغيرهم من شعراء التراجيديا والكوميدى ، وهل يكون يسيراً على عقلية التلاميذ فى التعليم الثانوى وفى هذه السن بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة على الأكثر أن يهضموا هذه المعلومات الواسعة عن أولئك الشعراء الأجانب الذين يعدون رءوس طبقاتهم وفحول الأدب فى عصورهم ؟ وإذا كان للأدب العربى أن يتجاوز حدوده ويتناول ماليس منه مما ذكرنا فماذا بقى لمدرسى الآداب الانجليزية والفرنسية وغيرهم من أساتذة التاريخ العام والفلسفة ؟

خامسا ـ (ا) الآداب الأجنبية الكبرى التى اتصلت بالأدب العربى كالأدب اليونانى والأدب الفارسى والأدب الهندى وكيف أثرت هذه الآداب المختلفة فى الأدب العربى

(ب) الآداب الأجنبية الكبرى الحديثة التى اتصلت بالأدب العربى فى العصر الحديث ، وذلك بالضرورة يشمل آداب اللغة الفرنسية والانجليزية والألمانية والايطالية والأمريكية والهندية والفارسية والتركية الحديثة

وفى هذه الفقرة يطلب أيضا صلة الأدب العربى بكبار الأدباء المحدثين من العرب وتأثيره فى أدبهم شعرا ونثرا ، وإذا كان الطالب فى السنة التوجيهية وفى هذه السن وعلى هذا المقدار من التحصيل فى اللغة العربية فى مرحلة الثقافة العامة يكلف دراسة هذه الكثرة من شعراء الأجانب وهذه الآداب الحديثة والقديمة للأمم المختلفة فى منهج تاريخ الأدب العربى ، فماذا يدرس المتخصصون فى هذه الناحية من الثقافة ؟ وماذا يصنع المتصدرون للزعامة الأدبية والذين يريدون أن يكونوا أئمة فى النقد والموازنة ؟ وما الذى تصنعه بعد ذلك كلية الآداب أو غيرها لتمام هذه الثقافة الشاذة ؟

وإنه ليحق لنا ولكل من يطلع على هذا الاقتراح الغريب أن يتساءل : هل منهاج الأدب العربى فى السنوات الأربع السابقة للسنة التوجيهية من التعليم الثانوى ـ وقد اشترك فى وضعه صاحب الاقتراح ـ يعد التلميذ لاحتمال هذه الدراسة ؟ وألا يكون التلميذ موجها توجيهاً صحيحا للدراسة العالية بغير هذا النوع المسرف من التحصيل لآداب الأمم المختلفة وتواريخ كتابها وشعرائها وفلاسفتها ؟ وهل التلميذ الأوربى فى هذه الدراسة الثانوية وفى تلك السن المتراوحة بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة يكلف فى

دراسته لآداب لغته أن يدرس معها الأدب العربى وتاريخ كتابه وشعرائه وغيرهم من علماء العرب وفلاسفة الاسلام على هذا النحو المقترح ؟ وهل يكلف فوق هذا دراسة آداب اللغات القديمة والحديثة للأمم الأجنبية من الفرس والهنود واليونان والرومان وغيرهم ؟

إننا نترك الاجابة على هذه الأسئلة لاشتمالها فى نفسها على أدلة شذوذها وبطلانها ، وهذا المنهج فى النهاية لا يتفق فى شىء مع المذكرة التفسيرية التى وضع على مقتضاها

سادسا — اقترح العميد حذف قواعد النحو والبلاغة بناء على أن ما أخذ منها فى السنوات الأربع يعد كافيا ، وهذه مناقضة صريحة لما ورد فى المنهاج المعدل ، فقد جاء فيه ما نصه : « وروعى فى القواعد أن يكون المنهج مكملا للتلاميذ ما لم يدرسوه فى مرحلة الثقافة العامة مما لا يليق بأمثالهم أن يجهلوه من قواعد النحو والبلاغة » . وذلك بالضرورة ملحوظ فيه أن تذوق الطالب لجمال الأدب وإدراكه لمواطن الحسن فى التشبيه والاستعارة والفصل والوصل والايجاز والاطناب متوقف على دراسة هذه البقية من القواعد . وإذن يعترف منهاج السنوات الأربع بأنه فى حاجة إلى تكملة القواعد فى السنة التوجيهية .

سابعا — حذف المنهاج المقترح حركة الترجمة والتأليف فى العصر العباسى ، وجاء فى المنهج المعدل بعد كلام فى توجيه قسط من العناية بالخطابة ما نصه :

« كما وجه قسط آخر لتدريس حركة الترجمة والتأليف فى العصر العباسى والعصر الحاضر لبيان سنن أسلافنا الأقدمين فى سلوك سبيل نحن مضطرون إلى سلوكها الآن فى نهضتنا العلمية وخاصة خريجى القسمين الرياضى والعلمى » ، وصاحب الاقتراح كان كما قدمنا عضواً بارزاً فى وضع منهج اللغة العربية لمرحلة الثقافة العامة وللسنة التوجيهية ، وفى موافقته على المنهاج المعدل اعتراف بأنه محقق للغرض من إنشاء هذه السنة التوجيهية ، بل هو قد شرع فعلا فى الاعداد لتنفيذه باختيار طائفة ممتازة من أساتذة المدارس الثانوية تلقى عليهم محاضرات فى الجامعة نترك الكلام الآن على حظها من النجاح أو الفشل . وقد بادرنا نحن من جاننا باعداد كل ما ينبغى لدرس هذا المنهاج على أكمل وجه وأتمه ، وتسارع أعضاء الجماعة من أساتذة دار العلوم وغيرهم من إخوانهم فكتبوا فى موضوعات هذا المنهاج ما طبع بعضه فى عدد كامل من صحيفتهم ولا يزال بعض هذه الموضوعات معدا للطبع ، ولا ندرى ما حفز الدكتور مع ذلك إلى هذا الاقتراح بعد ما ظهر له من استعداد أساتذة اللغة العربية من أبناء دار العلوم لمواجهة

هذا المنهاج والتغلب بسهولة على كل ماوضع فيه من شذوذ وتكلف . وهل لذلك علاقة بما جاء فى العبارة الختامية لكلام العميد فى اقتراحه الغريب وهى قوله : « وواضح أن هذا البرنامج قد يعجز أساتذة التعليم الثانوى عندنا كبقية المنهج الأدبى بالسنة التوجيهية » ثم يعلن ما أخفاه من نيته فى نصيحته بوجوب إصلاح برامج التعليم فى المعاهد التى تخرج أساتذة اللغة العربية بحيث يصبحون قادرين على تعليم هذا النحو من الأدب . فقد بان حينئذ ما حاول العميد أن يخفيه من نياته ، وظهر أن المسألة ليست وضع منهج ولا مصلحة تعليم ولا إعداداً للجامعة ولا لغيرها ، وإنما المسألة كلها دائرة حول أساتذة اللغة العربية فى المدارس الثانوية والتبرع الجرىء بتقدير صلاحيتهم لدراسة الأدب أو عدم صلاحيتهم ، والاستدراج من جراء ذلك إلى الوقوع فى هذا الشذوذ الذى لم يسبق له مثيل فى مناهج التعليم ولا نظير له فى مدارس العالم ، فاننا درسنا مناهج التعليم فى المدارس الثانوية الأوربية ، وأحطنا بما يتأهل به الشاب الأوربى فى هذه المرحلة الثانوية ، فما فى أمريكا ولا فى أوربا ولا فى أى بلد من بلدان الدنيا دراسة أدبية فى مدرسة ثانوية تشتمل على هذه الأشتات الملفقه من مؤرخين وفلاسفة ومتكلمين وعلماء وكتاب وشعراء للعالم القديم والحديث يدرسها طالب فى المنهج الأدبى للغته الخاصة . ولا ندرى كيف ساغ لصاحب هذا الاقتراح أن يعرض مصلحة التعليم فى البلاد — وهو الأساس الذى تبنى عليه حضارة الشعب وبه يقوم كيانه الاجتماعى — لمثل هذه الأغراض التى لا تخرج عن الرغبة الجائرة فى اغتصاب ما لأساتذة اللغة العربية من الملكات المكتسبه بطول المرانة والتجربة والاستفادة الحقة من حسن الاعداد المعهدى للتوفر على دراسة اللغه العربية وآدابها وحمل أمانتها والاضطلاع بحمايتها والدفاع عنها والاجتهاد فى تزويدها بكل ما يساير الحضارة فى هذا العصر الزاهر ، والتعدى على اختصاص وزارة المعارف فى الاشراف الكامل على هذه السنة التوجيهية التى هى جزء متمم لمرحلة الثقافة العامة فى الدراسة الثانوية ، لبصل من وراء ذلك إلى غرضه .

وتقبلوا فائق احترامنا وعظيم إجلالنا .

أثر علم الكلام الإسلامى
فى الأدب

بقلم محمد موسى عفيفى
المدرس الأول بالمدرسة الابراهيمية الثانوية

مقدمات :

— ١ —

درج الناس منذ فطرهم الله تعالى على تأثر ماشُرع لهم من شرائع يناقشون أصولها ، ويعللون أحكامها : يتدبرون معانيها ، ويتفهمون مراميها ، ويؤولون متشابهها ، ويفسرون عويصها ؛ ويستخلصون لأنفسهم من هذه الأصول فروعا ليست سواء عندهم جميعا ، لأنهم فيما يستنبطون يستند بعضهم إلى ما هدتهم إليه عقولهم من الأخذ بظاهر نصوص الأصل ، وبعضهم لا يقنعون بذلك ويأبون إلا أن يمعنوا فى التأويل والتخريج والتوجيه لمجرد شبهة عرضت لهم ، ولذلك اختلف أرباب الأديان التى سبقت الإسلام : كاليهود والنصارى وغيرهم فى تفهم الأصول وما تلد من فروع ، وجادل بعضهم بعضا جدالا عنيفا جر إلى افتراقهم فرقا عدة ، ولم يكن حظ الإسلام ـ الذى جاء بتوحيد الله تعالى فى ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين ، وأقام الأدلة على أن للكون خالقاً واحداً متصفاً بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية : كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها ، وعلى أنه لا يشبهه أحد أو شىء من خلقه ، وأن لا نسبة بينه وبينهم إلا أنه موجدهم ، وأنهم إليه راجعون « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا أحد » ـ لم يكن حظ الإسلام بأحسن من حظ الأديان التى سبقته . فافترق المسلمون ، واختلفوا فى تفهم أصول دينهم ، أو العقائد التى قام عليها علم الكلام ، وفيما يلى بيان العوامل التى كانت سبباً فى هذا الاختلاف

— ٢ —

خفقت بنود الإسلام على عُظم ما كان معروفاً من الأرض : كفارس والعراق وسورية وفلسطين ومصر والمغرب والأندلس وغيرها من ممالك الأرض كجذر البحر المتوسط ، ومن سكان هذه الأقاليم النصارى ، واليهود ، والصابئة ، والمجوس ، وهم مختلفون جميعاً فى عقائدهم ، فسرت تعاليمهم بحكم المخالطة والمجاورة إلى نفوس المسلمين ، التى تأثرت بها إلى حد ما ؛ ودخل كثير من هؤلاء فى الإسلام ؛ لا لأنه أبيض الوجه ، ولا لأنه أكمل للإنسان سعادته بما منحه من استقلال الإرادة ، واستقلال الفكر والرأى ، وقد كان حرمهما زمناً طويلا ؛ بل ليكيدوا له كيداً ، انتقاما لدولهم الدائلة ، وأديانهم الزائلة ، فدسوا فيه من الأساطير والأحاديث المفتراة . ومما أرادوا به تشويهه ، ما لعله يفتح السبل لأقوالهم فتنفذ إلى العقول .

ووردت فى القرآن الكريم والسنة الشريفة آى وأحاديث ، يوهم ظاهرها غير ما فسرها به السلف الصالح ، فأخذ ذوو الأغراض والأهواء يتمسكون بظاهرها ، ويجادلون فيها ليذكوا نار الفتنة التى يعملون لها جاهدين ، لعلهم يطفئون النار التى تأجج فى صدورهم ، وتأكل قلوبهم .

وانتشر القصاص فى المدن الإسلامية بالمجالس والمساجد منذ فجر الإسلام - ومنهم من كان يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً أو صابئياً - وتناولوا الكلام فى بعض حوادث وقتهم ، ومعرفة حكمها من الدين ، ولم يتورع أكثرهم عن ذكر الخرافات ، وسوق الأساطير التى تكسب قصصهم روعة وقبولا ، ففتح بذلك باب دخل منه على الحديث الشريف كذب ، واسودّ به وجه التاريخ ؛ لما اندس فيه من حوادث زائفة ، كان لها أثر سيء فى عقيدة المسلمين .

وشيء آخر يضاف إلى ما سبق ، هو الخوض فى الغيبيات التى كانت وما زالت مزالق للباحثين ، مع أن العقل الإنسانى لن يستطيع أن يصل إلى كنهها بالغاً ما بلغ من الحصافة والنشاط .

هذه العوامل - التى ذكرنا وغيرها مما لم نذكر اختصارا - هيأت العقول للجدل

والكلام فى المسائل الدينية والسياسية ، فثارت ريح الخلاف لاختلاف وجهات النظر وتباين الأغراض والمرامى ، وتشعب الآراء فى الحوادث إبان الصدر الأول ، وتمخضت عن نشوء فرق إسلامية مختلفة ، خاضت ميادين الكلام ، وأذكت ناره : ففرقة إسلامية تجادل أخرى إسلامية ، وفرق إسلامية تجادل الدهريين واليهود والنصارى ، وغيرهم ممن قذفوا الإسلام بشبههم ، وغضوا من جلاله كيدا ، وما زالت هذه الفرق تنمو ويشتق بعضها من بعض على الأيام للخلاف الذى يقع بينها حتى كثرت ، وأغرق بعضها إغراقا ضل به سواء السبيل .

— ٣ —

بعض الفرق الإسلامية المشهورة :

ومن أشهر الفرق الإسلامية القدرية الذين يقولون : « لاقدر والأمر أنُف » وبجمل ما يذهبون اليه :

أولا : إنكار قدَر الله تعالى الذى صرحت به الآى الكريمة ، وجاءت به الأحاديث الشريفة ، كقوله (صلى الله عليه وسلم) : « لا يؤمن أحدكم حتى يؤمن بالقدر خيره وشره ، وحتى يعلمَ أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه » وقوله (صلى الله عليه وسلم) : « إن الله تعالى يبعث ملكا بعد خلق الجسد وقبل نفخ الروح فيه ، فيكتب أجله ورزقه وعمله . وشقى أو سعيد » (١)

ثانيا : إن الله تعالى غير خالق لأكساب الناس ، وليس له (عز وجل) فيها صنع ولا تقدير ، وأن الإنسان حر الإرادة ، وله قدرة على كسب أفعاله ، وهو على خيرها يثاب ، وعلى شرها يعاقب .

ثالثاً : نفى صفات الله : من العلم ، والقدرة ، والإرادة ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، التى وردت بها الآى الكريمة ، مستندين فى ذلك النفى إلى أن اتصافه تعالى بهذه الصفات يدل على شبهه بالمخلوقين ، وهو مستحيل عليه .

رابعاً : خلق القرآن نتيجة لنفى صفة الكلام عنه تعالى .

ويروى مؤرخو الفرق : أن أول من أنكر القدر وقال بما بنى عليه ، معبد

(١) الإيمان لابن تيمية ص ١٥٦

ابن خالد الجهنى (١) . أخذه عن رجل كان نصرانياً (٢) أو مجوسياً (٣) وأسلم يقال له سيسويه (٤) كان يسكن البصرة ، وعن الرجل عينه أخذ غيلان الدمشقى الذى كان أبوه مولى لعثمان بن عفان ، وعن هذين - وكانا خطيبين مُفَوَّهين - أخذ الناس ، فسال سيل القول بالقدر على المعنى السابق فى العراق والشام . فأما معبد فقتله الحجاج صبراً أواخر سنة ٨٣ هـ لخروجه مع ابن الأشعث (٥) وأما غيلان فقتله هشام بن عبد الملك فى خلافته ١٠٥ هـ - ١٢٥ هـ لأسرافه فى القول بالقدر ، وتسميعه بحكومة بنى أمية ، ولم يكن حظ أولياء معبد وغيلان بأحسن من حظهما ، ولا سيما فى خلافة هشام .

الجبرية أو الجهمية :

ومن الفرق الإسلامية التى كانت من مولود العوامل السابقة : الجبرية أو الجهمية ، أو المعطلة ، أو القدرية أيضاً ، ومجمل ماذهب إليه هؤلاء الجبريون :

أولا : إن الإنسان لا قدرة له على شىء ولا اختيار ولا كسب له ، وإنما هو مجبور على أفعال قدرها الله تعالى عليه ولا بد أن تصدر منه .

ثانياً : إن الله تعالى يخلق الأفعال فى الإنسان خلقاً فلا تنسب إليه إلا مجازاً ،

---

(١) المعارف لابن قتيبة ص ١٩٥ ، وسرح العيون لابن نباتة ص ٥١ هامش الغيث المسجم

(٢) سرح العيون الصفحة عينها ، والإيمان لابن تيمية ص ١٥٦

(٣ ، ٤) الإيمان لابن تيمية ص ١٥٦

(٥) عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندى ندبه الحجاج لقتال « رتبيل » ملك الترك ، فلما غزا سنة وغنم مغانم كثيرة رأى أن يتدرج فى الفتح لئلا يهلك جنوده ، فلم يصادف ما رأى هوى فى نفس الحجاج ، وأمره بالإمعان فى بلاد العدو ، فعرض عبد الرحمن الأمر على معاونيه وجنوده ، فرأوا رأيه ، وخلعوا طاعة الحجاج وعبد الملك بن مروان ، ثم زحف ابن الأشعث بجنوده نحو العراق لقتال الحجاج ، فلما التقى الجمعان تغلب الحجاج على خصمه وهزمه وجنوده « جمهرة خطب العرب للا ستاذ أحمد زكى صفوت »

كما تنسب إلى الجماد ، فكما يقال : طلعت الشمس مثلا بدون أن تكون فاعلة للطلوع، يقال : سافر فلان أو حارب ، بدون أن يكون فاعلا حقيقياً للسفر أو الحرب.

ثالثاً : نفوا صفات الله تعالى التى وردت بها الآى الكريمة ، كما فعل القدرية ، فراراً من تشبيهه تعالى بالمخلوق ، وقالوا : يجب ألا يؤخذ ماورد من الآيات على ظاهره بل لا بد من تأويله .

وزعيم هذه الطائفة وأسبق الناس قولا بالجبر : جهم بن صفوان الخراسانى ، مولى بنى راسب ، وكان خطيباً خلاباً ذا بيان وفصاحة ، ظهرت بدعته فى ترمذ (١) وتبعه خلق كثير ، ثم قتله سالم بن أحوز المازنى بمرو (٢) سنة ١٢٨ هـ لخروجه مع الحارث بن سريج على نصر بن سيار والى خراسان من قبل مروان بن محمد ، آخر خلفاء بنى أمية فى المشرق (٣)

— ٤ —

متى همس الناس بالقدر ؟

تكلم الناس فى القدر فى حياة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما بينا آنفاً من دخول كثيرين من أهل الأديان والنحل فى الإسلام ، وتسرب طائفة من آرائهم إلى المسلمين ، ولما ورد فى القرآن الكريم من آى يوهم بعضها أن الإنسان مجبور على أعماله لاحرية له ولا إرادة ، كقوله تعالى : « والله خلقكم وما تعملون » ، وقوله تعالى : « قل كل من عند الله » ، وقوله عز وجل : « ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم ، إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون » ، ولما

---

(١) مدينة على نهر جيحون من الجانب الشرقى ، وهى بكسر التاء والميم ، وبفتح التاء وكسر الميم ، وبضم التاء والميم ، وفيها لغات أخرى (معجم البلدان لياقوت ، والقاموس المحيط)

(٢) قاعدة بلاد خراسان قديما على نهر مرغاب ، فتحها الأحنف بن قيس فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وفيها بويع بالخلافة المامون العباسى سنة ١٩٨ هـ

(٣) أخذ جهم القول الذى نسب إليه عن الجعد بن درهم الآتى ذكره .

ورد من آى أخرى يوهم ظاهرها أن للإنسان اختياراً وكسباً كقوله تعالى: «إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً»، وقوله تعالى: «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر»، ولذلك عرض (صلى الله عليه وسلم) للقدر وقال: «إذا ذكر القدر فأمسكوا»، وقال: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر ...»، إلى آخر الحديث السابق ولم ينكر القدر فى زمانه (صلى الله عليه وسلم) منكر، وإنما تنطع الناس فى فهمه وحملوا ما يرتكبون من آثام عليه قائلين قدر الله وقضاؤه ساقانا، ولذلك قال عليه السلام: «القدرية مجوس هذه الأمة»، وعنى بذلك الذين يتعللون بالقدر ويحملون ما يقارفون من موبق عليه، وكذلك لم ينكر القدر فى عهد الخلفاء الراشدين منكر [1] وإنما تعلل الناس به وأكثروا من الكلام فيه، فدافعهم عمر بصرامته. وعلى ببلاغته، ورد عليهم جمع من الصحابة: كعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، والحسن بن على، وواثلة بن الأسقع [2]. وما زالت نار الجدل تستعر بين بقية الصحابة والتابعين. وبين هؤلاء وأشباههم، إلى أن ظهر منكرو القدر والقائلون بالجبر الذين ألمعنا اليهم سابقا فى خلافة بنى أمية، فناظرهم بعض الخلفاء والعلماء: كعمر بن عبد العزيز، والأوزاعى [3]، وميمون بن مهران [4] وأخذهم بعض الخلفاء والأمراء بذنوبهم كهشام بن عبد الملك والحجاج وسالم ابن أحوز؛ وكان قتل معظم من قتل من القدرية والجبرية قتلا سياسيا لأنهم كما شذوا فى المقالات الدينية شذوا فى الآراء السياسية، وبعد هشام كان من خلفاء بنى أمية الضعيف المتهافت على اللذات ومنهم من يرى القدر، كيزيد بن الوليد ابن عبد الملك بن مروان الملقب بالناقص الذى كان من دعاته عمرو بن عبيد الآتى ذكره، ومروان بن محمد الملقب بالجعدى نسبة إلى الجعد بن درهم أستاذه

(١) الإيمان لابن تيمية ص ١٥٦

(٢) المصدر عينه

(٣) سرح العيون ص ٥٢ هامش الغيث المسجم للصفدى

(٤) كان من عمال عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١ هـ ثم عمل لهشام ابن عبد الملك المتوفى سنة ١٢٥ هـ

فى القول بالقدر [١] فتحركت الألسنة بإنكار القدر ، وشاع فى الناس حتى أصبح أصلا من أصول مذهب المعتزلة الذى ذر قرنه فى أواخر هذا العصر أيضاً وهضم مذهب القدرية أو كانه ، وناهض مذهب الجبرية فى أطراف الأرض ويستنبط مما تقدم نتائج :

الأولى : إن منكرى القدر والقائلين بالجبر أو المعطلة ، وهم جهم وأتباعه ، ظهروا فى عصر بنى أمية .

الثانية : إن حركتهم نوهضت بالمناظرة ثم بقتل زعمائهم قتلا سببه سوء المقالة وسوء الرأى السياسى ، وإن معظم دعاة المذهبين من أولاد الموالى والسبايا ، وهذا يؤيد ما ذكرنا آنفا من أن مما هيأ السبيل للقول فى القدر تسرب آراء الداخلين فى الإسلام إلى أذهان المسلمين .

الثالثة : إن سيل القدر سال فى العراق وهى أصله ، ثم سال فى الشام وسال قليل منه فى الحجاز [٢] ، وإن مذهب الجبرية نشأ فى الكوفة بالعراق ، ثم جرى

---

(١) فى صفحة ٥٥ من سرح العيون لابن نباتة هامش الغيث المسجم مايأتى : (أما الجعد فهو ابن درهم مولى بنى الحكم ، وكان يسكن دمشق ويعلم مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية فنسب إليه وقيل مروان الجعدى ، والجعد أول من تكلم بخلق القرآن من أمة محمد بدمشق ، ثم طلب فهرب ، ثم نزل الكوفة فتعلم منه الجهم بن صفوان القول الذى نسب إليه الجهمية ، وقيل إن الجعد أخذ ذلك عن أبان بن سمعان ، وأخذه أبان من طالوت بن أعصم اليهودى ، وكان طالوت زنديقا يقول بخلق القرآن ، وهو أول من صنف فى الزندقة ، فأظهر الجعد مصنفاته ، فقتله خالد بن عبدالله القسرى يوم الأضحى بالكوفة . قال ابن نباتة : قال خالد بعد أن صلى فى آخر خطبته : (انصرفوا وضحوا بضحايا كم يقبل الله منا ومنكم ، فإنى أريد اليوم أن أضحى بالجعد بن درهم فإنه يقول : ما كلم الله موسى تكليما ، ولا اتخذ الله إبراهيم خليلا . تعالى الله عما يقول علواً كبيراً ، ثم نزل وحز رأسه بالسكين بيده) وكان خالد بن عبد الله عاملا لهشام بن عبد الملك على العراقين بعد ابن هبيرة

(٢) يقول ابن تيمية : « ويقال أول ماحدث — يعنى القدر — فى الحجاز لما احترقت الكعبة ، فقال رجل : احترقت بقدر الله تعالى ، فقال آخر : لم يقدر الله هذا » الإيمان صفحة ١٥٦

نهره فى خراسان بانتقال جهم إليها بعد أن وقفه الجعد على أصول المذهب فى الكوفة .

الرابعة : إن مذهبي القدرية والجبرية التقيا فى القول بنفي صفات الله و فى القول بخلق القرآن .

— ٥ —

المعتزلة :

ومن أعظم الفرق الإسلامية التى ورّثت عقلية المسلمين أثراً واضحا ، المعتزلة أو أهل العدل والتوحيد ، ويسمون القدرية لقولهم فى القدر مقال أصحاب معبد ، والجبرية لأنهم وافقوا أصحاب جهم فى القول بنفى صفات الله تعالى وخلق القرآن ، ومجمل ما ذهب إليه المعتزلة أصول خمسة تعتبر أصل مذهبهم ، ثم استقل كثير من زعمائهم بتعاليم عرف بها وعزيت إليه ، أما التعاليم الأولى فهى :

أولا : التوحيد ، ومعناه إنكار أن يكون لله تعالى صفات قديمة : كالعلم ، والقدرة ، والحياة بحجة أنها لو كانت قديمة للزم تعدد القديم ، وإنكار أن يكون لله تعالى صفات السمع والبصر والكلام لأنها من عوارض الأجسام .

ثانياً : القول بالمنزلة بين المنزلتين فى أمر مرتكب الكبيرة ؛ أى أنه ليس كافراً ، لأن الشهادة وسائر أعمال الخير فيه ؛ وليس مؤمنا ، لأن الإيمان خصال خير إذا اجتمعت سمى المرء مؤمناً ، وهى لم تجتمع لمرتكب الكبيرة بارتكابها ، وإذا لم يكن مؤمناً ولا كافراً فهو بينهما ، أى فاسق مستحق للنار بما فسق .

ثالثاً : العدل أو القول بإنكار القدر ، ومعناه أن الله تعالى لا يحب الفساد ، ولا يريد الشر ، وأن أفعال الإنسان من خير أو شر من كسبه هو لا من صنع الله وتقديره ، ولذلك يعاقب الكاسب على أفعال الشر ، ويثاب على أفعال الخير ، ولما كان الله تعالى لا يريد بالإنسان شراً كان عادلا .

رابعاً : الوعد والوعيد ، ومعناهما أن الله تعالى لا يغفر لمرتكب الكبائر إلا بالتوبة ، فإذا مات قبلها فهو مخلد فى النار ، وأنه عز وجل يثيب المؤمن إذا فارق الدنيا على طاعته واستقامته

خامسا : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومعناهما أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبان على سائر المؤمنين ، كل على حسب استطاعته ولو أدى ذلك إلى سَلّ السيوف من أغمادها . وأشهر رجال هذه الفرقة بل ذؤابتها ، واصل ابن عطاء المولود بمدينة الرسول (صلى الله عليه وسلم) سنة ٨٠ هـ ، وكان يختلف إلى مجلس الحسن البصرى مقرر مذهب الجماعة فى مسجد البصرة ويأخذ عنه ، ثم خالفه فى أمر مرتكب الكبيرة ، وقد كان الخوارج[1] يرون أنه كافر ، والجماعة يرون أنه مؤمن فاسق ، وصرح واصل فى مجلس الحسن بأنه بَيْنَ بين كما تقدم ، فنحاه الحسن عن مجلسه ، أو هو الذى اعتزل مجلس الحسن لما رأى من الكراهة فى وجهه ، واتخذ له مكانا آخر فى المسجد مع فريق من زملائه الآخذين عن الحسن أولا ؛ فسموا المعتزلة لذلك ، ولأسباب أخرى يذكرها مؤرخو الفرق ، ثم أطلق هذا الاسم على كل من سار فى محيط الأصول الخمسة ، وعلى كل من وافقهم فى أصل وبنى عليه على حسب اجتهاده فروعاً أو أضاف إليه أصولا من عنده ، وسميت الفرق المشتقة بأسماء زعمائها ونسبت إليهم[2]

وتبع واصلا فى مذهبه عمرو بن عبيد الذى ألمعنا فى كلامنا آنفاً إلى أنه كان من دعاة يزيد الناقص ، وكان واصل مشهوراً بالفضل والبيان ، وعمرو مشهوراً بالزهد والورع ، أحبه الخليفة أبو جعفر المنصور وعرض عليه الجليل من

---

(١) الخوارج أو الشراة هم الذين ألحوا على على (عليه السلام) فى حرب صفين « على نهر الفرات شرقى حلب » أن يخضع لما طلبه معاوية من وقف القتال بعد أن رفع رجاله المصاحف على رءوس الرماح ، فلما اجتمع الحكمان وغدر عمرو بن العاص بأبى موسى الأشعرى ، عاد هؤلاء الذين أرغموه أولا على الرضا بوقف الحرب والتحكيم يطلبون إليه أن يستغفر ذنبه لأنه حكم الرجال ، وتوعدوه إن لم يتب أن يخرجوا عليه ، فلما أبى حققوا ما توعدوا ، فسموا الخوارج لذلك ولأسباب أخرى ادعوها : اقرأ تاريخهم وأدبهم فى كتب الفرق والتاريخ

(٢) كالهذيلية بعد الواصلية ، وكالنظامية ، والمعمرية ، والبشرية ، والثمامية ، والجاحظية ، والخياطية ، والجبائية ، وغيرها .

الأعمال فرغب عنها زهداً ، ورثاه لما مات بأبيات تدل على عظمة المرثى ووفاء الراثى.

وكلا الرجلين ، واصل وعمرو من أبناء الموالى ، ولد الأول بمدينة رسول الله سنة ٨٠ هـ وتوفى فى مستهل الثلث الثانى من المائة الثانية ، وتوفى الثانى سنة ١٤٤ هـ ، وجده رباب كان مولى لبنى تميم ، وكان لكليهما تلاميذ وأولياء مقدمون نهجوا نهجهما ، وآخرون زادوا عليهما بما درسوا من فلسفة اليونان ومنطقهم بعد ترجمة الكتب فى فجر العصر العباسى الأول ، ليفلوا الحديد بالحديد ، إذ كان قد دخل فى الإسلام أناس لم يعرفوا منه غير اسمه ، من أبناء النصارى واليهود والمجوس والدهريين ، درسوا الفلسفة والمنطق ، وأثاروا فى الإسلام جدلا حول مسائل كانت تثار فى أديانهم ، وكان هناك غيرهم ممن لم يسلموا أكثر منهم إذاعة لمقالات السوء ، وكان من الملاحدة والزنادقة الكثيرين الذين يظهرون الإسلام خوفاً واستدراراً للرزق ويبطنون الكيد له والزراية به - كمطيع بن إياس ، وحماد الراوية . وصالح بن عبد القدوس ، وعبد الله بن المقفع - من يقول بالتناسخ ويترجم كتباً فى الإلحاد ، وكان هناك الجبرية أهل التعطيل ، وأهل الحديث الذين يجدون على المعتزلة ، وينقضون أسس مذهبهم ، وكان هنالك غير هؤلاء من الحاقدين على المعتزلة والمخالفين استندوا إلى أسباب جعلوها ذرائع للطعن عليهم : كاشتغالهم بالفلسفة ، وكاحتمائهم بالخلفاء : المامون ، والمعتصم ، والواثق ؛ وكسلكهم طريق العنف فى معاملة خصومهم ، وإذاقتهم صنوف العذاب (١)

— ٦ —

قاوم المعتزلة هؤلاء جميعاً ، وتأثروا أهل البدع فى أطراف الأرض ، وكتبوا المقالات المستفيضة ، وزانوا المجالس بالمحاضرات ، وعمروا المساجد بالمناظرات ، وصادف تحديهم الملاحدة والزنادقة هوى فى نفس المهدى وابنه موسى الهادى اللذين نكلا بالزنادقة ومن نزع إليهم ، وصادف أن حبا الخلفاء الثلاثةُ الذين ذكرنا أنفا المعتزلةَ بعطفهم ، وفسحوا لهم فى مجالسهم ، ومكنوهم من خصومهم

(١) راجع صفحات ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ من محاضرات الدولة العباسية « للخضرى بك »

فظهرت بذلك كله أول نواة من أنواء علم الكلام الذى يعتبر ثمرة من ثمار جدلهم ، وتجردوا لوضع مسائله وتوضيحها ، ثم أخذ كل فريق من المشتغلين بالنقاش فيه ينحو به منحى ميوله واعتقاده ، إلى أن أصبح ثابت البنيان ، راسخ الدعائم ، على يدى زعيم أهل السنة والجماعة أبى الحسن الأشعرى بعد أن جرد نفسه من ثوب الاعتزال كما سيجىء .

ومن أشهر علماء المعتزلة غير واصل وعمرو بن عبيد ، عثمان بن خالد الطويل أستاذ أبى الهذيل العلاف ، وحفص بن سالم ، والحسن بن ذكوان ، وخالد بن صفوان ، وإبراهيم المدنى ، ومن هؤلاء من عاش فى الدولتين الأموية والعباسية ثم أبو الهذيل العلاف ، وأبو بكر الأصم ، ومعمر بن عباد ، وإبراهيم بن سيار النظام ، والجاحظ ، وأبو يعقوب الشحام ، وبشر بن المعتمر ، وثمامة بن أشرس ومعظم هؤلاء درسوا الفلسفة والمنطق فى العصر العباسى الأول ، وكان لكثير منهم تعاليم خاصة وتلاميذ وأولياء .

ومن مشهوريهم أيضاً موسى بن عمران ، وأحمد بن حائط ، وأحمد بن أيوب بن مانوس ، وعيسى بن صبيح المكنى بأبى موسى المزداد ، وأبو الحسين الخياط ، وأحمد بن أبى دؤاد القاضى ، وأبو على الجبائى شيخ الأشعرى

وقد كان المعتزلة مجدودين فى عهد خلفاء بنى العباس الأوالى إلى زمن جعفر المتوكل الذى رفع المحنة

— ٧ —

الأشاعرة :

ومن الفرق الإسلامية العظيمة التى رعت علم الكلام فى مهده وأعلت بناءه وفصلت مسائله : الأشاعرة أو أهل السنة والجماعة ، وزعيمهم وواضع مذهبهم شيخ المتكلمين وذؤابتهم غير منازع أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى المولود بالبصرة سنة ٢٦٠ هـ والمتوفى سنة ٣٢٤ هـ . وكان أول أمره تلميذاً لأبى على الجبائى من شيوخ المعتزلة المتوفى سنة ٣٠٣ هـ لأنه ختنه ، ثم خلع عن

نفسه ثوب الاعتزال بعد أن هداه البحث فى السنة ومذاهب المتكلمين إلى أن يسلك طريقاً وسطاً معقولا بين المذاهب المختلفه التى كثر فى بعضها التنطع ؛ وألف الكتب فى الرد على المعتزله الذين ينفون صفات الله ، وعلى الجهمية المعطلين وشركاء المعتزلة فى نفى الصفات ، وعلى مشبهة الذات الذين أمعنوا فى التشبيه حتى اعتقدوا العين واليد ، ومشبهة الصفات الذين أسرفوا فأثبتوا الجهة والصوت — تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً — وعلى غير هؤلاء من أهل البدع والضلالات التى كانت فاشيه فى عصره ؛ ونصب له هؤلاء جميعاً ولا سيما المعتزلة — لأنه فى الأصل منهم — فقمعهم بالحجة وقطعهم بالبرهان وأخلق جدة مذهبهم فتبعه جماعة منهم ، وقرأ كتبه المحدِّثون والفقهاء من أهل السنة وأخذوا بما فيها واعتبروه إماما حتى نسب مذهبهم إليه ، وتبعه سواهم ، ومازال مذهب الأشعرى يغزو المذاهب الأخرى فيهزمها مذهبا إثر مذهب حتى ساد وطبق معظم الآفاق ، وعليه جمهرة المسلمين إلى هذا الوقت .

ومن أشهر رجال هذا المذهب القاضى أبو بكر الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ، والأستاذ أبو بكر بن فُورَك المتوفى سنة ٤٠٦ هـ ، وأبو الحسن البصرى الأشعرى النعيْمى الأديب المتوفى سنة ٤٢٣هـ ، وإمام الحرمين أبو المعالى المتوفى سنة ٤٧٨ هـ ، وأبو القاسم القشيرى المتكلم المتصوف السنى المتوفى سنة ٤٦٥هـ ، والشيخ عبد القاهر الجرجانى المتكلم السنى النحوى الأديب المتوفى سنة ٤٧٤ هـ ، وأبو الفتح الشهرستانى المتوفى سنة ٥٤٨ هـ ، والغزالى أبو حامد المتوفى سنة ٥٣٥ هـ ، والفخر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ ، وقبل أولئك جميعا القفال الشاشى الكبير الأديب المتوفى سنة ٣٦٥ هـ ، راجع طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكى » .

— ٨ —

علم الكلام ماهو ؟ :

هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الدينية بالأدلة العقلية ، والردّ على المبتدعة المنحرفين عن مذهب السلف وأهل السنة فى الاعتقاد[1] ، ويسمى علم التوحيد

(١) مقدمة ابن خلدون

لأن من أمهات مسائله إثبات الوحدة لله تعالى فى ذاته ، وفعله ، وخلقه الأكوان . ويتضمن أيضا البحث عن وجود الله تعالى وما يجب له من صفات وما يجوز أن يوصف به وما يجب أن ينفى عنه ، وما يجب للرسل عليهم السلام من صفات ، وما يجوز أن يوصفوا به وما يجب أن ينفى عنهم ، والغرض من هذا العلم القيام بفرض مجمع عليه ، وهو معرفة الله تعالى بصفاته الواجب ثبوتها ، مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به ، والتصديق برسله تصديقا تطمئن به النفس ، استناداً إلى الدليل على وفق ما أرشد إليه الكتاب الكريم الذى أمرنا باستخدام النظر الفاحص ، واستخدام العقل فيما بين ظهرانينا من ظواهر الكون .

وكما يسمى هذا العلم علم الكلام وعلم التوحيد ، يسمى الفقه الأكبر[١] وأصول الدين ، لأن الأصول - وهي معرفة الله تعالى بوحدانيته وصفاته ، ومعرفة الرسل بآياتهم ، ومعرفة كل مسألة يتعين فيها الحق بين المتخاصمين - موضوع علم الكلام عند المتكلمين ، وقد عده الفارابى من العلوم العملية [٢] وعده ابن سينا من العلوم النظرية [٣] وإنما سمى علم الكلام لأن أشهر مسألة استحر فيها الجدل بين العلماء الأوالى كانت مسألة كلام الله تعالى : أحادث هو أم قديم ؟ أو لأن مبنى هذا العلم الدليل العقلى الذى يظهر أثره فى كلام كل متكلم ، أو لأنه فى الكشف عن طرق الاستدلال على أصول الدين يشبه المنطق فى كشفه عن طرق الحجة .

---

(١) سماه بذلك أبو حنيفة

(٢) إحصاء العلوم للفارابى

(٣) منطق المشرقين لابن سينا . ويفرقون بين العلوم العملية والنظرية بأن الأولى لاترمى إلى حصول الاعتقاد اليقينى بالموجودات ، وإنما المقصود منها الحصول على أمر صحيح فى شأن يحدث بكسب الإنسان ليفيد منه الخير ؛ وأن الثانية ترمى إلى الاعتقاد اليقينى بحال الموجودات التى لايتعلق وجودها بفعل الإنسان ، والغرض منها حصول رأى فقط .

— ٩ —

أثر علم الكلام فى الأدب بمعنييه العام والخاص :

إذا استقرينا طبقات المتكلمين على اختلاف مذاهبهم وجدنا جمهرتهم من فحول البلاغة وأساطين الأدب وملوك الكلام ، لأن صناعتهم صناعة جدل ومحاجة ؛ قوامها قوة البيان ، وأداتها ذلاقة اللسان وإقامة البرهان ؛ ووجدنا أكثرهم بعد ترجمة الكتب فى أوائل العصر العباسى درسوا الفلسفة والمنطق ليجمعوا إلى الثقافة الإسلامية البحت ثقافة جديدة اقتضتها الضرورة ، إذ كان معظم خصوم الإسلام على نحو ما وصفنا فى عدة مواضع سابقة . ولذلك لم يكن غريباً أن نرى القاضى أبا بكر الباقلانى المتكلم السنى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ يفترض فيمن يقرأ كتابه « إعجاز القرآن » أن يكون بالأدب عارفاً وبمسائله محيطا ، فيقول : « ولسنا نزعم أنه يمكننا أن نبين مارمنا بيانه وأردنا شرحه وتفصيله لمن كان عن معرفة الأدب ذاهباً ، وعن وجه اللسان غافلا ، لأن ذلك مما لا سبيل إليه إلا أن يكون الناظر فيما نعرض عليه مما قصدنا إليه من أهل صناعة العربية قد وقف على جمل من محاسن الكلام ومتصرفاته ومذاهبه ألخ »

(١) أثر المتكلمين فى الإبانة عن معنى البلاغة والأدب :

قال الجاحظ فى البيان والتبيين صفحة ٦٣ جزء أول طبع مطبعة الفتوح : « قيل لعمرو بن عبيد : ما البلاغة ؟ فقال : ما بلغ بك الجنة ، وعدل بك عن النار ؛ وما بصرك مواقع رشدك وعواقب غيك . قال السائل : ليس هذا أريد ! قال عمرو : من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع ، ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول . قال السائل : ليس هذا أريد . قال عمرو بعد حوار : فكأنك إنما تريد تحبير اللفظ فى حسن الإفهام : قال السائل : نعم . قال عمرو : إنك إن أردت تقرير حجة الله فى عقول المتكلمين ، وتخفيف المئونة على المستمعين ، وتزيين تلك المعانى فى قلوب المريدين ، بالألفاظ المستحسنة فى الآذان ، المقبولة عند الأذهان ، رغبة فى سرعة استجابتهم ونفى الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة

على الكتاب والسنة كنت قدأوتيت فصل الخطاب ، واستوجبت على الله جزيل الثواب . وقد شرح عمرو فى هذا الجواب ما كان يعنى به المتكلمون من تحبير اللفظ وحسن إفهام ، ومن بحث طرق ذلك ، ولم تكن هذه الطرق إلا البلاغة

وكما يحدثنا الجاحظ عن شرح ابن عبيد لمعنى البلاغة ، يحدثنا فى صفحة ٧٥ وما بعدها من الجزء عينه فيقول : إن بشر بن المعتمر أحد علماء المعتزلة ، مر بإبراهيم ابن جبلة السكونى الخطيب وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليفيد أو ليكون رجلا من النظارة ، ولكن بشرا قال مخاطباً الفتيان : « اضربوا عما قال صفحاً ، واطووا عنه كشحا » ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه وكان ذلك أول الكلام :

« خذ من نفسك ساعة نشاطك ، وفراغ بالك ، وإجابتها إياك ، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهراً ، وأشرف حسباً ، وأحسن فى الاستماع ، وأحلى فى الصدور ، وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغرّة من لفظ شريف ومعنى بديع الخ »

قال الجاحظ : « قال بشر : فلما قرئت على إبراهيم قال لى : أنا أحوج إلى هذا من هؤلاء الفتيان » . اقرأ الصحيفة فى صفحات ٧٥، ٧٦، ٧٧ من البيان ، ومنها تعرف أن بشراً كان إلى ناحيته الكلامية أديباً عارفاً أسرار البلاغة ملماً بما يجب على الأديب من تخير اللفظ ، وتقريب المعنى من الأفهام ، ومن جعل الكلام مطابقاً لمقتضى الحال ، ومن اختيار الأوقات المستحبة إلى أشباه ذلك من القواعد والأصول التى لا يدركها إلا حذاق الأدب .

ويحدثنا الجاحظ أيضاً فى صفحة ٦١ من الجزء عينه واصفا أدب ثمامة بن أشرس المتكلم المعتزلى تعليقاً على وصف ثمامة لأدب جعفر بن يحيى البرمكى فيقول : « وهذه الصفات التى ذكرها ثمامة بن أشرس فوصف بها جعفر بن يحيى ، كان ثمامة قد انتظمها لنفسه ، واستولى عليها دون جميع أهل عصره . وما علمت أنه كان فى زمانه قروى ولا بلدى كان بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف ، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ـ ما كان بلغه ، وكان لفظه فى وزن

إشارته ، ومعناه فى طبقة لفظه ، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك . قال بعض الكتاب : معانى ثمامة الظاهرة فى ألفاظه الواضحة فى مخارج كلامه كما وصف الحُزَيْمِىُّ شعر نفسه فى مديح أبى دلف حيث يقول :

ولى كلم « فيك معقوله إزاء القلوب كركب وقوف »

أما وصف ثمامة لبلاغة جعفر فقوله فى صفحة ٥٨ من الجزء عينه : « كان جعفر بن يحيى أنطق الناس ؛ قد جمع الهدوء والتمهل ، والجزالة والحلاوة ، وإفهاماً يغنيه عن الإعادة ، ولو كان فى الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة ، لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة »

هذه الكلمات الأربع التى أوردنا لعمرو بن عبيد ، وبشر بن المعتمر ، وثمامة ابن أشرس ، والجاحظ ؛ تصور لك مبلغ إلمامهم بقواعد الأدب وأصوله ، وبأن البليغ عندهم كما هو عند الأصمعى « من طبّقَ المفصِلَ وأغناك عن المفسِّر »

(٢) آثار المتكلمين فى أصل اللغات

يحدثنا الإمام ابن تيمية المتوفى فى الربع الأول من القرن السابع فى كتابه « الإيمان » صفحة ٣٦ طبع مطبعة السعادة عن اللغات ، وهل هى توقيفية أو اصطلاحية ، فيثبت أن الكلام فى هذه المسألة أثاره المتكلمون قبل كل إنسان « وهذا القول لا نعرف أحداً من المسلمين قاله قبل أبى هاشم بن الجبائى » ثم يقول : « فتنازع أبو الحسن الأشعرى ، وأبو هاشم الجبائى فى مبدإ اللغات ، فقال أبو هاشم : هى اصطلاحية ، وقال الأشعرى : هى توقيفية ، ثم خاض الناس بعدهما فى هذه المسألة ، فقال آخرون : بعضها توقيفى وبعضها اصطلاحى ، وقال فريق رابع بالوقف »

وهذا يدل على أن المتكلمين عالجوا الأدب من أساسه الأول ، فقد درج علماؤه على أن يتناولوا بالبحث والتمحيص مسألة اللغات ونشأتها على نحو الحوار الذى كان بين الأشعرى وابن الجبائى .

(٣) أثر المتكلمين فى علم البلاغة ؛ المتكلمون واضعو هذا العلم :

جر الكلام فى إعجاز القرآن ومعنى الإيمان والإسلام والإحسان بين المتكلمين من المعتزلة وأهل السنة وغيرهم إلى الكلام فى البلاغة ومعنى الحقيقة والمجاز وما يدلان عليه ، وتقسيم الحقيقة إلى عرفية ولغوية وشرعية ، فكان المتكلمون بذلك أول الواضعين لعلم البلاغة ، وهذا ابن تيمية يحدثنا فى كتابه الإيمان صفحة ٣٤ وما بعدها : « فصل فى أن دلالة الإيمان على الأعمال حقيقة لا مجاز » فيقول : « فهذا التقسيم هو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة الأولى ، ولم يتكلم به أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ، ولا أحد من الأئمة المشهورين فى العلم : كمالك ، والثورى ، والأوزاعى ، وأبى حنيفة ، والشافعى ؛ بل ولا تكلم به أئمة اللغة والنحو : كالخليل ، وسيبويه ، وأبى عمرو بن العلاء ونحوهم . وأول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه ، ولكن لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة ، وإنما عنى بمجاز القرآن ما يُعَبَّرُ به عن الآية » ثم يقول بعد كلام قصير : « ولم يقل ذلك أحد من أهل اللغة ولا من سلف الأمة وعلمائها وإنما هذا اصطلاح حادث ، والغالب أنه كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين الخ »

وفى الحق أن ابن تيمية لم يلق القول على عواهنه وهو الثقة ، فإننا إذا عرضنا لواضعى هذا العلم ورافعى قواعده وجدناهم جميعاً من المتكلمين ، ومن بينهم عدد غير قليل ممن درسوا الفلسفة والمنطق ، وخلطوا مسائل البلاغة بمسائلهما ؛ فالجاحظ وهو من رءوس المتكلمين قد أشار إلى مسائل من علم المعانى فى كتابه « إعجاز القرآن » ، وقدامة بن جعفر الكاتب المتوفى سنة ٣١٠ هـ وضع ثلاثة عشر نوعا من البديع فى كتابه نقد الشعر الذى سماه « نقد قدامة » ، والإمام عبد القاهر الجرجانى المتكلم السنى المتوفى سنة ٤٧٤ هـ أول من خلص مسائلها المبعثرة ووضع كتابيه « دلائل الإعجاز » ، « وأسرار البلاغة » ، وهو فى الأول متكلم فيلسوف

يسوق الكلام على طريق أهل الجدل ، وفى الثانى أميل ما يكون إلى الأدب الصرف لانصرافه عن الكلام فى الإعجاز إلى اللهجة الأدبية البحتة التى تتمثل فى سوق الشواهد الكثيرة من فصيح الشعر والنثر وبيان ما فيها من أنواع البلاغة على النحو المعروف فى دروس البلاغة الآن .

وأبو القاسم محمود الزمخشرى المتكلم المعتزلى المتوفى سنة ٥٣٨هـ ألف تفسيره « الكشاف » ، وكشف فى أثناء كلامه عن كثير من قواعد البلاغة . وقال من كلام فى خطبة هذا الكتاب : « والواعظ وإن كان من الحسن البصرى أوعظ ، والنحوى وإن كان أنحى من سيبويه ، واللغوى وإن علمك اللغات بقوة لِحْيَيْهِ لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطريق ، ولا يغوص على شىء من تلك الحقائق ، إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن : وهما علم المعانى ، وعلم البيان ، وتمهَّل فى ارتيادهما آونة وتعب فى التنقير عنهما أزمنة الخ » .

وأبو يعقوب السكاكى المتكلم المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ألف كتابه « مفتاح العلوم » ومزج أساليبه بكثير من أساليب الفلسفة والمنطق لتمكنه منهما .

وعن هؤلاء الأئمة الذين وضعوا علوم البلاغة ثم جردوا مسائلها ، أخذ من جاءوا بعدهم ونحوا نحوهم

(٤) أثر المتكلمين فى لغة الأدب

انسابت طائفة غير قليلة من مصطلحات المتكلمين فى محيط الأدب العربى ، قد يكون أثرى بها من جهة أنها دالة على معان مقصودة لهم لم يجدوا ما يؤديها سواها ، وقد يكون وجه الأدب أربدَّ بها من جهة أخرى لأن معظمها دخيل على اللغة شق طريقه إليها من الفلسفة والمنطق : كالكم ، والكيف ، والأين ، والمتى ، والأزل ، والعرض ، والجوهر ، والحجة ، والبرهان ، والاعتقاد ، والحدوث ، والعدم ، والقطع ، والقمع ، والكسب ، والاختيار ، والجبر ، والتعطيل ، والشك ، واليقين ، والقضاء ، والقدر ، والعلة ، والمعلول ، والسبب ، والمسبب ، والأصول ، والفروع ، والحق ، والباطل ، والغلبة ، والخذلان ، والواجب ، والجائز ، والممكن ، والمستحيل ، والقدم ، والبقاء ، إلى أشباه ذلك مما نجده فى نثرهم ونظمهم ، كقول الجاحظ فى رسالته

« القيان » : أما بعد فإنه ليس كل صامت عن حجته مُبطلا فى اعتقاده ، ولا كلُّ ناطق بها لا برهان له محقا فى انتحاله ، والحاكمُ العادلُ من لم يعجل بفصل القضاء دون استقصاء حجج الخصماء ، ودون أن تبلغ الحجة مداها من البيان ، ويشرك القاضى الخصمين فى بيان ما اختصما فيه حتى لا يكون بظاهر ما يقع عليه من حكمه أعلم منه بباطنه . . . وقد كنا ممسكين عن القول بحجتنا فيما تضمنه كتابنا هذا ، اقتصاراً على أن الحق متكفل بظهوره ، مُبين عن نفسه ، مستغن عن أن يستدل عليه بغيره ، إذ كان إنما يستدل بباطن على ظاهر ، وعلى الجوهر بالعرض ،

« إن الفروعَ لا محالة راجعة إلى أصولها ، والأعجاز لاحقةٌ بصدورها ، والموالىَ تبعٌ لأوليائها ، وأمور العالم ممزوجة بالمشاكلة ، ومنفردة بالمضادة ، وبعضها علة لبعض : كالغيث علة السحاب ، والسحاب علة الماء والرطوبة ؛ وكالحَبِّ علة الزرع والزرع علة الحب ؛ والدجاجة علتها البيضة ، والبيضة علتها الدجاجة الخ »

وكقوله فى أول رسالته « ذم أخلاق الكتاب » بعد الديباجة :

« ومتى وقع الوصف من الفائل تقصياً ، والنعت من الواصف تأنقاً ، قل شهداؤه ، وكثر خصماؤه ، لأن أغلاظ المحن ما عرض على المشهور فأزاله ، وتصفحه المعقول فأحاله ، وأضعف العلل ما التمس بعد المعلول »

وكقول النظام يمدحه ـ ويدعى الجاحظ عمراً ، ويكنى بأبى عثمان :

حبى لعمرو جوهر ثابت ... وحبه لى عرض زائل
به جهاتى الست مشغولة ... وهو إلى غيرى بها مائلُ

وكقول أبى القاسم القشيرى المتكلم السنى الصوفى المتوفى سنة ٤٦٥ هـ

يا من تقاصرَ شكرى عن أياديه ... وكَلَّ كلُّ لسانى عن معاليه
وجُوده لم يزل فرداً بلا شَبَهٍ ... علا عن الوقت ماضيه وآتيه
لا دهر يُخلقه ، لا قهر يلحقه ... لا كشف يظهره ، لا ستر يخفيه
لا عَدَّ يجمعه ، لا ضدَّ يمنَعُهُ ... لاحدَّ يقطَعُهُ ، لا قُطْرَ يحويهِ
لا كونَ يحضُرُه ، لاعينَ تبصِرُهُ ... وليس فى الوهم معلوم يضاهيهِ
جلاله أزلى لا زوال لهُ ... وملكه دائم لا شىء يُفنيهِ

(٥) أثر المتكلمين فى المؤلفات العلمية :

وكذلك شاعت فى المؤلفات العلمية التى وضعها المتكلمون طائفة من ألفاظهم الاصطلاحية ، وأكثر ما كان ذلك فى مقدمات هذه الكتب : كقول الزمخشرى فى أول كتابه « الكشاف » : « فسبحان من استأثر بالأولية والقدم ، ووسمَ كل شىء سواه بالحدوث عن العدم ، أنشأه كتاباً ساطعاً تبيانه ، قاطعاً برهانه ، وحيا ناطقا ببينات وحجج ، قرآناً عربيا غير ذى عوج ، مفتاحا للمنافع الدينية والدنيوية ، مصداقا لما بين يديه من الكتب السماوية ، معجزا باقيا دون كل معجز على وجه كل زمان ، دائرا من بين سائر الكتب على كل لسان فى كل مكان ، أفحم به من طولب بمعارضته من العرب العرباء ، وأبكم به من تحدَّى من مصاقع الخطباء . » وكقول الجرجانى فى مقدمة كتابه « أسرار البلاغة » وقد مزج كلامه مزجا صريحا باصطلاحات المناطقة و الفلاسفة : « فلولا الكلام لم تكن لتتعدى فوائدُ العلم عالِمَه ، ولا صح من العاقل أن يفتق عن أزاهير العقل كمائمه ، ولتعطلت قوَى الخواطر والأفكار من معانيها ، واستوت القضية فى موجودها وفانيها ؛ نعم ، ولوَقَع الحَىُّ الحسَّاسُ فى مرتبة الجماد ، ولكان الإدراك كالذى ينافيه من الأضداد ، ولبقيت القلوب مقفلة على ودائعها ، والمعانى مسجونة فى مواضعها ، ولصارت القرائح عن تصرفها معقولة ، والأذهانُ عن سلطانها معزولة ، ولما عرف كفر من إيمان ، وإساءة من إحسان . » وكقوله وقد أمعن فى تقسيم أبواب الفن ومضى يشرح المسائل فى باب التشبيه ويسرف فى الإلمام بألفاظ أهل المنطق والفلسفة : « إن قال قائل إن تنزيل الوجود منزلة العدم أو العدم منزله الوجود ليس من حديث التشبيه فى شىء ، لأن التشبيه أن يثبت لهذا معنى من معانى ذاك ، أو حكماً من أحكامه ، كإثباتك للرجل شجاعة الأسد ، وللحجة حكم النور ، فى أنك تفصل بها بين الحق والباطل كما تفصل بالنور بين الأشياء ؛ وإذا قلت فى الرجل القليل المعانى : هو معدوم ، أو هو والعدم سواء ؛ فلست تأخذ له شبها من شىء ، ولكنك تنفيه وتبطل وجوده ؛ كما أنك إذا قلت : ليس هو بشىء ، أو ليس برجل كان كذلك »

(٦) أثر المتكلمين فى النقد :

وقد كان للمتكلين أثر كبير ، خالد فى نقد الكلام والكشف عن محاسنه ومساوئه حين عرضوا للكلام فى إعجاز القرآن وألفوا فيه الكتب ، وحين عرضوا للبلاغة ودونوها ، وإن حملت كتبهم أسماء أخرى غير النقد ؛ اقرأ للإمام أبى بكر الباقلانى فى كتابه « إعجاز القرآن » تعليقه على قول امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقطِ اللَّوَى بين الدَّخول فَحَوْملِ

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمألِ

تر أنه إلى إمامته الكلامية إمام فى الأدب والنقد ، يعرف كيف يميز الخبيث من الطيب ويدرك أسرار البلاغة فى الكلام إدراكا تتقطع دونه أنفاس البلغاء : قال فى صفحة ٧٥ : « الذين يتعصبون له (امرىء القيس) أو يدعون محاسن الشعر ، يقولون : هذا من البديع ، لأنه وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر العهد والمنزل والحبيب ، وتوجع واسترجع فى بيت ، ونحو ذلك . وإنما بينا هذا لئلا يقع لك ذهابنا عن مواضع المحاسن إن كانت ، أو غفلتنا عن مواضع الصناعة إن وجدت ؛ تأمل أرشدك الله ، وانظر هداك الله : أنت تعلم أنه ليس فى البيتين شىء قد سبقَ فى ميدانه شاعراً ، ولا تقدم به صانعاً ، وفى لفظه ومعناه خلل ، فأول ذلك أنه استوقف من يبكى لذكر الحبيب ، وذكراه لا يقتضى بكاء الخلِى ؛ وإنما يصح طلب الإسعاد فى مثل هذا ، على أن يبكى لبكائه ويرقّ لصديقه فى شدة بُرحَائه ، فاما أن يبكى على حبيب صديقه وعشيق رفيقه ، فأمر محال ؛ فإن كان المطلوب وقوفه وبكاؤه أيضا عاشقا ، صح الكلام وفسد المعنى من وجه آخر ، لأنه من السخف ألا يغار على حبيبه ، وأن يدعو غيره إلى التغازل عليه والتواجد معه فيه . ثم فى البيتين ما لا يفيد من ذكر هذه المواضع وتسمية هذه الأماكن : من الدَّخول ، وحومل ، وتوضح ، والمقراة ، وسقط اللوى ؛ وقد كان يكفيه أن يذكر فى التعريف بعض هذا ؛ وهذا التطويل إذا لم يفد كان ضربا من العى . ثم أن قوله - لم يعف رسمها - ذكر الاصمعى من محاسنه أنه باق فنحن نحزن

على مشاهدته فلو عفا لاسترحنا ، وهذا بأن يكون من مساويه أولى ، لأنه إن كان صادق الود فلا يزيده عفاء الرسوم إلا جدة عهد وشدة وجد الخ »

وقال فى صفحة ٧٦ تعليقا على قوله :

كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسَلِ

إذا قامتا تضوَّع المسك منهما نسيم الصبَا يأتى بريَّا القرَنفُلِ

« أنت لاتشك فى أن البيت الأول قليل الفائدة ليس له مع ذلك بهجة ، فقد يكون الكلام مصنوع اللفظ وإن كان منزوع المعنى ؛ وأما البيت الثانى فوجه التكلف فيه قوله : تضوع المسك منهما ؛ ولو أراد أن يجود أفاد أن بهما طيبا على كل حال ، فأما فى حال القيام فقط فذلك تقصير . ثم فيه خلل آخر ، لأنه بعد أن شبه عرفها بالمسك شبه ذلك بنسيم القرنفل ، وذكر ذلك بعد ذكر المسك نقص ؛ وقوله : نسيم الصبا . فى تقدير المنقطع عن المصراع الأول لم يصله به وصل مثله »

وقد لبس الباقلانى فى نقده ثوب الأديب الدخال ، ولم يستخدم من ألفاظ المتكلمين سوى «أنت لاتشك» مثلا ، «وأنت تعرف» ، «وهداك الله وأرشدك»

واقرأ للامام عبد القاهر الجرجانى فى كتابه « دلائل الاعجاز » ص ٢٨٣ طبع المنار تعليقه على قول أبى الطيب من قصيدته اللامية فى رثاء أخت سيف الدولة

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

تر أنه إلى إمامته فى الكلام والبلاغة إمام فى النقد ، ولا بدع ، فلولا النقد ما كانت البلاغة ؛ قال بعد كلام طويل : « واعلم أن هذا هو الصحيح فى تفسير البيت ، والطريقة المستقيمة فى الموازنة بين تأنيث الخلقة وتأنيث الاسم ، لا أن يقال إن المعنى : أن المرأة إذا كانت فى كمال الرجل من حيث العقل والفضل وسائر الخلال الممدوحة ، كانت من حيث المعنى رجلا وإن عدت فى الظاهر امرأة ؛ لأجل أنه يفسد من وجهين : أحدهما أنه قال : « ولا التذكير فخر للهلال » ومعلوم أنه لا يريد أن يقول : إن الهلال وإن ذكر فى لفظه فهو مؤنث فى المعنى ، لفساد ذلك ، ولأجل

أنه إن كان يريد أن يضرب تأنيث اسم الشمس مثلا لتأنيث المؤنثة على معنى أنها فى المعنى رجل ، وأن يثبت لها تذكيراً ، فأى معنى لأن يعود فينحى على التذكير ويغض منه ويقول : إنه ليس بفخر للهلال . هذا بين التناقض » .

(٧) ثروة المتكلمين الأدبية :

ترك المتكلمون تراثا أدبياً كريما يتمثل فى كتب البلاغة والنقد وإعجاز القرآن ، وما ألفوه فى معانيه وألفاظه ومجازه ، وفى كتب الطبقات وما فيها من تاريخ أدبى تحليلى لكبار من حوتهم من الأعلام ؛ ذلك إلى الجانب العظيم الماثل فى المناظرات التى أخفتت صوت الخطابة فى الدولة العباسية ، وإلى أشعار أدبائهم التى كانت بين صور خالصة من الأدب المصفى فى أغراض شتى وصور أخرى حوت مبادئهم ومذاهبهم ؛ وقد حوت كتب التاريخ الكبيرة ، وكتب الفرق ، وموسوعات الأدب ، شيئاً كثيراً من هذا التراث الجليل ، وسنمثل بعد ببعض الصور .

(٨) أثر المتكلمين فى الألفاظ ومقدار حفلهم بها :

اضطر المتكلمون إلى خلق ألفاظ جديدة تعبر عما فى نفوسهم من معان اقتضتها صناعة الجدل ، ففاضت أنهار مناظراتهم ومحاضراتهم بطائفة كبيرة من ألفاظ ربما أنكرها أهل اللغة أو لم يعرفوها ، أخذوها من العلوم التى درسوا كالفلسفة والمنطق وغيرهما ، فأضافوا بذلك ثروة جديدة إلى الألفاظ أحسنوا بها إلى اللغة ؛ ومهما يكن أصل هذه الألفاظ ، ومهما تكن قيمتها عند أهل اللغة ؛ فلا سبيل إلى إنكار أنها ثروة ومدد تحتاج اليه اللغة العربية ، إذ كان غناها فى الألفاظ لا يعدل غناها فى المعانى .

فأما مبلغ حفلهم فى مناظراتهم ومحاضراتهم بالألفاظ وتنميقها واختيارها ، فذلك ما تقرر أنه لم يكن يعنيهم بقدر ما تعنيهم المعانى يضعونها فى الألفاظ التى تواتيهم ، جزلت أو سهلت ، علت أو انخفضت ؛ وذلك لا يبدو غريبا من قوم كانوا يطلبون للكلام أو يطلبونه كلما عرض عارض أو اقتضى مقتض .

(٩) أثرهم فى المعانى والأساليب :

فأما أثر المتكلمين فى المعانى فيبدو واضحاً فى الغوص عليها وابتكارها ودقة الاشارة إليها ، وفى ترتيبها ترتيباً منطقياً ، وفى تقديم المقدمة بين يدى النتيجة ، وفى الفرق فى الاستنباط ، وقد صار لهم ذلك ملكة بكثرة ماجادلوا واطلعوا فى كتب الأوائل .

(١٠) نثرهم وشعرهم :

إذا وازن الأديب بين نثر المتكلمين وشعرهم تبين فرقاً بين الأول والثانى ؛ فهم فى الأول أرسخ قدماً ، وأعز جانباً ، وأكثر تراثا ، وأغزر معنى ، وأشرف قصدا وبحسبهم أن يكون منهم إمام المنشئين وسيد المترسلين وشيخ الصناعة ، أبو عثمان بحر بن عمرو الجاحظ . وأن يكون منهم أبو الحسين ابن العميد شيخ الطريقة المعروفة باسمه فى الكتابة ؛ وهذا لا يمنع من أن لشعرائهم شعراً فى فنون مختلفة له روعة وفيه جمال .

« للبحث بقية »

محمد موسى عفيفى

بشر بن المعتمـــر

بقلم حسن علوان
المدرس بمدرسة شبرا الثانوية

علينا قبل أن نذكر شيئاً عن بشر بن المعتمر، أن نلم إلماماً وجيزاً بطائفة المعتزلة، لأن بشراً إمام من أئمتها، فنمر مروراً سريعاً، على المبادىء العامة التى اشتركوا فيها، والمشاكل التى أثاروها وتعرضوا لحلها، ونعرف ماقامت عليه بيناتهم من السطوة العقلية، وقوة الجدل، وامتلاك ناصية البلاغة، وفهم أسرار الكلام، وتأثرهم بالفلسفة اليونانية، وتأثيرهم فى سياسة الدولة العباسية زمناً بعيداً، وجهادهم العنيف فى الدعوة إلى آرائهم، وتقرير مذاهبهم، وإطلاق العقل من قيوده إلى أبعد حدوده، وحرية الرأى، ومقارعتهم خصومهم من أهل الفرق الأخرى فى غير هوادة ولا لين.

أما المعتزلة عامة فقد تناولوا القول فى أصول خمسة: هى «التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر». فقالوا فى التوحيد: إن الله (عزوجل) لا كالأشياء، وإنه ليس بجسم ولا عرض ولا عنصر، ولا جزء ولا جوهر، بل هو الخالق للجسم، والعرض والعنصر، والجزء والجوهر، وإن شيئاً من الحواس لايدركه فى الدنيا ولا فى الآخرة، وإنه لايحصره المكان، ولا تحويه الأقطار، بل هو الذى لم يزل ولازمان ولامكان ولا نهاية ولا حد، وإنه الخالق للأشياء، المبدع لها لا من شىء، وإنه القديم، وإن ماسواه محدث(١)، وأوضحوا معنى التوحيد فى جلاء، وشرحوا قوله تعالى: «ليس كمثله شىء» أقصى شرح وأعمقه، وأوّلوا كل الآيات الدالة على الجهة، وعلى الأعضاء، وعلى مشابهة المخلوقات(٢)، مثل قوله تعالى: «الرحمنُ على العرش

(١) الجزء الثانى مروج الذهب صفحة ١٩٠ فى أثناء الكلام عن يزيد الناقص
(٢) ضحى الاسلام الجزء الثالث صفحة ٢٦

استوى . » وقوله : « يخافون ربهم من فوقهم » وقوله : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » تأويلا ينزه الخالق جل شأنه ، عن مشابهته المخلوقات فى شىء من العرَض أو الجوهر ، وقد أداهم ذلك إلى القول بأن صفات الله : من قدرة وإرادة وعلم وحياة وسمع وبصر وكلام ، هى وذاته شىء واحد ، أى أنها لاتوجب شيئاً آخر غير الذات الواحدة ، وإذا كان الله وصفاته وحدة لاتقبل التغيير ، فمحال أن يكون القرآن وهو الكلام الذى نقرؤه بألسنتنا ، ونسمعه بآذاننا ، كلامَ الله أى صفة من صفاته ، واتفقوا على أن سُوَرَه وآياته وحروفه قد خلقها الله ، وأوصلها إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، عن طريق جبريل ، وهو ليس كالكلام الذى ينسب إلينا ، وينشأ من عملنا . واستيقظت لهذا الرأى فتنة شغلت العقول ، وأثارت الجدل ، واستهوت الخليفة المأمون ، فأراق لحمايتها والدفاع عنها الدماء ، وعذّب الأبرياء ، وشاعت فى عصره وعصر المعتصم والواثق بعده ، وسميت بفتنة خلق القرآن ، وصاحبها « القاضى أحمد بن أبى دؤاد ، ممن نشأ فى العلم ، وتضلّع بعلم الكلام ، وصحب فيه هياج بن العلاء السلمي ، صاحب واصل بن عطاء ، أحد رؤساء المعتزلة ؛ وكان ابن أبى دواد رجلا فصيحاً . . . . وكان معظماً عند أمير المؤمنين المأمون ، فدسّ إليه القول بخلق القرآن وحسّنه عنده ، فصار يعتقده حقا مبيناً ، إلى أن أجمع رأيه فى سنة ثمانى عشرة ومائتين هـ ، على الدعاء إليه . وأشخص إليه العلماء والفقهاء ومشايخ الحديث ، فمن أجاب نجا ، ومن امتنع عن الجواب قتل أوعُذِّب ، فقتل المأمون محمد بن نوح ، وعذب المعتصم أحمد بن حنبل ، وقتل الواثق أحد بن نصر الخزاعى ونعيم بن حماد »[1]

وقالوا فى العدل : « إن الله لايحب الفساد ، ولا يخلق أفعال العباد ، بل يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه ، بالقدرة التى جعلها الله لهم ، وركبها فيهم[2] » وقالوا : إن العبد قادر ، خالق لأفعاله ، خيرها وشرها ، مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً ، فى

(١) عن مفتاح السعادة الجزء الثانى صفحة ٣٩

(٢) الجزء الثانى من مروج الذهب صفحة ١٩٠

الدار الآخرة ، والرب تعالى منزه أن يضاف إليه شر وظلم ، وفعل هو كفر ومعصية ، لأنه لو خلق الظلم كان ظالما ، كما لو خلق العدل كان عادلا .(١)

وقالوا فى الوعد والوعيد : إن الله لا يغفر لمرتكب الكبائر إلا بالتوبة ، وأن من مات عن كبيرة استحق الخلود فى النار ، وأن المؤمن إذا مات طائعا تائبا استحق الثواب والنعيم . وقالوا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : إنه من واجبات المؤمنين ، كل على حسب استطاعته : بالسيف أو اللسان أو المال ، وأن عليهم مجاهدة المسلم العاصى ، والكافر على السواء .

وقد أرادوا « بالمنزلة بين المنزلتين » من يرتكب الكبائر من الذنوب ، كمن يترك إقامة ركن من أركان الإسلام ، أو يقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، فقد أطلقوا عليه وعلى مثله اسم الفاسق . ولم يطلقوا عليه اسم المؤمن أو الكافر

هذه المبادىء الخمسة هى الدستور العام للمعتزلة ، ولا يستحق اسم الاعتزال إلا من اعتنقها ، أما إذا زاد عليها من الفروع ، كان معتزليا منسوبا إلى طريقته ، كالواصلية ، والبشرية ، والنظامية ، وهم أتباع واصل وبشر والنظام ، لأنهم اعتنقوا المبادىء الخمسة ، وزادوا فى اعتناق الفروع التى قال بها إمام كل فرقة .

ولقد ثارت فى علم الكلام مسائل ، كالقضاء والقدر ، والجبر والكسب فى إرادة الخير والشر ، والإيمان والتوبة ، وشرائط الإمامة ، وهل المرجع فيها إلى النص والإجماع ؟ واحتكم المعتزلة فيها إلى العقل ، وبسطوا سلطانه على النصوص المنزلة فأولوها على حسب ما يهدى إليه العقل ، وتهيب مخالفوهم من الفرق الأخرى ، أن ينازلوهم فى ميدان الجدل ، لقوة حجتهم ، وعمق فكرتهم ، وشدة إفحامهم ، حتى تحاشوهم ، وأصبح فرسان حلبة المناظرة والجدل منهم دون سواهم ، ورأوا « أن العقل البشرى قد منح من السلطة والسعة ، ما يمكنه من إقامة البرهان ، حتى على ما يتعلق بالله . . . فلا زلل ولا خطأ عندهم متى صح البرهان ، فلنستعمل البراهين . فى أدق الأمور وأصعبها وأعقدها ،

(١) الجزء الأول صفحة ٥٥ من الملل والنحل للشهرستانى على هامش الجزء الأول من كتاب الفصل لابن حزم

فنى استطاعة العقل الوصول الى الحق فيها [١] ، وقد لجوا فى الجدل إلى أبعد حدوده ، وأقاموا المناظرات ، واستضاءوا كما قدمنا بنور العقل ، وتزودوا بالمنطق ، والبيان ، ودرسوا الفلسفة اليونانية ، وأحاطوا علماً بآراء الفرق المخالفة لهم ، وبرعوا فى فهم أسرار الكلام ، والاحتجاج بمأثور القول على ما يعزز آراءهم ، ويقوى حجتهم ، ويمكنهم من القيام بالدعوة للإسلام ، والتغلب على المخالفين لهم .

أما قدرتهم على الجدل ، فهى ثابتة لهم بشهادة الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان ، وهو كما تعلم من ذوى الرأى ، والمنتصرين للعقل ؛ قال : « كنت رجلا أعطيت جدلا فى الكلام ، فمضى دهر فيه أتردد . وبه أخاصم ، وعنه أناضل ، وكان أكثر أصحاب الخصومات بالبصرة ، فدخلتها نيفاً وعشرين مرة ، أقيم سنة وأقل وأكثر ، وكنت قد نازعت طبقات الخوارج من الأباضية وغيرهم وطبقات المعتزلة ، وسائر طبقات أهل الأهواء ، وكنت بحمد الله أغلبهم وأقهرهم ، ولم يكن فى طبقات أهل الأهواء أحد أجدل من المعتزلة » [٢]

وبالرغم من أن أبا حنيفة يحمد الله على أنه كان يتغلب على أهل الجدل ، ويقهر أصحاب الخصومات ، ويعترف بأن المعتزلة أجدل أهل الأهواء ، فإنه على ما يظهر ، كان يفحم أمامهم ، ويضيق صدره بقوة حجتهم ، فيرميهم بقسوة القلوب ، وغلظ الأفئدة ، لأنهم لا يسيرون على سنن المتقدمين من التسليم بظاهر النصوص أو إغفال العقل ، تحاشيا للخوض فيما يجرهم إليه الجدل من شبه ومشاكل ؛ فيقول عنهم : « إنى رأيت من تنحل بالكلام ، وتجادل فيه ، ليس سيماؤهم سيماء المتقدمين ، ولا منهاجهم منهاج الصالحين ، رأيتهم قاسية قلوبهم ، غليظة أفئدتهم ، لا يبالون مخالفة الكتاب والسنة [٣] »

وإذا كان الجدل لا بد أن يعتمد على حدة الذهن ، والتزود بالأسباب

(١) ج ٣ ضحى الاسلام صفحة ٣٩
(٢) ج ٢ مفتاح السعادة صفحة ٢٤
(٣) ج ٢ مفتاح السعادة صفحة ٢٩

والعلل ، والإمعان والتعمق فى دقائق المعانى ، والتفنن فى ضروب الخطاب ، وسرعة الاستشهاد ، ليصول بلسانه حيث شاء ، ويعبر عن ضميره بأجلى العبارات؛ فإن المعتزلة قد بلغوا من كل ذلك منزلة لم يلحق غبارها سواهم ، ولم يختص بها غيرهم ، فقد درسوا الفلسفة ، واقترضوا منها ما يوافق آراءهم ، ويلائم أهواءهم ، فعززوا به حججهم ، وقووا براهينهم ، واعتزوا بأنفسهم ، وتمسكوا بمتانة الخلق ، والاعتزاز بالنفس ؛ ومتانة الخلق من أهم الوسائل التى تميز شخصية الإنسان فى رأيه وأسلوبه ومذهبه

أما متانة الخلق فيهم ، وصونه من أن تعبث به أمور الدنيا ، فإليك شهادة أبى جعفر المنصور ، داهية العباسيين وعالمهم ، فى شيخ المعتزلة ومفتيها ، عمرو ابن عبيد تلميذ واصل بن عطاء ، فقد قال عنه ما دحا له : « نثرت الحب للناس فلقطوا غير عمرو [1] »

وقد كان لهم من الهيبة والاعتبار ، ماجعل أبا جعفر على جبروته ودهائه ، وعزته بنسبه وسلطانه ، يسمع لعظاتهم فى خشوع واستعبار ، على مافيها من خشونة ومواجهة بالحقائق المرة ماكان أبو جعفر ليقبلها ، لولا مايَعْرِف من شدة تقوى المعتزلة وورعهم ، وقوة تأثيرهم فى الناس ، فقد دخل عمرو بن عبيد هذا على أبى جعفر ، « فأمر أن تفرش له لبود بقربه ، وأجلسه إليه بعد ماسلم ثم قال : يا أبا عثمان ، عظنى بموعظة ، فوعظه بمواعظ ، فلما أراد النهوض قال : أمرنا لك بعشرة آلاف . قال : لاحاجة لى فيها . قال أبو جعفر : والله لتأخذنّها . قال : لا والله لا آخذها . وكان المهدى حاضراً فقال : يحلف أمير المؤمنين وتحلف ! فالتفت عمرو إلى أبى جعفر فقال : من هذا الفتى ؟ قال : هذا محمد ابنى وهو المهدىّ ، وهو ولىّ عهدى . قال : أما والله لقد ألبستَه لباساً ماهو من لباس الأبرار ، (لأن العباسيين كانوا يتخذون السواد لباسهم) ولقد سميته باسم ما استحقه بعمل ، ولقد مهّدت له أمنع مايكون عنه . ثم أقبل عمرو على المهدى فقال : نعم يابن أخى إذا حلف أبوك أحنثه عمك ، لأن أباك أقوى على

(٤) الجزء الأول من الملل والنحل صفحة ٣٢

الكفارات من عمك . فقال له المنصور : هل لك من حاجة يا أبا عثمان ؟ قال : نعم . قال : ماهى ؟ قال : ألا تبعث إلى حتى آتيك . قال : إذاً لانلتقى ! قال : هى حاجتى ! ثم ودعه ونهض ، فلما ولى أتبعه المنصور بصره ، وأنشا يقول :

كلكم طالب صيد كلكم يمشى رُوَيْد
غيرَ عمرو بن عُبَيْد (١)

أرأيت كيف يخاطب شيخ المعتزلة أمير المؤمنين المنصور ، وكيف يهون من شأن ابنه المهدى ، وكيف يزهد فى ماله ويعف عنه ، وكيف يتمنى عمرو ابن عبيد ألا يلقى المنصور فلا يسخط عليه ، وكيف يشيعه بنظرة الإجلال ؟ إنه العلم يرفع أقدار الرجال ، والزهد يكسب نفوسهم عزة . نشأ شيوخ المعتزلة فى هذا الطراز ، فأثروا فى سياسة الدولة الأموية والدولة العباسية ، من حدود المائة الأولى إلى حدود المائة الثالثة الهجرية ، وكانوا إلى ذلك أئمة البيان ، وأعلام البلاغة ، وكفى أن تعرف أن منهم الجاحظ ، والنظام ، والزمخشرى ، وابن أبى الحديد ؛ أولئك العلماء الذين أثرت بفضلهم العربية ، وزخرت بحارها ، بما خلفوا من مؤلفات واسعة النطاق فى البلاغة والأدب والعلم .

ونستطيع أن نجمل القول فى المعتزلة بأنهم من ذوى الرأى الذين أفسحوا من سلطة العقل ، ورجعوا فى كل أمورهم إلى مشورته ، ودرسوا الفلسفة دراسة المتبصر ، وأمدوا بها علم الكلام ، وأحاطوا فهماً لأسرار اللغة ، واستظهاراً لمأثورها ، وتناولوا بالتفسير والتشريح والتحليل آيات القرآن والأحاديث ، وامتدت آراؤهم فى جو السياسة فخلقت به وأثرت فيه حيناً من الدهر ، وكان لايباريهم أحد فى قوة الحجة ، وقد وضعوا أصول علم الكلام والجدل والمناظرة والبلاغة ، وملئوا الدنيا دويا وعلما ، وخلقوا الفرصة للعلماء المخالفين لهم ، فألفوا الكتب في الرد عليهم ومجادلتهم ونقض آرائهم ، فكان الأدب مديناً لهم مادامت العربية وما دام لها أدباء .

وهنا ملاحظة رأيت أن أدلى بها قبل أن أتجاوز الكلام عن المعتزلة عامة ،

(١) المسعودى الجزء الثانى صفحة ٢٤٢

إلى الكلام عن بشر بن المعتمر خاصة ، وهى أن علماء المعتزلة تفرقوا فى الأقاليم كما تفرق علماء النحو ، فكان هناك معتزلة بغداد ، ومعتزلة البصرة ، كما كان علماء الكوفة وعلماء البصرة فى النحو ، وكان الجدل يستحر بين طائفتى المعتزلة ، كما كان يستحر بين البصريين والكوفيين من النحويين ، غاية الأمر أن الباحث المتبصر سينتهى إلى القول بأن معتزلة بغداد كانوا أقدر على الجدل ، وأقرب إلى الفلسفة ، وأعظم سلطاناً وأعلى مقاما عند الخلفاء ، وأميل إلى الصرامة والتزمت من معتزلة البصرة ، الذين كانوا أميل إلى الأدب والبلاغة ، وأكثر إنتاجاً وتاليفاً ، وأقرب إلى روح التسامح والمرح ، وأبقى ذكراً فى سجل التاريخ ، ولعلك تطمئن إلى هذا الرأى إذا عرفت أن بشر بن المعتمر وأحمد بن أبى دؤاد وثمامة بن أشرس من معتزلة بغداد ، وأن واصلا والنظام والجاحظ من معتزلة البصرة وسنتبع القول فى رئيس المعتزلة ببغداد :

بشر بن المعتمر

هو أبو سهل « بشر بن المعتمر » الهلالى ، كان مولى لبنى هلال بن عامر ، ذكره الجاحظ فقال عنه : إنه « كان خاصاً بالفضل بن يحيى ، فقدم عليه رجل من مواليه ، وهو أحد بنى هلال بن عامر ، فمضى به إلى الفضل ليكرمه بذلك ، وحضرت المائدة ، فذكروا الضب ومن يأكله ، فأفرط الفضل فى ذمه ، وتابعه القوم بذلك ، ونظر الهلالى ، فلم ير على المائدة عربيا غيره ، وغاظه كلامهم ... »[1] وهذا الخبر وإن دل على وفاء بشر لمواليه من العرب ، وبرّه بهم ؛ إنما يدل أيضا على تنقص الفضل ومن معه من أبناء الفرس من شأن العرب ، فى معرض استهجان عادة كانت شائعة بين بدو الجزيرة أمام أحد أبنائها وهى أكل الضب ، حتى تغيظ العربى ، وأدار بصره فيهم ، فلم يجد بينهم عربيا غيره .

وقد زعم ابن منظور أنه مولى لبنى النضر فقال : « بشر بن المعتمر النضرى ،

(١) الجزء السادس من الحيوان صفحة ٢٨

أبو سهل ، كان أبرص ، ويذكر أيضا أنه كان « أحد رؤساء المتكلمين ، وكان راوية ، ناسبا ، له الأشعار ، فى الاحتجاج للدين ، وفى غير ذلك ، ويقال : إن له قصيدة فى ثلثمائة ورقة ، احتجّ فيها ، وقصيدة فى الغول ، وذكر الجاحظ أنه لم ير أحداً أقوى على المزدوج ، والمخمس منه »[1] « وأنه كان فى ذلك أكثر وأقدر من أبان اللاحق »[2] ويذكر المرتضى « أن جميع معتزلة بغداد كانوا من مستجيبيه »[3] أى كانوا من تلاميذه . ويعزز ما جاء فى اللسان من أن له قصيدة فى ثلثمائة ورقة ما جاء فى مرجع آخر من أن « له قصيدة أربعين ألف بيت ، ردّ فيها على جميع المخالفين »[4] . وقال عنه أبو القاسم البلخى : « إنه من أهل بغداد ، وقيل من أهل الكوفة ، والظاهر أنه ولد وترعرع فى الكوفة ، ثم ارتحل إلى بغداد ، وبها نشر مذهبه فى الاعتزال ، وتتلمذ له من تتلمذ ، مثل أحمد بن أبى دواد وثمامة بن أشرس وأبى موسى المزداد ، وكان شيخه من المعتزلة ، معمر بن عباد السلمى ، وعده ابن المرتضى من طبقة النظام وأبى الهذيل والجاحظ .

ولم يكن أثيراً لدى الرشيد ، أو حظيا عنده ، مع أنه رئيس معتزلة بغداد قاطبة ، وله مكانة لا تجحد فى العلم والحجة والأدب ، وقد يعزى هذا إلى أنه كان مختصا بالفضل بن يحيى البرمكى ، أو لاتهامه بأنه من الرافضة ، أو لتشيعه لسيدنا على ، أو لبرصه ؛ والبرص من العاهات المنفرة ممن يصاب به . وسواء كان هذا أو ذاك ، فإن واحدة مما تقدم لتكفى للحيلولة بينه وبين ما كان ينتظر لمثله من حظوة وتكريم عند الرشيد ، وكانت وفاته سنة ٢١٠ هـ

مذهبه

لم تبسط المراجع التى استلهمنا منها الرأى عن بشر القولَ فيه ، ولم تخلع عليه من حلل اللفظ مثل ما خلعت على تلاميذه ، إلا أن الواقع أنها كلها نعتته بالزعامة ، ورجعت القول فى أصول المسائل إليه ، فقد نسب إليه القول بأن الله

(١) الجزء الرابع من اللسان صفحة ٢٦٨ و ٢٦٩

(٢،٤) أمالى المرتضى الجزء الأول صفحة ١٣١

(٣) راجع الانتصار صفحة ١٩٤

قادر على لطف لو فعله بالكافر لآمن طوعاً ، وأنه لو تفضل بخلق العقلاء فى الجنة لكان أولى .

وهو صاحب القول بنظرية التولد ، ومؤداها أن الأفعال التى تنتج متولدة من فعل الإنسان ، هى أيضاً من فعله ، فإذا مزجت سائلا بآخر ، فنتج للمزيج لون جديد يخالف لون كل من السائلين قبل المزج ، يقال إنك الذى فعلت المزج ، وفعلت اللون الحادث من المزج ؛ وإذا أصاب العين رمد لم تبصر معه ، فأزال الطبيب الرمد ، يقال إن الطبيب هو الذى أوجد السلامة فى العين ، وأوجد ما يترتب عليها من الإبصار ، وجملة القول ، أنه يصح من الإنسان أن يفعل الألوان والطعوم والروائح والرؤية والسمع وسائر الإدراكات على سبيل التولد إذا فعل أسبابها ، وكذلك قوله فى الحرارة والرطوبة واليبوسة ، (١)

ويرى أن الله يغفر الذنوب الكبائر لمن يجترحها بشرط أن يتوب عنها ولا يعود إليها ، « فإنه قبل توبته بشرط ألا يعود » (٢) فإن رجع فى توبته ، أخذه الله بما ارتكب أولا وآخراً ، لأن التوبة إنما تستوجب الغفران إذا كانت رادعة عن العودة إلى الإثم والمعصية ، وله غير ذلك أقوال أخرى فى علم الكلام انفرد بها ، ولم نر ضرورة ملزمة للتعرض إلى ذكرها ، وإنما أوردنا من أقواله ما يعزز القول بأنه كان من أئمة المعتزلة وذوى الرأى فيهم .

ومن الأقوال التى نسبت إليه ماورد ذكرها فى كتب الفلاسفة فتأثر بها وأدمجها فى مسائل علم الكلام ، كمسألة التولد ، فإنها من صميم مسائل الفلسفة ، وقد تأثر بها بشر حينما تقرر عند المعتزلة القول بأن العبد يخلق أفعال نفسه ، فزاد عليها بأنه يخلق أيضاً ما يتولد من هذه الأفعال . وقد ذكر عبد القاهر البغدادى فى كتابه « الفرق بين الفرق » (٣) المسائل التى نسبت إلى بشر ، وأسماها فضائح ، ثم عرض إليها ابن الخياط المعتزلى فى كتاب « الانتصار » (٤) بالتأييد

(١) الفرق بين الفرق صفحة ١٤٣

(٢) الملل والنحل على هامش الفصل صفحة ٨٣

(٣) صفحة ١٤١ — ١٤٥ ، حيوان ٦ (٤) حيوان ٦ صفحة ٦٢ — ٦٥

وأبان وجه الرأى فى كلام بشر، ونفى اللوم عنه، فارجع إليهما إن أردت المزيد.

وحكى ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة، أن بشرا كان مع اعتزاله متشيعا لسيدنا على، وكان يقول - وتابعه فى ذلك سائر معتزلة بغداد - بتفضيل علىٍّ على سيدنا أبى بكر، إلا أنه يحكم بصحة خلافته، لأن عليا بايعه غير مكره.

وقد ألّف بشر التصانيف فى الردّ على معتزلة البصرة، كأبى الهذيل، والنظام، وأبى بكر الأصم، كما ألف الكتب أيضاً فى الرد على الرافضة، والمرجئة، والخوارج.

وقد كان قاسيا فى تصويره لأبى الهذيل، فقد صبه فى قالب الرجل الذى لا يدين بمبدإ، ولا يدافع عن معتقد، ورماه بحب الظهور، والظفر برضا الجمهور، قال الجاحظ: «وكان بشر يقع فى أبى الهذيل، وينسبه إلى النفاق، فقال وهو يصف أبا الهذيل: لأنْ يكون لا يعلم وهو عند الناس من العلية، أحب إليه من أن يكون من العلية وهو عند الناس من السفلة، ولأن يكون نبيل المنظر سخيف المخبر، أحب إليه من أن يكون سخيف المنظر نبيل المخبر، وهو بالنفاق أشد عجبا منه بالإخلاص، ولباطل مقبول أحب إليه من حق مدفوع»[1]

أدبه:

لم يكن بشر من أئمة المعتزلة فحسب، ولكنه كان أرواهم للشعر[2] - كما حدث الجاحظ - «وكان شاعراً. وأكثر شعره على المسمّط[3] والمزدوج»، كما

(١) أمالى المرتضى ١ ص ١٣٢

(٢) حيوان ٦ ص ١٣٥

(٣) الفهرس لابن النديم صفحة ٢٣٠ - والمسمط من الشعر: ما قفى أرباع بيوته، وسمط فى قافية مخالفة، ويقال: قصيدة مسمط وسميطة كقول امرىء القيس:

مرابع من هند خلت ومصايف يصيح بمغناها صدى وعوازف

وغيرها هوج الرياح العواصف وكل مسف ثم آخر رادف

بأسحم من نوء السماكين هاطل

اهـ من جزء ٩ لسان صفحة ١٩٣

كان من أهل الجدل ، وأصحاب المقالات فى البلاغة والأدب ، عالما بالأنساب ، حافظا للسير والأخبار ، دارسا لطبائع الحيوان ، ملما بما كان يشحن أذهان العرب من الأساطير والخرافات .

وسنعالج القول فى شعره ونثره ومناظراته ، لعل هـذه الأمور الثلاثة إذا أرضينا فيها البحث أن تكشف عماله من أثر فى الأدب ، وإن كان ما لدينا من نصوص شعره ونثره ومأثور قوله ، أقل مما كنا نطمع فى الوصول إليه لنجعله أداة البحث ونذير الرأى حوله :

شعره :

لم يتخذ بشر الشعر ليصوّر به عاطفة تجيش فى صدره ، أو ليزين به فى مراتع العبث والمجون التى كانت شائعة فى عصره ، أو ليتزلف به فى مدح خليفة حتى يستندى كفه ، وإنما اصطنعه ليقارع به خصومه فى الرأى ، ويحتج به عليهم ، ويدافع عمن يميل إليهم ؛ ولعله استجاب إلى الشعر دون النثر ، ليستعين بسهولة حفظه ، وحسن جرسه ، وموسيقية نظمه ، على ظهور حجته على خصمه ، وشيوع قوله ، وسهولة روايته ، وبقائه فى الأذهان .

ولهذا يسهل علينا إيجاد السبب لرغبته فى الشعر المزدوج والمخمس خاصة ، وإيثارهما على القافية المضطردة ، فإن الشعر المزدوج أو المخمس مما ييسر على الشاعر النظم ، ويطلقه من قيود القافية الواحدة ، ويرخى له عنان القول ، حتى قيل إنه نظم قصيدة واحدة فى أربعين ألف بيت ، أوفى ثلثمائة ورقة ، على إحدى الروايات . وإن علماء المعتزلة كانوا يستمدون من العقل حججهم وبراهينهم ، وكانو يسلكون فى التدليل على آرائهم مسالك ضيقة ، فلو سار بشر فى برهاناته على التزام قافية واحدة ، لشرّد منه هذا التقييد كثيرا من المعانى ، فيسقط البرهان ، وتخفى معالم الدليل ، أما التحلل من قيود القافية الواحدة ، فإنه يمكنه من إيضاح حجته ، والتغلب على خصمه ، وكان بشر فى هذا الصدد أهدى إلى الصواب من أبى العلاء الذى جاء بعده ، والتزم فى فلسفته واجتماعياته ونقده ما لا يلزم من من القافية ، فجاء بالغريب ، وفتك بكثير من المعنى فى سبيل التكلف والتعسف .

ولا تطمع أن تجد فى شعر بشر غذاءً لعاطفتك ، أو ترويحا لنفسك ، فإنه كما قدمنا لم يسلك مسالك أهل العاطفة والخيال ، ولم يتجه بشعره كما تشتهى الغرائز ويوحى جمال الكون وأسرار الطبيعة ، ولكن معظم شعره من النوع التعليمى ، الذى يخاطب العقل ، ويهدى إلى الحجة ، ويبرأ من خصومه من أهل الفرق :

فهذه مقطوعة من شعره ، يطعن فيها على هشام بن الحكم شيخ الرافضه ، ويبرأ منهم ومن جهم بن صفوان ، ويفضل عليهم شيخه عمرو بن عبيد ، ويقال إنه قالها لما حبسه الرشيد لاتهامه بقول الرافضه :

ما بالُ مَنْ ينتحلُ الإسلاما ... متخذاً إمامه هشاما
فنحن لا ننفك نلقى عارا ... نفِرّ من ذكرهمُ فرارا
ننفيهمُ عنا ولسنا منهمُ ... ولاهمُ منّا ولا نرضاهمُ
إمامُهمْ جَهْمٌ وما لجهمِ ... وصحب عمرو ذى التقى والعلم
لسنا من الرافضةِ (١) الغُلاة ... ولا من المرجئة الجفاةِ
لا مفرطين بل نرى الصِّدّيقا ... مُقَدَّماً ، والمرتضى الفاروقا

وهذه أبيات أخرى من شعره المزدوج ، يمدح بها سيدنا عليا ، ويذكر فضله على الخوارج ، ويمثلهم ببعض الحشرات الخبيثة ، وفيها يورد بعض الحكم والأمثال ، وهى : (٢)

ما كان من أسلافهم أبو الحَسَنْ ... ولا ابنُ عباسٍ ولا أهلُ السُّنَنْ
غُرٌّ مصابيحُ الدجَى مناجِبُ ... أولئك الأعلامُ لا الأعاربُ
كمِثل حُرْقوص ومن حرقوص ... بَقْعة قاع حولها قَصِيصُ (٣)

(١) هم طائفة من الشيعة رفضت إمامة زيد بن على لأنه لم يبرأ من أبى بكر وعمر
(٢) نقلا عن الحيوان الجزء السادس صفحة ١٥٥
(٣) الحرقوص : دويبة صغيرة مثل القراد ، وقيل هو من البراغيث . والبقعة (بفتح الباء) : مكان يستنقع فيه الماء . والقصيص : جمع مفرده قصيصة : وهى شجرة تنبت فى أصلها الكمأة ويتخذ منها الغسل

ليس من الحنظل يُشتارُ العسَلْ ولا من البحور يُصطاد الورَلْ (١)
هيهات ! ما سافلة كعاليهْ ما معدن الحكمةِ أهلُ الباديهْ

ولبشر قصيدتان رائيتان ، إحداهما مضمومة القافية والثانية مكسورتها ، وتقع الأولى فى ستين بيتا ، وتقع الثانية فى سبعين بيتا ، ذكرهما الجاحظ فى الجزء السادس من كتاب الحيوان ، وقال فى مقدمة ذلك : « أول ما نبدأ - قبل ذكر الحشرات ، وأصناف الحيوان والوحش - بشِعْرَى « بشر بن المعتمر » فإن له فى هذا الباب ، قصيدتين ، قد جمع فيهما كثيراً من هذه الغرائب والفوائد . ونبه بهذا على كثير من الحكمة العجيبه ، والمواعظ البليغه » (٢) ثم شرحهما شرحا وافيا ، واستطرد فى الشرح على عادته إلى سرد طباع الحيوان ، والاستشهاد بالشعر والنثر ، وذكر بعض القصص الماجنة أحيانا ، والخرافية أحيانا أخرى .

والحق أن بشراً قد دل بهاتين القصيدتين على غزارة علم وسعة اطلاع وكثرة حفظ لأنواع الحيوان والحشرات وتفهم طباعها ومعرفة خصائصها ، ولم يفته فى آخر القصيدة الأولى أن يذكر الرافضة والإباضية والنابتة وينحي عليهم بالطعن والثلب ، كقوله :

إنى وإن كنت ضعيف القوى فاللهُ يقضى وله الأمـــر
لست إباضيًّا غبيًّا ولا كرافضىٍّ غرَّه الجفرُ
كلاهما وسع فى جهل ما فعاله عندهما كفر
لسنا من الحشو الجفاة الألى عابوا الذى عابوا ولم يدروا
قلوبهمْ شتى فما منهم ثلاثة يجمعهـــم أمر
إلا الأذى أو بهت أهل التقى وإنهـــم أعيهم خُزْر

فهو فى هذه القصيدة والتى تليها يذكر الأعاجيب من طباع الحيوان والحشرات ، وهذه أبيات من قصيدته الأولى أيضاً نذكرها على سبيل المثال :

---

(١) الورل : دابة صحراوية خفيفة الحركة ليس شىء من الحيوان أقوى على أكل الحيات وقتلها منه . اهـ حيوان الجاحظ

(٢) صفحة ٩١

وحكمة يبصرها عاقل ليس له من دونها ستر
جرادة تخرق متن الصفا وأبغث يصطاده صَقر
سلاحهُ رُمْح فما عذره وقد عراه دونه الذعْرُ
والدب والقرد إذا عُلِّما والفيلُ والكلبة والبغرُ(١)
يحجم عن فرط أعاجيبها وعن مدى غاياتها السحر
وظبية تخضمُ(٢) فى حنظل وعقرب يعجبها التمر
وعضرفوط(٣) ما له قبلة وهدهد يكفره بكر

فهو يبدى عجبه من حكمة الخالق لهذه الدواب والطيور ، فقد جعل الجرادة على صغر حجمها قادرة على خرق الحجر ، وجعل الطير المسمى الأبغث - وبدنه أعظم من بدن الصقر . وهو أشد منه ومنقاره كسنان الرمح - يستخزى للصقر ويهرب منه ، فالمسألة فى ذلك ليست فى عظم الجسم وقوته ، ولكن الخالق ركز فى الصقر هيبة جعلت الأبغث الضخم القوى يخشاه ويفر منه ، ثم يذكر الحيوان القابل للتعلم ، وهو القرد والدب والفيل والكلب وصغار الغنم ، وأنها تأتى إذا علِّمت بالعجب العجاب ، ثم يمضى فيذكر أن من طباع الظبية حب الحنظل ، ومن طباع العقرب حب التمر ، فاعجب كيف أن الظبية تمضغ الحنظل وتستلذه وتستحليه على مرارته . ويعود فيذكر أن العضرفوط والهدهد من طبعهما أن أن يهيما على وجهيهما ، وفى أثناء هذا يشير إلى مسألة فى علم الكلام ، وهى أن بكراً هذا كان يقول فى هدهد سليمان ، إنه ترك موضعه وسار إلى بلاد سبأ ، ثم أطرف سليمان بخبر بلقيس ، ولكن إحسانه فى الثانية ، لا يعفيه من الذنب فى فى الأولى ، ولا يكون ذنبه الذى ارتكبه بترك موضعه ، إحساناً بعثوره على

(١) البغر : صغار الغنم
(٢) تخضم : تقطع وتمضغ بأضراسها ، والخضم يكون فى قطع اللين ، أما القضم فهو قطع اليابس .
(٣) العضرفوط : دويبة يظن أنها مطية الجن

بلقيس والوقوف على حال قومها ، فحكم على الهدهد بالنفاق والكفر ، فعرّض به بشر وانتقده ، لأنه رأى أن البهائم والطيور ترتكب الذنوب وتأثم .

وفى القصيدة الثانية يميل إلى التنبيه إلى العظة والحكمة التى أودعها الله فى الوحوش والحشرات وما فيها من آية دالة على قدرة الله ، ويمجد العقل خير تمجيد ، ويذكر أنه الهادى فى العسر واليسر ، والحاكم الذى يستنبط الغائب من الشاهد ، فيقول مثلا :

والحشراتُ الغُبْرُ منبثة بين الورى والبلد القفر
وكلها شر ، وفى شرها خير كثير عند من يدْرِى
لو فكّر العاقلُ فى نفسه مدة هذا الخلق فى العمر
لم يَرَ إلا عجباً شاملا أو حجة تنقشُ فى الصخر
فكم ترى فى الخلق من آيةٍ خفيّة الجُسمان فى قعر
أبرزها الفكرُ على فكرةٍ يحار فيها وضحُ الفجر
لله دَرُّ العقل من رائدٍ وصاحب فى العسر واليسر
وحاكم يقضى على غائب قضيةَ الشـــاهد للأمر
وإن شيئاً بعضُ أفعالِه أن يفصل الخير من الشرّ
لذو قوى قد خصه ربه بخالص التقديس والطهْرِ

على أن بشراً على غزارة علمه فى معرفة طبائع الحشرات والحيوان وصفات أجسامها ، قد تأثر فى بعض ما نظمه عن الحيوان بما كان يشيع فى عصره من أقوال لا تستند إلى علم أو تجربة ، فهو يذكر فى قصيدته الثانية التى نحن بصدد إبداء الملاحظات عليها ، أن الجمل ليست له مرارة ، وأن خصيته وشقشقته لا توجدان عند حدوث الموت والنحر ، وأن الفرس لا طحال له ، وأن جوف الثور فيه عظم ، فيقول :

والمُقْرَمُ (١) المعلم ما إنْ له مرارة تسمعُ فى الذكر

(١) المقرم كمكرم : البعير لا يحمل عليه

وخصية تنصل من جوفه عند حدوث الموت والنحر
ولا يرى بعدهما جازرٌ شقشقة ماثلة الهدر
وليس للطَّرف طحالٌ وقد أشاعـــه العالِمُ بالأمر
وفى فؤاد الثور عظم وقد يعرفه الجازِرُ ذو الخبر

وقد علق الجاحظ على هذه الأبيات بكلام نورد إليك بعضه لما فيه من فكاهة مليحة، قال: «لقد تنازع بالبصرة ناس فأطبقوا جميعاً على أن الجمل إذا نحر لا توجد له خصية ولا شقشقة، فلم أجد ذلك عَمل فى قلبى مع إجماعهم على ذلك، فبعثت إلى شيخ من جزارى باب المغيرة فسألته عن ذلك فقال: بلى، لعمرى إنهما ليوجدان إن أرادهما مريد، وإنما سمِعَت العامة كلمة وربما مزحنا بها فنقول: خصية الجمل لا توجد عند منحره، أجل والله ما توجد عند منحره وإنما توجد فى موضعها (١)» اهـ بتصرف

أما بعد فإننا نكتفى من الحديث عن شعر بشر بما أوردناه، ومن أراد أن يشبع رغبته من دراسة هاتين القصيدتين فليرجع إلى الجزء السادس من كتاب الحيوان للجاحظ.

نثره:

ليس لدينا الآن من نثر بشر، أكثر من صحيفته الذائعة، التى لم نر أمهات الكتب القديمة فى الأدب جاءت خلواً منها، كما أن لدينا عبارات قصيرة عثرنا عليها منثورة فى أثناء الكلام عن البلاغة أو القلم، ولكنها لا تمد الكاتب بما يرغب فيه من دقة البحث والتحليل. فلنورد صحيفته، ثم نعود إلى التحدث عنها بما يعن لنا فى إيجاز، قال الجاحظ فى البيان والتبيين: (٢)

مر بشر بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة السكونى الخطيب وهو يعلم فتيانهم الخطابة. فوقف بشر، فظن إبراهيم أنه وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من

(١) حيوان ٦ ص ١٤٩
(٢) الجزء الأول صفحة ١٠٤

النظارة . فقال بشر : اضربوا عما قال صفحا ، واطووا عنه كشحاً . ثم دفع اليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه ، وكان أول ذلك الكلام :

« خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك ، فإن نفسك تلك الساعة أكرم جوهراً ، وأشرف حسباً ، وأحسن فى الاستماع ، وأحلى فى الصدور ، وأسلم من فاحش الخطأ . وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ومعنى بديع . واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة ، والتكلف والمعاودة . ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا ، وخفيفا على اللسان سهلا . وكما خرج من ينبوعه ، ونجم من معدنه ، وإياك والتوعر ، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد ، والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك ويشين ألفاظك . ومن أراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويُهجنهما ، وعما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهارهما ، وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما . وكن فى ثلاث منازل ، فإن أولى الثلاث : أن يكون لفظك رشيقا عذبا ، وفخما سهلا ، ويكون معناك ظاهراً مكشوفا ، وقريبا معروفا ، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت ، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت . والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معانى الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معانى العامة ، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة . مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال . وكذلك اللفظ العامى والخاصى . فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك ، وبلاغة قلمك . ولطف مداخلك ، واقتدارك على نفسك ، على أن تُفهم العامة معانى الخاصة ، وتكسوها الألفاظ الواسطة التى لا تلطف عن الدهماء ، ولا تجفو عن الأكفاء ، فأنت البليغ التام . . . فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ، ولا تسنح لك عند أول نظرك وفى أول تكلفك ، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ، ولم تصر إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تحل فى مركزها وفى نصابها ، ولم تتصل بشكلها ، وكانت قلقة فى مكانها ،

نافرة من موضعها ، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول فى غير أوطانها ؛ فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور ، لم يعبك بترك ذلك أحد . وإن أنت تكلفتهما ولم تكن حاذقا مطبوعا ، ولا محكما لسانك بصيرا بما عليك أو مالك ، عابك من أنت أقل عيبا منه ، ورأى من هو دونك أنه فوقك . فإن ابتليت بأن تتكلف القول وتتعاطى الصنعة ، ولم تسمح لك الطباع فى أول وهلة ؛ وتعصى عليك بعد إجالة الفكرة ، فلا تعجل ولا تضجر ، ودعه بياض يومك ، أو سواد ليلك ، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك ، فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة ، إن كانت هناك طبيعة ، أو جريت من الصناعة على عرق . فإن تمنع عليك بعد ذلك غير حادث شغل عرض ، ومن غير طول إهمال ، فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك ، وأحفظها عليك ، فإنك لم تشتهه ولم تنازع إليه إلا وبينكما نسب ، والشيء لا يحن إلا إلى ما يشاكله ، وإن كانت المشاكلة قد تكون فى طبقات ، لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة . كما تجود به مع المحبة والشهوة فهكذا هذا . » قال بشر : فلما قرئت على ابراهيم قال لى : أنا أحوج إلى هذا من هؤلاء الفتيان .

فقد رسم الوسائل التى يجرى عليها مريد الخطابة ، وأرجعها فى جملتها إلى ما يأتى :

(١) تخير الوقت المناسب ، حين تتمتع النفس بالنشاط وفراغ البال .

(٢) التحذير من التوعر ، الذى يؤدى إلى التعقيد ، وهو يؤدى إلى ضياع المعانى ، ورداءة الألفاظ .

(٣) التماس اللفظ الشريف للمعنى الشريف

(٤) موافقه الكلام للحال وما يجب لكل مقام من المقال .

(٥) إن البليغ التام هو الذى يبلغ من بيان اللسان ما يفهم به العامة معانى الخاصة فى الألفاظ الواسطة

(٦) خير لمن يكره اللفظ على غير موضعه ، ويتعصى عليه القول بعد إجالة الفكر ، أن يتركه حتى يعاوده نشاطه ، فإن رجع إليه وامتنع عليه القول بعد ذلك ، كان الأولى به أن يترك الكتابة ويحترف صناعة أخرى يكون له إليها ميل

وهـذه الإرشادات القيمة التى ابتـكرها بشر ابتكاراً ، تصلح أن تـكون دستوراً لمن يريد الـكتابة أو الخطابة على السواء ، بل هى وسائل توصل إلى حذق الـكتابة أكثر من الخطابة ، إلا أنهـا تدل على أن لبشر قدما راسخة فى النقد ، وأنه ذو بصر فى فن الأدب كتابة وخطابة شأنه فى الشعر ، وللخطابة مقوّمات ودواع أخرى غـير ما ذكر بشر ، وهذا الـكلام يبين أن بشراً درس الخطابة دراسة علمية ، ولـكنا لم نسمع أنه كان من خطباء عصره . ويغلب على الظن أن هـذه الصحيفة أثر من الدراسة الشخصية لبشر ، أى أنه لم ينقل منها شيئا عن أصول الخطابة عند اليونان ، لأن بشرا جرى فى مساق الـكلام عن الخطابة ، على غير الطريق الذى سلـكه أرسطو فى كتاب الخطابة ، كما أن التقديم الذى أورده الجاحظ لهذه الصحيفة ، من اعتراف إبراهيم بن جبلة بشدة احتياجه لدراسة الصحيفة أكثر من تلاميذه ، يدل على المكانة الأدبية التى كانت لبشر فى بغداد ، وأنه كما كان فيها زعيم المعتزلة ، قد كان له زعامة فى الأدب

ولم أقرأ لبشر من النتاج الأدبى الفنى شيئاً مطولا غير صحيفته تلك ، ويخيل إلى أنه كان يميل إلى وضع القوانين للفنون المختلفة شأن الأئمة والزعماء ، فـكتابته كشعره تشريع أو تعليم .

ولقد كان بشر مطيلا فى صحيفته تلك ، ومسهباً فى ذكر وجوه الرأى فيها ، ولـكنه فى موضع آخر يقصر ويوجز كل الإيجاز ، فى موضوع مشابه لموضوع الصحيفة ، أى متعلق بالـكتابة والخط والقلم ، فقد قال « القلب معدن ، والحلم جوهر ، واللسان مستنبط ، والقلم صانع ، والخط صنعة [1] » ، فأورد فى سطر واحد ، الـكلام عن أمور خمسة ، فضرب المثل فى التطويل والإيجاز ، فدل بذلك على طواعية قلم ، ورسوخ قدم .

(١) العقد الفريد جـ ٣ ص ٢٨

جدله ومناظراته :

اتخذ المعتزلة - كما أسلفنا - الجدل والمناظرة سلاحا يشهرونه فى وجوه خصومهم ، ويدحضون به حججهم ، وبرعوا فى استعماله براعة دلت على عقل مفكر ، ولسان فصيح ، وعلم عزيز ، ويخيل إلى أنه لو كان نظام المحاماة فى القضايا جاريا فى عهد العباسيين ، لكسب المعتزلة كل القضايا التى يتولون الدفاع فيها ، وإليك مناظرة جرت بين بشر وأبى العتاهية ، قصد فيها بشر إلى تزييف زهد أبى العتاهية وإظهار سوء قصده ، فأخذ عليه منافذ القول ، وأخزاه وألجمه ، ووصل إلى ما يريد أن يفهمه أبو العتاهية من رأى بشر فيه ، فيتقبله مذعنا ، دون أن يجد له حيلة فى الرد عليه ، أو نقض ما يقول ، وإليك المناظرة :

« ذكر أحمد بن إبراهيم بن اسماعيل أن بشر بن المعتمر قال يوما لأبى العتاهية: بلغنى أنك لما نَسَكْتَ جلست تحجم اليتامى والفقراء للسبيل ، أكذلك كان ؟ قال : نعم ؛ قال له : فما أردت بذلك ؟ قال : أردت أن أضع من نفسى حسبما رفعتنى الدنيا ، وأضع منها ليسقط عنها الكبر ، وأكتسب بما فعلته الثواب ، وكنت أحجم اليتامى والفقراء خاصة ؛ فقال له بشر : دعنى من تذليلك نفسك بالحجامة ، فإنه ليس بحجة لك أن تؤدبها وتصلحها بما لعلك تفسد به أمر غيرك : أحب أن تخبرنى: هل كنت تعرف الوقت الذى كان يحتاج فيه من تحجمه إلى إخراج الدم ؟ قال : لا ؛ قال : هل كنت تعرف مقدار ما يحتاج كل واحد منهم إلى أن يخرجه على قدر طبعه مما إذا زدت فيه أو نقصت منه ضر المحجوم ؟ قال : لا ؛ قال : فما أراك إلا أردت أن تتعلم الحجامة على أقفاء اليتامى والمساكين ! »[1]

وله مناظرات أخرى فى مسائل علم الكلام ، تجد بعضها فى الجزء السادس من الحيوان ، وتجد البعض الآخر فى أمالى المرتضى فارجع إليها إن شئت

حسن عطوان

(١) ج ٤ الأغانى ص ٧

الجاحظ

بقلم عبد الستار سلام

المدرس بمدرسة الأميرة فوزية الثانوية للبنات

لا نحاول فيما نكتب عن الجاحظ أن نلم بجميع نواحيه العلمية والأدبية والفلسفية ، فذلك مالا سبيل إليه فى هذا المقام ، كما لا نحاول أن نحلل تلك الشخصية الفذة ، فليس من السهل تحليلها والأحاطة بجميع الأسباب والملابسات التى كان لها أثر فى تكوينها . وإنما نريد أن نلقى شعاعا من الضوء ننير به الطريق لمن أراد أن يعرف شيئاً عنه من الناشئين أو الطلاب . وعلى من أراد أن يدرسه دراسة وافية أن يرجع إلى كتبه ومصنفاته فيقرأها بتؤدة وروية ، ثم يحكم على مقتضى فهمه وإدراكه ، وحينئذ يتجلى له مكانة الجاحظ وعبقريته وأدبه وحكمته وعلمه وفلسفته وفصاحته وبلاغته وجده وهزله

هو نادرة البطون ، وهبة الأجيال والقرون ، فيلسوف المتكلمين ، وأحد أساطين العلم المعدودين ، ورجالات الأدب المبرزين ، صاحب التصانيف الممتعة فى كل فن ، والرسائل القيمة فى شتى الأغراض ومختلف الشئون .

أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثى الكنانى البصرى ويقطع كثير من المحققين بأنه كنانى بالنسب لا بالولاء ، ويؤيدون هذا الرأى بما جرى عليه في كتبه ومؤلفاته من شدة تعصبه للعرب وتمدحه بفضائلهم .

وكان على أدبه وفضله دميم الخلق جاحظ العينين ، والجحوظ : النتوء ، ولذلك قيل له الجاحظ ، كما كان يقال له أيضاً الحدقى لذلك

نشأته وتربيته

ولد الجاحظ بالبصرة حوالى سنة ١٦٠ هـ فى خلافة المهدى ونشأ بها ، وكانت فى ذلك الوقت كعبة العلماء وحلبة الفقهاء ومنتدى الأدباء ومباءة الرواة والمحدثين واللغويين ، وحاضرة البر والبحر ، وقرارة المربد ؛ والنهضة العلمية الأدبية لاتزال فى إبانها ، والعلوم والمعارف أقوى أسباب الاتصال بالخلفاء والوزراء والولاة ؛ فوجد بيئة صالحة للتعلم ، ومجالا واسعاً للدرس ، وحافزاً قوياً للتحصيل ،

ومواهب نادرة لا يزيدها الكد والاستطلاع إلا قوة ونماء ؛ فأكب على العلم وتفرغ له ، فلم يترك فناً من الفنون ، ولا علماً من العلوم المعروفة فى عهده إلا ضرب فيه بسهم وأخذ منه بأكبر نصيب .

ولقد أدرك طبقة أبى عبيدة معمر بن المثنى ، والأصمعى ، وأبى زيد الأنصارى ، وأبى الحسن الأخفش ، وعنهم وعن غيرهم من شيوخ العلم ورواة الأدب أخذ اللغة والأدب والنحو

ثم لازم أستاذه أبا إسحاق إبراهيم بن سيار النظام المتكلم المعتزلى المشهور ، وعليه تخرج فى علم الكلام ومذاهب الاعتزال

وكثيراً ما كان يذهب إلى مربد البصرة وهو إذ ذاك أشبه بسوق عكاظ فى الجاهلية ، يلتقى فيه الشعراء والخطباء والرواة والنسابون ويعرضون ثمرات قرائحهم ونتاج أفكارهم ، فيأخذ الفصاحة عنهم شفاهاً

ولقد أولع بالكتب وقراءتها أو استظهارها ؛ قال أبو هفان : « لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ؛ فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى إنه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر »

وذكر المبرد « أنه ما رأى أحرص على العلم من ثلاثة : الجاحظ ، والفتح بن خاقان ، وإسماعيل بن إسحاق القاضى » ثم قال : « فأما الجاحظ فإنه كان إذا وقع بيده كتاب قرأه من أوله إلى آخره أى كتاب كان »

وكان يحفظ كثيراً مما يقرأ ، ويستوعب كل ماقرأ أو سمع فهماً وإدراكا ، فلا يكاد ينتهي من قراءة كتاب حتى يكون قد ألم بما فيه

وقد خالط كثيراً من مترجمى الفرس والسريان ، وقرأ جميع ما ترجم فى أزمان المنصور والرشيد والبرامكة والمأمون ، فأحاط بجميع الثقافات المختلفة : من عربية وفارسية ويونانية وهندية ؛ فكان لذلك أثر واضح فى ثقافته وإنتاجه ، فقد مزج الفلسفة بالأدب والفكاهة ، كما غلب عليه مذهب المعتزلة فى الكلام

ولقد أقام الشطر الأول من عمره بالبصرة باحثاً مستطلعاً ، وكان إذا أعوزه

بحث أو استقراء أو استكمال معرفة انتجع بعض المدائن الإسلامية المعروفة ، للقاء العلماء ومباحثة الرواة والأدباء ، ثم يعود وقد ملأ وطابه بما أراد من علم وأدب ؛ ولعل ذلك من أسباب كتابته فى السياسة والاجتماع

وكانت إقامته فى البصرة إقامة المترفين ؛ لعلمه وأدبه وذكائه وفطنته ، مما حببه إلى الولاة والأعيان ورؤساء الموالى ، فأغدقوا عليه العطايا والمنح ، بسبب ما كان يصنفه لهم من الرسائل والكتب التى كان يؤيد فيها مذاهبهم وينقض آراء مخالفيهم ؛ فيرضيهم بذلك من ناحية ، ويدل على فضله وأدبه وقدرته من ناحية أخرى .

وقد سأله ميمون بن هرون حينما رآه يتقلب فى النعمة : « ألك ضيعة بالبصرة؟ » فتبسم وقال : « إنما أنا وجارية لى ، وجارية تخدمها ، وخادم وحمار . . .

« . . . أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى أحمد بن أبى دؤاد فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولى فأعطانى خمسة آلاف دينار ، فانصرفت إلى البصرة ومعى ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد »

ولما جاوز الخمسين من عمره ، كثر انتجاعه إلى بغداد أواخر عهد المأمون ، وكل عصر المعتصم والواثق ، وشطراً من زمن المتوكل ؛ وكان يقيم بها ويتصدر للدرس والمناظرة ، فيلتف حوله العلماء والأدباء ، ويؤمه الطلاب على اختلاف الملل وتباين النحل ، فيرتوون من مناهله ، ويغترفون من بحاره

وكان ينتجع المأمون ووزراءه وكتابه وكبار رجال دولته ، ثم انقطع فى الانتجاع إلى محمد بن عبد الملك الزيات مدة وزاراته الثلاث ؛ وكان يقيم بقدر من رأى ؛ وبعد موت ابن الزيات عاد إلى البصرة وفلج بها ، واستمر مدة مفلوجاً ، وكثيراً ما كان يحمل إلى بغداد ليستمتع به ؛ وقد توفى فى إحدى هذه الرحلات سنة ٢٥٥ هـ

عقيدته وأثرها فى أدبه

كانت ملازمة الجاحظ لأستاذه النظام من أسباب نشأته على غراره فى القول بسلطان العقل والاحتكام إليه فى كل شىء ، ووجوب الشك والتجربة قبل الاعتقاد

واليقين ؛ ولقد انتصر لهذا المذهب ببلاغته وبيانه وكتبه ورسائله ، حتى صار لسان المعتزلة فى زمنه

وكان لتقدم النهضة العلمية وازدياد حركة التأليف والترجمة وامتداد الزمن به ، ما هيأله أسباب الإلمام بالفلسفة اليونانية أكثر مما هيء لأستاذه النظام؛ ولذلك تجده قد تغلغل فى الكلام ومزجه بكثير من آراء الفلاسفة اليونانيين ، وانفرد فيه بمقالة وافقه عليها كثير من متكلمي زمانه سموا الجاحظية

ولم يكن فى عهده من يدانيه معرفة واطلاعاً ، لأنه أحاط بجميع ثقافات عصره ، على حين كان العالم لا يبرز إلا فى ناحية واحدة من نواحى العلم والمعرفة : فاللغوى واقف عند حد اللغة ، والأديب لا يتعرض للفلسفة ، والمؤرخ لا يبحث فى الدين ، والفيلسوف لا يضطلع باعباء الأدب ومباحثه

أما الجاحظ فقد اضطلع بأعباء الثقافات كلها ، فكان يروى الأدب وينقده نقد البصير ، وينقل آراء الفلاسفة ويزنها بميزان العقل ، فما استساغ عقله قبله ، وإلا هزأ به وبرهن على خطئه وفساده ؛ ولقد كان من أثره فى الأدب أنه حدد موضوعه - وكان قبله شكلا تقريبا - وأغزر معانيه ؛ فاتسعت أغراضه ، وتشعبت مباحثه ، ودقت مقاصده .

وأما أثره فى الفلسفة فقد مزجها بالأدب وصاغها صياغة أدبية تقربها إلى الذهن ، وربط أقوال الفلاسفة بأقوال الأدباء ، فإذا بالشعراء يتناولون معانى المتكلمين فى أشعارهم ، بل يعتنقون بعض مذاهبهم الدينية وينتصرون لها . وكان له من أسلوبه الفضفاض ومترادفاته الطلية ما يكفل جلاء الغامض وتقريب البعيد ؛ فأصبحت الفلسفة غذاء للنفس والعقل معاً ، ولقد كانت قبل الجاحظ فى واد والأدب فى واد آخر ، والهوة سحيقة بينهما

علمه وأدبه

قلنا إن الجاحظ قد أحاط بجميع أنواع الثقافة المعروفة فى زمنه ، من إسلامية وفارسية ويونانية وهندية ؛ ولذلك اتفق الرواة والمحققون على أنه لم يكن فى عهده رجل أوسع منه معرفة ولا أمتع أدباً ، ولا ألطف بحثا ، ولا أظرف فكاهة ،

ولا أبلغ عبارة ، ولا أكثر تصنيفاً ، ولا أوضح حجة وبرهانا .

فهو عالم أديب ، وفيلسوف متكلم ، وكاتب مترسل ، وراوية صادق ، ومحاضر فكه ، ومصنف بارع ؛ ويمتاز بأنه أول من وضع أسس كتب الأدب الجامعة ، بتصنيفه كتاب البيان والتبيين ؛ وأول من أسهب القول فى اللطائف والفكاهات ، وأول من وضع كتب المحاضرات الجامعة لكثير من فنون الأدب الكثيرة ، وأول من جمع بين طرفى الجد والهزل ، وعرف عن الحيوان والنبات والموات وأحوال الناس ونظم معيشتهم وعاداتهم وأخلاقهم ما لم يعرفه أحد قبله .

ولذلك يعتبر أحد نوابغ الدنيا الذين لا يجود الدهر بمثلهم إلا بعد أجيال وقرون ، ولقد كان على دمامة خلقه خفيف الروح ، حلو الفكاهة ، طيب الحديث ؛ وكان من الذكاء والفطنة ودقة الحس وصدق الفراسة بحيث لا يشاركه فى ذلك سواه ؛ فقد روى ابن خلكان عن بعض البرامكة أنه قال : « كنت تقلدت السند فأقمت بها ماشاء الله تعالى ، ثم اتصل بى أنى صرفت عنها - وكنت كسبت بها ثلاثين ألف دينار - فخشيت أن يفجأنى الصارف فيسمع بمكان المال فيطمع فيه ، فصغته عشرة آلاف أهليلجة ، فى كل أهليلجة ثلاثة مثاقيل ، ولم يمكث الصارف أن أتى ، فركبت البحر وانحدرت إلى البصرة ، فخبرت أن الجاحظ بها وأنه عليل بالفالج ، فأحببت أن أراه قبل وفاته ، فصرت إليه فأفضيت إلى باب دار لطيف فقرعته ، فخرجت إلى خادم صفراء ؛ فقالت : من أنت ؟ قلت : رجل غريب وأحب أن أسر بالنظر إلى الشيخ . فبلغته الخادم ماقلت ؛ فسمعته يقول : قولى له : وما تصنع بشق مائل ، ولعاب سائل ، ولون حائل ؟ فقلت للجارية : لابد من الوصول إليه . فلما بلغته قال : هذا رجل قد اجتاز البصرة وسمع بعلتى فقال أحب أن أراه قبل موته فأقول قد رأيت الجاحظ . ثم أذن لى ؛ فدخلت وسلمت عليه ، فرد رداً جميلا وقال : من تكون أعزك الله ؟ فانتسبت له ؛ فقال : رحم الله تعالى أسلافك وآباءك السمحاء الأجواد ؛ فلقد كانت أيامهم رياض الأزمنة ، ولقد انجبر بهم خلق كثير ؛ فسقياً لهم ورعياً . فدعوت له وقلت : أنا أسألك أن تنشدنى شيئاً من شعرك . فأنشدنى :

لئن قدمت قبلى رجال فطالما مشيت على رسلى فكنت المقدما

ولكن هذا الدهر تأتى صروفه فتبرم منقوضاً وتنقض مبرما

ثم نهضت؛ فلما قاربت الدهليز قال: يافتى، أرأيت مفلوجا ينفعه الإهليلج؟ قلت: لا. قال: فإن الإهليلج الذى معك ينفعنى، فابعث لى منه. فقلت: نعم، وخرجت متعجبا من وقوعه على خبرى مع كتمانى له، وبعثت مائة إهليلجة، — ولكنى لا أنسب ذلك إلى صدق الفراسة، بل يغلب أن يكون قد أخذ من حديث الرجل سره أو عرف قبلا ما يعمد إليه أمثاله عادة فى مثل حالته فطلب إليه ما طلب.

وكان الجاحظ قليل الاعتداد بما يجرى عليه الناس من تقاليد وعادات ورسوم؛ ولعل ذلك يرجع إلى اعتداده بنفسه واحتكامه إلى عقله فى كل ما يأخذ به نفسه من عادة أو يصدر عنه من قول وعمل، مما اوقع فيه بعض المتورعين أو الحاسدين، فاتهموه فى عقيدته ورموه بكثير من المثالب

فصاحته وأسلوبه:

كان لمعارف الجاحظ الواسعة وثقافته الجامعة وإلمامه بما حوته الكتب الإسلامية والدخيلة من العلوم والفنون والطبيعيات والألهيات والفلسفة والحكمة والأدب، أكبر الأثر فى نفسه أولا وأسلوبه ثانيا.

فقد مزج كل معارفه بعضها ببعض، بعد أن نسقها ونظم أشتاتها واستخلص منها طائفة خاضعة لإرادته، يستنبط منها ما أراد ويستخدمها كيفما يشاء؛ ثم اتخذ له طريقة طريفة فى التصنيف تحبب القراء فى المطالعة وتغريهم بالاستطلاع، ولم تكن تلك الطريقة مألوفة، بل ابتكرها ابتكارا وانتحلها انتحالا، فنسبت إليه وعرف بها فى كتابته وتصنيفه؛ وتقوم تلك الطريقة على حسن اختيار الموضوعات الشهية التى لم يجنح إليها الكتاب من قبل، أو الموضوعات التى لا يخطر على البال التأليف فيها — وسهولة العبارة وانسجامها وكثرة التراكيب المترادفة التى تنطق بقدرته على المزاوجة والترادف والاستطراد لأدنى مناسبة، والخروج من الجد إلى الهزل ومن العلم إلى الأدب والفكاهة، مما يذهب بسآمة القارىء ويكسبه قوة ونشاطاً؛ ثم التغلغل فى البحث حتى يصل إلى الغاية التى يريدها والنتيجة التى قصد إليها.

وقد اقتدى به بعض كتاب عصره، فاعتبر إمام الكتاب فى العصر العباسى الثانى.

كتب الجاحظ ومؤلفاته

ليس بين كتاب العربية من أنتج إنتاج الجاحظ فى التصنيف والتأليف؛ ولقد كان موفقاً فى كتبه ومؤلفاته، فما وضع كتاباً إلا وأقبل الناس على اقتنائه وقراءته ودراسته، ولا يلبث أن يذاع وينشر فى المدائن والأقطار العربية الاسلامية، ثم يصبح حديث الأندية العلمية والمحافل الأدبية وموضوع درس عميق فى حلقات الدروس بالمساجد والمدارس، وموضوع إعجاب بالجاحظ وإكبار لعلمه وأدبه؛ ولقد ساعده على هذا الإنتاج معارفه الواسعة، وذهنه الصافى، وقريحته الفياضة؛ فألف فى كل فن، وصنف فى كل غرض؛ فقد كتب فى الدين والسياسة والاجتماع والأدب والحيوان والنبات والأخلاق وغير ذلك من الموضوعات ما يربى على مائتى كتاب

وأهم تلك الكتب كتاب البيان والتبيين، ويظهر أنه صنفه فى أخريات حياته؛ وهو أول كتاب جامع للأدب، وفيه كثير من الاستطراد الذى يغلب عليه فى كل مصنفاته

ثم كتاب الحيوان، وفيه أكبر دليل على قوة عقله وسمو إدراكه وتحريه الحق والصواب فيما ينسب إلى الحيوان من غرائز وطباع؛ ويظهر أنه قرأ كتب أرسطو فى علم الحيوان ولكنه لم يأخذ قوله قضية مسلمة، بل كان يعمد إلى التجربة والمشاهدة، وكثيراً ما يهزأ برأيه وينسب إليه القصور مرة والكذب أخرى

وكتاب الطفيليين والبخلاء:

قال المسعودى: «وكتب الجاحظ مع انحرافه (أى عن التشيع لأن المسعودى كان يتشيع) تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان؛ لأنه نظمها أحسن نظم، ورصفها أحسن رصف، وكساها من ألفاظه أجزل لفظ؛ وكان إذا تخوف ملل القارىء وسآمة السامع، خرج من جد إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة؛ وله كتب حسان، منها كتاب البيان والتبيين وهو أشرفها؛ لأنه جمع فيه من المنثور والمنظوم وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار وبليغ الخطب ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى. وكتاب الحيوان وكتاب الطفيليين والبخلاء وسائر كتبه فى

نهاية الكمال ، ولا يعلم ممن سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه »

ويقول ابن العميد :

« كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانياً »

رسائله

للجاحظ رسائل ممتعة كثيرة تدل على فصاحته وتفننه فى اختراع المعانى ، وقدرته على أن يجعل لكل رسالة موضوعا علمياً يسهب فيه ويطنب ، ويتهم وينجد ، ويغوص فيه إلى الأعماق فيأتى بدرره ولآلئه ؛ ولا يزال هذا شأنه حتى يتناوله من جميع أطرافه تناولا لا يترك شاردة ولا واردة من مباحثه وأغراضه حتى يستوعبها بحثاً واستقراء ؛ فهو بذلك إمام الكاتبين وقدوة الباحثين

وإنك لترى الصغير من الأمور يتناوله الجاحظ بالكتابة ، فإذا به قد خلق فيه عظيما ، واشتق منه جليلا ، فغير رأيك واعتقادك ، ورسمه فى ذهنك رسما يخالف صورته الأولى فى نفسك ؛ وعلى العكس من ذلك إذا أراد تصغير العظيم ، فإنك لا تلبث أن تشك فى صدق معرفتك وخطأ فكرك . ولا شك أن ذلك وليد علمه وأدبه وقدرته على الحجة والاقناع

ومن قرأ رسالته فى الحسد ، ورسالة « التربيع والتدوير » ، ورسالته فى الغناء وغير ذلك من الرسائل يجدها كلها ناطقة بصحة ما قلناه

وقد يوجز فإذا بإيجاز اللفظ وإطناب فى المعنى ، وإذا بالعبارة القصيرة تنطق بمعان كثيرة ؛ فقد كتب مستنجزاً وعداً :

« أما بعد فقد رسفنا فى قيود مواعيدك ، وطال مقامنا فى سجون مطلك ؛ فأطلقنا (أبقاك الله) من ضيقها وشديد غمها بـ (نَعَم) منك مثمرة أو لا مريحة »

فقد جمع فى تلك الأسطر الثلاثة كل المعانى التى يمكن أن تقوم بالذهن فى هذا الموضوع ، مع صدق التمثيل ومرارة التأنيب وتصوير الألم ، وطلب الفصل إما بلا مريحة أو نعم مثمرة .

وفى هذا القدر كفاية .

عبد الستار سلام

أسلوب الجاحظ

للأستاذ عبد الوهاب حمودة

المدرس بكلية الآداب

« هذه هي المحاضرة التي ألقاها الاستاذ عبدالوهاب حمودة المدرس بكلية الآداب ، في أسبوع الجاحظ الذي أقامته الجامعة المصرية في الشهر الماضي بقاعة الجمعية الجغرافية الملكية ، ونحن ننشرها هنا احتفاء بها ، ولصلتها بمنهج الادب للسنة التوجيهية الذي ننشره

« والأستاذ حمودة من أبناء دار العلوم الذين لهم مكانة ممتازة بما يقدمون في الأدب العربي من مباحث جديدة وآراء سديدة .

« وقد كان لابناء دار العلوم في أسبوع الجاحظ هذا ، وفي أسبوع المتنبي الذي أقامته الجامعة في العام الماضي ، جولاتهم الموفقة في الكشف عن نواح جديدة في الادب العربي تذكر لهم بالثناء والتقدير . » « التحرير »

أسلوب الجاحظ مرآة صافية لطبعه ، وصورة ناطقة لمزاجه ، ورسم وضّاح لألوان ثقافته .

سجّل فيه خطراتِ عقله ، ودوّن فيه سبَحاتِ ذهنه ، وسكب فيه مكنونَ نفسه ، وحفِظ فيه أنماطَ حياته ؛ فلا تكاد تقرأ فصلا في رسالة من رسائله ، إلا تمثّل لك بعينيه الجاحظتين تنظران إليك بنظراتٍ فيها جِدٌّ مشعشع بالهزل ، وحدة مشوبة بالظرف ، تحتهما إبتسامة ساخرة حلوة أحيانا ، ومريرة موجعة أحيانا أخرى

عرف الجاحظ في أسلوبه بخصائص لم يسبق إليها ، وبأخرى سبقه غيره إليها : فهو في الأولى مبتدع مخترع ، وفي الثانية مقلد مُتّبع .

أما الخصائص الأولى التي له فيها فضلُ السبق وفخرُ الابتداع فهي :

الخاصة الأولى

مزجه الحقيقةَ الجافة بالفكاهة الحلوة ، والجِدَّ المسئم بالضحك المؤنس ، والبرهان المقنعَ بالتهكم الموجع . سبب ذلك هيّن يسير :

(١) كان الجاحظ قصيرا ، جاحظ العينين ، أسود الوجه ، دميم الخلقة ، شيطانيّ المنظر ؛ وهو يعلم من نفسه كلّ هذا . ومن دأب أمثال هؤلاء — دميمى الخلقة الذين ينغمسون فى غُمار الحياة — أن تكثر فيهم الدُّعابة ، وتشيعَ فيهم الفكاهة ، لأنهم عرضة لها فى كل حين ؛ فلا بد لهم إذن من سلاح قريب يتقون به ما يصيبهم من السخرية ، ويُديرون به الفكاهةَ والدعابةَ على من يقصدهم

وما عهدنا بالمرحوم حافظ إبراهيم ولا بإمامِ العبد ولا بخليل نظير وأضرابهم — ببعيد . مِن كل مَن لم ينجُ من فدية الأدب التى يفرضها على أبنائه ، والتى يقول عنها بعض الكتاب : إنها حق للفن على الفنان ، يأخذه حينا من نَسله ، وحينا من حواسه وخَلْقه ، على أن يعوِّضه عنها خفة فى الروح ، وحلاوة فى النادرة ، وجمالا فى النكتة ، وحدةً فى الذهن

وهذه هى كل أركان السخريةِ السائغةِ ، وعمدُ التهكم المُسْكِتِ .

أتى إلى الجاحظ يوماً ثقيل فقال له : قد سمعتُ أنلك ألفَ جواب مسكت ، فعلمنى منها . قال الجاحظ : نعم . فقال له الثقيل : إذا قال لى شخص : يا ثقيل الروح ! فأىُّ شىء أقوله ؟ فقال له الجاحظ : قل له : صدقتَ يا هذا ولم تكذب !

ورَوى ابنُ عساكرَ أن الجاحظ قال : رأيت جارية ببغداد فى سوق النخاسين يُنادَى عليها ، فدعوتُ بها وجعلت أقلبها ، فقلت لها : ما اسمكِ ؟ قالت : مكة . قلت : الله أكبر ! قد قُرِّب الحج . أتأذنين أن أقبِّلَ الحجر الأسود ؟ قالت : إليكَ عنى ، أولم تسمع اللهَ يقول : « لم تكونوا بالغيه إلاَّ بشِق الأنفس » ؟

وقال مرة : ما أخجلنى أحد مثلُ امرأة رأيتها فى مدينة العسكر ببغداد ، وكانت طويلةَ القامة ، وكنت على طعام ، فأردت أن أمازحها ، فقلت : انزِلى كلى معنا . فقالت : اصعَد أنت حتى ترى الدنيا .

هكذا كانت روح العصر : دعابة فاشية حتى فى نسائه ، وقلة مبالاةٍ مع خفةٍ فى الروح ، ولطف فى الحس ، وطلاقة فى التفكير

(ب) وكان الجاحظ يستخدم هـذا النوع من التهكم لونا من ألوان الحجة ، وضربا من ضروب البرهان ، وطريقا من طرق الإقناع ؛ وذلك هو أسلوبه الذى سلكه فى رسالة « التربيع والتدوير » ؛ فإنه أراد أن يكشف القناع عن جهل أحمد بن عبد الوهاب ، ويبينَ غرورَه وطولَ ادعائه لأصناف العلم ، ويصوِّرَ عيوبه التى انغمس فيها ، ويبدىَ سوءاته التى عرف بها ؛ فاتخذ لذلك أسلوبَ التهكم ، وطريقَ الهزل ؛ متفننا مبدعا ؛ فلا يكاد يخرج فى السخرية بالرجل من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، حتى يمزقه تمزيقا ، فيصغره فى عيون الناس أولا ، ثم يصغره فى عين نفسه ثانيا .

فبينما هو يسخر من آداب نفسه ، وصفات عقله ، ومحاسن علمه ؛ إذا به ينتقل إلى الاستهزاء بجماله الفاتن ، وحسنه البارع ، فيقول :

« ... وهل تقع الأبصار إلا عليك ؟ وهل تصرَف الإشارة إلا إليك ؟ وأى أمرك ليس بغاية ؟ وأى شىء منك ليس فى النهاية ؟ وهل فيك شىء يفوق شيئا أو يفوقه شىء ؟ أو يقال : لو لم يكن كذا لكان أحسن ، ولو كان كذا لكان أتم ؟

« وهل للغوانى مثل غيرك ؟ وهل للمائح رجز إلا فيك ؟ وهل يحدو الحادى إلا بذكرك ؟ »

وما هى إلا فقر حتى تتبدل الحال من وصف الجمال إلى الاستهتار والاعتذار ، ثم ينتقل إلى المعاياة بالأسئلة ، والمقايسةِ بالعظماء من المتقدمين ، والمعاجزة بالمعاصرين المشهورين ، على سبيل الهزء والسخرية ؛ فيقول :

« ... فياعقيدَ الفلك ، كيف أمسيت ؟ ويا قوة الهَيُولى ، كيف أصبحت ؟ ويانسر لقمان ، كيف ظهرت ؟ ويا أقدمَ من دوس ، ويا أسنَّ من لُبَد ، حدثنى : كيف رأيت الطوفان ، ومتى كان سيل العرم . ومذ كم مات عُوج ، ومتى تبلبلت الألسن ، وما حبس غرابَ نوح ، وكم لبثتم فى السفينة ! وأشهد أنك تخاشن عمرو بن بحر الجاحظ وتعاقله ؛ ثم تظارفه وتطاوله ، وتغنى مع مخارق ، وتنكر فضل زلزل ، وتستجهل النظام . وتستبرد الأصمعى ، وتبارز أبا الحسن علىّ ... ! »

وهكذا يسير فى رسالته ، بأسلوب هو واضع أسسه ، وناسج بردته

ونرى هنا من المناسب أن نقول : إن كثيرا من المتأدبين يظنون أن ابن زيدون هو أول من استخدم الأسلوب التهكمىَّ فى رسائله ، كما فى رسالته الهزلية ، ولكن من الحق أن ابن زيدون لم يكن مخترعا ، بل مقلدا محاكيا ؛ فالجاحظ أستاذه ، وابن زيدون تلميذه ؛ غير أن الجاحظ لم يسفَّ فى الهجاء ولم يمضَّ به ، بل كان قوله كله تهكما ، يضحك منه حتى المكتوب إليه ، وليس فيه من الشدة والقسوة ما يبعث فى نفس القارىء الرحمة على من كتب إليه ، أو الحنق على الكاتب له ؛ بل كل ما يرمى إليه الجاحظ أن يشرك القارىء فى ضحكه ، ويقاسمه فى سخريته

ومن أسباب جمع الجاحظ بين الجد والهزل فى أسلوبه ، حرصه على أن يفهم الناسُ عنه ، واحتفاله برضى العامة عليه ، وإقبالهم على قراءة ما يكتب ، ورغبتهم فى سماع ما يُلقِى ، وهو العليم بطبائع الناس وغرائزهم ، وأهوائهم وأذواقهم ؛ فقصد أن ينسيهم برقة دعابته ، وحلاوة فكاهته ، إسرافه فى أسلوبه ، وإسهابه فى جِدّه ؛ وهو الذى يقول فى كتاب الحيوان (ج ٦ ص ٦) : « على أنى ربما وشَّحتُ وفصلت فيه بين الجزء والجزء ، بنوادر كلام ، وطُرَف أخبار ، وغرر أشعار ، مع طرَف مضاحِكَ ؛ فإنى رأيت الأسماع تملُّ الأصوات المطربة ، والأغانىَ الحسنةَ ، والأوتارَ الفصيحة ، إذا طال ذلك عليها ؛ وما غايتنا من ذلك كله إلا أن تستفيدوا خيرا »

وقال فى صدر كتاب البخلاء (ص ٥) : ولك فى هذا الكتاب ثلاثة أشياء : تَبيُّنُ حجةٍ طريفة ، أو تعرُّفُ حيلة لطيفة ، أو استفادة نادرة عجيبة ، وأنت فى ضحك منه إذا شئت ، وفى لهو إذا مَلِلت »

* * *

الخاصة الثانية :

من خصائص أسلوب الجاحظ تأثره كثيراً بأساليب الخطابة والمنطق . ومظاهر ذلك التأثر بادية فى وجوه عدة منها : التكرار الذى به يفصح عن المعنى الواحد بعدة عبارات ، وهو نفسه يرى هذا التكرارَ من خصائص الخطابة

حيث يذكر فى كتابه البيانِ والتبيين (ص ٥٨ ج ١) :

« وما سمعنا بأحد من الخطباء كان يرى إعادة بعض الألفاظ وترداد المعانى عيّا »

وهذا عينه هو الذى ذكره أرسطو فى كتاب الخطابة (الفصل الحادى عشر من الكتاب الثالث ص ٣٣٧) ترجمة تيودور بكلى مع تحليل هُوبز ، تكلم أرسطو فى هذا الفصل على الفرق بين الأسلوب الكتابى والأسلوب الخطابى ، فذكر من تلك الفروق ما ترجمته :

« إن التكرار معيب فى الكتابة ، على حين هو ضرورى وخاصة من خصائص الخطابة ، لأنه فيها نوعٌ من الإسهاب ، وفى الأسلوب الكتابى تفكك الجمل وعدم ربطها سيئة من سيئات الكتّاب ؛ وهو فى الخطابة حلية من حلاها ، لأنه يساعد على التمثيل فى الالقاء والإسهابِ فى البيان »

ومن الغريب أننا نشاهد هاتين الخاصتين فى أسلوب الجاحظ ، فهو يكرر كثيراً ، ويفصل أحياناً إذا كان المقام مقام عاطفة وانفعال ؛ يقول مثلا فى رسالة « الحاسد والمحسود » :

« وإن كان المحسود عالماً قال الحاسد : هو مبتدع ، ولرأيه متبع ، حاطبُ ليل ، ومتبع نيل ، مايدرى ما حَملَ ، قد ترك العمل ، وأقبل على الحيل .

« ومتى رأيت حاسداً يصوب لك رأياً وإن كنت مصيباً ؟ أو يرشدك إلى صواب وإن كنت مخطئاً ، أو نصح لك فى غيبه عنك ، أو قصَّر فى عيبه لك ؟

« هو كالكلب الكلب ، والنمر الحرب ، والسم القشب ، والفحل القَطم ، والسيل العرم ، إن مَلَكَ قتلَ وسبى ، وإن مُلِكَ عصى وبغى ، حياتك موته وثبوره ، وموتك عرسه وسروره ، يصدق عليك كل شاهد زور ، ويكذب فيك كل عدل مرضى ، لا يحب من الناس إلا من يبغضك ، ولا يبغض من الناس إلا من يحبك ، عدوك بطانته ، وصديقك علاوته »

أليس الجاحظ فى كلامه هذا أشبهَ شىء بالخطباء الذين يمتد نفسُهم الخطابىُ فتراهم يندفعون فى الكلام اندفاعاً ، فيظهر حينئذ السجع القصير الفقرات ، والجمل

المتقطعة الصلات ، شأن الخطباء إذا انهمروا كالسيل ، يصبون على خصومهم صنوف الويل ؛ فهناك ترى الوثبات العاطفية ، وتسمع الرنات الموسيقية ، ويكثر التكرار ، ويَشيع المترادِف ، فتزداد المعانى روعة ، والألفاظ انسجاما

ولكن ما للجاحظ قد غلى مرجله فى هذه الرسالة ، رسالة الحاسد والمحسود ، وتغلبت عليه العاطفة ، وهو فى رسائله الأخرى عالم جدلى ، ومتكلم منطق ؟ الجواب على ذلك هو أن الجاحظ نفسه تذوّق مرارة الحسد من معاصريه ، وتشكى هذا الداء من مناظريه

« فقد ذكرَ أنه كان يؤلف الكتاب الكثيرَ المعانى ، الحسنَ النظم ، فينسبُه إلى نفسه فلا يرى الأسماعَ تُصغِي اليه ، ولا الإرادات تيمم نحوه ؛ ثم يؤلف ما هو أنقص منه مرتبة ، وأقل فائدة ، ثم ينحلُه عبد الله بن المقفع ، أو سهلَ ابنَ هرون ، أو غيرهما من المتقدمين ، ومَن قد طارت أسماؤهم فى المصنفين ، فيُقبلون على كَتبها ، ويسارعون إلى نسخها . لا لشىء إلا لنسبتها إلى المتقدمين ، ولما يداخلُ أهلَ هذا العصرِ من حسدِ مَن هو فى عصرهم ، ومنافسته على المناقب التى يخصّ بها ويُعنىَ بتشييدها »

فهو إذا وصف الحاسد فإنما يصف الواقع ويعبر عن النفس

اسمع إليه وهو يقول فى وصفه : « وما لقيتَ حاسداً قط إلا تبين لك مكتومُه بتغير لونه ، وتخاوص عينه ، وإخفاء سلامه ، والإعراضِ عنك ، والإقبال على غيرك ، والاستثقالِ لحديثك ، والخلاف لرأيك » أفلا يصح بعد هذا أن نقول : إن الجاحظ من أنصار الأدب الواقعي ؟ لأنك لا تجد فى أسلوبه مبالغة ولا احتفاء بزخرفة التشبيهات ووشىِ الاستعارات ، وإذا أردنا أن نتبين الفرق بين تأثر الجاحظ بخطابة أرسطو فى أسلوبه ، وبين كاتب آخرَ لم يتأثر بها . فلنقرأ ما كتبه ابن المقفع فى الحاسد أيضاً حيث يقول :

« ليكن مما تصرِفُ به الأذى والعذاب عن نفسك . ألا تكون حسوداً ؛ فإن الحسد خلق لئيم ، ومن لؤمه أنه يوكّلُ بالأدنى فالأدنى من الأقارب والأكفاء الخلطاء ، فليكن ما تقابل به الحسدَ أن تعلم أن خيرَ ما تكون حين تكون مع

من هو خير منك ؛ وأن غُنمالك أن يكون عشيرك وخليطك أفضل منك فى العلم فتقبس من علمه ، وأفضل منك فى الجاه فتصيبَ حاجتك بجاهه ، وأفضل منك فى الدين فيزدادَ صلاحُك بصلاحه . ، وهكذا .

فما أشبه ابن المقفع بحكيم يستمد من عقله حكمته . وفيلسوف يزن أفكارَه وآراءه فى تؤدة وتروّ ؛ كأنه مرزبانٌ من مرازبة الفرس فى طيلسانه الفضفاض وقلنسوته المكوّرة

ومن مظاهر تأثر الجاحظ أيضاً بالخطابة ، شيوع الاستدلال بما يعرف فى الخطابة بالقياس المضمر. ثم بما يعرف بالتمثيل .

نجد ذلك واضحاً جلياً فى رسائل الجاحظ وأسلوب استدلاله

والقياس المضمرُ عندهم ـ كما جاء فى البصائر النصيرية ـ هو ماحذفت مقدمته الصغرى أو الكبرى أو نتيجته ؛ إما لظهورها، وإما للاستغناء عنها. ومواد هذا القياس : المشهورات ، والمقبولات، والمظنونات .

أما التمثيل فهو إثبات حكم جزئى لجزئى آخر لمشابهة بينهما ، وهو ما يسميه الفقهاء قياساً .

فالقياس المضمر قد عرفه الجاحظ واستخدمه فى رسائله ، والتمثيل كذلك عرفه واستخدمه فى رسائله .

أما معرفته للقياس المضمر فقد نقله الجاحظ. وسماه المذهب الكلامى .

فالمذهب الكلامى فى البديع يجمع البديعيون على أنه من وضع الجاحظ وتسميته ، وقد اعترف بذلك ابنُ المعتز وابن أبى الأصبع وابن حجة وغيرهم

أقول : والمذهب الكلامى هو بعينه القياس المضمر ، إذ عرّفوه بأن يورد المتكلم كلامه على طريقة أهل الكلام ، وطريقة أهل الكلام أن تكون الحجة بعد تسليم المقدمات فيها مستلزمة للمطلوب . ولكن لا يشترط هنا الاستلزام العقلى ، بل هو مبنى على المشهورات والمظنونات ، وهى يكتفى بها فى الأمور الخطابية المفيدة للظن ، والمؤدية إلى الإقناع . هذا هو تعريفهم للمذهب الكلامى

الذى عرفه الجاحظ ، وهو أول من سماه ؛ غير أن الجاحظ يقول : إن المذهب الكلامى ليس منه فى القرآن شىء؛ ووافقه ابن المعتز ، ورد عليه ابن أبى الأصبع وقال: إن القرآن مشحون به ، من ذلك قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »

ففى هذه الآية إشارة إلى قياس استثنائى ذكرت شرطيته وحذف منه الاستثنائية والمطلوب ؛ لظهورهما . وملازمة الفساد بتعدد الآلهة من الأمور المشهورة الصادقة بحسب العرف ، وهى يكتفى بها فى الأمور الخطابية .

ومثلوا له أيضا بقوله صلى الله عليه وسلم : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً » ، وتمام الدليل أن يقال : لكنكم ضحكتم كثيراً وبكيتم قليلا فلم تعلموا ما أعلم .

إذا عرفنا ذلك ، وعرفنا أن الجاحظ استخدمه فى أسلوبه وهو ينكر وجوده فى القرآن ، فمن أين أتى به الجاحظ ؟

الجواب عن هذا السؤال سهل متى انتقلنا إلى كتاب الخطابة لأرسطو ، فوجدنا المذهب الكلامى كما عرفه الجاحظ وسماه، هو بعينه القياس المضمر الذى ذكره أرسطو وعرفه .

وقبل أن نترجم كلام أرسطو ، نذكر أمثلة للجاحظ من رسائله فيها قياس مضمر أو مذهب كلامى على رأيه .

ذكر الجاحظ فى كتاب العثمانية :

« والحجة العظمى للقائلين بتفضيل علىّ ، قتله الأقران ، وخوضه الحروب ، وليس له فى ذلك كبير فضيلة ، لأن كثرة القتل والمشى بالسيف إلى الأقران ، لو كان من أشد المحن وأعظم الفضائل ، وكان دليلا على الرياسة والتقدم — لوجب أن يكون للزبير وأبى دجانة ومحمد بن مسلمة ماليس لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، لأنه لم يقتل بيده إلا رجلا » .

و يقول أيضا فى كتاب حجج النبوة :

« ولو كان صاحب السلعة يرى فى سلعته ما يرى صاحب الدرهم ، وكان صاحب الدرهم يرى فى الدرهم ما يرى فيه صاحب السلعة ، ما اتفق بينهما شراء أبداً ، ولا بيع أبدا . . . »

ثم يقول بعد ذلك : « وإذا وقع التبايع ، وقع الترابح ، وإذا وقع الترابح ، وقع التعايش . . » وغير ذلك مما لانريد أن نطيل فيه .

أما عبارة أرسطو فى كتاب الخطابة ، فقد قال فى الفصل الثانى من الكتاب الأول:

« إن البراهين التى تستخدم فى الخطابة تقوم على أمرين :

« الأمر الأول القياس المضمر Enthemem

« الأمر الثانى التمثيل ، والمنطق تقوم براهينه على الأقيسة أولا ، وعلى الاستقراء ثانياً .

« وما القياس المضمر إلا نوع من الاستدلال القياسى ، وما التمثيل إلا نوع من الاستدلال الاستقرائى ، غير أنه محذوف فى كليهما ما هو غير ضرورى للسامع ، وما هو زائد عن الحاجة غير لازم ؛ ومفروض أن للسامع دراية به ، كل ذلك تجنباً للإسهاب المضيع للوقت ، وإرضاء لكبرياء السامع بتركه يسد بنفسه النقص الذى حدث بحذف الأمور التى يسهل عليه فهمها وإدراكها ؛ وفى هذا تودد للسامعين ، وتحبب إلى نفوسهم ، وهو باب من أبواب الإقناع الخطابى . »

هذا هو كلام أرسطو وكلام شراحه

و لماذا يكون القول بأن الجاحظ عرف كتاب الخطابة لأرسطو واسترشد به قولا غريباً ؟ ومنطق أرسطو قد عرف بين المسلمين من عهد ابن المقفع ، وكانت الخطابة جزءاً من المنطق — كما ذكر ذلك ابن خلدون ودائرة المعارف الإسلامية ، وأبو نصر الفارابى فى كتابه إحصاء العلوم . وقد ذكر الجاحظ (صاحبَ المنطق) مراراً فى كتابه الحيوان وفى كتابه البيان والتبيين . بل فى رسالته التى عنوانها الرد على النصارى ، وذكر أيضا فى كتابه الحيوان أن من العلوم التى ترجمت علم المنطق

وبعد هذا وذاك ، فهناك ظاهرة قوية تدل دلالة واضحة على تأثر الجاحظ بخطابة أرسطو ، أو على الأقل تدل على استرشاده ببعض قواعدها ، وذلك أن الجاحظ كثيراً مادعا الكتاب إلى العناية بالسامعين ، وهو المبدأ الذى يدعو

إليه أرسطو فى خطابته. ذكر ذلك الجاحظ فى البيان والتبيين ص ٣ ج ٢ ، وذكر ذلك أرسطو فى الفصل الأول من الكتاب الأول ص ٨ ؛ بل لقد غالى الجاحظ فى المبدأ ، واستحسن من الخطيب أن يسوق النادرة فى ثوبها الذى فيه رويت ، وبأسلوبها الذى به نقلت ؛ ولو كانت ملحونة مشوهة

يقول فى ص ٨١ ج ١ البيان والتبيين

« ومتى سمعت (حفظك الله) بنادرة من كلام الأعراب ، فإياك وأن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطغام ، فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب ، أو أن تتخير لها لفظاً حسناً ، أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً ؛ فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ومن الذى أريدت له ، ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها »

وهنا يعترضنا سؤال محرج فى ظاهر القول ، مشكل فى بادىء الرأى ، وهو :

إذا كان ذلك كذلك ، فلماذا أنكر الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين أن يكون لليونان خطابة ، حيث يقول : « ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق ، وكان صاحب المنطق نفسه بكىء اللسان ، غير موصوف بالبيان ، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ، ومعاينه وخصائصه » فللجواب عن هذا السؤال فى نظرنا نقول :

أولا : إن الجاحظ حين قال ذلك القول كان بصدد الرد على الشعوبية الذين قالوا عند طعنهم على العرب : « والخطابة شىء فى جميع الأمم ؛ فهذه يونان ورسائلها وخطبها وحكمها » فموقف الدفاع عن العرب والرد على الشعوبية ألجأه إلى أن ينكر أن فى اليونان خطابة

ثانياً : إنه لم يطلع على نصوص خطابية لليونان ، وإنما اطلع على أصول وقواعد للخطابة : فهو على حق حين ينكر ما لم يره

ثالثا : إنه رمى صاحبَ المنطق بالعِىّ فى القول ؛ لأن الترجمة التى قرأها لكتبه ترجمة سقيمة فى أغلب الظن ، تدل حقاً على أن صاحبها بكىء اللسان ، وهو

نفسه قد انتقد التراجم والمترجمين فى كتاب الحيوان حيث يقول : « ومتى كان ابن البطريق وابن ناعمة وابن المقفع . مثل أرسطو ؟ ثم ما لنا لا نقف عند قول الجاحظ السابق عن أرسطو : « مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ، ومعانيه وخصائصه » فأين عرف الجاحظ عن أرسطو ذلك إذا لم يكن عرفه من كتاب الخطابة الذى فصل أرسطو فيه حقا الكلام تفصيلا ، وبين فيه خصائص المعانى تبيينا ، ووضح الأساليب توضيحا ؟

وهناك أدلة أخرى تقوى عندنا فكرة أن الجاحظ تأثر تأثرا قويا بخطابة أرسطو ، ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن كتاب البيان والتبيين صدى لتلك الخطابة ؛ لأنه ألف فى عصر لم تكن فيه إلى الخطابة حاجة . إذ كانت سوقها قد كسدت وسوق الكتابة قد نفقت ؛ فالرأى الذى أرتئيه وأطمئن إليه ، هو أن الجاحظ قد عرف أرسطو ومنطقه ، والخطابة جزء منه ، إلا أن معرفته بها غامضة مبهمة ، إذ لم تكن إلا عن قراءة لكتب أرسطو فى دكاكين الوراقين ، ثم مفارقة لها بعد ذلك ؛ هذا إلى أنه نفسه يعلن فى صراحة أن كتب المنطق وغيرها من معارف اليونان لم تترجم ترجمة صحيحة واضحة ، وأنها لو عرضت على العربى البليغ لا يفهمها حق الفهم (ص ٤٥ ج ١ الحيوان)

« ألا ترى أن كتابَ المنطق الذى قد وسم بهذا الاسم لو قرأته على جميع خطباء الأمصار وبلغاءِ الأعراب لما فهموا أكثره »

* * *

الآن وقد طال بنا السَّفر فلم نذكر مثالا للتمثيل الذى استخدمه الجاحظ فى رسائله ، نقول :

كان الجاحظ يستخدم التمثيل إذا أعوزه الدليل ، وضاقت عليه سبلُ الحجة ، وكان الموضوع فى ذاته تافهاً وهو يريد أن يَرفع من شأنه ويعلىَ من قدره . من ذلك رسالته فى فخر السود على البيض . بديهى أن تفضيل السود على البيض ليس بالأمر الهين اليسير ، وليست براهينه طيّعة قريبة المنال ، فطرفا المناظرة ليسا من درجة واحدة

هذا والجاحظ لا ننسى انه أسود وجدُّه أسود ، فهو لا بد متنقص للبيض ، متعصب للسود ، فماذا يصنع إلا أن تسعفه مهارته الفنية فى الجدل ، وثقافته الواسعة ، وعلمه الغزير ؛ فتراه يقول :

« ... إن لقمانَ الحكيمَ منهم ، ومنهم سعيد بن جبير ، وبلال الحبشى الذى يقول فيه عمر بن الخطاب : إن أبا بكر سيدُنا وأعتق سيدنا ، وهو ثلث الإسلام ؛ ومنهم المِقداد ، وهو أول من عدا به فرسه فى سبيل الله .

« وقالوا : (أى السود) ونحن أهول فى الصدور ، وأملأ للعيون ، كما أن المسودة أهول فى العيون وأملأ للصدور من المبيضة ، وكما أن الليل أهول من النهار ، ودهم الخيل أبهى وأقوى ، والبقر السود أحسن وأبهى ، وجلودها أنفع وأثمن وأبقى ، وكل حجر وكل جبل إذا كان اسود ، كان أصلب صلابة وأشد يبوسة ، والأسد الأسود لا يقوم له شىء ، والنخيل أقوى ما تكون إذا كانت سود الجذوع ؛ والسواد ملازم للعين ، وإذا اعتلت فخيف عليها لم يكن لها دواء خير من القعود فى الظلمة وفى يد صاحبها خرقة سوداء ؛ فالسواد للأبصار ، وخيرما فى الإنسان البصر » .

فأنتم ترون أن الجاحظ فى هذه الرساله كان مشغولا برصف الأدلة ، ونحت الأمثلة ، فلم يفكر فى موسيقا الألفاظ ، ولا وزن العبارات ، لأنه يريد أن يغمر خصمه بالأدلة والأمثلة ، خشية أن يتغلب عليه ، أو أن يفلت الموضوع من يده ، لأن طرفه ضعيف وهل هناك من يفضل السود على البيض ، إلا أسود متعصب ؟

* * *

ثالثا — من خصائص أسلوب الجاحظ قصر الفقرات ، واتزان العبارات ، والموسيقا والازدواج ؛ فنثر الجاحظ لا يلذ العقل وحده ، وإنما يلذ العقل والشعور والأذن . وأكثر ما يشاهد ذلك فى رسائله الإخوانية ، أو فى مفتتح كتبه وصدرِ تآليفه ، وهو أحياناً يتعمد هذا الاتزان وإن لم يتكلفه .

* * *

الخاصة الرابعة

الاقتنان فى الأسلوب : من خبر إلى استفهام ، ومن استفهام إلى تعجب ، ومن تعجب إلى أمر. وهذه الخاصة والتى قبلها أثر من آثار الأسلوب القرآنى ؛ قال تعالى :

« إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفَوْن علينا . أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة ؟ اعملوا ماشئتم ، إنه بما تعملون بصير . » خبر ، فاستفهام ، فأمر ، فخبر .

ويقول الجاحظ فى رسالة الحاسد والمحسود :

ولقد كان أخوة يوسف علماءَ حلماء ، ولدهم الأنبياء ، فخانوا العهود ، وألقَوْه فى غَيابَة الجب ، وجاءوا على قميصه بدم كذب ؛ فبظلمهم يوسُفَ ظلموا أباهم ؛ طمعاً أن يخلوَ لهم وجهُ أبيهم ، وظنوا أن الأيامَ تُسلِيه ، وحبَّه لهم من بَعده عنه يلهيه ؛ فأسالوا عبرته ، وأحرقوا قلبه ، فإذا أحسستَ (رحمك الله) من صديقك بالحسد ، فأقلِلْ ما استطعت من مخالطته ، فإنهُ أعونُ الأشياء لك على مسالمته ؛ وحَصِّنْ سرَّك منه ، تسلمْ من شذى شره ، وعوائق ضُره : وإياك والرغبة فى مشاورته ، فتمكن نفسك من سهام مشاررته .

فما هذا العَناء ، وما هذا الداء العَياء ، كأنك لم تقرأ المعوَّذة . أتطلب (ويحك) أثراً بعد عين ، أو عِطراً بعد عروس ، أو تريد أن تجتنَى عِنَباً من شوك ، أو تلتمسَ حَلْبَ لبن من حائل ؟ إنك إذن لأعيا من باقل ، وأحمقُ من الضبع . إن كنت تجهل بعد ما أعلمناك ، وتَعْوَجُّ بعد ماقوَّمناك ، وتبلَّدُ بعد ماثقفناك ؛ فنعوذ بالله من الخِذلان ، إنه لا يأتيك ، ولكنه يناديك ؛ ولا يحاكمك ، ولكنه يوازنك ، أحسن ماتكون عنده حالا ، أقل ما يراك مالا ، وأكثر ما تكون عيالا ، أعظم ما تكون ضلالا ؛ وأفرح ما يكون بك ، أقرب ماتكون بالمصيبة عهداً ، وأبعد ماتكون من الناس حمداً ، . . .

وهنا تتغلب عليه طبيعته الساخرة المتهكمة . فيميلُ إلى الضحك والاستهزاء فيقول :

« فإذا كان الأمر على هذا ، فمجاورة الأموات ، ومخالطة الزمنَى ، والاكتنانُ بالجدران ، ومص المصران ، وأكل القِردان — أهون من معاشرة مثله ، والاتصالِ بحبله ! »

* * *

الخاصة الخامسة

من خصائص أسلوبه الاستطراد ؛ وذلك أثر من آثار اطلاعه الواسع ، وثقافته المتعددة

* * *

الخاصة السادسة

استقصاؤه وتغلغله فى وصف مايُعنى بشرحه أو الاحتجاجِ له ؛ فهو يتتبع المعنى ويقلبه على وجوهه المختلفة ، ويَظَل يولده حتى لايترك فيه قولا لقائل

كتب إلى محمد بن عبد الملك الزيات :

« . . . فإن كنتُ اجترأتُ عليك (أصلحك الله) فلم أجترىء إلا لأن دوامَ تغافلك عنى شبيهٌ بالإهمال ، الذى يورث الإغفال ؛ فإن كنتَ لاتهب عقابى (أيدك الله) لخدمة سلفت لى عندك ، فهبه لأياديك عندى ؛ فإن النعمة ، تشفع فى النقمة . وإلا تفعل ذلك لذلك ، فعد إلى حسن العادة ، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحدوثة ، وإلا فأت ما أنت أهله من العفو دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة . »

أما الخصائص التى يَشرَكه فيها غيره ، فهى : السهولة ، والاعتراض بمثل قوله : (أبقاك الله) ، (أعزك الله) . ثم الإسهاب ، ثم السجع ؛ لأن هذه كلها من صفات الأسلوب الكتابى فى عصر الجاحظ : نشاهدها عنده كما نشاهدها عند غيره .

وبعد فأسلوبُ الجاحظ من نوع أدب الفكر لا أدبِ الشعور والعواطف، قوامه الترتيب المنطقى، والتنسيق العقلى، والتنويع الفكرى؛ فهو يمهد لكل شىء، ثم يستنبط من تلك المقدمات؛ ثم يُردف ذلك بجمل مترادفة؛ ليزداد المعنى وضوحاً، وتزدادَ الفكرة بياناً. هذا فى رسائله العامة، أما فى رسائله الإخوانية، أو حين يخاطب الخاصة، فتأنق وتزويق، ونقاء للألفاظ، وحرص على الموسيقى، وتوازن فى الجمل، وسلاسة فى العبارات، وسجع قصير الفقرات؛ فهو أديب العلماء، وعالم الأدباء. ولنختم محاضرتنا بقبس من رسالته إلى ابراهيم بن المدبر حيث يقول:

« ماضاءَ لى نهارٌ ولا دجا ليل مذ فارقتك، إلا وجدت الشوقَ إليك، قد حَزَّ فى كبدى؛ والأسف عليك، قد أسقط فى يدى؛ والنزوعَ نحوك، قد خان جلدى؛ فأنا بين حشاً خافقة، ودمعةٍ مُهرَاقة، ونفس قد ذبُلت بما تجاهد، وجوانح قد بَليت بما تكابد؛ وذكرت وأنا على فراش الارتماض، ممنوعٌ من لذة الاغتماض، قولَ بشار:

إذا هتف القمُرى نازعنى الهوى ... بشوق، فلم أملك دموعى من الوجد
أبى الله إلا أن يفرّق بيننا ... وكنا كماء المزن شِيبَ مع الشهد
لقد كان ما بينى زماناً وبينها ... كما كان بين المسك والعنبر الوردى

عبد الوهاب حمودة

احمد بن أبى دؤاد

بقلم أحمد هاشم عطية
المدرس بالمدرسة التوفيقية الثانوية

هو أبو عبد الله أحمد بن أبى دؤاد بن فرح بن مالك الإيادى ، رجل من نزار ، قاضى القضاة زمن المعتصم والواثق فى الدولة العباسية ، وأحد أساطين المتكلمين والبصر بالفقه والكلام ومسائله والأدب وأخبار الناس ، وكان أفحل المتكلمين إقداما على القول بأن القرآن مخلوق ، تراكا للهو ، ذا مروءة عربية وتعصب لمذهبه .

ولد سنة ١٦٠ هـ بالبصرة كما ذكره الخطيب البغدادى وابن خلكان ، وقيل إن أصله من قرية بقنسرين ، وتوفى سنة ٢٤٠ هـ فى خلافة المتوكل ببغداد

وسواء أولد بالبصرة أم بقرية من قنسرين ، فإنه تلقى العلم والفقه على العلماء بالبصرة ، وصحب هياج بن العلاء السلمى ، وزرقان غلام الهذيل المحدث ، وأخذ عن واصل بن عطاء علم الكلام ، وتضلع من علم الكلام فصار إلى الاعتزال ، وحمل المأمون على القول بخلق القرآن ، وجلس لامتحان العلماء فى هذه المقالة إلى أيام الواثق

وكان نادرة عصره فى علوم الفقه والكلام والأدب ، وفيه يقول أبو العيناء : «مارأيت رئيسا قط أفصح ولا أنطق من ابن أبى دؤاد ، وكان شاعرا مجيدا ، وفصيحا بليغا ، عالما بالأنساب والسير وأخبار الناس . ذكروا أن المأمون سأل جلساءه عمن بايع ليلة العقبة من الأنصار ، فلم يدر أحد عدتهم ، فعدهم أحمد واحدا واحدا بأسمائهم وكناهم وأنسابهم ؛ فقال المأمون : إذا استجلس الخليفة فاضلا فمثل أحمد . فقال ابن أبى دؤاد : إذا جالس العالم خليفة فمثل أمير المؤمنين الذى يفهم عنه ويكون أعلم بما يقوله منه . روى له دعبل الخزاعى فى كتابه الذى جمع فيه أسماء الشعراء أبياتا حسانا ؛ وكان ابن أبى دؤاد يقول : ثلاثة ينبغى أن يبجلوا وتعرف أقدارهم : العلماء ، وولاة العدل ، والإخوان ؛ فمن استخف بالعلماء أهلك دينه ، ومن استخف بالولاة أهلك دنياه ، ومن استخف بالإخوان أهلك مروءته . وكان

الضحاك الشاعر المشهور يقول لبعض المتكلمين : ابن أبي دؤاد عندنا لا يعرف اللغة ، وعندكم لايحسن الكلام ، وعند الفقهاء لايحسن الفقه ، وهو عند المعتصم يعرف ذلك كله .

وكان ابتداء اتصاله بالمأمون أنه قال : كنت أحضر مجلس القاضي يحي بن أكثم مع الفقهاء ؛ وإني عنده يوماً إذ جاءه رسول المأمون ، فقال له: يقول لك أمير المؤمنين : انتقل إلينا أنت وجميع من معك من أصحابك . فلم يحب أن أحضر معه ، ولم يستطع أن يؤخرني ، فحضرت مع القوم ، وتكلمنا بحضرة المأمون ، فأقبل المأمون ينظر إلى إذا شرعت في الكلام ، ويتفهم ما أقوله ويستحسنه ، ثم قال لي : من تكون ؟ فانتسبت له ؛ فقال: ما أخرك عنا ؟ فكرهت أن أحيل على يحي فقلت : حبسة القدر وبلوغ الكتاب أجله . فقال المأمون : لا أعلن ما كان لنا من مجلس إلا حضرته . فقلت : نعم . ثم اتصل الأمر . وقيل : قدم يحي بن أكثم قاضياً على البصرة من خراسان من قبل المأمون في آخر سنة ٢٠٢ هـ ، وسنه نيف وعشرون سنة ، فاستصحب جماعة من أهل العلم والمروءات ، منهم أحمد بن أبي دؤاد ، فلما قدم المامون بغداد في سنة ٢٠٤هـ قال ليحي: اختر لي من أصحابك جماعة يجالسوني ويكثرون الدخول إلي ، فاختار منهم عشرين فيهم ابن أبي دؤاد ، ثم قال : اختر منهم . فاختار خمسة فيهم ابن أبي دؤاد ، واتصل أمره

وأسند المأمون وصية إلى أخيه المعتصم قال فيها : « وأبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد لا يفارقك الشركة في المشورة في كل أمرك ؛ فإنه موضع ذلك كله ، ولا تتخذن بعدي وزيراً . » فلما ولي المعتصم الخلافة جعل ابن أبي دؤاد قاضي القضاة ، وعزل يحي بن أكثم ، وخص به أحمد ، وكان لا يفعل فعلا باطناً ولا ظاهرا إلا برأيه . والذي أصار ابن أبي دؤاد إلى ما صار إليه هو موافقة مذهبه لما كان يذهب إليه المأمون من آراء المعتزلة ، وأن المأمون كان معروفاً بمحبته للعلم والعلماء وشغفه بالحكمة والحكماء ، بل لم ير في أبناء الملوك من تعشق العلوم الحكمية على حداثة سنه مثله ، فما دخل عليه مرة إلا وألفى في مجلس من العلماء والأدباء ، وقد ورث ذلك عن أبيه الرشيد ، واقتدى به أو أربى عليه ، فطارت شهرته

فى العلم والفلسفة ، إلى أن حظى بقربه أحمد بن أبى دؤاد ، فوجد فيه المأمون طلبته ، ورأى أحمد فى المأمون ضالته للظهور بمذهب المتكلمين ، وجعله مذهباً رسمياً للدولة بعد أن كان هذا المذهب فى البصرة نظرياً ، وأتم ما بدأ به ثمامة بن أشرس ، من حمل المأمون على أن يعتقد هذا المذهب اعتقاد حقا ، وحمله على إظهار القول بخلق القرآن ، وعلى دعوة الناس إلى ذلك ، وعلى تعذيب المخالفين والتنكيل بهم ، فما جاءت سنة ٢١٨ هـ حتى كتب المأمون إلى نائبه على بغداد إسحق بن إبراهيم كتاباً جاء فيه :

« وقد عرف أمير المؤمنين ، أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ممن لانظر له ولا روية ولا استضاء بنور العلم وبرهانه - أهل جهالة بالله وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه وقصور أن يقدروا الله حق قدره ويعرفوه كنه معرفته ويفرقوا بينه وبين خلقه وبين ما أنزل من القرآن ، فأطبقوا على أنه قديم لم يخلقه الله ويخترعه ؛ وقد قال تعالى : « إنا جعلناه قرآناً عربياً » فكل ماجعله فقد خلقه . كما قال : « وجعل الظلمات والنور » وقال : « نقص عليك من أنباء ماقد سبق » فأخبر أنه قصص لأمور أحدثه بعدها وقال : « أحكمت آياته ثم فصلت » والله محكم آياته ومفصله ، فهو خالقه ومبتدعه ؛ ثم انتسبوا إلى أهل السنة ، وأنهم أهل الحق والجماعة ، وأن من سواهم من أهل الباطل والكفر ، فاستطالوا بذلك وأغروا به الجهال ؛ حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب ، والتخشع لغير الله إلى موافقتهم ، فنزعوا الحق إلى باطلهم ، واتخذوا من دون الله وليجة إلى ضلالهم . . .

إلى أن قال :

« فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة ، المنقوصون من التوحيد حظاً ، أوعية الجهالة ، وأعلام الكذب ، ولسان إبليس الناطق فى أوليائه والهائل على أعدائه من أهل دين الله . ولعمر أمير المؤمنين إن أكذب الناس من كذب على الله ووحيه ، وتخرص الباطل ولم يعرف الله حق معرفته . فاجمع من بحضرتك من القضاة فاقرأ عليهم كتابنا ، وامتحنهم فيما يقولون ، واكشفهم عما يعتقدون فى خلق

الله وأحداثه، وأعلمهم أني غير مستعين في عمل ولا واثق بمن لا يوثق بدينه، فإذا أقروا بذلك ووافقوا فرهم بنص من بحضرتهم من الشهود ومسألتهم عن علمهم في القرآن وترك شهادة من لم يقر أنه مخلوق، واكتب لنا بما يأتيك من قضاة أهل عملك في مسألتهم والأمر لهم بمثل ذلك . »

هذا كتاب المأمون في المحنة، وقد ذيله بأشخاص كبار فقهاء بغداد وأئمة الأثر والرواية. وتم الأمر بالمحنة التي طال ضررها. واشتهر من بين رجالها الإمام أحمد ابن حنبل رضي الله عنه. وما كان للمأمون أن يكتب كتابه هذا ويحمل الناس على غير ما يعتقدون وإكراههم على أمر لم تمض به سنة ولم يجدوا فيه برهاناً من أنفسهم، مع أن الإكراه على أصل الأصول وهو الدين الخالص قد أباه الشرع ونهى عنه في غير موضع من التنزيل الكريم، قال جل وعلا: «لا إكراه في الدين»، ويقول جل شأنه: «أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين»، ولكن سكرة الدولة وانقلاب الرأي عقيدة بالتسليم والتقليد، وعظم الطول والقدرة، كل أولئك يحول دون الإنصاف والاعتدال غالباً

وإذا كان شعور السلف بما يترتب على الإطالة في هذه المقالة من الخطر الشديد على الدين والقرآن - قد دعا إليه انتشار الزندقة وظهور الملاحدة وتهجم كثير من أهل الشبهات على نواحي القرآن بالتأويل الباطل والتعليل المردود، فلنحن أحق منهم بإغلاق هذا الباب وسداد هذه الثغرة، لأن ما كان في زمنهم من الفساد وسوء التأويل إذا قيس إلى ما في زماننا يعد كالمتلاشي الزائل، وأولى بنا أن نصرف عنان القول إلى ماهو أجدى علينا، من مطارحة الثقافات المتنوعة التي تقوم بشئون الاجتماع من تهذيب وتربية وتعليم ودارسة الآداب المختلفة والعلوم العملية النافعة، ولكن ابن أبي دؤاد بلغ به التعصب لمذهبه - مع ما اتصف به من وفرة العقل وكبر الفهم - أنه كان يغرى الخلفاء بمن خالف مذهبه. ويسعى لديهم بما يعجل نكالهم وقد أثر عنه من ذلك ماشوه وجه حياته، وكسف شمس فضائله؛ فقد أغرى المعتصم بحميد بن سعيد وهو من وجوه المعتزلة، لمخالفته إياه في بعض مذهبه، وقال إنه شعوبي زنديق، فحبسه المعتصم. ثم بانت له

براءته ، أو للواثق من بعده ، فخلى سبيله ، وأخرج أحمد ابن حنبل من محبسه أيام المعتصم إلى مجلس جمع الفقهاء والمتكلمين والقضاة وعلى رأسهم ابن أبى دؤاد ، فلما استقر بهم المجلس ، قال ابن أبى دؤاد : أليس لا شيء إلا قديم أو حادث ؟ قال ابن حنبل : نعم . فقال ابن أبى دؤاد : أوليس القرآن شيئاً ؟ قال ابن حنبل : نعم . فقال ابن أبى دؤاد : فالقرآن إذاً حادث ؟ قال ابن حنبل : ليس أنا بمتكلم ... إلى أن قال : وحكم كلام الله تعالى كحكم علمه ، فكما لا يجوز أن يكون علمه محدثاً ومخلوقاً ، فكذلك لا يجوز أن يكون كلامه مخلوقاً ومحدثا . فقال ابن أبى دؤاد : أليس قد كان الله يقدر أن يبدل آية مكان آية ، وينسخ آية بآية ، وأن يذهب بهذا القرآن ويأتى بغيره ، وكل ذلك فى الكتاب مسطور ؟ قال ابن حنبل : نعم . فقال ابن أبى دؤاد : روينا فى تثبيت ما نقول الآثار ، وتلونا عليك الآية من الكتاب ، وأريناك الشاهد من العقول التى بها لزم الناس الفرائض وبها يفصلون بين الحق والباطل ، فعارضنا أنت الآن بواحدة من الثلاث . فلم يتكلم ابن حنبل ، فأمر المعتصم بضربه وحبسه ، فلما ولى الواثق الخلافة ذكر ابن حنبل وأمر فجيء به يرسف فى قيوده ؛ ذكر الخطيب البغدادى فى تاريخ الواثق وترجمته قال : سمعت طاهر بن خلف يقول : سمعت محمد بن الواثق الذى يقال له المهتدى بالله يقول : كان أبى إذا أراد أن يقتل رجلا أحضرنا ذلك المجلس ، فبينما نحن عنده ذات يوم إذ أتى بشيخ مصفود مقيد ، فقال أبى : إيذنوا لأبى عبدالله . يعنى ابن أبى دؤاد وأصحابه ، فدخل الشيخ مصلاه ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال : لا سلم الله عليك ! فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، بئسما أدبك به مؤدبك ! قال تعالى : وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها . والله ما حيتنى بها ولا بأحسن منها . فقال ابن أبى دؤاد : يا أمير المؤمنين ، الرجل متكلم . فقال له أبى : كلمه . فقال ابن أبى دؤاد : ياشيخ ، ما تقول فى القرآن ؟ قال الشيخ : أنصفنى فى السؤال . فقال له : سل . فقال الشيخ : ما تقول أنت فى القرآن ؟ قال ابن أبى دؤاد : مخلوق . فقال الشيخ : هذا شيء علمه النبى (صلى الله عليه وسلم) وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى ومن أتى بعدهم من أجلاء الصحابة ، أم شيء لم يعلموه ؟ فقال ابن أبى دؤاد : لم يعلموه . فقال ابن حنبل : سبحان الله اشيء لم يعلمه

النبي(صلى الله عليه وسلم) ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا الخلفاء من بعدهم وتعلمه أنت! فقطع بابن أبي دؤاد وخجل ، وقال لابن حنبل : أقلني . فقال الشيخ: والمسألة بحالها ؟ قال : نعم . قال : فما تقول في القرآن؟ قال ابن أبي دؤاد: مخلوق. قال ابن حنبل : هذا شيء علمه رسول الله(صلى الله عليه وسلم)وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي ومن بعدهم من الخلفاء أم لم يعلموه ؟ قال ابن أبي دؤاد : علموه ولم يدعوا الناس إليه . قال الشيخ : أفلا وسعك ما وسعهم ؟

قال محمد : ثم قام أبي ، فدخل مجلس الخلوة واستلقى على قفاه ووضع إحدى رجليه على الأخرى وهو يقول : هذا شيء لم يعلمه النبي(صلى الله عليه وسلم)ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا الخلفاء من بعدهم ولم يدعوا الناس إليه ؛ أفلا وسعك ما وسعهم ؟ ثم دعا عماراً الحاجب فأمره أن يرفع القيود عن الشيخ ويعطيه أربعمائة دينار ويأذن له في الرجوع ، وسقط من عينه ابن أبي دؤاد ، ولم يمتحن بعد ذلك أحداً ، رحمة الله تعالى عليه ، ولما ولي المتوكل أحيا السنة وأمات البدعة ، وعزل ابن أبي دؤاد ، ثم ولده من بعده ، وضيق عليهما ، وكتب للأمصار برفع المحنة وإظهار السنة ، وأخمد المعتزلة وكانوا في قوة ونماء إلى أيامه .

وكان ابن أبي دؤاد على جانب كبير من المروءة العربية المتمثلة في سخائه الذي امتلك به قلوب الناس ورجال الأدب والعلم ، فالتف الناس حوله وهتفوا باسمه ، كما هتف الناس قبل ذلك للبرامكة الذين أعلوا شأن الفرس بما أغدقوه على الناس وبما وسعوهم به من أنواع الكرم ، فأضاف إلى علمه جوده ، فكان بذلك جديرا بما نال من الحظوة والمكانة لدى الخلفاء ، وقوى نفوذه ، وكان بحكم عربيته يتعصب للعرب ويدفع عنهم - ما وجد إلى ذلك سبيلا - عنت الفرس والأتراك ؛ فقد خلص أبا دلف العجلي من يد الأخشيد وقد كاد يقتله ، وخلص خالد بن يزيد ابن مزيد الشيباني من يد المعتصم ، ووقف السفراء على بابه وفيهم أبو تمام ، وطال وقوفهم ، فلما دخلوا عليه قال لأبي تمام: أحسبك عاتبا . فقال أبو تمام : إنما يعتب على واحد وأنت الناس جميعا ، فكيف يعتب عليه ؟

ومرض ابن أبي دؤاد فعاده المعتصم في داره ، ونذر المعتصم إن شفي الله

ابن أبي دؤاد أن يتصدق بعشرة آلاف دينار ، فقال أحمد : اجعلها في أهل الحرمين. فقال المعتصم : نويت أن أتصدق بها ههنا وأن أطلق لأهل الحرمين مثلها .

وقيل للمعتصم : كيف تعوده وأنت لا تعود إخوتك وأجلاء أهلك ؟ فقال : وكيف لا أعود رجلا ما وقعت عيني عليه قط إلا ساق إلى أجرا ، أو أوجب لي شكرا ، أو أفادني فائدة تنفعني في ديني ودنياي ؛ وما سألني قط حاجة لنفسه ؟ وقال ابن حمدون : خرج علينا الواثق يوما . وكان من الأدب والمعرفة بالمنزلة العليا، وهو يقول: لقد عرض عرضة من عرضه لقول الخزاعي، يريد به دعبلا:

خليلي ماذا أرتجي من غنى امرىء طوى الكشح عني اليوم وهو مكين؟
وإن امرأ قد ضن عني بمنطق يسد به من خلتي لضنين

فانبرى أحمد يسأله كأنما نشط من عقال ، في رجل من أهل اليمامة ، فأطنب وأسهب ، وذهب في القول كل مذهب ؛ فقال الواثق : يا أبا عبد الله ، لقد أكثرت في غير كير ولا طيب . فقال : يا أمير المؤمنين إنه صديق

وأهون ما يعطى الصديق صديقه من الهين الموجود أن يتكلما

فقال له الواثق : وما قدر اليمامي أن يكون صديقك ، وإنما أحسبه من عرض معارفك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إنه شهرني بالاستشفاع إليك ، وجعلني مرأى ومسمعا بين الردوالإسعاف ، فإن لم أقم لهذا أكن كما قال أمير المؤمنين آنفا : خليلي ماذا أرتجي ... الخ

فقال الواثق : بالله يا محمد بن عبد الملك إلا عجلت لأبي عبد الله حاجته ليسلم من هجنة المطل كما سلم من هجنة الرد .

وقال له الواثق يوماً ضجرا بكثرة حوائجه : قد أخليت بيوت الأموال بكثرة طلباتك للائذين بك والمتوسلين إليك : فقال : يا أمير المؤمنين ، نتائج شكرها متصلة بك ، وذخائرها موصولة لك ، وما لي من ذلك إلا عشق اتصال الألسن بخلود المدح . فقال الواثق : والله لا منعناك ما يزيد في عشقك ويقوى في همتك فينا ولنا . وأمر فأخرج له خمسة وثلاثين ألف درهم

وكان ابن أبي دؤاد من أحسن الناس تأتياً ، وكان يقول : ربما أردت أن

أسأل أمير المؤمنين الحاجة بحضرة ابن الزيات فأؤخر ذلك إلى وقت مغيبه ، لئلا يتعلم حسن التلطف منى .

وكان بين ابن أبى دؤاد ومحمد بن عبد الملك الزيات عداء مستحكم ، حتى إن شخصاً كان يصحب ابن أبى دؤاد ويختص بقضاء حوائجه منعه الوزير ابن الزيات من التردد إليه ، فبلغ ذلك القاضى ، فجاء إلى الوزير وقال له : والله ما أجيئك متكثراً بك من قلة ، ولا متعززاً بك من ذلة ، ولكن أمير المؤمنين رتبك مرتبة أوجبت لقاءك ، فإن لقيناك فله ، وإن تأخرنا عنك فلك ، ثم نهض من عنده

وكان الواثق أمر ألا يرى أحد من الناس ابن الزيات إلا قام له ، فكان ابن أبى دؤاد إذا رآه قام واستقبل القبلة يصلى ، فقال ابن الزيات فى ذلك

صلى الضحى لما استفاد عدواتى ... وأراه ينسك بعدها ويصوم
لا تعد منّ عداوة مسمومة ... تركتك تقعد تارة وتقوم

ثم أغرى ابن الزيات الشعراء بهجوا بن أبى دؤاد ، فقال فيه إبراهيم ابن العباس الصولى :

عفت مساو تبدت منك واضحة ... على محاسن أبقاها أبوك لكا
فقد تقدمت أبناء الكرام به ... كما تقدم آباء اللئام بكا

وقال فيه حميد بن سعيد :

لقد أصبحت تنسب فى إياد ... بأن يكنى أبوك أبا دؤاد
فلو كان اسمه عمرو بن معدى ... دعيت إلى زيد أو إياد
لئن أفسدت بالتخويف عيشى ... لما أصلحت عيشك فى إياد
وإن تك قد أصبت طريف مال ... فبخلك باليسير من التلاد

ولدعبل فى هجاء ابن أبى دؤاد

إن هذا الذى دؤاد أبوه ... وإياد قد كثر الأبناء
ساحقت أمه ولاط أبوه ... ليت شعرى عنه فمن أين جاء
جاء من صخرتين ثمّ صلودين ... عقامين ينبتان الهباء
لا سفاح ولا نكاح ولا ما ... يوجب الأمهات والآباء

ولما طال ذلك العداء واستمر هذا الإغراء، عمد ابن أبى دؤاد إلى ما عمد إليه ابن الزيات، فأغرى الشعراء به، فهجاه بعضهم بقصيدة عدد أبياتها سبعون بيتاً، وبلغ خبرها القاضى أحمد فقال:

أحسن من سبعين بيتا هجا جمعك معناهن فى بيت
ما أحوج الملك إلى مطرة تغسل عنه وضر الزيت

فبلغ ابن الزيات ذلك؛ ويقال إن أحد أجداد القاضى كان يبيع القار فقال:

يا ذا الذى يطمع فى هجونا عرضت بى نفسك للموت
الزيت لا يزرى بأحسابنا أحسابنا معروفة البيت
قيّرتم الملك فلم ننقه حتى غسلنا القار بالزيت

ولما حبس ابن الجهم مدح ابن أبى دؤاد عدة مدائح، وسأله أن يقوم بأمره ويشفع فيه، فلم يفعل وقعد عنه، فمن مدائحه

يا أحمد بن أبى دؤاد إنما تدعي لكل عظيمة يا أحمد
أبلغ أمير المؤمنين ودونه خوض الردى ومخاوف لا تنفد:
أنتم بنو عم النبي محمد أولى بما شرع النبي محمد

فأعرض عنه ابن أبى دؤاد، فلما فلج شمت به ابن الجهم وهجاه بقوله:

يا أحمد بن أبى دؤاد دعوة بعثت إليك جنادلا وحديدا
ما هذه البدع التى سميتها بالجهل منك العدل والتوحيدا
أفسدت أمر الدين حين وليته ورميته بأبى الوليد وليدا

إلى أن قال:

وإذ تبسم ضاحكا شبهته شرقا تعجل شربة مردودا

ولما ولى ابن أبى دؤاد المظالم مدحه جماعة من الشعراء فى عصره؛ قال أبو تمام:

لقد أنست مساوىَ كل دهر محاسنُ أحمد بن أبى دؤاد
وما سافرتُ فى الآفاق إلا ومن جدواك راحلتى وزادى

فقال له ابن أبى دؤاد: هذا المعنى تفردت به أو أخذته؟ فقال أبو تمام: هو لى، وقد ألممت فيه بقول أبى نواس:

وإن جرت الألفاظ منا بمدحة لغيرك إنسانا فأنت الذى نعنى

وقال فيه أبو تمام :

إلى أحمد المحمود أمت بنا السرى ... نواعب فى عرض الفلا ورواسم
له من إياد قمة المجد حينما ... سمت ولها منه البنى والدعائم
ولو علم الشيخان أدّ ويعرب ... لسُرّت إذا تلك العظام الرمائم
تلاقى بك الحيان فى كل محفل ... جليل وعاشت فى ذراك العمائم
إذا أنت ضيعت القريض وأهله ... فلا عجب إن ضيعته الأعاجم
فقد هز عطفيه القريض توقعا ... لعدلك مذ صارت إليك المظالم
ولولا خلال سنها الشعر ما درى ... بناة الندى من أين تؤتى المكارم

وهو القائل فى ابن أبى دؤاد من قصيدة أخرى :

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيب عرف العود

ومدحه مروان بن أبى الجنوب بقوله :

لقد حازت نزار كل مجد ... ومكرمة على رغم الأعادى
فقل للفاخرين على نزار ... ومنهم خندف وبنو إياد
رسول الله والخلفاء منا ... ومنا أحمد بن أبى دؤاد
وليس كمثلهم فى غير قومى ... بموجود إلى يوم التنادى
نبى مرسل وولاة عهد ... ومهدىٌ إلى الخيرات هادى

ولما سمع أبو هفان المهزمى هذا الشعر قال :

فقل للفاخرين على نزار ... وهم فى الأرض سادات العباد :
رسول الله والخلفاء منا ... ونبرأ من دعى بنى إياد
وما منا إياد إن أقرت ... بدعوة أحمد بن أبي دؤاد

فقال ابن أبى دؤاد : مابلغ منى أحد مابلغ هذا الغلام المهزمى، لولا أنى أكره أن أنبه عليه لعاقبته عقاباً لم يعاقب أحد بمثله ؛ جاء إلى منقبة كانت لى فنقضها عروة عروة .

وكان ابن أبى دؤاد كثيراً ما ينشد هذين البيتين ولم يذكر أنهما له أو لغيره ، وهما :

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما نجح الأمور بقوة الأسباب
فاليوم حاجتنا إليك وإنما يدعى الطبيب لشدة الأوصاب

وحدث المرزبانى عن أحمد بن أبى دؤاد أنه لما قال أبو نواس فى الأمين :

يا أحمد المرتجى فى كل نائبة قم سيدى نعص جبار السموات

تفزع ابن أبى دؤاد وجعل يقول : لعنه الله ! لعنه الله ! وأحسن ابن أبى دؤاد فى لعنه إياه على هذا الكلام .

ولما أنشد على بن الجهم قصيدته التى مدح بها المتوكل جاء فيها :

وصاح إبليس بأصحابه حل بنا ما لم نزل نحذر
مالى وللغر بنى هاشم فى كل دهر منهم منذر

عظم ذلك على ابن أبى دواد ، فأطرق ، فقال ابن الجهم : يا أبا عبد الله ، ماسمعت مديحاً للخلفاء مثل هذا . قال : ولا غيرى ، ولا توهمت أن أحداً يجترىء على مثله

ومن أجوبته : قال دخلت على الواثق فقال : مازال قوم اليوم فى ثلبك ونقصك . فقلت : يا أمير المؤمنين ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم . فالله ولى جزائه . وعقاب أمير المؤمنين من ورائه ، وما ضاع امرؤ أنت حافظه ، ولا ذل من كنت ناصره ، فماذا قلت لهم يا أمير المؤمنين ؟

قال : يا أبا عبد الله :

وسعى إلى بعيب عزة نسوة جعل المليك خدودهن نعالها

وكان أبو العيناء الضرير يقول : ما رأيت فى الدنيا أقوم على أدب من ابن أبى دؤاد ، ما خرجت من عنده يوما قط فقال : ياغلام خذ بيده ، بل قال : ياغلام اخرج معه . فكنت أنتقد هذه الكلمة عليه فلا يخل بها ولا أسمعها من غيره

وأصيب ابن أبى دواد بالفالج فى أول خلافة المتوكل ، وذهب شقه الأيمن لست خلون من جمادى الآخرة سنة ٢٣٣ هـ بعد موت عدوه محمد بن الزيات ، وولى المتوكل ولده محمد بن أحمد ابن أبى دؤاد المظالم ثم عزله سنة ٢٣٦ هـ وأمر

بالتوكيل عن ضياعه، وأخذ منه مائة ألف وعشرين ألف دينار، وجوهراً بأربعين ألف دينار، وتوفى أحمد فى المحرم سنة ٢٤٠ هـ بعد وفاة ولده بشهر أو نحو ذلك؛ فلما مات وطلع سريره قام إليه ثلاثة من الشعراء، فقال أحدهم:

اليوم مات نظام الملك واللسن ... ومات من كان يستعدى على الزمن
وأظلمت سبل الآداب إذ حجبت ... شمس المكارم فى غيم من الكفن

وتقدم الثانى فقال:

ترك المنابر والسرير تواضعا ... وله منابر لو يشا وسرير
ولغيره يجبى الخراج وإنما ... يجبى إليه محامـــد وأجور

وتقدم الثالث وهو العطوى فقال:

وليس فتيق المسك ريح حنوطه ... ولكنه ذاك الثناء المخلف
وليس صرير النعش ما تسمعونه ... ولكنه أصلاب قوم تقصف

أحمد هاشم عطية

المراجع . . .
ابن خلكان جزء أول
الأغانى جزء ٥، ٧، ٨، ١٢، ١٤، ١٧، ١٨، ٢٠، ٢١ - الموشح للمرزبانى - زهر الآداب للحصرى - العقد الفريد - كتاب الاعتزال للقاسمى - الخطيب البغدادى - هبة الأيام .

ثمامة بن أشرس

للأستاذ على السباعى
المدرس بمدرسة شبرا الثانوية

هو أبو معن ثمامة بن أشرس النميرى (١) أحد ناشرى الاعتزال ، ورأس طائفة نسبت إليه تسمى الثمامية ، ولد بالبصرة ؛ وليس بذى بال أن يعين المؤرخون فى أية محلة من محلاتها ولد ، ولا فى أى يوم وجد ، ما داموا قد أحاطونا علما بعصره ومن أدرك ، وأوقفونا على آثاره وما ترك . وقد حدثونا أنه بعد نشأته فى البصرة ، مدرسة العلم والأدب ، ومهد اللغة والاعتزال فى القرنين الأول والثانى ؛ صعد منها إلى بغداد ، موطن الغنى والجاه ، ومباءة العلماء والأدباء ، ومصدر الشهرة وذيوع الصيت ؛ فالتقى فيها ببشر بن المعتمر رئيس المعتزلين فى بغداد ، فأخذ عنه كما كان أخذ عن أبى الهذيل العلاف فى البصرة . ومن زملائه فى الطلب ببغداد ، موسى المزدار ، وأحمد بن أبى دؤاد ، والجعفرين : جعفر ابن مبشر ، وجعفر بن حرب ؛ ويظهر أن من زملائه فى البصرة الجاحظ . واستنباط بعضهم أنه من شيوخ الجاحظ لأنه يقول : حدثنى ثمامة ، أخبرنى ثمامة ؛ أو لأنه نقل عنه كثيرا فى كتابيه البيان والتبيين والحيوان - ليس بقوى مدعم بالبراهين ، لأن العلماء المعاصرين ينقل بعضهم عن بعض من غير أن يكون

---

(١) نسبة إلى قبيلة بنى نمير المشهورة ؛ ومن شعرائها الراعى ، وأبو حية النميرى ؛ وقد هجاها جرير بقصيدته الدامغة ، ولكن هجاءه لم يذهب بشرفها ولم يحط من مكانتها ؛ فقد كانت إحدى جمرات العرب ؛ والجمرة : القبيلة تصبر لقراع القبائل لا تحالف أحداً ولا تنضم إلى أحد اعتزازاً بقوتها ؛ وإلى ذلك يشير أبو حية :

لنا جمرات ليس فى الأرض مثلها ... كرام وقد جربن كل التجارب
نمير وعبس يتقى نفيانها ... وضبة قوم بأسهم غير كاذب

والنفيان : معناه رشاش السحاب ، شبه به من يتطرف من الجيش

أحدهم أستاذا للآخر ، ولأن ثمامة مشهور بالاعتزال . وشيخ الجاحظ فى ذلك النظّام .

وحين اشتهر أمره فى بغداد ، وعرفته مجالس العلم والمناظرة مجادلا ظاهر الحجة ، قوى البديهة ، مسكت الجواب ، ذا حكايات ظريفة ، ونوادر طريفة - رحبت به مجالس الوزراء ، وفتحت له أبواب الخلفاء ، فاختلف إليهم وأصبح من الندامى والسمار ، بل فى منزلة المستفتى المستشار ، أنس به الرشيد وقربه إليه ، ثم غضب عليه لزندقته وظهور كذبه فى أمر أحمد بن عيسى بن زيد [1] فأمر بحبسه - كما يقول الطبرى - فى سنة ١٨٦ وأسلمه إلى سجان يدعى سلاما الأبرش وأشار إليه بالتضييق عليه وتعذيبه فسجنه — كما يعترف ثمامة — فى بيت ضيق خرب مملوء بأجحار الهوام والجرذان ، وليس به من المنافذ إلا ما يدس منه الطعام ، وقد استعطف الرشيد بأبيات فعفا عنه وقربه وجعله نديمه ، لما رأى من نضج عقله ، وحسن أدبه ، وحلاوة حديثه .

واتصل بالمأمون بعد الرشيد فحظى بمكانة لا تسامى ، وجعله منه بمنزلة الاستاذ الخبير ، والناصح المستشار ، وقد عرض عليه الوزارة مرتين فأباها ، لا زهداً فى المنصب وقناعة بما يملك ، وإنما توقياً لأخطار الوزارة ، وبعداً عن غيرها ، وسلامة من تقلب الخلفاء وتغيرهم ؛ وقد أعرب هو نفسه عن ذلك فقال : لما قتل الفضل ابن سهل بعث إلى المأمون — وكنت لا أنصرف من عنده إلا إلى منزلى ، ثم يأتينى رسوله فى جوف الليل فأذهب إليه — وكان قد أهلنى لمكان الفضل فى الوزارة ، فلما رأيته قد ألح على فى ذلك تعاللت عليه وقلت : يا أمير المؤمنين ، « إنى لا أقوم بذلك ، وإنى لأضن بموضعى من أمير المؤمنين وحالى أن تزول

(١) هو من نسل الحسين بن على ، كان خارجا على الخلفاء العباسيين متعباً لهم ، ومات فى زمن المتوكل بعد إسحاق الموصلى فى سنة ٢٣٥ هـ ، وقد قال المتوكل لما بلغه نعيه ، وكان مغتما لوفاة إسحاق : تكافأت الحالتان ، وقام الفتح بوفاة أحمد (وما كنت آمن وثبته على) مقام الفجيعة بإسحاق فالحمد لله على ذلك .

عنده ، فإنى لم أر أحداً تعرض للخدمة والوزارة إلا لم يكن لتسلم حاله ، ولا تدوم منزلته . ، فقال المأمون : أشر يا ثمامة على برجل صالح لما أريد . فأشار عليه بأحمد ابن أبى خالد الأحول... فأنت ترى من نص عبارته أنه كان راغباً عن الوزارة ، لازاهداً كما كان يفعل نظراؤه من المعتزلين الزاهدين أمثال عمرو بن عبيد وواصل والجعفرين ، الذين كانوا يرفضون ولاية الأعمال والقضاء ، بل يأبون مقابلة الخلفاء ، ويقبضون أيديهم عن أخذ العطاء - وإنما لأنه شديد الحذر ، بصير بالعواقب ، مقدرما ينوب صاحب السلطان من خطر ؛ وكيف لا يقدر ذلك وقد رأى وسمع مالاقاه الوزراء فى هذه الدولة ، بل جرب هو نفسه تقريبه ثم إبعاده ، وإجلاله ثم إهانته وسجنه ، وقد ظل ثمامة أثيراً عند المأمون ، محبوًّا بالعطاء ، مقدماً فى مجالس العلم والمناظرة ، حتى مات كما قال ابن شاكر فى كتابه المخطوط عيون التواريخ سنة ٢١٣ هـ .

معتقده :

كان ثمامة من القدرية الذين يجحدون القدر أو ينسبون إلى التكذيب بما قدر الله من الأشياء ، وقد أراد بعض متكلميهم أن ينفى هذه التسمية عنهم ، متعللا بأنهم ينفون القدر ولا يثبتونه ، ومن يثبته أولى بهذه التسمية ؛ ولكنه فى هذا التعليل يموه يلبس الباطل ثوب الحق ، لأنهم ينكرون القدر لله ويثبتونه لأنفسهم ، فهم قدريون يثبتون القدر لهم ، وتسميتهم بهذا مولدة ، إذ لم تعرف العرب القدرية بهذا المعنى ؛ ولثمامة طائفة نسبت إليه ذكرها الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل ، وذكر خلاصة مذهبه الذى انفرد به عن أصحابه فحصره فى :

(١) أن الأفعال المتولدة لا فاعل لها

(٢) أن الكفار والمشركين واليهود والنصارى والمجوس والزنادقة والبهائم وأطفال المسلمين يصيرون تراباً يوم القيامة .

(٣) أن الاستطاعة هي السلامة وصحة الجوارح وخلوها من الآفات وهى موجودة قبل الفعل

(٤) أن المعرفة متولدة من النظر ، فهى كسائر الأفعال المتولدة لا فاعل لها .

(٥) أن المعارف كلها ضرورية ، ومن لم يضطر إلى معرفة الله فهو معذور مسخر للعباد كالحيوان .

(٦) أن العالم فعل الله بطباعه

وبالتأمل والاطلاع على آراء المعتزلة نجد أن الأفعال المتولدة فى مذهب كثير منهم لا فاعل لها ، غير أن ثمامة توسع وأدخل فيها المعرفة وحكم بأنها متولدة من النظر ، وليس لك فيها إلا توجيه الإرادة . أى أنها ضرورية ، وذلك رأى الجاحظ وطائفته أيضاً ، ويترتب على القول بهذا أن آراء الإنسان وعقائده ليست مكتسبة ، بل هى مفروضة عليه فرضاً ، وأنها نتيجة لازمة لتكوين عقله وما يعرض من الآراء ، فمن عرض عليه دين فلم يستحسنه عقله يضطر إلى عدم الاستحسان وليس فى قدرته أن يستحسن ، ومن أسلم عن نظر فإسلامه غير مكتسب ، ومن كفر فكفره غير مكتسب ، أى لا دخل له فى كفره أو إيمانه ، وأن الأضرار التى تحدث غير مباشرة للفاعل لا عقاب عليها ولا مسئولية فيها ؛ فإذا أشعل إنسان عوداً فأحرق بيتاً وتولد عن الإحراق موت أشخاص - وعن موتهم أضرار لا يسأل من أشعل عن هذه الأضرار ، لأنه قد يكون ميتاً والميت لا يمكن نسبة شىء إليه ، ولو تأملوا فى ربط المسببات بأسبابها ، وإسناد الحوادث إلى أصولها ، لصح عندهم أن المتولدات راجعة إلى الفاعل الأول بتسلسلها عما قبلها .

وبقراءة كتاب الانتصار لابن الخياط يعلم أن مذهب ثمامة فى الكفار والمشركين الخ ، وعقيدته فى أن العالم فعل الله بطباعه - مدسوس عليه ؛ فقد قال ابن الخياط فى ص ١٧٢ :

« وأما اليهود والنصارى والزنادقة فكفار عنده مشركون عامدون للمعصية والكفر ، والكفار عنده فى النار خالدون ، وإنما قال ثمامة : إن من لم يعرف فهو معذور عند الله وهو ليس يهودياً ولا نصرانياً ولا زنديقاً إذا كان جاهلا ، ولكنه مع قوله هذا يحكم على جميع من أظهر الكفر أنه كافر فى حكم الإسلام »

وقال فى الرد على أن العالم فعل الله بطباعه فى ص ٢٢ ، ٢٣ :

« ويله من حكى هذا القول عن ثمامة ! أو ليست كتب ثمامة معروفة وقوله

مشهوراً ؟ وهل المطبوع عند ثمامة إلا الأجسام المعتملة المحدثة ؟ فأما القديم الذى ليس بجسم فسبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيرا ، وشيء آخر . وهو أن المطبوع على أفعاله عند أصحاب فعل الطباع هو الذى لا يكون منه إلا جنس واحد من الأفعال كالنار التى لا يكون منها إلا التسخين ، والثلج الذى لا يكون منه إلا التبريد ؛ وأما من تكون منه الأشياء المختلفة فهو المختار لأفعاله لا المطبوع عليها »

وبدهى أن من فى الكون وما فيه مختلف جد الاختلاف فى أجناسه وأنواعه حجومه ومقاديره ، ألوانه وأشكاله ، حركاته وسكناته ، فلا يمكن صدوره مطبوعاً ؛ وباطل أن يكون موجده أوجده بطباعه كما تقوّل ابن الراوندى وأشرك غيره معه كذباً ليكسب آراءه الوجاهة والاعتبار

ومن رد ابن الخياط على ابن الراوندى يعلم ما فى كتاب الشهرستانى من التساهل فى النقل وتحامله عليه فى وصفه بأنه « كان جامعاً بين سخافة الدين وخلاعة النفس » كيف والخلفاء كانوا يجلونه ويحترمونه ؟

مناظراته :

كان ثمامة قويا فى الجدل ، بارعا فى دحض الحجج وإسكات المناظرين ، يأخذ الطريق عليهم أحيانا فلا يدع لهم مسلكا من حسن ما استقصى وقسم ، ويسألهم أحياناً حتى إذا استوت حججهم فى أجوبتهم عمد إليها فأسقطها حجة حجة بعد أن أشهدهم على ضعفها ، وقد ناظر وزراء وقضاة وعلماء ومغمورين لا نعرف عن صفاتهم شيئاً ، وتمكن بقاطع براهينه وقوة بيانه ، وقرب منزلته من الخلفاء ، من إفحام المجادلين ؛ ولا تحسبن أنه فاز فى ميدان الجدل دائما ، فسترى أن مجنونا أسكته ، وطفلا أفحمه ، وفوق كل ذى علم عليم ، وليس بغريب أن يغلب العوام والأطفال والنساء فطاحل العلماء وفلاسفة كباراً إذا كان المعول على البداهة والاعتماد على الذكاء وقوة الملاحظة ؛ وقديما قرأنا فى كتب التاريخ أمثالا عدة توضح ذلك أجلى توضيح ، وننقل هنا بعض مناظراته لترى كيف كان يفوق فى حواره بالظفر ، أو يرمى بالبهت وقصر النظر .

(١) ناظر يحيى بن أكثم [١] فى خلق الأفعال فقال : ليست تخلو أفعال العباد من أمور : أن تكون كلها من الله ليس للعباد فيها صنع ، أو أن يكون بعضها من العباد وبعضها من الله . فإن زعمت أن ليس للعباد فيها صنع نسبت إلى الله كل فعل قبيح وكفرت ، وإن زعمت أنها من الله ومن العباد جعلت الخلق شركاء لله فى فعل الفواحش والكفر وكفرت أيضا ، وإن زعمت أنها للعباد ليس لله فيها صنع صرت إلى ما أقوله .

(٢) حكى الجاحظ أن بشر بن المعتمر كان فى مجلسه وعنده أصحابه ومعه مجبر يسألهم ويقول : أنتم تحمدون الله على إيمانكم ؟ وهم يقولون : نعم . فيقول لهم : فكأنه يحب أن يحمد على ما لم يفعل وقد ذم ذلك فى كتابه . فيقولون له : إنما ذم من أحب أن يحمد على ما لم يفعل ممن لم يعن عليه ولم يدع إليه . وهو يشغب عليهم — إذ أقبل ثمامة بن أشرس ، فقال بشر للمجبر : قد سألت القوم وأجابوك ، وهذا أبو معن فاسأله عن المسئلة . فقال له : هل يجب عليك أن تحمد الله على الإيمان قال : بل هو يحمدنى عليه لأنه أمرنى به ففعلته ، وأنا أحمده على الأمر به والتقوية عليه والدعاء له . فانقطع المجبر ، فقال بشر : شبعت فسهّلت .

(٣) قال ثمامة أنشدنى أبو العتاهية :

إذا المرء لم يعتق من المال نفسه تملكه المال الذى هو مالكه
ألا إنما مالى الذى أنا منفق وليس لى المال الذى أنا تاركه
إذا كنت ذا مال فبادر به الذى يحق وإلا استهلكته مهالكه

فقلت له : من أين قضيت بهذا ؟ فقال : من قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت . فقلت له : أتؤمن بأن هذا قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأنه الحق ؟ قال : نعم . قلت :

---

(١) هو محمد يحيى بن أكثم التميمى ، وقال الشهاب الخفاجى : إنه ابن أكتم بالتاء وجزم بذلك فى شرح الدرة ، ولكن الأول هو المشهور . كان قاضياً للرشيد ، ثم وزر للمأمون ، وكان من بحور العلم لولا دعابة فيه ، ومن تلاميذه الترمذى والسراج ، وتوفى سنة ٢٤٢ هـ

فلم تحبس عندك سبعاً وعشرين بدرة فى دارك ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تزكى ولا تقدمها ذخراً ليوم فقرك وفاقتك ؟ فقال : يا أبا معن ، والله إن ماقلت هو الحق ، ولكننى أخاف الفقر والحاجة إلى الناس . فقلت : وبمَ تزيد حال من افتقر عن حالك وأنت دائم الحرص دائم الجمع شحيح على نفسك لا تشترى اللحم إلا من عيد إلى عيد ؟ فترك جواب كلامى كله ثم قال لى : والله لقد اشتريت فى يوم عاشوراء لحماً وتوابله وما يتبعه بخمسة دراهم . فلما قال هـذا القول أضحكني حتى أذهلنى عن جوابه ومعاتبته ، فأمسكت وعلمت أنه ليس ممن شرح الله صدره للأسلام .

(٤) قال رجل لثمامة : إن لى إليك حاجة . قال ثمامة : ولى اليك حاجة . قال : وماهى ؟ قال : لا أذكرها حتى تضمن قضاءها . قال : قد فعلت . قال : ثمامة حاجتى ألا تسألنى هذه الحاجة . قال : رجعت عما أعطيتك . قال ثمامة : لكنى لا أرد ما أخذت الخ

(٥) قال رجل لثمامة : أنت إن شئت قضى فلان حاجتى . فقال ثمامة : أنا قدرى ، ولم تبلغ قدريتى هـذا كله ؛ إنما قلت : إن شئت فعلت ولم أقل إن شئت فعل فلان

(٦) دخل أبو العتاهية على المأمون فطعن على أهل البدع وجعل يخص القدرية باللعن ؛ فقال له المأمون : أنت صاحب شعر ولغة ، وللكلام قوم . قال : يا أمير المؤمنين ، لعمرى إن صناعتى لتلك ، ولكننى أسأل ثمامة عن مسألة فقل له يجيبنى . فقال له المأمون : لا ترد هذا فلست فى الكلام من طرزه . فقال : يتفضل على أمير المؤمنين بذلك ؟ فقال : يا ثمامة ، إذا سألك فأجبه . فأخرج أبو العتاهية يده من كمه ثم حركها وقال : يا ثمامة ، من حرك يدى ؟ قال : من أمه لخناء . فقال : شتمنى والله . فقال ثمامة : ناقض والله . فقال له المأمون : قد أجاب عن المسألة ، فإن كان عندك زيادة فزده . فانصرف أبو العتاهية

وإنما قال ثمامة : ناقض والله . لأن أبا العتاهية كان مجبراً وثمامة قدرى

(٧) قال ثمامة : خرجت من البصرة أريد المأمون ، فإذا مجنون مشدود حسن الوجه كأنه صحيح العقل ، فقال لى : ما اسمك ؟ قلت : ثمامة . قال : أمتكلم ؟

قلت : نعم. قال : لم جلست على هذه الآجرة ولم يأذن لك أهلها ؟ قلت : رأيتها مبذولة فجلست عليها . قال: فلعل لأهلها فيها تدبيراً غير البذل ... ثم قال : هنا مسألة أسألك عنها . قلت : هات . قال : ألست القائل : إن العبد لا ينفك عن نعمة يجب الشكر عليها أو بلية يجب الصبر لديها ؟ فقلت : نعم . قال : لو أصبت بما يلزمك عيباً ويصمك بالعار ، أهذا نقمة أم نعمة ؟ قال ثمامة : فتحيرت ولم أدر ما أقول ؛ فقال : وهنا مسألة أخرى . فقلت : هات . قال لى : أخبرنى متى يجد صاحب النوم لذة النوم ؟ إن قلت قبل أن ينام ، أحلت ؛ لأنه يقظان ، وإن قلت فى حال النوم ، أبطلت ، لأنه لا يعقل شيئاً ، وإن قلت بعد قيامه ، فقد خرج عنه ، ولا يوجد الشىء بعد فقدانه ، قال ثمامة : فبهت ولم أستطع جواباً . فقال المجنون : مسألة أخرى . تزعم أن لكل أمة نذيراً ، فمن نذير الكلاب ؟ قلت : لا أدرى الجواب. فقال : أما الجواب عن التقسيم فيجب أن تكون الأقسام ثلاثة : نعمة يجب الشكر عليها ، وبليتان : بلية يجب الصبر لديها ، وبلية يمكن التحرز عنها لكيلا ينضم العار إليها ، وأما الجواب عن النوم ، فمحال أن يدرك النائم لذة النوم ، وأما النذير ، فقد أخرج من كمه حجراً وقال : إذا عدا عليك كلب فهذا نذيره . ورمانى بالحجر فأخطأنى ، فلما رآه قد أخطأنى قال : فاتك النذير أيها الكلب الحقير ! فتركته وانصرفت : ولم أر مجنوناً بعده .

(٨) قال الجاحظ : قال ثمامة : دخلت إلى صديق لى أعوده ، وتركت حمارى على الباب ، ولم يكن معى غلام ، ثم خرجت فإذا فوقه صبى ، فقلت : لم ركبت حمارى بغير إذنى ؟ قال : خفت أن يذهب فحفظته لك . قلت : لو ذهب كان أحب إلى من بقائه . قال : فإن كان هذا رأيك فى الحمار فاعمل على أنه قد ذهب وهبه لى واربح شكرى . فلم أدر ما أقول .

والمناظرتان الأخيرتان غلب فيهما ثمامة وانقطع عن الإجابة

مجونه :

من يتتبع مناقشات ثمامة ونوادره لا يسعه إلا أن يحكم عليه بأنه كان قليل الاكتراث ، لا يحافظ على سمت العلماء ووقارهم ، فلم يمنعه الحياء أن ينطق بالعوراء

أمام المأمون فى مناقشته أبا العتاهية ، ولم يستتر حين كان يرتكب ما يوجب استهجانه ونقده ، ولم يبال بالعامة فى شىء ؛ وله فى تحقيرهم وعدم الاعتداد بهم الكثير ؛ ولقد كان يحسبهم قطيعاً يساق بالعصا ويتبع كل ناعق ، وبلغ من استخفافه بهم أنه حرض المأمون أن يلعن معاوية ، ويكتب بذلك كتاب يقرأ على العامة فى يوم الدار ؛ وهم المأمون بذلك لولا أن أشار عليه يحيى بن أكثم فقال : « الرأى أن تدع الناس على ما هم عليه ، وألا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق ، فإن ذلك أصح فى السياسة وأحرى فى التدبير » فمال المأمون إلى رأى يحيى ، فقال ثمامة : وما العامة ؟ والله لو وجهت إنساناً على عاتقه سواد ومعه عصا لساق إليك بعصاه عشرة آلاف منها ، وقد سواها الله بالأنعام فقال : « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » . وحكى للمأمون مشهداً رآه فأضحكه ، وإنا لذاكرون بعض نوادره لنؤيد ما إليه قصدنا بهذا العنوان

(١) خرج من منزله بعد المغرب وهو سكران ، فإذا هو بالمأمون قد ساق إليه وحاذاه ، وقد ركب فى نفر ؛ فلما رآه ثمامة عدل عن طريقه ، وبصر به المأمون فساق إليه وحاذاه أيضاً ، فوقف ثمامة ، فقال له المأمون : أنت ثمامة ؟ قال : إى والله . قال : سكران أنت ؟ قال : لا والله . قال : أو تعرفنى ؟ قال : إى والله . قال : فمن أنا ؟ قال : لا أدرى والله ! فضحك المأمون وانثنى عن دابته حتى كاد يقع

(٢) قال ثمامة : مررت بإبراهيم الموصلى ويزيد حوراء وهما مصطبحان وقد أخذا بينهما صوتاً يغنيانه ، هذا بيتاً وهذا بيتاً ، وهو :

أيا جبلى نعمان بالله خليا سبيل الصبا يخلص إلى نسيمها
فإن الصبا ريح إذا ما تنسمت على نفس مهموم تجلت همومها

قال ثمامة : فو الله ما خلت أن شيئاً بقي من لذات الدنيا بعد ما كانا فيه أليس فى قوله استصواب للسكر وحث عليه واستنكار لبقاء لذات الدنيا بعد السكر والغناء ؟ وفى ذلك من الاستهتار والمجانة ما فيه .

(٣) ومن نوادره وأجوبته المسكتة معاً أن قالوا له حينما احترقت داره : « ما أسرع خلف الحريق ! » فقال : « فأنا أستحرق الله »

(٤) وما رواه الحسن بن رجاء أن سلاما الأبرش سجان هرون الرشيد جلس يقرأ عشية فى المصحف : « ويل يومئذ للمكذبين » فقال له ثمامة من السجن : إنما هى للمكذبين . وجعل يشرح له ويقول : المكذبون هم الرسل ، والمكذبون هم الكفار . فقال سلام : « قد قيل لى إنك زنديق ولم أقبل » ولما رضى الرشيد عن ثمامة وأطلقه سأل جلساءه عن أسوإ الناس حالا فقال : كل واحد شيئاً أما ثمامة فقال : « أسوأ الناس حالا عاقل يجرى عليه حكم جاهل » قال ثمامة : فتبينت الغضب فى وجه الرشيد، فقلت : يا أمير المؤمنين « ما أحسبنى وقعت بحيث أردت » قال : لا والله ، فاشرح . فحدثته بحديث سلام ، فجعل يضحك حتى استلقى وقال : صدقت ، والله لقد كنت أسوأ الناس حالا

أدبه

ليس تحت أيدينا - بحسب ما وسعنا البحث - من الأدلة الناطقة بعلو كعب ثمامة فى الأدب شىء يذكر ، فلم نقرأ له مقطوعات شعرية رائعة تشهد له بسمو الخيال أو البراعة فى الابتكار . ولم نقف له على رسائل دبجها قلمه وأساتها يراعته ، ولم نحفظ عنه خطبا رددتها المحافل وتناقلها الرواة ؛ ولكننا نقرأ شهادات من معاصريه تقر بأنه كاتب بليغ وأديب ضليع ومناظر بارع ، وتصف ألفاظه ومعانيه بصفات البلاغة مجتمعة والفصاحة كاملة ، ولعل آثاره التى بنو احكمهم عليها اندثرت فيما اندثر من نتاج القرائح وثمرات الأفكار ؛ إما حقداً عليه لمنزلته من الخلفاء وتمكنه من تجريح المناظرين أمامهم ، وإما لأنها كانت تشتمل على مذاهب لا ترضاها العامة وقد نالت منه ما نالت فبادلته بالتحقير إخفاء لأثره وتضييعا لنتاجه ، وإما لأنها كانت تتضمن قوارص ومخازى تحز فى الخصوم وتعيب جلساءه ، ولم يصل إلينا إلا نتف من أخباره ونوادره ، وطرف من مناقشاته ، وإنها مع قلتها لتبين لنا مقدار تأثر الأدب بعلم الكلام وتجلى قوته البلاغية ، والجاحظ ممن يقرون له بالأدب و يعترفون ببلاغته ؛ وحسبك بإقرار الجاحظ واعترافه شهادة

قال الجاحظ : يقول ثمامة : « كان جعفر بن يحيى البرمكى أنطق الناس. قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة وإفهاما يغنيه عن الإعادة ، ولو كان فى الأرض

ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة ، وقال ثمامة أيضا : « ما رأيت أحداً كان لا يتحبس ولا يتلجلج ولا يتنحنح ولا يرتقب لفظاً قد استدعاه من بعد ، ولا يتلمس التخلص إلى معنى قد تعصى عليه طلبه - أشد اقتداراً ولا أقل تكلفا من جعفر بن يحيى » يقول الجاحظ بعد هذا القول : « وهذه الصفات التى ذكرها ثمامة فوصف بها جعفر بن يحيى كان ثمامة ابن أشرس قد انتظمها لنفسه ، واستولى عليها دون جميع أهل عصره ؛ وما علمت أنه كان فى زمانه قروى ولا بلدى بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف ، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ، ما كان بلغه ؛ وكان لفظه فى وزن إشارته ، ومعناه فى طبقة لفظه ، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك ؛ قال بعض الكتاب :

« معانى ثمامة الظاهرة فى ألفاظه ، الواضحة فى مخارج كلامه ، كما وصف الخريمى شعر نفسه فى مديح أبى دلف حيث يقول :

له كلم فيك معقولة إزاء القلوب كركب وقوف »

انتهت شهادة الجاحظ ، وهى تعترف فى صراحة ووضوح بأن منزلة ثمامة من البلاغة منزلة من تملكوا زمامها وتصرفوا فيها بما يعجب ويطرب .

ومما يدل على بلاغته وفصاحته النبذ التى نذكرها بعد :

(١) سأل المأمون يحيى بن أكثم وثمامة بن أشرس وعلى بن عبيدة الريحانى عن العشق ما هو ؟ فقال على بن عبيدة : العشق ارتياح فى الخلقة ، وفكرة تجول فى الروح ، وسرور منشؤه الخواطر ، له مستقر غامض ، ومحل لطيف المسالك ، يتصل بأجزاء القوى وينساب فى الحركات .

وقال يحيى : العشق سوانح تسنح للمرء تؤثرها النفس ويهيم بها القلب . قال ثمامة : يا يحيى ، إنما عليك أن تجيب فى مسألة فى الطلاق أو عن محرم يصطاد ظبياً ، أما هذه فمسألتنا . فقال المأمون : ما العشق يا ثمامة ؟ قال :

إذا تقادحت جواهر النفوس بوصف الشاكلة ، أحدثت لمع برق ساطع تستضيء به نواظر العقول ، وتشرق له طبائع الحياة ، فيتولد من ذلك البرق نور

خاص بالنفس متصل ، بجوهريتها ، يسمى عشقا . وقيل : إنه قال : « العشق جليس ممتع ، وأليف مؤنس ، وصاحب مالك ، وملك قاهر ، مسالكه لطيفة ، ومذاهبه غامضة ، وأحكامه جائرة ، ملك الأبدان وأرواحها ، والقلوب وخواطرها ، والعيون ونواظرها ، والعقول وآراءها ، وأعطى عنان طاعتها وقياد ملكها وقوى تصرفها ؛ توارى عن الأبصار مدخله ، وغمض فى القلوب مسلكه » فقال له المأمون : أحسنت يا ثمامة ؛ من يصف العشق يصفه مثلك ، فإنك طبيبه الحاذق . وأعطاه ألف دينار . وأنت ترى فى تعريفه الأول مذهبه من التولد والاتصال والامتزاج ، وتراه فى تعريفه الثانى يستقصى الصفات والآثار على طريقة المتكلمين والفلاسفة حين يصفون أو يشرحون

(٢) روى الجاحظ عن ثمامة يصف تلاعب الجرذان وقتالها حين حبسه الرشيد فى بيت ضيق ملىء بأجحارها :

« لم أر قط أعجب من قتال : كنت فى الحبس وحدى ، وكان فى البيت الذى أنا فيه جحر فأر يقابله جحر آخر ، فكان الجرذ يخرج من جحره فيرقص ويتوعد ويصوب بذنبه ويرفع صدره ويهز رأسه ، فلا يزال كذلك حتى إذا برز الآخر ، دخل فى جحره وصنع الآخر مثل ذلك ؛ فلا يزالان كذلك فى الوعيد وفى الفرار وفى التحاجز وفى ترك التلاقى ، إلا أنى فى كل مرة أظن الذى يظهر لى من جدهما وشدة توعدهما أنهما سيلتقيان لشىء أهون منه العض والخمش ، ولا والله إن التقيا قط ؛ فعجبت من وعيد دائم لا إيقاع معه ، ومن فرار دائم لا ثبات معه ، ومن فرار لا يمنع العودة ، ومن إقدام لا يوجب الالتقاء ، ليس هو إلا الصخب والتشبث . فلم يعد كل واحد منهما حتى يدخل جحره ، وما زالا كذلك حتى أتى الله تعالى بالفرج وخلى سبيلى .

(٣) كتب ثمامة إلى الرشيد من الحبس :

عبد مقر ومولى شت نعمته ... بما تحدث عنه البدو والحضر
أوقرته نعما أتبعتها نقما ... طوارقا فبها فى الناس يشتهر
ولم تزل طاعتى بالغيب حاضرة ... ما شانها ساعة غش ولا غير

فإن عفوت فشيء كنت أعهده ٠ أو انتصرت فمن مولاك تنتصر

ولم نر له فيما وصلت إليه أيدينا من المصادر شعراً غير هذا ، ولم يحدثنا من كتب عنه أنه شاعر؛ وما قدمناه عن ثمامة لا يجعل صلته بالأدب وثيقة ذات بال، فترجمته فى علم الكلام أليق وأولى .

على السباعى

المصادر :

البيان والتبيين للجاحظ ، الحيوان له أيضا ، الأغانى ، أمالى المرتضى ، عيون التواريخ لابن شاكر المخطوط بدار الكتب ، تاريخ الخطيب البغدادى ، معجم الأدباء ، الفهرس لابن النديم وتكملته ، تاريخ الطبرى ، الانتصار لابن الخياط .

حافظ الراوية

للأستاذ محمد هاشم عطية

فى هذه الفترة من نهضتنا الحاضرة لم يقتصر شاعرنا الكبير على ما أذاعه من آثار عبقريته فى أشعاره الخالدة ، ولكنه استطاع أن يستأثر بنصيب غير قليل من تلك المعونة الطيبة التى كانت موجهة من كل ناحية لأحياء اللغة ونشر آدابها العالية . ومحاولة الاسترداد لبعض ماسلبته من مجدها القديم فى عصورها الزاهرة ، ففى أوائل هذا الجيل تطلعت الأنظار إلى الشعر العربى ، وأصغى أبناء العربية إلى ما تدوى به منابر الأمصار الكبرى فى بلاد المشرق ، ومايسيره فحول شعرائها من شوارد القريض ، حتى أوشكوا أن يعيدوا إلى الأذهان ما كان للشعر والشعراء فى دور الأمراء ، وقصور الملوك ، أيام ازدهار الخلافة . واستبحار العمران العربى فى الدولة ، وفى ذلك الوقت كان الناس لا يزالون يتخذون مجالسهم فى صحون الدور ، ومناظر المنازل ، وتقوم الليالى الساهرة فى كثير من قصور السروات على بغاة الحديث والسمر ، الذين يتطرفون بما كان يدور فى هذه المجامع الراقية من المجاذبة والبوادر المرتجلة ، والطيب المأثور عن أمثال حافظ ، والبابلى ، والمويلحى ، أولئك الذين كان اجتماع ثلاثتهم فى وقت واحد يعد حقاً منقبة نادرة فى تاريخ مصر الحديث ، حتى سعى المتأدبون والظرفاء إلى حلقاتهم ، وطلبوهم فى مظانهم ، و تَنَفَّقُوا عندهم بكل موهبة ، وتطيبوا لهم بكل فن ، وتنبه الناس فى تقليدهم الأدبى إلى مسلك البارودى ، وحافظ ؛ فى الاحتفال باللفظ ، والتوخى لجزالة المنطق ، والإيثار لجلالة العبارة ؛ وكان حافظ إمام هذه الطبقة فى الاستظهار لجيد الشعر ، والمعرفة بأوابد المتكلمين ، ومقامات البلغاء ؛ وكان طويل الملازمة لآثار عشرة من أعيان شعراء العربية أكثر من غيرهم من شعراء العصور الأخرى ، لا نعلم أنه اجتمع أمثالهم فى نحو قرنين متعاقبين من الزمان لأهل لغة من لغات العالم ، وهم :

بشار ، وأبو العتاهية ، ومسلم ، وأبو نواس ، وأبو تمام ، والبحترى ، وأبو الطيب ،

وأبو العلاء ، وابن الرومى ، والشريف الرضى ؛ ـ فملأ المحافل بفرائدهم ، والتنويه ببلاغاتهم ، وحمل تلاميذه والمنتحلين لمذهبه على الشغف بدراستهم ، والتفقد لمعانيهم ، وكان أكثر المتأدبين فى ذلك الوقت من نشأ هذا العصر إنما يلمون بالمتداول المشهور عن هؤلاء ، من مثل ، أو حكمة ، فى بيت أو بيتين أو أكثر من ذلك مما لا يبلغ أن يكون قصيدة ، ويدق عن فطنهم فى الجملة ما لهؤلاء العرانين من المنخول المهذب ، والموصوف المبتهل . من حر القول ، وصريح الكلام ، وقد يكون بين أيديهم فى الكتب ، وفيما يطالعونه من الدواوين ، وهم يمرون به لا يعرفونه ، ولا يقدرون على استخراجه ، إذ كان ذلك إنما يقع من عمل البصيرة القادرة ، والخاطر الثاقب ، ومن طول التلبث فى أعقاب الكلام ، ولطف الترقب لمخارج المتكلمين ، مع الاستعانة بالملكات الموهوبة ، والروية القوية ، وطول التجلد على التكرار والمراجعة ، مما كان لحافظ منه حظ قلما شركه فيه أحد من معاصريه ، فأخذ (رحمه الله) بهذه الدراسة العالية ، والمطارحة المشهودة ، يثير العزائم إلى احتمال أمانة اللغة ، ويستكثر حوله من عشاق الأدب القديم ، ويصنع فى مصر صنيع أئمة الرواة فى « بغداد » أيام كانت مدرسة الدنيا ، وعاصمة العالم فى عهود مجدها الذهبية ، بالإملاء من ذاكرته ، والقراءة من غيب صدره ، لكل جديد فائق ، ولكل بيت عين ، ولكل محبرة مطولة ، أو مقطوعة من محاسن أولئك الشعراء ، وكانت طريقته فى ذلك كما يعرفها من كانوا يداخلونه أو يعيشون بعض الوقت معه فى داره ، أنه فى الغالب يزيل تجاليد الكتب ويتخذ منها كراسات صغيرة يخف عليه تناولها فيما يتفق له من الأحوال : قاعداً ، أو قائماً ؛ أو متكئاً على وسادة ، أو مستلقياً فى فراش ، ثم يفرغ منها وقد وعاها ، وألم بما نبه السلف عليه من عيبها وجمالها ، وأضاف إلى ذلك من عنده ما يقع فى نفسه ؛ ويتكرر ذلك منه .

وكان (رحمه الله) من أدرى الناس بمناقب الكلام ، وأفرسهم بالبيت من الشعر ، فيغدو أو يروح على الناس وما يكاد يلقاه صديق ، أو يضمه مع جماعة مجلس ، حتى يبتدر الكلام ، لا يحتال على فرصة ، ولا يجتهد فى طلب مناسبة . وقد

يواقفهم فى الطريق ، أو يعارض المارة منهم ، أو يناديهم إذا رآهم من كثب ، وكان يحمد رأيهم فى النقد ، ومعرفتهم بالأدب ، ليسمعهم ما قرأه اليوم مثلا لبشار الذى يعرفون من بائيته قوله المشهور :

وَمَن ذا الذى ترضى سجاياهُ كلُّها كفى المرء نبلا أن تعُدّ معايبه

ثم يعرض منها أروع ما تضمنته من تصوير الجماعة من الوحش فى البادية تشكو لجابها أو قائدها بما ظهر فى عينيها من الانكسار والفترة ـ مانالها من شدة العطش والحر إذ يقول :

ولما تولى الحر واعتصر الثرى لظى الصيف من نجم توقد لاهبه
غدت عانة تشكو بأبصارها الصدى إلى الجاب إلا أنها لا تخاطبه

ثم لا يزال يعجبهم من حسنه ، ومن القدرة على تمثيله ، وهو فى خلال ذلك يلقى على ما ينشره من جهارته ، وحلاوة أدائه ، وإشباعه لإملائه ، ما يبهر العقول ، ويستخف إلى طلب المزيد . وقد يدير الحديث إلى أبى نواس ، وكان مخصوصا به ومداحا له ، فيكثر منه حتى يكون آخر ما يتمثل به من شعره أبيات فى خمرية له لامية ينتصر فيها لمثل الآراء المتطرفة من مذاهب الثوريين فى زماننا هذا ، وهى قوله :

سأبغى الغنى ، إما جليس خليفة يقوم سواء أو مخيفَ سبيل
بكل فتى لا يُستَطَارُ جنانه إذا نوه الزحفان باسم قتيل
لِنَخْمِسَ مال الله من كل فاجر أخي بِطْنَةٍ للطيبات أكول
كفى حزناً أنَّ الجَوَادَ مُقَتَّرٌ عليه ، ولا معروف عند بخيل
ألم تر أن المال عون على التُّقَى وليس جواد مُعْدِم كَمُنِيلِ

وكثيراً ما كان يقتضب هذا الترسل بالإلقاء لبادرة ، أو الانتهاز لغميزة يتضاحك بها أهل المجلس ، ويتملحون عليها ساعة . وقد يتلاحق ذلك من غير واحد منهم ، ثم يعود بهم إلى ما كانوا فيه ، أو يقومون إلى ما أعد لهم من طعام أو نزل ، وتراه فى مقام آخر يمضى إلى أبى تمام ، وكان يتولاه ويؤثره ويقدمه ، فيعدل عن مشهوراته كقصيدته .

« السيف أصدق أنباء من الكتب »

وكالأخرى :

« كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر »

إلى طواله وأعيان شعره فيتقلب بين قوافيه ، من قوله :

« عَلى مِثْلِهَا مِنْ أَرْبُعٍ وَمَلاَعِبِ »

وقوله :

« غَدَتْ تَستَجِيرُ الدَّمْعَ خَوْفَ نَوَى غدِ »

حتى يصل إلى مثل قصيدته :

الحَقُّ أَبْلَجُ وَالسُّيُوفُ عَوَارِ فَحذارِ مِنْ أَسَدِ الْعَرِينِ حَذَارِ

وهى من أعاجيب أبى تمام ، فيطيل وقفته لها ، حتى إذا وصل إلى ذم الأفشين فى قوله منها :

كَم نعمة لله كانت عنده فكأنها فى غربة وإسار
كُسِيَتْ سَبَائِبَ لؤمه فَتَضَاءلت كتضاؤل الحسناء فى الأَطْمَار

قرظه واستحسن اغتراب النعمة عنده :

وكنا حوله ليلة وهو يتغنى بهذه القصيدة على طريقة جماعة المتكسبين بالأشعار العامية ، فبلغ إلى قوله منها :

سود اللباس كأنما نَسجَتْ لهم أيدى السَّمُوم مَدَارِعا من قار
بَكَرُوا وَأَسْرَوا فى مُتُون ضَوَامِرٍ قِيدَتْ لهم من مَرْبَطِ النَّجَّارِ
لا يبرحون ومن رآهم خالهم أبداً على سفر من الأسفار

ثم التفت إلى الحاضرين ثم قال : « ما ذا يصف الشاعر بهذه الأبيات ؟ » فقائل يصف خيلا ، وقائل يصف جيوشاً ؛ وآخر يقول فرساناً ، فتهانف بهم ثم قال : لا ، بل يصف مصلوبين ، أرأيتم كيف اقتيدت جذوعهم من مربط النجار . وسأله سائل عن حديث أبي تمام مع ابن الصباح الفيلسوف الكندى فى اعتراضه على ما جاء فى سينيته للمعتصم :

« ما فى وقوفك ساعة من بَاس »

حين شبهه بأشراف العرب ، واستخف بذلك الكندى فى قوله :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

وما ارتجله بديهاً من قوله :

لاتنكِرُوا ضَرْبى لهُ مَنْ دونَه مَثلاً شَرُوداً فى النَّدَى والبَاسِ
فاللهُ قدْ ضَرَبَ الأقلَّ لنورِهِ مَثلا مِنَ المِشكاة والنِّبْرَاسِ

وبعد أن أجابهم عدل بهم عن هذا المشهور من الفصيدة إلى قوله منها :

إنَّ المنَازلَ سَاورَتها فرْقة أخلتْ منَ الآرام كلَّ كِناسِ
منْ كلِّ ضَاحكة الترائب أرهفتْ إرْهَافَ خُوطِ البَانة المِيَّاسِ
بَدْرٌ أطاعَتْ فيك بادِرَة النوَى خطأ وشمس أولِعَتْ بِشِمَاس
بكرٌ إذا ابتسَمَتْ أرَاكَ وميضُها نورِ الأقاحِ برَملةٍ ميعَاسِ
وإذا مشَتْ تركتْ بقلبكَ ضعفَ مَا بحليِّها مِنْ كثرةِ الوسوَاسِ

ولا يدع أبا تمام قبل أن ينشد قوله لأبى سعيد بن يوسف من أمراء الثغور من قصيدة

أطلاَ لهُمْ سُلبت دُماها الهيفا

لكَ هضبَة الحِلم التى لو وازنتْ أجأ إذاً ثقلت وكان خفيفاً
وحَلاوة الشِّيَمَ التى لو مازجتْ خلقَ الزمانِ القَدْمِ صارَ ظريفاً

أما ما أذاعه حافظ للبحترى ، وأبى الطيب ، والشريف ، والمعرى ، فيضيق علينا المقام لو حاولناه ، وفيما تناولناه إشارة ، وبهذا وأشباهه سيّر حافظ هذه الأشعار فى طبقات المتعلمين ، حتى فشا فيهم يومئذ التظرف بالأدب ، والتحقق بالرواية ، وكثر الانتحال لكلام المتقدمين ، والتجمل بأدب الأوائل ؛ حتى أوشك أن يكون بين الناس من يستحقون بعد قليل أن نسميهم طبقة الرواة والمحدثين من حفاظ الأدب ونقلة الأخبار ، إلى أن كانت أواخر أيامه — رحمه الله — وفرغت نفسه من الرغبة فى الناس ، وحبسته العلل عن محاضرة المجالس

وسكت أيضاً عن قول الشعر ، واقترن ذلك بما ملئت به دروب القاهرة وأحياؤها من المشارب ، والمسارح ، وازدحمت هذه الكثرة من المجلات والصحف ، وانتهب الناس بعضهم من بعض ، وتقاضتهم مظاهر الحياة الجديدة كل ما لديهم من فراغ وعمل ؛ فبطل السمر فى الدور ، وعطلت مناظر القصور ، وانصرف الناس عن هذه المذاكرة ، وكسدت سوق المطارحة ، وعادت الوحشة من الأدب القديم تدب إلى الاجتماع ، حتى ماترى إلا قليلا من له ذاكرة واعية من الأدب ، أو ذخيرة صادقة من العلم ، وصار حقاً علينا من هذا المنبر أن نبكى فى حافظ وفاءه للعربية ، وأن نكرمه بإحياء مذهبه فى الرواية ، لنرضى الله ونرضى حافظاً فى ثراه .

محمد هاشم عطية

المدائح والتهانى والرثاء

فى شعر المغفور له حافظ بك ابراهيم

للأستاذ محمود البشبيشى

المدرس بدار العلوم

عهدت إلى لجنة الاحتفال بالكلام فى هذه الفنون الثلاثة من شعر حافظ، وإذ كان مجال القول ذا سعة والوقت لا يتسع للبحث الضافى - آثرت أن أجمل الكلام إجمالا يقوم بالغرض ولا يطغى على الزمن، ويكشف جانباً من عبقرية شاعر النيل.

المديح: — نشأ حافظ نشأة عسكرية، نزاعا إلى الحرية، فى نفسه إباء وهمة، فكان أفق مديحه محدوداً، لا ينثر المدائح هنا وهنالك، فقصر مدائحه على أصدقائه، ومن رآهم موضع نجواه ومحل آماله. ومن آزروه فى الشدة، ومن شاطروه فكرته الوطنية وكان لهم فى نهضة مصر ومكافحة الظلم أثر ظاهر، ومدح رب الخلافة إذ كانت يوماً ما معقد رجاء البلاد، وكأنما أراد بذلك أن يتصل بعرش الآستانة حين أخذ عليه (شوقى) طريق الاتصال بعرش مصر، وكان طبعياً أن يمدح سمو الخديو، فمدحه فى مناسبات كثيرة، ونوه فى مدائحه له بشاعريته المغبونة. وأكثر فيها من شكوى جده العاثر، من ذلك قوله من قصيدة رفعت إلى سمو الخديو فى يوم عيد:

طف بالأريكة ذات العز والشان واقض المناسك عن قاص وعن دانى
ياعيد، ليت الذى أولاك نعمته بقرب صاحب مصر، كان أولانى

على أن مدائحه تتفاوت فى قوتها وتأثيرها؛ فما كان منها لصديق أو معقد رجاء كان فياضاً بالعاطفة، جياشا بخلجات النفس ومظاهر عرفان الجميل، وما عدا هذا فأكثره من المدائح الفنية التقليدية البارعة، همه فيه أن يسجل المفاخر ويصورها فى صور شعرية خلابة، يجليها فى أحسن صورة، ويسبغ عليها من

فنه الخصب ثوباً من الرواء والبهجة ، فتنزل من الشعر فى مكان رفيع .

ولعل من أمتع مدائحه وأحفلها بالعاطفة الصادقة قوله فى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ؛ وصلته به ما تعلم :

أنت نعم الإمام فى موطن الرأ (م) ى ، ونعم الإمام فى المحراب
خشع البحر إذ ركبت جواد (م) يه خشوع القلوب يوم الحساب
وبدا ماؤه كخاطرك المص (م) قول أو كالفرند أو كالسراب
يتجـــلى كأنه صحف الأبـ (م) رار منشورة ليوم الحســـاب
علمت من تقل فانبعثت لل (م) قصد مثل انبعـــاثه للثواب
فهى تسرى كأنها دعوة المض (م) طر فى مسبح الدعاء المجـــاب

وقوله فى صديقه عميد الأسرة الأباظية المرحوم (سليمان باشا أباظه) من قصيدة مزج فيها المديح بالتهنئة :

سليمان ، ذكّرت الزمان وأهله بعز سليمان وإقبال دنياه
إذا سرت يوماً حذّر النمل بعضه مخافة جيش من مواليك يغشاه
وإن كنت فى روض تغنت طيوره وصاحت على الأفنان : يحرسك الله !

التهانى : ـ نظم حافظ فى التهنئة فأكثر ، فهو يهنىء أصدقاءه ، ويهنىء دولة الخلافة ورب الخلافة ، ويهنىء سمو الخديو ، ويهنىء الأمة فى مناسبات شتى : كإقبال العام الهجرى . وشأنه فى التهنئة يقرب من شأنه فى المدائح ، فمن النوع الذى امتزج فيه جمال الفن بتدفق العاطفة ، قوله فى القصيدة السابقة يهنىء المرحوم سليمان باشا أباظه بإبلاله من مرضه :

لبست الشفا ثوباً جـــديداً مباركا فألبستنا ثوباً من العز نرضـــاه
وكان عليك الدهر يخفق قلبه فلمـــا شفاك الله أهدأت أحشاه
وهنّا جـــديداه الزمان وأصبحت تسوق لنـــا الأيام ما نتمناه
سليمان ، دُم مادامت الشهب فى الدجى وما دام يسرى ذلك البدر مسراه

ويلوح للناقد البصير أن حافظاً ما كان يحفل كثيراً بالتهانى الفردية ، أو بعبارة أخرى : ما كان يجد فى نفسه ميلا فطرياً إليها ، ولعل هذا سر ما نراه من

التفاوت البين بين تهانئه ، فتراه حين يهنىء صديقه الحميم (سليمان باشا أباظه بالإبلال من المرض وبزواج ابنه على) يطيل فى الغرض الأول بعض الإطالة ، ويسكب عليه روحاً من عواطفه ، ثم يجتزىء فى الغرض الثانى ببيت واحد (١) لا يخلو من الضعف ، كأنى بحافظ يرى إبلال الصديق العظيم لا تقف جدواه عند المهنأ وحده ، أما الزواج فيعتبره من الشؤون الفردية الخاصة فيقف فيه عند النظرة العجلى ، وقد رأينا حافظاً إذا تناول التهانىء العامة خب فيها ووضع ، وافتن فيها وأبدع ، وأطال ما شاء له البيان المطاوع ، من ذلك تهانئه للأمة الإسلامية بالعيد الهجرى ، وللأمة العثمانية بعيد الحرية والدستور ، فقد جلاها فى صورة بديعة ، وبيان رائع ، وقواف قوية سليمة ، وشاعرية عربية صميمة ، ذلك بأنه كان يتخذ منها سبيلا واضحاً إلى بث أفكاره السياسية ، وميوله الوطنية ، وأفكاره الاجتماعية ، وحافظ شاعر سياسة ووطنية واجتماع ، قبل كل اعتبار آخر .

وقد يجنح حافظ إلى الدعابة اللاذعة فى تهانئه الفردية ، كما فعل مع صديقه المرحوم حفنى بك ناصف حينما رقى إلى منصب المفتش الأول للغة العربية ، فقد هنأه حافظ فى حفل أقيم لتكريمه بقصيدة فكاهية طويلة مطلعها :

يا يوم تكريم حفنى أرهفت للشعر ذهنى

وفيها :

وذقت من (جاء زيد) ومن حواشى الشمنى
ومن حواشى الحواشى على متون ابن جنى
ما لم تذقك الليالى قلبن ظهر المجن
مفتش وفقيه وشاعر وابن فن

وتكاد التهانى فى شعر حافظ تتصل بالمدائح ، فحسبنا منها ما تقدم .

المراثى :

أما الرثاء فهو الفن الذى أبدع فيه حافظ أيما إبداع ، فصال فيه وجال ، وبكى

---

(١) هو قوله :

وكن لعلى بهجة العرس ، إنه بعزك فى الأفراح تمت مزاياه

فيه واستبكى ، ووفى به لإخوانه فأكمل الوفاء ، ورثى فيه عظماء مصر من الساسة والمصلحين فخلد ذكراهم ، وأجرى على الدهر سيرهم ، واتخذ من مراثيهم منبراً يهتف من فوقه بشباب الأمة : أن سيروا إلى المثل الأعلى ، فساروا فى ضوء أولئك العظماء الراحلين ، وسلكوا طريقهم فوصلوا بمصر إلى ما وصلت إليه .

إن مصر لمدينة إلى حد كبير لذلك الشاعر الفحل الذى وفى عظماءها حقوقهم ، فرثى وأحسن الرثاء ، وكرم فأحسن التكريم ، ومن يستطيع أن ينكر مراثى حافظ للأستاذ الامام والبارودى ومصطفى وفريد وسعد زغلول ومحمود سليمان وسواهم من كل هاتف بمجد مصر ، وداع إلى الإصلاح فيها ؟

وإن الأدب العربى لمدين لشاعر النيل بتلك المراثى العذبة الخالدة ، التى نفثها سحراً حلالا ، فلهج بها أبناء العربية فى مصر والشرق ، فكانت مادة بيان لا ينضب ، واتخذ منها الشعراء الناشئون مثلا يحتذى . أى بيان ذلك الذى أسعف حافظا فى رثاء الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده إذ يقول :

أيا منزلا فى عين شمس أظلنى ... وأرغم حسادى وغم عداتى
دعائمه التقوى ، وآساسه الحجا ، ... وفيه الأيادى موضع اللبنات
عليك سلام الله ، مالك موحشاً ... عبوس المغانى مقفر العرصات ؟

وأى بيان ، وأى وفاء ألهماه ، برثاء صديقه الكريم عثمان بك أباظه إذ يقول :

يا راحلا أكبرتك الحادثات ، وما ... أكبرتها عند تليين وتشديد
أبكيت حتى العلا والمكرمات وما ... جفت عليك مآقى الخرّد الخود
بنى أباظة ، لا زالت دياركم ... أفق الديار وغاباً للصناديد

وأى وفاء بعد وفاء حافظ ، وأية ديباجة خير من ديباجته ، حين يرثى صديقه العظيم سليمان أباظه باشا فيقول :

لا تحملوه على الرقاب ، فقد كفى ... ما حمّلت من سنة وعطاء
وذروا على نهر المدامع نعشه ... يسرى به للروضة الفيحاء
تالله لو علمت به أعواده ... مذ لامسته لأورقت للرائى
خلق كضوء البدر ، أو كالروض ، أو ... كالزهر ، أو كالخمر ، أو كالماء

وشمائل لو مازجت طبع الدجى ما بات يشكوه المحب النائى
ومحامد نسجت له أكفانه من عفة وسماحة وإباء

ثم أى توفق فى الرثاء، وأية رصانة فى البيان فوق ما جاء به حافظ حين رثى الزعيم العظيم سعد زغلول فى بائيته المشهورة التى يقول فيها :

يا كبير الفؤاد والنفس والآ (م) مال أين اعتزمت عنا الذهابا
كيف ننسى مواقفاً لك فينا كنت فيها المهيب لا الهيابا
كنت فى ميعة الشباب حساما زاد صقلا فرنده حين شابا
لم ينازعك قارح القوم إلا كنت أقوى يداً وأعلى خبابا
عظم لو حواه كسرى أنوشر وان يوما لضاق عنه إهابا

وعلى الجملة فإن مراثى حافظ تمتاز بالوفاء واللوعة والحزن العميق كلما تناول رثاء صديق له، أو ذى منة عليه ؛ وبالعاطفة الوطنية المحتدمة كلما رثى عظيما أسدى لمصر جميلا، وفى كلها رصانة وانسجام، وطبع عربى سليم، وميل إلى تسلسل المعنى حتى لتكاد مراثيه فى تماسك أجزائها تحقق ما يدعون إليه من وحدة القصيدة، كرثائه لباحثه البادية إذ يقول :

ملك النهى لا تبعدى فالخلق فى الدنيا سير
ربّى أبوكِ الناشئين فعاش محمود الأثر
وسلكت أنت سبيله فى الناشئات من الصغر
ربيتهن على الفضيـ (م) ـلة والتصوّن والخفر
وعلى اتباع شريعة نزلت بها آى السور
فلبيتكم فضل على الـ (م) ـأحياء أنثى أوذكر

وبعد فإن من الظواهر التى عرفتها من دراسة مراثى حافظ، قلة الحفل بالفلسفة العميقة فى البحث عن معنى الموت، والبحث عما وراء الحياة — كما كان يفعل شوقى — ومن الظواهر الشائعة فى فنونه الثلاثة، عنايته بمطالع القصائد، فتراه يركز معنى القصيدة فى مطلعها، ثم يتأنق ويتسامى فى حسن صياغته. فيرسله قوياً

شروداً ينتزع الإعجاب من سامعيه ، ويحملهم على تتبع القصيدة إلى نهايتها ، ولعل هذا من أسرار فتنة الناس بشعر حافظ .

وإليكم بعض مطالعه الرائعة :

بدأ مطولته فى مهرجان شوقى بقوله :

بلابل وادى النيل بالمشرق اسجعى بشعر أمير الدولتين ورجعى

وتهنئته للعثمانيين بعيد الحرية بقوله :

أجل ، هذه أعلامه وموا كبه هنيئاً لهم ، فليسحب الذيل ساحبه

وتهنئته لسمو الخديو بأداء فريضة الحج بقوله :

متى نلتها يا لابس المجد معلماً ؟ أديناً ودنيا ؟ زادك الله أنعما !

ورثاه لمصطفى كامل باشا بقوله :

أيا قبر ، هذا الضيف آمال أمة فكبر وهلل والقَ ضيفك جاثيا

ورثاه لسليمان باشا أباظه بقوله :

لا والأسى وتلهبِ الأحشاء ما بات بعدك معجب بوفاء

ورثاه للبارودى باشا بقوله :

ردوا على بيانى بعد محمود إنى عييت وأعيا الشعر مجهودى

ورثاه لمحمود باشا سليمان بقوله :

مسدى الجميلِ بلامنٍّ يكدره ومكرم الضيفِ أمسى ضيفَ رضوان

وأخيراً بدأ رثاء نفسه بقوله :

آذنتْ شمس حياتى بالمغيب ودنا المورد يا نفسى فطيبى

وظاهرة أخرى فيما درست من شعر حافظ ، هى أنه لا يحفل بالمقدمات الشعرية ، بل يهجم على الموضوع لأول وهلة ، وكان يرى فى تلك المقدمات الغزلية والخمرية نوعا من التكلف والقصور ، ويرى أنها لا تليق بمدائح العظماء ، وإلى ذلك يشير فى قصيدة يهنىء بها سمو الخديو بأحد الأعياد :

أزف فيه إلى العباس غانية عفيفة الخدر من آيات عدنان

من الأوانس جلاّها يراع فتى صافى القريحةِ صاحٍ غير نشوان

ما ضاق أصغره عن مدح سيده ولا استعان بمدح الراح والبان
ولا استهل بذكر الغيد مدحته فى موطن بجلال الملك ريان

هذا ، وأما أسلوب حافظ فى هذه الفنون الثلاثة فهو فى جملته عربى قديم ، مطبوع سليم ، تبدو فيه سعة الاطلاع ، وغزارة المحفوظ ، وخصب الشاعرية ، ويظهر فى كثير من قصائده حسن الاحتذاء ، والتلطف فى معارضة فحول المتقدمين .

فإذا كان حافظ فى مقاصده وأغراضه عصرياً يعيش لعصره ، فهو فى أسلوبه وديباجته شاعر قديم رقيق الحواشى .

رحم الله شاعر النيل ، وخلد على الدهر ذكراه !

محمود البشبيشى

الغزل والنسيب

فى شعر حافظ

للأستاذ السباعى بيومى

المدرس بدار العلوم

عهدنا بالشاعر الغزل الناسب أن يحمله على الغزل والنسيب أحد أمرين :

فأما أولهما : فهو أن يولع بالحسن يتعشقه ويفتن بمظاهره فتنة تملأ عليه شعاب نفسه ، ومواطن حسه . فلا يزال يسعى وراءه أنى وجده ، ويعمل الحيل فى سبيل المتعة به جهد طاقته ؛ مدفوعا إلى ذلك كله بطبيعة حافزة . وشهوة جامحة ؛ إذ لا غنى له حينئذ أن يتغنى بهذا الحسن غناء يبين سحر آياته ، ويرى مبلغ اللذة فى الاستمتاع به ، كما كان يفعل امرؤ القيس جاهلية ، وعمر بن عبدالله بن أبى ربيعة إسلاماً ، وأمثالهما من شعراء الغزل اللاهى ، عشاق الجمال وطلاب اللذائذ ، الذين لم يقفوا قلوبهم على حب امرأة ، وإنما وزعوا أبصارهم فى مجالس الحسن الكثيرة ، وكلما عز عليهم مجلس أو غاض ماء روائه غادروه إلى غيره مسرعين .

وأما ثانيهما : فهو أن يتيم بحب امرأة ، يقف عليها هواه ونفسه ، وتقابل ذلك منه بالابتعاد عنه ، والتمنع عليه ، لا بغضا له وكراهية ، بل إجابة لداعى عفة ، تملأ عليها جوانب نفسها ، وتقطع الطريق على ما قد ينجم من شهواتها ، فإذا به يكبر هذا الداعى منها ، ويقابله بعفة كعفتها ، قانعاً بالزورات البريئة تقع لماما ، فإذا أعوزته - وكثيراً ما تعوزه - تعلل باستعادة الذكريات فى يقظته ، وطروق الطيف فى هجعته ، إن صح أن يجد النوم إلى جفنيه سبيلا ، فإنه فى هذه الحال يكثر أن يشكو بثه وحزنه وصبابته ووجده فى شعر ينتزعه من القلب ، ويحسن فيه التعبير عن الوجدان ، كما كانت حال المرقش الأكبر مع ابنة عمه أسماء فى الجاهلية ، وحال جميل بن عبدالله بن معمر مع صاحبته بثينة فى الإسلام ، وأشباههما من شعراء النسيب ،

الباكى الذين أخلصوا فى حبهم لواحدة ، إخلاصاً زاده بعد المنال التهابا ، وكثيراً ماجرعهم كئوس المنون فى ميعة الصبا .

فإذا أخطأ الشاعر هذان الداعيان كان قوله الغزل والنسيب محاكاة من غير طبيعة ، مهما ستر من تصنعه حوك البيان ، وما صاحبنا حافظ فى غزله ونسيبه إلا من هذا الصنف الثالث المحاكى عن غير دافع من الوجدان . فما عهدناه فى حياته محباً لمحاسن المرأة الحسية ، شغوفاً بجمالها المادى ، يتتبع الحسان ويجرى وراءهن انتهاباً للذة ، أو إجابة لنداء شهوة ، حتى يكون من الغزلين اللاهين وماسمعنا عنه أنه أغرم بحب امرأة ، فصار متيما معموداً ، يبكى لوعته ، ويصف صبابته ، حتى يكون من الناسبين الباكين ، وإنما الذى عرف عنه - وكان الواقع - هو أن العلاقة بينه وبين المرأة من كلتا هاتين الناحيتين . كانت مقطعة الأسباب ، حتى فيما أحل الله من زواج ، فإنه لم يتزوج قط ، ومن شذ وقال بزواجه شفع قوله بأن حبل الزيجة فصل بعد أربعين يوماً من عقدها ؛ لما ذكرنا من تعليل .

وإذن كان حافظ فيما صدر عنه من غزل ونسيب يقوله محاكاة عن كراهية لاطبيعة عن رغبة ، ولهذا وقع قليلا فى مطالع بعض قصائده ، ولم يقع كثيراً أو مقصوداً لذاته ، كما وقعت فنونه الأخرى التى كان لكل منها فى ديوانه شأن هام ، وبخاصة شعر الوطنية الذى طغى فيما طغى على الغزل والنسيب ، حتى لم يجعل له فى ديوانه من باب ، وهذا شىء يعرفه حافظ عن نفسه ، كما يعرفه عنه كل من قرأ شعره . سئل عن السبب فى قلة غزله فقال « إنى رجل بدأت شبابى فى الجيش ولما رجعت لحياة الحرية انقسمت روحى فى شعر الوطنية ، فلم أجد متسعاً للغزل » وقال عنه أديب معاصر : « الذى أعرفه أن حافظاً لا طبيعة فيه للغزل وفلسفة لجمال ، ثم إن التاريخ حصره فى الشاعر الاجتماعى »

على أن حافظاً برغم ما ذكرنا من عدم استعداده أن يكون شاعر غزل ونسيب ، ومن عدم قرضه لهما إلا مضطراً وفى مطالع بعض القصيد - لم يعجز وهو الشاعر القدير أن يحسن تصوير ما عالج على سبيل المحاكاة عن طريق التصنع والتعمل ، كما أحسن شبيهه فى ذلك أبو الطيب المتنبى من قبل :

رأينا له رحمه الله ثلاثة مطالع غزلية طويلة ، لثلاث من أمهات قصائده ، حمله الداعى إلى كل قصيدة أن يبتدئها بالغزل عن غير رغبة منه ، وعلى غير عادة متبعة فى سائر قصائده :

أولاها : داليته فى مدح أمير الشعراء محمود باشا سامى البارودى التى يقول فى مبدئها :

تعمدت قتلى فى الهوى وتعمدا ... فما أثمت عينى ولا لحظه اعتدى
كلانا له عذر ، فعذرى شبيبتى ... وعذرك أنى هجت سيفاً مجردا
هوينا فما هُنّا كما هان غيرنا ... ولكننا زدنا مع الحب سؤددا
وما حكمت أشواقنا فى نفوسنا ... بأيسر من حكم السماحة والندى
نفوس لها بين الجنوب منازل ... بناها التقى واختارها الحب معبدا

والذى يعرف علاقة حافظ بالبارودى مادحا له وممدوحاً منه ، وشغف البارودى بالغزل والنسيب شغفاً جعله يقول الكثير منهما فى مطالع قصائده ، والأكثر مستقلا - لا يسعه إلا الجزم بأن حافظاً لا يمكن أن يرفع إليه مدحة يغفل ابتداءها بالنسيب ، تشبهاً به من ناحية ، ودفعاً لما عسى أن يمر بخاطره من أن حافظاً ليس ببالغ فى النسيب إذا أراد .

وثانيتها : العينية التى مدح بها صديقه الكاتب الأديب محمد بك هلال معارضاً بها عينية لأستاذه البارودى فى النسيب مطلعها :

هل من فتى ينشد قلبى معى ... بين خدور العين بالأجرع
كان معى ثم دعاه الهوى ... فمر بالحى ولم يرجع

تلك التى يقول فى مبدئها :

هجعتَ يا طير ولم أهجع ... ما أنت إلا عاشق مدعى
لو كنت ممن يعرفون الجوى ... قضيت هذا الليل سهداً معى
يا من تحاميتم سبيل الهوى ... أعيذكم من قلق المضجع
وحسرةٍ فى النفس لو قسمت ... على ذوات الطوق لم تسجع
ويا بنى الشوق وأهل الأسى ... ومن قضوا فى هذه الأربُع

عليكم من واجـــد مغرم تحيـــة الموجَع للموجع
لله ما أقسى فؤاد الدجى على فؤاد العاشق المولع !
هـذا غليظ لم يرضه الهوى ما بين جنبى أسودٍ أسفع
وذاك فى جنبى فتى مدنف على سوى الرقـــة لم يطبع

فإن المعارضة من شأنها أن تجعل المعارض ينحو الفن الذى نحاه رفيقه، ويسدد سهامه إلى الغرض الذى نصب؛ لأن مراعاة ذلك أحق وأولى من الاتحاد فى الوزن والقافية، ومن هنا لم يك أمام حافظ بد أن يشبب فى مطلع قصيدته أقل ما يكون، وقد ألف البارودى قصيدته كلها نسيباً فضلا على ما أسلفنا من دفع عجز قد يتوهمه عنه فى هذا.

وثالثتها: ميمية مدح بها الخديو عباساً عند عودته من دار الخلافة يقول فى مبدئها:

كم تحت أذيال الظلام متيم دامى الفؤاد وليله لا يعـــلم
ما أنت فى دنياك أول عاشق راميه لا يحنو ولا يترحم
أهرمتنى ياليل فى شرخ الصبا كم فيك ساعات تُشيب وتُهرِم
لا أنت تقصر لى ولا أنا مقصر أتعبتنى وتعبت؛ هل من يحكم؟

فإن رغبته الملحة أول حياته أن يشرك شوقيا فى ورد حياض العباس - إن لم يزحمه عليها - حملته أن يخطو خطوه ويقفو أثره فى مطالع مدائحه قبل الخوض فى صميمها، وهل كان شوقى فى تلك المطالع إلا مجوداً للتشبيب غزلا ونسيبا، فليكن حافظ كذلك. حتى لا يكون لصاحبه فى نظر العباس عليه من فضل.

تلك هى الدوافع التى حملته فى هذه المدح الثلاث أن يبتدئها بالنسيب، ولولاها لشغل بالمديح عنه شغلا، مارا على النسيب مرور التارك، كما فعل مع الأستاذ الإمام إذ يقول:

بلغتك لم أنسب ولم أتغزل ولما أقف بين الهوى والتذلل
ولما أصف كأساً ولم أبك منزلا ولم أنتحل فخراً ولم أتبتل
فلم يُبقِ فى قلبى مديحُك موضعاً تجول به ذكرى حبيب ومنزل

بل لولا ذلك لأطاع سجيته التى ما كانت ترى من إكرام الشعر أن يكون للحب وما إلى الحب، وإنما تراه للدعوة إلى الحرية، والتغنى بها، فها هو ذا يخاطب الشعر العربى ناعياً على أهله وضعه فى غير موضعه فيقول :

حَمَّلوك العناء من حب ليلى وسليمى ووقفة الأطلال
وبكاء على حبيب تولى ورسوم راحت بهن الليالى
وإذا ما سموا بقدرك يوما أسكنوك الرحال فوق الجمال
آن يا شعر أن تفك قيوداً قيدتنا بها دعاة المحال
فارفعوا هذه الكمائم عنا ودعونا نشم ريح الشمال

وإنا وقد أتينا على مبادىء تلكم المطالع الثلاثة، والأسباب التى حملته على القول فيها، نرى من الحتم أن نتناول الناحية الغزلية التى ارتضاها حافظ لنفسه حينما أرغم على الغزل، وبعبارة أخرى : الناحية التى حفزته طبيعته أن ينتحيها حينذاك، والذى أراه من الحق أن حافظا دفع بنفسه فيما كان يقول من غزله إلى خطة الناسبين البا كين، كما سمعت فيما استشهدنا به، لأنه خلق يذوق من آلام الحياة الخاصة والعامة، أشد مما كانوا يذوقون من برحاء العشق والهيام، ولكن على أن يلبسه ذلك الثوب القصصى، الذى اتخذه الغزلون اللاهون أكثر ما كانوا يقولون، لأنه عاش مولعاً بالقصص يتحدث ويستمع إليه، معنياً بمطالعة كتبه القديمة، وأخصها الأغانى سميره وصاحب خلوته، عنايته بالكتابة فيه، مؤلفا كما فى ليالى سطيح، ومترجما كما فى البؤساء، ومن ثم قدم لنا مادة نسيبه لحمة وسدى من وادى جميل وأمثال جميل، ولكن منسوجه على منوال عمر وأمثال عمر، حتى لكأنها الدراما جودة تشخيص وتمثيل.

استمع إليه فى المطلع الميمى بعد الذى قدمنا منه فى الليل، تجاهل محبوبته له وعجب سِرْبها من هذا التجاهل، وإجابته لها بأنه مَن عرفت توجعه وتألمه وإسلامه نفسه للهوى يحشمها مالا تسلم منه، وأنه أتى يشكو إليها ما صنعت به يحدوه الرجاء، لولا أنها لا ترحم، فيقول :

لله موقفنا وقد ناجيتها بعظيم ما يخفى الفؤاد ويكتم

قالت: من الشاكى؟ تسائل سربها عنى ... ومَن هذا الذى يتظلم ؟
فأجبتها وعجبت كيف تجاهلت : هو ذلك المتوجع المتألم
أنامن عرفت ومن جهلت ومن له لولا عيونك حجة لا تُفحَم
أسلمت نفسى للهوى وأظنها مما يخشها الهوى لا تَسلم
وأتيت يحدونى الرجاء. ومن أتى متحرماً بفنائكم لا يحرم
أشكو لذات الخال ما صنعت بنا تلك العيون ، وما جناه المعصم
لا السهم يرفق بالجريح ، ولا الهوى يبقى عليه ، ولا الصبابة ترحم

ثم يعقب هذا بناحية من التوسل تدور حول تململه فى جوف الدجى أمام فراشه يرى فى الإقدام عليه إقداماً على الموت ؛ لما رشق فى جوانبه من مُدى وانساب فيه من أفاع ، حتى لكأنه واد أطل عليه جحيم ، فيقول :

لو تنظرين إليه فى جوف الدجى متململا من هول ما يتجشم
يمشى إلى كنف الفراش محاذراً وجلا يؤخر رجله ويقدم
يرمى الفراش بناظريه وينثنى جزعا ، ويقدم بعد ذاك ويحجم
فكأنه واليأس ينشف نفسه للقتل فوق فراشه يتقدم
رشقت به فى كل جنب مدية وانساب فيه بكل ركن أرقم
فكأنه فى هوله وسعيره واد قد اطّلعت عليه جهنم
هذا وحقك بعض ما كابدته من ناظريك ، وما كتمتك أعظم!

ومع قسمه بها فى البيت الأخير : أن ما حكى بعض ما كابد ، تقابله مقابلة الشاكة فى هواه ، وأن هذا منه سحر يستثير به هوى الغانيات ، ثم تطلب إليه أن ينصرف ، مصغية إلى قول الوشاة ، وتسرف فى هجرها إسرافاً يئس منه من أجله الطبيب ، ويحيئها أنه تلف ، فتندم وتأتى لعيادته ، فإذا هذا المجى للتشييع ؛ وذاك حيث يقول:

قالت : أهذا أنت ؟ ويحك فاتئد حتام تنجد فى الغرام وتتهم ؟
كم نفثة لك تستثير بها الهوى هاروتُ فى أثنائها يتكلم
إنا سمعنا عنك ما قد رابنا وأطال فيك وفى هواك اللُّوَّمُ
فاذهب بسرك قد عرفتك واقتصد فيما تزينّ للحسان وتوهم

أصغت إلى قول الوشاة فأسرفت ... فى هجرها ، وجنت على وأجرموا
حتى إذا يئس الطبيب وجاءها ... أنى تلفت ، تندمت وتندموا
وأتت تعود مريضها ، لا بل أتت ... منى تشيع راحلا لو تعلم
أقسمت بالعباس أنى صادق ... فَمُرِيهِمُ بجلاله أن يقسموا

واستمع إليه فى المطلع العينى بعد الذى قدمنا منه فى الليل أيضا يذكر قصة أغيد أسكنه حشاه ، وأوحى إلى نفسه أن تقنع به ، فأولاه نفاراً أسرع من خاطره ، وصدا أقرب من مدمعه ، ودام اشتعال نار خده ، كأنما يقبس من أضلعه ، فدنا لذلك مصرعه ، حتى تساءلت عنه نجوم الدجى التى رأت لوعته ، وسمعت منه أنين المفئود ، أو المصاب بسهم لازال ناشبا . ثم قالت : ماله كذلك ولبدر الدجى مطلع إن كان فيه هائما ، ولظبى الحمى مرتع إن كان به مغرماً ؟ فكان جوابه للنجوم : هيهات أن تعلمى مثير أشجانى أو تطمعى ؛ وهذا إذ يقول :

وأغيدٍ أسكنته فى الحشا ... وقلت يا نفس به فاقنعى
نفاره أسرع من خاطرى ... وصده أقرب من مدمعى
وخده لا تنطفى ناره ... كأنما يقبس من أضلعي
تساءلت عنى نجوم الدجى ... لما رأتنى دانى المصرع
قالت: نرى فى الأرض ذا لوعة ... قد بات بين اليأس والمطمع
بين كالمفئود أو كالذى ... أصابه سهم ولم ينزع
إن كان فى بدر الدجى هائماً ... أما لهذا البدر من مطلع
أو كان فى ظبى الحمى مغرما ... أما لهذا الظبى من مرتع ؟
هيهات يا أنجم أن تعلمى ... مثير أشجانى أو تطمعى
إنى لضنان بذكر اسمه ... ضنى بذكر الكاتب الألمعى

أما المطلع الدالى فقد صور فيه بعد الذى ذكرنا من مبدئه فى صدق الهوى وطهره قصة مسرى كان منه إلى فتاة حى فى ليلة مقمرة ، كأنها ليلة ابن أبى ربيعة فى رائيته :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر ... غداة غد أم رائح فمهجر

ولكنه وهو مطلع قصيدة فى مدح البارودى أمير السيف كما أنه أمير الشعراء، لم ينس أن يكون حافظ فى ذلك شجاعاً وهو رب سيف كذلك، ولم يقبل من فتاته أن يعود متستراً كما عاد ابن أبى ربيعة متنكراً؛ وإنما عاد يصحبه قلب أيّد وسيف خشيه القوم فى طروقه ورجوعه فغطوا فى منامهم ليصرفوا شباه عنهم وكان أن خاض بأحشائهم رائحاً وعائداً سالكا الطريق المعبد عامداً. وما كان أدقه وقد نسى فى هذه القصة اللوعة والحرقة أن يبتدئها بطهر الحب وتقى القلب كما سمعت فى بدء المطلع، وأن يختمها باعتصامه بالهدى حين مالت الفتاة لإغرائه ومالأها الهوى، لا كما كان ابن أبى ربيعة يغرى وتأخذ عليه فتاته سدوره وعدم ارعوائه؛ فحمى تلك القصة بهذا أن تكون من لهو الغرام، وخلع عليها بما فعل ثوب الهوى العذرى، وذلك حيث يقول مما لم نشا تقطيع أوصاله لأنا نرى من الجرم التفرقة فى هذه القصة بين الأبيات ـ قال:

وفتانة أوحى إلى القلب لحظها ... فراح على الإيمان بالوحى وغاتدى
تيممتها والليل فى غير زيه ... وحاسدها فى الأفق يغرى بى العدا
سريت ولم أحذر وكانوا بمرصد ... وهل حذرت قبلى الكواكب مرصدا
فلما رأونى أبصروا الموت مقبلا ... وما أبصروا إلا قضاء تجسدا
فقال كبير القوم: قد ساء فألنا ... فإنا نرى حتفاً بحتف تقلدا
فليس لنا إلا اتقاء سبيله ... وإلا أعلّ السيف منا وأوردا
فغطوا جميعاً فى المنام ليصرفوا ... شباً صارمى عنهم وقد كان مغمدا
وخضت بأحشاء الجميع كأنهم ... نيام سقاهم فاجىء الرعب مرقدا
ورحت إلى حيث المنى تبعث المنى ... وحيث حدانى من هوى النفس ماحدا
وحيث فتاة الخدر ترقب زورتى ... وتسأل عنى كل طير تغردا
وترجو رجاء اللص لو أسبل الدجى ... على البدر ستراً حالك اللون أسودا
ولو أنهم قدوا غدائر فرعها ... فحاكوا له منها نقاباً إذا بدا
فلما رأتنى مشرق الوجه مقبلا ... ولم تثننى عن موعدى خشيةُ الردى

تنادت وقد أعجبتها : كيف فتهم ولم تتخذ إلا الطريق المعبدا ؟
فقلت : سلى أحشاءهم كيف روعت وأسيافهم هل صافحت منهم يدا ؟
فقالت: أخاف القوم والحقد قد برى صدورهم أن يبلغوا منك مقصدا
فلا تتخذ عند الرواح طريقهم فقد يقنص البازى وإن كان أصيدا
فقلت : دعى ما تحذرين ، فإننى أصاحب قلباً بين جنبى أيدا
فمالت لتغرينى ومالأها الهوى فحدثت نفسى والضمير ترددا
أهم كما همت فاذكر أننى فتاكَ فيدعونى هداك إلى الهدى
كذلك لم أذكرك والخطب يلتقى به الخطب إلا كان ذكرك مسعدا

ذاك جل ما للمرحوم حافظ من غزل ونسيب قد سمعتموه وعرفتم كيف كان مذهبه فيه ولا يعدو ما عداه أبياتاً منثورة شوارد أو مبتدأ بها بعض القصائد فى قلة لا تكاد تبين ينحو فيها المنحى الذى سبق من الهم والوجد ، أو يرمى من ورائها إلى شىء خاص أو عام يلذ له أن يفصح عنه بصراحة لا لف فيها ولا دوران

فمن أبياته الشاردة فى السهد وقد كان معتزاً بالقول فيه بيتاه :

قالت الجوزاء حين رأت جفنه قد واصل السهرا
ما لهذا الصب فى وله أتراه يعشق القمرا

ومنها فى السهد أيضاً :

أنا العاشق العانى وإن كنت لا تدرى أعيذك من وجد تغلغل فى صدرى
خليلىَ ، هذا الليل فى زيه أتى فقم نلتمس للسهد درعاً من الصبر
وهذا السرى نحو الحمى يستفزنا فهيا وإن كنا على مركب وعر
خليلى ، هذا الليل قد طال عمره وليس له غير الأحاديث والذكر
فهات لنا أذكى حديث وعيته ألذ به إن الأحاديث كالخمر

وعلى ذكر غرامه بالأحاديث يقول من مطلع قصيدة بعث بها إلى بيرم بك من السودان :

وظبى من بنى مصر غرير شهى اللفظ ذى خد مشيم
ولحظ بابلى ذى انكسار كأن بطرفه سيما اليتيم

سقانا فى منادمة حديثا نسينا عنده بنت الكروم

فأنت ترى هنا أن جمال الحديث صرفه عن سمات كثيرة أخرى ذكرها للجمال كأنها قيلت من أجله لاأجلها ، وعلى هذا الرسل الذى يذكر فيه أشياء لا يريدها لشىء أراده جرى قوله لغرض سياسى يرمى إليه :

ظبى الحمى بالله ما ضركا إذا رأينا فى الكرى طيفكا
وما الذى تخشاه لو أنهم قالوا فلان قد غدا عبدكا ؟
قد حرموا الرق ولكنهم ما حرموا رق الهوى عندكا
فأصبحت مصر مراحا لهم وأنت فى الأحشا مراح لكا
ما كان سهلا أن يروا نيلها لو أن فى أسيافنا لحظكا

وكذلك قوله فى مطلع قصيدة إلى المرحوم قاسم بك أمين :

لحاظك والأيام جيش أحاربه فهذى مواضيه وهذى ستائبه
وهمين ضاق القلب والصدر عنهما: غرام أعانيه ، وعيش أغالبه
وليل كمطل القوم كابدت طوله وأيقنت أنى لا محالة صاحبه
كأن دياجيه صحيفة ملحد تخط بها أعماله ومثالبه
قريت به جيش الصبابة والأسى وأنزلته صدراً تداعت جوانبه
وعلمت نفسى كظم غيظى ولم أبح بما فعلت بين الضلوع قواضبه
تماسكت حتى لو رأى القوم حالتى رأوا رجلا هانت عليه مصائبه
رجائى فى قومى ضعيف كأنه جنان وزير سوّدته مناصبه

ومن شوارده فى الدمع بيتاه :

يامن خلقت الدمع لطفاً منك بالباكى الحزين
بارك لعبدك فى الدمو ع فإنها نعم المعين

ومنها يصف لوعته وأنينه :

أنا فى يأس وهم وأسى حاضر اللوعة موصول الأنين
مستهين بالذى لاقيته وهو لا يدرى بماذا يستهين
سور عندى له مكتوبة ودلو يسرى بها الروح الأمين

إنى لا آمن الرسل ، ولا آمن الكتب على ما يحتوين

وقل أن تجد لحافظ غزلا خلواً من ذكر التوجع والتألم إلا أن يكون مطية لمرمى يبغى الوصول إليه ، بل لعله لم يقل فى ذلك إلا بيتين فى خال رآه على الغرة لا فى الوجنة ، وهما :

سألته : مالهذا الخال منفرداً واختار غرتك الغرا له سكنا ؟
أجابنى: خاف من سهم الجفون، ومن نار الخدود : لهذا هاجر الوطنا

وهذا شىء منه غريب غرابة ادعائه صدق غرامه وعدم التشكيك فيه حيث يقول :

أذنتك ترتابين فى الشمس والضحى وفى النور والظلماء والأرض والسما
ولا تسمحى للشك يخطر خطرة بنفسك يوماً أننى لست مغرماً

وبعد فلئن ألهت حافظاً طبيعته أن يكون قليل اللمس للمرأة فى الجانب الغزلى كما قدمنا وعلى ما سمعت ، لقد مكنته أن يتصل بها اتصالا وثيقاً فى جوانب اجتماعية وسياسية وخلقية عج بها ديوانه وشغلت كثيرا من صفحاته ، وكم كنت أود أن يكون موضوعى هذه الجوانب أو المرأة فى شعر حافظ بصفة عامة لا من ناحية الغزل والنسيب فحسب ، لما فى تلك من خصب وفى هذه من إمحال . لولا ما أردت إلا إبقاء عليه لحضرات الزملاء الذين تناولوا شعره من تلكم النواحى ؛ وعلى كل أرجو أن أكون قد وفقت فيما حاولت والسلام .

السباعى بيومى

حافظ إبراهيم

المديح فى شعره

بقلم حسنين حسن مخلوف

المدرس بمدرسة الخديو إسماعيل الثانوية

فى أوائل هذا القرن ظهر فى عالم الأدب شاعر كان ملء الأسماع ، أسماع الخاصة والعامة فى مصر ، هو المرحوم حافظ إبراهيم ، فى وقت كانت مصر قد أفاقت من صدمة الثورة العرابية ونتائجها ، وتطلعت إلى العزة القومية واستعادة المجد المسلوب ، واحتاجت وطنيتها إلى شاعر يضرب على أوتار القلوب فيحركها ، ينزل من سماء الشعراء إلى أرض الشعب ، فقد كان شعر البارودى شخصياً ، لا يفهمه ويتعلق به إلا الخاصة من الأدباء ، وشعر شوقى تياهاً فى أودية الخيال متعالياً على أذهان العامة ، دائراً فى محيط خاص اقتضته صلته بالأمير واختصاصه به ، فأرادت الطبيعة أن تنضج حافظاً ليكون شاعر الشعب المكلوم . وأن تحرمه حنو الآباء والأمهات ليقوى إحساسه بالألم وليكون سريع الإجابة حين تلم ببلاده مدلهمات الخطوب ، ثم أرادت أن تحصن بؤسه من نعومة العيش إذ أن مصر فى حاجة إلى نغمات قيثارته الحزينة تارة . الحماسية تارة أخرى . ويشاء القدر أن يحرمه وظيفة الحكومة مع شدة تطلعه إليها ، ومع أن زملاءه الضباط الذين عصوا فى السودان ألحقوا بوظائف الحكومة فكان لله مشيئة أن يظل حافظ مغذياً للروح المصرية ، معرباً عن الأحداث القومية ، حافزا الشعب إلى النهوض ، وبخاصة من سنة ١٩٠١ إلى سنة ١٩١١ حين لحق بدار الكتب المصرية

موضوعى المديح فى شعر حافظ ، ولكنى أريد قبل أن أخوض فيه أن أقيد النتائج التى استنبطتها من قراءتى شعر حافظ أياماً طوالا

أولا : يمتاز شعره بكثرة الاستشهاد بالحوادث التاريخية والقضايا الفلسفية ، مما يدل أن حافظاً كان واسع الاطلاع فى التاريخ والأدب ، وتغلب عليه هذه

النزعة فى أكثر شعره ، وحوادث التاريخ بارزة فى نواح كثيرة من قصائده الكبرى ؛ وكأنه كان يعتبر الحوادث التاريخية والأحداث السياسية عنصرا مكملا لكل قصيدة ، فيسرف فى ذلك إسرافاً شديدا

ثانياً : يرى القارىء لشعره أن الروح الحزينة سارية فى نواحيه المختلفة من مدح ورثاء ووصف ووطنيات ، وذلك من آثار يتمه وفقره فى أول حياته ، ثم عكوفه على قراءة لزوميات أبى العلاء المعرى وموافقة فلسفته المتشائمة لظروف حياة حافظ التعسة ، وكان من أثر ذلك تفجعه على الموتى من أصدقائه كأنه سيلحق بهم سريعاً ، وفى ذلك يقول :

شاهـــدت مصرع أترابى فبشرنى بضجعة عندهـــا روحى وريحانى
إذا تصفحتَ ديوانى لتقـــرأنى وجدت شعر المراثى نصف ديوانى

وقد امتزج تبرمه بالدنيا بالسياسة المصرية ومواقفها المشهورة فأصبحا معنى واحدا فى نفس حافظ .

ثالثاً : لهذا الشاعر ميزة ليست فى شعر غيره ، ذلك أنه لا ينظم قصيدة لغرض من الأغراض إلا وفاه شرحاً وإيضاحاً وبياناً . كأن القصيدة موضوع درس على المدرس أن يشرحه فى حصة . أو مقالة صحفية تلم بأطراف الموضوع إلماماً شديدا ؛ فهو شاعر مصور لكل ما يدور فى خلد السامعين من معان ، فاذا حلق فى سماء الخيال وقف عند التشبيهات المفردة ، وإذا هم أن يغوص فى بحور الشعر للبحث عن لآلئه أدرك أنفاسه البُهْر فتعلق ببعض اللآلىء التى تعجب العامة ويمر بها الخاصة سريعاً ثم يخرج اللؤلؤ من أصدافه فى ثوب براق وحلية خلابة ، ذلك لأنه شاعر صناع يجيد السبك ويحسن الضرب بالصنج وهو شاعر الجماهير يستهويها بما تشتاق إلى سماعه من ذكر آلامها وآمالها .

رابعاً : لكل شاعر أو كاتب طابع خاص يسرى فى النثر والشعر ، وأسلوب وطريقة للتفكير يعرفها من عانى قراءة مستمرة لأصناف خاصة من الكتاب أو الشعراء ، فيستطيع القارى أن يخبر صادقاً أن هذه القطعة لفلان من غير أن يعرف اسمه قبل ذلك بذيل المقالة أو القصيدة ، وذلك ناتج من كثرة القراءة

والاشتغال بالأدب . حدثنى صديق أنه كان يقرأ مقالات المنفلوطى السياسية فيعرف شخصه من أسلوبه ، وأنه قد يقرأ مقالات الرافعى أو شعر الجارم فيمر بذهنه قبل كل شىء طابعهما الذى لن ينزلا عن مستواه ؛ أما حافظ إبراهيم فقد شذ عن هذه القاعدة ، فقد تقرأ له شعراً عالى المعنى جزل الأسلوب ، ثم تقرأ له شعراً آخر فتستبيح لنفسك أن تنسبه لأى شاعر خط قصيدة فى صحيفة سيارة ، فبينما شعر حافظ يرتفع إلى سماء الأدب ، إذا به يتهاوى فى مزالقه ، وخاصة فى المدح والرثاء حينما يطلب منه ذلك فيخجل أن يرد صديقاً ؛ وبهذا فقد شعره وحدة التناسق واشتراك الأساليب فى كثير من قصائده . سأله محرر الهلال عن ذلك فقال : « الجمهور يلومنا على أن لنا كثيرا من الشعر التجارى ، ولكن الجمهور نفسه هو الذى يطلب منا ذلك ، ولو تركونا لعفو أنفسنا لأحسنا ، ولكنهم يلحون علينا فى التهانى والمراثى والمدائح ؛ ثم ينتقدوننا على أننا نطيعهم ، وكان يجب أن يراعوا هذه الظروف ، وسأطبع ديوانى بعد أن أطهره من الشعر التجارى » .

خامساً : كان حافظ فى مدحه كأنه مثال ماهر كلف بصنع تمثال بحجم الممدوح ؛ فإن كان عظيما ذا مركز اجتماعى خطير كالخديو عباس أو الشيخ محمد عبده ، كد قريحته وأحسن الرصف والوصف وأبرز مواضع العظمة فى ممدوحه ، وبخاصة إن كان من السياسيين الذين يحملون أوزار الأمة على عواتقهم ؛ إذ كان حافظ كثير السباحة فى خضم السياسة ، معنياً بشئون الأمة ؛ وإن كان عيناً من أعيان الريف يستطيب حافظ ألوان الطعام على مائدته ، كافأه على كرمه بمدحه بالكرم وقرى الضيفان ، وقد يغالى فى ذلك مغالاة تعجب صاحب الخوان ؛ وإن كان صديقاً مؤنساً تراخت أعصاب حافظ فى مدحه وفقد شعره قوته وتحول الشعر من المدح إلى رقة إخوان الصفاء ووصف مؤانستهم وكفى .

* * *

نشأ حافظ إبراهيم مشغوفاً بالأدب متطلعاً إلى الشهرة ، وكان أقصى منى الأديب فى تلك الآونة أن يتعلق بكبير من الكبراء يقدر أدبه ويحميه من نوائب

الحدثان ، فلما عاد من السودان وكانت له مكاتبات سابقة للشيخ محمد عبده ، لزم مجلسه ورأى فى الشيخ كرم النفس وعلو الهمة وعطفاً أغناه عن عطف الآباء والأقربين . رأى مجلس الأستاذ الامام حافلا بالعظماء وأعيان مصر وكلهم عرف هذا الشاب الفكه الشاعر الراوية ، ورأى فى إكرامه متاعاً بحسن استماع الأدب المصفى وإرضاء للشيخ عبده ، لأن الشيخ الامام كان مورده محدوداً وبساطه ممدوداً ، فظهر اسم حافظ فى الأوساط الأدبية ، وكان شعره قليلا ظاهر التكلف ، فاستفاد من صحبة الشيخ قوة الديباجة ورصانة الأسلوب ، وكان الشيخ كما قال عنه حافظ : « يعرف مهر الكلام ومقدار كد الأفهام » ، وأغرى الأدباء حافظاً أن يمدح الخديو عباساً علّه يتعطف عليه بوظيفة ، ولكن دون ذلك مشقات ، إذ كان شوقى شاعر الحضرة الخديوية ، وهو فحل قدير لن يبلغ حافظ مبلغه مهما يكن من قوة البيان ، ولأن المنافسة فى هذا الميدان لا يرضاها شوقى ، فصار من دأب حافظ أن يمدح الخديو ويتلطف بمدح شوقى ويحترس من مظنة المنافسة ، وكذلك نجد قصائده فى الجزء الأول من ديوانه على هذا الطراز : تقرب من الخديو ورعب من شوقى وتزلف إليه ، كما قال فى احتفال بعيد الجلوس :

أرى أريكة عباس تحف بها ... وقاية الله والإقبال والجاه
قل للألى جعلوا للشعر جائزة ... فيم الخلاف ؟ ألم يرشدكم الله ؟
لم أخش من أحد فى الشعر يسبقنى ... إلا فتى ما له فى السبق إلاه
ذاك الذى حكمت فينا براعته ... وأكرم الله والعباس مثواه

ظل حافظ يركع على عتبات شوقى رجاء أن يميل إليه قلب الخديو بدون جدوى ، ولكن حافظاً بعد سنة ١٩٠١ استفحل شعره وتعلق الشعب به لسهولته مع غموض شعر شوقى فى بعض الأحيان . لقد قوى شعر حافظ وتماسكت قوافيه بعد طبع الجزء الأول ، وأصبح لحافظ جمهور من الأدباء يوازن بين شعره وشعر شوقى ، وصارت الجرائد تعنى بالشاعرين ؛ فاللصيقة بالخديو تدعو لشوقى وغيرها تدعو لحافظ وتشجعه . إذاً فلينبذ حافظ لشوقى على سواء ، وليبارزه فى ميدان الأدب ، وليزاحمه فى مدح الخديو علانية ؛ وكان حافظ فى الجزء الأول مقيداً بتقليد

الأقدمين ، فعلمته معاناة الشعر ومخالطة كبار الأدباء حسن التصرف وإدخال عناصر التجديد فى الأساليب والمعانى ؛ وقد لقى من الشعب إعجاباً أطار من قلبه الخوف من شوقى ، وتفتق ذهنه عن المعانى الخصبة والأساليب الجذابة والصراحة فيما يقصد إليه والسلامة من الالتواء الذى قد يضل بعض الشعراء ؛ نرى ذلك واضحاً فى الأبيات الآتية فى أحد أعياد الخديو :

طف بالأريكة ذات العز والشان ... واقض المناسك عن قاص وعن دانى
يا عيد ، ليت الذى أولاك نعمته ... بقرب صاحب مصر ، كان أولانى
أزف فيه إلى العباس غانية ... عفيفة الخدر من آيات عدنان
ما ضاق أصغره عن مدح سيده ... ولا استعان بمدح الراح والبان
هذا هو الملك فليهنأ مليكه ... وذا هو الشعر فلتنشده أزمانى

أرأيت أن حافظاً أصاب شوقياً فى الصميم ؟ فعاب شعره وهزأ باستفتاح قصائده فى مدح الأمير بالغزل ووصف الخمر ، عابه بنضوب القريحة وقلة الذوق ، وذكر أنه أحق بلقب شاعر الأمير

وفى الحق أن الدوى الذى كان يلقاه شعر حافظ كان يغريه بذلك . كان نفس حافظ قصيراً فى أول الأمر ، ثم طال وشغل بالحوادث السياسية وشعر الوطنية عن مدح الخديو إذ وجد نفسه تنفخ فى غير نار وقد سد عليه شوقى الرحاب . ولكن هناك مواقف يفتقد فيها حافظ ويعاب عليه أن يستأثر شوقى بحلبة الشعر ، فلا بد من القول ولا بد من التبريز .

من ذلك حج الخديو فقد أبدع شوقى ماشاء له الإبداع بمختلف القصائد ، فلا بد أن يمثل حافظ بين يدى الأمير ويلقى قصيدته البارعة فى حضرته ويغمز شوقياً أيضاً ، ومنها :

متى نلتها يا لابس المجد معلما ... أدنيا ودِيناً ؟ زادك الله أنعما !
فلله ما أبهاك فى مصر حاليا ... ولله ما أتقاك فى البيت محرما
أقول وقد شاهدت ركبك مشرقاً ... وقد يمم البيت العتيق المحرما :
مشت كعبة الدنيا إلى كعبة الهدى ... يفيض جلال الملك والدين منهما

ولو أننى خيرت لاخترت أن أرى لعيسك وحدى حاديا مترنما

وكان من الواجب على حافظ إذ يمدح ولى نعمته والآخذ بيده إلى سلم المجد أن يبدع فى مدح الشيخ محمد عبده على قدر جهده . ثم لما اتسع أفقه الشعرى أجاد ما شاء فى مدح أستاذه ، وجعل شعره صحيفة سيارة تدافع عن الشيخ وترد كيد خصومه الذين اتخذوا الصحف وسيلة لنقده والزراية عليه ؛ ومن أروع شعره فى مدحه قوله قصيدة تفيض إخلاصاً وحسن إبداع وفيها خيال قوى ، حين عودة الإمام من سياحته فى الجزائر :

خشع البحر إذ ركبت جواريـــه خشوع القلوب يوم الحساب
وضياء الإمام يوضح للربـــان سبل النجاة فوق العباب
وسرى البرق للجزائر بالبشـــرى بقرب المطهر الأواب
أدركوا قدر ضيفهم فأقاموا يرقبون الإمام فوق السحاب

ومن قوله فى صد هجمات الجرائد على الشيخ :

سخروا من الفضل الذى أوتيته والله يسخر منهم فى النار
لاتجزعن فلست أول ماجد كذبت عليه صحائف الفجار

وممن لهم الفضل فى تكوين حافظ وتشجيعه ، الشاعر الفحل محمود باشا البارودى . كان البارودى المثل الأعلى لشعراء عصره ، وكان حافظ حريصاً أن يتخذه أستاذاً ويقلده فى شعره . ومن الهين على حافظ أن يمدح الخديو أو الشيخ عبده أو غيرهما أما أن يبيع التمر إلى هجر ، فلا بد من كد القريحة حتى يرضى سيد الشعراء عن شعره ، وإنما يدرك أغوار الشعر من دفع إلى مضايقه ، ويعرف قيمة النقد الصيارفة ، أما غيرهم فيتفاوت حكمهم عليه بتفاوت ثقافتهم وأمزجتهم . لذلك تجد حافظاً حين يمدح البارودى ينسج على منواله ، ومع أنه ليس شاعرا غزلا فقد ابتدأ شعره إليه بالغزل ، وحاول أن يظهر بالبطولة والفروسية كما كان يفعل البارودى ، إذ كان نمطا من هذا النمط . وبأى شىء يمدح حافظ سيد الشعراء وكبيرهم؟ حافظ ـ كما قلت ـ بارع فى تفصيل القصيدة على قدر ممدوحه ، وأنه كزهير لايمدح الرجل إلا بما فيه . إنه يمدح البارودى بأحب الأشياء لديه وسلوته بعد أن طحنه الزمان . ذلك أنه شاعر عظيم

سلبتَ بحار الأرض در كنوزها فأمست بحار الشعر للدر موردا
وجئت بأبيات من الشعر فصلت إذا ما تلوها ألفى الناس سجدا

وفى أول هذا القرن نشطت الدعوة السياسية للحكومة العثمانية ، لأنها دولة الخلافة الإسلامية ، وملجأ المصريين فى الشدائد ، فاتجه شطر من السياسة المصرية إلى تركيا ، وكان من الواجب أن تحتفل مصر بالأعياد العثمانية ، وأن ينظم الشعراء فى ذلك ؛ وشعر حافظ فى هذا الباب ضخم الأسلوب لكنه ضعيف الروح . وهناك ناحية بارزة فى حافظ بالرغم من كل شىء ، هى إعجابه بشوقى إعجابا ملك عليه حواسه ، فهو معترف له أولا وآخرا بالسبق والغلب ، وله فى مدحه قصيدة أشبه بالمعلقات أنشدها فى مهرجان شوقى وتعد من أبرع شعره ، ومنها :

أمير القوافى ، قد أتيت مبايعاً وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

ولا أجد فى تقدير حافظ أبلغ من رثاء شوقى إياه :

وغدا سيذكرك الزمان ولم يزل فى الناس إنصاف وحسن جزاء
خلفت فى الدنيا بيانا خالدا وتركت أجيالا من الأبناء

وكأن المهرجان الذى أقيم لحافظ فى الأسبوع الثانى من شهر مارس سنة ١٩٣٧ فى (دار الأبرا) الملكية صدى لدعوة شوقى

حسنين حسن مخلوف

فى الأمم السامية

للأستاذ محمد محمود حجة

أستاذ في الآداب ورفيق بالمجمع الملكى البريطانى للأجناس البشرية
وعضو الجمعية الملكية البريطانية للأبحاث الآسيوية
والمدرس بمعهد الدراسات الشرقية بجامعة لندن

— ٢ —

مهد الساميين

من أين أتى الساميون ؟ وفى أى البيئات نشأت حضارتهم الأولى ؟ هذا سؤال عويص لم يهتد العلماء إلى الاجابة عليه بعد ، ولهم فى ذلك آراء مختلفة وبحوث طويلة سنلخصها لك فيما يلى تلخيصاً ، ثم نشفعها برأينا فى ذلك مفصلا إن شاء الله تعالى

(١) الرأى الأول - رأى القائلين بأن بابل هى المهد الأول للساميين . وهو رأى فون كرمر وغويدى وهومل وغيرهم من العلماء . وأول من نادى بهذا الرأى هو فون كرمر فى مقالين نشرهما فى سنة ١٨٧٥ فى العددين الأول والثانى من المجلد الرابع من صحيفة Das Ausland . وبعد أن سرد عددا من الكلمات المألوفة فى مختلف اللغات السامية ، لاحظ أن لفظ الجمل يوجد فى جميع تلك اللغات ، على حين أنه ليس بينها لفظ واحد مشترك يدل على النخل أو التمر أو النعام مثلا ، فاستنبط من ذلك أن الساميين عرفوا الجمل يوم أن كانوا لا يزالون أمة واحدة . ثم نظر فى أى الجهات يوجد الجمل حيث لا أثر للنخل والتمر والنعام ، فوجد ذلك فى هضاب آسيا الوسطى قريبا من منبع سيحون وجيحون ، فقاده هذا إلى القول بأن ذلك هو المكان الأول الذى هاجر منه الساميون الأول ، وأن هجرتهم تقدمت هجرة الآريين والشعوب الجرمانية . وهو يعتقد أن الساميين بعد نزوحهم من تلك الجهات ، ألقوا عصا تسيارهم ببلاد ما بين النهرين ، التى هى

فى رأيه أقدم مراكز الحضارة السامية (١)

وفى سنة ١٨٧٩ نشر العالم الايطالى اغناطيوس غويدى مقالا عن مهد الساميين ظهر فى جملة ما ظهر فى صحيفة Reale Academia dei Lincei وتشبه النتيجة التى وصل إليها تلك التى قررها فون كرمر ، إلا أن طريقته فى الاستنباط كانت أوسع دائرة وأفسح مجالا . فبعد أن سرد مختلف الكلمات التى تدل على تضاريس الأرض ، سهولها وجبالها ، وهادها ونجادها ، وأسماء الفصول والمناخ ، والشمس والقمر ، واختلاف الليل والنهار ، وما على سطح الأرض من حيوان ونبات ، وماء وجماد ؛ قرر أن بابل هى مهد الساميين الأول ، وأن هجرتهم إليها كانت من الجنوب الغربى لبحر الخزر (٢) .

ويميل إلى قبول هذا الرأى الاستاذ دريفر فى الطبعة الثانية من كتابه « استعمال الأفعال فى اللغة العربية » (٣) .

ولا تختلف آراء هومل التى نشرها فى سنة ١٨٧٩ عن ذلك كثيراً ؛ وهو يرى أن وادى الفرات وأرض بابل هى مهد الساميين الأول . وأن أناساً نزحوا من بابل إلى مصر واستعمروها ، وأن حضارة الثانية مستمدة من حضارة الأولى (٤)

هذا هو الرأى الأول ، وهو رأى طائفة من العلماء فقط ، وليس عليه الجمهور ؛ ونلاحظ هنا أن الطريقة التى اتبعها أصحاب هذا الرأى ليست هى الطريقة القويمة للبحث العلمى الصحيح ، وقد رفض نولدكه قبول هذا الرأى (٥) .

ويرى ونحن معه أن عدم وجود كلمة مشتركة بين جميع اللغات السامية لمسمى من المسميات ، لا يدل على أن الساميين كانوا يجهلون المسمى الذى تدل عليه الكلمة .

---

(١) راجع Wright's Comparative Grammar of the Semitic Languages, P. 5.

(٢) I bid P.6. The title of Guidi's paper is «Della sede primitiva dei popli Smitici »

(٣) راجع Driver, Use of the Tenses in Hebrew, P. 250 n.

(٤) راجع Hommel, Die semitischen Volken und Sprachen, P.68

(٥) راجع Noldeke, Semitischen Sprachen, P. 3 ff.

إذ ربما كان ذلك راجعاً إلى حلول كلمة محل كلمة أخرى لأسباب وظروف لا يمكننا الآن تعليلها.

(٢) الرأى الثانى — رأى القائلين بأن جزيرة العرب هى مهد الساميين الأول، وهو رأى سبرنجر وسيس وشريدر ودى جويه وغيرهم من جمهرة العلماء. وأول من صدع بهذا الرأى هو العلامة سبرنجر « Sprenger » فى سنة ١٨٦١ (١) وقد بنى دعواه على أسس اجتماعية وعمرانية، وبين بوضوح أن الأمم الزراعية لا ترجع القهقرى إلى طور البداوة والقيام على الأنعام، وأن العكس فى ذلك صحيح.

وقد برهن على أن نجداً هى المهد الأول الذى درج فيه الساميون، وأنها هى التى وسمتهم بميسمها وطبعتهم بطابع الصحراء الذى لا يمحى؛ ثم ختم بحثه فى موضع آخر بقوله: « فى اعتقادى أن الأمم السامية إن هى إلا طبقات تترى من العرب نزحت من الجزيرة العربية طبقة أثر أخرى؛ ومن ذا الذى يعلم كم طبقة من تلك الطبقات قد تقدمت هجرة الكنعانيين الذين نجدهم فى بدء العصور التاريخية الأولى (٢) ».

وفى سنة ١٨٧٢ قرر الأستاذ سيس فى مقدمة كتابه « نحو اللغة الأشورية » (٣) أن جميع التقاليد السامية تدل على أن الجزيرة العربية هى المهد الأول للساميين، وأنها هى الجزء الوحيد من الدنيا الذى بقى محتفظاً بخواصه السامية الخالصة، وأن الخصائص الشعبية: كالضراوة وشدة العقيدة وقوة الخيال وحب الاستقلال - ترجع كلها إلى أنهم نشئوا نشأة صحراوية خالصة.

وفى سنة ١٨٧٣ وصل شرادر (٤) إلى النتيجة نفسها بعد استقراء وتقص للعلاقات الدينية واللغوية والجغرافية والتاريخية بين الأمم السامية المختلفه.

---

(١) راجع Sprenger, Das Leben und Lehre des Mohammad 1, P. 241.

(٢) راجع Alte Geographie Arabiens, P. 293 and Wright's Comparative Grammar, P. 7.

(٣) راجع A. H. Sayce, Assyrian Grammar, P. 13.

(٤) راجع مقالة Die Abslammung der Chaldaer und die Ursitz der Semiten"z DMG, XXVII, P. 420 ff.

وفى سنة ١٨٨٢ أعلن « دى جويه » « De Goeje » فى خطابه لدى المجمع العلمى أنه يؤثر الرأى القائل بأن وسط الجزيرة العربية هو المسكن الأول للجنس السامى على وجه العموم . وهو يرى ما رآه « سبرنجر » من قبل وما رآه ابن خلدون من قبلهما ، من أن وجود البدو متقدم على وجود المدن والأمصار وأصل لها ، وأن خشونة البداوة قبل رقة الحضارة ، وأن التمدين غاية للبدوى يجرى إليها ويسعى لها ، وأننا إذا فتشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية المصر ، وعدلوا إلى الدعة والترف الذى يهيئه الحضر ؛ ويرى فوق ذلك أن أعراب الجزيرة العربية نزحوا طبقاً بعد طبق إلى الجهات الدنيا من سوريا وبابل وعمان واليمن ، طلباً للخفض والدعة ؛ وأن غيرهم من الأعراب قضى على آثارهم فى فترات مختلفة ، ثم غلبهم على مساكنهم التى سكنوها من قبل ، وألجأهم إلى أن يضربوا فى الأرض عرضاً وطولا ؛ وهكذا دواليك حتى عمر الساميون بالتدريج ما سقت دجلة والفرات إلى حدود أرمينية وكردستان وبعض جهات أخرى من أفريقية ووادى النيل ؛ وقد نبهنا « دى جويه » إلى جودة مناخ الجزيرة العربية وأثره فى وفرة عقول العرب وفراهة أجسامهم (١) ثم هو إلى ذلك يرى أن العربية هى أقرب اللغات إلى السامية الأولى . ونحن لا نوافق « دى جويه » على ملاحظته الأخيرة ، ولنا فى ذلك رأى خاص سندلى به فى مكانه إن شاء الله تعالى

وفى سنة ١٨٩٠ قبل الاستاذ « ريت » Wright آراء « دى جويه » وأوردها فى شىء من التفصيل فى كتابه « مقارنة نحو اللغات السامية » ثم شفعها بملاحظة قصيرة قال فيها : « إن اجتياح العرب ما حولهم من المدن والأمصار فى العصور التاريخية الأولى ، كثيراً ما تكرر فى العصور التاريخية الحديثة .

« فى القرون الأولى للمسيحية كانت دولة تدمر محكومة بفرقة من تجار العرب وأشرافهم » (٢) .

---

(١) راجع Het Vaderland der semitische Volken.

(٢) راجع W. Wright, Comparative Grammar of the Semitic Languages P. 8.

ونحن نقول : إن انسياب العرب تحت راية الإسلام فى فتوحه الأولى، ونزوع القبائل إلى الأمصار، وغلبة كل قوم على ما أمكنهم من الأرضين ، يكاد يصور لنا بدقة حركات الساميين الأولى وتدفقهم المتواصل إلى ما حولهم من القرى والأمصار فى العصور التاريخية الأولى وعصور ما قبل التاريخ . هذا ، وقد حذا حذو من ذكرت من العلماء « هوبرت جريم » فى كتابه « محمد » (١) و « بروكلمان » (٢) و « كنج » فى كتابه « تاريخ سومر وأكاد » (٣) و « شولن » فى دائرة المعارف الكاثوليكية و « جون مير » و « استانلى كوك » (٤) و « كروبر » و « إرمان » شيخ العلماء فى الآثار المصرية و « دى مورجان » وغيرهم .

ويرى « كروبر » (٥) أن جزيرة العرب كانت أشبه شىء بخلية النحل ، وأن بعض انبعاث الساميين إلى ما حولهم من البلدان كان انبعاث غزو وفتح منذ أول يوم ، وبعضه كان غلبة بالعنف والقوة بعد جهاد وكفاح طويلين ، بينما كان البعض الآخر تسللا واندماجا .

وقد استطاع « كروبر » أن يميز بين أربع هجرات سامية مختلفة فى العصور التاريخية القديمة : أولاها حوالى ٣٠٠٠ سنة ق م ، والثانية حوالى ٢٠٠٠ سنة ق م ، والثالثة حوالى ١٤٠٠ سنة ق م ، والرابعة حوالى ٧٠٠ سنة ق م ؛ ثم جاء انسياب العرب تحت ألوية الاسلام بعد ذلك بنحو أربعة عشر قرناً .

أما « إرمان » و « دى مورجان » فيذهبان إلى أبعد من هذا : يذهبان إلى القول بأن جزيرة العرب هى مهد الساميين والحاميين معاً ، وأنها هى المقر الذى هاجر منه المصريون القدماء إلى وادى النيل (٦) ، وأن الجنس الحامى إن هو إلا

---

(١) راجع Hubert Grimme, Mohammad, 1904, PP. 6 - 8.

(٢) راجع Vergleichende Grammatik der Semitischen Sprache.

(٣) راجع History of Sumer and Akkad, P. 119.

(٤) راجع Cambridge Ancient History, 1, 192.

(٥) راجع A. L. Kroeber, Anthropology, P. 451.

(٦) راجع De Morgan, Recherches sur les origines de l'Egypt 1897, II, 219, 222 and 228.

جنس سامى تغيرت صفاته ، واختفت مميزاته على مر الزمن ؛ لاختلاطه بزنوج أفريقية (١)

ويعتقد « دى مورجان » أن جزيرة العرب كانت معمورة قبل العصر الجليدى الأخير ، وأنه لما جاء أمر ربك وفار التنور ، وطغي عليها الماء فى آخر ذلك العصر ، آوى كثير من سكانها إلى حضرموت ، والجبال المشرفة على البحر الأحمر (بحر القلزم) يعتصمون بها ، حتى إذا أقلعت السماء ، وغيض الماء ، وقضى الأمر ، عاد فعمر هؤلاء ومن تحدر منهم جزيرة العرب أكثر مما عمرها أباؤهم الأولون ، وكان منهم الساميون الذين هم موضع حديثنا اليوم (٢) هذا هو الرأى الثانى وعليه جمهور العلماء .

ونلاحظ هنا أن جل أصحاب الرأيين المتقدمين هم من فقهاء اللغة وعلماء الرأى السامى .

(٣) الرأى الثالث - رأى القائلين بأن شمال إفريقية هو المهد الأول للساميين قبل نزوحهم إلى جزيرة العرب ، وهو رأى « بالجريف (٣) و « جرلاند (٤) » و « برتن (٥) » و « موريس جسترو (٦) » و « كين (٧) » و « ورل (٨) » ، وغيرهم من الشعوبيين .

---

(١) راجع Erman's artical in « Die Tlexiondes agyptischen Verbums »

(٢) راجع De Margan « Prehistoire Orientale, 1, PP . 202,908-9

(٣) راجع Palgrave's artical « Arabia » in the Encyc. Brit.

(٤) راجع Gerland's artical « Ethnography » in the Iconographic Encyc. Vol. I.

(٥) راجع Journal of the Anthropological Institute, XI, 431.

(٦) راجع Jastrow, Cradle of the Semites, P. 13.

(٧) راجع A. H. Keane, Ethnobogy, and Man, Past and Present.

(٨) راجع W. H. Worrell, A Study of Races in the Arcient East.

ويرى « بالجريف » أن الشبه الجنسى القوى بين العرب والأحباش وأمم البربر وغيرهم ، وخصوصا فى شكل الفك ، ودقة عظم الساق ، ثم شدة الشبه الاجتماعى واللغوى بين تلك الأمم يدعو إلى القول بأن الساميين الخلص ليسوا من أصل أسيوى وإنما جاءوا إلى جزيرة العرب من إفريقية .

وقد وصل « جرلاند » إلى النتيجة نفسها على أساس الشبه الجسمى - كشكل الجمجمة مثلا — والشبه اللغوى أيضا ، وهو يزعم أنه يمكن رد جميع الأمم السامية إلى أصل إفريقى ، وذلك لأنه يعتقد بالوحدة الجنسية لشعوب إفريقية ، ويعتبر الساميين فرعا منها .

وفى سنة ١٨٨٢ دافع « برتن » عن هذا الرأى دفاع الأبطال ، وذهب إلى القول بأن الساميين والحاميين ربيبا أرض واحدة ، هى شمال إفريقية ، وأنه لما فصلت الأمم السامية إلى جزيرة العرب ركبت طريق السويس إلى بطرة ، حيث ألقت عصاها واستقرت بها النوى ، واكتسبت خصائصها الشعبية ، ومميزاتها الجنسية .

وفى سنة ١٨٨٢ أيضاً قبل « نولدكه » هذا الرأى ، ولكنه ذكره كفرض محتمل لا نظرية ثابتة (١)

وقد حاول « برتن » (٢) فى كتابة « مهد الساميين » أن يعين الموضع الذى هاجر منه الساميون فى شمال إفريقية ، وهو يقول : إن الأساطير المشهورة ، وعلم مقارنة اللغات ، وعلم الشعوب ، وعلم العمران ، تدل كلها على أن أودية جبال الأطلس الجميلة المشرفة على المحيط ، هي مهد الساميين الأول قبل نزوحهم إلى جزيرة العرب

أما « ربلى » فبعد أن عرض الآراء المختلفة فى كتابه « شعوب أوربا » ختم بحثه بقوله : إن خصائص العرب الجسمية تؤيد رأى « برتن » و « جسترو » فى أنهم انحدروا من أصل إفريقى (٣)

---

(١) راجع Noldke, Die Semitischen Sprache, p. 9, also. his Artical « Semitic Languages » in the Encyc. Brit.

(٢) راجع Cradle of the Semites, Also Races and Peoples, p.132.

(٣) راجع The Races of Europe, p. 376.

ويرى « كين » [١] أن جهات موريتانيا أو بلاد المغرب هى مهد الجنس القوقازى بأجمعه ، بله الساميين والحاميين ، وأنها البقعة التى فصلوا منها إلى مساكنهم المختلفة ، ثم عاد فذكر فى كتابه « الإنسان ماضيه وحاضره » أن جزيرة العرب هى الوطن الأول الذى استوطنه الساميون بعد خروجهم من إفريقية ، والذى منه تفرقوا أيادى سبا وأمما شتى إلى مساكنهم القومية [٢] هذا هو الرأى الثالث وهو رأى الشعوبيين على الخصوص .

ونلاحظ هنا أن هذا الرأى لا يتعارض مع الرأى القائل بأن جزيرة العرب هى مهد الساميين ؛ إذ معنى ذلك أن الجزيرة العربية هى الوطن الأول الذى سكنه الساميون بعد خروجهم من إفريقية والذى فيه تكونت خصائصهم الشعبية ، ومميزاتهم الجسمية ، والذى منه تفرقت شعبهم المختلفة إلى مساكنها القومية المتباينة .

(٤) الرأى الرابع

موعدنا به العدد التالى إن شاء الله تعالى .

محمد محمود جمعه

---

(١) راجع Ethnology, p. 302.

(٢) راجع Man, Past and Present, p. 490.

دار العلوم والمتنبى فى لندن

بقلم عبد الرازق ابراهيم حميدة
بعثة اللغة الانجليزية بجامعة لندن

بين دار العلوم والمتنبى محبة أكيدة وود متين ، وقد عرفتهما فى مصر صديقين تجمع بينهما أواصر الدين ، وأسباب اللغة ، وعرفتهما كلا منهما أحب ما يكون إلى الآخر ، لما بينهما من تشابه فى نباهة الشأن ، وسمو المكانة ، وبذل أقصى الجهد فى رفع علم اللغة العربية والتعريف بفضلها فى كل مكان .

وما كنت أحسبنى أظفر بالفرصة التى يلتقيان فيها فى مغارب الأرض ، وأشهد كيف يكون تقدير الفضل والنبوغ والعبقرية ، ممن يفهمون الفضل والنبوغ والعبقرية ، حتى سنحت الفرصة فى أكتوبر الماضى ، فى لندن حاضرة الدنيا وأم الأمصار ، حيث بعث المتنبى حياً ، واحتفل بعيده الألفى هنا ، كما احتفل به فى مشارق الأرض ، واشتركت لندن فى مهرجانه ، وساهمت فى تمجيده ، وأوسعت صدرها لحفلات ثلاث تغنى القوم فيها بذكاء المتنبى ونبوغه ، وتحدثوا عن طموحه وآماله .

كانت حفلة السفارات العربية أولى الحفلات ، أقيمت فى دار السفارة المصرية . وفى هذه الحفلة تم التعارف بين المتنبى والمحتفين به على يد برفسور جب أستاذ اللغة العربية فى جامعة لندن ، وقد قدمه خير تقديم ، وتكلم عن رحلاته بين البادية والشام ومصر والعراق ، ثم ألقت رئيسة جمعية الشعر الإنجليزية وهى إحدى كرائم العقيلات شيئاً من شعر المتنبى ، مما ترجمه بروفسور « نيكلسون » أستاذ اللغة العربية فى جامعة كمبردج ، فكان إلقاؤها جميلا جداً ، وبخاصة إلقاؤها ترجمة قول المتنبى .

نشرت ثلاث ذوائب من شعرها فى ليله فأرت ليالى أربعـــا
واستقبلت قمر السماء بوجهها فأرتنى القمرين فى وقت معاً

وكانت الحفلة الثانية حفلة الجمعية الآسيوية الملكية برياسة بروفسور مرجليوث ، وتكلم فيها برفسور نيكلسون فأبدع فى تحليله ودراسته للمتنبى ، وبخاصة موازنته

بينه وبين شكسبير وبوب ، فحمد له ناحية الشعر الذى جرى مجرى الأمثال .

أما الليلة الثالثة فكانت فى دار النادى المصرى ، أقيمت الحفلة فى يوم السبت ١٧ من اكتوبر سنة ١٩٣٦ . وكانت فريدة فى نوعها ، بديعة فى تنظيمها ، بدا فيها المتنبي على غير عهد الناس به شاعراً يكتب للمسرح ويبدو هو نفسه ممثلا قديراً .

ولم لا ؟ ألم تكن حياة المتنبى قصة مسرحية طريفة قام هو فيها بالدور الأول ، وأنشد فى كل فصل منها من آيات الحكمة والموعظة الحسنة ما لم يفعله شاعر قبله ولا بعده فى اللغة العربية إلا شوقى رحمه الله ؟

وقصة ذلك أن لجنة النادى عهدت بأمر حفلتها إلينا أبناء دار العلوم ممثلين فى شخص أخى إبراهيم أنيس ورأينا نحن أن نكون كالعهد بنا أكفاء لكل ما نضطلع به ، وأن تكون حفلتنا على غير مثال سبق . ماذا نفعل ، ونحن نعلم من برنامج الحفلتين الأوليين أن المتنبى سيكون موضوع كلام طويل وخطب ودراسة وتحليل لشعره ونفسيته ، وسوف تترجم بعض آثاره ويتلى بعضها باللغة العربية ، وسوف يتحدث عن ذكائه ورحلاته إلى سيف الدولة وكافور وابن العميد ؟

« ما رأيكما فى قصة مسرحية عن المتنبي ؟ » كان هذا رأياً عرضه الأستاذ خلف الله ونحن فى طريقنا ذات ليلة إلى بيوتنا قائلا : أما أنا فأتعهد أن أمدكم بالحوادث . ولكن من الذى يتخير منها حادثة تكون رواية من فصل واحد ؟ ومن الذى يستخرج من شعر المتنبى قصة مسرحية تجمع بين الفكاهة والصدق وسهولة الفهم . ومن أولئك الذين يلقون شعر المتنبى تمثيلا فيحسنون إنشاده ويظهرون جزالته إذا لم نكن نحن الذين يفعلون ؟

ألقينا عبء التأليف والإشراف على إخراج الرواية واختيار الأشخاص على أنيس فكان جوابه « حمل بعير وأنا به زعيم » . ونحن نعلمه موهوبا فى هذه الناحية ، مغرما بالتمثيل والتأليف المسرحى ، وعنده روح الفكاهة العذبة ، وهو كفيل بإخراج رواية تسر الجمهور وتحبب إليه السيد أحمد بن الحسين - المتنبى - ولأنيس كثير من السوابق فى هذا الباب ، وعندنا أشخاص الرواية أجمعون . وكان على المؤلف أن يكتب لكل منهم دوراً يناسبه على أن تتفق الحقيقة والخيال إلى حدما .

أما أشخاص الرواية فهم أربعة :

سيف الدولة — وقد مثله أنيس خير تمثيل .

ابن خالويه - إمام من أئمة النحو كما نعلم جميعاً ، وكانت بينه وبين المتنبي عداوة يذكيها أبو فراس الحمدانى من ناحية واعتداد المتنبي بنفسه وعدم اهتمامه بأقوال النحاة ونقدهم من ناحية أخرى - قام بهذا الدور عبد العزيز أمين خير قيام ، ونال إعجاب الذين شهدوا الحفلة جميعاً . وذلك أنه وافق دوره كما «وافق شن طبقه» فى المثل العربى ، وكانت شواهد الاستغاثة وأمثله التعجب تثير من إعجابه ، ويبدى هذا الإعجاب بطريقة تثير السرور ، وتحمل على الضحك والاستحسان .

المتنبي - مثله خلف الله . ومن أحق منه بتمثيله ؟ ! إنه شاعر جهير الصوت ، عربى الوجه واليد واللسان . حلو الإلقاء والنبرات .

أبو الحسن - راوية المتنبي وصديقه وناصره على ابن خالويه - وهى شخصية تخيلها أنيس ، كما تخيل أننى أحفظ من الشعر العربى - للمتنبي وغيره - مقداراً لا بأس به ، ولم أكن قد علوت مسرحاً قبل هذه المرة ، ومكث أنيس يعلمنى زمناً كيف أكون «أبا حسن» ، فكنت بعد لأى وعناء وتخوف .

وعند ما لبست العباءة والعقال تملكنى السرور ، وقلت

ولبس عباءة وتقر عينى أحب إلى من لبس الشفوف

وعند ما انتهت الرواية طلبت من أنيس أن نعيد تمثيلها مرة أخرى لأنفسنا من غير الجمهور ، فضحك منى ولم يوافقنى أحد من بقية الإخوان .

أما الذين شهدوها فقد سروا جداً ، وكان من بينهم الأستاذ عبد الرحمن بك حقى القائم بأعمال المفوضية عندئذ ، والمرحوم حسن باشا خالد أبو الهدى رئيس وزارة شرق الأردن وبروفسور جيب ودكتور تريتون من مدرسة اللغات الشرقية والسير دنصون روس مدير المدرسة .

وكانت الحفلة فى جملتها «دار العلوم والمتنبي فى لندن» كما قال جل الذين شهدوها ، وكانت خير ما يمكن أن يحدث فى مثل هذه الظروف .

عبد الرزاق ابراهيم حميده
بعثة اللغة الانجليزية بجامعة لندن

المتنبي فى مجلس سيف الدولة

رواية تمثيلية ذات فصل واحد

بقلم ابراهيم أنيس
عضو البعثة العلمية بانجلترا

«سيف الدولة يلعب الشطرنج مع ابن خالويه ، وبجوارهما أبو الحسن الراوية »

سيف الدولة « مقهقهاً » : عليك أن تحمى مليكك يابن خالويه .

بذا قضت الأيام مابين أهلها : مصائب قوم عند قوم فوائد

ابن خالويه : أعز الله مولاى الأمير ، والله إن فرسك فى صيالها فوق لوح الشطرنج . لهى فرسك فى ميدان القتال

وما الخيل إلا كالصديق : قليلة وإن كثرت فى عين من لايجرب

أبو الحسن : إن مليكك ومليكى فى أمن من الخوف ، وما هذه الأليعبات إلا خشب مسندة

فرب غلام علم المجد نفسه كتعليم سيف الدولة الدولةَ الضربا

إذا الدولة استكفت به فى ملمة كفاها ، فكان السيف والكف والقلبا

ابن خالويه : نطقت صواباً . ولكن أتعرف لم لم تنصب كلمة « خُشُب » فى قولك « ماهى إلا خشب مسندة » ؟

سيف الدولة : يا بن خالويه عرفناك نحوياً ضليعاً فدع أبا الحسن وحاله إنه وإن لم يدر من النحو ماوعيت ، لهو بالكتابة والرواية جد عليم

عليم بأسرار الديانات واللغا له خطرات تفضح الناس والكتبا

أبو الحسن : أدام الله حياة الأمير ، لقد تعودت مثل هذا القول من ابن خالويه وغيره ، ولكنه الزمن أيها الأمير :

رمانى الدهر بالأرزاء حتى فؤادى فى غشاء من نبال

فصرت إذا أصابتنى سهام تكسرت النصال على النصال

ابن خالويه : قاتلك الله . لقد أعدت إلى سمعي ذكر « حتي » ، رحم الله

سيبويه حين قال « سأموت وفى نفسى شىء من حتى »

سيف الدولة « بعدلعبة مدهشة من ابن خالويه » : لعنك الله ! ضيقت على الحصار ، فلا أرى مخرجاً

أظمتنى الدنيا ، فلما جئتها مستسقياً ، مطرت على مصائباً

ابن خالويه : ألا ليت شعرى .

أبو الحسن « مكملا »

هل أقول قصيدة فلا أشتكى فيها ولا أتعتب

وبى ما يذود الشعر عنى أقله ولكن قلبى يابنة القوم قلب

سيف الدولة : والله لكأنى لم أسمع هذا الشعر من قبل ، لمن هذا ؟ وفيمن قيل ؟

ابن خالويه : كيف يكون فى ممدوح غير سيف الدولة

أنت الذى لهج الزمان بذكره وتزينت بحديثه الأسمار

وإذا تنكر فالفناء عقابه وإذا عفا فعطاؤه الأعمار

أبو الحسن : إنه المتنبى يمدح الأمير ، وهو القائل فيك .

من للسيوف بأن تكون سميه فى أصله وفرنده ووفائه

سيف الدولة : ألم يكن هذا فى القصيدة التى أجاز بها أبياتك ؟ فماذا كان مطلعها ؟

أبو الحسن : مطلعها ـ أعز الله الأمير :

يا لائمى كف الملام عن الذى أضناه طول سقامه وشقائه

ابن خالويه : ردىء ! وإنه لو قال أضناه سهاده لكان خيرا .

سيف الدولة : أحسنت يابن خالويه فى نقدك للمرة الأولى .

ونذمهم وبهم عرفنا فضله وبضدها تتميز الأشياء

أبو الحسن : ما زلت أعتز بأبياتى هذه حتى أجازها المتنبى بقوله :

عذل العواذل حول قلب التائه وهوى الأحبة منه فى سوداء

فأصغر من شعرى هذا القول .

ابن خالويه « ساخراً » : لم لا نلقبك راوية المتنبى ؟ إنى أراك تسرف فى

الثناء عليه وهو لم يأت بجديد ، رحم الله عنترة حين قال :

« هل غادر الشعراء من متردم ؟ »

سيف الدولة : يابن خالويه ، كن عادلا فى حكمك ، وحاول أن تفهم الشعر من طريق غير طريق النحو .

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره ... اذا استوت عنده الأنوار والظلم ؟

أبو الحسن :

مضت الدهور وما أتين بمثله ... ولقد أتى فعجزن عن نظرائه

ابن خالويه : إنك لتزيده بمثل هذا القول غروراً ، وهو القائل :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فليت شعرى ماذا أبقى للأمير ! وصف نفسه بالرياسة والسماحة والفصاحة ، يمدح نفسه بما يسرق من كلام غيره ، ويأخذ جوائز الأمير .

سيف الدولة : إنه شغل عنى بالمديح فى نفسه ، ولقد كتبت له بهذا وتنكرت له بعض الشىء .

وإنى لنجم تهتدى بى صحبتى ... إذا حال من دون النجوم سحاب

وللسر منى موضع لا يناله ... نديم ، ولا يفضى إليه شراب

« ثم يشرب الكأس »

أبو الحسن : لعل الأمير يذكر اعتذاره عن هذا بقوله :

أرى ذلك القرب صار ازورارا ... وصار طويل الكلام اختصارا

تركتنى اليوم فى خجلة ... أموت مراراً وأحيا مراراً

ابن خالويه : لاحول ولا قوة إلا بالله ، والله إن الشعراء ليتبعهم الغاوون كيف يموت مرار ويحيا مرارا ؟ والله إن الموت لموتة واحدة .

سيف الدولة « مقهقها » : يابن خالويه ، رفه عنك . فما الشعر إلا خيال يلذ به السامع ، كما يلذ الشارب بالخمر :

« يا ساقى ، على بالصهباء »

أبو الحسن :

لأحبتى أن يملئوا بالصافيات الأكوبا
وعليهمُ أن يبذلوا وعلى ألا أشربا

ابن خالويه : والله إن المجلس بغير الشراب ، لكالكلام بلا إعراب .

سيف الدولة : لقد كتبت إلى المتنبى أستدعيه .

« يدخل المتنبى منشدا »

فهمت الكتاب أبر الكتب فسمعاً لأمر أمير العرب
وطوعا له وابتهاجاً به وإن قصر الفعل عما وجب
وما عاقنى غير خوف الوشا ة، إن الوشايات طرق الكذب

السلام على مولاى الأمير ومن بحضرته :

سيف الدولة : وعليكم السلام . اجلس يا أبا الطيب .

أبو الحسن : كيف رأيت خلعة الأمير يا أبا الطيب ؟

المتنبى :

فعلت بنا فعل السحاب بأرضه خلع الأمير وحقه لم نقضه
فكأن صحة نسجها من لفظه وكأن حسن نقائها من عرضه

ابن خالويه : لست أستسيغ قولك : « فعلت بنا »

سيف الدولة « مقهقهاً » : لعنك الله يا بن خالويه .

ابن خالويه : إن هذا القول فى رداءته يذكرنى بقصيدتك التى قلت فيها :

ليت أنا إذا ارتحلت لك الخيـــل وأنا إذا أقمت الخيام

والتى جعلت فيها الخيام فوق الأمير .

المتنبى :

لقد نسبوا الخيام إلى علاء أبيت قبوله كل الإباء
وما سلمت فوقك للثريا ولا سلمت فوقك للسماء

سيف الدولة : أحسنت يا أبا الطيب ، هل لك فى كأس من الشراب ؟

أبو الحسن : رحم الله يماك التركى ، فقد كان طوع الأمير فى مجلس شرابه ، ألست القائل ترثيه :

لا أبقى يماكُ فى حشاى صبابة إلى كل تركى النجار جليب

ابن خالويه : كف عن هذا ، ولا تذكر الأمير بخادمه المحبوب ؛

فما ماضى الشباب بمسترد ولا يوم يمر بمستعاد

سيف الدولة : يا أبا الطيب ، ألا يذكرك هذا الشطرنج بيوم لنا أنشدتنى فيه ؟

المتنبي : لقد كان هذا فى يوم مطير .

أبو الحسن :

ألم تر أيها الملك المرجى عجائب ما رأيت من السحاب

تشكى الأرض غيبته إليه وترشف ماءه رشف الرضاب

وأوهم أن فى الشطرنج همى وفيك تأملى ولك انتصابى

ابن خالويه : قبيح . قبيح ورب الكعبة ، « ولك انتصابى » ؟

سيف الدولة : يا أبا الطيب استمع لما أنشد ، على أن تجيزه ارتجالا :

خرجت غداة النفر أعترض الدمى فلم أر أحلى منك فى العين والقلب

المتنبي :

فديناك أهدى الناس سهما إلى قلبى وأقتلهم للدارعين بلا حرب

تفرد بالأحكام فى أهله الهوى فأنت جميل الخلف مستحسن الكذب

وإنى لممنوع المقاتل فى الوغى وإن كنت مبذول المقاتل فى الحب

أبو الحسن : صدقت وبررت ، والله إن الشعر فى أسمى درجاته لا يلذ السمع إلا حين يتحدث عن الحب ، وإن أنس لا أنس قولك يا أبا الطيب :

وفتانة العينين قتالة الهوى إذا نفحت شيخا روائحها شبا

لها بشر الدر الذى قلدت به ولم أر بدراً قبلها قلد الشهبا

فياشوق ما أبقى ويالى من النوى ويادمع ما أجرى ويا قلب ما أصبى !

ابن خالويه : إن البيت الأخير لشاهد حسن لباب الاستغاثة ! ولكن خير من هذا الشعر قول القائل :

إذا غدرت حسناء أوفت بعهدها ومن عهدها ألا يدوم لها عهد

وإن حقدت لم يبق فى قلبها رضا وإن رضيت لم يبق فى قلبها حقد
كذلك أخلاق النساء ، وربما يضل بها الهادى ويخفى بها الرشد

سيف الدولة : يابن خالويه ، إن نحوك ـ علم الله ـ ليثير علتى ، ويقلق هذا الدمل تحت إبطى ، « يمسك إبطه متوجعاً »

أبو الحسن :

بنا لابك الشكوى ، فليس بضائر إذا صح نصل السيف مالقى الغمد

المتنبى :

أيدرى ما أرابك من يريب وهل ترقى إلى الفلك الخطوب
وجسمك فوق همة كل داء فقرب أقلها منه عجيب
وكيف تعلك الدنيا بشىء وأنت بعلة الدنيا طبيب

ابن خالويه « وحده » شهد الله إنه لرياء مستنكر ، ومبالغة غير محمودة .

سيف الدولة : بم تتمتم يابن خالويه ؟ أذهب النحو بالبقية من عقلك ؟

أبو الحسن : أعز الله الأمير ، مازالت به كان وأخواتها حتى ذهبت برشده .

ابن خالويه : صه . كيف تجرؤ أن تهينى فى حضرة الأمير ؟

سيف الدولة : كفى ، دعونا أنشدكم هذه الأبيات التى طالما أعجبت بها ، على أن يجيزها أبو الطيب :

سأشكر عمراً ما تراخت منيتى أيادى لم تمنن وإن هى جلت
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ولامظهر الشكوى إذا النعل زلت
رأى خلتى من حيث يخفى مكانها فكانت قذى عينيه حتى تجلت

المتنبى « يطرق قليلا ثم ينشد » :

لنا ملك لا يطعم القوم ، همه سماة لحى أو حياة لميت
ويكبر أن تقذى بشىء جفونه إذا ما رأتها خلة بك فرت
جزى الله عنى سيف دولة هاشم فإن نداه الغمر سيفى ودواتى

أبو الحسن « مصفقاً » : أجدت وأحسنت . ألا ترددهذا الذى ارتجلت فأحفظه ؟

المتنبى : لا والله حتى يأمر الأمير .

سيف الدولة : أنشد يا أبا الطيب ، « المتنبى يردد الأبيات وابن خالويه يسد أذنيه بيديه »

أبو الحسن : هذا هو الذى فى أذنيه وقر ، فلا يتذوق جمال الشعر .

ابن خالويه « متحديا المتنبى » : غداً العيد فما أعددت لتقول فى الأمير ؟

أبو الحسن : إن قصائد أبى الطيب فى تهنئة الأمير بالعيد مشهورة .

المتنبى :

هنيئاً لك العيد الذى أنت عيده وعيد لمن سمى وضحى وعيدا

« يسمع من الخارج صوت المؤذن فيضع سيف الدولة الكأس جانبا ، ثم يكبر الجميع مع المؤذن »

المتنبى :

ألا أذّن فما أذكرت ناسى ولا لينت قلباً وهو قاسى

ولا شغل الأمير عن المعالى ولا عن حق خالقه بكاس

ابن خالويه : أدام الله حياة الأمير ، إن الوقت ليمضى سريعاً فى حضرته . أهذه هى العشاء ؟

أبو الحسن : والله يا مولاى لو كنت أميرا لأجزلت لأبى الطيب مثل هباتك له ، فقد علمنى الحب إذ يقول :

هام الفؤاد بأعرابية سكنت بيتاً من القلب لم تمدد له طنبا

مظلومة القد فى تشبيهه غصناً مظلومة الريق فى تشبيهه ضرباً

بيضاء تطمع فيما تحت حلتها وعز ذلك مطلوبا إذا طلبا

ابن خالويه : « مستنكراً » « تطمع فيما تحت حلتها » ؟ ويقال هذا فى حضرة الأمير ؟ ثم ما معنى قولك « علمنى الحب » وهل الحب يعلم ؟

سيف الدولة : ليست كل القلوب أهلا للحب ، فمنها الصخر الأصم ، ومنها الرقيق الحساس :

لا تعذل المشتاق فى أشواقه حتى يكون حشاك فى أحشائه

إن القتيل مضرجاً بدموعه مثل القتيل مضرجاً بدمائه

أبو الحسن : أصغ إلى هذا القول يابن خالويه ، فربما ألان من قلبك : أرقّ على أرق .

المتنبي « متمما » : ومثلى يأرق

أبو الحسن : وجوى يزيد وعبرة تترقرق

جهد الصبابة أن تكون كما أرى : عين مسهدة وقلب يخفق

ما لاح برق أو ترنم طائر إلا انثنيت ولى فؤاد شيق

جربت من نار الهوى ما تنطفى نار الغضى وتكل عما تحرق

وعذلت أهل العشق حتى ذقته فعجبت كيف يموت من لا يعشق

المتنبي :

والله لو كنت الأمير لأعطيتك أنت هذه المنح ، يا أبا الحسن، إنك لتحفظ من شعرى أكثر مما أحفظ أنا .

سيف الدولة : « كأنما تذكر أمراً خطيراً — واقفاً »

أيها القوم ، أفتونى فى أمر بنى كلاب . ما زالوا يشنون الغارة ، ويفسدون علىّ أمر الرعية .

أبو الحسن « دهشاً » : أما ارعووا بعد أن أدبتهم فى المرة الأولى !

تهاب سيوف الهند وهى حدائد فكيف إذا كانت نزارية عربا

ويرهب ناب الليث والليث وحده فكيف إذا كان الليوث له صحبا

ويخشى عباب البحر وهو مكانه فكيف بمن يغشى البلاد إذا عبا

« المتنبي يطرق مفكراً »

ابن خالويه « متهكما » : المتنبي يستوحى بنات شعره ليصد عنا .

سيف الدولة : كفى يا بن خالويه ، فيم تفكر يا أبا الطيب ؟

المتنبي « منشداً » :

بغيرك راعياً عبث الذئاب وغيرك صارماً ثلم الضراب

وتملك أنفس الثقلين طرا فكيف تحوز أنفسها كلاب

وما تركوك معصية ولكن يعاف الورد والموت الشراب

طلبتهمو على الأمواه حتى تخوف أن تفتشه السحاب

أبو الحسن : ما أعذب وما أجمل !

ابن خالويه ، متهكما ، : وما أحلى !

سيف الدولة : أجز هذه الأبيات يا أبا الحسن ،

أبو الحسن :

ترفق أيها المولى عليهم فإن الرفق بالجانى عتاب
وإنهمو عبيدك حيث كانوا إذا تدعو لحادثة أجابوا
وعين المخطئين همو وليسوا بأول معشر خطئوا فتابوا

المتنبي :

وأنت حياتهم غضبت عليهم وهجر حياتهم لهمو عقاب

سيف الدولة : أجدتما وأحسنتما ، فماذا ترى يابن خالويه ؟

ابن خالويه :

وجرم جره سفهاء قوم وحل بغير جارمه العذاب

أعز الله الأمير ، ليس عدلا أن يعاقب القوم كلهم .

سيف الدولة : والله لو منعونى درهماً لقاتلتهم عليه .

المتنبي :

ولو غير الأمير غزا كلابا ثناه عن شموسهمو الضباب
ولكن ربهم أسرى إليهم فما نفع الوقوف ولا الذهاب

أبو الحسن : فمشاهم وبسطهم حرير

سيف الدولة : ، متمما بحدة ، : وصبحهم وبسطهم تراب

والله لأعلمن القوم كيف يرتدعون عن غيهم ، يا غلام دع المغنى يغنى قبل أن تدور رحى الحرب ، يسمع صوت المغنى مطرباً الأمير ومن بحضرته ،

المتنبي :

ماذا يقول الذى يغنى يا خير من تحت ذى السماء
شغلت قلبى بلحظ عينى إليك عن حسن ذا الغناء

سيف الدولة : أعلى البديهة تقول هذا ؟

أبو الحسن : ليس هذا بكثير على شاعر الأمير .

ابن خالويه : أعز الله مولاى الأمير ، والله لقد ضقت ذرعا بهذا المتشاعر ، وإن غروره قد جاوز الحد ، إن الرجل يبغى حولا وسلطاناً كالذى للأمير .

أبو الحسن : هذه الكلمة يراد بها باطل ، أعز الله مولاى الأمير ، لخير لك أن يكون شاعرك عالى الهمة من أن يكون ذليلها وهو الذى يقول فيك :

بلغت بسيف الدولة النور رتبة ملكت بها ما بين شرق ومغرب

سيف الدولة « غاضباً » :

أراك قد أسرفت يا أبا الطيب فى مديح نفسك ، فبم تعتذر عن هذا ؟ أجب المتنبى :

ألا ما لسيف الدولة اليوم عاتباً فداه الورى أمضى السيوف مضارباً
حنانيك مسئولا ولبيك داعياً وحسبى موهوباً ، وحسبك واهباً

أبو الحسن : رعاك الله ! لا تسمع لقول الوشاة ، فلست أحسب الأمير قد نسى قول المتنبى فيه :

وبمهجتى يا عاذلى الملك الذى أسخطت كل الناس فى إرضائه
إن كان قد ملك القلوب فإنه ملك الزمان بأرضه وسمائه
الشمس من حساده والنصر من قرنائه ، والسيف من أسمائه

ابن خالويه ، أصلح الله الأمير ، لقد أدخل هذا الرجل على الشعر ما أفسده ، ولعل الأمير يذكر ذلك الهذيان الذى سماه شعراً فى قصيدته التى مطلعها :

ما أنصف القوم ضبة وأمه الطُّرُطُبَّة

سيف الدولة « يزداد غضبه » :

أتقرن غيرى بى فى المديح يا أبا الطيب ؟

المتنبى :

وظنونى مدحتهمو قديماً وأنت بما مدحتهم مرادى

أبو الحسن : لله درك حين تقول :

أنا ترب الندى ، ورب القوافى وسمام العـــدا ، وغيظ الحسود

ابن خالويه : أنا لست بحسود ، وإنما أنا أديب يعرف للشعر قدره

المتنبى : اتق الله يابن خالويه

ومن يجعل الضرغام بازاً لصيده تصيده الضرغام فيما تصيـــدا

صدق من قال : إذا لم تستح فاصنع ما شئت

فى الناس أمثلة تدور : حياتها كمماتها ، ومـــاتها كحياتها

أبو الحسن :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

سيف الدولة : أسرفتما فى ذم ابن خالويه والتعريض به .

ابن خالويه ، معرضاً بالمتنبى ، :

تخفى العداوة وهى غير خفية نظر العدو بمـــا أسر يبوح

، مخاطباً سيف الدولة ، :

فلا تغررك ألسنة موال تقلبهن أفئـــدة أعادى

المتنبى :

أزل حسد الحساد عنى بكبتهم فأنت الذى صيرتهم لى حسداً

وما الدهر إلا من رواة قصائدى إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

أجزنى إذا أنشدت شعراً ، فإنمـا بشعرى أتاك المادحون مردداً

أبو الحسن : من أجمل ما أحفظه لك يا أبا الطيب قولك :

وإذا خفيت على الغبى فعاذر ألا ترانى مقلة عميـــاء

المتنبى : أطال الله بقاء الأمير . لقد خلقت فينا الشجاعة . وكنت لنا المثل فى ميدان القتال .

وقفت وما فى الموت شك لواقف كأنك فى جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمـــة ووجهك وضاح وثغرك باسم

سيف الدولة : أما قلت :

وقفت وما فى الموت شك لواقف ووجهك وضاح وثغرك باسم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة كأنك فى جفن الردى وهو نائم

المتنبى : أعز الله الأمير ، إنى حين ذكرت الموت فى أول بيت أتبعته بذكر الردى ليجانسه ، ولما كان وجه المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً ، وعينه من أن تكون باكية ، قلت : ووجهك وضاح ، لأجمع بين الأضداد

سيف الدولة : أحسنت وأجدت ، « يناوله عطية » إنى لأطرب لشعرك يا أبا الطيب ، أنشدنى !

المتنبى :

رأيتك فى الذين أرى ملوكا كأنك مستقيم فى محال
فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

ابن خالويه : هذا الشعر فيه عيب فى الصنعة ، قولك « مستقيم فى محال » والمحال ليس من ضده الاستقامة ، وإنما ضدها الاعوجاج ،

أبو الحسن « متهكما » : هب القصيدة جيمية فكيف ترى البيت الثانى ؟

ابن خالويه :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن البيض بعض دم الدجاج

« الجميع يضحكون »

المتنبى : حسن مع هذه السرعة ، إلا أنه يصلح أن يباع فى سوق الطير ، لا مما يمدح به مثل الأمير .

ابن خالويه « محتداً » : أتهزأ بى يا شيطان !

المتنبى :

ومن يك ذا فم مُرّ مريض يجد مراً به الماء الزلالا

ابن خالويه : اسكت وإلا . ! « مهدداً بمفتاح فى يده »

المتنبى : اسكت ويحك ، ما لك وللعربية ، إنك أعجمى !

« ابن خالويه يضربه بالمفتاح »

« المتنبى يحاول الإمساك بتلابيبه فيصيح به سيف الدولة »

سيف الدولة : « بعد هدوء العاصفة » :

لقد انتصف لنفسه

المتنبي : لا بد من رحيلي . ثم ينشد :

يا من يعز علينا أن نفارقهم ... وجدانا كل شيء بعدكم عدم
يا أعدل الناس إلا فى معاملتى ... فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
أعيذها نظرات منك صادقة ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
إن كان سركم ما قال حاسدنا ... فما لجرح إذا أرضاكم ألم

« ينزل الستار »

(لندن)

ابراهيم أنيس
عضو بعثة المجمع اللغوى

معجم الأدباء

بقلم الاستاذ الجليل الشيخ عبد الخالق عمر

الأستاذ بدار العلوم

وبعد فقد صحت عزيمتى أن أكتب فى صحيفة دار العلوم شيئا مما مر على فى معجم الادباء لياقوت أثناء مراجعتى تجاربه النهائية التى كلفتنى بها وزارة المعارف بكتاب أرسلته إلى ، وقبل البدء فيما ارتأيت يجدر بى أن أذكر شيئا عن ياقوت ، وآخر عن كتب التراجم وما تسديه إلى قراء العربية من أدب جم وعلم زاخر وفقه عظيم .

ياقوت : لا أحاول أن أكتب عن ياقوت كتابة وافية كما يكتب المؤرخون ، ولا أريد أن أتتبع حياته فأضعها محل الشرح أو التحليل كما يقول فلاسفة الأدب ، ولكنى سألم به إلمامة تبرد الغليل لمن يتطلع إلى تعرف حياته ، على أن من يرغب فى عرفان شخص ما ، فعليه أن ينظر إلى ماترك من أثر وما قدم من عمل ، فإن هذا مكان الحكم على الشخص وموضع الرأى فيه والكلام عليه .

وها هو ذا ياقوت من بين ما أثر عنه كتاباه الجليلان : معجم الأدباء ومعجم البلدان . لقد قرأت فى الأول زهاء ثلثيه فجعل لياقوت فى ذهنى وخيالى عظمة لا كنه لها ، ومكانة قل أن يرقى إليها مبتغى الرقى ، وما ألقى قولى على عواهنه ، ولكنى أؤيده بما كان فى نفسى وعقلى وفهمى وإدراكى . وربكم لقد قرأت من كتب الأدب كثيرا ، مستقلا فى القراءة لنفسى ، أو معداً دروساً ، فلم أكن واعياً حافظاً طرباً من تلك الكتب بمقدار ما وعيت من معجم الأدباء ، ولقد بصرنى بكثير من أمور الدول وحركة العلم والأدب فيها ، ووقف بى حيث يتنافس المتنافسون فى كل فن ، ودلنى على ما قيده وألفه المؤلفون فى كل عصر من كل علم من العلوم الأدبية والشرعية والاجتماعية والطبيعية ، حتى جعل فى نفسى صورة واضحة للأمة الإسلامية على اختلاف أجناسها فى مدى ستة قرون ، مما لم أقف عليه من كتب

الأدب أو مذكراته التى يقوم بجمعها الكاتبون . وسيتبين للقارئين حقيقة ما أقول إذا عرضت عليهم فى هذه المجلة ما سأختاره مما اشتملت عليه التراجم التى جلاها لنا فى ثنايا كتابه العظيم . هذا ولست مغالياً ولا مفرطا فيما قدمته من القول ، فإنى وايم الله لم أعد أن قلت الحق ، بل توقيت تجاوز الحد .

وأما كتابه معجم البلدان فهو الدرة اليتيمة والجوهرة المكنونة . يعرفك عن الأماكن والبلاد والجبال والوديان ، ذاكرا المناسبة بين الاسم والمسمى فى كثير مما ذكر ، ضابطاً لك الأسماء بالحروف فيريحك من البحث فى كتب اللغة ، ولو أنه وقف عند هذا لكان من الملل ، ولكن يطرفك بذكر شىء من الشعر يرتبط بالبلاد والأماكن ، ويحدثك عن مكانتها العلمية ومبلغ ما تخرج بها من الرجال والعلماء والأدباء والملوك والسلاطين .

وجملة القول أن ياقوتا فى كتابيه هذين يعلمك ويرقق من عاطفتك ويسرك بفكاهاته ويغدق عليك من العلوم المختلفة ، ويرحل بك من بلاد العرب إلى بلاد العراق وفارس وما وراء النهر ، ثم ينتقل بك إلى سوريا وفلسطين ومصر ، ولا يسهو عن بلاد المغرب والأندلس ، فترى فى هذه الممالك حياة الناس فى مدى ستة قرون .

وإن رجلا يكون من آثاره هذان السفران لجدير بأن يكون عظيم النفس كبير العقل رضى الخلق إلى ما شئت من صفات عالية ومكانة سامية .

وإذا ما أردت أن أذكر امرأ فى عالم التاريخ فما أحسن ما أنبه عنه بمثل هذا ، على أنى سأذكر بعض ما مر به من أحوال وصروف وحوادث كان لها أثر فى تكوينه وبلوغه ما بلغ من العظمة

ياقوت : رومى الجنس حموى المولد بغدادى الدار ، وليه شهاب الدين ، أسر من بلده صغيرا وبيع ببغداد فاشتراه تاجر يعرف بعسكر بن أبى نصر الحموى ، وكان عسكر تاجرا لا يحسن الكتابة والقراءة ، وهو فى حاجة لكاتب قارىء يقوم على عمله ويضبطه ، فلما ابتاع ياقوتاً عهد به إلى من يعلمه فأتقن القراءة والكتابة ، وتعلم طرفاً من اللغة والإعراب ، وكان كل هذا بذرا حسنا

فى فطرة ياقوت ، إذ علق باللغة وما يرتبط بها ، حتى إنه إذا أرسله سيده فى تجارة لا يترك الفرصة تمر عليه بدون أن يستفيد من البلاد التى يمر بها أو يرسو عليها حتى يتصل بعلمائها وأدبائها ، فيتلقى ويتقن ، ويعى ويفيد كل ما يصل إليه من تاريخ أو أدب ؛ وما زال هذا شأنه حتى كانت نبوة بينه وبين سيده نجم عنها أن أعتقه وتركه ، فعكف ياقوت ينسخ للناس ما يكلف به من الكتب والصحف زمناً ليس بالقصير ، فكانت الوراقة مدرسة له أفادمنها كثيرا من العلوم والفنون ، وقد ألحت الحاجة على سيده فدعاه ثانية وكلفه العمل ، فمضى فيه ولم ينس ما عاهد عليه نفسه من الدأب فى العلوم ، وكان بعد ذلك أن مات سيده وهو فى رحلاته التجارية ، فلما جاء بغداد أرضى زوج وأولاد سيده بشىء من مال التجارة ، واحتجز لنفسه قدرا كان رأس ماله ، فرجع إلى الوراقة واتجر فى الكتب ووعى منها كثيرا يخبرك عنه فى أثناء معجم الأدباء

وبقى حياً حتى جاءت دولة التتر تخرب البلاد وتسفك الدماء ، وناله من ذلك كثير ، وضاع من ماله شىء لا يقدر بمال ، من المؤلفات والمصنفات ، وجاء إلى الموصل وانتقل منها إلى سنجار ، ثم حلب ، وأقام بها إلى أن مات سنة ٦٢٦ سنة ست وعشرين وستمائة ، بعد أن عاش حوالى ٥٠ سنة ، فإن مولده سنة ٥٧٥ خمس وسبعين وخمسمائة . رحمه الله .

وبمناسبة معجم الأدباء أقول : ليس ياقوت أول من عمد إلى ذلك النوع من التأليف ، فقد سبقه كثيرون ، مثل : الجهسيارى والسمعانى والصولى وهلال ابن الحسن الصابى ، وقد نبه على هذا ياقوت ، وذكر أن هذه الكتب لا تشفى مريضاً ولا تبل أواما . والحق ما قال ، فإنى اطلعت على شىء من هذه الكتب وعلى ما جاء بعدها فلم أرو من مائها ولم أتبلغ بزادها ولكن الراوى للصدى المشبع النهم هو معجم الأدباء ، وقد جاء بعد ياقوت كتب فى التراجم مثل الوافى بالوفيات للصفدى ووفيات الأعيان لابن خلكان وفوات الوفيات لابن شاكر ، وكأنى بها عالة على معجم الأدباء وكثيراً ما تنقل عنه .

وإنى أحدثكم يا سادة أنى لم أكن آلف مثل هذا النوع من الكتب حتى

كلفت بقراءة معجم الأدباء ودعانى هذا التكليف للنظر فى كتب أخرى كالتى ذكرت وفى غيرها فحبب إلى هذا الضرب من التأليف وعلمت أن العلم والفضل ومبعث النور من سواد صحائف هذه الكتب ، وإنى لأدعو من لم يمارسها أن يرغم نفسه على مطالعتها فيخرج منها وقد أحس بنفسه وعرف قدرها

ومن أجل هذا أقدم شكرى الجزيل وثنائى المستطاب لحضرة صاحب المعالى وزير المعارف ورجالاتها الكرام إذ كلفونى قراءة التجارب النهائية لمعجم الأدباء .

كما أقدم عرفانى بالجميل للدكتور أحمد بك فريد رفاعى إذ قام بطبع هذا الكتاب بمساعدة وزارة المعارف ؛ فجزى الله الجميع عن الأدب والعلم واللغة خير الجزاء

مختارات من معجم الأدباء :

إبرهيم الحربى

ابراهيم بن اسحق بن بشير بن عبد الله بن ديسم ، أبو إسحق الحربى ، ولد سنة ثمان وتسعين ومائة ، ومات ببغداد سنة خمس وثمانين ومائتين فى ذى الحجة ودفن فى بيته فى شارع باب الأنبار ، وكان الجمع كثيرا جداً ، وأصله من مرو وكان يقول : أمى تغلبية وأخوالى نصارى أكثرهم . وقيل : لم سميت إبراهيم الحربى ؟ فقال : صحبت قوماً من الحربية (١) فسمونى الحربى بذلك .

وحدث أحمد بن سليمان القطيعى قال :

أضقت إضاقة شديدة فمضيت إلى إبراهيم الحربى لأبثه ما أنا فيه فقال لى : لا يضق صدرك فأن الله من وراء المعونة ، وإنى أضقت مرة حتى انتهى أمرى فى الإضاقه إلى عدم عيالى القوت . فقالت لى الزوجة : هب أنى وإياك نصبر فكيف نصنع بهاتين الصبيتين ؟ فهات شيئاً من كتبك نبيعه أو نرهنه . فضننت بذلك وقلت : اقترضى لهما شيئاً وأنظرينى بقية اليوم والليلة . وكان لى

(١) الحربية : فى بغداد .

بيت فى دهليز دارى فيه كتبى فكنت أجلس فيه للنسخ والنظر ، فلما كان فى تلك الليلة إذا داق يدق الباب فقلت : من هذا ؟ فقال : رجل من الجيران . فقلت : ادخل . فقال : أطف السراج حتى أدخل ؛ فكببت على السراج شيئاً وقلت : ادخل . فدخل وترك إلى جانبى شيئاً وانصرف ، فكشفت عن السراج ، فنظرت فإذا منديل له قيمة وفيه أنواع من الطعام وكاغد فيه خمسمائة درهم ، فدعوت الزوجة وقلت : نبهى الصبيان حتى يأكلوا . ولما كان من الغد قضينا ديناً كان علينا من تلك الدراهم .

وكان مجىء الحاج من خراسان فجلست على بابى من غد تلك الليلة وإذا جمال يقود جملين عليهما حملان ورقا وهو يسأل عن منزل إبراهيم الحربى فانتهى إلى فقلت : أنا ابراهيم الحربى . فحط الحملين وقال : هذان الحملان أنفذهما لك رجل من أهل خراسان فقلت : من هو ؟ فقال قد استحلفنى ألا أقول لك من هو

وحدث أبو عثمان الرازى قال : جاء رجل من أصحاب المعتضد إلى إبراهيم الحربى بعشرة آلاف درهم من عند المعتضد يسأله عن أمير المؤمنين أن يفرق ذلك فرده وانصرف الرسول ثم عاد فقال : إن أمير المؤمنين يسألك أن تفرقه فى جيرانك فقال له : عافاك الله ، هذا مال لم نشغل أنفسنا بجمعه فلا نشغلها بتفرقته ، قل لأمير المؤمنين : إن تركتنا وإلا تحولنا من جوارك . وحدث أبو القاسم الجبلى قال : اعتل إبراهيم بن إسحاق علة حتى أشرف على الموت ، فدخلت عليه يوما فقال : يا أبا القاسم أنا فى أمر عظيم مع ابنتى . ثم قال لها : قومى واخرجى إلى عمك . فخرجت وألقت على وجهها خمارها فقال ابراهيم : هذا عمك كلميه . فقالت لى : ياعم نحن فى أمر عظيم لا فى الدنيا ولا فى الآخرة الشهر والدهر مالنا طعام إلا كسر يابسة وملح وربما عدمنا الملح ، وبالأمس قد وجه إلينا المعتضد مع بدر بألف دينار فلم يأخذها ووجه إليه فلان وفلان ، فلم يأخذ منها شيئاً وهو عليل فالتفت الحربى إليها وتبسم وقال : يابنية خفت الفقر ؟ فقالت : نعم . فقال لها : انظرى إلى تلك الزاوية ، فنظرت فإذا كتب فقال لها : هناك اثنا عشر ألف جزء لغة وغريب كتبته بخطى إذا مت فوجهى فى كل يوم بجزء تبيعينه بدرهم فمن كان عنده اثنا عشر ألف درهم فليس هو فقيرا .

وحدث إبراهيم الحربى — وقد سألوه عن حديث عباس البقال — فقال: خرجت إلى الكبش، ووزنت لعباس البقال دانقا إلا فلسا فقال لى: ياأبا إسحاق حدثنى حديثا فى السخاء، فلعل الله يشرح صدرى فأعمل شيئا قال: قلت له: نعم. روى عن الحسن بن على رضى الله عنهما أنه كان ماراً فى بعض حيطان المدينة فرأى أسود بيده رغيف يأكل لقمة ويطعم الكلب لقمة إلى أن شاطره الرغيف فقال له الحسن: ما حملك على أن شاطرته فلم تغابنه فيه بشىء؟ فقال: استحت عيناى من عينيه أن أغابنه فقال له الحسن: أقسمت عليك لا برحت حتى أعود إليك فمر واشترى الغلام والحائط وجاء إلى الغلام فقال: ياغلام قد اشتريتك فقام قائما فقال: السمع والطاعة لله ولرسوله ولك يامولاى، قال: وقد اشتريت الحائط وأنت حر لوجه الله تعالى والحائط هبة منى إليك، فقال الغلام: يامولاى قد وهبت الحائط للذى وهبتنى له. قال إبراهيم: فقال عباس البقال: حسن والله يا أبا إسحاق. ياغلام. لأبى اسحاق دانق إلا فلسا، أعطه بدانق ما يريد ولا تنقصه شيئا فقلت: والله لا أخذت إلا بدانق إلا فلسا.

وحدث محمد بن عبد الله الكاتب قال: كنت يوماً عند المبرد فأنشدنا:

جسمى معى غير أن الروح عندكم ... فالجسم فى غربة والروح فى وطن
فليعجب الناس منى أن لى بدنا ... لاروح فيه ولى روح بلا بدن

ثم قال: ما أظن أن الشعراء قالوا أحسن من هذا. قلت: ولا قول الأخرق؟ قال: هيه. قلت: الذى يقول:

فارقتكم وحييت بعدكم ... ما هكذا كان الذى يجب
فالآن ألقى الناس معتذراً ... من أن أعيش وأنتم غيب

قال: ولا هذا. قلت: ولا قول خالد الكاتب؟:

روحان لى روح تضمنها ... بلد وأخرى حازها بلد
وأظن غائبتى كشاهدتى ... بمكانها: تجد الذى أجد

قال: ولا هذا. قلت: أنت إذا هويت شيئاً ملت إليه ولم تعدل إلى غيره

قال : لا ولكنه الحق . فأتيت ثعلباً فأخبرته فقال ثعلب : ألا أنشدته :

غابوا فصار الجسم من بعدهم ما تنظر العين له فيّا
بأى وجه أتلقاهم ؟ إذا رأونى بعدهم حيا
يا خجلتى منهم ومن قولهم : ما ضرك الفقد لنا شيا

قال : وأتيت إبراهيم الحربى فأخبرته فقال : ألا أنشدته

يا حيائى ممن أحب إذا ما قلت بعد الفراق : إنى حييت
لو صدقت الهوى حبيبا على الصحـ ـة لما نأى لكنت أموت

قال : فرجعت إلى المبرد فقال : أستغفر الله . إلا هذين البيتين يعنى بيتى ابراهيم

قال : وأنشد رجل إبراهيم قول الشاعر :

أنكرت ذلى فأى شىء أحسن من ذلة المحب ؟
أليس شوقى وفيض دمعى وضعف جسمى شهود حبى ؟

فقال إبراهيم : هؤلاء شهود ثقاة

عبد الخالق عمر

الطائرُ السجينُ

مرفوعة إلى الأستاذ على الجارم بك

للجارم الصغير

أَسْوانُ راضَ السِّجْنُ خَفْضَ جَناحِهِ ... ذَهَبَتْ حُشاشَتُهُ جوًى بِصِياحِهِ

ترمى الدُّجَى صَيْحاتُ كُلِّ عَشِيَّةٍ ... بالْبَرْقِ مُضْطَرِمِ السَّنَا لَمَّاحِهِ

مَحْرُوقَةُ الرَّمْضاءِ مِنْ أَضْلاعِهِ ... وَوَداعُ قُرْصِ الشَّمْسِ بَعْضُ جِراحِهِ

لَا تَسْتَبِينُ الْعَيْنُ فانِيَ جِسْمِهِ ... لَوْلَا بَياضُ الرِّيشِ فَوْقَ وِشاحِهِ

يَرْمِي الْفَضاءَ بِصَرْخَةٍ مَكْبُوحَةٍ ... حَمَلَتْ مَعانِيَ حُزْنِهِ وَبِراحِهِ

يَشْكُو فَيُفْصِحُ عَنْهُ حَتَّى أَنَّهُ ... لم يَبْقَ إِلَّا الْقَوْلُ عَنْ إِفْصاحِهِ

ضَجَّتْ نُجُومُ الْأُفْقِ مِنْ أَنَّاتِهِ ... وَشَكَا صِماخُ اللَّيْلِ طُولَ نُواحِهِ

حَتَّى إِذَا ذَبَحَ الْأَنِينُ لَهاتَهُ ... عَقَدَ الضَّنَى مِنْقارَهُ بِجَناحِهِ

✡✡✡

هُوَذا أَنَا الطَّيْرُ السَّجِينُ مُعَذَّبًا ... وَيْلاهُ، مَنْ يَمْنُنْ بِفَكِّ سَراحِهِ ؟

عَلَّمْتَهُ التَّغْرِيدَ أَخْضَرَ ناشِئًا ... وَرَعَيْتَهُ بِغُدُوِّهِ وَرَواحِهِ

وَنَثَرْتَ خِصْبَ الْحُبِّ فِي أَقْدامِهِ ... وَسَكَبْتَ عَذْبَ الْماءِ فِي أَقْداحِهِ

يَغْشَى الْمُرُوجَ الْفِيحَ يَحْبُو جِيدَها ... بِمُنَسَّقٍ مِنْ لَحْنِهِ وَصُداحِهِ

يَمْشِي يُنَمْنِمُ ثَوْبَها وَيَزِينُهُ ... مَشْيَ الرَّبِيعِ الطَّلْقِ فِي أَفْراحِهِ

وَعَلَى ذَوائِبِ كُلِّ غُصْنٍ عاطِلٍ ... مُتَأَنِّقٌ مِنْ وَرْدِهِ وَإِقاحِهِ

مَا بَالُهُ أَمْسَى وَعُفِّرَ وَجْهُهُ . وَلَكُمْ يُدِلُّ بِمُشْرِقٍ وَضَّاحِهِ

وَعَدَاهُ وَضَّاءُ الشَّبَابِ بِشَرْخِهِ حُزْنًا وَغَابَ النُّورُ عَنْ مِصْبَاحِهِ

يَجْرِى نَسِيمُ الْعَيْشِ سَهْلًا لَيِّنًا حَوْلِى ، وَحَظِّى مِنْهُ عَصْفُ رِيَاحِهِ

مَالِى نَصِيبِى النَّبْقُ أَجْوَفَ يَابِسًا أَيْنَ الأَنِيقُ الغَضُّ مِنْ تُفَّاحِهِ

مَالِى وَلِلأَطْفَالِ أَحْمِلُ هَمَّهُم كَرَوَانَ يَجْمَعَ لَيْلَهُ بِصِبَاحِهِ

أَمْسَيْتُ فِيهِم نِصْفَ مَجْنُونٍ وَقَدْ يَشْتَاقُ هَذَا النِّصْفُ فضلَ صِحَاحِهِ

وَلَقَدْ شَرِبْتُ الْمُرَّ فِى تَعْلِيمِهِمْ وَالْمَاءِ فِى كَفَّيْكَ شُرْبُ قَرَاحِهِ

أَقْضِى الْحَيَاةَ عَلَى سَفِينٍ حَائِرٍ هُوجُ الرِّيَاحِ تَهُدُّ فِى مَلَّاحِهِ

وَلَكَمْ تَقُولُ لِىَ الْوِزَارَةُ لَا تَنَمْ وَادْفَعْ إِلَى التَّلْمِيذِ صَكَّ نَجَاحِهِ

أَقْضِى الْحَيَاةَ مُرَدِّدًا وَمُكَرِّرًا قَوْلًا تَمَلُّ النَّفْسُ مِنْ إِيضَاحِهِ :

هَذَا (الضَّمِيرُ) وَذَاكَ (جَمْعُ مُكَسَّرٍ) أَعْيَا حَدِيثَ الطِّبِّ عَنْ إِصْلَاحِهِ

وَ(العَائِدُ الْمَحْذُوفُ) وَلَّى جَامِحًا فَانْهَضْ عَلَى عَجَلٍ لِكَبْحِ جِمَاحِهِ

وَيْلَاهُ ، لَا تَضْحَكْ عَلَيْهِ مُغْرِقًا فَالْحُزْنِ يَخْلِطُ جِدَّهُ بِمِزَاحِهِ

هَذِى حَيَاةٌ لَا تَلِيقُ بِوَاثِبٍ يَسْعَى إِلَى أَمَلٍ لَهُ طَمَّاحِهِ

جَيْشٌ مِنَ الْآمَالِ يَزْحَمُ صَدْرَهُ تَدْمَى حَنَايَاهُ لِطَعْنِ رِمَاحِهِ

وَلَقَدْ يَهِيجُ بِصَدْرِهِ فَتَخَالُهُ كَالْبَحْرِ يَهْدِرُ غَاضِبًا بِرَاحِهِ

عَجْفَاءُ تَقْتَحِمُ الْعُيُونُ هُزَالَهَا لَمْ تُغْنِ حَرْثَ الْحَقْلِ عَنْ فَلَّاحِهِ

إِنِّى نَزَلْتُ بِهَا مَكَانًا ضَيِّقًا وَالْغِمْدُ لَا يَرْضَاهُ غَيْرُ سِلَاحِهِ

وَلَكُمْ لَزِمْتُ الصَّبْرَ أَنشُدُ جَاهِدًا ... فرجًا بِهِ أَعْيَا عَلَى مِفْتَاحِهِ

مَنْ ذا يَرَى الشَّعَرَاءَ فِيهِ مُعِينَهُمْ ... إِنْ ضَنَّ وَالدُهم عَلَى أَرْوَاحِهِ

فَلَأَطْلُبَنَّكَ فِى السَّمَاءِ مُنَقِّبًا ... طَلَبَ الْغَرِيمِ تَضِجُّ مِنْ إِلْحَاحِهِ

وَلَأَرْمِيَنَّكَ بِالأَنِيقِ الغضِّ من ... زهرِ الرُّبَا لا سُمْرِهِ وصِفَاحِهِ

وَأَقُولُ : شِعرُكَ لَيْسَ يفعلُ مِثْلَهُ ... ظَبْيُ الشَّرابِ بِلَحْظِهِ وَبِرَاحِهِ

وَأَقُومُ يَوْمَ الحفلِ حفل (إِمَارَةِ الشِّعْـــر) الخطيبَ عَلَى الْجُموعِ بِسَاحِهِ

وَأَصُدُّ عَنْ (مَارُونَ) كُلَّ مُبَايِعٍ ... وَأَكُونَ لابْنِ (العَاصِ) لا (جَرَّاحِهِ)

وَأَقُولُ بَيْنَ النَّاسِ : إِنَّكَ شَاعِرٌ ... يُهْدِى إِلَى الطَّاوُوسِ رقشَ وِشَاحِهِ

ضَلَّتْ عِتَاقُ (أَبِى عُبَادَةَ) نَقْعَهُ ... وَتَعَثَّرَ (الْقُرَشِىُّ) فِى مِرْمَاحِهِ

يُصْغِى الوُجُودُ إِذَا شَدَا مُتَرَنِّمًا ... وَيُرَجِّعُ التَّارِيخُ رَجْعَ صُدَاحِهِ

أَلْحَانُ (بِيتُوهُفْنَ) مِنْ أَوْتَارِهِ ... وَخَيَالُ (رُوفَائِيلَ) مِنْ أَلْوَاحِهِ

كَافَحْتَ فِى مَجْدِ الْعُرُوبَةِ مُخْلِصًا ... وَالْمَرْءُ يُوزَنُ عَادَةً بِكِفَاحِهِ

على شرف الدين
المدرس بدمياط الأميرية

---

* نشرت الصحيفة فى « ديوان الأطفال » من العدد الثالث للسنة الثالثة ص ١٥٢ قطعة شعرية عنوانها (الزهرة) بامضاء عبد المنعم سالم خطأ ، وهى من نظم على شرف الدين ، فنعتذر من هذا الخطأ .

مصطفى صادق الرافعى

١٨٨١ م — ١٩٣٧ م

فى صباح الاثنين ٢٩ من صفر سنة ١٣٥٦ (١٠ مايو سنة ١٩٣٧) روعت البلاد بفقد عميد من عمداء الأدب العربى ، وأديب من أبلغ من عرفت من أدبائها ، وكاتب فى الطبقة الأولى من كتاب العربية منذ أقدم عصورها ؛ ذلك هو المرحوم المبرور مصطفى صادق الرافعى .

وحق على صحيفة دار العلوم أن تنعى هذا الفقيد العظيم إلى قرائها ؛ فقد انطوى بموت الرافعى عصر من عصور الأدب العربى كان الرافعى أديبه وكاتبه وشاعره ، وهيهات أن يخلفه فيه خلف .

إن الذين يقرءون أدب الرافعى منذ خمس وثلاثين سنة ولم يروه ولم يعرفوه ليعجبون أشد العجب حين يعلمون أن ذلك الشاعر الفحل ، والمنشىء البليغ ، والأديب البارع ، قد مضى وخلف ماخلف للعربية من تراث ولم يجاوز السادسة والخمسين !

أى قوة كانت تحرك هذا الجسد ؟

إنها لمعجزة من معجزات الإيمان هى التى أنشأت هذه القوة فأثرت بها كل هذا التأثير فى هذا الزمن القليل .

كان الرافعى يعيش فى هذه الأمة وكأنه ليس منها ؛ فما أدت له فى حياته واجبا ، ولا اعترفت له بحق ، ولا أقامت معه على رأى ؛ وكأنما اجتمع له هو وحده تراث الأجيال من هذه الأمة العربية المسلمة ، فعاش ما عاش ينبهها إلى حقائق وجودها ومقومات قوميتها ، على حين كانت تعيش هى فى أوهام التقليد وخرافات دعوى التجديد .

على أنه هو لم يبال شيئا من ذلك ؛ فقد جعل لنفسه غرضا منذ يومه الأول : أن يكون اللسان العربى فى هذه العجمة المستعربة ، وأن يعيد إلى (الجملة القرآنية)

مكانها مما يكتب الكتاب وينشىء الأدباء فى لغة هذا العصر ؛ ثم أن يكون المدافع الأول عن العربية والإسلام ، يدفع كل ما يوجه إليهما من حملات مستورة أو سافرة ، ومن أجل ذلك عاش حياته ؛ فما يقرأ مقالا أو يسمع رأياً يتناول اللغة أو الدين من قريب أو بعيد ، إلا انتضى قلمه يدافع بحرارة الايمان وفصاحة العربى ، كأن هذا المقال وذاك الرأى يعنيانه هو وحده من دون العرب والمسلمين عامة . وإلى آخر يوم من حياته كان يستجم لمواصلة (حملة التطهير) كما يقول فى خطابه الأخير إلى صديقه الأستاذ الزيات صاحب (الرسالة) .

وكان له - رحمه الله - طابع خاص يتميز به فى الكتابة ، لا يسيغه إلا الخاصة من المتأدبين ، على علوّه فى المنزلة البيانية وعُمقه فى توليد الفكرة واختراع المعنى ، ومن هذا كان يكرهه أكثر الأدباء ، وكان جمهور قرائه قليلا محدوداً ، ولكنه مع هذا كان أديباً له أثره وله أشياعه ؛ ذلك أن غرابة أسلوبه كانت تعود إلى عمق فكرته ودقة معانيه وسلامة بيانه من العامية المتفاصحة التى يكتب بها أكثر كتابنا فى هذا العصر ؛ وما فى ذلك شىء يعاب إلا عند الذين يقرءون للتسلية وإزجاء الفراغ ؛ ومن كلماته - رحمه الله - فى ذلك : « إن الأديب الحق هو الذى يحاول أن يرفع قراءه إلى مستواه درجة درجة فيرقى بهم ويرقى بالأدب ، لا الذى يحاول أن ينحط إلى مستواهم درجة درجة فينزل بهم وبالأدب جميعاً . »

رحم الله الرافعى رحمة واسعة ، وعوض العربية منه خيراً ينسيها المصاب فيه

فهرس العـــدد الأول

للســـنة الرابعة

مقدمة ... ...

منهج الأدب فى السنة التوجيهية ... ...

ملاحظات جماعة دار العلوم على المنهج

١ أثر علم الكلام فى الأدب ... ... : بقلم محمد موسى عفيفى

٢٥ بشر بن المعتمر ... ... : « حسن علوان

٤٥ الجاحظ ... ... : « عبد الستار سلام

٥٣ أسلوب الجاحظ ... ... : للأستاذ عبد الوهاب حمودة

٦٨ أحمد بن أبى دؤاد ... ... : بقلم احمد هاشم عطية

٨٠ ثمامة بن أشرس ... ... : للأستاذ على السباعى

٩٣ حافظ الراوية ... ... : « محمد هاشم عطية

٩٩ المدائح والتهانى والرثاء فى شعر المعفور له حافظ بك ابراهيم ... ... : « محمود البشبيشى

١٠٦ الغزل والنسيب في شعر حافظ ... ... : « السباعى بيومى

١١٧ حافظ إبراهيم : المديح فى شعره ... ... : بقلم حسنين مخلوف

١٢٤ فى الأمم السامية ... ... : للأستاذ محمد محمود جمعة

١٣٢ دار العلوم والمتنبى فى لندن ... ... : بقلم عبد الرازق إبراهيم حميدة

١٣٥ المتنبى فى مجلس سيف الدولة ... ... : « إبراهيم أنيس

١٤٨ معجم الأدباء ... ... : « الأستاذ عبد الخالق عمر

١٥٥ الطائر السجين ... ... : للجارم الصغير

١٥٨ مصطفى صادق الرافعى ... ... : التحرير

السنة الرابعة (شعبان سنة ١٣٥٦هـ — أكتوبر سنة ١٩٣٧م) العدد الثانى

صحيفة دار العلوم

مجلة الأدب واللغة والتربية والاجتماع

تصدرها «جماعة دار العلوم»
كل ثلاثة أشهر

قررت وزارة المعارف ومجالس المديريات «صحيفة دار العلوم» فى جميع مدارسها

المدير
محمد نجيب حتاتة

رئيس التحرير
محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية
ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى
المدرس بدار العلوم

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى ..... ٢٠ قرشا
خارج القطر ..... ٦ شلنات انجليزية
ثمن العدد ..... ٥ قروش

المطبعة الرحمانية
مديرها الحاج سعيد سلطان محمد
٣٥ شارع الفتح بحمد تلفون ٥١٥٦٦

بسم الله الرحمن الرحيم

يصدر هذا العدد من صحيفة دار العلوم ، وقد أسبغ الله على مصر نعمته ، وشملها برعايته ؛ إذ جلس على عرشها المليك الشاب المحبوب ، صاحب الجلالة « فاروق الأول » ملك مصر المستقلة الناهضة ، أيد الله ملكه وثبت دعائمه وأعز سلطانه !

وهل فى الوجود نعمة أجل شأنا ، وأرفع قدراً ، وأبلغ أثراً فى العمران ، من أن يلى الملك فى البلاد ملك عادل ، فيه شباب وقوة ، وعزم وفتوة ، وحزم وحسن تدبير ، مع أصالة رأى ، وثاقب نظر ، وعطف على الرعية ، وحدب على مصالحها ، ورعاية لشئونها وجميع مرافقها ؟ أحب الشعبَ فأحبه الشعب ، وافتُنَّ فى الإعراب عما يكنه من الإخلاص لعرشه ، والولاء لذاته الكريمة ، وأعز الدين ، ورفع من قدر العلم ، وكرم أهله ، فرأى العلماء طاعته فرضا عليهم ، وامتلأت قلوبهم بحبه ، وطالما ضرعوا إلى الله ، عقب كل صلاة ، وفى كل لحظة تفرغ فيها النفس من شواغل الأيام ، أن يحفظ ذاته للدين والدنيا معاً .

وهل رأيت منظراً أروع ، وآية أبدع ، من تلك الجموع الزاخرة ، التى سارعت لاستقباله ، إلى عاصمة ملكه يوم بزغ بدره فيها ؟ لقد أتوا إلى القاهرة من القرى والدساكر ، والمدن والحواضر ، يستبقون إلى التمتع بطلعة مليكهم العظيم ، ويتنافسون فى وسائل الإخلاص لجلالته . وهل رأيت ذلك النور المتلالىء فى الفضاء ، والنجوم الساطعة فى أديم السماء ، وأحسست قلوب الشعب بأسره خفاقة بالحب ، فياضة بالولاء ، وأبصرت علامات الغبطة والابتهاج تقرأ واضحة فى جميع الوجوه ، وترتسم ناطقة على الجباه ؟ لمن كل هذا ؟ إنه الشعب الوفى لمليكه خرج للقائه ، سعيداً بولايته على عرش آبائه وأجداده . إنها الأمة المصرية المجيدة فى أسعد أعيادها القومية .

وهل خاطب ملك شعبه بمثل ما خاطب به الفاروق الأمة المصرية ؟ :

رسالة الملك الى شعبه

شعبي المحبوب :

أبعث إليكم بأطيب التحية ، وبودّي لو استطعت مصافحة كل فرد منكم ؛ لأعرب لكم جميعاً عن عميق شكرى ، ووافر حبّى ، وعظيم تقديرى ، لكل ما أبديتموه نحوى : من خالص الحب ، وصادق الولاء .

وإنه ليسرّنى — وقد باشرت سلطتى الدستورية — أن أفضى إليكم بكل ماوطنت عليه نفسى : من احترام الدستور ، وقوانين الأمة المصرية ، والمحافظة على استقلال الوطن وسلامة أراضيه ، وأن أعاهدكم على وقف حياتى وجهودى على خدمة البلاد ، وإعزاز شأنها ، وإعلاء كلمتها ، وإسعاد أهلها ، حتى نظفرَ لمصر الخالدة بالمكانة الجديرة بها ، وبماضيها المجيد .

ولَسوفَ يكون رائدى على الدوام صالح الوطن قبل كل اعتبار ؛ فأبناء مصر جميعا ملك للوطن ، كلُّهم جنوده ، وكلُّهم خدامه ، وملككم أول خادم للوطن ، أحبُّكم إليه أشدكم رعاية لواجبه ، وأكرمكم لديه أكثركم تفانيا فى خدمة الوطن .

على أنى أصارحكم بان مجد الوطن يتطلب تضافر كلّ القوى ، وتعاون جميع الهيئات ؛ حتى يتحقق لبلادنا العزيزة ما نرجوه لها : من عزٍّ شامخ ، وهناءة دائمة ، وسعادة شاملة .

وإذا كانت إرادة الله ، قدشاءت أن تلقى على عاتقى فى هذه السنّ المبكرة ، عبء النهوض بتبعات الملك ، والاضطلاع بالمسئولية ، فإنى أشعر كل الشعور بما على من الواجبات ، ولن أقف عند أي تضحية فى سبيل أداء الواجب ، وتحقيق خير الأمة ، وسعادة الوطن .

وإنى لأهيب بكم جميعا ، على اختلاف ميولكم ونزعاتكم ، أن تجعلوا شعاركم : الواجب ، والوطن ، وأن تتقوا الله فيما تعملون .

وأرى من واجبي في هذا المقام أن أعرب عن خالص شكرى لأمتى العزيزة ، وضيوفها الأجانب الكرام ، ولحكومتى الوفية ، والبرلمان الموقر ؛ لما أبدوه ، وما يبدونه ، من آيات الإخلاص والولاء .

شعبى النبيل :

إنى معتز بكم ، فخور بولائكم ، واثق بالمستقبل ثقتى بالله ، فلنوطد العزم ، ولنعمل معا ؛ نفز ، ونسد .

وليحى الوطن !

* * *

لقد سمعنا رسالة المليك ، فخشعت عند سماعها القلوب ، وامتلأت النفوس غبطة وأملا وفخاراً ، ففى هذه الرسالة من روائع الكلم فى حب الوطن ، وإعلاء شأنه ، والعمل على إسعاد بنيه ، ما تهتز له القلوب ؛ إجلالا لمليك البلاد ، وإعظاماً لنفسه السامية ، وتقديراً للمثل الأعلى الذى رسمه لشعبه ، فى كلمات تفيض قوة ويقينا ، وتنم عن رغبة جلالته الصادقة ، فى أن يرى شعبه فى الذروة العالية ، من المجد المؤسس على الخلق القويم .

لقد أفضى المليك إلى شعبه الوفى بما يكنه قلبه الكريم ، من حب للفضيلة ، وإعلاء لشأن الواجب ، وإعزاز للوطن ، واستعداد للتضحية فى سبيل إنهاضه ، ورفعة مكانته . وتلك شيم نبيلة ، تبعث فى الشعب كريم الخلال ، وتملأ قلبه إخلاصا وعزماً ، وتزيده استمساكا بما حوته رسالة المليك ، من مبادئ سامية ، وحكم رصينة ، أساسها أداء الواجب ، وحب الوطن ، واحترام دستور البلاد ، وقوانين الدولة .

ويقيننا أن شباب هذا الجيل ، سيسارعون إلى تلبية هذا النصح القويم ، الذى فاه به مليك البلاد ، ويعقدون العزم على اتخاذ هذه الحكم الرشيدة نبراساً يضىء

لهم سبيل الحياة، ودعامة يقيمون عليها مجد الوطن، والمستقبل السعيد للبلاد.

* * *

ولقد كان ابتهاج الأمة عظيما بتولى المليك سلطته الدستورية، والجلوس على عرش مصر الخالدة، وعم السرور البلاد جميعها، وامتلأت القلوب بشرا واغتباطا، وانطلقت الألسنة بالدعاء لجلالة الملك: أن يرعاه الله بعنايته، ويجعل عهده السعيد، مقرونا باليمن، والخير للبلاد.

وإن أبناء دار العلوم، لفخورون بأن يقوموا بنصيبهم من آيات الولاء والإخلاص، لسليل الأسرة العلوية؛ فإن دار العلوم معهدهم العريق، هو من غرس جده العظيم إسماعيل، أقام صرحه ليقوى به النهضة الحديثة، وليضع أساسها على دعائم قويمة قوية، تجمع إلى تراث الماضى، مقومات النهوض الحديث.

أظهر أبناء دار العلوم ولاءهم للمليك، فى حفلتين عظيمتين، أقامتهما جماعة دار العلوم بناديها: الأولى كانت حفلة سمر باهرة، أقيمت يوم الأحد ٢٥ من يوليه سنة ١٩٣٧ بمناسبة عودة حضرة صاحب الجلالة الملك إلى مقر ملكه السعيد. ففى مساء ذلك اليوم حفل النادى بجمهرة من أبناء دار العلوم وأصدقائهم، الذين لبوا دعوتهم، فامتلأت بهم حجراته، التى ازدانت بما نسق من أزهار. وفى جانب من البهو الكبير للنادى، أقيم مسرح صغير، أعد لفرقة من المغنين؛ ولإلقاء المقطوعات الفكاهية، وقد أديرت المرطبات والحلوى على الحاضرين، وظلوا جميعاً فى سمر شطراً من الليل، قضوه فى ابتهاج وسرور، وختموه بالدعاء لجلالة الملك أن يحفظ الله ذاته الكريمة ذخرا للبلاد!

والحفلة الثانية كانت حفلة أدبية أقيمت بنادى دار العلوم فى مساء ٣٠ من يوليه، وقد افتتحها الأستاذ نجيب حتاتة مراقب التعليم الأولى المساعد ورئيس لجماعة بكلمته المنشورة بعد ذلك، ثم تبارى فيها فريق من شعراء دار العلوم،

وفى مقدمتهم الشاعر الكبير الأستاذ على بك الجارم المفتش الأول للغة العربية ، وكانت قصيدته تقابل بمظاهر عميقة من الإعجاب ، ثم تلاه الأساتذة : عبد العزيز عتيق ، وفايد العمروسى ، وعبد الله عبد الجليل ، وكان شاعر دار العلوم الأستاذ محمود حسن إسماعيل يعتزم حضور الحفل لإلقاء قصيدته ، ولكن مرضاً عاقه عن الحضور ، فأرسل قصيدته المنشورة مع القصائد الأخرى فى هذا العدد ، وجميعها تعبر عن خالص الولاء ، وصادق الإحساس .

***

وإن الصحيفة لتعبر عما تكنه جماعة دار العلوم للمليك المحبوب من إخلاص وولاء ، وتسأل الله للبلاد الرخاء الشامل ، والعز الوطيد ، فى ظل مليك البلاد ، وحكومته الرشيدة ، ورجال مصر العاملين لخيرها وإسعادها !

كلمة الأستاذ نجيب حتاته

رئيس جماعة دار العلوم

إخوانى :

فى هذا اليوم الخالد فى تاريخ مصر الحديثة ، يجلس حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق الأول على عرش مصر . فتبدأ البلاد فى ظل هذا الحكم السعيد - وهى تخور بمليكها المحبوب - عهداً من الرخاء والحرية والاغتباط ، تتمثل مظاهره فيما تجلى فى نواحى القطر : فى عواصمه الكبرى ، وفى سائر المدن والقرى ، من الابتهاج العميم ، والفرح العظيم .

وإن رجال دار العلوم لمن أكثر أبناء الشعب اغتباطا بهذا اليوم ، الذى تتقدم فيه الأمة بأروع آيات الولاء والإخلاص ، والحب الصادق ، لمليكها المفدى ، وهم فخورون بما نالوا من شرف الاتصال بخدمة شخصه الكريم ، فى تعليم جلالته اللغة العربية ، والدين الحنيف .

وإنا لنتوجه إلى مقام جلالة المليك ، بقلوب تفيض ولاء وإخلاصاً ، مبتهلين إلى الله تعالى أن يحفظ ذاته الكريمة ، مصدراً لإسعاد البلاد ورفاهيتها ، ونوراً يسطع سناه على الشرق ، وعلى جميع أقطار العالم الإسلامى .

سادتى :

ليس هذا مقام الناثر ولا الخطيب كما تعلمون ، وإنما هو مجال الشعر والشعراء . وستسمعون من بليغ الأشعار ما يدل على خالص الولاء للمليك المفدى .

وقبل أن أبارح هذا المكان أطلب من حضراتكم أن تهتفوا معى :

يعيش جلالة الملك !

التاجية الكبرى

لصاحب العزة الأستاذ علي بك الجارم

خشعت لفيض جلالك الأبصارُ ... وذكت بمسكِ خلالك الأشعارُ
وتوشحت مصرُ العلا في طلعةٍ ... قد حفها الإجلالُ والإكبارُ
ملكٌ ، تغار النيرات إذا بدا ... أسمعتَ أنّ النيرات تغارُ ؟
ودّتْ لو اشتملتْ بفضلِ ردائه ... هيهاتَ ! ثوبُ المجدِ ليسَ يُعارُ
شتّانَ بينَ النيراتِ ، ومَنْ به ... سُبُلُ البُطولةِ والحياةِ تُنارُ
تُهدَى العيونُ بضوئهنّ ؛ وضوءه ... تُهدَى البصائرُ فيهِ والأبصارُ
ولها مدارٌ منْ فضاءٍ مُبْهمٍ ... ولكَ العُلا والمكرُماتُ مدارُ
غُضّي جُفونكِ يا نجومُ ؛ فدونهُ ... تتضاءلُ الآمالُ والاقدارُ
أنتنّ أقربُ مُشبهٍ لِهباتهِ ... فكلاكُما مِنْ راحتيهِ نثارُ
مِنْ حُسنهِ اختلسَ الأصيلُ جمالهُ ... وبِبِشْرهِ تتبسّمُ الأسحارُ
تبدُو سجايا النُبْلِ وهْيَ قلائلٌ ... فاذا حللنَ ذراهُ فهْيَ كثارُ
أبصرنَ فيهِ نصيرَ كلّ كريمةٍ ... إنْ قلّتِ الأعوانُ والأنصارُ

✡ ✡ ✡

لله يومُك والضياءُ يعمه ... فعشيهُ سيّانِ والإبكارُ
نسبتْ به الآمالُ جفوةَ دلّها ... ومن الدلال تحجّبٌ ونفارُ
يوم تمنّاه الزمانُ ، وطالما ... مدّتْ إليهِ رُءوسَها الأعصار

سفرَتْ به البشرى، فطاح قناعُها عمداً، وطارَ مع الهواء خمار
والنفس أغرى بالجمال محجباً إن زُحزحت من دونه الأستار
ماصبحُ يوم والسماء مريضةٌ كصباحِ يومٍ والنهار نهار
يومٌ غدا بين الدهور مملّكاً يُومَا إليه مهابةً وَيُشَارُ
الأمسُ يجزع أنْ تقدم خُطوةً وغدٌ أطار صوابَه استِئْخَارُ
يوم جثا التاريخ فيه مدوِّناً لله ما قد ضمت الأسفارُ !
وتصفح الأخبار يبغى مثله هيهات تحوى مثله الأخبار
يوم، كأن ضياءه من أعينٍ من طول ما اتجهت له الأنظارُ

* * *

يكفيه أن يُنْمَى لأكرم سُدَّة سعِدَتْ به الأيام والأمصارُ
بيتٌ، لَهُ عَنتِ الوجوهُ خواشعاً كالبيت يُمسح ركنه ويُزَارُ
ضُمَّتْ بِهِ فِلَذُ القلوب، فكوَّنت بيتاً، فلا صخر ولا أحجار
النبل والخلق الكريم أساسه وَحياطة المولى له أسوار
رَحُبتْ به الساحاتُ، فهْوَ مَثَابةٌ وعلا علوَّ الحق، فهْو منارُ

* * *

غِيلٌ تهابُ الأُسْدُ بَطشَ لُيوثه وتخونُهَا الأنْيابُ وَالأظفار
مِنْ كل خطَّارٍ إلى غاياته يُزْهَى بِهِ الصَّمْصَامُ وَالخطَّار
ندْب إذا حلَّ الحِباءَ لِغارَةٍ أَلْقى السِّلاحَ الفارسُ المغوارُ
حامت نسورُ النَّصْرِ حول جيوشهم حتى كأن غبارَها أوكارُ

شُمْسُ العداوة ، والحسام مجرد ... فاذا انْطوى فملائك أطهار
سبقوا وُثُوبَ الحادثات ، وبادروا ... إنَّ الحياة توثب وبدار
وَعَلَوْا لنيل المجد كلَّ مَطية ... لو كان نجماً فى السماء لطاروا
الخالدون على الزمان وأهله ... يفنى الزمان ، وتخلُد الآثارُ
جاءوا ومصْرُ عَفَتْ معالم مجدها ... لا مِصْرُ مِصْرُ ، وَلا الديار ديارُ
العلم يَخْفُق للزوال سراجه ... والعدل مُنْذُ الذرا منهار
والناس فى حَلَك الظلام ، يسوقهم ... نحو الفَناء تخبطٌ وَعِثار
فبدا محمدُ كُم ، فهب صريعهم ... حيًّا ، كذاك البعث والإنشار
وأعاد مجد الأولين بعزمةٍ ... إيرادُها لله والإصدار
إنَّ النفوسَ تضيق وهْىَ صغيرةٌ ... ويضيقُ عنها الكون وهى كبار

✡ ✡ ✡

فاروقُ ، عيدك هزَّ أدواح المُنَى ... وَتَعَطَّرَتْ بعبيره الأزْهَار
اليُمنُ يسطع فى جبين نهاره ... والسعْد كوكبُ ليلِه السيار
رقصَت به الراياتُ بادِيَةَ الحِلى ... الْحُبُّ رنَّحها والاستبشارُ
مُتلفتاتٍ حَولَ ركبك حُوَّماً ... لا يستقر لوجدهن قرارُ
متدللات ، ما عرفْنَ صبابةً ... نَشْوَى ، وَما لعبت بهن عُقار
جعلت سماء النيل روضاً أخضراً ... هيهات منه الروضةُ المعطار !

✡ ✡ ✡

والناسُ قد سَدُّوا الفضاء ، كأنهم ... بحر يَعِجُّ عَجِيجُه زَخَّارُ

لو صُبَّتِ الأمْطار صَبًّا فوقهم ما مَسَّ موطىء نعلهم أمطار
متجمعين، كأنهم سِرْب القطا متدفقين، كأنهم أنهار
قد لوَّحوا بالراحتين، وزاحَمُوا وتلفتُوا بالناظرَيْن، وَمَاروا
لهمُ دَوِىٌّ بالهُتاف وَضَجَّةٌ ولهمْ بصدق دعائهم تَهْدَار
رفعوا العَمَارَ وبعثروا أزهارَهم فالجو زَهْرٌ ناضِرٌ وَعَمَارُ
حب المليك الأرْيَحِيِّ شعارُهم لو كان يُنْسَجُ للوَلاء شِعار
قرءوا السعادةَ فى جبينك أسطراً بيد المهيمن هذه الأسطار
ورأوا شباباً كالجُمَان يزينه (أنى التفتَّ) جلالةٌ ووقار
سُسْتَ القلوب، فنلت أكْرَمَ ودِّها وعرفْت بالإحسانِ كيف تثارُ
ومن القلوب حدائقٌ بسَّامة ومن القلوب سباسبٌ وقفار
مَنْ يغرسِ الصنعَ الجَميل بأمة فله من الشكر الجَميل ثِمارُ
لما رأوك رأوا بَشَاشَاتِ المُنى الوجهُ نضرٌ، والشَّباب نضار
متسربلاً ثوب الهدى، متواضعاً لله، لا صَلَفٌ، ولا استكبار
نور الإله يدور حولكَ هَالةً لم تَزدهرْ بمثيلها الأقمار
فى موكب لِلْمُلْك يختلِب النهى وتتيه فى تصويره الأفكار
فتن العيونَ الشاخصاتِ بسحره إنَّ الجَمَال لفاتنٌ سَحَّار

* * *

« فاروق »: تاجُكَ رحمةٌ وسعادة للوادَيْنِ وعزةٌ وفخار
تتألق الآمالُ فى جَنَباته ويدور نجم السعد حيث يدار
ما ناله « كسرى »، ولم يظفر له بمآثِلٍ يومَ الفخارِ « نزار »

نور الجبين السمحِ مازج ضوءه فتشابه الأضواء والأنوار

✡ ✡ ✡

المُلْكُ فيك طبيعةٌ ووراثة والمجدُ فيك سليقةٌ ونجار
أعليْتَ دينَ الله (جل جلاله) فرسا له أصْلٌ، وطال جدار
الدينُ نُورُ النفس فى ظلماتها والعقل يعثرُ، والظنون تحارُ
بين المنائر والمآذن بهجةٌ وتحدُّثٌ بصنيعكم وحوار
آيات نبلك فى شبابك سُبِّقٌ للمجد، لم يُشْقَقْ لهن غبار
يبدو شذا الريحان أولَ غرْسه ويَبين قدْرُ الدُّر وهى صغار
فتحت لك الدنيا كنوزَ هباتها تختار منها اليومَ ما تختار
يمناكَ يمنٌ للبلاد، ورحمة غدَقٌ؛ ويسْرَى راحتيك يسار
بهرتْ رجالَ الغرب منكَ شمائلٌ: خلقٌ أغرُّ، وراحةٌ مدرار
عرفوا بمجدك مجدَ مصرَ ونبْلَها وتحدثتْ بخلالك السُّمَّارُ
وغدوتَ فألًا للعلا، فتحققت فيك المنى، وانحطَّت الأصار
وتخطَّرَت مصرٌ إلى فاروقها غيْداء، مَا شَانَ الجمالَ إسار
شمَّاءُ، يَحْنى الدهرُ أصيدَ رأسه لجلالِها، وتطأطىء الأقدار
فانْعَمْ بما أوتيتَ، واهنأ شاكراً نِعَم الإله، فإنهنَّ غِزار
لا زلتَ بالنصر المبين متوَّجاً تحيا بك الأوطان والأوطار!

على الجارم

تحية الفاروق

للشاعر الأديب عبد العزيز عتيق
المدرس بمدرسة عباس الابتدائية للبنات

عائدٌ باليمنِ تحدوهُ الأمانى ... صاعدٌ كالنجم فى أفقِ الزمانِ
مِن مَضَاءِ الحقِّ ، من عَذْبِ المنَى ... مِن رجاءِ الشعب ، من كلِّ المعانى
صاغه الله ، وأهداه إلى ... ذلك الوادى حناناً من حنان

* * *

يا مليكَ النيلِ ؛ ما الحبُّ الذى ... قد سَرَى فى الشعب ، فى كل كيان ؟
كلما سِرْتُ ، قلوبٌ جُمِعتْ ... فى هوى الفاروقِ من قاصٍ ودانِ
واسمكَ الميمون لَحْنٌ رائقٌ ... أين مِن إيقاعِه سحر الأغانى ؟

* * *

يا سليلَ الملكِ يا فاروقُ ، يا ... نغمةً أصْغَى إليها المشْرقان
أنتَ ربُّ التاجِ تُعْلى قدرَه ... أنتَ ربُّ الملكِ ، ربُّ الصوْلجان
أنتَ فألُ النيلِ ، تُدنيهِ إلى ... كل ما يرجوه من عزٍّ وشان
عصرك التوفيق للنيلِ ، وقد ... صانه الدهر لذياك الأوانِ

* * *

أىّ سعدٍ ساقه الله إلى ... أمةِ الفاروق ، مطلوقَ العنان
حقّقتْ مِصرُ به استقلالَها ... ورمَت بالقيدِ فى وجه الزمانِ
وصَحَت للمجدِ تَسْعَى قُدُماً ... فى خُطَا الوَثاب ، مشبوبَ الجَنان

كتبَ الله لها النَّصرَ على وجهِكَ السَّمْحِ ، فأنعمْ بالضمانِ

* * *

يا شبابَ النيلِ ؛ يا من صوتهم قوةٌ يعنو اليها الحَدَثان !
تَوْجوا بالحبِّ معبودَ الحِمَى إن تاجَ الحبِّ باقٍ غير فانِ
وامْلئوا الدُّنيا ، وسُودوا باسمِه إنَّه ليس له فى الملْك ثانِ
هو من يُزهى به التاجُ ، ولا يَزْدهيه التاجُ فى حسنِ افتنان
وانسِجُوا من مُهَجِ الشعبِ ومن فَرْحةِ الوادى عُروشاً كالجِنان
إنه البعْثُ لشعبٍ ماجدٍ إنه البُشرى على كلِّ لسان !

* * *

يا مليكَ النيلِ فى فجرِ الصِّبى وزعيمَ الشرقِ فى أسعدِ آنِ
التعاويذُ وأشْتاتُ الرُّقى ضَمِنتْ للمُلكِ أسبابَ الأمانِ
نحنُ فى صبْحِكَ أدركْنا المُنَى ما الذى نجنى غداً فى العُنْفُوَان ؟
ليْتنى أبْقى غداً حتى أرى دولة الفاروقِ فى كلِّ مكان
لبعَثتُ الشعرَ فى أرجائِها ملكِيَّ اللَّحْنِ ، مِصْرِيَّ البيان !

* * *

يا مليكى ، ومليكَ الشعْبِ ، يا بَسْمَةَ الدنيا ، وإشْراقَ الأمانى
سرْ على اسْمِ اللهِ مَيْمُونَ الخُطَا والتهانى لك تَتْلوها التهانى.

عبد العزيز عتيق

تاج الأمل

للشاعر الأديب فايز العمروسى
المدرس بمدرسة المنيرة الابتدائية للبنين

فى شعاع الخلود من بسماته ... رفرف التاج هاتفاً بحياته
ورنا العرش للمليك المفدى ... وترامي مقبلا وجناته
طاف نادى الزمان بالأمل النا ... عم يسقى الوجود من نغماته
أى لحن من العلا قدسىٍ ... أيقظ العمر من عميق سباته
حشد الشعب صائحاً بالتهانى ... يتعالى الدعاء فى هتفاته
للمليك الحبيب من قد حواه ... كل قلب فبات فى خفقاته

✡ ✡ ✡

يا رجاء البلاد، يا أمل الشعـ ... ـب ونخر الشباب فى صبواته
ذلك العصر موكب ذهبى ... صفق النصر فى سنا خطواته
أيقظ المجد والفخار وأحيا ... تالد العز من ظلام رفاته
ملك صاغه الإله جلالا ... وأفاض التوفيق فى قسماته
العبيق الفجرى من نفحاته ... والضياء السحرى من بسماته
هو للعرش نفحة من أبيه ... فيه فيض المضاء من عزماته

✡ ✡ ✡

مصر، يامصر، حدثى المجد أنا ... من قديم العصور خير بناته
حدثى النيل راقصاً يتهادى ... فى ظلال الرياض فى جناته

حدثى الصمت جاثما فى ذرا الأهـ ـرام يدوى الجلال فى همساته
ذاك ملك الفاروق سادعلى الكو ـن وألقى المنى على صهواته
ينطق السحر فى خلال رباه وترف الأحلام فى جنباته
أنت يا مصر نفحة من نداه فانهلى الصفو من ندىً هباته

* * *

الشباب الشباب يا دولة العز وآى الزمان فى معجزاته
كم سعى للجهاد جد طروب مرخص الروح ممسكا زفراته
عامته الخطوب كيف يوالى وثبات الكفاح فى غمراته
تتساقى الطعان من دمه الغا لى فتذكى الدماء فى هجماته
الجهاد الكريم مأمله الغا لى ورمز الوفاء فى ذكرياته
أنت يا شعب كالفؤاد إذا ما آده الجهد زاد فى نبضاته

* * *

أيها النيل قد مُنحت رخاء فافض ديناً لنا عليك وهاته
هاته من يد المليك مضاء يتحدى الزمان فى سخرياته
عانق النيل بالرجاء وأرسل روح فرعون فى خطا موجاته
سرح الطير في الرياض يردد أغنيات الآمال فى صدحاته
ودَع الفرحة الطليقة تسرى بشذاها الفياح فى نسماته

* * *

عصر فاروق يابشير الأمانى يا خيال المحب فى نجواته

هيء النشء للجهاد وللمجـ ـد وأطلق إلى العلا قفزاته
شيع الروح فى سمائك ينهب سعد هذا الزمان فى سبحاته
طالما بات فى قيود المآسى خافت الحس كاتما صرخاته
وهو اليوم يبعث الصوت فى الدنـ ـيا فتسرى الحياة فى أصواته
سمع الغرب صوته داوى الجر س فأصغى مستعذبا كلماته
قد دخلنا الوجود بعد كفاح وغداً سوف نعتلى هاماته

***

أيها التاج يا سليل المعالى يا مقيل الشقى من عثراته
مشرق السعد فى سناه المصفى ونعيم الآمال فى ومضاته
إيه يا تاج قد دعاك مليك خاطرات السمو بعض صفاته
وقف الدهر حول بابك يرنو يتناجى الرجاء فى نظراته
أغرم الشعب من شباب وشيب بك حتى الجنين فى سكناته
يرشف السعد تحت عرش الأمانى ويعب الشهي من رغباته
من دماء الوفاء يخفق للمل ـك ويحمى حماه فى وثباته

فايد العمروسى

يوم العرش !

للشاعر الأديب محمود حسن اسماعيل

بمجمع اللغة العربية الملكي

شاديكَ من قصَبِ الفرادِس نايُهُ ... ومِنَ السنَّا والطِّيبِ عُلَّ غِناؤُهُ

ومِنَ الصبَّا نهلَتْ ظلالَ أراكةٍ ... سَجْواءَ نافِجُها غفَتْ أنداؤُهُ

ومِنَ الطفاوة فى أصيلٍ خاشعٍ ... سَجدَتْ على زهرِ الرُّبى أضواؤُهُ

ومِنَ الأغانى البيضِ رنَّمَ لحنَها ... مَلَكٌ تَرقرَقَ فى النُّجوم دُعاؤُهُ

ومِنَ المساجدِ هَيْنمَتْ تحتَ الدُّجى ... صُوفيُّها نَهَلَ الغُيوبَ صَفاؤُه

ومِنَ الشُّعاعِ المستهامِ بقُبْلةٍ ... فى النِّيلِ طهَّرَها هواهُ وماؤُهُ

ومِنَ السنا الرَّقراقِ فى قدحِ الضُّحَى ... أغرَى النديمَ ، فولَّتْ صهباؤُهُ

ومِنَ الطلاسمِ دسَّ مِنْ أرصادِها ... هَرَمٌ أشابَ الخالدينَ فتاؤه

ومِنَ الهدَى فى ظلِّ عرشِكَ خلْتُهُ ... أقباسَ وحْيٍ هلَّ منكَ سَناؤُهُ

سَجداتُ وجْهٍ مُشرقٍ نضَحَ التُّقَى ... فى كلِّ ما لمَحَتْ بهِ سيماؤُهُ

لو راءهُ[1] عاتى المجوسِ تخشَّعتْ ... لِلنَّارِ مِنْ غَيِّ النُّهَى أعضاؤُهُ

لانحازَ فى ركبِ النَّبىِّ .. ونارُهُ ... نورٌ تدفَّقَ فى الصلاةِ ضياؤُهُ!

ومِنَ الهوى أوْراهُ حُبُّكَ جاحماً ... أشهَى مِنَ النَّسمِ الرَّطيبِ صِلاؤُهُ

يسرى لظاهُ بكلِّ مَسْبَحِ ذرَّةٍ ... فيكادُ يُشعَلُ من هواكَ فضاؤُهُ

---

(١) رآه .

أنّى حللتَ أحلتَ تُربكَ معبداً ... تخضلُّ من عبق المنى أرجاؤه

وقفَ المغنّى فى حِماكَ مُجلجلاً ... باللّحنِ تخفق فى الورى أصداؤه

فيه من الأقدار وهلة غيبها ... خبأته عن لمع الحِجا أطواؤه

ومن الكتائب أرزمت[1] أسلاتها ... صخبٌ يزمجر بالفتوح نداؤه

ومن المواكب هولها فى فيلق ... نشوانُ فى يوم الفخار لواؤه

ومن الجنان الفيح همس ظلالها ... سكبته فى اذن الربيع سماؤه

رجزٌ بارغول الزمان .. شدا به ... - لما خطرت - صباحه ومساؤه

حتى إذا دوّى بيومك هاتفٌ ... أسنى[2] الليالى بالمنى بُشراؤه

وانهلّ من جنبات عرشك سيكبٌ ... طهرٌ يموجُ على الحمى لألاؤه

وأذعت من حُجرات مُلكك فى الضحى ... قسماً أعزّ النيلَ منك ولاؤه

قصفَ المغنّى عودهُ! ومضى الصدى ... خجلانَ ينتهبُ الأثير حياؤه

يُصغى، ويُرغن[3] خاشعاً ويكاد من ... ندمٍ ترُدُّ له اللّحونَ جواؤه

أنشودةُ «الفاروق» هلّل شدوها ... ماذا سينشدُ بعدها شعراؤه!

هى فى فم الدنيا حديثٌ خالدٌ ... حدرته من شفة الغيوب سماؤه

الله طهّره وسلسل نبره ... جاماً يعلّ بقدسه ندماؤه

أوراد نسّاكٍ، وجرسُ مآذنٍ ... تكبيرها عمرَ القلوبَ دعاؤه

وحفيفُ أدعيةٍ، وهمسُ ملائكٍ ... بالغيب يُلهمهم وحيه رسلاؤه

---

(١) صاتت واصطخب صدى قعقعتها.

(٢) بعث فيها السنا والنور.

(٣) ينصت بخشوع.

دَعْنى مِنَ الأشعار مهما سُقْتُها إعجازَ جنٍّ زمزمتْ أفنأوه (١)
مَن كان هذا الطهرُ فيضَ لسانِه فالشعرُ فيه أعاجمٌ امراؤه !

***

أوفى على الشطِّ الظليلِ بزنبقٍ خضلِ النسائم برَّة أفياؤه
ينساب كالإيمان وشعَّ سترُه نورٌ يشفُّ سنا العيون بهاؤه
متخشعٌ ! للهِ فى نظراتِه تسبيح صمتٍ زانه إغضاؤه
والصولةِ التيجانِ فى قسماتِه معنًى يفسِّر كنهَه إيماؤه
ملكٌ أهلَّ على الحِمَى فارتجَّ مِنْ طربٍ ، وكبَّرَ ـ روعةً ـ أحياؤه
شقَّ الضُّحَى بركابِه فكأنه (رمسيس) تزأر فى الضُّحَى هيجاؤه
بعرام قسطلةٍ (٢) ، وضجَّةِ فاتحٍ أذكى حماسَ الهالكينَ لقاؤه
وكأنَّما فرسان (طيبة) جلجلتْ فى ساحهمْ مِنْ فرحةٍ أبناؤه
فتقلَّدوا أرماحَهم وقسيَّهم ومضوْا ليومٍ أرجفتْ غبراؤه
شقُّوا غبارَ الدهرِ مِنْ أرماسِهم وسبتْهمُ ـ فتخطَّروا ـ خُيلاؤه
شدَهتْهمُ تلكَ الحمائل ، والظبى غرُّ السلاحِ على الأكفِّ وضاؤه
نشوَى على الأجيادِ طرَّبَ سمعَها قصفُ المدافعِ زُلزلتْ أرجاؤه
وشدَا لها فى الجوِّ لحنًا صاخباً فلكٌ مِنَ الفولاذِ ضجَّ فِناؤه
سِربُ النسورِ السابحاتِ ، خضمُّها ذرُّ الأثيرِ تعلغلتْ ميناؤه . . .
نظروا إلى تلكَ الموا كبِ جيَّشتْ حشدًا مِنَ الأرواحِ ضاقَ خلاؤه

(١) جمع فئة بفتح فسكون وهو الجماعة من الجن
(٢) صهيل الخيول فى الحرب .

أُمَمٌ ! وَأَجْيَالٌ ! وَدُنْيَا ! .. كُلُّهَا رَصَدٌ لسَارٍ لاَ يُمَلُّ رُوَاؤه
سَدِكَتْ به الأبْصَارُ حتَّى لَوْ ثَنَتْ إنْسَانَهَا لارْتَدَّ فيه عَمَاؤهُ
وَلو أنَّ أفْوَاه الخلائق هادَنَتْ خفْقَ اللِّسَانِ لمارَ فيه هُدَاؤه
وَرَأَرْا بيَارقَ رَفْرَفَتْ مَخْضُوبَةً بدَمِ الْفَخَارِ زَهَابه شُهَدَاؤه
خِيلَتْ كِتابَ المَجْدِ نُشِّرَ لِلْوَرَى رقِمَتْ هِلالاً مشرقاً طغرَاؤه
فَتَسَاءلوا : مَا النِّيل ؟ مَا أفْرَاحه ؟ مَا يَوْمه ؟ هل كشِفَتْ برَحَاؤه
سِتِّين عاماً فى القيود مصفَّداً يَجْرِى وَيصرخُ فى الشطوط ظِماؤه
هَيَّا إلَى كِهَان (مَنْفَ) لَعَلَّهمْ كشَفوا الذى أعْيَا العقولَ خَفَاؤه
وإذا بـ (خوفو) فَضَّ أخْتَامَ البِلَى وَالسِّرَّ لَمْ يَعْثر بِهِ حكَمَاؤه :
هذا هو الملِك الذى بيمينه وَجبينِهِ أملُ الحِمَى وَرجاؤه
عَرْشٌ يحَاكِ الْفَجْر مِنْ هالاتِهِ فَيَرُوح يَنْتضِخ السَّنَا إمْسَاؤه
لا المُلْكَ فِي أبْرَاجِ (تدمرَ) حازَه يوْماً ، ولا حَظِيَت به زَهْراؤه
الشَّرْقُ ، والوادى الأبىُّ ، وَشَعبه وَالنِّيل ، وَالهَرَمُ العتيد ، .. فدَاؤه
حضَنَ الحنيفةَ فى حِمَاه وَصانها أقْسَمتُ يا (قرآن) منك ضياؤه

* * *

خَشَعَ الحَمام عَلَى وَشَائع خزه يَا قدسَ مَن خَشَعت له وَرقاؤه
أودَى (سليمانُ)[1] فَصَارَ بغامه[2] نَوحاً ! وَجئْتَ فَلَذَّ فيكَ غِناؤه
من عَهده هَجَرَ النعِشاش مشرَّداً حتى رآكَ فأُسْبِغَت نَعماؤه

(١) سيدنا سليمان وقد كانت الطيور تخشع له وتأتمر بأمره .
(٢) بغام الحمام أى صوته الناعم الرخيم .

حَرَمٌ عَلَى « عَبدين[1] » قُدْسَ جَوْه وَعَلى خطَاكَ تَخشَّعَتْ أبهاؤه
للطير آناء يُحَرَّمُ صيْدُهُ فِيها ، وطيرُك خلَّدَتْ آناؤهُ
لمَّا رأى قدْسَ النَّبِيِّ وطهرَهُ فى وجْهِكَ الميمونِ طابَ ثَواؤهُ
فجثَا وكبَّر فى ذَراك مُرَنِّماً: ملكُ الورى .. والطَّيْرِ عزَّ عَلاؤه!

* * *

مولاى ! إن تَرَنُّمِى سِحْرُ النهى فاطْرَب ! فمنكَ خيالُه وَبهاؤه
يالَيتنى مثلُ الحمام بظِلِّكم صدَّاح مِن حرمِ الخلودِ هوَاؤه
حتى أرَقرِقَ فى النَّعيم ملاحِنى وأذِيعَ إعجَازًا خَبَت أصداؤه !

محمود حسن اسماعيل

(١) إشارة إلى أسراب الحمام التى تعيش على أسوار قصر (عابدين) وفى ذرا أبراجه أليفة آمنة .

يوم فاروق العظيم

بقلم عبد الله عبد الجليل
المدرس بالمدرسة السعيدية الثانوية

لمن الثغور بواسما وشوارقا ... ولمن قلوب الشعب باتت خفّقا
ولمن تزينت البلاد بأسرها ... وبنورها الحو الرحيب تألقا
ولمن يموج الخلق فى ساحاتها ... كل يجد لأن يكون الأسبقا
ولمن كسا الناس المنازل واعتلوا ... شُمَّ القصور وكل صعب المرتقى
كتل من البشر ازدحمن وكلها ... بشهود عاهله العظيم تعلقا
فاروق من ملك القلوب رضية ... متبوئاً منها المكان الأرفقا
ملك تيمنت البلاد بعهده ... نالت مناها والزمان تومقا
عم السلام بحكمه الوادى كما ... أضحت حياة الشعب خيراً أدفقا
كم يابس وصلت إليه نفحة ... من فيض فاروق فأصبح مورقا
سمح إذا قاس السحاب بجوده ... فرد فقد طلب العقُوق[1] الأبلقا
شغف بحب الشعب يبنى مجده[2] ... من مجده لينال مجداً أسمقا

---

(١) طلب العقوق الأبلق أى طلب ما لا يمكن

(٢) إشارة إلى ما جاء بالبيان الأول لجلالة الملك من قوله حفظه الله :
« اعتقد أن مجد الملك من مجد شعبه »

أرسلتها مثلا لشعبك سائراً وهو الذى أولاك حباً أصدقا
خلق تخيله الزمان فمد طلعـــت محلقاً كان الخيال محققا
لو رام ملْك أن يدانيه علاً وسمو منزلة لكان المخفقا
وإذا أراد الله توفيق امرئ ألفيت منـه معجباً ومشوقا
أحبب بمقدمك السعيد ومرحبا بك فى سماء العدل نجما مشرقا
فى الحل والترحال ترفع عالياً رأس البلاد مغرّبا ومشرّقا
يا خير ذكرٍ للعظيم أبيكمُ من قاد مصر إلى الكمال مُوَفقا
يا قادراً لحقوق دينك قدرها كل الأمانى فيك عدن حقائقا
عش دائماً متفرداً بالمجد لا يبغى الزمان لمجدكم أن يلحقا
وليسلم الشعب المحب لذاتكم أبداً وفياً هاتفاً ومصفقا

عبد الله عبد الجليل

نشـــيد الملك

للشاعر الأديب محمد يوسف المحجوب
المدرس بمدرسة محمد على الملكية الأميرية للبنات

فاروق فاروق يا منـــــارَ الفَلَكِ
فاروق فاروق أنتَ أسْمَى مَلِكِ

✡ ✡ ✡

طالعَتْ مِصْرُ بكَ العهْدَ السعيدْ وبنَتْ فى ظلِّكَ المجـــدَ العَتِيدْ
ومضَتْ تصعَدُ فى أَوْجِ الخلودْ يزدهِيها منكَ موهوبٌ «رشيدْ»

✡ ✡ ✡

فاروق فاروق يا منـــــار الفلك
فاروق فاروق أنت أسمى ملك

✡ ✡ ✡

تاجُكَ الوَضَّاء فخْرُ الأَعْصُرِ صِيغَ مِنْ أهْرامِنا والكوثرِ
صِيغَ مِنْ شعبٍ نبيلِ العنصُرِ أَيْنَ مِنْ هاتِيكَ مُلْكُ القيصرِ ؟

✡ ✡ ✡

فاروق فاروق يا منـــار الفلك
فاروق فاروق أنت أسمى ملك

✡ ✡ ✡

صاغَكَ الرحمنُ مِنْ نُورِ «الفؤادْ» كوكباً يسطعُ فى أُفْقِ البلادْ

يَوْمَ وُلِّيتَ وأُعْطِيتَ القِيادْ رفرفَ السعدُ على هَامِ العبادْ

✡ ✡ ✡

فاروق فاروق يا منـــار الفلك
فاروق فاروق أنت أسمى ملك

✡ ✡ ✡

يا لَيَوْمٍ كان عُنوانَ السَّلَامْ شار كتْنَا فيه أسرابُ الحَمَامْ
أرْسَلَتْ أُخْتَامن البيتِ الحرامْ تتهادَى فى حِمى رَاعِي الذِّمامْ

✡ ✡ ✡

فاروق فاروق يا منـــار الفلك
فاروق فاروق أنت أسمى ملك

✡ ✡ ✡

ياملِيكا ، عهْدُهُ عهدُ الصفاءْ ياعظيماً ،عصرُهُ عصرُ الرخاءْ
نحن بايعْنَا وأصفيْنَا الوَلَاءْ بقلوبٍ هى للعرشِ الفِداءْ

✡ ✡ ✡

فاروق فاروق يا منـــار الفلك
فاروق فاروق أنت أسمى ملك

✡ ✡ ✡

عِشْ لِوَادى النيل وَضَّاءَ السَّنَى ناشراً فى جوه حُـلْوَ المُنى
واستمِعْ للشعبِ يشدُو مُعْلِنَا : عاشَ ربُّ التاجِ موفورَ الهنا

محمد يوسف المحجوب

أثر علم الكلام الإسلامى فى الأدب

بقلم محمد موسى عفيفى
المدرس الأول بالإبراهيمية

عالجنا فى مقالنا بالعدد الأول من السنة الرابعة أثر علم الكلام فى الأدب ؛ وليكون البحث ذا قيمة تطبيقية نذكر هنا شذورا من نثر المتكلمين ونظمهم ، سواء من غلب عليهم الأدب ، ومن غلب عليهم الكلام والفقه .

النثر :

(١) النثر الأدبى : — الخطب والأحاديث والرسائل والمناظرات .

من خطبة لأبى سعيد الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى ، إمام أهل الرأى والعلم فى عصره ، وأستاذ واصل بن عطاء رأس المعتزلة وشيخهم . قال فى يوم فطر ، وقد رأى الناس وهيئاتهم :

« إن الله تبارك وتعالى جعل رمضانَ مضماراً لخلقه ، يستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته ، فَسبقَ أقوام ففازوا ، وتخلف آخرون فخابوا ، فالعَجَبُ من الضاحك اللاعب فى اليوم الذى يفوز فيه المحسنون ، ويخسرُ المبطلون ، أما والله أن لو كشف الغطاء لشُغِلَ محسن بإحسانه ، ومسىء بإساءته عن ترجيل شَعر وتجديد ثوب [1] »

ولأبى حذيفة واصل بن عطاء شيخ المعتزلة ، المتوفى سنة ١٣١ هـ من خطبته المنزوعة الراء ، التى خطبها أمام والى العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز سنة ١٢٦ هـ :

« الحمد لله القديم بلا غاية ، والباقى بلا نهاية ، الذى علا فى دنوه ، ودنا فى

(١) جمهرة خطب العرب للأستاذ سفوت ج ٢ ص ٤٧١ وتوفى الحسن البصرى سنة ١١٠ هـ .

عُلوّه، فلا يحويه زمان، ولا يحيط به مكان، ولا يؤده حفظ ما خلق، ولم يخلقه على مثال سبق، بل أنشأه ابتداعا، وعدّله اصطناعا، فأحسن كل شيء خَلقه وتمم مشيئته، وأوضح حكمته. فدل على ألوهيته، فسبحانه لا معقب لحكمه، ولا دافع لقضائه، تواضع كل شيء لعظمته، وذل كل شيء لسلطانه، ووسع كل شيء فضله، لا يعزبُ عنه مثقال حبة وهو السميع العليم (١).

ولأبى عثمان عمرو بن عبيد الزاهد، صاحب واصل وتلميذ الحسن البصرى أيضا، المتوفى سنة ١٤٤ من عظة قالها للمنصور: «أراك قد وطدت له الأمور، (يعنى المهدى) وهى تصير إليه وأنت عنه مسئولٌ، ثم استرسل فى وعظ المنصور بطلبٍ منه، فقال: «إن الله قد أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتر نفسك منها ببعضها، وإن هذا الذى فى يديك لو بقى فى يد غيرك لم يصل إليك. فاحذر ليلة تمتحض بيوم لا ليلة بعده. وأنشد:

يأيهذا الذى قد غره الأمل ... ودون ما يأمل التنغيصُ والأجلُ
ألا ترى، إنما الدنيا وزينتها ... كمنزل الركب، حلوا ثم ارتحلوا
والنفس هاربة، والموت يرصدها ... وكل عثرةِ رجلٍ عندها زللُ
والمرء يسعى لما يبقى لوارثه ... والقبر وارث ما يسعى له الرجلُ
كأنه للمنايا والردى غرض ... تظل فيه بنات الدهر تنتضلُ» (٢)

ولأبى الهذيل العلاف المتكلم المعتزلى المتوفى سنة ٢٢٧ هـ شيخ النظام، فى معنى العشق. وكان قد اجتمع هو وجماعة عند يحيى بن خالد البرمكى. فسألهم عن معنى العشق: «أيها الوزير: العشق يختم على النواظر، ويطبع على الأفئدة، مرتعه فى الأجسام، ومشرعه فى الأكباد، وصاحبه متصرف الظنون،

(١) جمهرة خطب العرب ص ٤٨٢، وقد استطاع واصل أن ينزع الراء من خطبته هذه على طولها للثغة كانت فيه، ففضلها عبدالله على خطب شبيب بن شيبه، وخالد بن صفوان، والفضل بن عيسى وكانوا معه.

(٢) المسعودى هامش نفح الطيب ج ٣ ص ١٤٩، ١٥٠

متفنن الأوهام لا يصفو له مرجوٌّ . ولا يسلمُ له مدعو ، تسرع إليه النوائب ؛ وهو جرعة من نقيع الموت ، غير أنه من أريحية تكون فى الطبع ، وطلاوة توجد فى الشمائل ، وصاحبه جواد لا يصغى إلى داعية المنع ، ولا يصيخ لنازع العذل (١) » .

ولإبراهيم بن سيار النظام ، المتكلم المعتزلى ، تلميذ أبى الهذيل العلاف السابق الذكر : والمتوفى سنة ٢٢١ هـ ، « العلم شىء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك . فإذا أعطيته كلك ، فأنت من إعطائه لك بعضا على خطر » وله : « مما يدل على لؤم الذهب والفضة صيرورتهما عند اللئام . فالشىء يصير إلى شبهه » وله : « إذا كان فى جيرانك جنازة . وليس فى بيتك دقيق فلا تحضر الجنازة . فإن المصيبة عندك أكثر منها عند القوم ، وبيتك أولى بالمأتم » (٢)

وللقاضى أحمد بن أبى دؤاد ، المتكلم المعتزلى المتوفى سنة ٢٤١ هـ ، الذى خلط عملا صالحاً من مروءاته وعلو همته ، بآخر سىء من حمله المعتصم على تعذيب من عذبهم ، من أهل الحديث والفقه ، وبخاصة الإمام أحمد بن حنبل ، طيب الله ثراه ! « ثلاثة ينبغى أن يبجلوا وتعرف أقدارهم : العلماء ، وولاة العدل ، والإخوان ، فمن استخف بالعلماء أهلك دينه ، ومن استخف بالولاة أهلك دنياه ، ومن استخف بالإخوان أهلك مروءته » وله : « ليس بكامل من لم يحمل وليه على منبر ولو أنه حارس ، وعدوه على جذع ولو أنه وزير » وله يخاطب الوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، وكانت بينهما وحشة : « والله ما أجيئك متكثراً بك من قِلة ، ولا متعززاً بك من ذلة ، ولكن أمير المؤمنين رتبك مرتبة أوجبت لقاءك ، فإن لقيناك فله ، وإن تأخرنا عنك فلك (٣) » .

وللقاضى أبى محمد يحيى بن أكثم الشافعى ، المتكلم السنى ، المتوفى سنة ٢٤٣ هـ من كلام له فى مدح المأمون ، وقد طلب إليه أن يصف له حاله عند الناس :

---

(١) ابن خلكان جزء ثان ص ٧٢٦ .

(٢) سرح العيون لابن نباتة هامش الغيث المسجم جزء أول ص ٢٤٧ .

(٣) ابن خلكان ج ١ من ص ٣٨ إلى ٤٥ .

« يا أمير المؤمنين قد انقادت لك الأمور بأزمتها ، وملكتك الأمة فضول أعنتها ، بالرغبة إليك ، والمحبة لك . والرفق منك ، والعياذ بك ، بعدلك فيهم ، ومنّك عليهم ، حتى لقد أنسيتهم سلفك ، وآيستهم من خلفك ، فالحمد لله الذى جمعنا بك بعد التقاطع ، ورفعنا فى دولتك بعد التواضع » فقال المأمون : يا يحيى ، أتحبيرا أم ارتجالا ؟ فقال القاضى : وهل يمتنع فيك وصف ، أو يتعذر على مادحك قول ، أو يفحم فيك شاعر ، أو يتلجلج فيك خطيب[1] ؟ »

ولأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، أحد شيوخ المعتزلة ، وإمام أهل الأدب ، وصاحب أكبر ركن من أركانه « البيان والتبيين » وصاحب « الحيوان » المتوفى سنة ٢٥٥ هـ : « يجب للرجل أن يكون سخياً لا يبلغ التبذير ، وشجاعاً لا يبلغ الهوَج ، ومحترساً لا يبلغ الجبن . وماضياً لا يبلغ القحة ، وقوالا لا يبلغ الهذر ، وصموتاً لا يبلغ العِىّ ، وحليما لا يبلغ الذُّلّ ، ومنتصراً لا يبلغ الظلم ، ووقوراً لا يبلغ البلادة ، ونافذاً لا يبلغ الطيش ، وله : « تسعة موجودة فى تسعة : الخِفة فى الصُّمّ ، والهوَج فى الطوال ، والعُجْبُ فى القصار ، والنُّبْلُ فى الربْعة ، والملاحة فى الحُول ، والذكاء فى الخرَس ، والحفظ فى العميان ، والثقل فى العور ، والنشاط فى العُرْج »

ومن طرفه ما حدث عن نفسه قال : ما أخجلنى إلا امرأتان . . . فأما الأخرى فإنها أتتنى وأنا على باب دارى فقالت : لى إليك حاجة ، وأريد أن تمشى معى . فقمت معها إلى أن أتت بى إلى صائغ يهودى وقالت له : مثل هذا ! ! وانصرفت ، فسألت الصائغ عن قولها فقال : إنها أتت إلى بفصٍّ ، وأمرتنى أن أرسم عليه صورة شيطان ! فقلت لها : ما رأيت الشيطان ! ! فأتت بك ، وقالت ما سمعت !

ومن المناظرات ما اتفق للقاضى أحمد بن أبى داود وشيخ أوتىَ به مقيداً إلى مجلس الواثق ، فقال ابن أبى داود : يا شيخ ، ما تقول فى القرآن أمخلوق هو ؟ فقال الشيخ : لم تنصفنى المسألة ، أنا أسألك قبل الجواب ، هذا الذى تقوله

(١) الصناعتين لأبى هلال العسكرى ص ٤٠ وابن خلكان ج ٣ صفحة ١٧٥ وما بعدها .

يا بن أبي داود من خلق القرآن ، شيء علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضى الله عنهم أو جهلوه ؟ فقال القاضى : بل علموه . فقال الشيخ : فهل دعوا الناس إليه كما دعوتهم أنت أو سكتوا ؟ فقال القاضى : بل سكتوا . قال الشيخ : فهلا وسعك ما وسعهم من السكوت؟ فسكت ابن أبي داود ، وأعجب الواثقَ كلامُ الشيخ ، وأطلقه ، ونهض من مجلسه ، وهو يقول : « هلا وسعك ما وسعهم ؟ » يكررها (١)

ومن المناظرات ما كان بين أبي الحسين الأشعرى ، إمام أهل السنة والجماعة ، وشيخه أبي على الجبائى ، فقد سأل أبو الحسن أستاذه « عن ثلاثة أخوة : أحدهم كان مؤمنا براً تقياً ، والثانى كان كافراً فاسقاً شقياً ، والثالث كان صغيراً ، فماتوا فكيف هم ؟ »

فقال الجبائى : « أما الزاهد ففى الدرجات ، وأما الكافر ففى الدركات ، وأما الصغير فمن أهل السلامة »

فقال الأشعرى : إن أراد الصغير أن يذهب إلى درجات الزاهد ، هل يؤذن له ؟ »

فقال الجبائى : لا ؛ لأنه يقال له : إن أخاك إنما وصل إلى هذه الدرجات بسبب طاعاته الكثيرة ، وليس لك تلك الطاعات »

قال أبو الحسن : « فإن قال ذلك الصغير : التقصير ليس منى ، فإنك ما أبقيتنى ، ولا أقدرتنى على الطاعة »

قال الجبائى : « يقول البارى جل وعلا : كيف أعلم أنك لو بقيت لقضيت ، وصرت مستحقًا للعذاب الأليم ، فراعيت مصلحتك ! »

قال الأشعرى : « فلو قال الأخ الكافر يا إله العالمين ، كما علمت حاله فقد علمت حالى ، فلم راعيت مصلحته دونى ؟ »

فقال الجبائى — وقد انقطع للأشعرى — : « إنك لمجنون » (٢)

وهذه المناظرة دلت على أن الله تعالى خص من شاء برحمته . وخص من شاء

(١) طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكى ج ١ ص ٢١٦ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٢ ص ٢٧٧ .

بعذابه ، وأن أفعاله تثير معلله بشىء من الأغراض .

ومن رسائل المتكلمين ما كتبه أبو قاسم جار الله الزمخشرى المعتزلى ، صاحب الكشاف ، المتوفى سنة ٥٣٨ من مكة إلى أحمد بن محمد السكفى من علماء الإسكندرية وعصر الزمخشرى ، وكان السكفى قد كتب إليه عامين متواليين مع الحُجاج يستجيزه رواية مصنفاته ومن الرسالة — وهى طويلة — : ما مثلى مع أعلام العلماء إلا كمثل السُّها مع مصابيح السماء ، والجهام الصِّفر من الرِّهام ، مع الغوادى الغامرة للقيعان والآكام ، والسكيت المخلف مع خيل السباق ، والبغاث مع الطير الصفاق والعلم مدينة أحد بابيها الدراية ، والثانى الرواية ، وأنا فى كلا البابين ذو بضاعة مزجاة ، أما الرواية فحديثة الميلاد قريبة الأسفار ، لم تستند إلى علماء نحارير ، ولا إلى أعلام مشاهير ، وأما الدراية فثمر لا يبلغ أفواهاً ، وبَرضٌ لا يَبلُّ شفاها ، ولا يغرنكم قول فلان وفلان — وعد من مدحوه — فإن ذلك اغترار منهم بالظاهر المحوّه ، وجهل بالباطن المشوّه ، ولعل الذى غرهم منى ما رأوا من حسن النصح للمسلمين » (١)

(ب) النثر العلمى :

ونعنى بذلك أساليب المتكلمين فى مؤلفاتهم ، سواء فى الكلام أو الأدب أو غيرهما من العلوم والفنون ، التى وضعوا فيها الكتب :

فمن ذلك قول الجاحظ فى « باب النحل » صفحة ١١٦ من كتاب « الحيوان » جزء خامس : زعم صاحب المنطق أن خلية من خلايا النحل فيما سلف من الزمان اعتلت ، ومرض ما كان فيها من النحل ، وجاء نحل من خلية أخرى يقاتل هذا النحل حتى أخرجت العسل ، فأقبل القيم على الخلايا يقاتل ذلك النحل

(١) السها : كوكب خفى . الجهام : السحاب لا ماء فيه . الرهام : جمع رهمة ، المطر الضعيف الدائم . السكيت : بضم السين وشد الكاف مع الفتح أو بالتخفيف ، آخر خيل الحلبة . البغاث : مثلث الباء طائر ضعيف وجمعه بغثان . البرض : القليل .

الذى جاء إلى غير خليته ! قال : فخرج النحل من الخلية يقاتل النحل الغريب ، والرجل بينهما يطرد الغريب ، فلم تلسعه نحلة الخلية التى هو حافظها ؛ لدفعه المكروه عنها ، قال : والنحل يجتمع فتقسم الأعمال بينها ، فبعضها يعمل الشمع ، وبعضها يعمل العسل ، وبعضها يعمل البيوت ، وبعضها يسقى الماء ، ويصبه فى الثقب ، ويلطخه بالعسل ، ومنه مايكر إلى العمل ، ومن النحل ما يكف حتى إذا نهضت واحدة طارت كلها ! يقال بَكَرَ يَبكُرُ بكور اليعسوب يريد أمير النحل الخ »

ومن ذلك قول أبى الفضل محمد فخر الدين الرازى ، المتكلم السنى ، فى كتابه « التفسير الكبير » ، « الكتاب الأول فى العلوم المستنبطة من قوله : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » ، « المسألة الحادية والأربعون ، فى الحكمة فى وضع الألفاظ للمعانى » ، « وهى أن الإنسان خلق بحيث لايستقل بتحصيل جميع مهماته ، فاحتاج إلى أن يعرّف غيره مافى ضميره ؛ ليمكنه التوسل به إلى الاستعانة بالغير ، ولا بد لذلك التعريف من طريق . والطرق كثيرة مثل الكتابة والإشارة والتصفيق باليد ، والحركة بسائر الأعضاء . إلا أن أسهلها وأحسنها هو تعريف مافى القلوب والضمائر بهذه الألفاظ ، ويدل عليه وجوه :

أحدها أن النفس عند الإخراج سبب لحدوث الصوت ، والأصوات عند تقطيعها أسباب لحدوث الحروف المختلفة ، وهذه المعانى تحصل من غير كلفة ومعونة ، بخلاف الكتابة والإشارة وغيرهما »

ومن النثر العلمى أيضا قول الإمام أبى بكر الباقلانى فى كتابه « إعجاز القرآن » صفحة ١١٩ وما بعدها : « فصل فيما يتعلق به الإعجاز » ، « إن قال قائل : بينوا لنا ما الذى وقع التحدى فيه أهو الحروف المنظومة أو الكلام القائم بالذات أو غير ذلك ؟ قيل : الذى تحداهم به أن يأتوا بمثل الحروف ـ التى هى نظم القرآن ـ منظومة كنظمها ، متتابعة كتتابعها ، مطردة كاطرادها ، ولم يتحدهم إلى أن يأتوا بمثل الكلام القديم ، الذى لامثل له ، وإن كان كذلك فالتحدى واقع إلى أن يأتوا بمثل الحروف المنظومة ، التى هى عبارة عن كلام الله تعالى فى نظمها وتأليفها ، وهى حكاية لكلامه ، ودلالات عليه وأمارات له .

ومن هذا النوع من النثر قول الإمام أبى حامد الغزالى فى كتابه « المنقذ من الضلال » صفحة ٩٣ وما بعدها، وهو يقسم علوم الفلاسفة: « وأما علم الطبيعيات فهو بحث عن عالم السموات، وما تحتها من الأجسام المفردة: كالماء والهواء والتراب والنار، ومن الأجسام المركبة: كالحيوان والنبات والمعادن. وعن أسباب تغيرها واستحالتها وامتزاجها. وذلك يضاهى بحث الطب عن جسم الإنسان وأعضائه الرئيسة والخادمة، وأسباب استحالة مزاجها. وكما ليس من شرط الدين إنكار علم الطب، فليس من شرطه أيضا إنكار ذلك العلم، إلا فى مسائل معينة، ذكرتها فى كتاب « تهافت الفلاسفة ». وما عداها مما يجب المخالفة فيها. فعند التأمل يتبين أنها مندرجة تحتها، وأصل جملتها أن تعلم أن الطبيعة المسخرة لله تعالى، لا تعمل بنفسها، بل هى مستعملة من جهة فاطرها، والشمس والقمر والنجوم والطبائع مسخرات بأمره، لا فعل لشىء منها بذاته عن ذاته ».

النظم:

أولا: — كان بشار بن برد الأعمى من أولياء واصل بن عطاء، والآخذين عليه، ثم انقلب وهجا واصلا فأوجع، فانبرى له رجال من شيعة واصل منهم صفوان الأنصارى، وله فى صفحتى ١٤ . ١٥ من البيان والتبيين جزء أول قصيدة طويلة فى الرد على بشار، وبيان حقيقة مذهب المعتزلة، ومدح واصل، وما قام به هو وأولياؤه من خدمة الدين، وما كان لهم من بيان وفصاحة قال منها:

متى كان غزال له يابن حوشب ... غلام كعمرو أو كعيسى بن حاظر (١)
أما كان عثمان الطويل ابن خالد ... أو القزم حفص شهبة للمخاطر (٢)
له خلف شعب الصين فى كل ثغرة ... إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر
رجال دعاة لا يفل عزيمهم ... تهكم جار ولا كيد ماكر
إذا قال مروا فى الشقاء تطاوعوا ... وإن كان صيفاً لم يخف شهر ناجر (٣)

(١) الحوشب: العجل والثعلب، وعمرو هو ابن عبيد الزاهد وكان من أولياء اوصل أولا، وعيسى أحد أتباع واصل
(٢) عثمان الطويل وحفص بن سالم من المعتزله أتباع واصل
(٣) كل شهر شديد الحر.

بهجرةِ أوطان وبذل وكلفةٍ وشدة أخطار وكدّ المسافرِ
فأنجح مسعاهم، وأثقب زندهم وأورى بفلج للمخاصم قاهرِ
وما كان سحبانٌ يشقّ غبارَهُمْ ولا الشدق من حيّ هلال بن عامرِ
تلقب بالغزّال واحد عصره فمن لليتامى والقبيل المكاثرِ
ومن لحروري وآخر رافض وآخر مُرْجيّ وآخر حائرِ (١)
وأمر بمعروف، وإنكار منكر وتحصين دين الله من كل كافرِ
يصيبون فضل القول فى كل منطق كما طبقت فى العظم مُدْيةُ جازرِ
تراهم كأن الطير فوق رءوسهم على عمة معروفة فى المعاشرِ
وسيماهمُ معروفة فى وجوههم وفى المشى حجاجاً وفوق الأباشرِ
وفى ركعة تأتى على الليل كله وظاهر قول فى مثال الضمائرِ
وفى قص هداب، وإحفاء شارب وكور على شيب يضيء لناظر (٢)

وفى بشار يقول صفوان من قصيدة- صفحتا ١٦و١٧ من الكتاب عينه-:

فيابن حليف الطين واللؤم والقمى وأبعد خلق الله من طرُق الرشدِ (٣)
أتهجو أبا بكر وتخلع بَعْدَه عليًّا وتعزو كل ذاك إلى بردِ
كانك غضبان على الدين كله وطالبُ ذحل لا يبيت على حقدِ (٤)
رجعت إلى الأمصار من بعد واصل وكنت شريدا فى التهائم والنجد
تواثبُ أقمارا وأنت مشوّه وأقرب خلق الله من شبهِ القردِ

والقصيدة طويلة فارجع إليها فى البيان.

ثانيا: — وقال بشار لما كان من أولياء واصل يشير إلى قوة بيانه، وإلى خطبته التى نزع منها الراء.

تكلفوا القولَ والأقوام قد حفلوا وحبرُوا خطباً ناهيك من خطبِ
فقام مرتجلا تغلى بداهتهُ كمرْجلِ القينِ لما حُفّ باللهبِ

(١) الحرورى: الخارجى، والرافض من الرافضة وهم فرقة من الشيعة، والمرجى من المرجئة وهم الذين يقولون: إنه لا يضر مع الإيمان معصية.
(٢) الهداب: طرف الثوب. إحفاء الشارب: الاستقصاء فى أخذه. الكور: لوث العمامة. (٣) كان برد أبو بشار صانع جرار. (٤) الذحل: الثأر.

وجانب الراء لم يشعرْ به أحد قبل التصفح والإغراق فى الطلَبِ

ثالثا : — ولإبراهيم النظام :

يا تاركى جسداً بغير فؤاد أسرَفْتَ فى الهجران والإبعادِ
إن كان يمنعك الزيارة أعين فادحل إلىَّ بعلةِ العوّادِ

وله :

أريد الفراق وأشتاقكم كأنا افترقنا ولم نفترق
وأستغنم الوصل كى أشتفى وهل يشتفى أبدا من عشقْ ؟

رابعا : — وللجاحظ فى فضل العلم والعلماء :

يطيبُ العيشُ أن تلقى حكيما غذاهُ العلمُ والفهمُ المصيبُ
فيكشف عنك خيرة كل جهل وفضلُ العلم يعرفه اللبيبُ
سقام الحرصِ ليس له شفاء وداء الجهل ليس له طبيبُ

وله فى القاضى أحمد بن أبى دواد :

وعويص من الأمور بهيم غامض الشخص مظلم مستور
قد تسنمت ما توعر منهُ بلسان يزينهُ التحبيرَ
مثل وشى البرود هلهله النسـ ـج وعند الحجَاج دُرٌّ نثيرُ
حسنُ الصمتِ والمقاطع إما نصت القومُ والحديث يدُور
ثم من بعدُ لحظة تورثُ اليسـ ـر وعرض مهذب موفورُ

وينسب له وهو مريض :

لئن قُدّمتْ قبلى رجال فطالما مشيت على رسلى فكنت المقدما
ولكن هذا الدهر تأتى صروفهُ فتبرم منقوصاً وتنقضُ مبرما

خامسا : — ولإسحاق بن إبراهيم الموصلى المغنى اللغوى المتكلم المتوفى سنة ٢٣٦هـ :

وآمرة بالبخل قلت لها اقصرى فليس إلى ما تأمرين سبيلُ
أرى الناس خلان الجواد ولا أرى بخيلا له فى العالمين خليـل
وإنى رأيت البخل يزرى بأهله فأكرمت نفسى أن يقال بخيل

سادسا : — ولأبى القاسم القشيرى المتصوف المتكلم السنى :

لو كنت ساعة بيننا ما بيننا وشهدت حين نكرر التوديعا

أيقنت أن من الدموع محدثا وعلمت أن من الحديث دموعا

وله :

لا تدع خدمة الأكابر واعلم أن فى خدمة الصغار صغارا
وابغ من فى يمينه لك يمن وترى فى اليسار منه اليسارا

سابعا : — ولأبى حامد الغزالى المتكلم السنى :

حلت عقارب صدغه فى خده قمراً فجل بها عن التشبيه
ولقد عهدناه يحل ببرجها فمن العجائب كيف حلت فيه

وله :

هبنى صبوت كما ترون بزعمكم وحظيت منه بلثم خد أزهر
إنى « اعتزلت » فلا تلوموا إنه أضحى يقابلنى بخد « أشعرى »

قال ابن خلكان صفحة ٢٤٧ جزء ثان « وهذه الأبيات الأربعة نسبها إليه العماد الأصبهانى والله أعلم »

ثامنا : — ولفخر الدين الرازى المتكلم السنى :

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعى العالمين ضلال
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه « قيل وقالوا »
وكم من جبال قد علت شرفاتها رجال فزالوا . والجبال جبال
وكم قد رأينا من رجال ودولة فبادوا جميعا مزعجين وزالوا

تاسعا : — وللإمام الشيخ عبد القاهر الجرجانى المتكلم السنى ، صاحب « دلائل الاعجاز » :

وما لك مطمع فى المرء إلا إذا ما أنكر الأمر القبيحا
فأما وهو يجهل بين قبح وبين الحسن فرقانا صحيحا
فإنك فى رجاء الخير منه بأجواز الفلاة تكيل ريحا

وقد تركنا التمثيل بشعر بشر بن المعتمر اختصارا ، واتكالا على من كلف ترجمته من حضرات الزملاء الأدباء ، وقصيدتاه الرائيتان فى الجزء السادس من كتاب « الحيوان » للجاحظ صفحتا ٩٢ و ٩٤ فليلتمسهما من شاء .

محمد موسى عفيفى

الشـــذوذ

للأستاذ الجليل الشيخ عبد الخالق عمر
أستاذ اللغة العربية بدار العلوم

وقاك الله معايبه ، وجنبك سوء مغبته ! أينما بحثت عنه فى كتب اللغة ، لا تجد معناه إلا التفرد عن الجمهور ، والخروج عليه ، والمجىء بالنادّ من القول . قال فى اللسان : شذ عنه يشذ شذوذاً : انفرد عنه وندر ، ثم قال : وشذّاذ الناس الذين يكونون فى القوم ليسوا فى منازلهم ولا حيهم . ثم ذكر ما يأتى : وسمى أهل النحو ما فارق ما عليه بقية بابه وانفرد عن ذلك إلى غيره : شاذاً . وقال فى آخر الحرف : ويقال : أشذذت يا رجل : إذا جاء بقول شاذ ، أى عن المألوف » .

فترى مما تقدم أن الشذوذ يكاد يكون خروجاً عن إلف العادة ، وابتعاداً عما تواضع عليه الناس ، ونفوراً مما أقرته التقاليد .

وأقول : إن الشذوذ فى كل مظاهره مصحوب بمقت الذى يشذ ، والاشمئزاز منه ، وهل ترى الناس يجمعون على أمر يرونه الرأى ، ثم يخرج عليهم خارج منهم فيكون محبوباً أو محترماً ؟ ألا إن المقت والاشمئزاز أقل مايجازى به الشاذ .

على أن الشذوذ قد يكون مظهراً من مظاهر السخف والحمق ، فيرى الشاذ أن مايفعله الحق ، وغيره بمنجاة عن الصواب . وهذا الشاذ أخف من سابقه وطأة ، وأهون احتمالا . فإنه يكون من الناس موضع السخرية والاستهزاء . لا موضع المقت والازدراء . على أن صاحب هذا الضرب من الشذوذ لم يأت بشىء يضر جمهوره ، ويغض من قدره ، وإنما جاء بما خيله إليه عقله الصغير ، وصوره له شيئاً عظيما .

كنت أريد أن أطيل القول فى الشذوذ ، وأذكر منه أنواعاً وأحوالا وأعرف بنفر من الشذاذ طالما ألمت منهم ، ورثيت لعقلهم ، وكنت أريد أن أترك قلمى يأتى على ذكر طائفة ، كان جمهورهم يطمع فى الانتفاع بهم فشذوا وبعدوا عما

أراده جمهورهم ، سعياً وراء نفع أنفسهم ، مطوحين بهذا الجمهور ، ضاربين به عرض الحائط ، غير مبالين بما يكون ، ما داموا هم كما يبتغون . قاتلهم الله أنى يؤفكون ! كنت وكنت ولكنى لا أكون ... وأقف عند هذا الحد من القول ، وإلا حسبنى الشذاذ شاذا مثلهم .

وإنما حدا بى إلى الكلام فى الشذوذ ما قرأته فى معجم الأدباء عن فريق من الأدباء ، كان يغلب عليه شيطان الشذوذ ، فيأتى بما يضحك منه الناس ، أو ينقمونه منه ، ولله فى خلقه شئون . وقد مر بى من هؤلاء كثير سآتى على نبذ من شذوذهم وإليك القول :

أبو علقمة النحوى

إذا تتبعت أخبار أبى علقمة رأيتها كلها حياة شذوذ عند ما يقول ، فلن ترى فى أخباره إلا شاذ القول وغريبه ، حتى فى موضع الغزل الذى هو مدعاة الرقة فى القول . قال ياقوت :

وقال أبو أحمد بن خليفة الجمحى قال : سمعت أبى يحدث عن أبيه قال : قال أبو علقمة لغلام له : خذ من غريمنا (١) هذا كفيلا (٢) ، ومن الكفيل أميناً ، ومن الأمين زعيما ، ومن الزعيم غريما ، فقال الغلام للغريم : مولاى كثير الكلام ، فمعك شىء ؟ فأرضاه وخلاه . فلما انصرف قال : يا غلام ، ما فعل غريمنا ؟ قال : سُقَع . قال : ويلك ماسقع ؟ قال بُقَع . قال : ويلك وما بقع ؟ قال استقلع . قال : ويلك ما استقلع ؟ قال : انقلع . قال : ويلك ، لم طولت على ؟ قال : منك تعلمت .

وقال الهيثم بن عدى : ركب أبو علقمة بغلا ، فوقف على أبى عبد الرحمن القرشى ، فقال : يا أبا علقمة ، إن لبغلك هذا منظراً ، فهل مع حسن هذا المنظر من خير ؟ قال : سبحان الله ! أوما بلغك خبره ؟ قال : لا . قال : خرجت عليه مرة من مصر ، ففزبى قفزة إلى فلسطين ، والثانية إلى الأردن ، والثالثة إلى دمشق ، فقال له أبو عبد الرحمن : تقدم إلى أهلك يدفنوه معك فى قبرك . فلعله يقفز بك الصراط .

---

(١) اسم يقع على الدائن والمدين ، والمراد هنا الثانى ، وجمعه غرماء ، ويقع على الخصم أيضاً .

(٢) الكفيل : من يتكفل بأداء دين المدين ، أى الضامن والمكفول له : هو الدائن .

بشر بن حجر : قال : انقطع إلى علقمة النحوى غلام يخدمه، فأراد أبو علقمة الدخول فى بعض حوائجه . فقال له : ياغلام ، أصقعَت العتاريف ؟ فقال له الغلام : « زقفيلم » قال أبو علقمة : وما زقفيلم ؟ قال له : وما معنى : صقعت التعاريف ؟ قال : قلت لك : أصاحت الديوك ؟ قال : وأنا قلت لك : لم يصح منها شىء .

قال ابن المرزبان : حدثنى عبد الله بن مسلم : دخل أبو علقمة النحوى على أعيَن الطبيب ، فقال له : أمتع الله بك ، إنى أكلت من لحوم هذه الجوازل (١) فطسأت طسأة (٢) فأصابنى وجع بين الوابلة (٣) إلى دأية (٤) العنق ، فلم يزل ينمى حتى خالط الخلب (٥) وألمت له الشراسيف (٦) فهل عندك دواء ؟ قال أعين : خذ حرقفاً وسلقفاوشرقفا ، فزهزقه ورقرقه ، واغسله بماء روث ، واشربه بماء الماء. فقال أبو علقمة : أعد (ويحك) على فأنى لم أفهم عنك ، قال له أعين : لعن الله أقلنا إفهاما لصاحبه ، ويحك ! وهل فهمت عنك شيئاً مما قلت ؟

قرأت فى كتاب النوادر الممتعة جمع ابن جنى عن محمد بن المرزبان قال : حدثنى عبد الله بن أحمد بن عبد الصمد قال : حدثنى محمد بن معاذ البصرى قال : بينا أبو علقمة النحوى يسير على بغلة إذ نظر إلى عبدين : أحدهما حبشى ، والآخر صقلى ، فإذا الحبشى قد ضرب بالصقلى الأرض ، وأدخل ركبتيه فى بطنه ، وأصابعه فى عينيه ، وعض أذنيه ، وضربه بعصا كانت معه فشجه ، وأسال دمه ، فجعل الصقلى يستغيث فلا يغاث ، فقال لأبى علقمة : اشهد لى ، فقال : قدمه إلى الأمير حتى أشهد لك . فمضيا إلى الأمير ، فقال الصقلى : إن هذا ضربنى وشجنى واعتدى على . فجحد الحبشى ، فقال الصقلى : هذا يشهد لى . فنزل أبو علقمة عن بغلته ، وجلس بين يدى

(١) الجوزل : فرخ الحمام قبل أن ينبت ريشه . والجوزل أيضا ناقة تقع هزالا ، وربما قيل للشاب جوزل والجمع جوازل. أقول وأنا رأيتها مرة الجوازى. وهى لحوم الوحش .

(٢) طسأ من باب فتح : اتخم من الشبع أو من الدسم .

(٣) طرف رأس العضد والفخذ ، أو طرف الكتف .

(٤) الدأية والدأى : فقر الكاهل والظهر .

(٥) الخلب : لحيمة رقيقة تصل بين الأضلاع .

(٦) الشرسوف : غضروف معلق بكل ضلع ، وهو الطرف المشرف على البطن .

الأمير ، فقال له الأمير : بم تشهد يا أبا علقمة ؟ فقال: أصلح الله الأمير ! بينا أنا أسير على كودنى هذا ، إذ مررت بهذين العبدين . فرأيت هذا الأسحم قد مال على هذا الأبقع، فمطأه على فدفد ، ثم ضغطه برضفتيه فى أحشائه ، حتى ظننت أنه تدمج حوفه ، وجعل يلج بشناتره فى جحمتيه يكاد يفقؤهما ، وقبض على صنارتيه بمبرمه ، وكاد يجذهما جذا ، ثم علاه بمنسأة كانت معه ، فعفجه بها ، وهذا أثر الجريال عليه بينا . وأنت أمير عادل . فقال الأمير : والله ما أفهم مما قلت شيئا. فقال أبو علقمة : قد فهمناك إن فهمت ، وعلمناك إن علمت ، وأديت إليك ماعلمت ، وما أقدر أن أتكلم بالفارسية . فجعل الأمير يجهد أن يكشف الكلام فلا يفعل ، حتى ضاق صدره . فقال للصقلى : أعطنى خنجرا ، فأعطاه وهو يظن أنه يريد أن يستقيد[1] له من الحبشى ، فكشف الأمير رأسه، وقال للصقلى: شجنى خمسا، وأعفنى من شهادة هذا . « الصنارتان : الأذنان بلغة حمير . الكودن :الغليظ من الدواب . مطأه : صرعه . والفدفد : الغليظ من الأرض . ورضفتاه :ركبتاه. شناتره : أصابعه . والجحمتان :العينان لغة يمانية . والمنسأة : العصا . عفجه : أى ضربه بها . والجريال : الأحمر فاستعاره الدم .

على هذا النمط من الإغراب كان أبو علقمة ، وقد أتى ياقوت على شىء كثير من قوله ، اكتفيت منه بهذا القدر، ولم يذكر شيئا عن حياته سوى أنه قال : أراه من أهل واسط .

وفى رأيى أن هذا كان خلطا منه لخبل فى عقله ؛ إذ كانت تعتريه مرة فيصرع منها ، ويغيب عن وجوده ، وهو الذى صُرع وقال القول الذى يستشهد به فى كتب البلاغة : (مالكم تكأكأتم على كتكأكئكم على ذى جنة ؟ افرنقعوا .)

ومن الشذاذ الذين هم على ، شاكلة أبى علقمة : أبو سليمان يحيى بن يعمر العدوانى ، وهو رجل من عدوان بن قيس بن عيلان من مضر ، وكان عالما بالعربية والحديث. ولقى عبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس وغيرهما من الصحابة، وروى عنه قتادة ، وكان من الفصحاء، وكان قد ولاه يزيد بن المهلب القضاء

(١) أى يقتص له

بخراسان . فقال له يوما : هل تشرب النبيذ ؟ فقال : ماأدعه فى صباحى ومسائى ، فقال له : أنت ونبيذك ، وعزله عن القضاء . ويروى أن الحجاج بن يوسف قال له: أتجدنى ألحن ؟ فقال : الأمير أفصح من ذلك ، فقال : عزمت عليك ، أتجدنى ألحن ؟ فقال يحيى : نعم. فقال له: فى أى شىء ؟ فقال : فى كتاب الله تعالى . فقال: ذلك أشنع ، ففى أى شىء من كتاب الله تعالى ؟ قال: قرأتَ « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله » فرفعت أحب وهو منصوب . فقال له الحجاج . طول لحيتك أوقعك — وكان طويل اللحية — فقال رجل ممن حضر : أيها الأمير ، حدثنى كعب الأحبار . أنه مكتوب فى بعض الكتب ، أن اللحية مخرجها من الدماغ ، فمن تفرط عليه لحيته فى طولها يخف دماغه ، ومن خف دماغه قل عقله ، ومن قل عقله كان أحمق ، والأحمق لايسمع منه . فقال الحجاج: لاتساكنى ببلد أنا فيه ، ونفاه إلى خراسان، وبها يزيد بن المهلب فكان عنده .

قال محمد بن سلام : أخبرنى أبى أن يزيد بن المهلب كتب إلى الحجاج : إنا لقينا العدو ففعلنا وفعلنا واضطررنا إلى عرعرة[1] الجبل . فقال الحجاج : مالابن المهلب وهذا الكلام ، فقيل له : إن يحيى بن يعمر عنده ، فقال : ذاك إذن .

وكان يستعمل الغريب فى كلامه ، فمن ذلك أنه قال لرجل خاصمته امرأته :أئن سألتك ثمن شَكرها وسرك ، أنشأت تمطلها وتضلها ؟

« الشكر : الفرج ، والسر : النكاح » ويروى : وشبرك ، والشبَر العطاء .

وخاصم رجل رجلا فى غلام فقال : باعنى غلاما أباقا ، فقال له يحيى : ألا قلت : أبوقا . ومات يحيى بن يعمر بخراسان سنة تسع وعشرين ومائة ، فى أيام مروان بن محمد .

ومن الشذاذ أيضا : عيسى بن عمر الثقفى ، وكنيته أبو سليمان ، ويقال أبو عمرو ، وكان ثقة عالما بالعربية والنحو والقراءة ، وقراءته مشهورة ، وكان فصيحا يتقعر

(١) عرعرة السنام وكل شىء : رأسه ومعظمه

فى كلامه ويعدل عن سهل الألفاظ إلى الوحشى والغريب ، فمن ذلك أنه لما ضربه يوسف بن عمر بن هبيرة فى ثياب استودعها ، قال : إن كانت إلا أُثَيَّابا فى أُسَيْفَاط قبضها عشاروك ، وذلك أن بعض أصحاب خالد بن عبدالله القسرى أودعه وديعة ، فلما نزع خالد بن عبدالله عن إمارة العراق ، وتقلد مكانه يوسف بن عمر ، كتب إلى واليه بالبصرة أن يحمل إليه عيسى بن عمر مقيدا . فدعا به ودعا بالحداد ، وأمره بتقييده وقال : لا بأس عليك ، إنما أراد الأمير أن تؤدب ولده قال : فما بال القيد إذن ؟ فبقيت مثلا بالبصرة . فلما أتى به يوسف بن عمر سأله عن الوديعة فأنكرها ، فأمر به فضرب بالسياط ، فلما أخذه السوط جزع ، فقال : أيها الأمير ، والله إنما كانت أثيابا فى أسيفاط قبضها عشاروك ، فرفع عنه السوط ، ووكل به من أخذ الوديعة منه .

وقال على بن محمد بن سليمان : رأيت عيسى بن عمر طول دهره يحمل فى كمه خرقة ، يحمل فيها سكر العُشَر والإجاص اليابس ، العشر بضم العين وفتح الشين : شجر فيه حراق لم يقتدح الناس فى أجود منه ويحشي فى المخاد يخرج من زهره وشعبه سكر ، وفى القاموس سكره فيه مرارة ، والإجاص بكسر الهمزة وتشديد الجيم : ثمر معروف ،

وربما رأيته واقفا عندى أو سائرا أو عند ولاة أهل البصرة ، فتصيبه نهكة على فؤاده فيخفق عليه . حتى يكاد يغلب ، فيستغيث بإجاصة وسكر يلقيهما فى فمه ، ثم يمتصهما . فإذا ازدرد من ذلك شيئا سكن عليه ، فسألته عن ذلك فقال : أصابنى هذا من الضرب الذى ضربنى يوسف بن عمر ، فعالجته بكل شيء ، فلم أجد له أصلح من هذا ، وصنف كتابين فى النحو سمى أحدهما الجامع . والآخر الإكمال ، وفيهما يقول الخليل بن أحمد - وكان الخليل بن أحمد قد أخذ عنه -

ذهب النحو جميعا كله غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع فهما للناس شمس وقمر

وتوفى سنة تسع وأربعين ومائة .

وعلى نسق هؤلاء كان سعد بن محمد بن سعد المعروف بالحيص بيص ، إلا أن هذا كان يفعل ما يفعل تعاظما وتيها ، لا خبلا وجنونا ، فإن له شعرا ونثرا

لا إغراب فيهما وسآتى فى هذا المقال على شىء من خبره وحديثه ، مما ذكره ياقوت فى معجم الأدباء وابن خلكان فى وفيات الأعيان .

قال ياقوت : سعد بن محمد بن سعد بن الصيفى التميمى ، شهاب الدين أبو الفوارس المعروف ، بحيص بيص ، الفقيه الأديب الشاعر ، كان من أعلم الناس بأخبار العرب ولغاتهم وأشعارهم . أخذ عنه الحافظ أبو سعد السمعانى ، وقرأ عليه ديوان شعره وديوان رسائله ، وذكره فى ذيل مدينة السلام ، وأثنى عليه ، وأخذ الناس عنه علما وأدباً كثيراً . وكان لايخاطب أحداً إلا بكلام مغرب ، وإنما قيل له حيص بيص لأنه رأى الناس يوماً فى أمر شديد ، فقال : ما للناس فى حيص بيص ؟ فبقى عليه هذا اللقب .

مات ليلة الأربعاء سادس شعبان ، سنة أربع وسبعين وخمسمائة ببغداد .

ومن تقعر الحيص بيص فى كتابته ، ما حدث به بعض أصحابه : أنه نقه من مرض ، فوصف له صاحبه هبة الله البغدادى الطبيب أكل الدُّرَّاج ، فمضى غلامه واشترى دراجا ، واجتاز على باب أمير ، وغلمانه يلعبون ، فخطف أحدهم الدراج ، فأتى الغلام الحيص بيص وأخبره الخبر ، فقال له : إيتنى بدواة وقرطاس ، فأتاه بهما فكتب إلى ذلك الأمير : لو كان مبتز دراجة فتخاء (١) كاسر (٢) ، وقف بها السغب بين التدويم (٣) والتمطر ، فهى تعقى (٤) وتسف ، وكان بحيث تنقب أخفاف الإبل ، لوجب الإغذاذ (٥) إلى نصرته ، فكيف وهو ببحبوحة كرمك ، والسلام . ثم قال لغلامه : امض بها وأحسن السفارة بإيصالها الأمير فمضى بها ودفعها للحاجب ، فدعا الأمير بكاتبه ، وناوله الرقعة فقرأها ، ثم فكر

---

(١) فتخاء . الفتخ : عرض الكف والقدم

(٢) كاسر من كسر الطير جناحيه : ضمهما يريد الوقوع

(٣) تدويم الطائر : تحليقه فى الهواء أو كطيرانه بدون أن يحرك جناحيه . والتمطر : اسراعه فى هويه

(٤) تعقى : تحوم حول الشىء وترتفع ، وتسف : تمر على وجه الأرض

(٥) الإغذاذ : الإسراع

ليعبر له عن المعنى ، فقال له الأمير : ما هو ؟ فقال : مضمون الكلام : أن غلاما من غلمان الأمير . أخذ دراجا من غلامه ، فقال : اشتر له قفصاً مملوءاً دراجا واحمله اليه ، ففعل .

و كتب إلى أمين الدولة ابن التلميذ يطلب منه شياف أبار (١) : أزكنك (٢) أيها الطب (٣) اللب ، الآسى (٤) النطاسى ، النفيس النقريس (٥) ، أرجنت (٦) عندك أم خنور (٧) ، وسكعت عنك أم حبوكر (٨) ، أنى مستاً خذ أشعر ، فى حنادرى (٩) رطبا (١٠) ليس كلب شبوة (١١) ولا كنخز المنصحة (١٢) ، ولا كنكز الحضب (١٣) بل كسفع (١٤) الزخيخ ، فأنا من التباشير إلى الغباشير (١٥) لا أعرف ابن سمير (١٦) من ابن جمير ، ولا أحس صفوان (١٧) من همام ، بل آونة أرجحن (١٨) شاصبا (١٩) ، وفينة

---

(١) شياف الأبار : دواء للعين .
(٢) أزكنك : أعلمك .
(٣) الطب : الحاذق فى عمله ، واللب : الملازم لعمله المقيم عليه .
(٤) النطاسى : العالم والمتطبب .
(٥) النقريس : الطبيب المدقق .
(٦) أرجنت : أقامت .
(٧) أم خنور : الدنيا .
(٨) الداهية
(٩) حنادرى جمع حندورة وهى : سواد العين .
(١٠) رطبا : دمعا .
(١١) شبوة : علم على العقرب .
(١٢) المنصحة : الابرة .
(١٣) كنكز الحضب : كلسع الحية .
(١٤) سفع الزخيخ : الاصطلاء بالجمرة .
(١٥) الغباشير : مابين السحر والمساء ، ومابين الغروب والعشاء من الضوء .
(١٦) ابنا سمير : الأجدان ، وابنا جمير : الليل والنهار ، يقول : لا أعرف الليل من النهار ، ويقال ابن سمير وابن جمير بهذا المعنى .
(١٧) يوم صفوان : بارد ، وهمام : يوم البرد الثالث .
(١٨) ارجحن : اهتز .
(١٩) عيش شاصب : شاق .

أحبنطى (١) مقلولياً (٢) ، وتارة أعرنزم (٣) ، وطوراً أسلنقى (٤) ، كل ذلك مع أخ وأخ وتهم قرونتى (٥) أن أرفع عقيرتى بعاط عاط (٦) إلى هياط ومياط (٧) ، وهالى أول وأهون وجبار ودُبار ومؤنس وعَروبة وشيار (٨) ، ولا أحيص (٩) ولا أليص (١٠) ولا أغرندى ولا أسرندى (١١) ، فبادرنى بشياف الآبار ، النافع لعلتى الناقع لغلتى .

فلما قرأ أمين الدولة رقعته ، نهض لوقته ، وأخذ حفنة شياف أبار . وقال لبعض أصحابه : أوصلها إليه عاجلا ، ولا تتكلف قراءة ورقة ثانية .

ومن شعره يمدح المقتفى لأمر الله :

ماذا أقول إذا الرواة ترنموا ... بفصيح شعرى فى الإمام العادل
واستحسن الفصحاء شأن قصيدة ... لأجل ممدوح وأفصح قائل
وترنحت أعطافهم فكأنما ... فى كل قافية سلافة بابل
ثم اثنوا غب الفريض وصنعه ... يتساءلون عن الندى والنائل
هب يا أمير المؤمنين بأننى ... قس الفصاحة ما جواب السائل ؟

ودخل ابن القطان يوما على الوزير الزينبى ، وعنده الحيص بيص فقال : قد عملت بيتين هما نسيج وحده ، وأنشد :

---

(١) احبنطى : امتلأ غظا .
(٢) مقلولبا : قلقا متجافيا عن محلى .
(٣) أعرنزم : أتجمع وأتقبض .
(٤) أسلنقى : أنبسط على ظهرى .
(٥) القرونة : النفس .
(٦) عاط عاط : زجر للدئب وللخيل وينذر بهما الرقيب أهله إذا رأى جيشا
(٧) اضطراب ومجى ، وذهاب وشر وجلبة .
(٨) هذا الاسم وما تقدمه أسماء أيام الأسبوع فى الجاهلية ، وقد جمعها الشاعر فى قوله

علمت بأن أموت وان موتى ... بأوهد أو باهون أو جبار
أو التالى دبار وإن يفتنى ... فمؤنس أو عروبة أو شيار

فأوهد : الأحد ويقال له : أول ، وأهون الاثنين ، وجبار : الثلاثاء ، ودبار الأربعاء ، ومؤنس : الخميس ، وعروبة : الجمعة ، وشيار ككتاب : السبت
(٩) لا أحيص : لا أعدل ولا أحيد .
(١٠) لا أليص : لا أجبن ولا أضعف .
(١١) ولا أغرندى : لا أعلو ، ولا أسرندى : بمعناها فهى إتباع .

زار الخيال بخيلا مثل مرسله فما شفانى منه الضم والقبل
مازارنى قط إلا كى يوافينى على الرقاد فينفيه ويرتحل

فقال الوزير للحيص بيص : ما تقول فى دعواه هذه ؟ فقال : إن أنشدهما ثانية سمع لهما ثالثا ، فانشدهما . فقال الحيص بيص :

وما درى أن نومى حيلة نصبت لطيفه حين أعيا اليقظة الحيل

وحدث نصر الله بن مجلى قال : رأيت فى المنام على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ، تفتحون مكة فتقولون : من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ثم يتم على ولدك الحسين يوم الطفّ ما تم ؟ فقال : أما سمعت أبيات ابن الصيفى فى هذا ، فقلت : لا ، فقال : اسمعها منه . فلما استيقظت بادرت إلى دار الحيص بيص ، فخرج إلىّ ، فذكرت له الرؤيا ، فأجهش بالبكاء ، وحلف بالله أنه ما سمعها منه أحد ، وأنه نظمها فى ليلته هذه ، ثم أنشدنى :

ملكنا فكان العفو منا سجية فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحللتم قتل الأسارى وطالما غدونا عن الأسرى نعف ونصفح
فحسبكم هذا التفاوت بيننا وكل إناء بالذى فيه ينضح

ومن شعره أيضا :

العين تبدى الذى فى قلب صاحبها من الشناءة أو حب إذا كانا
إنّ البغيض له عين تكشفه لاتستطيع لما فى القلب كتمانا
فالعين تنطق والأفواه صامتة حتى ترى من ضمير القلب تبيانا

وقد ترجم للحيص بيص فى كتاب وفيات الأعيان ، وجاء فى ترجمته مايأتى :

ويقال إنه كان فيه تيه وتعاظم ، وكان لايخاطب أحدا إلا بالكلام الغريب ، وكانت له حوالة بمدينة الحلة ، فتوجه إليها لاستخلاص مبلغها ، وكانت على ضامن الحلقة ، فسير غلامه إليه ، فلم يخرج إليه . وشتم أستاذه ، فشكاه إلى والى الحلة ، وهو يومئذ ضياء الدين مهلهل بن أبى العسكر الجاوانى ، فسير معه بعض غلمان الباب ليساعده ، فلم يقنع أبو الفوارس منه بذلك ، فكتب إليه يعاتبه — وكانت بينهما مودة متقدمة — : ما كنت أظن أن صحبة السنين ومودتها ، يكون

مقدارها فى النفوس هذا المقدار ، بل كنت أظن أن الخميس الجحفل ، لو عرض لى ، لقام بنصرى من آل أبى العسكر حماة غُلب الرقاب ، فكيف بعامل سويقة وضامن حليلة وحليقة ، ويكون جوابى فى شكواى : أن ينفذ إليه مستخدم يعاتبه ، ويأخذ ماقبله من الحق ، لا والله

إن الأسود أسود الغاب همتها يوم الكريهة فى المسلوب لا السلب

وبالله أقسم ، وبنبيه وآل بيته لئن لم تقم لى حرمة ، يتحدث بها نساء الحلة فى أعراسهن ومناجاتهن ، لأقامن وليك بحلتك هذه ، ولو أمسى بالجسر والقناطر ، هبنى خسرت حمر النعم ، أفأخسر أبيتى ؟ واذلاه ! واذلاه ! والسلام .

وكان يلبس زى العرب . ويتقلد سيفا ، فعمل فيه أبو القاسم بن الفضل — وذكر العماد الكاتب فى الخريدة أنها للرئيس على بن الأعرابى الموصلى ، وذكر أنه توفى سنة سبع وأربعين وخمسمائة — :

كم تبادى[1] وكم تطول طرطو رك مافيك شعرة من تميم
فكل الضب واقرص الحنظل اليا بس واشرب ما شئت بول الظليم
ليس ذا وجه من يضيف ولا يقـ ـرى ولا يدفع الأذى عن حريم

فلما بلغت الأبيات أبا الفوارس المذكور عمل :

لاتضع من عظيم قدر وإن كنـ ـت مشارا إليه بالتعظيم
فالشريف الكريم ينقص قدرا بالتعدى على الشريف الكريم
ولع الخمر بالعقول رمى الخمـ ـر بتنجيسها وبالتحريم

وعمل فيه خطيب الحويرة البحيرى :

لسنا وحقك حيص بيـ ـص من الأعارب فى الصميم
ولقـــد كذبت على بحيـ ـر كما كذبت على تمـــيم

وإنما قيل له حيص بيص لأنه رأى الناس يوما فى حركة مزعجة ، وأمر شديد فقال : ماللناس فى حيص بيص ؟ فبقى عليه هذا اللقب ، ومعنى هاتين الكلمتين : الشدة والاختلاط ، ويقول العرب وقع الناس فى حيص بيص : أى فى شدة واختلاط . ودفن فى الجانب الغربى فى مقابر قريش (رحمه الله تعالى) .

عبد الخالق عمر

(١) يريد التظاهر بالبداوة والتشبه بأهلها .

بين الحقيقة والخيال

بقلم الأستاذ عبد اللطيف المغربى
المفتش بوزارة المعارف

- ٢ -

صورة من النقد الأدبى

الوضع وأثره فى الأدب

وشاء ربى أن يشتد الحر حتى كظم الأنفاس أواره ، ولفحت الوجوه سمومه ، فاتخذت طريقى الى شاطىء النيل لأبترد . وأعلل النفس بهبات مختلسة من النسيم يجود بها الجو ، كلما غفت عنه عين الحر قليلا . وجلست على الشاطىء فاتر الهمة ، مجهود النفس ، شارد اللب من الحر ، فلا أنا باليقظ الذى يرصد ما حوله من جمال وبهاء ، ولا بالنائم المستريح مما يكده من جهد وعناء . وأنشدت قول بشار :

ويوم كتنور الإماء سجرنه وأوقدن فيه الجزل حتى تضرما
رميت بنفسى فى أجيج سمومه وبالعيس حتى بض منخرها دما

فما راعنى إلا نبأة أحسستها من النهر ، جمعت لها قواى ، وأرهفت لها سمعى ، وأشخصت بصرى نحو الماء ، فإذا هو يصطفق اصطفاقا شديدا ، ويتكشف عن حوت لطيف المنظر ، يدنو من الشاطىء مسرعا فى غير خوف ولا استحياء ، وكأنه سيف صقيل ، يقطع صفحة النهر المنبسطة فى استواء ، ففزعت لرؤيته ، وجمعت نفسى الشاردة ، وتعلقت بأذيال الفرار ، لا ألوى على شىء ، وإذا صوت أغن رقيق النغم يناديني من ورائى ، فذكرت أنى سمعت هذا الصوت من قبل ، فقرت نفسى ، وزايلنى الفزع ، وغشيتنى السكينة . والتفت ورائى أتبين صاحب الصوت ، فعرفت فيه - وقد استوى بشرا سويا - وجه العصفور صاحبى القديم . فاقبلت إليه محييا ، فحيانى أطيب تحية ، واستقبلنى أجمل استقبال ، وثنى شوقه إلى مجلس تتجاذب فيه أطراف الحديث . ومتع القول والفكر ، وبدهنى بقوله : لقد أعجبنى بيتا بشار وصدقهما فى وصف الحر وشدته . وهما به أشبه : حلاوة منطق ، وقوة سبك

وجزالة ألفاظ ، وقرب محاكاة للبيئة ، وقد التقت فيهما لمع من بداوة الجاهلية ، ونضرة المدنية ، مما يشعرك حقا أن بشارا كان خاتمة الشعراء الإسلاميين ، وزعماء الشعراء المحدثين .

أنا ـ كأنك تتحفظ فى نسبة الشعر والنصوص والأخبار إلى قائليها ، وتقيسها بمقاييس من روح البيان ، وطبيعة الكلام ، وخصائص البيئة ، والملابسات الصحيحة الملائمة لزمان القول ؟

العصفور . هذا حق وهو ما يجب أن يكون وسيلة لتربية ملكة مدربة على نقد الشعر والنثر والأخبار ، لتميز صادقها من كاذبها ، وصحيحها من زائفها ، ولقد كان للوضع أثر شنيع فى العلم والأدب ، فقد غمرهما بكثير من الدخيل ، الذى لا أساس له ، فاختلطت أمور ، وتشابهت حقائق ، وأقحمت نصوص وأخبار نسبت إلى غير أصحابها ، والحفاظ والرواة والمؤلفون يتداولونها أحقاباً طويلة ، بلا بحث ولا تمحيص ، فنجمت عن ذلك أضرار لا يقدرها حق قدرها إلا كل ذى بصر نافذ ، من أهل العلم والأدب .

أنا ـ لقد أثرت أيها الصديق معنى كان يعتلج فى صدرى من قديم ، فهل أنت ذاكر لى كلمة عن أسباب هذا الوضع فى العلم والأدب ؟

العصفور ـ يسرنى أيها الأخ الكريم أن أتحدث إليك فى هذا الموضوع الخطير ، الذى كان له عظيم الأثر فى تضخم العلم والأدب ، بما ساق إليهما من زوائد وروافد ؛ فلعلك تعلم أن العرب كانوا قبائل وشعوبا ، وفيهم من يود فى مقام الفخر ومساماة غيره ، أن ينسب إلى آبائه وأجداده من المكارم والمآثر ، ما يستعين به على الوصول إلى مأربه ، ورمت الأيام الأمة العربية بالانقسام ، فكانت فرقا علوية وعثمانية ، وأموية وعباسية ، وظهرت الشعوبية قوية نشيطة لمقاومة العروبة . وكان لهذه الفرق جميعا أعوانها وأنصارها ، يؤيدون مذاهبها ، ويذيعون فضائلها ، ويكثرون من مثالب غيرها ، وظهرت الفرق الدينية من شيعة ومعتزلة وخوارج وقدرية وغيرهم .

ودخل فى هذه الفرق كثير من غير العرب ممن يحملون صورا وأوهاما من

دياناتهم القديمة ، فوضعوا فى الساحة العربية الإسلامية المطهرة بذورا جديدة لاتمت إلى سماحة الإسلام وطهره ويسره بنسب ، فامتزجت بتعاليمه وليست منه فى شىء . وقد تشعبت هذه الفرق ونمت نموا عظيما ، وتولد بعضها من بعض وغالى بعض رجال هذه الفرق فى الوضع والدس فى الأحاديث والحقائق التى نسبوها إلى الدين مما لايكاد يخطر على بال مسلم ، والواضع فى الدين أحد رجلين : رجل ساذج حسن النية وضع ماوضع وهو يرى فيه تحقيقاً لأحلامه وتصوراته ، ولا يرى فيه غضاضة على الدين ، ورجل ماكر خبيث النزعة شديد الضغن على الإسلام يريد الإفساد فيه ، والتشويه من جماله ، فينسب إليه ماليس منه مما يثير شبهة أو يحرك مطعنا .

وكان قوم من الرواة والحفاظ لهم جرأة وقدرة على الاختراع والابتكار كخلف الأحمر ، وحماد الرواية ، ومن على شاكلتهما ، وهؤلاء أحبوا أن يظهروا بالتزيد فى الأدب ، والوقوف على مالم يقف عليه غيرهم . وكانت الحالة الاجتماعية وانتشار مجالس الانس والسمر وشيوع الترف وميل الملوك والأمراء إلى التفكه والتنادر ، مما دعا إلى كثرة القصاص الذين أسرفوا فى الابتكار والاختراع ، وكان من وراء هذه الفوضى فى الوضع أن أصيب كثير من عظماء الأمة العربية والدولة الاسلامية بنسبة أمور إليهم تأباها المروءة والشرف العربى وجلال المكانة . ويعلم الله أنهم منها أبرياء .

أنا — إنى لشاكر لك هذه الجولة الصادقة فى بيان أسباب الوضع فهل لك أن تتكرم وتعرض علىّ بعض صور من الوضع فى الأدب وتعرض على أدلة وضعها ؟

العصفور — إن الوضع فى الأدب ياسيدى كثير جدا ، وهو أخصب نواحى الوضع وأحفلها ومن حقك على أن أسوق اليك بعض أنواع منه : —

١ — ذكر صاحب الأغانى أن الوليد بن يزيد اشتاق يوما الى معبد المغنى المعروف بالمدينة ، فبعث اليه فلما حضر أمر ببركة بين يدى مجلسه فملئت ماء ورد وقد خلط بمسك وزعفران — وفى رواية ملئت ماء وخمرا — ثم فرش

للوليد فى داخل البيت على حافة البركة ، وبسط لمعبد مقابله على حافة البركة ، وجاء فسلم على أمير المؤمنين ، فرد عليه السلام ، وقال له : أتدرى لم وجهت إليك ؟ قال الله أعلم وأمير المؤمنين ، قال : ذكرتك فأحببت أن أسمع منك ، قال معبد أؤغنى ما حضر ، أم يقترح أمير المؤمنين ؟ قال بل غنى :

مازال يعدو عليهم ريب دهرهم حتى تفانوا وريب الدهر عدّاء

فما فرغ منه معبد حتى رفع الجوارى السجف ، وخرج الوليد فألقى بنفسه فى البركة . ثم غاص فيها ، وخرج منها ، فاستقبلته الجوارى بثياب غير الثياب الأولى ثم شرب وسقى معبدا وقال له غنى :

ياربع مالك لاتجيب متيما قد عاج نحوك زائرا ومسلما
جادتك كل سحابة هطالة حتى ترى عن زهرة متبسما
لو كنت تدرى من رعاك أجبته وبكيت من حرق عليه ـ إذاً ـ دما

فغناه ورفعت الجوارى السجف ، وخرج الوليد فألقى بنفسه فى البركة ، فغاص فيها وخرج ، ولبس ثيابا أخرى ، ثم شرب وسقى معبدا ، ثم قال له : غنى :

عَجِبتْ لمـــا رأتنى أندب الربع المحيلا
واقفا فى الواد أبكى لا أرى إلا الطلولا
كيف تبكى لأناس لا يملّون الذميـــلا
كلما قلت اطمأنت دارهم قالوا الرحيلا

فألقى الوليد بنفسه فى البركة وشرب ، وسقى معبدا ، وقال له : من أراد أن يزداد عند الملوك حظوة فليكتم أسرارهم ، فقال : ذلك ما لا يحتاج أمير المؤمنين إلى إيصائى به ، فأمر له بجائزة .

وللوضع فى هذه القصة مجال كبير ، فقد رويت على صورتين : إحداهما مختصرة قطعها الشعرية ثنتان ، والأخرى مطولة قطعها ثلاث ، واختلفت أسماء الرواة ، وتضاربت الأقوال فيما ملئت به البركة ، وهو على رواية ، خمر ممزوجة بالماء ، وأن الوليد حين كان يرمى بنفسه فى البركة يعب منها ليسكر ويطرب ، وإنا لنترفع بأمير المؤمنين الوليد بن يزيد عن مثل هذه الأعمال ، التى تفوقها أعمال الصبيان

سموا ورزانة ، ولا يقدح فى قولنا أنه كان مسرفا فى لهوه ، مستهترا ؛ لأن ذلك الإسراف إنما يكون بالقياس إلى حالة عصره . وهو فى جملته عصر صلاح واعتدال . وما الذى كان يضطر الوليد إلى هذا العبث الشائن أمام معبد ، ثم يعود يستعطفه و يوصيه بكتمان ما رأى ، وهو أمير المؤمنين له جلال مركزه ، وعيون رعيته ترقبه .

ومهما يكن من أمره فإنه لا يستطيع إهمال ما يجب أن يتحلى به من الاتزان والرجولة . ولو فى ظاهر الأمر تقديراً لموضعه من الخلافة والأمة الاسلامية القريبة العهد من عصر الخلفاء الراشدين ، ومن روح الإسلام القوية ، وسلطانه على النفوس . وإذا أجريت الأمور على نواميس التدرج والارتقاء ، وعلمنا أن مثل هذا لم يقع فى العصر العباسى ، عصر الحرية والتطرف فى اللهو والمتعة ، كان من الحتم ألا نصدق وقوع ذلك فى العصر الأموى السابق عليه . إلا إذا انقلبت الحقائق وتبدلت طبائع الأمور ، وأصبحت تبدأ كبيره ، وتنتهى صغيرة ، وهذا ما يصدف عن قبوله العقل . وقد يكون للعداء بين الأمويين والعباسيين أثر فى صوغ هذه القصة ، وقد انفرد بروايتها أبو الفرج الأصبهانى المؤلف العباسى .

والذى نسلم به ولا يأباه العقل ورود معبد على الوليد ، وغناؤه له بأية صورة كانت ، أما بهذا الشعر الذى اختلف فى إيراده الرواة ، وعلى هذه الصورة الغريبة من العبث ، فمما لا نسلم به ونجزم بأنه موضوع .

٢ — وذكروا أن المأمون العباسى جلس يوما للمظالم . فدخلت عليه امرأة عليها هيئة السفر . وثيابها رثة فقالت :

يا خير منتصف يهدى له الرشد ... ويا إماما به قد أشرق البلد
تشكو إليك عميد القوم أرملة ... عدا عليها فلم يترك لها سبد
وابتز منى ضياعى بعد منعتها ... ظلما وفرق منى الأهل والولد

فأطرق المأمون حينا ، ثم رفع رأسه إليها وهو يقول :

فى دون ما قلت زال الصبر والجلد ... عنى وأقرح منى القلب والكبد
هذا أوان صلاة العصر فانصرفى ... وأحضرى الخصم فى اليوم الذى أعد
والمجلس السبت إن يقض الجلوس لنا ... ننصفك منه ، وإلا المجلس الأحد

وأنصفها المأمون . فهل ترى بعد ذلك مثارا للدهشة ومدعاة إلى الضحك ؟: امرأة تدخل على خليفة فى مجلس المظالم ، فتنشده شعراً يصور قضيتها ، فيجيبها الخليفة بمثل قولها من الشعر لوقته — على حين أن ذلك مطلب يصعب على فحول الشعراء إن هم حاولوه فى كثير من الأحيان ، وطالما منوا بالإخفاق فى محاولته — وليس المقام مقام مفاكهة ومداعبة ، فذلك أولى بمسارح التمثيل ، ومواقف الطنز والمجون ، لا بمجالس القضاء ، ومنازل الخلفاء .

ونعود إلى الشعر نفسه نعرضه على قوانين الفن ، ودواعى الذوق ، وروح العصر ، فنراه شعرا مسفا يضطرب ، فى ركة وضعف ، وسوء تكلف ، ولا يلائم روح العصر العباسى ، ولا طلاوة القول فيه — وعجيب أن ترى فى هذا الشعر الفعل مبنيا للمعلوم ، ثم ترى الفعل بعده محولا للمجهول بلا داع ولا حكمة بلاغية ، مثل « عدا عليها فلم يترك لها سبد » ومثل « وابتزمنى ضياعى ، وفرق منى الأهل والولد » وما ذلك إلا أثر ضعف وعجز عن بلوغ الأكمل والأجمل من أساليب الكلام العالى ؛ وكم فى قول المأمون « فرضا » « فى دون ماقلت زال الصبر والجلد » من عجب . فعظيم من المأمون ـ رب السيف والقلم . ومدبر الدولة الإسلامية الكبرى ، التى ترجف لسلطانها قلوب الدول إذ ذاك — أن يظهر جزعه ونزعه وزوال صبره وجلده لحادث يسير كهذا ، وهو الرجل القوى الجلد ، الذى طالما خاض غمار الحروب ، وقاسى الشدائد والأهوال ، ولاقى فتنا كقطع الليل مظلمة ، فلم تعرف فيه رقة القلب ، ولا خور العزيمة ، وفى قوله « والمجلس السبت . . وإلا المجلس الأحد » ضعف وفتور .

وبعد ، ألست ترى معى أن القطعتين من طراز واحد لاتحاد خصائصهما فى الضعف والتعمل ، واضطراب الأساليب ، وتعادل القوة الشعرية فيهما ، فلهذا وما سبقه لايخامرنى شك فى أن هذه القصة منتحلة ، وقائل القطعتين بلاريب واحد ، ومن العجيب أن يفوت هذا التمحيص عالما جليلا كابن عبد ربه ، الأديب العالم الظريف ، فيروى هذه القصة فى عقده ، ولا يعلق عليها بكلمة واحدة يظهر بها عدم ارتياحه إلى صحتها ؛ ولكن إذا عرفت أن مؤلفينا القدماء كان همهم الجمع لتربو كتبهم ، عرفت السر فى موقف ابن عبد ربه من هذه القصة .

٣ — ونعرض عليك قصة يصيح الوضع من نواحيها ؛ لأنه واضح مكشوف وهى كما رواها ابن الجوزى فى كتابه « الأذكياء » تلخص فى أن فتى كان يهوى جارية ، وكان زوجها مزمعاً سفراً بعد يوم أو يومين ، فأرسل الفتى إليها غلاما ينشدها :

لحى الله من يلحى على الحب أهله ومن يمنع النفس اللجوج هواها

ففهمت الجارية فقالت :

ألا إنما بين التفرق ليلة وتعطى نفوس العاشقين مناها

فسمعت أمها فقالت :

ألا إنا تعنون ناقة رحلكم فمن كان ذا نوق لديه رعاها

فسمع الأب فقال :

فإنا سنرعاها ونوثق قيدها ونطرد عنها الوحش حين أتاها

ففهم الزوج فقال :

سمعت الذى قلتم فأنا مُطلق فتاتكم مهجورة لبلاها

قد نسلم أن الفتى شاعر ، فهل من الضرورى أن تكون الفتاة شاعرة أيضا ؟ وهل من الحكمة والعفة أن ترفع عقيرتها ببيت من الشعر ، تظهر فيه أملها المنكر فى غير حياء ولا وجل ؟ والحياء أعز شىء تحرص عليه المرأة . ومن المصادفة العريضة المرنة أن يكون أبوها وزوجها وأمها شعراء أيضا ، وليس بمعقول أن تكون إجابة أبيها وأمها بصوت مسموع ، وببيتين من الشعر يسجلان فيهما على ابنتهما هذا العار ، فيأنف من ذلك كله الزوج ويطلق الفتاة .

وإن هذا الترتيب فى أجزاء القصة ـ بأن يبدأ الفتى الواله ثم الجارية فأمها فأبوها فزوجها ، وينتظر كل منهما الآخر فلا يسبقه فى القول ، ويجعل كلامه مرتبا على كلام سابق — لترتيب روائى محض ، ولماذا لم يسمع الزوج قبل الأب فيجيب ؟ أو الأب قبل الأم فيجيب ؟ ألا إن ذلك كله سلسلة مصادفات أحكمها الوضع ، ورتبها القصد ، وفوق هذا تجد الأبيات كلها متشابهة فى قوة النسج والصناعة والمنزلة الشعرية ، فهى فى نظرى ثمرات للسان واحد مصنف .

٤ — ولقد كانوا يضعون الأبيات من الشعر للاستدلال على قاعدة نحوية — فقد قالوا إن أبا يحيى اللاحقى سأله سيبويه يوما : هل تعدّى العرب « فَعِلاً » ؟ وهو من صيغ المبالغة فوضع له البيت الآتى :

حذرٌ أموراً لا تضير وآمن ما ليس منجيه من الأقدار

ونسبه إلى العرب وأثبته سيبويه فى كتابه — وما دفع أبا يحيى إلّا حبه فى الظهور بمظهر العالم الواسع الإلمام العظيم الحفظ الذى لا يفوته شىء من تراث العرب . ومن هذا الباب ما يروى : من أن حمادا الراوية والمفضل الضبى اجتمعا عند المهدى فقال للمفضل : إنى رأيت زهيراً افتتح قصيدته بقوله :

دع ذا وعد القول فى هرم خير البداة وسيد الحضر

ولم يتقدم قبل ذلك قول . فما الذى أمر نفسه بتركه ؟ فقال المفضل ماسمعت فى هذا شيئا — إلا أنى توهمته كان فى قول يقوله ، أو كان يفكر فى شىء من شأنه فتركه وقال : « دع ذا . . . أى دع ما أنت فيه من الفكر وعد القول فى هرم

فسأل المهدى حمادا فقال : ليس هذا قال زهير : يا أمير المؤمنين . قال كيف قال ؟ فأنشده ثلاثة أبيات زعمها مطلع القصيدة وهى :

لمن الديار بقنة الحجر أقوين مذ حجج ومذ دهر
لعب الرياح بها وغيرها بَعدى سوا فى المور والقطر
قفر يمندفع النجائب من مضوى أولات الضال والسدر

فعجب المهدى وسأل المفضل عن هذه الزيادة فأنكرها ، فداخل المهدى الريب فى صحتها . فما زال بحماد حتى اعترف بأن الزيادة من وضعه ، وليست من قول زهير فرضى المهدى عن الضبى وزادت ثقته به وعرف الجرأة فى حماد على الوضع ؛ ولهذا فرق بينهما فى الصلة ، فجعل صلة المفضل العليا ، وصلة حماد الدنيا ، تقديرا لمنزلة الرجلين فى الرواية .

٥ — وأسوق اليك قصة عجيبة الصنعة يرفعون نسبها إلى عبد الله بن المبارك المحدث الورع المشهور قال : خرجت حاجا إلى بيت الله الحرام وزيارة

قبر نبيه عليه الصلاة والسلام . فبينا أنا فى بعض الطريق إذ أنا بسواد فتميزت ذلك، فاذا هى عجوز عليها درع وخمار من صوف ، فقلت: السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقالت : « سلام قولا من رب رحيم » فقلت لها : يرحمك الله ، ما تصنعين فى هذا المكان ؟ قالت : « ومن يضلل الله فلا هادى له » فعلمت أنها ضالة عن الطريق . فقلت لها أين تريدين ؟ قالت : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » فعلمت أنها قضت حجها وهى تريد بيت المقدس . فقلت لها : أنت منذ كم فى هذا الموضع؟ قالت: « ثلاث ليال سويا » فقلت : ما أرى معك طعاما تأكلين. قالت: « هو يطعمنى ويسقين » قلت فبأى شىء تتوضئين ؟ قالت « فإن لم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا » قلت لها: إن معى طعاما فهل لك فى الأكل قالت « ثم أتموا الصيام إلى الليل » قلت : ليس هذا بشهر رمضان . قالت : « ومن تطوع خيرا فان الله شاكر عليم » وهكذا يسير النظام فى هذه القصة على هذا النسق الغريب من وضع أسئلة يختارها الواضع كما يشاء « ويجعل أجوبتها من كلام الله جل شأنه .

وصوغ القصة على هذ الصورة يدل على فطنة واضعها ، وأنه صرف وقتا طويلا ليلائم بين أسئلتها وأجوبتها ، وليس من المعقول مطلقا ان تجيب هذه المرأة عن الأسئلة الموجهة اليها بآيات من القرآن الكريم مهما تكن مجيدة لحفظه ، وإنا لنحفظ القرآن الكريم ولو وجه إلينا سؤال على أن نأتى له بجواب من القرآن لتريثنا طويلا وأطلنا التفكير وقد نوفق أو لا نوفق . فكيف تجيب هذه المرأة على هذه الأسئلة الكثيرة تباعا فى أوقات متلاحقة عفو الخاطر والبديهة ؟

لهذا كله نثق بأن هذه القصة لم تقع بين عبد الله بن المبارك والمرأة ، وهى من صنع مؤلف صرف وقتا طويلا لإخراجها على هذه الصورة وقد نسبها إلى عبد الله بن المبارك لتروج وتقع المناسبة بينه وبين موضوعها ، وهو الرجل الصالح المعروف .

أنا — لقد سرنى هذا العرض للحقائق ونقدها نقداً دقيقاً صحيحاً قائما على الدليل الحسى والنفسى مما لا يدع مجالا للريب — وسيكون لذلك أحسن الأثر

فى نفسى فأهتدى إلى تمييز الحقائق وقياسها بمقياس المنطق وتطبيقها على أصول الذوق والعرف والسعادة . فجزاك الله عنى خير الجزاء

وهل يرى صديقى أن الوضع فى جميع حالاته شر

العصفور — إنى لا أرى الوضع فى الأدب شرا ؛ لأنه خصب له وتنمية فيه ، فهو من حيث موضوعه مقبول ، ولكنى أذمه من حيث نسبته إلى أناس غير قائليه لما فى ذلك من عدوان على الحق ، ولما فيه من خلط وإفساد ، ولأن هذه النسبة قد لا تشرف المنسوب إليهم لما فيها من أمور تشين سمعتهم ، وتقدح فى كرامتهم ، كما نرى فى كتب الأدب من قصص وأخبار — أما الوضع فى العلم والدين فهو شر محض لأنه مفسد للحقائق ، وقد يحل حراماً أو يحرم حلالا ، وما هو إلا ضرب من الهدم الشنيع ، ولهذا أمقت الوضاعين فى هذه الناحية مقتاً عظيما ، وعليهم وزرهم يوم يوفى الله الظالمين حسابهم .

أنا — ماأطيب هذا اليوم وأسعده ! لقد حببته إلى على مابه من حر وعنت ، بما أسديت إلىّ من فوائد قيمة وبما رسمت لى من طريق واضحة إلى تذوق الأدب ونقده .

العصفور — شكرا لك أيها الأخ الكريم فما ذلك إلا قبسة من ضوء فضلك ، وغرفة من بحر أدبك ، وإنى لأطرب إلى لقائك وأهش إلى حديثك ، فلا تسرف فى الندى ، ثم انتفض انتفاضة عاد على أثرها صوتا فاتخذ سبيله فى البحر سربا .

عبد اللطيف المغربى

الفصحى وكيف نشد أزرها

بقلم على النجدى ناصف
مفتش المعارف بالإسكندرية

لغة الأمة سجل حياتها ، الجامع لعلومها وفنونها ، وترجمانها المعبر عن آمالها وعواطفها ؛ فلا جرم أن تعنى الأمم الحية بلغاتها ، كما تعنى بأجل مرافقها شأنا ، وأكثرها عائدة . فلا تزال تتعهدها بما يكفل لها اطراد الحياة والنمو ، وييسر للناس أسباب حذقها ، واجتلاء نفائسها ، ويجعلها مرنة طيعة : تجارى العصر ، وتفى بجميع مطالب التعبير . ثم هى بعد لا تدخر حولا ولا حيلة لنشرها فى الناس على اختلاف أجناسهم ، فإن فى ذلك نشرا لثقافتها ، وعونا على تغليب صبغتها ، وتقريب شقة التقاطع بينها وبين غيرها ، وكسب أعوان و مريدين فى شتى الأرجاء ، يكون لكل جمهرة منهم ما للرأى العام من القوة والتأثير .

وعلى قدر نصيب الأمة من ذلك يكون نصيبها من أسباب النجاح فى الحياة فإن الثقافة صلة مرعية ، تربط المتخرجين فيها برباط محكم . وإن اختلفت أممهم وأجناسهم ، حتى لقد يعد الأجانب منهم — الأمة التى تزودوا بثقافتها أمة لهم أخرى ، ويعدون بلادها وطنهم الفكرى الذى يغذو عقولهم ، ويمتع نفوسهم ، ويوجه تفكيرهم ، ويطبع أذواقهم بطابعه . وهل هذا الذى نشهده فى مصر بعض الأحيان من الانحياز والتعصب ، أو المنازعة والخلاف على الثقافتين الإنجليزية والفرنسية إلا أثر لشيوع الثقافتين بيننا ، وإعجاب كل امرىء بالثقافة التى أتيحت له منهما ؟ أم هل هذا الذى نراه فى فريق منا من الشعوبية الغالية فى التعصب على العرب والعربية ، العاملة على الإزراء بهما ، وإرجاع كل مزية فيهما إلى أصل أجنبى صدرت عنه ، أو اقتبست منه ، إن حقا وإن باطلا — هل هذا كله إلا نتاج ما أسلفنا ، وظاهرة من ظواهره ؟

وللعربية سبب آخر يجعل العنايه بها أوجب وألزم : أنها لغة الدين الحنيف والقرآن الكريم ، تؤدى بها بعض المناسك ، ولا سبيل إلى استنباط الأحكام ،

وتفهم أسرار التنزيل وإدراك إعجازه إلا بها . لهذا بقيت بحمد الله إلى اليوم صلة كريمة تربط الخلف بالسلف ، على تقادم العهد ، وواشجة موصولة بين أمم المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها . فنحن اليوم نفهم السابقين الأولين من الأدباء والمؤلفين كما نفهم أمثالهم الذين يعيشون بين أظهرنا ، لحرص القوم فى كل عصر على سلامة اللغة ، ومنع الهجين أن يداخل الخالص ، ويتزيا بزيه ، ويجرى مجراه إلا نادرا جدا فالعربية أمانة يجب أن نرعاها حق رعايتها ، وأن نورثها أبناءنا كما ورثناها نقية خالصة ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

فإذا كان من أسباب نمو اللغات الأجنبية تقارض الألفاظ ، وتقبل المصطلحات ، أيا كان نسبها فإن هذا السبب على إطلاقه غير سائغ ولا مقبول فى تنمية العربية ألبتة . ولعله الآن أشد ما يكون استحقاقاً للمجانبة والنفى ، أن كان العصر عصر الكشف والمخترعات المتلاحقة فى العلوم والفنون والصناعات ، وحظنا من ذلك لا يذكر إلى جانب حظوظ الأمم الأجنبية منه . فإذا نحن فتحنا باب الاستعارة والقرض - نسلت إلينا العجمة من كل حدب ، ودخلت علينا من كل باب ، وصرنا مع الزمن إلى رطانة شوهاء ممسوخة لا عربية ولا أعجمية . وهنالك تنقطع الصلة بالدين ، ويستغلق فهم مصادره ، ويتدابر الماضى والحاضر ، فإذا نحن أمة بلا لغة ولا دين ولا ماض مفهوم ، نعوذ بالله من ذلك ، ونسأله سبحانه السلامة والعصمة .

لذلك جاء قرار المجمع اللغوى فى هذا الصدد حكيما غاية الحكمة ، سديداً السداد كله .

أما دعاة الإباحية فى اللغة فدأبهم فى هذا الموقف كدأبهم فى المواقف الأخرى ، يظنون التجديد الذى يتشدقون به - إنما هو تعدى الحدود القائمة ، وانتهاك الحرم المصونة فى غير وعى ولا نظر إلى العواقب . وماذا يعنيهم إذا اندفعت العجمة سيلا جائحا يكتسح ما يكتسح . ويفلت منه ما يفلت ، ما دام فى هذا وحده فكاكهم من معاناة التحصيل ، وتخلصهم من معرة الجهالة والفتور ؟ وإذا لم يكن هذا هو داءهم الذى يزين لهم ما يدعون إليه من خطل . فماذا عسى أن

يكون ؟ أتراهم يريدون عن عمد تغليب الأعجمية على العربية ، كما غلبت الصبغة الغربية على بعض مقوماتنا ، وتريد أن تلتهم بعضنا الآخر لنكون فى الناس مسخا غريبا . لاشخصية له ولا نظير ؟ أم تراهم يريدون خير اللغة ، وأن تكون وافية بحاجة العصر وما يجد فيه ؟ إن كان هذا مرادهم - وهو مايزعمون فيما نرجح - فهاهم أولاء علماء العربية وسدنتها المنقطعون لتحصيلها وخدمتها ، قد كفلوا أن يبلغوا بها هذا المبلغ مستغنين بأغلاقها المكنوزة ، ونفائسها المجفوة المهجورة عن الاستعارة والقرض ما أمكنهم الاستغناء غير ضانين بمجهود ، ولا مبالين عنتا ولا رهقا .

وهذه مجلة المجمع ، وما يشابهها من المصنفات التى تقدمتها — تزخر بنتائج بحثهم وتقصيهم ، وتشهد بوفرة مادة اللغة ، واتساع فجاجها ، فليهنئوا إذاً كما هنىء غيرهم بما يزجى إليهم عربيا خالصا ، لا هجنة فيه ولا دخل . وما أظن إلا نهم موافق على أن الرجل الذى لا يستنكف من القرض ، وهو قادر ببعض الجهد أن يستغنى ، يكون امرأ تكلة ، ضعيف الهمة ، قليل الاعتداد بالكرامة والعزة .

***

إن فى البلاد اليوم - ولامراء - نهضة فكرية مباركة ، تبدو دلائلها فى كثير : تبعدو فى المجمع اللغوى وبحوثه المستفيضة ، وتحقيقاته الممتعة ، وقراراته الحكيمة المنتجة ، وتبدو فى هذه المؤلفات القيمة وفى الصحف والمجلات الجدية ، بما تتناول من الموضوعات الجليلة ، وتنشىء من المقالات والبحوث فى شتى النواحى : بحثا ، وتحليلا ، ونقدا ، وفى المعاهد العلمية والدينية وإصلاحها مناهجها وتقويم خطط الدراسة فيها ، وكثرة من تخرج من العلماء والأدباء ، وفى هذا التعاون الكريم على بعث مصادر الأدب والتاريخ ، وإخراجها فى صورة جذابة شائقة ، توافق روح العصر ، وتساير النهضة ، بما يجتمع فيها من أناقة الطبع ، وصحة الضبط ، وتيسير الافادة ، وفى فرقة التمثيل القومية ، بما تتخير من الروايات ذات الشأن ، وما تلتزم فى لغتها من صحة البيان ، وفصاحة المنطق محاورة وإلقاء .

نعم تبدو النهضة الفكرية فى ذلك كله وفى غيره ، لكنها على تهيئها وتمشى الحياة فيها ، تحتجن الانتفاع ببعض ثمارها من ناحية . ويخالطها بعض شوائب

مستكرهة من ناحية أخرى ، فمن الخير أن نعمل على إشاعة الانتفاع بالأولى ما أمكننا العمل ، وأن نسل من الاخرى شوائبها فى غير هوادة ولا إبطاء ؛ فانما هى بوادر التشكى تظهر فى بيئة الحى أول أمرها واهنة غير بادية الأثر ، ثم تصير بالإغضاء وقلة الاكتراث مرضا يخشى شره وربما استعصى علاجه .

فهذه الألفاظ والمصطلحات التى يستبدل بها مجمع اللغة ألفاظا ومصطلحات أخرى حديثة ، يجب أن يتداولها الاستعمال ، وأن تتبوأ أمكنتها فى لغة الدواوين ومصالح الحكومة ، وفى الترجمة وكتابة الصحف ، وكتب الدراسة وإنشاء الطلاب ، حتى تدب فيها الحياة ، وينفسح لها المجال . فتذهب فى شتى المطالب كل مذهب ، وتجول هنا وهناك ، فتسيغها الأذواق ، وتألفها الآذان ، وتزكو بها اللغة . أما أن يعمل المجمع ويبحث ، لتدون نتائج أعماله وبحثه فى المجلة وكفى ، فإضاعة لجهوده ، وصد عن أداء رسالته . وما أشبه الكلمات والمصطلحات التى يقرها حينئذ بالجنين يولد ميتاً ، أو يوأد قبل أن يعمل فى الحياة عملا ، أو يخلف فيها أثرا . وجدير بحضرات المدرسين - مهما تكن العلوم التى يعلمونها - أن يثيروا فى التلاميذ عاطفة الاعتزاز بقوميتهم ولغتهم ، وأن يكونوا قدوتهم الصالحة فى مجانبة العامية ، والتزام الفصيحة فى الحوار والالقاء ، ما أمكن ذلك ، ليعتادوها قولا واستماعا .

أما ما يجب أن تخلص النهضة من شوائبه ، ونعمل متعاونين على تطهير اللغة منه ، فاللغة العامية . نعم ، فلا يزال لها فينا أنصار ينعبون بها ، ولا يستحيون أن يجهروا باصطناعها ، حتى فى المواقف الجليلة ، التى يجب فى شرعة الذوق والكياسة أن تنزه عنها . أولئك هم كتاب الأدب الماجن وممثلوه ، والمتصدرون لخطاب الناس بالوحى ، من المتظرفين .

ولا ندرى ماذا على أولئك الكتاب والممثلين لو بدلوا بعاميتهم المبتذلة عربية شريفة لا عجمة فيها ولا عوج ؛ إيثارا للخير العام ، وتساميا بالدهماء إلى الفصيحة ؟ إنهم لجديرون أن يرعوا فى أعمالهم خير أمتهم وبلادهم ، كما يرعون فيها خير أنفسهم ، فلا يقفون مواهبهم وجهودهم على تملق الدهماء وإرضاء نوازى

التبطل والاستهتار فى نفوس الخلين والمجان . هم جديرون أن يذكروا فى كتابتهم وتمثيلهم أنهم إنما ينزلون من جمهورهم بمنزلة المعلمين من التلاميذ ، فليتقوا الله إذاً فى تلاميذهم ، وليجعلوا الغاية التى يسعون اليها نصب أعينهم هى التثقيف والتهذيب والدعوة إلى الخير والرشاد .

وإذا كان هذا النمط من الأدب الفكاهى لا يقع أول الأمر من المتفرجين بموقع القبول والاستحسان ؛ لاعتيادهم النكتة اللفظية تهزهم هزا عنيفا ، وتأخذهم بالطرب والإضحاك أخذاً شديدا - فإنهم بالرياضة وطول التمرس حقيقون أن يألفوه ، ويسكنوا إليه . على أن فى مفارقات الوقائع وصور الأخيلة الهزلية العابثة غناء عن هذا وعوضا منه .

أما السادة المتظرفون ، من المتصدرين للمحاضرة أمام المذياع - فلا أدرى والله مالهم لا يريدون أن يعلم الناس عنهم أنهم أصحاب ذوق سليم ، يحسنون التفرقة بين المواقف المختلفة ، ويعلمون أن لكل مقام مقالا ، وأن العامية إذا خفت على السمع ، وساغت فى الذوق لغة للتخاطب والتفاهم فى الأسواق مثلا ، فانها فى مواقف الخطابة والتصدى للمحاضرة لتثقل على السمع جداً ، وينفر منها الذوق السليم أشد النفور . وما مثل هؤلاء فى هذه المواقف ، إلا كمثل الرجل يتوقر فى أسبابه ، ويوهم الناس بظاهر حاله أنه متصون محتشم ، يحاول جدا من الأمر ، حتى إذا اجتمعوا له ، وهيئوا أنفسهم لما يأتيهم به ، واستوى هو فى مكانه ، راح يرميهم بالهزل القبيح . ويأخذهم من حيث لا يحتسبون بالسخف والابتذال ، بل ربما كان فى هذه المباغتة ما يخطىء أصحابنا المتحدثين بالوحى من بعث الانبساط ، وإثارة الضحك والارتياح فى السامعين .

ويدخل فى زمرة هؤلاء فريق آخر ، يتحدث بالعربية الصحيحة المبنى والعبارة المحرفة الشكل والاعراب ، فيصك الآذان صكا شديدا بلحنه واعوجاج منطقه . ولا أدرى ماذا على هؤلاء لو التمسوا صلاح أحاديثهم واستقامة لغتها عند أهل المعرفة باللغة ، والبصر بصحيحها ومحرفها ؟ أهم يظنون المسألة كلاما وكفى ، كيفما

كان ، وعلى أى حال تهيأ لهم ؟ أم أنهم يخجلون من طلب الخلاص من هذه المعرة عند بعض الناس ، ولا يخجلون من إعلانها على رءوس الأشهاد ؟

والأغانى كذلك بحاجة إلى الإصلاح معنى ولفظا ، فقد أصبحت لا تلائم عصرنا ، ولا تتفق مع نهضتنا الحاضرة ، لأنها فى الغالب رخوة متهتكة . لا تصدر عن نفس جادة أيدة ، تجانس العصر ، وتستطيع الاضطلاع بأثقال الحياة الحاضرة . ولغتها قل أن تبرأ من العامية ، بل العامية السمجة الوقاح .

إنها يجب أن تكون كلها شعرا رقيق العبارة ، سهل المأخذ ، خفيف الوزن ينظمه شعراؤنا المطبوعون ، الذين مرنوا على علاج هذا النوع ، وألفوا اصطناعه ، وهم بحمد الله غير قليل . فهذا اللون من الأغانى جذاب الموسيقا ، هين التطريب ، مطاوع التوقيع ، شديد الأسر . وهو فوق ذلك عون على إذاعة الفصيحة ، ورواج سوقها .

ومن منا لا يشيع فيه الطرب ليس أبلغ منه حين يسمع : مالى فتنت بلحظك ، أو : أفديه إن حفظ الهوى ، أو نحوهما من الأغانى الشعرية الراقية ؟ .

على النجدى ناصف

خالد بن الوليد

نسبه ونشأته

بقلم على على عنيبة
المدرس بمحمد على الأميرية للبنين

خالد بن الوليد بطل من أبطال الاسلام ، وقائد عظيم من قواد الحرب المحنكين وسيف من سيوف الله . أبوه الوليد بن المغيرة سيد قريش وعظيمها فى الجاهلية ، والملقب بينهم بالعِدل ؛ لأن قريشا جميعها كانت تكسو الكعبة سنة ويكسوها وحده من ماله سنة . ولعظيم مكانته فى قومه ، وشدة معارضته للنبى صلى الله عليه وسلم ، فى بدء الدعوة أنزل الله فيه كثيرا من آيات القرآن الكريم: فقد كان الوليد كثير الكيد للنبى ، شديد العناد ألد الخصام ؛ فقال تعالى متوعدا أشد وعيد ، مهددا أعظم تهديد : « ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لآياتنا عنيدا » . وقال الوليد مستكبرا متعاليا : أينزل القرآن على محمد ، وأترك وأنا كبير قريش ، ويترك أبو مسعود الثقفى سيد ثقيف ؛ فأنزل الله قوله تعالى: « وقالوا لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أهم يقسمون رحمة ربك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات »

من ذلك تعلمون أن خالدا درج فى بيت عز ومجد ، وشرف وسيادة ، ونشأ كما ينشأ العرب إذ ذاك محبا للحرب ، عليما بفنونها مشغوفا بالفروسية يركب الخيل ، ويجيد ضرب السيوف ، وطعن الرماح ، ورمى السهام ، فلم يكد ينزع رداء الطفولة حتى كان سيداً فى قومه ، شجاعا مقداما ، نافذ العقل ، سديد الرأى ، جرىء القلب ، ذكى الفؤاد ، فالقوا إليه بأعنة الخيل ، وكان فى الحرب قائد الفرسان .

وقد ظهرت صفاته العظيمة ، ويقظته وذكاؤه ، ومكره ودهاؤه فى غزوة حد : فلم يكد رماة المسلمين يتركون مواقفهم التى أمروا بها ، حتى كر خالد

بخيله على المسلمين من خلفهم ، فبدل نصرهم هزيمة منكرة ، ورزءا عظيما ، ولولا أن الله سبحانه مؤيد نبيه ، وحافظ دينه ، لكانت هذه المكيدة القاضية على الاسلام والمسلمين . ولهذه الصفات سر النبي بإسلامه سرورا عظيما ، واستقبله بوجه طلق ، وثغر باسم ، وقال له : الحمد لله الذى هداك ، قد كنت أرى لك عقلا ورجوت ألا يسلمك إلا لخير .

مظاهر عظمته وأسرار انتصاره

وكأنى بكم تسألون ماسر عظمته ، وما الأسباب التى هيأت ذلك النصر المطرد ، والفوز المبين ؟

للعظمة أسرار وأسباب ، بعضها ظاهر جلى . وبعضها مستتر خفى أما الأسباب المستترة فغاية مايقول الناس عنها : إن فلانا موهوب . وأن له روحا قوية ، وقوة خفية . تجعله مهيب الطلعة ، جليل القدر ، قوى التأثير فى نفوس الجماهير .

وأما الأسباب الظاهرة فتتجلى فى خلق متين ، أو رأى حكيم ، أو شجاعة وإقدام ، أو فصاحة وبيان ، وقد كان خالد بن الوليد عظيما موفور الحظ من أسباب العظمة وأسرارها . وكان قائدا لم يظفر العالم بكثير من أمثاله ، وستلمسون أسباب عظمته ، وأسرار فوزه وانتصاره من الأمور الآتية :

أولا : كان خالد مخوفا مرهوبا ، يسبقه إلى أعدائه جيش من الرعب . فاذا قلوبهم فى جناح طائر من شدة الخفقان ، علم بمقدمه هرقل ملك الروم فقال : ويل للروم من المولود المشئوم ، وقال أحد قواد الملك : أنا أعلم الناس بحاله ، لا أحد أيمن طائرا منه ، ولا أحد فى حرب ، ولا يرى وجه خالد قوم قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه .

ثانيا : كان حاد الذكاء ، واسع الحيلة ، عظيم الدهاء ، له فطنة فى الحرب ، ليست لأحد من العرب ، يتصور الشيء كأنه يراه ، فهو يتخيل المعركة قبل حدوثها ، ويفكر ويقدر ، ثم يدبر الخطة الحكيمة ، ويرسم السبيل القويم ، فاذا استمر القتال ، وجد ما لم يكن فى الحسبان لم يغب عنه الفكر الصائب ، والرأى السديد ، وسترون فى حرب سليمة كيف كان رأيه فى أثناء المعركة أحد من الأسنة وأمضى من السيوف .

ثالثا : كان يجمع إلى سداد الرأى ، الشجاعة والاقدام ، يدبر الأمر ويحكم الخطة ، فاذا وقعت الواقعة ، وحمى الوطيس ، ضرب لجنوده المثل الأعلى فى التضحية والاقدام ، واحتقار الموت ، فكان يقدم الجيش كالليث الكاسر ، شاهرا سيفا فى حده المنايا ، وفى ضربته المنون ؛ فإذا أبطأ عنه النصر نادى قائد جيش العدو ، ودعاه للمبارزة ، فلا يكاد يخرج اليه حتى يرديه قتيلا .

رابعا : لم يغفل خالد عما يحسب له قواد الحرب الآن ألف حساب ، وهو حالة الجنود النفسية ، أو روحهم المعنوية كما يقولون : فقد كان دائما يذكى فى جنده الحماسة ويقوى روحهم ، ويملأ نفوسهم ثقة وأملا : سمع رجلا من المسلمين فى وقعة اليرموك يقول : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ؛ فقال خالد : ما أقل الروم وأكثر المسلمين ، إنما تكثر الجنود بالنصر ، وتقل بالخذلان ، لا بعدد الرجال وهو يعمل دائما على إضعاف هذه الروح فى جيش عدوه ويخيفهم ويملأ قلوبهم رعبا وفزعا ويأسا وقنوطا : قال مرة لقائد من قواد الروم : نحن معشر العرب نشرب الدماء وقد قيل لنا لادم أحلى من دم الروم ؛ فأقبلنا نريق دماءكم ونشربها . وقال لقوم تحصنوا منه فى حصن منيع : لو كنتم فى السحاب لحملنا الله اليكم ، أو لأنزلكم الينا .

أمثلة موجزة من حروبه

وإنى أذكر أمثلة موجزة من حروبه ، لتكون مرآة لكم ، ترون فيها شديد بأسه ، وحكيم رأيه ، وقد يغنى القليل عن الكثير :

١ — حربه مع مسيلمة : أبدأ لكم بكلمة عن مسيلمة فإن قصته فيها الطريف المضحك ، وإن كانت كلها شرا وكفرا . كان مسيلمة بن نمامة رئيس قومه ، وقد وفد على النبى فأسلم ، ولما عاد إلى اليمامة ارتد ، وادعى النبوة ، وقال : إن الله قد أشركنى فى الأمر مع محمد ، وأرسل إلى النبى هذا الكتاب : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، أما بعد فانى قد أشركت فى الأمر معك وإن لنا نصف الأرض ، ولقريش نصفها ، ولكن قريشا يعتدون ، فكتب النبى إليه :

« من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، السلام على من اتبع الهدى ، أما

بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وقد أهلكت قومك ، أبادك الله ومن صوت معك ،

وفى خلافة سيدنا أبى بكر توجه خالد لقتاله فى بضعة آلاف من المهاجرين والأنصار ، وأهل القبائل ، فلما بلغ مسيلمة دنو خالد خرج إليه فى أربعين ألفا من قومه ، فتقاتل الفريقان قتالا عنيفا ، وكانت الحرب يومئذ تارة للمسلمين ، وتارة للمرتدين ، ولما رأى خالد رضى الله عنه ما الناس فيه قال : امتازوا أيها الناس ، لنعلم بلاء كل حى ، ولنعلم من أين يأتينا الضعف . فلما امتازوا قال بعضهم لبعض : اليوم يستحيي من الفرار . فقاتلوا قتالا شديدا ، وثبت مسيلمة وقومه ، فعرف خالد أن الحرب لا تنتهى إلا بقتل مسيلمة ، فتقدم المسلمين ، ودعا إلى المبارزة ، فلم يبرز إليه أحد إلا قتله ، ثم دعا مسيلمة ، فخرج إليه فحمل عليه خالد وأرهقه ، ففر مهزوما ، وتبعه خالد والمسلمون من خلفه يقتلون ويأسرون ، فقتلوا عشرين ألفاً فيهم مسيلمة ، وتم النصر للمسلمين .

٢ — فتحه العراق : ولما فرغ خالد من أمر مسيلمة أمره أبو بكر بالسير إلى العراق فمضى إليه . وهزم الفرس وشتت شملهم ، وظل ينتقل من فتح إلى فتح ، ويحرز نصراً فى أثر نصر حتى فتح مدائن العراق ، ولما بلغ أبا بكر أنباء هذا النصر العظيم قال : يامعشر قريش ، عدا أسدكم على أسد الفرس فقتله ، أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد ؟

٣ — وقعة اليرموك بالشام : ولما رسخت أقدام العرب فى العراق أرسل سيدنا أبو بكر يأمره أن يسرع إلى الشام لنجدة الجيش العربى الذى يقاتل الروم ، وهنا تظهر عبقرية خالد ، وسداد رأيه ، ومضاء عزيمته ؛ فإن عليه أن يصل إلى ساحة القتال بالشام فى وقت قصير ؛ وأمامه طرق بعضها طويل يضيع الوقت ؛ ويفوت الفرص ، وبعضها إن قصر ، فانه يعج بالمسالح القوية ، والحصون المنيعة ، فماذا فعل هذا القائد المغامر ؟ رأى أن يجتاز بجيشه صحراء قاحلة جرداء يضل فيها النجم ؛ ولا يبلغ مداها الوهم : حرها جحيم ، وريحها سموم ؛ ماؤها سراب ؛ وسحابها رباب ، والسير فيها عذاب أى عذاب ؛ ولكن خالدا له عزم

يفل الحديد فأتى بجمال وأطعمها أياما ثم سقاها حتى رويت ؛ وربط أفواهها حتى لا تجتر ؛ فينفذ مافى جوفها من الماء ثم اقتحم بجيشه هذه المفازة المهلكة ؛ وفى كل مرحلة يذبح بعض الجمال الراوية ؛ ويستخرج مافى جوفها من الماء ؛ فيسقى منه الخيل والدواب ؛ وبهذه الحيلة العجيبة قطع هذه البادية فى عشرين يوما ؛ وأدرك المسلمين فى الشام قبل أن يتخطفهم الروم من كل مكان ؛ ونزل عليهم كما ينزل الغيث الهاطل على القفر الجديب ؛ فكان عمله هذا إحدى المعجزات التى وضعته فى صف هنيبال ، والاسكندر ، ونابليون ، ولم يكد يصل إلى المسلمين حتى اشتبكوا مع الروم فى معركة فاصلة تسمى « وقعة اليرموك » كان جيش المسلمين فيها أربعين ألفا وجيش الروم مائتين وأربعين ألفا : وتقدم الروم لهم صوت كصوت الرعد ، فتقابل الجيشان واقتتلا أشد قتال وأبرحه ؛ وحمل خالد على قلب الروم ، ففصل بين خيلهم ورجلهم ، ولما رأى فرسان الروم يتوجهون للهرب أفرج لهم ولم يحرجهم ، فخرجت الخيل تعدو بهم فى الصحراء ، وأقبل المسلمون على الرجل يعملون السيف ، ويقتلون الصف ؛ فكأنما يهدمون حائطا ؛ فشاعت الفوضى فى الجيش الرومانى ؛ وأطار الفزع أفئدتهم ؛ فولوا مهزومين تحت جنح الظلام بعد أن قتل منهم مائة وخمسون ألفا ولم يقتل من المسلمين إلا ثلاثة آلاف شهيد .

وفاته

قضى خالد معظم حياته فاتحا مجاهدا ، شهد مئات المعارك ، وحارب المرتدين والمتنبئين ، وفتح العراق والشام ، وهزم الفرس والروم ، وتقدم الصفوف ، وجال وصال ، وأكثر من النزال ، فلم يظفر به سيف ولم يشرف بمقتله سنان ، وها هو ذا تحضره الوفاة ؛ فيبكى ويقول : لقيت كذا وكذا زحفا ؛ وما فى جسدى شبر إلا وفيه ضربة بسيف ، أو رمية بسهم ؛ أو طعنة برمح ، ولقد طلبت القتل فى مظانه فلم يقدر لى إلا أن أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء . . فعليه رحمة الله .

على على عتيبة

تقسيم الشعر عند العرب وعند الفرنجة

للأستاذ عبد الوهاب حمودة

قسم الباحثون الشعر العربى من حيث الأغراض المتنوعة التى يقصدها الشاعر ، أقساما كثيرة وفنونا متعددة ؛ فقد ذكر صاحب ديوان الحماسة أنها عشرة أنواع ، وابن أبى الاصبع أبلغها إلى ثمانية عشر وهى :

الغزل ، والوصف ، والفخر ، والمدح ، والهجاء ، والعتاب ، والاعتذار ، والأدب ، والزهد ، والخمريات ، والمراثى ، والبشارة ، والتهانى ، والوعيد ، والتحذير . والملح ، والسؤال والجواب ؛ وزادوا عليها الزهريات ، والحكم والمجون . والحماسة .

وليس معنى هذا أن كل قصيدة يجمعها نوع واحد بل كثيراً ما تختلط الأنواع وتجتمع فى قصيدة واحدة .

وهذه الأنواع كلها فى نظر الشاعر غير العربى ، نوع واحد . يسمى الشعر الغنائى ؛ لأن مرجعه الى التأثير على النفس ، تأثير الموسيقى عليها .

أما أقسام الشعر عند الفرنجة فهى ثلاثة :

أولا — الشعر القصصى :

الشعر القصصى هو أقدم الأنواع عند الافرنج ، وهو عبارة عن سرد الوقائع والحوادث على سبيل القصة . ففيه ذكر للحروب والمحن . وما يبلى الأبطال فيها من بلاء ، وفيه ذكر للآلهة ، يستوحيهم الشاعر ما يريد أن يقول . ثم هو شعر اجتماعى تفنى فيه شخصية الشاعر فناء تاما فى الجماعة التى يصفها . فيفتن الشاعر فى وصف تلك الوقائع ويتلاعب فى إيراد تفاصيلها وسرد ظروفها ، كل ذلك فى نفس طويل ، وعدد من الأبيات تربى على الألف . مثل الالياذة لهوميروس والشهنامة للفردوسى

فالإلياذه هى قصة الحرب التى دامت عشرين عاما بين طرواده وممالك اليونان وهى تمثل الحضارة اليونانية القديمة أصدق تمثيل .

أما الشهنامة فهى ملحمة فارسية نظمها الحسن بن إسحق الفردوسى المتوفى سنة (٤١١ هـ) فى تاريخ الأكاسرة وأخبارهم ووصف الحرب التى اشتعلت بين أهل إيران وأهل طوران .

هذا النوع من الشعر — وهو الشعر القصصى أو شعر الملاحم كما أطلق عليه حديثا — لم يعرفه العرب بشروطه التى وضعها له الافرنج ولهذا أسباب :

(١) أن العربى قليل النظر فى الأحوال العامة ، كثير الاهتمام بنفسه ومايعود على شخصه ، وذلك راجع إلى حالته المعيشية التى كانت تلجئه إلى هذا النوع من الحياة ، فسارت أفكاره فى طريق خاص ، اقتصر فيها على إظهار مايجول بخاطره والتعبير عما يتردد بين جوانحه مما هو مقصور على نفسه ومحصور فى شخصه .

(٢) إن الشعر القصصى يحتاج إلى شىء من التروى فى القول والدقة فى النظر والإمعان فى الفكر ويحتاج إلى شىء من المعانى الفلسفية الاجتماعية . وإلى التحليل والتطويل .

وطبيعة العقل العربى لا تنظر إلى الأشياء نظرة عامة شاملة . فيها تحليل وتدقيق بل الغالب عليه الفطرة والطبع من غير مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة .

(٣) إن الملحمة أو الشعر القصصى نوع من أنواع التاريخ الأدبى إذ هو تاريخ فى قالب شعرى وتدوين التاريخ وما يتطلبه من تحليل للأشخاص وربط للحوادث درجة لا تكون إلا مع قدر صالح من الحضارة . وهو مالم يتوافر عند عرب الجاهلية .

(٤) إن الملحمة من شروطها أن تتخللها الخوارق ، ويكون فيها يد للقوى العلوية ، وهذه خلة لم تتوافر للعرب ؛ فانهم مع قولهم بالجن والهواتف وماشاكلها كانوا قليلى الاهتمام بما وراء الطبيعة .

فلا سبيل إذن للزعم بوجود الشعر القصصى لعرب الجاهلية على نحو مايراد منه عند الافرنج .

وإنما للجاهليين نوع آخر من الشعر القصصى مما يعز وجوده فى سائر اللغات ، وذلك فى الملاحم القصيرة المقولة فى حوادث مخصوصة ؛ فالمعلقات مثلا نرى فيها من سرد الحوادث وتفصيل الوقائع ما يعد فى أعلى طبقات الشعر القصصى ،

فالعرب نظموا إذاً الشعر القصصى ، وإن لم يبلغوا به تلك المكانة الرفيعة التى بلغها هوميروس ، ومن حذا حذوه من فحول الشعراء عند الأمم .

ثانيا — الشعر الغنائى :

وهو ذلك النوع الذى يقصد منه الشاعر إظهار ما تكنه نفسه من العواطف وما يحسه قلبه من المشاعر ، وما يتمثل لخاطره من التصورات البديعة . والخيالات المبتكرة .

ولقد قضى اليونان بضعة قرون وليس عندهم غير الشعر القصصى الذى فيه أخبار آلهتهم وحروبها ، وعلاقاتها بالبشر ، حتى إذا تطورت الحضارة ، وتغيرت نظم الحياة ، وظهرت شخصية الأفراد ، وقويت حقوقهم أحس الشعراء أنفسهم وأنشئوا شعراً جديدا يصف نفوسهم وعواطفهم وشعورهم وحياتهم . وهذا الشعر هو الشعر الغنائى : فيه المدح والهجاء والحماسة والفخر والرثاء وغير ذلك .

ثالثا — الشعر التمثيلى :

وهو أن يعمد الشاعر إلى واقعة ، فيتصور الأشخاص الذين جرت على أيديهم ، وينسب إلى كل منهم ما تحتمله الظروف ، وتدل عليه القرائن من الأفعال والأقوال ، فينطق كل منهم بلسان نفسه . وهذا النوع من الشعر يصف حياة الجماعات . كما هى أو كما كانت أو كما يجب أن تكون . وهو يعتمد على الحوار والحركة والغناء معا . وذلك لأن الشعراء رأوا أن الكلام وحده لا يكفى لتحريك العواطف ، وتمثيل الفضائل ، فعمدوا إلى تمثيلها للعيان بحوادث اخترعوها ، يؤدى سردها وتمثيلها إلى مغزى ما يريدون .

فالشعر التمثيلى يراد منه فى أصل وضعه تمثيل الوقائع ، التى ترمى إلى الموعظة أو الحكمة ، معتمداً على الحوار والحركة ، وعند القدماء يعتمد بنوع خاص على الغناء والرقص والموسيقى ، والشعر العربى لا يعرف أيضا هذا النوع ، بل ظل غنائيا ، وتطور فى حدود النوع الغنائى . ولكن هذا لا ينقص منه ، ولا يضع من قدره ، ولا يقدم عليه الشعر الأجنبى . فليس يقاس الشعر بأنه اشتمل على هذا النوع ولم يشتمل على ذاك . وإنما يقاس الشعر بأنه أجاد أو لم يجد النوع الذى اشتمل عليه ؛ لأن لكل أمة منزعا ، ولكل شعب خيالا خاصا ، وطريقة خاصة فى التصور والإدراك والصناعة .

عبد الوهاب حمودة
(٥ صحيفة دار العلوم)

أساس الحضارة الإسلامية الحديثة

بقلم عبد العزيز أمين عبد المجيد
عضو بعثة دار العلوم بانجلترا

الحضارة المصرية الحديثة وهل تبنى على أساس فرعونى أو عربى : —

لكى نستطيع أن نعطى حكما قاطعاً فى قضيتنا التى هى موضوع بحثنا اليوم ، يجب أن نفهم أولا - كما يقول المنطقيون - مدلول العبارة ، ثم نحلل المقدمات ونتتبعها حتى نصل إلى النتيجة الصحيحة .

وإذاً فعلينا أن نعرف أولا المقصود بالحضارة ، وما هى الحضارة المصرية الحديثة ، وما هو الأساس الفرعونى الذى يصح أن تبنى عليه هذه الحضارة ، وهل هناك حضارة فرعونية حية ، وما هو مقدار حيويتها ، وما هو المقصود بالحضارة العربية التى نريد أن نجعلها أساسا لحضارتنا الحديثة ، وهل لنا حق الاختيار والتقرير ، أو هذا شىء فرضه علينا التاريخ والاجتماع ، وهل نستطيع أن نبنى على غير هذين الأساسين إن أردنا ؟؟ .

أخشى أن تشعر روح هذه الأسئلة بشىء من الجرأة فى البحث ، أو التطرف فى التفكير ، ولكنها أسئلة ضرورية لمعالجة موضوع كهذا .

كل منا يعرف المعنى العام لكلمة الحضارة ، ولكنى لست واثقا من أن كلا منا يستطيع أن يذكر بالضبط مدلول الحضارة وحدها ، والحضارة كغيرها من المعنويات شىء يمكن إدراكه ، ولا يسهل حدّه ؛ ولكى نلمس صحة هذه الدعوى ندع كلا منكم الآن يسائل نفسه السؤال الآتى :

ما هو بالضبط المقصود بالحضارة ؟

لا أظن أن كثيرا من الأجوبة سيكون مقنعا ، أو جامعا مانعا ، ولكن يمكن أن يقال إن كلا منا قانع بما يعرفه عن مدلول كلمة الحضارة .

ولم كل هذا ؟ أليست الحضارة ضد الهمجية ؟ ولكن ماهى الهمجية ؟ أو بعبارة أخرى من هو الرجل المتحضر ؟ وماهى مميزاته ؟ وكيف نفرق بينه وبين الرجل الهمجى ؟ أبمظهره ومنظره ؟ أم بطريقة تفكيره وتصرفه ، ونظام حياته ، ودرجة معرفته ؟

وهنا يصح أن أشير إلى مناقشة جرت بينى وبين أحد الزملاء لأول مرة حول هذا الموضوع[1] . ذكر لى أنه يشرح كلمة الحضارة بما تدل عليه كلمة Culture الإنجليزية ، وأن مدلول هذه الكلمة الأخيرة يشمل ثلاثة عوامل جوهرية : هى العامل اللغوى ، والعامل الدينى ، والعامل الخلقى بمعنى أوسع ، وأثر هذه العوامل فى حياة النوع الانسانى .

وبعد أن أخذت المناقشة مجراها العلمى واللغوى اتفقنا على اقتراح أبديته له ، وهو أن تكون الكلمة العربية المقابلة لكلمة (Culture) هى كلمة (ثقافة) . وأن كلمة الحضارة أو المدنية هي ترجمة الكلمة الانجليزية Ci-lis ation

وعلى هذا الأساس قابلنى هو بعد أن أعلنت موضوع محاضرتى ، وذكر بأن الأولى بناء على هذه المناقشة الماضية أن يكون عنوان المحاضرة (الحضارة المصرية الحديثة وهل تبنى على ثقافة فرعونية أو عربية ؟) غير أننى رغبت أن أتناول الموضوع كما ذكر عنوانه فى مطلع المحاضرة ؛ ليتسنى لى أن أتعرض لمدلولى الكلمتين : حضارة وثقافة ، خلال حديثى .

وفى اعتقادى أن أحداً لم يحاول فى اللغة العربية التفرقة بين الثقافة والحضارة ، فالأدباء والمؤرخون يقولون : الثقافة الإسلامية ويعنون الحضارة الإسلامية أو العكس . وفى اللغة الإنجليزية لا يوجد فرق بين الثقافة والحضارة ، وإنما يوجد هذا الفرق فى اللغة الألمانية . فالثقافة فى الألمانية تشمل الآداب والفلسفة بما فيهما من علوم الاجتماع والأخلاق وهى كلمة Kultnr . وأما الحضارة فتعلق بالماديات كالطب والموسيقى ، ونظام الحكم العملى ، وترقية طرق المواصلات وتنظيم الرى ، وفن العمارة ، ونظام الجندية ، وما إلى ذلك ، وهى كلمة Civislisation

(١) هو الأستاذ محمد خلف الله أحمد

ويظهر لى أن اللغة العربية تحتمل هذه التفرقة ، فإننا نقول : رجل مثقف ونعنى بذلك أنه قد نال قسطا وافراً من الدراسة الأدبيه ، وعلى صلة بالفلسفة وعلوم الاجتماع والأخلاق ، وإن كان لا يعرف شيئا عن تركيب الماء ، ولا خواص المغناطيسية ، ولا حساب المثلثات .

كما إننا نقول « أمة متحضرة » إذا كان نظام الحكم فيها ، ومستوى الحياة الاجتماعية والمعاشية قد وصلا إلى درجة تكفل للفرد الراحة ، والأمن والسعادة النسبية .

وقد يكون من السهل أن نصف الرجل بأنه متحضر بمجرد رؤيته ، ومن غير اختبار لمعارفه العلمية أو الاجتماعية ، ولكنا حينما نصف رجلا بأنه مثقف ، نبنى هذا الوصف على معرفتنا لصفاته العقلية والاجتماعية والخلقية . وكل رجل مثقف متحضر ، وليس بالطبع كل متحضر مثقفا ، وحضارة الأمة ليست نتيجة لثقافة كل فرد من أفرادها ؛ وإنما هى أشبه بذلك الضوء الذى تراه قد ملأ فراغ الحجرة ، ولكن له مصدراً أو مصادر معينة . هذه المصادر التى تنبعث منها الحضارة كما ينبعث الضوء من مصادره ، هى المصادر المثقفة .

وإذاً فيمكننا أن نقول : إن الحضارة وليدة الثقافة ، وإن الحضارة يظهر أثرها فى الماديات ، كما أن الثقافة تتسلط على المعنويات . ولا يمكن حدوث أى تغيير مادى من غير أن يسبقه تغيير معنوى . بمعنى أن كل تغيير فى مظهر الحضارة لابد أن يكون قد سبقه تغيير فى مظاهر الثقافة ، التى هى فى الواقع نصيب الخواص ، وليست نصيب كل فرد .

وقد توجد الثقافة ولكن فى دور الكمون « Latent » وفيها القدرة على الظهور ، وإبداء آثارها فى المجتمع حينما تتاح الفرصة المناسبة ، وتتهيأ الظروف لإبراز هذه الروح الثقافية فى صورة حضارة فى المجتمع .

فقد يكون فى شعب من الشعوب أفراد مثقفون ، لهم نظريات اجتماعية ، وآراء فلسفية وأدبية ، ولكن الشعب الذى يعيشون فيه ، ليس مستعدا لتلقى هذه الرسالة الثقافية وتحويلها إلى حضارة ، وإذاً تظل هذه الثقافة سجينة فى نفس

صاحبها حتي يموت فتموت معه ، أو ربما أودعها بطون الكتب ، فاكتشفها أهل الأجيال المقبلة ، واستغلوها فى ميدان الحضارة . ومثل هذا مثل التيار الكهربائى فى السلك المسلط على المصباح ؛ هذا التيار الكهربائى لا يمكن أن يظهر أثره فى الإضاءة ، إلا إذا كان المصباح المتصل به فى حالة سلامة صالحة لتحويل هذه القوة الكهربائية إلى ضوء ساطع .

ومن هنا ينشأ الخطر من تضارب الثقافات فى أمة واحدة ، لم تصل بعد إلى حد النضوج الفكرى ، فتقرر أى الثقافات تتقبل . وإذا كان هذا التضارب متعادلا وقف تيار الحضارة فى هذه الأمة ، وقاسى الشعب نتيجة هذا التضارب ، من غير نتيجة مباشرة ؛ كالمريض فى دور النقه . فهو بين قوتين : قوة الميكروب وقوة المناعة الطبيعية . وأيهما ينتصر كان له الظفر .

وتعارض الثقافات وعدم تجانسها فى أى أمة يستولى على دور من التاريخ ، يسمى دور الانتقال ، تعانى الأمم فى خلاله ما تعانى ، ويتوقف طول هذا الدور وقصره على تعادل قوتى الثقافتين ، أو قوة إحداهما وضعف الأخرى .

هذه المقدمة ضرورية لفهم الموضوع الذى بين أيدينا ، لأنها توضح لنا أن انتصار ثقافة ضد أخرى معناه إحياء حضارة ، وإضعاف أخرى ، أو تغلب عنصر حضارى على عنصر آخر .

نعود إذاً إلى القضية فنرى أمامنا أساسين : الأساس العربى ، والأساس الفرعونى .

ولكن دعنا نختبر - أولا - كلا من هذين الأساسين على حدة ؛ ولكى نستطيع أن نصل إلى نتيجة واضحة يصح أن نجيب عن الأسئلة الآتية :

ما المقصود بالحضارة العربية ؟ أهى عربية جاهلية ، أم عربية إسلامية ؟ وهل ما نسميه حضارة عربية هو ما أنتجته قرائح العرب المسلمين ، أو المسلمين غير العرب ، أو كليهما جميعا ؟

من الضرورى أن نعرف هذا أو لا وقبل كل شىء ؛ لأن أخذ الأشياء على ظواهرها قد يقود إلى نتائج غير سليمة .

لم يكن للعرب قبل الإسلام حضارة الفرس ، ولا مدنية الرومان ، ولا

فلسفة اليونان . ولم تكن عوامل الثقافة بينهم قد نمت - اللهم إلا الشعر الذى أنتجوا فيه مالم تنتجه أى أمة من قبل من حيث الكم - وما كان عندهم من علوم كعلم النجوم أو التنجيم هو مستعار من الكلدانيين أو البابليين ، ولم يكن حينئذ علما ثابت القواعد ، وإنما هو نتيجة التجربة والتخمين ، وكانت عندهم علوم أخرى هى إنتاج البادية كالكهانة والعرافة والقيافة ، وليس صحيحا أن تسمى هذه علوما ، وقد عرفوا شيئا من الطب نقلوه عن الكلدانيين ، وكانت عندهم طريقتان للتطبيب : طريقة الكهان والعرافين ، وطريقة العلاج الحقيقية . فالكهان كانوا يعالجون بالرقى والسحر ، أو بذبح الذبائح فى الكعبة ، والدعاء فيها أو بالتعزيم . أما المعالجة العقّارية ، فكانت بتعاطى بعض المواد كالعسل ، أو بالجراحة كالحجامة والكى ، أو بتر بعض الأعضاء .

وكان علم الأنساب موضع عنايتهم ؛ لحرصهم على الانتماء إلى قبائلهم ، والمحافظة على شرف القبيلة ، لأن نظام القبيلة كان أساس النظام الاجتماعى عندهم .

وإلى أن جاء الإسلام لم يكن العرب مصدرا للحضارة ، كما كان اليونان والرومان والفرس والهنود ، ولم تكن لهم فلسفة اجتماعية راقية . ولم تمهد لهم عيشتهم الصحراوية أن ينتجوا فى غير ميدان الشعر .

فلما جاء الإسلام وثبتت قواعده فى أيام الخلفاء استتبع التوسع فى نظام الحكم ، واتساع النفوذ الإسلامى وجود علوم أخرى ، كعلم الحديث ، والقراءات ، والتفسير والنحو . غير أننا نلاحظ أن كثيرا ممن عنوا بهذه العلوم ، كانوا من غير العرب : فوهب بن منبه من أقدم رواة الحديث ، وأصحاب التفسير وهو فارسى الأصل . ونافع القارىء ديلمى . ومن أكبر الفقهاء وأقدمهم الحسن بن الحسن ، ومحمد بن سيرين . وعطاء بن رباح ، ومجاهد وسعيد ابن جبير ، وسليمان بن يسار ، وكلهم من الموالى أى غير العرب .

وكذلك الحال فى علوم اللغة ، فإننا نجد أن معظم الذين اشتغلوا بها كانوا من العجم : كحماد الراوية وهو ديلمى ، والخليل وسيبويه والأخفش والعباس والزجاج وغيرهم من الفرس .

أما العلوم الدخيلة: وهى الفلسفة والمنطق والرياضيات، فالمشتغلون بها للعرب، هم من غير العرب وغير المسلمين - هذا طبعا فى بدء الإسلام - لأن العباسيين لما أرادوا نقل كتب اليونان والفرس والهنود إلى العربية اتخذوا عارفى هذه الألسنة من الكلدان والسريان والفرس وغيرهم لنقلها، وأكثرهم من غير المسلمين.

وكلنا يعرف عناية المنصور بترجمة كتب النجوم؛ بوساطة نوبخت المنجم الفارسى، وقد كان مجوسيا وأسلم على يديه. والمنجم على بن عيسى الأسطرلابى. كما أمر بترجمة بعض كتب الطب من اليونانية والسريانية على يد جورجيس بن بختيشوع السريانى، وحذا المهدى والرشيد حذو المنصور، فأصبحت بغداد مركزا للعلوم الدخيلة التى يقوم بدراستها الأطباء والعلماء من السريان والفرس والهنود المسلمين وغير المسلمين، وشجع المأمون الفلسفة والمنطق، وهما علمان يونانيان، وأمر المأمون أيضاً بنقل فلسفة أرسطو، وفلسفة أفلاطون الجديدة.

وكان السريان فى كل هذه الأدوار هم المترجمين والمشتغلين بالعلم والفلسفة والطب، كما شاركهم فى هذا الفرس والهنود ثم العرب أخيرا.

وإليك أشهر نقلة العلم فى العصر العباسى:

(١) آل بختيشوع وهم من السريان النساطرة. وقد ولى الرشيد ابن بختيشوع رياسة الأطباء، وخلفه فيها ابنه جبريل.

(٢) آل حنين وهم من نصارى الحيرة.

(٣) حبيش بن الحسن الدمشقى، وهو ابن أخت حنين بن اسحاق.

(٤) قسطا بن لوقا البعلبكى، وهو من نصارى الشام، وكان طبيبا حاذقا.

(٥) آل ماسرجويه وهم يهوديو المذهب.

(٦) يحيى بن البطريق.

(٧) ابن المقفع.

(٨) آل نوبخت.

وغير هؤلاء كثيرون ممن خدموا فى الدولة العباسية، وقد كانوا قادة الثقافة

فى أول الفتح الإسلامى ، ومن مترجماتهم : كتاب السياسة الذى نقله حنين بن إسحاق، وكتاب المناسبات ونقله يحيى بن عدى ، وكتاب أصول الهندسة وترجمه قسطا بن لوقا ، وكتاب البرهان والجدل فى المنطق ، ونقله من اليونانية إسحاق بن حنين ، وكتاب عهد أبقراط ، وكتاب طبيعة الإنسان ، وكتاب إقليدس فى الهندسة ، وكتاب أرشميدس ، وكتاب فلسفة أفلاطون ، والفلسفة الأفلاطونية الحديثة. كما ترجم الفرس كثيرا من المؤلفات القيمة ، ككتاب كليلة ودمنة ، وكتاب مزدك ، والتاج فى سيرة أنو شروان ، والأدب الكبير ، والأدب الصغير .

وليس المقام هنا مقام حصر الكتب التى ترجمت إلى العربية ، وإنما نريد أن نقرر حقيقة ، وهى أن الذين قاموا بالحركة العلمية والثقافية فى بدء الفتح الإسلامى كانوا من غير العرب ، ومن غير المسلمين أيضاً ، وأنهم نقلوا إلى العربية ما لم يعرفه العرب من قبل .

على أن هذا ليس من الأمر فى شىء ، فكما قلت فى مطلع المحاضرة : إن للثقافة قوة معنوية قد تكون كامنة فى نفوس أصحابها تترقب الفرصة المتاحة ، والظروف المناسبة ؛ لتظهر أثرها ، وتعبر عن وجودها .

والعرب قاموا بالدعوة للإسلام ، وفتحوا الفتوح ، وهم أهل بادية أميون ، فانصرف همهم فى بدء الدعوة إلى نشر الدين ، وإنشاء دولتهم مما لا يحتاج إلى علم ، وإنما كانت حاجتهم من العلم إلى القرآن الكريم ، يدعون الناس به إلى الإسلام . ولم يمض على ظهور الدعوة بضع وعشرون سنة ، حتى فتحوا الشام والعراق ومصر وفارس وإفريقية وغيرها . والمسلمون العرب يومئذ هم الجند الفاتح ، وكانوا قليلين بالنظر إلى ذلك الملك الواسع ، فضلا عمن قتل منهم فى الحروب والفتن ، فأصبح همهم الاشتغال بالسياسة فى الجند والحكومة ، ونظرا لفطرتهم الخيالية انصرفت قرائحهم إلى الاشتغال بالشعر والخطابة والأمثال — وهى آدابهم فى الجاهلية — ولما لم تكن لهم خبرة باللغات ، وكانوا شغوفين بمعرفة علوم غيرهم من الأمم وآدابها ، لم تكن هناك وسيلة غير تشجيع أولئك المترجمين ، وتقريبهم إليهم بالمناصب والعطايا ، حتى يؤدوا رسالتهم بأمانة وإخلاص ، وقد وجدت هذه العلوم المترجمة فى الثقافة العربية موطناً خصيباً فنمت وأينعت ثمارها

ورحبت عناصر الثقافة الثلاثة : اللغة والدين والخلق - كما ذكرنا - بهذا النوع الجديد من الحضارات المختلفة ؛ فهضمت الثقافة العربية هذه الحضارات الغريبة ، وحولتها إلى الصورة التى تتفق وطبيعة العصر ، وروح الأمة الناهضة ، وصبغتها بصبغة مميزة لها هى الصبغة العربية .

ولا نريد أن نقول إن العرب استطاعوا أن ينقلوا جميع العلوم إلى لغتهم ، وإنما جاء العرب والعلوم مزهرة لدى اليونان والفرس والكلدان والهنود وغيرهم ، ممن دانوا لهم ، وأظلتهم راية الإسلام ، فأخذ العرب من علوم هؤلاء جميعا ؛ ولذلك كان من فضل الإسلام على التمدين أنه جمع شتات تلك العلوم من اليونانية والفارسية والهندية والكلدانية ، ونقلها إلى العربية وزاد فيها ، حتى نضج العلم على اختلاف فروعه ، وأثمر ، ونبغ العلماء والفقهاء والأطباء والفلاسفة فى ظل الإسلام وظل العربية ، وهذا ما نقصده حينما نقول « الحضارة العربية » .

أما الحضارة الفرعونية فقد يكون من العبث أن نحاول هنا أن نعطى وصفا كافيا ، لما وصلت إليه من ارتقاء وسمو ، مما تقف أمامه الحضارات الحديثة باهتة متسائلة : ما هو السر السحرى الذى استطاع به الفراعنة أن ينتجوا فى فجر التاريخ هذه العظمة فى الفن ؟ وكيف اهتدوا إلى هذا السر ، وأى خبرة كانت عندهم بقوانين العلم ، وقواعد الفن نسيها التاريخ فلم تصل إلينا ؟

ولكى أعالج موضوع الحضارة الفرعونية على النحو الذى اتبعته فى معالجة موضوع الحضارة العربية ، أرى أن أبدأ بعناصر الثقافة الثلاثة : اللغة والدين والخلق .

وقد يكون غير ضرورى هنا أن أتعرض للصورة التى كانت عليها لغتهم ، وكيف كانوا يتكلمون أو يكتبون ، أو لقواعد لغتهم وتراكيبها ، ولأن هذا ليس فى طوقى . وإنما يهمنا أن نعرف أن لغة الفراعنة قد أصبحت لغة تاريخية ، بين اللغات ، تدرس لكشف مخلفات أصحابها العلمية والأدبية والعمرانية فقط . ولا يعرف المؤرخون الحديثون كيف كانت تنطق ، ولم يصل إلينا أى سجل تاريخى ، يرشدنا إلى مخارج الحروف ، وصنع العبارات عند قدماء المصريين .

وإذاً فسواء أرضينا ، أم غضبنا لا مجال لإحياء لغة الفراعنة ؛ لكى تكون لغة

أدب ومحادثة ، ولكى تكون عنصرا من العناصر الثلاثة التى تبنى عليها الحضارة المصرية الحديثة ، ولكن يجب أن نذكر أن اللغة الهيرغليفية كانت لغة أدب جم ، وفلسفة ، وعلم واسع ، تناولت الفلسفة السماوية ، والفلسفة الدنيوية ، ووصفت العاطفة والخيال والشئون اليومية العادية . وفى هذا الموضوع يقول أحد المؤرخين المعاصرين من الفرنجة :

« لقد اتضح أخيرا فقط ، أن قدماء المصريين قد حفظوا لنا لغة ذات أدب دينى ودنيوى معا ، تلك اللغة التى سمت فى عبارتها وأسلوبها عما عهدناه فى كتاب الموتى ، لغة جديرة بأن تذكر بجوار اللغات العالمية الناضجة ، كالعربية والهندية . وقد حوت الهيرغليفية كثيرا من فروع الآداب ، كالأساطير العجيبة ، والرسالات العلمية ، والمناظرات الخلقية ، والمناجيات اللاهوتية ، وغير ذلك من الموضوعات الفكهة . »

ولا يتسع المجال هنا للإطناب فى وصف الأدب الفرعونى ، ولا للتعرض لنوعى الشعر والنثر ، وإنما اخترت القطعة الآتية ؛ لترينا نوع الخيال الشعرى لدى قدماء المصريين وسموه : —

« ها هى ذى محبوبتى بعيدة عنى ، بينى وبينها نهر ، والتمساح هناك منبسط على رمال الشط ، فعند ما أعبر النهر إليها أجدنى أمشى على الماء ، فيختلط الدم الناضح من قلبى بهذا الماء ، ويخيل الى أن الماء قد جمد ، وأصبح فى صلابة الأرض . إن هناك محبوبتى ، وهذا ما يلهمنى الشجاعة لعبور النهر ! لقد سحرت الماء ! أراها تدنو وأدنو أنا منها أيضا ، وذراعاى مبسوطتان لمعانقتها ، وقلبى يعود إلى موضعه حينما أحتضن محبوبتى . »

أما العنصر الثانى ، وأعنى العنصر الدينى فيظهر أن الديانات قد وصلت أسمى درجات الارتقاء فى العصر الحاضر ، ولذا فإننا نجد ديانات قدماء المصريين — بالرغم من أن تعاليمها كانت سامية — لا تتناسب مع التفكير البشرى الحاضر . ولا يحاول العقل الإنسانى إحياءها ، وإذاً ، فقد محا التاريخ هذا العنصر الثقافى ، واستعاض عنه الديانات السماوية المعروفة الآن ، والتى يكوّن كل منها عنصراً جوهريا فى الحضارات الحديثة .

أما العنصر الثالث وهو العنصر الخلقى ، فقد كان ولا يزال تابعا للعامل الدينى ، ونتيجة للتقاليد وللعرف الزمانى والمكانى ، فالأخلاق هى فى الواقع وليدة الديانات والتقاليد ، ولذلك نرى عادات قدماء المصريين مرتبطة بتعاليمهم الدينية ؛ فمن المعروف مثلا ، أن قدماء المصريين ، كانوا مغرمين بالرقص والشرب ، والغناء والموسيقى . وكانوا يعتقدون فى الخرافات ، والسحر ، وكان الرق عندهم مباحا ، ولم تكن الرعية فى نظر الملوك إلا عبيدا وخدماً ، وقد أباحوا أيضا تعدد الزوجات من غير قيد . كما يزعم بعض المؤرخين أنهم أباحوا زواج الأخوات .

وعلى أية حال فالمقصود بالعنصر الخلقى مايسمى بالإنجليزية Moral outbook ويدخل ضمن هذا أيضاً The moral and ethical standa d

والتاريخ والاجتماع يؤيدان أن هذا العنصر الثالث من عناصر الثقافة ، لم يصل إلينا من قدماء المصريين سالما خالياً من كل دخيل ؛ لأننا نعرف أن زوال الحضارة الفرعونية ، وزوال دولة الفراعنة ، وتتابع الحكم الأجنبى على مصر ، وتقبل الشعب لصور مختلفة من الحضارات الغريبة - كل هذا قضى على العنصر الثالث من عناصر الثقافة الفرعونية .

غير أن الحضارة المادية - حضارة الفراعنة - وإن كانت قد دفنت ؛ وظلت فى طوايا النسيان عشرات القرون ثم اكتشفت ، فإن كشفها لم يساعدنا على إحياء الثقافة ، لأن ثقافة أخرى أقوى وأنسب قد توطنت ، وتوطدت أركانها فى الشعب .

وإذاً ، فلم يبق أمامنا إلا حضارة قدماء المصريين — لا ثقافتهم — للتقليد والاقتباس ؛ أعنى الحضارة المادية لا الثقافة المعنوية ؛ لأن الثقافة قد انتهت ، وأصبحت تاريخية كما شرحت .

أما الحضارة فهى ماثلة فى فن العمارة والبناء ، وفى فن النحت والتصوير ، وفى علم الكيمياء والتحنيط ، وفى صناعة المعادن والذهب والحلى . فى كل هذه المخلفات التى يجوز لأى أمة — كما يجوز لمصر — أن تقلدها متى وجدت وسيلة إلى ذلك .

يخيل إلى — أيها القارىء الكريم - أنا قد وصلنا إلى النتيجة ، فأمامنا الآن

الحضارة المصرية الحديثة ، وهى ولا شك تعتمد على ثقافة ، فإذا حللنا هذه الثقافة إلى عناصرها الثلاثة : اللغة والدين والأخلاق . وجدنا العنصر الأول عربياً ، والثانى إسلامياً ، والثالث إسلامياً عربيا ، فلم يبق إذاً أمامنا سبيل إلى الاختيار .

غير أن سائلا يقول : ولم البقاء على هذه الحال ؟ والثورات الفكرية والدينية والسياسية قديرة على تغيير هذه العناصر الثقافية ، واتخاذ عناصر أخرى لثقافة جديدة ، تكون نواة لحضارة جديدة . ولكن مهلا أيها السائل . احذر أن تخلط بين الحضارة والثقافة . فمن الممكن والجائز أن تختار من الحضارات ماتراه أصلح لروح العصر ، وطلبات الزمن ، على أن تصبغ هذه الحضارة بصبغة ثقافتك ، وعلى أن تنفث فيها من روح لغتك ودينك وخلقك ؛ لأن ضياع ثقافة أمة هو ضياع الأمة وحياتها وكيانها ، ولأن الأمة التى تتهاون فى عنصر من عناصر ثقافتها تفقد ركنا من أركان حياتها وحيويتها ، وعاملا من عوامل قوميتها ، وليس معنى هذا أنها تتقهقر ماديا ؛ وإنما تهوى أدبيا ومعنويا .

إن الثقافة المشتركة هي أم العاطفة (Sentiment) فهى التى تربطنى بالعراقى والشامى والحجازى والمغربى ، وهى التى تجعلنى أشعر بالأنس حينما أهبط العراق أو فلسطين أو تونس ، كما أنها تشعرنى بالوحدة حينما أهبط لأول مرة مملكة أوروبية ، أو أى مملكة أخرى لاتربطنا بها رابطة الثقافة .

إن هذه العوامل الثقافية الثلاثة التى أشرت إليها هى التى تغذى العاطفة المتبادلة بين ممالك الشرق الأدنى ، وإضعاف أى عامل من هذه العوامل يتبعه إضعاف العاطفة المتبادلة ، والروابط المشتركة .

يقولون : إن تركيا قد كسبت وتقدمت حضارتها المادية ، منذ ثورتها الوطنية ، ومنذ أن حاولت القضاء على بعض عناصر الثقافة المشتركة بينها وبين الممالك العربية — أعنى تغيير الحروف العربية إلى حروف لاتينية ، واستبدال نظام الاجتماع بنظام آخر — ولكنى أعتقد أن تركيا قد خسرت خسارة كبرى هى عطف هذه الممالك العربية وحدبها عليها ، ومعاونتها إياها فى أوقات الشدة ، وإن تركيا لتشعر بهذه الوحدة ، وبأنها قد فقدت صديقاتها التى لاتجد الآن عنهن بديلا .

إن الشعوب الأوربية - أيها القارئ - لتتلمس تقوية عناصر الثقافة - كلها أو بعضها - بكل وسيلة، فتعمل على نشر لغتها وآدابها، ومذاهبها الدينية والخلقية؛ لتضمن بذلك أنصاراً وأصدقاء، ولتحتفظ بسلامة كيانها: فألمانيا تعلن حقها الطبيعي في تكوين الإمبراطورية الجرمانية على أساس واحد هو أساس الثقافة المشتركة. وايرلندا تحاول التخلص من الحكم البريطاني، لا لأن حضارة إيرلندا غير حضارة انجلترا، بل لأن الثقافتين مختلفتان فلا يمكن تجانسهما، وإذا فلا يمكن تعاون الأمتين.

إن مركز مصر الجدير أن يستغل؛ لأنها تعتبر في طليعة شعوب الشرق الأدنى، ونظرة الممالك العربية إليها نظرة حب وعطف واحترام؛ فإن هي أرادت أن تبقى على هذا الحب والعطف والاحترام فلتبق إذاً على الثقافة العربية، التي تربطها بهذه الشعوب، ولتجعل الثقافة العربية أساساً لحضارتها الحديثة.

عبد العزيز أمين عبد المجيد

ملكتا الجمال العربى فى صدر الإسلام[1]

بقلم على الجندى
المدرس بسوهاج الثانوية

— ٢ —

تحدثنا فى العدد الثالث من السنة الثالثة عن إحدى ملكتى الجمال العربى فى صدر الاسلام ، السيدة عائشة بنت طلحة القرشية التيمية ، وحديثنا فى هذا المقال عن ملكة الجمال الثانية ، أو على الأصح ملكة الملاحة[2] السيدة سُكينة بنت الحسين القرشية الهاشمية .

اختلف فى اسمها فقيل : أُمَيْمة ، وقيل : أمينة ، والصحيح : أن اسمها : آمنة ، وسُكينة : لقب لها .

وأبوها غنى عن التعريف ، فهو سبط الرسول وريحانته ، وسيد شباب أهل الجنة ، أبو عبد الله الحسين بن على - رضى الله عنهما - أما أمها ، فهى الرباب بنت امرىء القيس الكلبى . كان نصرانيا فوفد على عمر بن الخطاب يريد الإسلام ، فأسلم وحسن إسلامه ، وتوسم فيه عمرُ الخير ، فعقد له من فوره على من أسلم من قضاعة بالشام ، فقفل الشيخ واللواء يخفق على رأسه ، فقال عوف بن خارجة : ما رأيت رجلا لم يصل لله ركعة قط أمَرَّ قبله على جماعة من المسلمين !! . ونهض على بن أبى طالب ، ومعه ابناه الحسن والحسين ، فأخذ بثيابه وقال : ياعم ، أنا على ابن أبى طالب ابن عم الرسول وصهره ، وهذان ابناى من ابنته ، وقد رغبنا فى مصاهرتك فزوجنا ، فقال الرجل : قد زوجتك يا على ، المحياة بنت امرىء القيس ، وزوجتك يا حسن سلمى أختها ، وزوجتك يا حسين الرباب أختهما .

(١) راجع المقال الأول المنشور بالصحيفة : العدد الثالث من السنة الثالثة .
(٢) انظر الفرق بين الجمال والملاحة لدى الأقدمين فى مقالنا السالف .

وكانت الرباب من خيار النساء وأفضلهن، محببة إلى الحسين مكينة عنده؛ تقول سكينة: عاتب عمى الحسن، أبى فى أمى، فقال:

لعمرك إننى لأحب داراً تحل بها سكينةُ والرباب
أحبهما، وأبذل جل مالى وليس لعاتب عندى عتاب
ولست لهم - وإن غابوا - مضيعاً حياتى أو يغيبنى التراب

وقد خطبت بعد مقتل الحسين - عليه السلام - فقالت: ما كنت لأتخذ حماً بعد الرسول - صلى الله عليه وسلم - ورثته بهذه الأبيات:

إن الذى كان نورا يستضاء به بكربلاء قتيل غير مدفون
سبط النبى جزاك الله صالحة عنا، وجنبت خسران الموازين
قد كنت لى جبلا صعباً ألوذ به وكنت تصحبنا بالرُّحْم والدين
من لليتامى ومن للسائلين ومن يغنى، ويأوى إليه كل مسكين؟

كانت سكينة كضرتها عائشة رائعة الجمال، كما كانت أحسن النساء شعرا، وكانت تصفف جمتها [1] تصفيفا مبتكرا لم ير الناس أبدع منه، فأصبح ذلك مثالا يحتذيه النساء والرجال على السواء، وكانت تلك الجمة تسمى (السكينية)

وقد بلغ من ذيوعها وافتتان الناس بها، أن عمر بن عبد العزيز حرمها على الجنس الخشن! فكان إذا رأى رجلا يصفف جمته (السكينية) حلقه وجلده.

وقد وفر الله على سكينة جمالها وصانه من كل شائبة، إذ حدث أن خرجت لها سلعة [2] بأسفل عينها تهدد بالشر المستطير، فعمل لها (درافيس) المتطبب - وكان منقطعا إليها - عملية جراحية دقيقة فبرئت منها، وبقى أثر الحزازة فى مؤخر عينها، فكان أحسن فى وجهها من كل حلى وزينة. ومن قولها - تباهى بحسنها: دخلتُ على مصعب بن الزبير وأنا أحسن من النار الموقدة فى الليلة القرة.

جمعت سكينة كل ما يتطلبه الرجل فى المرأة من جمال ومال وحسب ودين.

---

(١) الجمة: الشعر الذى يبلغ المنكبين.

(٢) السلعة بكسر السين زيادة تحدث فى البدن كالغدة تتحرك إذا حركت، وقد تكون من حصة إلى بطيخة.

فتهافت على بابها الخاطبون من سروات العرب ، فتزوجها على ترتيب بعض الروايات، ابن عمها عبدالله بن الحسن ، ومصعب بن الزبير ، وعبدالله بن عثمان الخزامى ، وزيد ابن عمر بن عثمان بن عفان ، والأصبغ بن مروان . وكان هذا الأخير يتولى مصر ، فكتب إليه أخوه عبد الملك : اختر مصر أو سكينة ، فبعث إليه بطلاقها مكرهاً ، ولم يدخل بها ، ومتعها بعشرين ألف دينار . ولا شك أن للسياسة دخلا فى هذا الطلاق ، فقد كره عبدالملك أن يصهر أخوه إلى بنى هاشم خصوم الأمويين ، كما ساءه من قبل أن يتزوج خالد بن زيد بن معاوية رملة بنت الزبير وآل الزبير أعداء بنى أمية ؛ ولهذا السبب عينه رأيناه يرغم عامله الحجاج على طلاق ابنة عبدالله ابن جعفر بن أبى طالب ، ويؤنبه أشد التأنيب .

ثم تزوج سكينة ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، وطلقها كذلك قبل الدخول ، وقد رزقت من مصعب بنتا أراد أن يسميها : ثريا ، فأبت إلا أن تسميها باسم جدتها : الرباب ، وكانت بارعة الحسن كأمها . تقول : سعيدة بنت عبدالله بن سالم : لقيت سكينة بين مكة ومنى ، فاستوقفتها ورأيت ابنتها ، فإذا هى قد أثقلتها بالحلى والجواهر ، فقالت لى : ما ألبسته إياها إلا لتفضحه ، تريد أنها أحسن من الحلى الذى تلبسه .

وكان فى سكينة مشابهة بينة لعائشة بنت طلحة ، وبخاصة فى الإدلال على الأزواج . كانت تحب زوجها مصعبا حبا جما ، ويأبى لها الكبرياء أن تظهر هذا الحب ! فلما كان اليوم الذى قتل فيه ، دخل إليها فنزع ثيابه ، ولبس غلالة وتوشح بتوب ، وأخذ سيفه ، فعلمت سكينة أنه لا يريد الرجوع ، فصاحت من خلفه : واحزناه عليك يامصعب ، فالتفت إليها قائلا : أو كل هذا لى فى قلبك ؟ فقالت : إى والله ، وما أخفى أكثر ! فقال : أما لو كنت أعلم أن هذا كله لى عندك ، لكان لى ولك شأن ، ثم خرج ولم يرجع - رحمه الله -

وكان من شروطها على زيد بن عمر بن عثمان ألا يمنعها سفراً ، ولا مدخلا ولا مخرجا ، وألا يخالفها فى أمر تريده ، وأن يقيمها حيث صاحبتها (أم منظور) وكانت تقول له : يا عثمانى ، اخرج بها إلى مكة ، فإذا سار يوما أو يومين قالت :

رجع بنا إلى المدينة ، فإذا رجع يومه ذلك ، قالت : اخرج بنا إلى مكة . ولكن من الإنصاف أن نقول : إن هذا الدلال المسرف والتجنى المفرط ، لم يمنعها أن تكون وفية لأزواجها ، شديدة الحرص على كرامتهم ، ورعاية منزلتهم ، فقد حدث أن جفاها زوجها العثمانى ، فغناه خادمها أشعب بهذا الشعر :

علق القلب بعض ماقد شجاه من حبيب أمسى هوانا هواه
ماضرارى نفسى بهجران من ليس م مسيئا ولا بعيدا نواه
واجتنابى بيت الحبيب وما الخلد م بأشهى إلىّ من أن أراه

فقال الزوج المتيم : ماعدوت مابنفسى يا أشعب ، وأعطاه حلته ، فلما علمت سكينة بذلك ، كبر عليها أن يلبس أشعب حلة زوجها ، فقالت له : وأنت الآن تريد أن تلبس حلة ابن عثمان ؟ لا والله ولا كرامة ، فاشترتها منه بثلاثمائة دينار . ولما قتل زوجها مصعب ، خطبها عبد الملك بن مروان ، فقالت : والله لا أتزوج قاتل زوجى أبداً .

وقد ورثت سكينة من بنى هاشم خصائص نعرفها فى هذا البطن من قريش : فكانت سخية مسرفة فى السخاء ، تنثر العطايا والصلات على الشعراء والمغنين ، وذوى الحاجات بغير حساب ، ويكفى للدلالة على احتقارها المال أنها كانت ترمى الجمار فسقطت من يدها الحصاة السابعة فرمت بخاتمها ، ولا يدرى إلا الله كم يبلغ ثمنه!

وكانت شجاعة جريئة ، تتحدى حكام عصرها ولا تبالهم ، فكانت تجىء يوم الجمعة ، فتقوم بإزاء خالد بن عبد الملك بن الحارث الأموى ، فإذا سب عليا (كرم الله وجهه) سبته هى وجواريها ، فكان يأمر الحراس بضرب جواريها ، ولا يتعرضون لها .

وكانت قوية الشكيمة ، صلبة العود ، شديدة اللدد والخصومة ، ومن آثار ذلك أن زوجها زيد بن عمر خرج مغاضبا لها ، فأقام مع جواريه سبعة أشهر بعيداً عنها ، فاستعدت عليه عمر بن عبد العزيز ، والى المدينة إذ ذاك ، فأمر ابن حزم أن يقضى بينهما ، فلما حضرته أراد أن يدخلها وحدها ، فأبت إلا أن يكون معها

جواريها، فأدخلن معها، فقالت: ياجارية، اثنى لى هذه الوسادة، فجلست عليها وزوجها لاصق بالسرير يكاد يدخل فى جوفه خوفا منها، فقال لها ابن حزم. يابنة الحسين، إن الله يحب القصد فى كل شىء. فقالت: وما أنكرت منى؟ والله إنى وإياك لكالذى يرى الشعرة فى عين صاحبه، ولا يرى الخشبة فى عينه. فقال: لو كنت رجلا لسطوت بك. فقالت: لاتزال تتوعدنى. واشتد بهما اللجاج، فقال ابن أبى جهم العدوى - وكان حاضرا - مابهذا أُمِرْنا فامض الحكم ولا تشاتم. فقالت لمولاة لها: من هذا؟ قالت: ابن أبى الجهم. فقالت سكينة: لاأراك هنا، وأنا أشتم بحضرتك، وهتفت برجال من قريش، فغضب ابن أبى الجهم واشتد عليها، فقالت: أما والله لو كان أصحابى بالحيرة أحياء لكفوا العبد اليهودى عن شتمى، إياى - عدو الله - تشتم وأبوك الخارج مع اليهود ضنانة بدينهم، حين أخرجهم رسول الله إلى أريحاء؟. ثم خضع لها زوجها زيد وترضاها، فقالت: ماأعرفنى بك يازيد! أتراك تمكث مع جواريك سبعة أشهر ثم أعود إليك؟ ثم خرجت، والقاضى ابن حزم معقود اللسان لا يفوه بكلمة. وكان عمر بن عبد العزيز ينتظر وسط الدار فى ليلة شاتية، فلما بلغته القصة ظل يضحك حتى أمسك بطنه، ثم دعا بزوجها من الغد فأحلفه وردها عليه، ولكن النزاع لم ينقطع بينهما، فكتب إليه سليمان بن عبد الملك: إنى أعلم انك قد شرطت لها شروطا، فإن لم تف بها فطلقها، فطلقها زيد.

وكانت سمحة البديهة، قوية العارضة، ملهمة الإجابة، تذكرنا أجوبتها المفحمة الصارمة بأجوبة جدها على، وعمها الحسن، وابن عباس، فى نقاشهم خصومهم من بنى أمية وغيرهم. فمن طريف ذلك: أنها كانت يوما فى مأتم فيه بنت لعثمان بن عفان، فقالت بنت عثمان: أنا ابنة الشهيد، فسكتت سكينة حتى قال المؤذن... وأشهد أن محمداً رسول الله. فقالت لها: هذا أبى أم أبوك؟ فانقطعت العثمانية وقالت: لا أفخر عليكم أبدا.

ومن ردودها القاتلة: أنها خرجت بعد مقتل مصعب تريد المدينة، فأطاف بها أهل الكوفة قائلين: أحسن الله صحابتك يابنة رسول الله، فقالت لهم:

لاجزاكم الله عنى خيرا ، ولا أخلف بخير عليكم من أهل بلد ! قتلتم أبى ، وجدى ، وعمي ، وزوجى ، وأخى ، فبأى وجه تقابلوننى ؟ أيتمتمونى صغيرة ، وأرملتمونى كبيرة !! .

ومن كلماتها التهكمية اللاذعة : أنها أنشدت يوما أبياتا لعروة بن أذينة يرثى أخاه بكرا ، فلما انتهت إلى قوله :

عَلى بكرٍ أخى ولى حميدا وأى العيش يحسن بعد بكر؟

قالت : ومن أخوه بكر ؟ أليس هو الدحداح الأسيِّد القصير ، الذى كان يمر بنا صباحا ومساء ؟ قالوا لها : نعم . فقالت ، كل العيش والله يحسن بعد بكر ، حتى الخبز والزيت .

وكانت سكينة بعد ذلك كله ذكية أريبة ، صادقة الفراسة ، دقيقة الملاحظة ، بارعة فى انتزاع التشبيهات ، يقول ابن الماجشون : نظرت إلى سكينة ، فقالت : كأن هذا الرجل الماجشون . ـ والماجشون صِبغ أصفر تخالطه حمرة ـ فغلب علىّ هذا اللقب ، وعرفت به !.

ونظرَت إلى رجل من ولد عمر بن الخطاب ـ وكانت فيه جهامة ـ فقالت : هذا الرجل فى قريش كالشيرج[1] فى الأدهان . فكان بعد ذلك يسمى (فلان شيرج) بل يقال : إنها مالقبت أحدا لقبا إلا لصق به ، لا يفارقه حتى الموت .

وهناك ناحية من أخصب نواحى سكينة ، وهى ناحية الظرف والفكاهة ، فقد كانت موسومة بالدعابة البارعة والمفاكهة المستملحة ، حتى لقد استرعى ذلك أذهان الناس ، فقيل لها : يا سكينة ، أنت تمزحين كثيرا ، وأختك فاطمة لا تمزح ، فكان جوابها ضربا من هذا المزاح الذى لا يفارقها ، قالت : لأنكم سميتموها فاطمة باسم جدتها المؤمنة ، وسميتمونى آمنة باسم جدتى التى لم تدرك الإسلام .

ومما يدل على أن هذا المزح طبيعة فيها أن دبرة[2] لسعتها فى صغرها فآلمتها ، فقالت لها أمها : مالك يا سيدتى ؟ فقالت سكينة : لسعتنى دُبَيرة ، مثل الأَبيرة ، أوجعتنى قطيرة ! وهذا الجواب الشعرى ينظر من كثب إلى قول عبدالرحمن بن حسان ـ وقد لسعه زنبار ـ فقال لأبيه : لدغنى طائر ، كأنه ملتف فى

(١) الشيرج : ماتسميه العامة : السيرج ، وهو دهن السمسم (٢) نحلة

بُرْدى حِبَرَه ! فقال حسان : هذا شعر ورب الكعبة .

ومن نوادرها الطريفة فيما نحن بسبيله ، أنها وقفت على عروة بن أذينة - وكان من جلة العلماء والصالحين - فقالت له : أنت القائل :

إذا وجدت أوار الحب فى كبدى أقبلت نحو سِقاء القوم أبترد

هبنى بردت ببرد الماء ظاهره فمن لنار على الأحشاء تتقد ؟

فقال نعم . فالتفتت إلى جواريها وقالت : هن حرائر، إن كان هذا خرج من قلب سليم .

وهى فى دعابتها الفاشية لا تقف عند حد ، فتراها مرة تعبث بأولى الأمر، فتقيمهم وتقعدهم . غير حافلة بما يكون : أرسلت مرة إلى صاحب الشرطة : أن دخل علينا شامى ! فابعث إلينا بالشرط ، فأتى رئيس الشرطة ففتحت له ، وأمرت جارية من جواريها أن تخرج له برغوثا ، وقالت : هذا هو الشامى الذى شكوناه إليك ، فانصرفوا وهم يضحكون . وتراها مرة أخرى تحدث بدعابتها فتنة تكاد تلتهم الأخضر واليابس ، وهى تشاهد ذلك وادعة ساكنة ، كأن الأمر لا يعنيها : حدث أن خطبها إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، فردته أقبح رد ، وفى ذات يوم تنهدت جاريتها بنانة تنهدا عميقا ، فقالت لها : ويلك ! مالك ؟! فقالت الجارية : أريد أن أرى فى هذا البيت جلبة ، أى عرسا ! فأرسلت سكينة من فورها إلى ابن عبد الرحمن بن عوف الذى خطبها فردته ، وأظهرت رضاءها به - وهى فى نفسها غير راضية - فأحضر الزوج نحو ثمانين رجلا من بنى زهرة، وغيرهم من أعيان قريش ، فلما سمع بذلك بنو هاشم غضبوا غاية الغضب، وجاءوا بعصيهم ، وتضارب الطرفان ، فبطل العرس . وشج أكثر من مائة إنسان ! وحين انصرف الجمع التفتت إلى جاريتها قائلة : أى بنانة ، أرأيت جلبة ؟ قالت : إى والله ولكنها شديدة .

وكانت إذا غضبت على خادمها أشعب ، حكمت عليه أن يموء كالهرة، أو يقرقر كالدجاجة . يقول رجل من قريش : دخلت منزل سكينة ، فإذا أنا بأشعب تحت سرير يقرقر كالدجاجة، فجعلت أنظر وأتعجب، فقالت: مالك تنظر إليه ؟ إنه لخبيث

أفسد علينا أمورنا بغباوته ، فحضنته بيض دجاج ، وجعلته تحته ، وأقسمت ألا يقوم حتى ينقُف . وكان للفرزدق دالة عليها لتشيعه للعلويين ، فغضبت عليه ذات مرة ، وحلفت ألا يدخل إليها حتى يشيب الغراب ! فأراد الفرزدق أن يترضاها بنوع من الدعابة التى تحبها ، فدخل إليها ، وجعل أمامه نصيبا الشاعر - وكان أسود البشرة ، أشيب الرأس - فقالت سكينة : أخزاك الله ، وكيف أصنع بيمينى؟ فالتفت الفرزدق إلى نصيب قائلا : هذا هو الغراب وقد شاب ، فضحكت ورضيت عنه .

أما سكينة الأديبة ، فنقر بالعجز عن الإحاطة بنواحيها ، وحسبنا أن نقول : إنها كانت حجة من حجج عصرها فى هذا الفن : كان كبار الشعراء ، وحذاق المغنين يتحاكمون إليها مطمئنين ، فتقضى بينهم قضاء لا يرد؛ لأنه قضاء العالم الخبير.

دخل إليها ابن سريج والغريض فى بعض حجاتها ، فقال ابن سريج : ياسيدتى إننى كنت صنعت صوتا ، وتنوقت فيه ، وخبأته لك فى حريرة ، فى درج مملوء مسكا ، فنازعنيه هذا الفاسق ، فأردنا أن نتحاكم إليك ، فأينا قدمته تقدم ، فغناها ابن سريج :

عوجى علينا ربة الهودج إنك إلا تفعلى تحرجى

فقالت : هاته أنت ياغريض ، فغناها إياه ، فقالت لابن سريج : أعده ، فأعاده ، ثم قالت : ياغريض ، أعده ، فأعاده ، فقالت : ما أشبهكما إلا باللؤلؤ والياقوت فى أعناق الجوارى الحسان ، لايدرى أى ذلك أحسن .

وأنشدت مرة قول الحارث المخزومى :

ففرغن من سبع وقد جهدت أحشاؤهن موائل الخمر (١)

فقالت : أحسن عندكم ماقال ؟ قالوا : نعم . قالت : وما حسنه ؟ فوالله لو طافت الإبل سبعاً لجهدت أحشاؤها . ودخل عندها كثير عزة ، فقالت له : يابن أبى جمعة ، أخبرنى عن قولك فى عزة :

وما روضة بالحزن طيبة الثرى يمج الندى جثجاثها (٢) وعرارها

(١) جمع خمار .

بأطيب من أردان عزة موهنا وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها

ويحك ! وهل على الأرض زنجية منتنة الإبطين، توقد بالمندل الرطب نارها إلا طاب ريحها ؟ ألا قلت كما قال عمك امرؤ القيس :

ألم تريانى كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباوإن لم تطيب؟

وخرج الفرزدق حاجا ، فلما قضى حجه قصد المدينة ، فدخل إليها فسلم .فقالت: يا فرزدق ، من أشعر الناس ؟ قال : أنا . قالت : كذبت ، أشعر منك جرير الذى يقول :

بنفسى من تجنبه عزيز علىّ ومن زيارته لِمام

ومن أمسى وأصبح لاأراه ويطرقنى إذا هجع النيام

فقال : والله لو أذنت لى لأسمعتك أحسن منه . قالت : فأقيموه ، فأخرج ، ثم عاد إليها من الغد فقالت : يا فرزدق ، من أشعر الناس ؟ . قال : أنا . قالت كذبت ! صاحبك جرير أشعر منك حيث يقول :

لولا الحياء لهاجنى استعبار ولزرت قبرك ، والحبيب يزار

كانت إذا هجر الضجيع فراشها كُتم الحديث ، وعفت الأسرار

لا يلبث القرناء أن يتفرقوا ليل يكر عليهم ونهار

فقال : والله لو أذنت لى لأسمعتك أحسن منه ، فأمرت به فأخرج ، ثم عاد فى اليوم الثالث وحولها موليات كأنهن التماثيل ، فأعجب الفرزدق بواحدة منهن ، ثم قالت سكينة : من أشعر الناس ؟ . قال : أنا . قالت : كذبت ! أشعر منك جرير الذى يقول :

إن العيون التى فى طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لاحراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا

فقال : والله لو أذنت لى لأسمعتك أحسن منه . فأمرت بإخراجه ، فالتفت إليها قائلا : يا بنة رسول الله ، إن لى عليك حقا عظيما : خرجت إليك من مكة ؛ إرادة التسليم عليك ، فكان جزائى تكذيبى وطردى ، وتفضيل جرير على ، ولى ما قد عيل منه صبرى ! وهذه المنايا تغدو وتروح ، ولعلى لا أفارق المدينة حتى

أموت ! فإذا أنا مت، فمرى أن أدرج فى كفنى، وأدفن فى جوف هذه الجارية - يعنى التى استحسنها - فضحكت سكينة، وأمرت له بها، فخرج آخذاً بريطتها، والجوارى يدفعن فى أقفيتهما ! . ثم نادته سكينة : يافرزدق، احتفظ بها، وأحسن صحبتها، فقد آثرتك على نفسى بها .

وحدث حماد قال : اجتمع بالمدينة راوية جرير ونصيب والأحوص وجميل، فافتخر كل واحد منهم بصاحبه، وقال : صاحبى أشعر . فاتفقوا على تحكيم سكينة ؛ لما يعرفون من عقلها، وبصرها بالشعر . فقالت لراوية جرير : أليس صاحبك الذى يقول :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعى بسلام

وأى ساعة أحسن من الطروق ؟ قبح الله صاحبك، وقبح شعره !

ثم قالت لرواية جميل : أليس صاحبك الذى يقول :

فلو تركت عقلى معى ما طلبتها ولكن طلابيها لما فات من عقلى

فما أدرى بصاحبك من هوى . إنما يطلب عقله، قبح الله صاحبك وقبح شعره !

ثم قالت لراوية نصيب : أليس صاحبك الذى يقول :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت فوا حزنا ! من ذا يهيم بها بعدى ؟

فما أرى له همة إلاّ فيمن يتعشقها بعده ! هلا قال :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى

قبح الله صاحبك وقبح شعره !

ثم قالت لراوية الأحوص : أليس صاحبك الذى يقول :

من عاشقين تراسلا وتواعدا ليلا إذا نجم الثريا حلقا

باتا بأنعم ليلة والذها حتى إذا وضح الصباح تفرقا

قال : نعم . قالت : قبح الله صاحبك وقبح شعره ! هلا قال : تعانقا .

فلم تثن على واحد منهم، ولم تقدمه فى ذلك اليوم، وقد ذكر الهيثم بن عدى مثل ذلك فى جميعهم إلا جميلا، فإنه خالف فيه هذه الرواية وقال : إنها قالت لراويته : أليس صاحبك الذى يقول :

فياليتنى أعمى أصم تقودنى بثنية ، لا يخفى على كلامها

قال : نعم . قالت : رحم الله صاحبك ! إنه كان صادقاً فى شعره ، وكان جميلا كاسمه .

وذكروا أنه اجتمع فى ضيافتها جرير والفرزدق وكثير وجميل ونصيب ، فمكثوا أياماً ، ثم أذنت لهم ، فدخلوا إليها ، فجلست حيث تراهم ولا يرونها ، وتسمع كلامهم ، ثم أخرجت وصيفة وضيئة ، قد روت الأشعار والأحاديث ، فقالت لهم : أيكم الفرزدق ؟ قال لها : هأنذا . قالت : أنت القائل :

هما دلتانى من ثمانين قامة كما انحط باز أقتم الريش كاسره
فلما استوت رجلاى بالأرض قالتا أحى يرجى ؟ أم قتيل نحاذره ؟
فقلت : ارفعوا الأمراس لا يشعروا بنا وأقبلت فى أعجاز ليل أبادره
أبادر بوابين قد وكلا بنا وأحمر من ساج تبص مسامره

قال : نعم . قالت : فما دعاك إلى إفشاء سرها ؟ هلا سترت عليك وعليها ، خذ ألف درهم والحق بأهلك .

ثم دخلت إلى مولاتها وخرجت ، فقالت : أيكم جرير ؟ قال : هأنذا . قالت : أنت القائل :

تجرى السواك على أغر كأنه برد تحدر من متون غمام
لو كان عهدك كالذى حدثتنا لوصلت ذاك وكان غير لمام
إنى أواصل من أردت وصاله بحبالِ لا صلف ولا لوام

قال جرير : نعم . قالت : هلا أخذت بيدها ، وقلت لها ما يقال لمثلها ؟ أنت عفيف وفيك ضعف . خذ هذه الألف ، والحق بأهلك .

ثم دخلت إلى مولاتها وخرجت ، وقالت : أيكم كثير ؟ قال : هأنذا . قالت : أنت القائل :

وأعجبنى ياعز منك خلائق كرام إذا عد الخلائق أربع :
دنوك حتى يدفع الجاهل الصبا ودفعك أسباب المنى حين يطمع
فوالله لا يدرى كريم تماطل أينساك إذ باعدت أم يتصدع

قال : نعم . قالت: ملحت وشكلت! خذ هذه الثلاثة الآلاف،والحق بأهلك.

ثم دخلت على مولاتها وخرجت ، فقالت : أيكم نصيب ؟ قال هأنذا . قالت، أنت القائل :

ولولا أن يقال صبا نصيب لقلت : بنفسى النشأ الصغار

بنفسى كل مهضوم حشاها إذا ظلمت فليس لها انتصار

قال : نعم . قالت: ربيتنا صغارا،ومدحتنا كبارا. خذهذه الألف،والحق بأهلك.

ثم دخلت على مولاتها وخرجت ، فقالت: ياجميل ، مولاتى تقرئك السلام ، وتقول لك : والله مازلت مشتاقة إلى رؤيتك ، منذ سمعت قولك :

يقولون جاهد ياجميل بغزوة وأى جهاد غيرهن أريد

لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيـــل بينهن شهيد

جعلت حديثنا بشاشة ، وقتيلنا شهيدا ، خذ ألف دينار والحق بأهلك .

وقد بلغ من حبها للأدب ، وتتبعها لأخباره ، أنها كانت تسير ذات ليلة ، فسمعت حاديا يحدو فى الليل ويقول :

لولا ثلاث هن عيش الدهر ...

فقالت لقائد قطارها : الحق بهذا الرجل حتى نعرف ماهذه الثلاثة ، فسار بها طويلا حتى تعبا ، فقالت له : سر أنت حتى تسمع منه ، فرجع إليها ، فقال : سمعته يقول : الماء والنوم وأم عمرو .

فقالت : قبحه الله ، لقد أتعبنا منذ الليلة .

هذا، ولم تسلم سكينة-مع سمو مكانتها فى قريش-من جمحات ابن أبى ربيعة ، ولكنها كانت لما يقول أرحب صدرا من ضرتها عائشة بنت طلحة ، ولعل ذلك راجع إلى أن حظها من الطرب والمرح أوفى من حظ عائشة ، ونجل سكينة عن إيراد شىء من شعر عمر فيها، مع خلوه من الفحش والرفث . وأذكر بهذه المناسبة: أن إسحاق الموصلى غنى الرشيد صوتا فى نسيب عمر بها ، فوضع الرشيد القدح

من يده ، وغضب غضبا شديدا، وقال: لعن الله هذا الفاسق، ولعنك معه . فسقط فى يد إسحاق ، وعرف الرشيد ما به فسكن غضبه : ثم قال له : أتغنينى أحاديث الفاسق ابن أبى ربيعة فى بنت عمى ، وبنت رسول الله ؟ ألا تتحفظ فى غنائك ، وتدرى مايخرج من رأسك ؟ عد إلى غنائك الآن ، وانظر بين يديك . قال إسحاق : فتركت هذا الصوت حتى أنسيته ، فما سمعه منى أحد بعده .

ومما تقدم نعرف أن ريحانتى قريش: عائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين، كما تشاكلتا فى الحسن والجمال والثروة والجاه ، تشاكلتا كذلك فى عامة أخلاقهما، ونزعتهما الأدبية . رحمهما الله تعالى !

على الجندى

رأى جماعة دار العلوم

فى اللغة العربية

جالت الأقلام أخيراً ، ولهجت الألسنة فتناولت اللغة العربية وحالها فى المعاهد المختلفة ، وأسرف فريق ممن تصدوا لهذا الموضوع ، فحكم بضعف اللغة العربية ، دون أن يكون لحكمه سند معقول ، وخرج فريق آخر عن جادة الصواب ، فحاول أن يمس القائمين بتدريسها ، والإشراف عليها فى المدارس ، وخاضت طائفة فى موضوع أساليب التدريس ، ومقدرة المدرس ، إلى غير ذلك .

ولا ندرى ما الباعث على هذه الحملة ؟ وما الذى دعا إلى إثارتها فى هذا الوقت ؟ ولماذا لم تنبت هذه الفكرة قبل هذا ؟ وهل جد جديد فى اللغة العربية ومستواها .

إننا لم نلمح هبوطا مفاجئاً ، أو ضعفاً قلبت به الأوضاع ، اللهم إلا تلك النتيجة التى تجلت فى امتحان بعض المعاهد العالية ، فدعت إلى اتجاه الأذهان لأسبابها ، وفكر المسئولون عن هذه النتيجة فى وسيلة يرجعونها إليها ، وحاولوا أن يحملوا غيرهم هذا التفسير ، ويلصقوا التهمة بالمدارس الثانوية ونظامها ، والقائمين بالتدريس فيها .

ولسنا فى مقام الرد على المهاجمين ، أو تفنيد دعاوى القائمين بهذه الحملة ، ولكنا سنبدى رأينا فى الموضوع ، ووجهتنا التمحيص والإصلاح ، فهذا خير وأجدى .

حالة اللغة العربية :

لاريب فى أن اللغة العربية قد اطرد تقدمها فى العهد الأخير من حياة مصر ، ولا جدال فى أن لغة الكتابة والخطابة قد شملها رقى محمود ، وصفاء من شوائب الركاكة ، والتواء الأساليب والأخطاء والعجمة ، التى كانت قد استفحلت وتغلغلت فى قلب اللغة ، فى العصور المظلمة التى مرت بها البلاد .

والدليل على كل ذلك ملموس ، فيما نرى فى لغة الصحف والمجلات ، وفى المؤلفات الكثيرة فى شتى العلوم ، وفى المجامع العلمية ، والمحاضرات العامة ، وفى لغة

القضاء وغير ذلك ، ويجدر بمن يتصدى لأن يكون حكما فى هذا الموضوع ، ألا يغفل عن كل ذلك ، ولا عن النظر إليه نظرة نزيهة .

ولعل من أظهر الأدلة فى هذا الصدد أن بعض الصحف اليومية ، كانت تفرد صفحة أدبية، يتبارى فيها الطلبة . ومن الحق أن نقرر أن هذه الصفحة كانت ميداناً خصباً لأقلامهم ، ودليلا ناصعاً على نهضة محمودة ، وعلى مايمكن أن تصل إليه معلوماتهم فى اللغة العربية من قوة وازدهار، إذا وجهت التوجيه الصالح ، وصادفت التشجيع الحافز ، والتنشيط الذى يجب أن تناله لغة البلاد .

هذه هى الحال فى خارج ميدان التدريس ، أما فى المدارس فالموازنة بين اللغة العربية فى الماضى والحاضر ، تتطلب خبرة فنية وعلمية ، وإلماماً بالتدريس وطرقه، وأساليب السير بعقول المتعلمين ، وتقويم ألسنتهم ، ومعرفة المدارس ، وما فيها، والمناهج واتجاهها ، فليس الحكم فى كل هذا مما يتصدى له كل إنسان. فإن لهذا الميدان رجاله الفنيين ، الذين خبروا التعليم والمدارس ، وألموا بحال اللغة العربية فيها ، فهم على الحكم أقدر ، أما إبداء الرأى من غير خبرة ، أو إلمام بالأشواط التى قطعتها اللغة العربية فى المدارس ، أو مراعاة للعقبات التى اعترضتها فى النهوض ، والإحاطة بالجهود التى يبذلها رجال اللغة العربية فى الإصلاح والتقويم ، فليس بالحكم العلى الرصين .

ومن العدل ألا تبرم الأحكام فى هذا الموضوع ، إلا فى ضوء من الخبرة ، المبنية على الأسس الصحيحة، مع الإحاطة بماضى اللغة وحاضرها ، وحالتها العامة فى المدارس ، وفى البيئات العلمية والأدبية ، وبهذا يجىء الحكم سديداً ، منزهاً عن الهوى والغرض .

ومن الحق ألا ينزل إلى هذا الميدان إلا رجاله ، وليس من الإنصاف للغة ورجالها ، أن نصغى لكل من حدثته نفسه بأنه من رجال هذا الميدان .

على أننا لاندرى ما الذى دعا بعض الناقدين بعلم أو غير علم إلى القول بضعف اللغة العربية ، وعلى أى أساس اعتمدوا .

فنقلب الرأى على وجوهه ، علنا نرى ماعسى أن يكون فى ظنهم هو الحجة التى اعتمدوا عليها .

١ — أتراهم اعتمدوا على نتائج الامتحانات ؟ إن الباحث لايجد فيها بصدد اللغة العربية مايدعو إلى هذه الحملة ، وإنا نسوق الدليل بذكر بيان يوضح نسبة الرسوب فى اللغة العربية فى عدة سنوات مضت ، وهو :

		مدارس أميرية		مدارس غير أميرية		طلبة المنازل		جملة الطلبة	
		عدد الطلبة	النسبة المئوية للراسبين	عدد الطلبة	النسبة المئوية للراسبين	عدد الطلبة	النسبة المئوية للراسبين	عدد الطلبة	النسبة المئوية للراسبين
١٩٣٦	علمى	١٦٦٤	٣	١٣٣٠	١٠	١٩٨	١٣	٣١٩٢	٦
	أدبى	٧٤٣	٣	٨٦١	١٠	٣٧٩	١٨	١٩٩٣	٩
١٩٣٥	علمى	١٤٧٣	٢	١٣٥٦	٩	١٨١	١٢	٣٠١٥	٦
	أدبى	٦٩٥	١	٨٥٤	٥	٣٢٧	١١	١٨٨٦	٥
١٩٣٤	علمى	١١٩٣	٤	ت ٦٧٦	١٢	٢٠٢	١١	٢٥١٠	٩
				لا ٤٣٩	١٧				
	أدبى	٥٣٥	٥	ت ٣٢٨	١٧	٣١٦	٢٨	١٥٠٧	١٤
				لا ٣٣٨	١١				
١٩٣٣	علمى	١٥٤٩	٢	ت ٨٣٦	١١	٢٠٥	٩	٣٠٤٦	٦
				لا ٤٥٦	١١				
	أدبى	٦٦١	٤	ت ٤٤٥	٩	٣٠١	٢٦	١٧٨١	١١
				لا ٣٧٤	١٦				

ت : خاضعة للتفتيش .

لا : غير خاضعة للتفتيش .

وهذا البيان مستمد من الإحصاء العام ، الذى تضعه لجنة المراقبة العامة فى امتحان شهادة الدراسة الثانوية كل سنة ، وفيه معلومات شتى فى هذا الشأن . ويمكن الرجوع إليه فى مراقبة الامتحانات بوزارة المعارف . وفيه — إلى جانب ماتقدم —

نسبة الرسوب فى سائر المواد الدراسية الأخرى .

ولعل المطلع على الاحصاء الذى سردناه ، لا يرى فيه حجة للناقدين ، بل إنه دليل على عكس ما يرمون به اللغة العربية ورجالها .

وقد يقال : إن الناقدين بنوا حكمهم على نتيجة الامتحان فى هذا العام ، غير أننا نلاحظ أن هذه الحملة ضد اللغة العربية ، قد بدت طلائعها قبل أن تظهر نتيجة الامتحانات العامة . اللهم إلا إذا كان دليلهم هو ما يقدمه المصححون قبل ظهور النتائج ، من إحصاء إجمالى أو تفصيلى بعد الانتهاء من التصحيح .

على أنا لا نعتقد أن فى هذا دليلا على دعوى المدعين ، فلم تكن نتيجة اللغة العربية بالنتيجة السيئة ، ولم تكن تستدعى هذه الحملة التى لا مسوغ لها .

على أنه إن صح كل ما يقوله المهاجمون فى نتيجة هذا العام ، فهل من الإنصاف أن يتخذ ذريعة لتجريح اللغة العربية ، والتهجم على رجالها ؟ أو لم يكن لهم من نتائج الأعوام السابقة ما يجعل حكمهم نزيها عادلا ؟

ولنفرض أن النتائج قامت دليلا على أن نسبة الرسوب فى اللغة العربية أكثر مما كانت فى الأعوام السابقة ، فهل وازنوا بين النسب فى جميع المواد الدراسية ؟ ولو أنهم فعلوا لظهر لهم أن الضعف شامل ، وأنه لابد من عامل مشترك يعزى اليه ما لمحوا من هبوط ، وأن نظام التدريس فى اللغة العربية ، وعناية مدرسيها بعملهم ، وكفايتهم ، لا دخل لهما فى الموضوع .

وإذا كانت نتائج الامتحان هي مثار النقد ، ومبعث الحملة على المدارس والقائمين بالتعليم ، فما للناقدين قد خصوا اللغة العربية بحملتهم ، وغفلوا عن النتيجة فى كلية الآداب هذا العام ؛ إذ كانت ١٧ ٪ ولم يثيروا حولها ثائرتهم ؟ ولماذا لم يثيروا هذه الضجة حين ساءت النتيجة فى كلية التجارة ، ولم يغن فى رفع مستواها ما أضيف من درجات كثيرة لجمهور الطلاب ؟ لقد مر كل هذا دون أن نسمع ضجة كالتى سمعناها بصدد اللغة العربية ، فهل هناك عوامل كامنة ، يرجع إليها غلو الناقدين ، وصب سياط نقدهم على اللغة ورجالها ؟

لقد كان الأجدر بالناقدين أن يكون الإنصاف رائدهم ، وأن يتحلوا بالعدل ليكون حكمهم سديداً رشيداً .

ب — أو لعل الناقدين قد بنوا حكمهم على حال اللغة العربية فى المدارس ، فهل خبروها عن كثب ، خبرة فنية ، توصل إلى الحكم السليم ؟ وأين أتيحت لهم الفرص التى تمكنهم من هذا ؟ إن الخبرة بالمدارس إنما تجىء عن طريق التدريس ، أو التفتيش ، أو عن طريق عامل آخر إضافى هو الامتحان . فهل كان للناقدين نصيب من هذا ؟ وإذا لم يكن ، فما أحراهم أن يتنحوا عن ميدان النقد ، ويتركوا الإصلاح لأهله ولمن هو به عليم !

ج — أم هم بنوا حكمهم على ما عسى أن يكونوا قد اطلعوا عليه ، مما يسطره الطلاب فى امتحان المواد الأخرى ، أو نحو ذلك ؟ وهذا مقياس آخر للحكم ، ولكن يجدر بنا قبل الاحتكام إليه ، أن نبحث عن المعين الذى يستمد منه الطلبة ما يسطرون من عبارات ، فيما يختص بهذه المواد الدراسية ، لنعرف من الملوم فيما اشتملت عليه من خطأ وركاكة .

وإن من الحق والإنصاف ، أن نبحث عن أسباب هذا فى ميدان غير دروس اللغة العربية ، ومدرسيها ، وطرق تدريسها ، ومن الحق والإنصاف أيضاً أن ننظر فى لغة التدريس لهذه المواد ، فهى من أقوى العوامل فى توجيه الأقلام وإمداد الأفهام .

ولو كان المجال فسيحاً لأثبتنا ملخصات منقولة بحروفها عن الأفواه فى محاضرات ألقيت فى بعض المعاهد العالية ؛ لنرى بأى لغة يدرسون الأدب أو غيره .

أما لغة التدريس فى المواد الأخرى فإن ضعفها لا يحتاج إلى دليل ، وسنشير إلى ذلك وإلى أثره فيما بعد .

* * *

هذه وجهات من النظر كان يجدر بالناقدين أن يعيروها جانباً من الاهتمام ، ولسنا نريد أن نقف معهم موقف جدل أو احتكام ، ولكنا نكرر ما أشرنا اليه من قبل ، وهو أن الحكم على اللغة أولها ، إنما يكون صحيحاً إذا اقترن بمعرفة المدارس ، ودخائلها ، وحال التلاميذ فيها ، فى الفترات المتعاقبة من العهد الأخير

فى البلاد . ولهذا الحكم طرقه التى يعرفها رجال اللغة الفنيون الخبيرون .

أما أن يتصدى للحكم غير أهله ، أو أن يشاب هـذا الحكم بغاية أو غرض يرمى إليه الناقد ، فهذا مما ينحرف بالحكم عن جادة الصواب ، ولايحقق غاية ، ولا يوصل إلى الإصلاح المنشود .

* * *

لسنا نبغى بكل ماتقدم أن نسد الباب أمام من يريد إصلاحا ، أو نقداً ، مرتكزاً على القواعد الصحيحة ، ولـكنا نريد أن يكون النقد نزيهاً ، مجرداً عن الهوى ، مقروناً بالخبرة الشاملة ، وإنا نرحب بالإصلاح إذا كان الحافز إليه حب الحق ، وهذا هو ما يجب أن تتجه إليه العناية .

* * *

نترك كل هذا فما إليه قصدنا . وما ألجأنا إلى التعرض له إلا الأساليب التى سلـكها الناقدون والمهاجمون .

ونذكر رأينا فى الداء وفى الدواء .

العوائق فى تعليم اللغة العربية :

ويجدر بنا هنا أن نسجل بعض الحقائق التى لا يجادلنا فيها ناقد ؛ ذلك أن القائمين بتدريس اللغة العربية ، والعمل على إنهاضها ، قد جاهدوا لتحقيق غايتهم فى جو مملوء بالأشواك ، مشبع بعوامل كثيرة تضعف اللغـة ، وعملوا على إقالتها من عثارها ، وإنقاذها من براثن التدهور ، الذى كان قد تغلغل فى أحشائها فى العصور الأخيرة المظلمة ، وساروا بخطا حثيثة ، وهمة مقرونة بالإخلاص والعزم الصادق ، فى طريق محفوف بالعقبات ، ولعل الإشارة إلى هذه العوائق مما لابد منه ؛ للوصول إلى الاصلاح .

وأهم هذه العقبات ما يأتى :

١ — اللغة العامية فى التدريس :

كانت لغة التعليم إلى عهد ليس بالبعيد هى اللغة الأجنبية ، وكان لها الحظ الأوفر من العناية ، ولم يكن للغة القومية نصيب يبعث على الاهتمام بها .

وحين تبدلت الحال ، وأصبحت لغة التعليم هى اللغة الوطنية ، لم يكن للغة العربية

من هذا التغيير عون يساعدها ، ولم تسلم من عائق آخر يهدد كيانها . فقد حلت اللغة العامية محل الأجنبية فى تدريس المواد ، وليست العامية بأقل خطورة على اللغة وكيانها من اللغة الأجنبية ، بل قد تكون أمضى حداً ، وأشد وقعاً ، فهى عامل إيجابى فى إضعاف اللغة ، وهدم ما يبنى معلموها .

٢ — لغة التخاطب وأثرها :

ولم يكن هذا وحده من عوامل الهدم ، ووسائل الإضعاف ، بل هناك ذلك العامل الشامل المتفشى فى كل ناحية ، وهو اللغة العامية ، المتأصلة فى الحياة العامة ، فى خارج حجرات التعليم ، وهى اللغة المستعملة فى التخاطب ، وفى التعبير عن جميع المقاصد ، وهى التى تطرق سمع الطفل منذ نشأته . ولا يخفى أن العامية ليست عونا لمعلم اللغة العربية فإنها أشبه بلغة أخرى ، يستخدمها الجميع فى التعبير والتفاهم .

٣ — أثر البيئة :

وفوق ماتقدم هناك عامل آخر ، له أثر ليس بالقليل ، وهو أن البيئة المصرية ليس فيها من عوامل التشجيع ما يغرى التلاميذ بالحرص على تعلم اللغة العربية ، والإقبال على دروسها ، فإن الذى رسخ فى الأذهان ، ويؤيده المشاهد ، أن أقل قسط من اللغة العربية يكفى للنجاح ، وللسير فى الوظائف الحكومية وغيرها ، وليس هناك من يحاسب على الخطأ والصواب فى تحرير أو تعبير ، والدراسات العالية أيضاً ليس فيها مايدعو إلى التزود بقسط وافر من اللغة العربية .

٤ — حظ اللغة العربية من الزمن الدراسى :

ثم انظر بعد كل هذا إلى نصيب اللغة العربية من الزمن ، فى خطط الدراسة بالمدارس ، وتصفح جميع المناهج التى تعاقبت على المدارس الثانوية ، تجد أن حظ اللغة العربية من عدد الحصص ، لا يدعو إلى الاغتباط ، ولا هو مما تفخر به لغة قومية . فقد كانت اللغات الأجنبية أرجح قسطا ، وأوفر زمناً ، وأكثر حظوة بالعناية والتوفر على الدرس والتحصيل ، مما جعل التلاميذ يولونها نصيباً عظيما من عنايتهم ، ومن أوقات فراغهم ، وإليك الموازنة بين الحصص ، فى الماضى والحاضر ، وبين اللغة العربية واللغات الأجنبية :

تاريخ المنهج	اللغات	السنة الاولى	السنة الثانية	السنة الثالثة		السنة الرابعة		السنة الخامسة		المجموع		اللغة العربية واللغات الاخرى فى جميع السنوات	
				علمى	ادبى	علمى	ادبى	علمى	ادبى	علمي	ادبى	علمى	ادبى
سنة ١٩٠٥	اللغة العربية	٨	٨	٨	٨	٨	٨			٣٢	٣٢	٣٢	٣٢
	« الاولى	٩	٩	٩	٩	٩	٩			٣٦	٣٦		
	« الثانية	—	—	—	٦	—	٦			—	١٢	٤٢	٥٤
	الترجمة	٢	٢	١	١	١	١			٦	٦		
سنة ١٩٢٨	اللغة العربية	٦	٦		٦	٥	٧	٥	٧	٢٨	٣٢	٢٨	٣٢
	« الاولى	٧	٧		٧	٦	٧	٦	٧	٣٣	٣٥		
	« الثانية	٤	٤		٤	٣	٥	٣	٥	١٨	٢٢	٥٦	٦٢
	الترجمة	١	١		١	١	١	١	١	٥	٥		
سنة ١٩٣٤	اللغة العربية	٦	٦		٦	٥	٧	٥	٧	٢٨	٣٢	٢٨	٣٢
	« الاولى	٩	٩		٩	٧	٨	٧	٨	٤١	٤٣		
	« الثانية	٤	٤		٤	٤	٦	٤	٦	٢٠	٢٤	٦٦	٧٤
	الترجمة	١	١		١	١	٢	١	٢	٥	٧		
سنة ١٩٣٥	اللغة العربية	٦	٦		٦		٦				٢٤		٢٤
	« الاولى	٩	٩		٨		٨				٣٤		
	« الثانية	٤	٤		٤		٤				١٦		٥٠

على أن اللغات الأجنبية - على وفرة ما اختصت به من زمن - قد تصاعدت الشكوى من ضعفها ، ومن خروج الطلاب من المدارس الثانوية دون أن يعرفوا منها إلا مبادىء سطحية (راجع تقرير حضرة صاحب السعادة أحمد نجيب الهلالى بك وزير المعارف الأسبق).

٥ — التبكير فى تعليم اللغة الأجنبية :

ولا ننسى إلى جانب ما تقدم أن اللغة الأجنبية تغزو عقل الطفل فى سن مبكرة فى المدارس الابتدائية كما هو معلوم ، وتنال من زمن الطفل وجهده نصيباً كانت اللغة القومية ، والثقافة العقلية أجدر به وأولى . ولسنا هنا بصدد البحث

النفسى المستفيض فى استعداد الطفل لتلقى لغة أجنبية ، فى السن المبكرة من الدراسة الابتدائية ، ولكنا نشير إلى حقيقة تدرك معكوسة ، ويتخذ من عكسها أساس لإدخال اللغات ، ابتداء من السنة الأولى الابتدائية . ذلك أن المرونة العقلية التى يظن بعضهم أنها تسوغ هذا التبكير ، إنما تكون على أشدها بين الثالثة والسابعة ، وتكون مقدرة سمعية تقليدية . أما فى سن السابعة فإنها تفتر إلى حد جعل الباحثين لا يرون من الصواب أن يشغل العقل بلغتين فى وقت واحد . على أنا نترك هذا البحث ، فالمربون قد فرغوا من التدليل عليه .

٦ — خلو الدراسات العالية من اللغة العربية :

وهناك عامل آخر ، وهو أن المدارس العالية ، لا أثر فيها للاستزادة من دراسة اللغة العربية ، ولا للعناية بها .

ولقد كان من الإنصاف للغة القومية ، أن يكون لها فى التعليم العالى — ولا سيما معاهد المعلمين — نصيب .

هذه هى بعض العوامل التى اعترضت تعليم اللغة العربية ، وعاقت المعلم عما ينشد من غاية ، يرجو أن يحققها للغة البلاد ، وهى عوائق تسد الطريق فى معظم نواحيه ، وتهد جهود الجبابرة .

على أنه على الرغم من كل هذا ، لم يفت فى عضد القائمين بتدريس اللغة العربية ، والإشراف عليها ، فقد ساروا فى عملهم سيراً مقرونا بالاهتمام والابتكار ، وتدرجوا بالمناهج وبأساليب التدريس ، متمشين مع سنة النهوض حتى حفظوا للغة كيانها ، ووصلوا بها إلى مستوى محمود ، لا يجادل فيه المنصفون .

ولقد كان الأجدر بمن يتحدثون عن ضعف اللغة العربية ، أن يعجبوا كيف استطاعت هذه اللغة أن تقاوم هذه الأعاصير . وكيف تسنى لرجالها أن يصمدوا أمام هذا التيار الجارف ، وأن يحرز تعليم اللغة على أيديهم ما أحرز من نجاح ! ولكنها عناية الله الذى أنزل الفرقان باللسان العربى المبين .

وما كان أخلق الناقدين أن ينظروا إلى كل ما تقدم ، نظرة إنصاف قبل الحكم والاتهام .

٧ — النظام المدرسى فى السنوات الأخيرة :

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى عامل آخر ، كان له أثر فى المدارس ونظامها فى

السنوات الأخيرة ، وذلك هو ماغشى المدارس من اضطراب ، أجهد كثيراً من المصلحين ، وحال دون أداء الأعمال على الوجه الأكمل ، وما اندفع فيه التلاميذ من تيار الإهمال والاستهتار بالواجب ، مما أدى إلى ركود التحصيل فى جميع المواد الدراسية .

وإذا كانت اللغة العربية قد أصابها شواظ من هذا الإعصار ، فقد كان من الإنصاف ألا يختصها الناقدون بسهامهم .

لعلنا فى ثنايا ماتقدم قد ألمعنا إلى بعض العوامل ، التى تعترض سير اللغة العربية ، وتقف فى سبيل القائمين بتعليمها ، ومن يهتمون بنهوضها ، وقد أشرنا إلى هذه العوائق ؛ لأن الإلمام بها يمهد السبيل للإصلاح .

وسنجمل القول فى الوسائل التى نرى أنها تكفل للغة العربية قسطا من النهوض :

١ — عدد الحصص :

إن حظ اللغة العربية من الزمن قليل ، فعدد حصصها فى المنهج الأخير للثقافة العامة ست حصص ، فى كل سنة من سنوات الدراسة ، وإن الموازنة بين هذا النصيب للغة العربية — وهى لغتنا القومية — ونصيب اللغات الأجنبية ، لتوضح ظاهرة تدعو إلى العجب والأسف . ولو كانت اللغة العربية هى لغة التخاطب فى المنزل ، وفى الحياة العامة وشئونها ، لكان فى هذا بعض مانتأسى به ، ولكن اللغة العربية ليست لغة الحياة العامة ، بل إن التلميذ يتعلمها كما يتعلم لغة أجنبية . وياليتها كانت كاللغات الأجنبية ، ليس أمامها ذلك العامل القوى فى أثره ، وهو اللغة العامية . إذن لكان الخطب أهون . فإن من يتعلم لغة أجنبية ، فى مأمن من اللغة غير الصحيحة ، التى تطغى على الألسنة فى المدرسة وفى خارجها .

ولقد كان من المعقول بعد كل هذا أن تكون اللغة العربية ، أوفر زمناً من اللغات الأجنبية ، أو مماثلة لها فى ذلك على الأقل .

لذا نرى أن تزاد حصص اللغة العربية فى المدارس الثانوية ، ولهذه الزيادة شأنها من عدة وجوه ، وذلك لما يتبعها من زيادة الاهتمام باللغة العربية ، وزيادة نصيبها من ساعات الفراغ ، وزيادة نصيبها العام من جهد التلميذ الأسبوعى فى المدرسة وخارجها .

٢ — ينبغى أن يكون لدراسة النصوص الأدبية والمحفوظات شأن ، ونصيب وافر من الزمن ، وأن تتضمن دراسة كتاب شائق ، أو فصول من كتاب ، دراسة وافية ،

مع الاختبار فى ذلك ، ووضع درجات له تناسبه فى الامتحان الكتابى والشفهى .

٣ — ليكن للاختبار الشفهى فى اللغة العربية شأن يميز بين القوى والضعيف من التلاميذ ، مع تحديد نسبات صغرى ، لفروع الامتحان الشفهى فى المحفوظات والنصوص والمطالعة ، وضم الدرجة النهائية لذلك ، إلى المجموع العام للدرجات .

٤ — لا داعى للتبكير فى تعليم لغة أجنبية ، بالمدارس الابتدائية ، فلهذا من الأضرار ما سطره المربون .

٥ — إذا لم يكن من الميسور الآن إصلاح لغة التخاطب فى المنزل وفى البيئة الخارجية ، فليس من الإنصاف للغة البلاد ، أن تظل لغة التعليم فى المواد الأخرى على هذه الحال من الضعف والتدهور ، فإن لهذا أثرا سيئاً فى تدريس اللغة العربية ، وفى القضاء على ما يجنى التلاميذ فى دروسها من ثمرات .

ولعل من وسائل العلاج فى هذا الصدد أن يزود من يعدون أنفسهم لمهنة التعليم بقسط من اللغة العربية ودروسها ، يكفل لهم احترامها ، والحرص على الإبانة بها .

٦ — ينبغى أن يكون لفروع اللغة العربية فى الامتحان التحريرى نهايات صغرى عالية ؛ حتى يهتم التلاميذ بجميع شعب اللغة العربية ، فإن النهايات الصغرى الحالية ، تشجع على الإهمال والتهاون .

٧ — ينبغى أن يكون للغة العربية الصحيحة شأن فى مصالح الحكومة ، وأن يتخذ ولاة الأمور من الوسائل ما يشعر بأن من النقص أن تكون المكاتبات والمنشورات وغيرها مشوبة بالأخطاء ، وركاكة التعبير ، وضعف الأسلوب .

وإذا لم يكن فى مقدور بعض الموظفين أن يكتبوا كتابة سليمة ، جارية على المنهج العربى الصحيح ، فلتضع الوزارات المختلفة من النظم ، ما يكفل إصلاح ما يكتب الموظفون . ولقد عنيت مصالح الحكومة بشىء من هذا ، فى زمن مضى ، فكان فى كل منها من رجال اللغة العربية من يشرف على صقل اللغة وإصلاحها .

٨ — بث وسائل التشجيع بين التلاميذ ، لكى يهتموا بإجادة اللغة العربية ، وذلك (ا) بالتنويه بالمجيد ، فى حفلات مدرسية ، يحضرها ذو الشأن . « ب » وبمنح جوائز التفوق فى اللغة العربية . « ج » وبتشجيع التلاميذ على كتابة المقالات وإلقائها ، فى اجتماعاتهم المدرسية ، أو نشرها فى مجلة المدرسة ، مع الاهتمام بالإشراف عليها . إلى غير ذلك من الوسائل الكثيرة .

٩ ــ أما كتب المطالعة فلنا بصددها كلمة : فقد طال احتكار الكتب المدرسية ، فى المطالعة العربية ، فترة طويلة من الزمن ، فرضت فيها كتب خاصة على التلاميذ . ولم يكن من الميسور أن يضمن أحد المؤلفين النجاح أو التشجيع ، إذا تقدم بما يعتقد أنه صالح مفيد من الكتب ؛ ولهذا انصرفت الهمم عن التجديد .

ونرى أن يفتح باب المسابقة ؛ لتأليف الكتب النافعة ، فى المطالعة المدرسية والمنزلية ، لتختار الوزارة الصالح منهما ، وتكافىء صاحبه ، وإلى جانب ذلك كتب أخرى ، يعهد فى تاليفها إلى لجان ، تختارها الوزارة ، مع التجديد فى كل ذلك ، تمشيا مع سنة التقدم ، وما يتطلبه نهوض البلاد .

وستجد وزارة المعارف من رجال اللغة العربية ــ إذا يسرت لهم السبيل ــ مايدعو إلى الاغتباط .

(١٠) بقيت كلمة خاصة بالمناهج :

ذلك أن مناهج اللغة العربية قد تعهدها رجالها ، وساروا بها فى مراحل متدرجة ، وكانوا يصلحونها ويغيرونها ، كلما عرضت فرص تمكنهم من ذلك ــ على قدر ما كان فى أيديهم من سلطة ــ وقطعت المناهج شوطا من التقدم والتمشى مع التجديد ، جعل اللغة أقرب متناولا ، وجعل لدروس القواعد غاية عملية إنشائية مزجها باللغة ، وأوجد التماسك بين جميع دروس اللغة العربية ، فى شعبها المختلفة ، حتى صارت هذه الشعب ترمى إلى غاية واحدة ، وهى التعبير السليم ، والثقافة العامة ، وغير ذلك من الأغراض ، ومن الظواهر التى تجلت أن الكتب التى ألفت فى قواعد اللغة ، بدأت تسير نحو التقدم ، طبقا لهذا الروح .

ولقد كان المأمول أن يسير الإصلاح على هذا النسق ، فى خطوات متدرجة ، يرعاه رجال اللغة العربية ، الذين خبروه فى مراحله ، وعرفوا المواطن التى تتطلب العلاج ، ولكن عاصفة من التغيير هبت ، فجرت بمناهج القواعد وبكتبها ، على أسلوب آخر ، أحس معظم مدرسى اللغة العربية ــ أو كلهم ــ أنه حلقة نابية عن سلسلة الإصلاح ، الذى رسمت خطته منذ سنوات ، وأن هذه المناهج فى حاجة إلى التغيير فى المدارس الابتدائية والثانوية ، وقد سطروا ذلك فى الملاحظات التى قدموها .

ويقيننا أن هذه المناهج ستنال قسطها من العناية .

هذا مجمل لما نرى من وسائل الإصلاح ، فإذا صح العزم على النهوض بلغة البلاد ، فالمنهج واضح ، والطريق قويم مستقيم .

جماعة دار العلوم

طرائف اللغة (١)

للأستاذ مهدى أحمد خليل
المفتش بوزارة سابقا المعارف

مَفْعَلَة

يصاغ من الفعل الثلاثى مَفْعَلَة لبيان سبب الشىء ، والباعث عليه ، والداعى إليه نحو نَوْمة الضُّحا مَخْلَفَةٌ للغم ، من الخُلُوف ، وهو تغير رائحة فم الصائم .

الطعام مَتْخَمَةٌ .

البرُّ مَرْضَاة للرَّبِّ ومَسْخَطَة للشيطان .

إن حرارة الجوع مَلْهَبَة ، وتنغيص النوم مَغضبة .

طعامٌ مَسفَهَة : يبعث على كثرة شرب الماء .

هذا مَسقطة له من أعين الناس .

هذا مَحْسمة للداء : أى سبب يدعو إلى حسمه وقطعه .

الخمر مَهْلَكة للمال ومذهبة للعقل .

الولد مَجْبَنة مَبْخَلَة .

الصوم مَصَحة .

المال مَنبهة للكريم .

البطنة مكسلة عن الصلاة ، ومفسدة للجسم .

هذا طعام مسمنة للجسم

اليمين الكاذبة منفقة للسلعة ، ممحقة للبركة .

العلم محلمة لصاحبه .

كثرة الشراب مبولة ، وكثرة الطعام متخمة .

صلة الرحم مَثْرَاة فى المال ، منسأة فى الأثر .

(١) بقية ما نشر بالعدد الثالث من السنة الثالثة .

فُعَلَة وفُعْلَة

يشتق باطراد من الفعل الثلاثى فُعَلَة لكثرة وقوع الفعل من الفاعل، وفُعْلَة لكثرة وقوع الفعل على المفعول به . قال صاحب اللسان فى مادة ضَحِكَ: وضُحَكَةٌ : كثير الضَّحِك، وضُحْكَة: يُضْحَكُ منه ، يطرد فى هذا الباب . وفيه أيضا فى مادة عرق : ورجلٌ عُرَقَة كثير العَرَق ، وفُعَلَة بناء مطرد فى كل فُعَل ثلاثى . وفى القاموس : هو لُزَمَة إذا لزم شيئا لا يفارقه ، قال شارحه : وهو باب مطرد وعد صاحب المزهر فُعَلَة من أبنية المبالغة الاثنى عشر . وفى فقه اللغة للثعالبى فى الكلام على زيادة الهاء : « والهاء الداخلة على صفات الفاعل لكثرة ذلك الفعل منه ويقال لها هاء الكثرة نحو نُكَحَة وطُلَقَة ، والهاء فى صفة المفعول به لكثرة ذلك الفعل عليه نحو ضُحْكة ولُعْنة . وفى المزهر : « اعلم أن ما جاء على وزن فُعَلَة من النعوت فهو على تأويل فاعل ، وما جاء منه على وزن فُعْلَة فهو على تأويل مفعول ، يقال هذا رجل ضُحَكَة كثير الضَّحِك، ولُعَبَة كثير اللعب ، ولُعْنَة يلعنه الناس ، وسُبَّة يَسُبونه .

أمثـــلة

رجل أُمَنَة كثير الوثوق بكل أحد . أَكَلَةٌ من الأكل ، أُنَنَة من الأنين . بُرَمة من البَرَم بالناس وهو الضَّجَرُ . تُكَلَة من الاتكال على الغير للعجز . جُثَمَةٌ للنَّئُوم الذى لا يسافر . جلسة من الجلوس . حُمَدة من الحمد .

حُطَمة من الحَطْم وهو الدق والكسر . حُوَلة كثير الاحتيال . امرأة خُبَأة من الخَبء : وهو الاستتار رَجُل خُدَعة يخدع الناس كثيراً ، وخُدْعة يُخْدَع ، خُذَلة من الخَذْل ، وهو ترك النصرة والإعانة . خُدَنة يخادن الناس ويصاحبهم كثيراً . خُرَجة من الخروج ، خُضَعة من الخضوع ، سُؤَلة من السؤال . رجل سُخَرَة يسخر بالناس ، وسُخْرَةٌ يُسخَرُ منه . سُهَرة كثير السهر . سُبَبة كثير سب الناس ، وسُبَّة يسب كثيرا ، شُرَبة من الشرب صُرعة شديد الصراع . ضُجَعة كثير الاضطجاع . ضُحَكة يضحك من الناس ، وضُحْكة يُضحك منه .

طُلَعة كثير التطلع . طُلَقه كثير الطلاق . رجل طُرَقة يسرى كثيراً حتى يَطرُق أهلَه ليلا ، طُلَبة كثير الطلب . عُدَلة من العدل ، عُرَقة كثير العرق . عُلَنة يبوح بسره كثيرا ، عُوَقة كثير التعويق لأصحابه . قُبَعة قال الزبرقان بن بدر السعدى : أبغض كنائنى إلىَّ الطُّلَعة القُبعة ، وهى التى تُطلِع رأسَها ثم تَخبَؤه كأنها قُنفُذة ، والعرب تقول خُبأةٌ خير من يَفعَة سَوء أى بنت تلزم البيت تَخبأ نَفسها فيه خيرٌ من غلام سوء لا خير فيه . قُعدة من القعود . رجل قُذَرة يتنزه عن الملائم ملائم الأخلاق ويكرهها . رجل قُبَضة رُمَضة يتمسك بالشىء ثم لا يلبث أن يدعه . رجل قُشَرة مَشئوم من قَشرهم أى شأفهم . كُذَبة من الكذب . لُعَبة كثير اللعب ، ولُعْبة يُلعَب به . لُومة يلوم الناس . ولُوَمة يلومه الناس ولُعْنة يُلعن لشره . لُجَجة من اللَّجاج من لجَّ فى الأمر تمادى عليه وأبى أن ينصرف عنه . مُسَكة للبخيل الذى يُمسك ما بيده ولا يعطيه ، مُجَعة أحمق إذا جلس لم يكد يبرح مكانه . نُجبة القوم النجيب منهم . النُّكَعة كثير النوم ، ونُومة خامل الذكر لا يؤبه له . رجل نُتَفة ينتف من العلم شيئاً ولا يستقصيه ، وكان أبو عبيدة إذا ذكر الأصمعى يقول ذلك رجل نُتَفة ، قال أبو منصور : أراد أنه لم يستقص كلام العرب . هُزَأة يُهزأ به . هُمَزة يعيب الناس بالغيب . رجل هُذَرة بُذَرة كثير سَقط الكلام . هُلَعة من الهلع وهو الجزع . رجل هُجَعة كثير الاستنامة إلى كل أحد ، غافل ، حمق . وُلَجَة من الولوج وهو الدخول . وُكَلة يكل أمره إلى غيره ، وُلَعة يولع بما لا يعنيه .

فُعْلة بمعنى مفعولة

تصاغ من الفعل الثلاثى فعلة بمعنى مفعولة باطراد ، ومن أمثلتها خطبة ، ونسخة ، وغرفة من ماء ، وثلمة ، وفرجة ، وسفة : من سففت الدواء ، ولقمة ، وشفعة ، أى مضمومة إلى غيرها . وقبصة : من قبصه تناوله بأطراف أصابعه ، وقبضة : من قبض عليه أمسكه ، والدفقة ، البؤرة ، من بأر كمنع : حفر ، والحفرة ، واللقمة ، والجرعة ، والصبة : المصبوب من الماء . والحزمة ، والحسوة . مايحسى أى يشرب والخلسة ما يُختلس أى يخطف لسرعة على غفلة ، والجزة المجزوزة من الصوف . هذا والمرة من كل ذلك على وزن

فَعلة فالفارق بينهما الحركة . وفى اللسان فى مادة نغب : نغب الانسان ينغب ابتلع الماء والريق، والنغبة المرة الواحدة ، والنغبة الاسم ، كما فرق بين الجَرعة والجُرعة، وسائر أخواتها بمثل هذا ، واقتداح الماء غرفهُ ، والقُدحة الغُرفة والقدحة المرة يقال : أعطنى قدحة من مرقك ، أى غرفة . وفيه فى مادة لعق : لعق الشيء يلعقه لعقا لحسه ، واللعقة المرة ، واللعقة مالعق، يطرد على هذا . وفى الشفاء ، الفطرة : اسم لما يعطى فى الفطر ، مولد ولا يمنعه قياس .

لغات

فَعِل وفعُل وفعِيل

(١) فَعِل إذا كان ثانيه حرف حلق فيه أربع لغات ، فَعِل وهو الأصل ، وفِعِل بكسر الفاء اتباعا للعين وتلك لغة تميم ، أما الحجازيون فلا يتبعون ، فَعْل مخفف فَعِل ، وفِعْل مخفف فِعِل ، وهذا مطرد سواء أكان فَعِل اسما أم فعلا ، فالاسم نحو نخذ ونخذ ونخذ وفخذ وضحك وضحك وضحك ومثل ذلك لعب ومحاك (لجوج صعب الخلق) ولهم (أكول) وَوَغِل (طُفَيْلِىٌّ كثير الدخول على من يشرب من غير أن يدعى) وجَبِنٌ من جَبَنَ بالماء كفرح غُصَّ به ، ونَعِرٌ : لا يستقر فى مكان ، مأخوذٌ من قولهم حمار نَعِر أى دخلت فى أنفه النَعرَةُ وهى ذباب ضخم أزرق العين أخضر ، له إبرة فى طَرَف ذَنَبِهِ ، يلسع بها ذوات الحافر وربما دخلت فى أنف الحمار فيركب رأسه ، ولا يرده شيء . والفعل نحو شَهِد وشَهَدَ وشَهْدَ وشهد ومثله نَغِلَ (نَغلَ الأديم نَغلا فهو نغل فسد فى الدباغ) ولعبَ ورَحِمَ ووَخِمَ (وخِمت الناقة فهى وَخِمة إذا أصابها الوخَمَ وهو داء كالباسور) ومَحِك (مَحِكَ مَحْكا فهو مَحِك أى لجوج صعب الخلق) وبَعِل بأمره بَعَلا فهو بَعِلٌ بَرِم به فلم يدر كيف يصنع فيه) ونعم وبئس ، وأكثر العرب يقول نِعْم وبِئْس على لغة تميم مع التخفيف .

(٢) فَعْل إذا كان حلق العين يجوز تحريك عينه بالفتح وهذا قياس مطرد عند الكوفيين كالنَهْر والنَهَر ومثله البحر ، والشعر ، والدهر ، والحلب ، والشغب ،

(تهييج الشر) والزهر، والجهر، واللحم، والمغص، والشهد (العسل) والنحو، وتلك لغة عقيل.

ومن العرب من قال مَحَمُوم فى مَحْمُوم باتباع الحاء للميم.

(٣) فِعيل إذا كان ثانيه حرف حلق فيه لغتان: فَعِيل وهى لغة أهل الحجاز. وفِعيل وهى لغة تميم وسفلى مضر نحو شَهِيد وشِهِيد ومثله شعير، ورغيف، ولئيم، ونحيف، ونحيل، وبعير، وسعيد، وبهيمة.

أما من قال مِغِيره (اسم) فى مُغِيرة فعلى اتباع الميم للغين، ومثله أنتَن فهو مِنتِنٌ فى مُنتِن كما قالوا: أنبُؤكَ وأجُوءُكَ فى أنبِئك وأجِيئُك. والساكن حاجز غير حصين، ويقال: نتَنه غيره جعله منتناً فهو مُنتن، وعامة أهل مصر يكسرون ميمه شذوذاً. وهو نتن، والعامة يكسرون النون اتباعاً للتاء المكسورة، والقياس لا يأباه.

التخفيف بالاسكان

كل ثلاثى مضموم العين أو مكسورها سواء أكان اسماً أم فعلا فإن بكر بن وائل وتغلب وأناساً كثيرين من تميم يخففونه باسكان عينه، يقولون فى رجل وعَضد ورُسُل وكتُب وطنُب [1] وعنق: رجل وعضد ورسل وكتب وطنب وعنق، وفى كبد وإبل وعلم وفصد وعصر: كبد وأبل وعلم وقصد وعصر، قال أبو النجم من بكرين وائل

لو عُصِرَ مِنهُ البَانُ والمِسكُ انعَصَرْ

وقال أيضاً:

ونُفخوا فى مدائنهم لطاروا.

أما إذا كان مفتوح العين نحو جَمَلٌ وحَمَلَ فلا يخفف بالتسكين؛ لخفة الفتحة ويقولون فى كتِف كتْف وفى دَرَك دَرْك باسكان العين وكسر الفاء.

وربما سكنوا ما زاد على الثلاثة كقولهم: أرَاك منتَفخاً علىّ، يريدون

(١) الحبل تشد به الخيمة ونحوها.

منتفخاً، وانطاقَ يا هذا، يريدون انطلِق، ويفتحون آخره تخلصاً من التقاء الساكنين ومثله:

عَجِبتُ لمولودٍ وليس له أبٌ وذى ولدٍ لم يَلْدَهُ أبوان

أنواع من اللعب

(١) القُفَيزَى لعبة للصبيان ينصبون خشبة أو خشبات ويتقافزون (يتواثبون) عليها.

(٢) العَتَبُ: أن يثب الصبى برجل ويرفع الأخرى.

(٣) الردَيانُ: أن يرفع الطفل رجلا ويمشى على الأخرى لاعبا.

(٤) المِخْرَقُ: المنديل يلف ليضرب به.

(٥) الربيعة: الحجر الذى يرفع لتجربة الشدة والقوة.

(٦) المشوال: حجر يشال أى يرفع، والمِشْوَلة التى يلعب بها.

(٧) عظم وضّاح: لعبة لهم يطرحون بالليل قطعة عظم، فمن وجدها فقد غلب أصحابه، وكانوا إذا غلب واحد من الفريقين ركب أصحابه الفريق الآخر من الموضع الذى يجدونه فيه، إلى الموضع الذى رموا به منه، وأهل مديرية الشرقية يسمونها (عضمه طاح)

(٨) القَلْس: الرقص فى غناء.

(٩) التخاسى: التلاعب بالزوج والفرد.

(١٠) الطبطابة: خشبة عريضة يلعب بها بالكرة، أو يلعب بها الفارس بالكرة.

(١١) الخذروف: شىء يدوّره الصبى بخيط فى يده فيسمع له دوى.

(١٢) الدوامة: ما يلعب بها فتدار.

(١٣) الزَّدْو: لعب الصبيان بالجوز يرمون به فى الحفيرة.

مهدى أحمد خليل

حديث النادى

يجتمع فى نادى دار العلوم كل مساء ، طائفة كريمة من أبناء دار العلوم ؛ يتجاذبون الحديث فى العلم والفن والأدب ، ولا يخلو حديثهم من اللذة والفائدة ، لما يتناوله من شتى الموضوعات فى جو من الهدوء والاحترام وصفاء النفس ؛ وقد رأينا فى هذه الاجتماعات سوقا جديدة من أسواق العلم والأدب ؛ وشهدنا فيها يدور فيها من الحديث لونا جديدا من البحث العلمى ، ليس من الوفاء للعلم والأدب أن نعده من سمر الليل ، حديث ساعة وينتهى أثره ؛ فمن ذلك رأينا أن ننقل فى هذا المكان من الصحيفة بين كل آونة وأخرى ، حديثا من أحاديث النادى في مجالس رواده ، ينقل صورة من شاهده لغائبه ، ويسجل ما فيه من لذة وفائدة إلى قراء صحيفة دار العلوم ؟

فى تمام الساعة السابعة من مساء الخميس ١٤ من أكتوبر سنة ١٩٣٧، حفل النادى بحضرات المدرسين الأوائل للغة العربية ، فى القاهرة وضواحيها . وجمهرة مدرسى السنة التوجيهية ، وبعد أن استقروا بالغرفة الكبرى والبهو ، قام حضرة الأستاذ نجيب حتاته رئيس النادى ، وهنأ حضراتهم بالعام الجديد ، راجياً لهم السلامة والعافية ، متمنياً التوفيق والسداد ، ثم قال: ليس اجتماعنا فى النادى للنقاش الأدبى والعلمى أمراً جديداً ، فإن ذلك مقرر فى جلساتنا الإدارية منذ زمن ، وسنتحين الفرص الملائمة للإكثار من هذه الاجتماعات، حتى يكون حديث النادى باباً من أبواب صحيفتنا ، يطالع القراء بالطريف المفيد ، ويمدهم بأحدث الآراء ، وخلاصة أفكار المتحدثين ، وستتكلمون الليلة فى منهج الأدب عامة، فى المدارس الثانوية، وفى منهج السنة التوجيهية خاصة، وأقرر فى كلمتى الموجزة هذه أن السنة التوجيهية ليست جديدة عليكم ، فكلكم خبير بالأدب وتدرجه ، دارس لعصوره وخصائص كل عصر ، ودليلى على ذلك أن أسرع حضرات الإخوان ، فتسابقوا إلى الكتابة فى موضوعات المنهج الجديد ، قبل العام الدراسى بزمن، وطبع ذلك فى عددين من أعداد الصحيفة ، ونباشر الآن طبع العدد الثالث وفيه بعض الموضوعات الباقية ،

ولا ريب أن الذين كتبوا ومهدوا لهذه السنة وعبدوا طريقها قد بحثوا ونقبوا واطلعوا، كما تدل على ذلك مقالاتهم القيمة، وبحوثهم المستفيضة، وإنا لنرى المصادر التى دونوها عقب بحوثهم، فتملؤنا الغبطة، ونعجل بالثناء عليهم، والشكر لهم.

ليس الغرض من اجتماعنا البحث فى منهج الأدب، من حيث المادة والعلم، وإنما الغرض سيتولى شرحه بالتفصيل الأستاذ الجليل عبد الحميد حسن، فإنه لاحظ فى تفتيشه، وسمع لحضرات الذين مر بهم، ما يوجب التحدث إلى حضراتكم، ويحتم المناقشة فى شئون هذا العام الدراسى الجديد؛ لتتفق كلمتنا، ويتوحد رأينا، فى أنجع الوسائل، وأحدث الطرق فى هذه التجربة الجديدة، وأنا واثق بأنكم ستجلون فى ميدانها، وتفوزون بالتغلب على صعابها، إن كانت ثمة صعاب.

ثم وقف الأستاذ عبد الحميد حسن فقال: سنبحث الليلة فى أربع نقط، وقد يتجلى لنا فى أثناء البحث، ما يزيدها إلى خمس أو ست، وتلك النقط التى يدور حولها الكلام هى:

الأدب - تاريخ الأدب - مدرسو الأدب.

الطريقة فى تدريس الأدب - قواعد النقد الأدبى.

وأبان أن المهم الليلة البحث فى الطريقة التى تكفل للمدرس الرضا والطمأنينة فى عمله، وللطالب النجاح والفوز. سنرى أيليق المدرس ما يريده من الحقائق الأدبية فى قالب طريف يدونه الطلاب؟ أم يحاضر شارحاً موضحاً بالأمثلة، والطلاب يدونون كل ما يقال؟ وأرى أن الجهد فى هاتين الطريقتين يبذل من جانب واحد هو المدرس، أما الطالب فلا عمل له سوى عمل الآلة الكاتبة؛ أما الطريقة المثلى فى رأيى فهى أن يعد المدرس درسه إعداداً تاماً بالاطلاع على المصادر المختلفة، ويهضم كل ما قرأ، ويكون له بعد هذا شخصية هى شخصية الأديب المتمكن، والمدرس القادر، ثم يدخل الفصل فيلخص درسه فى عناصر أصلية تدون على السبورة، ولتكن أربعة مثلا، وعليه أن يناقش ويشرح مستخلصاً لكل عنصر نقطاً فرعية هى أشبه بالخطوط الأولى فى دروس الرسم والتصوير، حتى إذا ما علم الطلاب العناصر وفروعها جيداً، كتبوا خارج الدرس العبارة الدالة على الفهم المؤدية لكل ما شمله الدرس. وقد رأى بعض الحاضرين الاكتفاء بالمحاضرات

من غير عناصر مطلقاً ، واعترُض على هذا. ورأى آخرون التمهل فى الإلقاء ليتمكن الطلاب من الكتابة ، واعترض على هذا بأن الدروس عند الطلاب تكون حينئذ نسخة واحدة من مذكرة أو كتاب . ورأى آخرون الرجوع بالطلبة إلى مذكرات وكتب بعد المحاضرة ، ولم يحز القبول أيضاً لأن المصادر كثيرة وليست فى الوسع ، ولأن ترك الطلاب على هذا النحو يجعلهم يهيمون فى أودية متباعدة غير متلائمة ، وقد لا يتلاقون إلا بعد لأى ؛ وكان الأستاذ عبد الحميد يناقش كل اقتراح بما عهد فيه من دقة ولباقة ، وقد رأى بعض حضرات الإخوان أن يكتب المدرس فى جهة من السبورة الشواهد المؤيدة للرأى ، فأصبحت الطريقةُ المثلى التى حازت والقبول لدى الجميع تتلخص فى :

١ - إعداد المدرس درسه إعداداً تاماً بالاطلاع على المصادر المختلفة ، وهضم كل ما قرأه وتكوين شخصية له محترمة .

٢ - تدوين العناصر الأصلية مرتبة على حسب المادة .

٣ - شرح كل عنصر واستخلاص نقط فرعية تدون توضيحا للعنصر .

٤ - تدوين الشواهد المؤيدة للشرح فى جانب لينقلها الطلاب فى كناشاتهم

٥ - يكلف الطلاب التعبير عما فهموا بدقة على أن يكون لهم شخصية فى التعبير وإذا كانت هناك كتب للاطلاع والمراجعة فليكلف الطلاب أيضا الاطلاع عليها .

وقد قال بعض الإخوان : إن فى الاطلاع عقبة هى ندرة الكتب وقلتها وعدم وجودها بالمكتبات المدرسية ، وقد ذلل الأستاذ عبد الحميد هذه العقبة فأشار أن يتفق حضرات المدرسين الأوائل على الكتب المفيد الاطلاع عليها ويكتبوا للوزارة رسميا بجلبها وما أسرع تلبيتها حين ترى الحاجة ماسة .

وقد رأى بعض الإخوان بعد هذا أن يرجع فى الدراسة لهذه السنة إلى المعهود فى الدراسة الثانوية ، أى تكتب المذكرات ويعود الطلاب إليها ، مدللا على رأيه بأن السنة التوجيهية إن هى إلا مكملة للثانوى وجزء منه .

وقد نقد هذا الرأى بأن التوجيهية فى الحقيقة وسط بين عهدين وتعليمين ،

فينبغى أن تكون صلتها بهما قوية ، وعلى هذا لابد أن تكون مؤهلة للتعليم الجامعى، وذلك يقتضى أن تكون الطريقة كما سبق؛ ولقد وقف الأستاذ عبدالوهاب حموده ووافق على الطريقة السابقة وهون الأمر فقال : إن بعض نقط المنهج يستطيع الطلاب أن يجدوا فيها المراجع الكافية التى تؤهلهم للكتابة من غير حاجة إلى التلخيص والتحضير فى الدرس، وبعض النقط لا يختلف فيها المدرسون: كالتعاريف التى لابد من ضبطها وحدها ولا مجال للإنشاء فيها .

وفى المنهج نقط لا تستدعى طويل بحث ، تلخص فى كلمات موجزة ، وأظن أن المدرس القدير الموفى صناعته حقها ، خبير بالطرق المؤدية به إلى الغاية ، عليم بما يرقى بطلابه إلى المستوى اللائق بهم . ثم تقرر فض الاجتماع على أن يستأنف فى مساء الخميس المقبل لمعرفة الكتب التى تفيد هذه السنة ، وللمناقشة فى بعض نقط المنهج فى القواعد ؟

حفلة تكريم

وجه حضرة صاحب العزة صادق جوهر بك ناظر دار العلوم ، وهيئة التدريس بها ، الدعوة لحضور حفلة الشاى التى أقيمت بفناء الدار فى تمام الساعة السادسة بعد ظهر يوم السبت ٢٦ من يونية سنة ١٩٣٧ ، لتكريم حضرات الأساتذة: الشيخ محمود أحمد البطراوى ، وأحمد التونى افندى ، والشيخ على حسنين ؛ لمناسبة اعتزالهم الخدمة .

وقد أم الدار أساتذتها ، ونخبة من خريجيها ، وطائفة من كرام المدعوين ، وتوسط الحفل حضرة صاحب العزة ناظر دار العلوم ، وإلى جانبه المحتفل بهم ، وحولهم المدعوون من الزملاء والأصدقاء . ثم قدم الشاى والحلوى ، وأديرت المرطبات المثلجة ؛ وأخذ الحاضرون يتجاذبون أطراف الحديث ، وقد صفا الجو ، ورق الهواء ، وانحدرت الشمس إلى مخبئها ؛ وأظلت الجميع تلك الأشجار الباسقة الوارفة الظلال ، التى شاهدها جيل من أبناء دار العلوم فى مبدإ غرسها ، حين كانت دانية الغصون ، ثم مرت عليها السنون فسمت فى فناء الدار ، تطل على أبناء دار العلوم ، الذين نعموا بظلها فى إبان نموها .

وحين شرب الحاضرون الشاى هنيئا ، قام حضرة صاحب العزة صادق بك جوهر ، فرحب بالحاضرين ، وشكرلهم تلبيتهم الدعوة ؛ ثم هنأ الأساتذة الثلاثة بما لهم من الماضى المجيد ، الحافل بالجد والإخلاص فى العمل ، وبما أحرزوا من مكانة فى القلوب ، وقال : إن اعتزالهم الخدمة إنما هو انتقال من الجو المحدود إلى الحياة العامة ، حيث يتسع المجال لجهودهم الشاملة فى خدمة اللغة والأدب . ثم شكر الحاضرين ، وتمنى للمحتفل بهم حياة سعيدة طيبة .

* * *

ثم قام الأستاذ زكى المهندس ، أستاذ التربية بدار العلوم فقال :

إننى لأكاد أصدق أن ما أرى من تكريم هؤلاء الفرسان الثلاثة هو لمناسبة

إحالتهم إلى المعاش ، وذلك أن عهدنا بمن يحالون إليه أن يتجلى على وجوههم عراك الزمن : من انحناء الظهر ، وتهدم الجسم ، ومظاهر الضعف وكبر السن ، ولكنى أرى فى فرساننا الثلاثة غير ذلك ، أرى أجساما قوية ، وقلوبا فتية ، وصحة تترقرق فى محياهم ، وهمة دونها همة الشباب ، فيحملنى ذلك على الشك فى أنهم بلغوا السن القانونية حقا ، وأنهم قد أحيلوا إلى المعاش لبلوغهم سن الستين .

وإنى أهنئهم على خروجهم من الخدمة فى صحة سابغة ، وأسأل الله أن يديمها عليهم .

ويقينى أنهم إذ يغادرون العمل الرسمى فى التعليم ، إنما يخرجون من دائرة محدودة ، إلى دائرة واسعة ؛ حيث يزداد نفعهم ، وتثمر جهودهم ، وتجنى دار العلوم وأبناؤها من تجاربهم أينع الثمرات ، وأسأل الله لهم حياة طويلة عريضة ، على حد ما كان يقول ابن سينا ، وهو : اللهم إنى لا أسألك حياة طويلة ، بل حياة عريضة .

ثم تمنى حضرته للمحتفل بهم صحة وافرة ، وحياة هنيئة .

* * *

ثم قام الأستاذ أحمد يوسف نجاتى ، أستاذ الأدب بدار العلوم ، فألقى الكلمة الآتية :

رأيت من بعض إخوانى ميلا إلى أن ألقى فى هذه الحفلة الأخوية كلمة ، فلم أجد بُدًّا من تلبية الطلب ، وإنى لأرجو أن أكون ترجماناً صادقاً ، معبراً عن عواطفهم وشعورهم ، ولسانا ناطقاً بما تكنه أنفسهم ، فأقول :

ودَّعتْ دار العلوم فى سنوات متفرقة مضت ، كثيرا من أساتذتنا الذين أدوا حقوقها المجيدة بها ، وشكرت لهم حميد سعيهم ، وحسن بلائهم ، وعظيم إخلاصهم ، ولكن لا أذكر أن اتفق فى حياتها الدراسية الطويلة - على وفرة نتاجها ، وجليل ثمراتها - أن ودعت مرة واحدة أعلاما ثلاثة ، سعد عام واحد بمولدهم ثلاثتهم جميعا فيه . بل إن دار العلوم لتودع اليوم من أساتذتها الكرام أقانيم قدسية ثلاثة يؤلفون مثلثا تساوت أضلاعه فتساوت زواياه ، ثم تحول إلى دائرة منتظمة لا يدرى أين طرفاها ، فأفضلهم : الأستاذ الجليل أحمد التونى ، لا ، بل

أفضلهم: الأستاذ العظيم محمود البطراوى ، لا . بل أفضلهم: الأستاذ النبيل على حسنين عبد الوهاب الأسيوطى ، لا بل كلهم أفضلهم وخيرهم جميعهم - وقد يعترضون على بأن أفعل التفضيل بعض ما يضاف إليه ، وبأن الشيء لا يفضل على نفسه ، فأقول : إنهم كل واحد وحدة ملتئمة ، كل فرد منهم بعضها ، وإن فى كل منهم مزايا شتى ، ومناقب مختلفة ، ومآثر جمة ، يختلف معها الاعتبار فيصح التفضيل .

من تلق منهم تقل : لاقيت سيدهم مثل النجوم التى يسرى بها السارى

نعم أيها السادة اليوم وفىّ دينه لداخل دار العلوم ثلاثة من أكرم أبنائها عليها ، وأكثرهم برًّا بها ، وأشدهم غيرة على رفيع منزلتها ، وحرصا على المزيد من تقدمها ونهضتها ، وعملا على ما يسمو بقدرها ويعلى شأنها ، حتى يبلغ السماء مجدها وسناؤها ، وما منهم إلا من هو فى هيكلها الأعظم بناء متين الأركان ، محكم البنيان ، موثق الأساس ، قوى الدعامة . وكأنى بها تنشد نفسها ، فى أسف تمازجه غبطة وابتسامة عذبة تشوبها لوعة :

ولو كان أمرى واحدا لاحتملته ولكنه فرد ، وثان ، وثالث .

وستشعر دار العلوم بهذا الفراغ الذى يخلفونه . فيطول جهدها حتى تملأه ، وستحس حاجتها شديدة إلى سد تلك الثغرة . وبناء هذه الفرجة ، وإن كان يهون وجدها من توديعها إياهم ، أن قلوبهم معها ، وميلهم اليها ، وأن آثار مجهودهم لا تزال ماثلة بها ، وأنهم يمدونها ، بروح من عندهم ، وأنهم يستقبلون فى الحياة الجديدة ، الحرة المديدة ، الهنيئة السعيدة ، الطيبة الرغيدة ، عهدا حرا ، سيطول باذن الله أمده ، ويكثره خيره ومدده ، ويتضاعف بره ورفده ، ويستأنفون حياة راضية ، حرة طليقة من كل قيد ، يملكون بها الترفيه عن أنفسهم ، ومنحها حظا من الراحة المجدية ، تستجم فيها القوى ؛ لمواصلة ما ألفوه من العمل فى خدمة الأمة ، بل فى نفع المجتمع العام ، فلا يزال فيهم ، مع حكمة الشيوخ ومعرفتهم ، نشاط الشباب وحماستهم ، ومع عقول الكبار وتجاربهم ، قدرة الفتيان وطموحهم ، وكل منهم ممتع بعقل ناضج قوى ، وقلب نابض فتى ، وصحة نرجو الله أن يسبغ عليهم بردها ضافى الذيول ، سابغ الأطراف ، وأن يرفلوا فى حللها مرتحة الأعطاف ،

ولكل منهم ثقة عظيمة بالنفس، متينة العرى ، قامت على أساس رصين من الخلق الكريم، والعقل الحكيم ، والدين القويم، ومن إجماع العارفين على فضلهم وتقدمهم، وقدر كرام الناس إياهم حق قدرهم ، وسيضيفون إلى سجل عمرهم الصالح الخالد، الذى ازدانت صفحاته بجلائل الأعمال ، وعظيم الآثار، صحائف مجد أخرى كثيرة، يخدمون بها فى حرية تامة، وانطلاق من قيود الوظائف، وطنهم الكريم. ومعهدهم العزيز، ودينهم القويم، ولغته الشريفة، بما يعهده الناس فيهم : من علم جم ، وذكاء نادر ، وأدب غزير ، ودين متين ، وخلق عظيم ، وتجربة حكيمة ، وخبرة عليمة ، وإخلاص يزين كل عمل ، ويثمر به كل جهد .

هذا . ولقد بدا لى أن أشبه كل واحد منهم بمن يناسبه من فحول السلف الصالح الأقدمين ، وأساطين العلوم والمعارف الماضين ، فتنازع الأستاذ التونى جماعة من أكابرهم عجبت أن كان جميعهم من أبناء فارس، أبوا إلا أن يكون هذا المصرى العربى خلاصة طائفة نجيبة منهم، أو مزيجا صالحا مؤلفا من عناصرهم ، وهم: شيخ اللغة سيبويه عمرو بن عثمان . والإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان ، وفخر الدين الرازى ، وجاد الله الزمخشرى ، والرئيس العليم أبو على بن سينا ، والأستاذ الرئيس ابن العميد ، فسلمت لهم وقلت : كرامة ونعمى عين، لو تعلق العلم بأهداب الثريا لتناوله رجال من فارس . وأما الأستاذ البطراوى فاتفق عليه العجم والعرب، كما اجتمع فيه العلم والأدب ، وألف بين الدين السمح، والفكاهة الحلوة، والطرب، فكان أستاذ الأساتذة: الخليل بن أحمد ، وأحد الحمّادَيْن: حماد الراوية أو حماد عجرد؛ يمتزج معهم الفراء والكسائى ، ويضرب معهم بسهم الأدب والرواية أبو الفرج الأصفهانى ، يتمم جماعتهم أبو نصر الفارابى . وأما الأستاذ على حسنين عبد الوهاب فبخ بخ ... شيخ اللغة والدين ، وبقية الأئمة المجتهدين ، يأخذ العلم والأدب والدين عن سائر الناس ، ولم يبال باختلاف الطوائف والأجناس، فهو أبو موسى الأشعرى، ولكن فى تقوى حذرة ، ودين ذى حنكة وحيطة ، يضم إليه الإمام الورع أحمد بن حنبل ، والراوية الثقة التقى ، عبد الملك بن قريب الأصمعى، وأبو العتاهية، يقومه حجة الاسلام أبو حامد الغزالى ، يضاف إلى جماعتهم عبد القادر الجرجانى،

والقاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى ، ثم هو بعد ذلك الجلال السيوطى . تلك ظواهر عجيبة تعز على التحليل ، وتستغنى بنصوع أدلتها وبالغ حجتها عن التدليل . عاشرت ثلاثتهم عشرة طالت وطابت ، فأحمدت العشرة ، وأكبرت الفائدة ، وأعظمت الثمرة ، ووجدت من إخوانى كلهم إجماعا على رجحانهم ، واتفاقا على فضلهم ، وثلاثتهم مثلى مخضرمون طويلا ، عاشروا بدار العلوم كثيرا من نظارها الكرام ، الذين تبوءوا الدار والإيمان ، وازدهى بهم ظرفا المكان والزمان ، فخدموها بسديد آرائهم ، وعظيم خبرتهم وحكمتهم ، وأجمعوا على حسن الثقة بأساتذة اليوم والإشادة بفضلهم ، جزاهم الله خير الجزاء ، وجزاء الخير .

ولقد كان من يمن الطالع ، وسعد الفأل ، وحسن الحظ ، أن كان يومنا المبارك هذا فى عهد ناظرها الحالى : ذلكم الرجل الكامل ، والهمام الأبى ، والنقادة الخبير ، المصفى من أطيب عنصر (وأصدق جوهرة) وفى وزارة الأمة الشعبية المحبوبة ، المؤيدة بإجماع الثقة التامة ، والتى نالت مصر فى عهدها السعيد ، ما كانت تجاهد له ، وتسمو إلى الحصول عليه ، فى ظل جلالة الملك المحبوب ، زين الشباب ، وقرة عين مصر ، الذى حل كل قلب ، ودان بولائه كل نسمة من الشعب ، وحسب دار العلوم بهذا كله قوة وعونا : تستمر بهما سائرة قدما . ظاهرة على الحق ، مؤدية رسالتها على أكمل وجه ، فإنه كلما تقدمت الأمة فى العلوم والمعارف ، واتسعت دائرة ثقافتها ، وارتقت آدابها وأفكارها ، زاد شعورها بالحاجة الملحة إلى هذا المعهد الكريم ، الذى فيه تحيا لغة الكتاب العزيز ، والمدرسة التى بارك الله فى حياتها ، فأمدت الأمة بالمحامين الأكفاء ، وتخرج فيها من ولوا الأعمال المختلفة ، فأبانوا عن كفاية وغناء ، والذين نهضوا باللغة ، وأقالوها من عثرتها ، وأخذوا بضبعيها ، وأشرفوا بها على اليفاع ، وجاهدوا بكل قوة ما كان فاشيا فيها من ضعف ، وبذلوا فى خدمتها ثمين وقتهم ، وكان لهم من عظيم الخبرة ، وقوة المعرفة ، ومن اضطلاعهم بالأدب العربى : قديمه وحديثه ، وتمكنهم من الوسائل القوية التى تنهض بها اللغة وآدابها وعلومها ، ومن إحاطتهم خبرا بأسرار اللغة وبلاغتها ، ووقوفهم التام على مناحى القول فيها ، ومن القدرة الكافية على تفهم الأدب العربى البليغ فى كل

عصوره ، وعلى الانتفاع به وتعريف الناس قيمته ، ومن تتبعهم لحركات الأدب الحديث ، ووقوفهم على أطواره ، ومن إلمامهم بالقدر الصالح من المعارف والعلوم التى لابد منها فى حذق الأدب ، وجعله مفيداً مثمرا - ما أتاح لهم أن يسايروا الثقافات الجديدة القويمة ، وأن يكونوا فى طليعة الأمة مسايرة للزمان ، وعلما بحاجاته ، وتقدما فى الثقافة العربية المصرية خاصة ، والثقافة العامة عامة ، وقياما على الأدب وتوجيها له الوجهة النافعة ، وذيادا عن اللغة ، وصدا لغارات أعدائها عنها ، ولها من نصر الله أكبر معين ، وأعز ناصر ، ومن الثقة بحضرة صاحب المعالى وزير المعارف الجليل ، ووكيله حضرة صاحب العزة الأستاذ الأديب نعم الوكيل ، ما تتم به لأئمة الجهاد ، وتكمل به العدة والعتاد ، فتفرغ إلى إمداد الشعب بما تشتد حاجته اليه من أدب حى راق صالح ، لا يرتضخ لكنة ، ولا يتعثر فى منة ، فيغذى العقول والأفكار ، وينمى الملكات ، وعساها تقوى على عوامل أخرى ، ليس أمرها بأيدى أبنائها ، إذن تكون آثار جهادهم فى هذه الناحية الشريفة أقوى وأكثر ، وثمار كدهم وجهدهم أحسن وأطيب ، إن شاء الله . ولا يفوتنى قبل ختام كلمتى ، أن أقدم جزيل الشكر ، لحضرات السادة الذين شرفونا بإجابة الدعوة ، وانتظم بهم عقد الحفلة ، وأن أخص بالشكر الجزيل ، والثناء الجميل ، حضرة صاحب العزة « محمد فهيم بك » عميد أصدقائنا وإخواننا البررة ، الكرام الخيرة ، نضر الله وجوههم ، وشكر لهم صالح سعيهم . ثم أقول : هنيئاً للفرسان الثلاثة أن سبقوا إخوانهم مجلين ، وأن فاقوا فى الميدان أقرانهم مبرزين ، وهنيئاً لهم ماخلفوه : من أثر يضوع ولا يضيع ، وجهد خصب مريع ، وذكر جميل يطيب نشره ، وثناء يتأرج شذاه وعطره ، وسعى مشكور ، طوقوا به جيد المعارف قلائد منن ، لا يفكها الملوان ، وبلاء حسن دون لهم سفرا خالدا لا يزال يتلوه لسان الزمان ، والله تعالى ، وكرام خلقه ، يشكرون لهم ماأسدوه من مبرات ، ومن أياد غُرٍّ كانت بها أيامنا مشرقات منيرات ، والعاقبة عندنا إن شاء الله تعالى فى المسرات .

* * *

ثم قام الأستاذ عبد المغنى المنشاوى الأستاذ بدار العلوم فألقى القصيدة الرائعة الآتية :

قصيدة الأستاذ عبد المغنى المنشاوى

المدرس بدار العلوم

دارَ العلوم ودارةَ الأخيار ... حيِّ حياةَ ثلاثةِ الأقمارِ
أطْلعتهم شرخَ الشبابِ أهلةً ... فسَرَوْا بدوراً غيرَ ذاتِ سِرَارِ
خلعتْ على الوادِى سناً ومعارفاً ... باتَا هُدَى الأبصارِ والأفكارِ
نُورُ السماء يشعُّ فى نَوْرِ الرُّبَى ... ما أرْوَعَ الأنوارَ فى الأنْوَارِ!
أرأيتِ قبلهمُ بدوراً أزْمَعتْ ... فى ليلها الأسفارَ فى الأسفارِ
باتت تُصَعِّدُ فى سماء بيانها ... حتى تبدَّى الليلُ ضحْوَ نهارِ
فسلوا أشعَّتَها نُشِرْنَ حبائلاً ... أأتَتْ بدرٍ، أمْ أتَتْ بِدَرَارِى؟
حتى إذا ولَّى السُّرَى حَمِدُوا السُّرَى ... وَمَضَوْا لدرسٍ مُعْنِتٍ جبَّارِ
الليلُ يطويه اقتناص شوارِدٍ ... والَيوم ينْشره كِفَاح حِوَارِ
يانافِسِينَ على المعلمِ حظّه ... حظُّ المعلم جنَّةٌ فى نارِ
الفارس المِغوار يَقْصُر جهده ... عَنْ تضحياتِ معلمٍ مِغْوَارِ:
فأداة هذا سيفه، وأداة ذا ... كَدُّ النُّهَى والسَّمْعِ والأبصارِ
قتَلَ المعلمُ نفسه بوفائه ... وبِما يرَى فى عِيِّهِ من عارِ
بسوادِ عينيه يخط صحائفاً ... شَرفَتْ بهنَّ صحائف الأبرارِ
إجْزوه بعضَ جزائه؛ فمقصِّرٌ ... مَنْ يجز بذل الرُّوحِ بالدينَارِ
من يعجز الثقلان عَنْ إنْصَافه ... ينصفه عدل الواحد القهَّارِ

* * *

زفُّوا تهانيكمْ إلى مَنْ ملِّكوا ... بحبوحةَ الإطلاقِ بعدَ إسارِ
قد بدَّلوا عيشاً رزيناً خافضاً ... مِنْ عَيْشِ لا أمْنٍ ولا استقرارِ
أوْلَى بتهنئةٍ صحاحٌ بلِّغوا ... رَغْمَ الجلادِ رَحابةَ الأعمارِ
عِيشوا مَعَ السِّتّينَ أخرى غيرَها ... فى غَيْرِ مَا هَمٍّ ولا أكْدارِ
واستقبلوا فى كلِّ يومٍ بَهجةً ... فزمانكم آذارُ فى آذارِ
وتذاكروا معنَى الحياةِ رَضيَّةً ... وانْسَوْا شُروطَ النَّعْتِ والإخبارِ
ودَعوا لنَا عيشَ الوظيفةِ إنَّه ... قيد العقولِ وربقة الأحرارِ
هَنُّوا الموظَّفَ لو يفوز بجلده ... إنّ الوظيفةَ داؤه المتوارى

ثم تعاقب المحتفل بهم فارتجلوا من رصين القول ما عبر عن صادق وجدانهم، وعظيم إخلاصهم لدار العلوم ورجالها ، وشكروا للحاضرين حفاوتهم بهم ، وتمنوا لهم أطيب الأمانى .

* * *

وإن جماعة دار العلوم ، وناديها ، وصحيفتها ، لتقدم للأساتذة الثلاثة ، عظيم إجلالها وخالص تهنئتها ، على ما اتصفوا به من مآثر ، جمعت القلوب على مودتهم ، وأطلقت الألسنة بالثناء عليهم ، وترجو لهم حياة ناعمة مليئة بالخير وجليل الأعمال .

في الأدب القصصي

المخطـــوفة

بقلم إسماعيل العربي
المدرس ببنى سويف الثانوية

الفصل الأول

الزوجة

كان حمدان فتى من فتيان تلمسان (إحدى بلاد المغرب) مات أبواه صغيراً، فنشأ فى أحضان البؤس، ودرج من حجر الفاقة، ودخل مدرسة الدهر، وهو غض الإهاب، وبدأ يعمل بأجر زهيد ولكنه شب مفتول الذراعين، قوى الساعدين، قد وهب له الله بسطة فى جسمه، ورجحاناً فى عقله؛ فراح يجالد بهما الحياة، ويكافح الدهر، ويدأب فى العمل، وأخذ يدخر من أجره ما زاد عن حاجته.

مضت أعوام تلو أعوام، حتى بلغ حمدان مبلغ الرجال، وصار بشراً سوياً؛ ففكر أن يغير مجرى حياته، ويتخذ له زوجة تشاطره الحياة: تشاركه فى النعماء، وتواسيه فى البأساء، ويسكن إليها وقت فراغه، وتشد أزره فى أعماله، وتجدد ما أخلقه الدهر من قوته، ويملأ بحبها قلبه، ويطرد بها شبح الوحدة، وتنجب له من البنين والبنات من تقربهم عيناه، ويخف بهم عناه، وتخلد ذكراه.

أكد عزمه؛ فأخذ يرسل سمعه وبصره، وراء فتيات قريته، اللاتى من طبقته، حتى أعجب بواحدة منهن، امتازت بأسَل الخد، واعتدال القد، وخلق كريم، وقلب سليم؛ فتقدم إلى ذويها خاطباً، فأجابوه إلى سؤاله، وزفت إليه زينب، وانتقلت إلى كوخه، فوجد فيها أمله، وأفرغ عليها حبه، وابتسمت لهما الحياة، ورفرفت عليهما السعادة، وامتزجت نَفْساهما وصارا كلاً بقاؤه

فى التركيب ، وعدمه فى الانفصام ، وتولد من هذا المركب جزىء أصبح مركز الدائرة ، وقطب المغناطيس ، وأثمرت شجرة الحب ثمراً شهياً طالما اشتاقا إليه ، وبزغ فى كوخهما كوكب طالما رصداه ، وولدت عائشة لهما . فكانت السمع والبصر والفؤاد .

ما أقصر أيام الصفاء وإن طالت ! نعم فقد عاد حمدان مثقل الرأس ، فاتر الطرف ؛ فهرعت إليه زينب فى لهفة تسأله : مابك ؟ فأجابها : ألم خفيف شعرت به . فمهدت له وطاءه ، واستلقى عليه ، وبسطت فوقه غطاءه ، ثم جلست تتنبأ وتسأل عن سبب ألمه ؛ فتقول : لعله البرد لم تأخذمنه حذرك ، أو لعله التعب مما أجهدت به نفسك ، وعما قليل تذهبه الراحة ، ويفنيه النوم ، ولم يصدق حدسها ؛ فها قد دالت دولة الظلام ، وأسفر الصبح ، وحمدان يتململ من الحمى ، وقد سرت فى جسمه سريان النار فى الهشيم ؛ فسقط فى يدها ، وتسرب الخوف إلى فؤادها ؛ فأخذت تحنو عليه تتحسس موضع الداء ، وتتعرف موطن العلة ؛ فلا تمس إلا ناراً ذاكية ، وجسما عانيا ؛ فيطبق عليها الفزع ، ثم لا تلبث أن تحتمل ابنتها ، وتعرُج بها إلى سطح الكوخ ، وتقلب وجهها فى السماء ، ويلهج لسانها بالدعاء : اللهم إن كنت لا أستحق رحمتك ، فارحم هذه المسكينة التى لم تسىء بيد ولا لسن ولا إضمار ، ولا تذقها حرارة اليتم إنك رءوف رحيم . ثم تنقلب باكية حتى إذا أطفأت جمرة حزنها - بل زادتها اتقادا بدموعها

أجدِرْ بجمرة لوعة إطفاؤها بالدمع أن تزداد طول وقود

- عادت إلى حمدان ، وجلست بجواره لا حول لها ولا قوة ، إلا أن ترسل كلمات ترفه عنه ، وتذكر له أن الشفاء منه جد قريب .

مرت أيام ذاق فيها من صنوف الآلام ، وقاسى من سورة الحمى ، ما نهك جسمه ، وعرق عظمه ، وضعف عن احتماله . فأسلم الروح إلى بارئها ، واحتواه الرمس ؛ ومضى كأن لم يكن بالأمس .

لك أن تبكى يا زينب ماتشائين ، وأن تسكبى على قبره دمعك السخين .

فابكى بمحمر الدموع وإنما تبكى العيون نظيرها بنضار

واندبى سوء الحظ ونكد الطالع ، فقد اختطف الموت عمادك فى الحياة ، ومجنك من الكوارث ، وحافظ وجهك أن يريق ماءه السؤال ، أو التكسب بوضيع الأعمال .

اللهم لا راد لقضائك ، ولا معقب لحكمك ، ولا رحمة تدانى رحمتك ، فقد حرمت زينب عائلها وسندها فى الحياة ، وفجعتها فى أعز مخلوق عليها ، ولكنك منحتها صبراً جميلا ، وعزاء بتلك الريحانة التى أخذت تنمو وتترعرع ، فكانت سلواها وأملها ، فاستأنفت حياة الرضاء والتسليم ، وخرجت تعمل فى دور الأغنياء . ومضت السنون ، فكبرت عائشة وجاوزت عامها السابع ، فرأت الأم أن تتخذها عوناً لها ، فألحقتها بخدمة أسرة صالحة فى المدينة ، وكانتا إذا أرخى الليل سدوله تعودان إلى كوخهما ، فتنعم الأم بقرب ابنتها ، وتتجاذبان الحديث ، حتى يأخذ الكرى بمعاقد الأجفان ، فإذا ولى الليل الأدبار قامتا إلى عملهما ، وعادتا إلى سيرتهما الأولى .

الفصل الثانى

الوحش الإنسانى

على بعد أميال من تلمسان أخبية متناثرة ، تخالها إبلا حل بها الإعياء ، فأناخت فى البيداء . سكنها جماعة من الأعراب ؛ لا يعرفون من الدين إلا اسمه ، ولا غرو ؛ إنهم أبناء الصحراء قد خلعت عليهم جفافها ، وأورثتهم خشونتها ، وصاغت قلوبهم من حجارتها .

كان من عادة هؤلاء القوم أن يفدوا إلى المدينة ، حاملين صوف أغنامهم ، أو ماحاكته نساؤهم ، ليبيعوه فى أسواقها ، وليشتروا ماقدروا عليه من خيراتها ، فإن أعجب أحدهم بما لم يستطع له شراء أخذه خلسة أو غصباً (والأمن فى هذه البلاد قد اضطرب ، والحق فيها لمن غلب) وكان من بينهم رجل يدعى سليما قد لبس جلد النمر ، وخلق من غير قلب ، وعاث فى الأرض فسادا ، فكم أدمى من قلوب ، وفتت من أكباد ، وقرح من جفون . وفرق بين الولد وأبيه ، أوفصيلته التى تؤويه ، بخطفه وبيعه ؛ فقد كان يفد إلى المدينة ويسير فى الطرقات ،

حتى إذا عن له صيد (وما صيده إلا البنون والبنات) نصب له شراكه، وألقى عليه حبائله حتى يفوز به، فينقلب إلى أهله مسرورا.

بينما هو فى إحدى جولاته، وقد خرجت عائشة مولية وجهها شطر الكوخ، تسير فرحة طروبا؛ تعلل نفسها بقرب لقاء أمها، فتثب من ناحية إلى أخرى وثبات العصفور المرح من غصن إلى غصن، فى يوم من أيام الربيع الساحرة — إذ رآها سليم، فتنبهت فيه غريزة الشر، ووجد فيها بضاعة غير مزجاة، ففكر ثم قدر، واستنبط الحيلة. وأعد عدته، ورسم خطته، فمشى عن كثب منها حتى عرف اسمها. ثم تقدم إليها وأخبرها أن أمها فى زيارة لأهله، وقد طلبت منه أن يحضر لها عائشة، وتلافريته بالحلوى قدمها إليها. فانخدعت المسكينة بقوله، ورأت ظاهره فيه الرحمة، ولم تدر أن باطنه من قبله العذاب، ومضت معه، وقد جذبها بعذب حديثه، واستمالها بحلواه، إلى أن دنا من الصحراء، فتلفت حوله خائفاً يترقب، ولم يلبث أن عاد إليه أمنه لما رأى الطريق خالية، وانقض عليها واحتملها، وكتم فاها، وعرفت منه الغدر وسوء القصد، فصارت تتلوى بين يديه، كما يتلوى الفرخ ينزع من عش أبويه، ولكنه أحاطها بذراعيه، وهددها إن لم تسكن إليه؛ فسكن جسمها، وتحركت عيناها، وانتحبت نحيب اليائس من الخلاص، وبكت بكاء المسافر لم يجد من فراق أهله المناص، ثم أنزلها تسير، فأسلست له القياد فزعا، وأعطته الزمام كرهاً، حتى وصل إلى خبائه، وقد نال منهما التعب، وأعياهما المسير، فأمرها أن تنام فأطاعت، ولكن النوم لم يجد إلى عينيها سبيلا. فباتت ساهدة الطرف، شاردة اللب.

ولما سل سيف الفجر من غمد الدجى نهضت من مرقدها، فألفته يعد راحلته، ويهيء زاده، فارتاعت وهوت على يده لثما وتقبيلا، وتضرعت إليه أن يعيد إليها حريتها، ويردها إلى أمها. فما كان جوابه إلا أن لطم خدها، وتوعدها بالمزيد إن لم تعدل عن البكاء.

لك الويل من وغد أثيم، ولص لئيم. ألم تأخذك شفقة بهذه الصغيرة، ولم يلن لها قلبك، فكان كالحجارة أو أشد قسوة، «وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله».

استخذت المسكينة وانكمشت ، ثم ركب جمله ، وأردفها . وجد فى السير حتى دخل مصر ، ونزل بإحدى قراها ، واتصل بجماعة من سراتها ، قد زين لهم ماهم فيه من جاه ونعمة أن يردوا الحُرَّ قِنًّا ، فعرض عليهم عائشة ، فاشتروها بثمن بخس دراهم معدودات ، وتركها بينهم لا يلوى على شىء ، وسار حتى ابتلعته الصحراء .

أما هي فقد تنفست الصعداء ؛ لما خلصت من البقاء فى كنف ذلك الأعرابى ، وأدركت أن بعض الشر أهون من بعض ، ومكثت بين ظهرانيهم أياما ، ثم أهداها كبيرهم إلى صديق له فى القاهرة ، فوجدت فى منزله بعض العزاء .

الفصل الثالث

القلب المحطم

انتظرت زينب سويداء قلبها ، وفلذة كبدها ، فلم تعد (وليس ذلك من عادتها) فاضطربت ، وجرت إلى البيت الذى تشتغل فيه عائشة فلم تجدها ، فهامت على وجهها فى الطرقات ، تسأل الغادى والرائح عنها ، فلم تقف لها على أثر ، فلما أعياها المطاف عادت أدراجها ، والوساوس ملء فؤادها ، ودخلت كوخها ، تسأل جدرانه ، وتستنطق حيطانه ، علها ترشدها إلى عائشة ، وهيهات هيهات ، فقد فر الذئب بالحمل ، وخرج به وثوب الليل مسدول .

قضت ليلة نابغية ، لم تأو فيها إلى مضجع ، ولم يرقأ لها مدمع ، وأخذ الوهم يصور لها عائشة فى صور شتى ، فتارة تظنها قادمة إليها ، فتفتح ذراعيها لتضمها ، وما تضم إلا الأمل الضائع ، واليأس اللاذع ، وتارة تزعم أنها تناديها من وراء الباب ، فتذهب إليه ، وترسل بصرها من خصاصه ، وتحبس أنفاسها ، فلا ترى إلا الخيبة ماثلة أمامها ، ولا تسمع إلا دقات قلبها ، وطورا تتوهم أن ليثا قد انقض عليها ، وحملها إلى الجبل ، وأنشب فيها مخالبه ، فيهلع لذلك فؤادها ، وتتمزق أحشاؤها .

ما أطول ليلك يا زينب ! ما للصبح لم يتنفس ؟ أضل طريقه ؟ أم حبس عن الدنيا كما حبست عنى عائشة ؟ مثل ذلك كانت تحدث نفسها . فلما أخذ الفجر ينشر أعلامه ، وبدأ الليل يطوى صحفه ، ويخفى لآلئه فى أصداف السماء ، وانمحت

آيته ، وظهرت آية النهار مبصرة ـ عاود زينب أملها فى العثور على ابنتها ؛ فخرجت إلى السبل باحثة معولة ، فلم تترك بيتاً إلا طرقته ، ولا مارا إلا استوقفته ، وما زالت تنتقل من حِلة إلى حلة ، وتميل ذات اليمين وذات الشمال ، حتى مال ميزان النهار ، وانحدرت الشمس إلى مغربها ، فانحدرت هى إلى كوخها ، وقد قر فى نفسها أن عائشة لن تعود إليها .

لقد تجرعت زينب كأس الحزن حتى ثمالتها ، وتقرحت من طول البكاء جفونها ، وتفتت كبدها ، وتيقظ حزنها القديم ، وغدت مهيضة الجناح ، مكلومة الفؤاد ، ترى الأرض غير الأرض ، والسماء غير السماء ، فانتهبتها الأمراض ، وأصبحت كخيال سار لولا أنينها ما تبينتها .

كانت لها جارة طيبة القلب ، عرفت أمرها ، ووقفت على ما أصابها ؛ فأخذت تواسيها ، وتوثرها على نفسها ، فتقدم إليها بعض ما هى فى حاجة إليه ، ولكن زينب لم تطب لها الإقامة فى تلك الديار ، التى أذاقتها لباس الجوع والخوف ، وسقتها من كئوس العذاب ألوانا ؛ فعزمت على الرحيل منها ، عسى أن تجد فى الأرض التى تهبط فيها بردا وسلاما ، يطفىء نار أحشائها ، أو يخفف من لواعج أحزانها ؛ فخرجت مبكرة إلى فج من فجاج الصحراء ، فوجدت قافلة تتأهب للمسير ، وتبغى وادى النيل ، فتفرست فى وجوه القوم ، حتى وقع نظرها على رجل توسمت فيه البر ، وتوقعت منه الخير ، فتوسلت إليه أن يحملها معه إلى وجهته ، فيقرض الله قرضاً حسناً ، فيضاعفه له ، فرق الرجل لحالها ، وأركبها راحلته ، وسارت سفن الصحراء باسم الله مجريها ومرساها .

الفصل الرابع

اللقاء

هبطت زينب أرض مصر ، وألقت عصاها ، واستقر بها النوى فى القاهرة ، وأخذت تستجدى الناس ، وتستندى الأكف ، ولكنها لم تكن بارعة فى حرفتها الجديدة ؛ فراحت تبحث لها عن عمل يشبه عملها الأول ، فوفقت إلى أسرة كريمة ،

قد أسبغ الله عليها نعمه ظاهرة و باطنة ، وحباها الخير العميم ، وجملها بالخلق القويم ، وقد أخلصت زينب فى خدمتهم ؛ فكافئوها بالحسنى وزيادة ، وعاملوها معاملة الولى الحميم . ولولا وخزات الأسى التى تمز فى قلبها لفراق ابنتها ، من غير أن تعرف لها مستقرا أو مقاما - لأحست ذلك النعيم ، الذى تتقلب فى أعطافه ، ولابتسمت لتلك الحياة الجديدة . ولكنها مازالت تذكر عائشة ، وتذرف الدمع مدرارا ، كلما خلت بنفسها .

ومر على مقدمها عام ، ولم يندمل جرح فؤادها ، ولم ينضب معين دموعها !

فى ذات يوم خرجت زينب لبعض شأنها ، فرأت فى الشارع فتاة زعمتها عائشة ؛ فخفق فؤادها ، وهرولت نحوها ، فلما دنت منها تبدل شكها يقينا ، فهتفت باسمها ، فجفلت عائشة ، ثم عرفت الصوت بعد نكر ، فطفرت إلى أمها وارتمت بين أحضانها ؛ فلو شهدتهما لرأيت جسمين اتحدا ، ولسمعت قلبين خفقا ، وثغرين نطقا بالقبل ؛ ووجدت عيونا فاضت بدموع الفرح ، يا له من منظر ساحر ، يعجز عن تصويره أمهر المصورين !

لم تقو الأم على احتمال هذا السرور الذى باغتها ، وأفعم قلبها ، فخرت مغشياً عليها ، ثم أفاقت من غشيتها ، وأخذت بيد ابنتها ، وسارت معها إلى الأسرة التى آوتها ، فلما رأوها مشرقة الوجه ، وضاحة الجبين ، بسامة الثغر ، على غير عادتها ، ومعها فتاة لا عهد لهم بها - أخذ منهم العجب كل مأخذ ، وتهافتوا عليها ، وأغراهم حب الاطلاع أن يسألوها ، فأجابت : إن هذه ابنتها عائشة ، وقد عثرت عليها ، فسألوا : ما خطبك يا عائشة ؟ قالت : خطفنى رجل من الأشقياء ، وخرج بى إلى الصحراء ، ودخلنا بلاد النيل وباعنى من أحد الأثرياء ، فضمنى إلى خدمه ، ثم وهبنى لصاحب له ، وعطفت على زوجته ، وعاملتنى معاملة حسنة ، فسكنت إليها ، ولكن لم أفتر عن ذكراك يا أماه ، فهنأ الجميع زينب ، وأبوا إلا أن يجعلوا من هذا اللقاء عيداً ، فهيئوا وليمة عشاء ، ودعوا إليها الأصدقاء ، وسطروا على باب المنزل بحروف وهاجة الضياء :

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا ؟

اسماعيل العربى

نشـــيد المعلمين

لحضرة صاحب العزة الأستاذ على الجارم بك

عودنا الأستاذ على الجارم بك أن يطالعنا بالجديد الطريف من أدبه ، وهذا لحن جديد من ألحانه ، يحق للمعلمين أن ينشدوه ويباهوا به ، وقد جاء على غرار أدبه الرصين ، وطريقته البارعة :

ملكت مصر زمام العالمين ـ بالعلوم ـ فى حديث للمعالى وقديم
ذكرها حلق بين الأولين ـ للنجوم ـ ووعاه الدهر والدهر فطيم
كوكب فى الظلمات ـ روضة وسط فلاة ـ رمز عزم وحياة
مصر أنت ـ مذ نشأت ـ صفحة المجد سجل الخالدين

***

نحن حراس على الكنز المصون ـ العقول ـ كنز مصر ومنى المستقبل
نحن للأخلاق فى مصر حصون ـ لاتزول ـ عزة الشعب بعز المعقل
كم غرسنا من نبات ـ عبقرى النفحات ـ مورق دانى الجناة
كم جهدنا ـ كم سهدنا ـ هدم الجهل ، ونبنى الناشئين

***

تلك فى الأرض حياة الأنبياء ـ والهداه ـ شرف أعظم به من شرف
نحن للأرواح إن عز الدواء ـ الأساه ـ كم وقينا مهجة من تلف
وألنا من قناة ـ فى اعتزام وأناة ـ بالخلال الطيبات
كم بلغنا ـ ما أردنا ـ من صلاح النفس فى رفق ولين

***

نرقب الله ونرجوه الثواب ـ فى العمل ـ وعلا مصر المنال الأوحد
مالنا إلا نهوض بالشباب ـ من أمل ـ قوة الأوطان عقل ويد
حسبنا من حسنات ـ أننا فى النهضات ـ أهل جد وثبات
الكفاح ـ والفلاح ـ شيمة الحر ودأب العاملين

***

كم صنعنا من عقول ورجال - للوطن - عرفوا بالنبل فيمن عرفا
ليس فيهم من دعا الحق فمال - أو وهن - هو مصرى صميم وكفى
هو من نسل الكماة - الأماجيد السراة - من أتوا بالمعجزات
من يباهى؟ - من يضاهى؟ - ما لمصر فى مدى المجدقرين

* * *

منشىء الأجيال أستاذ الشعوب - والأمم - قلما يبلغ فى الدنيا مناه
شعلة تعلو وتخبو وتذوب - فى الضرم - لتقود النشء فى ليل الحياه
يالها من صفحات - طاهرات ناصعات - ملئت بالصالحات
كل خطب - كل صعب - هين إن صح عزم الصابرين

* * *

عاش « فاروق » أمانا ورجاء - عاش عاش - رافع العلم ومحيي الأمل
بلغت مصر به أوج السماء - عاش عاش - وغدت سيدة فى الدول
عاش رب المكرمات - والأيادى السابغات - يفتدى بالمهجات
المليك - المليك - حبه ملء قلوب المخلصين

على الجارم

في التربية

كيف ندرس الانشاء ؟

بقلم عبد العزيز عتيق
المدرس بعباس الابتدائية للبنات

— ١ —

من المتفق عليه أن شكوى المعلمين تكاد تكون شاملة من الإنشاء وطرائق تعليمه فى مدارسنا ، وهم ينسبون الصعوبات التى تعترضهم فى ذلك عادة إلى أمور : أهمها ضيق الوقت المخصص للانشاء ، وقلة محصول الطالب فى اللغة ، ثم إلى طريقة تصحيح الكراسات ، تلك التى يجهد المعلم نفسه فيها خارج الفصل ، ثم لايكاد يفيد الناشىء منها ، أكثر من الاطلاع على الدرجة المعطاة !

وأمام هذه الصعوبات قام كثير من المعلمين أفراداً وجماعات ، بوضع كتب شتى يذللون بها سبل الإنشاء أمام التلميذ والمعلم . ومع أن بعض تلك الكتب قد أهملت فيها قواعد التربية ، ونظر فيها إلى إظهار براعة المؤلف ذاته ، بحشد الألفاظ الغريبة ، والتراكيب المترادفة المتواردة ؛ تلك التى قل أن تستحوذ عليها رءوس الاحداث او تملىء بها نفوسهم - مع كل هذا فانها لم تحدث الأثر الذى كان يرجي منها ! ويقينى أن أمثال هذه الكتب قد أساءت إلى الإنشاء بمقدار ما أساءت إلى الراغبين فيه من الناشئين ، والمشرفين عليه من المعلمين !

فهذه الكتب جناية ماثمة ، يدخل بها المؤلفون على نفوس المعلمين ، وأقل ماينالهم من شرها ، أنها تحبسهم فى دنيا المؤلف ، حيث يجب عليهم أن يكونوا أحراراً ، ينتزعون موضوعاتهم من البيئة والصور القريبة من حواس الناشئين ونفوسهم وأفئدتهم .

ومما لاشك فيه عندى ، أن تلك الكتب تعود المعتمدين عليها الكسل العقلى ، وقلة التفكير ! إذ ما الذى يدعو المعلم إلى أن يعمل ذهنه ، ويكد خاطره ، فى

اختيار الموضوع ، ماداموا الكتب بين يديه مليئة بالموضوعات والعناصر ؟

وتلك الكتب أيضاً حرب على مستقبل المعلمين ومعوزيهم ؛ فالمعلم يجهد نفسه فى درس الانشاء الشفوى ، سالكا إلى غايته سبيلا مرسومة ، هى أهدى السبل فى اعتقاده ، بينما التلاميذ معرضون عن الدرس ، غير مساهمين فى المحادثة والنقاش ! وما الذى يكلفهم مئونة هذا العناء من الإصغاء والعناية والمشاركة ساعة وفى قدرتهم نقل الموضوع عن كتب الإنشاء إلى الكراسات ، وبهذا يؤدى مثل ذلك الواجب الثقيل ؟

وهكذا تقضى كتب الإنشاء على النشاط الصاعد فى نفوس الطلاب ، كما تعودهم الكسل العقلى ، وقلة الاهتمام بالانشاء ، ومن هنا كانت تلك الكتب التى يتبارى المعلمون فى إظهارها كل يوم داء لادواء ، وجناية ملثمة يدخل بها ذووها على نفوس المعلمين والمتعلمين جميعاً

— ٢ —

ومن المسلم به أن لكل معلم طريقة يعالج بها الموضوعات الإنشائية ، ولى ملاحظات على بعض مايتبع فى تعليم الانشاء أشير اليها فيما يلى :

لست أدرى لم يهتم المعلمون ، وبعض المشرفين على اللغة العربية ، بأن يتزود مبتدئو التلاميذ بطائفة من التعابير الشائقة ، والتراكيب الخلابة ، والأساليب الفصيحة ... ؟

ولست أدرى لم يلزمون هؤلاء المبتدئين أن يقتبسوا فى موضوعاتهم ، مايتصل بها من الآيات والأحاديث ، والحكم والأمثال ، والأساليب الشعرية ؟

ولست أدرى لم نقدم اليهم لدى كل موضوع ، بعضا من التعابير المتناثرة المبتورة ، والجمل المتفرقة المصمتة ، ليُحلوا موضوعاتهم بما يشاءون منها ؟

حسن أن يتزود الناشىء بجديد المفردات . ومستطرف التراكيب ، ولكن كيف يتزود ؟ أيكون ذلك بأن تُنتزع له هذه المفردات وتلك التراكيب انتزاعاً ، ثم يكلف حفظها تكليفا جافا مشوشاً ، دون أن يعرف كيف ولا متى تستعمل ؟ لو كان ذلك كذلك ، لكنا عابثين غير منتجين ؛ ولكنا أيضاً متعسفين مع الوديعة التى بين أيدينا ، غير مسلمين بما يجب أن يقدم له من غذاء تشتهيه نفسه وتمسكه معدته ؛ فتهضمه وتمثله !

إن تزويد الناشئين بما ألمعنا إليه لا يتأتى لهم على النحو السابق ، وإنما يجيء عن طريق كتب حديثة ، كتب فى المطالعة الإنشائية ، يكون أساسها اختيار الموضوعات والأفكار التى تتناسب مع ميول المبتدئين وأسنانهم ، وأن نستعين بكل ما يخدم غاياتها من الاتجاهات الحديثة فى التربية وعلم النفس .

هذا من جهة الأساس ، أما من حيث المادة التى تؤلف كل موضوع ، فينبغى أن تكون على نحو جديد ؛ فنحن كما نعنى بالأفكار التى يشتمل عليها الموضوع ، يجب أن نعنى كذلك بالمفردات التى نرى تزويد الطالب بها فى ذات الموضوع ، وليكن سبيلنا فى إثارة انتباهه وشوقه إلى هذه المفردات ، أن نعرضها عليه فى تراكيب مختلفة ، وصور شتى ؛ فعلينا أن نعرض عليه الفعل الجديد ، ماضياً ومضارعا وأمراً ، ومجردا ومزيدا ، ومثبتا ومنفيا ، ومتصلا بضمير وغير متصل ، كما نقفه على مصدر هذا الفعل ومشتقاته ، والجموع التى يمكن أن تكون للاسم المشتق منه إلى آخر ما يمكن اشتقاقه وتوليده .

فإذا فعلنا ذلك ، وكررنا كل تركيب مرات على نحو ما نرى فى كتب المطالعة الإنجليزية الحديثة « طريقة ويست » ، فإننا نستطيع أن نحصل فى النهاية على طالب مفتن فى الإنشاء ، طالب يعرف كيف يطوع لنفسه المفردات والتراكيب التى عرفها بكثرة التداول ، والمرور أمام بصره ، دون أن يعتوره تعثر أو خطأ .

أما أن نكلفه حفظ صورة واحدة للكلمة الغريبة عليه ، كما يحصل فى مفردات المطالعة ، أو نعطيه عقب كل موضوع إنشائى شيئاً من التراكيب التى تتصل بالموضوع ، رجاء استخدامها وتحلية الموضوع بها ، فهذا عمل غير منتج كثيراً ، وقلما يكوّن منشئاً بالمعنى الذى نتصوره ، ونسعى إليه .

فإذا لم يكن بد من كتب للإنشاء — وهذا لازم — فالواجب أن تكون على الوضع الذى أجملناه . وقد آن للغيورِ من المربين أن يفكروا فى ذلك ، أما تلك الكتب التى تعتمد كثيرا على البهارج اللفظية ، وروائنِ الصنعة الكلامية ، والمبالغة والتهويل فى التعبير والتصوير ، فإنها حرب على المعلمين ، وقيد لعقول المتعلمين ! !

— ٣ —

والذين ينادون بضرورة الاقتباس من القرآن والحديث ، والحكم والأمثال والشعر ، ابتداء من السنة الثالثة الابتدائية مخلصون للغة، بقدر إساءتهم للإنشاء، وإرهاقهم للعقول الصغيرة ! وأحسبهم يكادون يجهلون نوع الإنشاء المنشود من هؤلاء المبتدئين ، والطاقة التى يقدرون عليها فى هذه المرحلة !

وليس الغرض من الإنشاء فى المرحلة الأولى ، أن يستخدم الناشىء الاقتباس فى كتابته ، وإنما المرجو منه — مع إرشاد المعلم — هو التمرين البدائى على الإبانة والإعراب عما فى نفسه من المعانى والخواطر الصغيرة إزاء موضوع ما . بعبارة من عنده سهلة صحيحة ، فإذا نجحنا فى ذلك ، أسدينا إلى مدرس الإنشاء فى المرحلة الثانوية صنيعا ، حيث نقدم إليه تلميذا منظم الفكر ، مرتب العبارة ، كثير الاحتفال بالانشاء والرغبة فى الاستزادة منه ، والترقى فيه . على أن الاقتباس أو الاستشهاد عملية عقلية مركبة ، تحتاج إلى طاقة كبيرة من الدُّربة ، ولطف الاحتيال ، والتمهيد بعبارات و مقدمات يجىء بها القول المقتبس ، كأنه من مقول المنشىء ، وهذه العملية أشق وأصعب من الانشاء ذاته ، وطالما رأينا التلميذ يضع البيت من الشعر ، أو الجزء من الآية ، فى حيث يعِنُّ له ، دون التفات أو اهتمام بالتمهيدات ، التى تنتهى متسلسلة إلى القول المأثور ، من غير التواء أو نتوء ، وبذلك يُفسد إنشاءه ، ويدع الموضوع يفقد بهجته ورواءه !

فإذا جاز لنا أن نعنى بالاقتباس ، على أنه أحد الموارد المنمية للثروة اللغوية والأدبية ، والكوة التى يشرف منها الطالب على صور فنية رائعة ، والفاكهة التى تثير أشواقه إلى سائر الأطعمة الأخرى - فإنما يكون ذلك فى منتصف المرحلة الثانوية ، حيث يكون الطالب قد شدا فى ذوق الأدب شيئاً ، وحيث يكون قد نما عقله ، وكثرت دربته ، واتسعت وتنوعت دائرة ثروته اللغوية ، وصار استخدام القول المأثور ، أو المثل السائر ، لا يعجزه ، أو يغلب احتياله ، ومرونته الإنشائية .

— ٤ —

وعندى أننا سنظل بعيدين عن الغاية المثلى فى صياغة الطالب فى الإنشاء

الصياغة التى نرتضيها ، حتى تتعاون وزارة المعارف مع المعلمين كل التعاون ، فالواجب على المعارف أن تضع تحت تصرف التلميذ فى كل سنة، من كل مرحلة ، أكثر من كتاب وقصة فى المطالعة ، والواجب على المعلم أن يحسن استخدام هذه الكتب لخير التلميذ ونفعه ، وأن يثير أشواقه إلى استيعابها والإفادة منها ، معنى ومبنى ، وإذا كان موضوع الإنشاء الذى يكتبه التلميذ ، إنما هو خلاصة معارف الأسبوع ، وثمرة ما أفاد وحصل من اللغة ، ألا يكون من الواجب علينا للتلميذ أن نتعهد سائر فروع اللغة بالعناية والرعاية واليقظة ، وأن نحيلها إلى روافد تمد مجراه الإنشائى ، بكل عذب سائغ مفيد .

فدروس قواعد اللغة ؛ لم نشوه من جمالها ، ونقلل من شأنها وأثرها ، فنقدمها للتلاميذ على أنها مادة أو علم مستقل بذاته ، ثم جافة عارية ؟ ؟ إن من الإنصاف للعلم ، وربط السبب بالمسبب ، أن يفهم الناشىء ويقرر له لدى البدء فى دراسة القواعد ، أننا لا ندرسها لذاتها ، ولكن لأنها أساس الإنشاء ، وبقدر فهم التلميذ للقواعد والتطبيق عليها ، يكون حظه من الانشاء ، فاذا استطعنا أن نشوقه إلى القواعد بمثل هذا القول ، وإذا استطعنا أن نجعله يلمس مقدار ارتباط الانشاء بالقواعد ، ومدى احتياجه إليها ، فاننا نكون قد ضمنا فى الغالب سلامة تركيبه ، ونجحنا فى تحبيب القواعد إلى نفسه ، وإثارة همته لحذقها والإفادة منها .

ومن التهاون فى دروس التطبيق - شفويا كان أو تحريريا - أن نقبل من التلاميذ جملا تافهة المعنى ، ساذجة التركيب ، ومن الخير أن يرد إليهم المعلم كل جملة من هذا القبيل ! وإلا فمتى وكيف يتقدم فى الإنشاء هذا الذى تطالبه بجملة فعلية ، فيقول لك مثلا : قرأ الولد ، أو لعب الرجل ؟ إن من الواجب التشدد والتدقيق فى تكوين الجمل ، حتى تجىء قوية الأداء والدلالة ، وحتى يأخذ التلاميذ أنفسهم من الصغر بالتعبير القوى ، والإنشاء الحسن .

ودروس المطالعة تعود بالنفع العميم على الإنشاء ، إذا استعلمت فيما وضعت له ، وهى تتطلب من المعلم مجهودا فى إعداد كل ما يلزم لها من شرح مفردات ، وتكوين أسئلة . ومن توجيه الأنظار والنفوس إلى التراكيب التى يصح أن يلتفت إليها الطالب ، ويعطيها عناية خاصة ، وكم يفيد المعلم حين يكلف تلاميذه

قراءة كتاب أو قصة خارج الفصل ، ثم يخصص كل أسبوع ، إحدى حصص المطالعة ؛ ليسألهم فيما قرءوا ، وليتخذ منه موضوعا للمناقشة والمحادثة . وفى ذلك خير معين له وللتلميذ على النجاح فى الإنشاء .

وقد يكون من المفيد أن يجعل المعلم دروس المطالعة خادمة للإنشاء من ناحية أخرى ؛ فإذا شاء أن يعطى تلاميذه موضوعا وصفيا ، كان عليه أن يبحث فى كتاب المطالعة عن الموضوعات الوصفية ، ثم يختار منها موضوعا أو موضوعين متناسبين يجعلهما أساس المطالعة فى ذات الأسبوع الذى يعطى فيه ذلك الموضوع الوصفى ، وتلك فى الواقع هى فرصة التهيؤ الذهنى والنفسى ، كما أنها الفرصة الطبيعية القريبة ، لإمداد التلاميذ بما هو أدنى إلى طبيعة الموضوع الذى سيكتب عنه ، من الألفاظ والعبارات التى نوقش فيها حديثا ، وعرف بعض وجوه استعمالها ، فإذا سار المعلم على هذا النمط من الحفاوة بالانشاء وجعل المواد اللازمة له قريبة من أيدى التلاميذ وأفهامهم ، كان من الطبيعى أن يجىء موضوع الاملاء السابق للانشاء ، مشابها للموضوع الذى سيكتب عنه التلاميذ ، حتى يكون لديهم فوق ما سبق صورة كاملة ، يصح لهم أن يحاكوها ، ويتأثروا بها أثناء البدء فى كتابة الموضوع .

— ٥ —

وبعد فهذه خواطر سريعة ، قصدت بها أن أجمل الرأى فى كتب الانشاء عامة ، كما قصدت أن أبين العوامل التى تقلل من ثمرة طريقة الانشاء المألوفة ، مع الإلماع إلى ما يجب إدخاله على هذه الطريقة ، حتى تصير أكثر فائدة وإنتاجا . ولعل من يهمهم هذا الأمر يؤازروننا بآرائهم ، كى نصل فى النهاية إلى علاج يكاد يكون حاسما لهذه العلة ، التى طالما حارت فيها أفهام الأساة ، وضلت حيل النطاسيين ! إنهم إن فعلوا فقد أسدوا إلى اللغة والانشاء ، ثم إلى النشء الحائر يدا مشكورة ، وعملا مجيدا .

عبد العزيز عتيق

خطا الزمن الوثاب (١)

للشاعر الأديب سيد قطب

المدرس بحلوان الأميرية

خطا الزمن الوثاب . بعضَ التوثب ... إلى أين ؟ قد أوغلت فى غير مذهب
تمـــرين كالأوهام لا أستبينها ... وتمضين عنى موكبا إثر موكب
وإنى لكالمخمور قد غاب وعيـــه ... وكالشبح الهيمان فى غير مطلب
تشابهت الأبعاد عندى فما أرى ... أمامى فرقا بـــين ناءٍ ومكثب
ويا ربما نسى أمور قريبـــة ... وأوغل فى الماضى البعيد المنكّب

* * *

خطا الزمن الوثاب . بعض التوثب ... طويت حياتى بين صبح ومغرب
قفى لحظة ؛ أنظر إلى الأمل الذى ... ضممت ثنـــاياه على كل معجب
وأسترجع الماضى رويداً وهينة ... أداعب فيه الطفل أو أضحك الصبى
وأسمع أوهام الفتى وخيـــاله ... كما يسمع المشتاق ألحان مطرب
قفى لحظة ؛ أنظر إلى الأمل الذى ... أبحت له من مهجتى كل مشرب
وغذيتـه نفسى ، وقد بعت دونه ... حواضر أيامى وماضى المجرب
قفى . أنت قد جفّلت ماضِيَ فانزوى ... ونفّـــرتِ آمالى وعَمّيْتِ مأربى

* * *

تمرين يا أيام قفـــراء ؟ أم أنا ... خويتُ من الاحساس ؟ قولى وأطنبى
وأحسب أن لن تعربى بمقـــالةٍ ... إذا كان سمعِى لا يصيخُ لمعرب !

سيد قطب

(١) من ديوان « أصداء الزمن » الذى سيصدره الشاعر فى أول ديسمبر .

أين الصديق ؟

للشاعر الأديب عبد الخالق المسيرى

المدرس بمدرسة الزقازيق الثانوية

كم أنادى الصديق من كل نفسى ... وهو ناءٍ كأنه رهنُ حَبسِ
هل دواعى الهموم أعدَته منى ... وابتلته مثلى بغم وتعس
فغدا كوكب السعود لديه ... عاثرًا واستحال كوكب نحس ؟
أم رآنى حليف همّ ووجدٍ ... فعدا طالباً مجالس أنس
وانضوى تحت راية اللهو يمشى ... كانضواء الجنود تحت الدّرفس
حيث نيران لهوه وهواه ... ذاكيات من فعل طاس وكأس

إلى أن يقول :

وطيور الصفاء تشدو لديهم ... بأفانين من غناء وجرس
مجلس ضم ما تطيب له النفس ، وما شابَهُ الزمان بوكس
ليتهم يذكرون صبًّا معنى ... غير أن الأيام تلهى وتنسى
فكأن لم أكن جليس صحاب ... ورفاق تركتهم منذ أمس
وكأنى بهم قبيل من الخلق غريب ، لا من قبيلى وجنسى
أو كانى بهم رؤًى قد رأتها ... عين فكرى ولم تُحَقق بحسى
أو خيالات وامق عرضتها ... فى دياجى الظلام جنّ لإنس
أو منام رأيته وتولى ... كل شىء فيه لمطلع شمس
قد نسونى كأنهم لى عدو ... يبتغى فرصة لوكسى وبخسى
فعلى رفقة الرخاء سلام ... حيث خابت فيهم ظنونى وحدسى

عبد الخالق المسيرى

كلمة وفاء

إلى المرحوم أحمـــد يوسف بدر

بقلم فايد العمروسى

المدرس بالمنيرة الابتدائية

تتحمل الفجيعة على مرارتها والنفس حزينة دامية ، وتطاق النكبات على فداحتها والقلب جريح محطم ، ولا عزاء فى ذلك كله إلا صفاء الإيمان ، وقوة العزيمة ، وطهارة السريرة ، والوثوق بان قانون السماء هو رحمة للبشرية فى بقائها أو فنائها !

وهذا عزاؤنا فى فقيد الرجولة والأدب ، المرحوم « أحمد يوسف بدر » أجل : هو عزاؤنا الجميل فيه ، وصبرنا الوادعُ عنه ، وما من شىء فى هذى الحياة يُطمئن النفس فى فجيعة أمل يذوى ، وشباب يذهب ، ونفس عفيفة تكفن ، وخلق برىء يدفن - سوى الشعور العميق بالصبر وان كان جازعا ، وبالعوض وإن كان قاصراً ، وبالسلوى وإن كانت تجيش بالهواتف الأليمة ، والذكر الحزينة !!

* * *

لم يكن شابا يعيش كالشباب ، راضيا بالتافه من الأمل ، مطمئنا إلى القريب من الحظ ، راضخا للواقع من الأمر ، مستكينا لنوازع الخوف ، مستسلما لِمَبَاذل الهون . . . !

ولم يكن حيا من الأحياء المنسجمين مع طبيعة السطحية الفاترة ، تُغْريه الطعمة اللذيذة ، والرغبة الوضيعة ، وتغنيه المتعة الحيوية الرخيصة التى يحسبها غيره أقصى مناه ، وغاية مايرجو فى الحياة من توفيق أو رجاء .

لا . . ولكنه كان شعلة من النشاط ، ووقدة من الذكاء ، وحركة دائبة من العمل ، هذا إلى ماكان فيه من قوة العزيمة ، وصلابة الجَلَد ، وشرف الرجولة ،

وكمال المروءة : المروءة التى امتزجت بدمه ولحمه ، فأصبحت من ذاته جزءا متمما لها ، ونفحة من نفحات شعوره ووجدانه .

* * *

بدأ الفقيد دراسته فى « دار العلوم » على خير ما يكون التلميذ يقظة فى فكره ، واعتزازا بذاته ، وتفانيا فى القيام بكل واجب له صلة بدراسته ، أو مساس بإنسانيته ، فكان نعم المعين لإخوانه ، يلقون إليه بأمورهم فيحمل ، وينادونه فى شدائدهم فيجيب !

ثم تخرج فيها ، فتلقى الحياة العملية قوياً واثقاً من نفسه ، معتمدا على إخلاصه وجده ، فلم يتراخَ فى السعى المشرف ، ولم يضعف أمام ما لاقاه من شدائد وعقبات ، فطورا تراه تاجرا ، وحيناً تراه مدرسا ، وآناتراه صحفيا قديرا ، يعالج من الأمور أهمها ، ومن المسائل أدقها ، وقلمه فى الحركة الفكرية معروف ، وجهاده فى النواحى الأدبية والاجتماعية مشكور !

مواهبُ ممتازة كتلك ، فى نفس مشبوبة كنفس الفقيد ، فقدها أليم ، والشعور بها آلم وأمر ، وأدهى من هذا وذاك ، أن يطوى فيخمد ذكرَه النسيان ، وتنهال عليه غفلات البِلَى والعفاء !

ومثله لا يبلى ، فقد عاش كريماً أبيا ، ورحل وفى الحياة ظلال لحياته ، وفى صفحات التقدير سطور وضيئة بمكرماته !

فعزاء إلى « دار العلوم » فى ابنها العبقرى الراحل ! ودمعة منى بافقيد الأدب وفخرَ الشباب . . . !

فاطمة العمروسى

في عالم التأليف

الإنشاء الفني

في كلمة سابقة، على صفحات هذا العدد، أجملت رأيي في كتب الانشاء. وفي هذه الكلمة أحدث القارىء عن واحد من تلك الكتب؛ ذلك هو «الانشاء الفني»، وأنا حين أتكلم عنه، سأنظر اليه ككتاب ألف وظهر، بغض النظر عن رأيي السابق.

* * *

فكتاب «الانشاء الفني» ألفه الأستاذان عبد العزيز عطيه، وحسن البنا، المتخرجان في دار العلوم، وأخرجته المطبعة الرحمانية في مائتين وأربع وستين صفحة من القطع الكبير.

والقارىء في الكتاب، يلمس في ثناياه مجهوداً طيباً، يشكر عليه المؤلفان الفاضلان؛ فقد خاضا بأقلامهما في مناحي الانشاء المُعَبَّدْ والآبِدة، وقصدا حقا أن يذللا للناشيء كل ما قد يستعصي عليه، أو لا يحسنه من ضروب الانشاء.

وقد عنيا في كتابهما بأدب المقالة والخطابة، والقصة والرواية، ووضحا طريقة تلخيص المطول، وإيجاز المسهب، كما اهتما بكتب المعاملات والرسائل التلغرافية، والمراسلات التي تدور عادة بين التجار والحرفاء، أو بين هؤلاء وبين الصناع، أو بين الأفراد والشركات والمصارف، مما يحتاج اليه الناشيء في ذلك العصر أكثر من رسائل الشوق والتهاني...!

كذلك أوردا طائفة من أسماء الصناعات والصناع، وجمعا أشتاتا من أسماء أجزاء الحيوان والأشجار والنبات؛ كالخضر والفواكه والأزهار، وكذلك أسماء كثير من الآلات، وإن كان بعضها يتجانف وذوق العصر.

وفي الكتاب فصل خاص بمكتبة التلميذ المنزلية، وقد حشدا فيه أسماء

مشهورى الكتاب المعاصرين ، مع التعريف بشىء من مؤلفاتهم ؛ تشجيعاً للطالب على اقتنائها ، أو الاطلاع عليها ، والإفادة منها .

أما معالجة الموضوعات النموذجية ، فقد تحريا فيه العناصر المهمة الغريبة ، فى عبارة أقرب إلى الرصانة والتركيز ، وكل ما ننصح به فى هذا الصدد ، إنما هو التدقيق ، والقصد فى استعمال التراكيب .

والذى يطلع على الكتاب، يرى أن المؤلفين قد أعداه للمدارس الابتدائية والثانوية بنين وبنات، وللمعلمين والمعلمات، والمدارس الصناعية . وطلبة الشهادتين الابتدائية والثانوية بالجامعة الأزهرية ؟ أى لكل من يزاول الإنشاء فى جميع مناحى التعليم .

ولكن كيف يتسنى لكل طائفة ممن عناهم المؤلفان أن تعرف الموضوعات التى أعدت لها ، والتى تتناسب مع طاقتها الثقافية والعقلية ؟

وكيف يتصرف التلميذ حين يرى نفسه بين موضوعات مختلفة ، لا يدرى ماذا يقرأ منها ، أو ماذا يدع ؟ أيقرأ الكتاب جميعه طلباً لموضوعات تتكافأ مع درجته ، أم ينصرف عن الكتاب ، عجزا عن العثور على ضالته ؟

أوَ ما كان الأوفق والأنسب ، أن يخرج المؤلفان ما يخص كل طائفة فى كتيب ، أو أن يبوبا الكتاب ، فيجعلا لكل طائفة بابا خاصا ؟

أجل لقد كان ذلك أول الواجبات على من يتصدى للأعمال الفنية، فما تقوم الآثار الفنية ، أو يقوم الفن إلا على دعائم من النظام ، وحسن الترتيب والتبويب !

وكيف فاتهما أن يكون الكتاب صورة للطباعة الحديثة، ونحن فى عصر تتفاضل فيه ثمرات المطابع بالشكل والمظهر وجودة الاخراج ، تفاضلها بالجوهر واللباب؟

ولعل العذر فى ذلك راجع إلى ما يتطلبه ذلك من نفقات .

والخلاصة أن الكتاب ذو حسنات ، وفيه مادة وفيرة للقارىء ، ونحن نوصى المعلمين ، وننصح الطلاب باقتنائه ككتاب مطالعة ، راجين له الذيوع والانتشار.

ولا أدع القلم حتى أهنىء الزميلين الفاضلين ، وأشكر لهما الغيرة على إحياء اللغة العربية ، وعسى أن نطلع لهما فى القريب على مؤلفات أخرى (إن شاء الله) .

عبد العزيز عتيق

فهرس العـــدد الثانى

من الســـنة الرابعة

الصفحة	الموضوع	الكاتب
٣	مقدمة	قلم التحرير
٩	التاجية الكبرى (قصيدة)	صاحب العزة الأستاذ على الجارم بك
١٤	تحية الفاروق (قصيدة)	عبد العزيز عتيق المدرس بمدرسة عباس الابتدائية للبنات
١٦	تاج الأمل (قصيدة)	فايد العمروسى المدرس بالمنيرة الابتدائية للبنين
١٩	يوم العرش (قصيدة)	محمود حسن اسماعيل بمجمع اللغة العربية الملكى
٢٤	يوم فاروق العظيم (قصيدة)	عبد الله عبد الجليل المدرس بالمدرسة السعيدية
٢٦	نشيد الملك	محمد يوسف المحجوب المدرس بمدرسة محمد على الملكية للبنات
٢٨	أثر علم الكلام الإسلامى فى الأدب	محمـــد موسى عفيفى المدرس الأول بالابراهيمية
٣٩	الشذوذ	الأستاذ الجليل الشيخ عبد الخالق عمر
٥٠	بين الحقيقة والخيال	الأستاذ بدار العلوم
٦٠	الفصحى وكيف نشد أزرها	الأستاذ عبد اللطيف المغربى المفتش بوزارة المعارف
٦٦	خالد بن الوليد	على النجدى ناصف مفتش المعارف بالاسكندرية
٧١	تقسيم الشعر عند العرب وعند الفرنجة	على على عتيبة المدرس بمحمد على الأميرية للبنين
		الأستاذ عبد الوهاب حموده

الصفحة	الموضوع	الكاتب
٧٤	أساس الحضارة الإسلامية الحديثة	عبد العزيز أمين عبد المجيد عضو بعثة دار العلوم بانجلترا
٨٦	ملكتا الجمال العربى فى صدر الإسلام	على الجندى المدرس بسوهاج الثانوية
٩٩	رأى جماعة دار العلوم فى اللغة العربية	جماعة دار العلوم
١١١	طرائف اللغة	الأستاذ مهدى خليل المفتش بالمعارف سابقا
١١٧	حديث النادى	قلم التحرير
١٢١	حفلة تكريم الأساتذة : الشيخ محمود احمد البطراوى احمد التونى افندى الشيخ على حسنين لمناسبة اعتزالهم الخدمة	افتتاح الحفلة : لحضرة صاحب العزة صادق جوهر بك ناظر دار العلوم كلمة الأستاذ زكى المهندس أستاذ التربية بدار العلوم كلمة الأستاذ أحمد يوسف نجاتى أستاذ الأدب بدار العلوم قصيدة الأستاذ عبد المغنى المنشاوى المدرس بدار العلوم تهنئة الصحيفة المحتفل بهم
١٢٩	المخطوفة (من الأدب القصصى)	إسماعيل العربى المدرس ببنى سويف الثانوية
١٣٦	نشيد المعلمين	صاحب العزة الأستاذ على الجارم بك
١٣٨	كيف ندرس الإنشاء (فى التربية)	عبد العزيز عتيق المدرس بعباس الابتدائية للبنات
١٤٤	خطا الزمن الوثاب (قصيدة)	سيد قطب المدرس بحلوان الأميرية
١٤٥	أين الصديق ؟ (قصيدة)	عبد الخالق المسيرى المدرس بالزقازيق الثانوية
١٤٦	كلمة وفاء (إلى المرحوم احمد يوسف بدر)	فايد العمروسى المدرس بالمنيرة للبنين
١٤٨	الانشاء الفنى (فى عالم التأليف)	عبد العزيز عتيق

الكستور المصرى

قطن مصر . صناعة مصر

صباغة ثابتة . نقوش مدهشة

٤٠ مليم المتر

المقارنة سهلة

بينه وبين الكستور الأجنبى

فى النوع ، والجودة ، والذوق ، والسعر

صنع

شركة مصر للغزل والنسج بالمحلة الكبرى

خصيصا

لشركة بيع المصنوعات المصرية وفروعها

السنة الرابعة (ذو القعدة سنة ١٣٥٦ هـ — يناير سنة ١٩٣٨ م) العدد الثالث

صحيفة دار العلوم

(ح ١٩٣٤ ع)

مجلة الأدب واللغة والتربية والاجتماع

تصدرها «جماعة دار العلوم»

كل ثلاثة أشهر

قررت وزارة المعارف ومجالس المديريات «صحيفة دار العلوم» في جميع مدارسها

المدير
محمد نجيب حتاتة

رئيس التحرير
محمد علي مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادي دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية
ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى

المدرس بدار العلوم

الاشتراك السنوى

في القطر المصري ـــــ ٢٠ قرشاً
خارج القطر ـــــ ٦ شلنات انجليزية
ثمن العدد ـــــ ٥ قروش

مطبعة الرسالة

"إن باحثاً مدققاً لو أراد أن يعرف أين تموت
اللغة العربية وأين تحيا لوجدها تموت في كل مكان
وتحيا في دار العلوم"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

يصدر هذا العدد الثالث من السنة الرابعة ، والبلاد فى أفراحها السعيدة بزفاف جلالة مليكها المحبوب . ففى كل مدينة مهرجان ، وفى كل دار عرس ، وفى كل قلب طرب ، وفى كل نفس فرح ومسرة ، وعلى كل لسان شعر وهتاف ، ولكل عاطفة نشوة ، وبكل جانحة ولاء وحب !

وإنها لمناسبة سعيدة يشترك فيها الشعب بكل طبقاته فى هذا الفرح ، معبِّراً عن إخلاصه وولائه لفاروق العظيم . وإن لنا لمساهمةً فى هذا العرس الحاشد لا تتسع لها هذه السطور المعدودة ؛ فنتقدم فى هذه الفرصة بالتهنئة الموجزة إلى أكرم عروسين ، لنفرد عدداً خاصاً من (الصحيفة) للاحتفال بهذا القران الميمون ، فننشر به ما فاض على ألسنة أبناء دار العلوم فى هذه المناسبة السعيدة من شعر ونثر وأغانى وقصص

ونبتهل إلى الله أن يُسعد الفاروق ويُسعد به شعبه ، ويجعل عهده عهد رخاء وأمن وسلام

في مهرجان الجمعية الخيرية الاسلامية

عيـــــد الاحسان

للشاعر محمود حسن اسماعيل

درجت الجمعية الخيرية الاسلامية على إقامة مهرجان سنوى لتستعين بايراده على بعض ما تقوم به الجمعية من شئون البر ؛ وتشترك في هذا المهرجان مختلف الطوائف

وقد كان الخميس ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٣٧ هو يوم المهرجان فى هذه السنة ، وقد تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح فاروق الأول بتشريف حفلة الجمعية التى أقامتها مساء ذلك اليوم بدار الأوبرا الملكية ؛ رعاية لهذه الجمعية ، وعطفاً على أغراضها النبيلة ؛ وقد كان لأحد أبناء دار العلوم — وهو الشاعر محمود حسن إسماعيل — شرف المثول بين يدي جلالته فى تلك الليلة ، ليلقي قصيدة من شعره فى تحية جلالته ؛ وقد تفضل جلالة الملك المعظم فاستمع إليه ، وشجعه بكلمات طيبة وعطف كريم . وهذه قصيدته :

نُوران : نورُ هُدًى ونورُ تبسُّمِ ... سَطعَا ، فراح الشِّعْرُ يَسْطَعُ من فَمى

فهتفتُ : يا دنيا الملائكِ طهِّرى ... وَتَرى ، وَمِنْ آياتِ وحْيِكِ أَلْهِمِى

هاتي لىَ النغمَ الجديدَ ، بغيرِهِ ... ما اهتزَّ للشعَراءِ سَمْعُ الأنجُمِ

هاتي فإنَّ بعرْش مصرَ مُمَلَّكاً ... تاجُ العُصورِ بمثلِهِ لم يَنْعَمُ

أَوْفَى فرُحْتُ إلى الخمائلِ هاتفاً : ... هاتى الشَّذَا من زهرِكِ المتبسِّمِ

فُضِّى لحونَ الطير من لَهَواتها ... وَمُرِى أغانيهَا تَرِنُّ بِمرْقَمِى

ودَعى الصباحَ ونورَه ، ودعى الضحَى ... وعبيرَه ينسابُ طهْراً فى دمى

إنّى سأهْتف للمليكِ بآيةٍ ... بيضاءَ مثلِ جَبينِه المتوسِّمِ

مولاىَ ! فاهتزَّ الوجودُ مَهللاً ... طرَباً ، وإنْ لم يَشْدُ أو يتكلمِ

منْ رام تغريداً بِظِلِّكَ فليكن ... لبلابلِ الخلْد السَّواجع ينتمي

اللهُ أكْبرُ ! مالسمعكَ هِزَّةٌ بسِوَى حَمام الجنَّـةِ المترنّم !

***

« فاروقُ » حبُّـك فى القلوب عقيدةٌ أخذَتْ سُراهَا فى القُلُوبِ مع الدَّمِ
قسمَتْ مع الإيمـان قُدْسَ مكانه فى الرُّوح ، وهْوَ لغيرهَا لم يُقْسَمِ
الشرقُ يقرأ فى جبينك آيةً فجْرُ الربيع بنُورها لمْ يُوسَمِ
النِّيـــــل فسَّرهَا له متخايلاً : هٰذِى مَنارَةُ كلِّ قلْبٍ مُظْلِمِ
فيها عَزاءُ الشَّرْقِ عن آلامِهِ وَمُناه بعْـد أسًى وطُول تجَهُّمِ
اللهُ سَـطَّرَها لِتاريخِ الحِمَى بُشْرَى وثُوبٍ للعُلا وتقـدُّمِ !

***

يا عاهلَ الإسْـلام كَرِّمْ عَصْرَهُ وأَنِر به حَلَكَ الوجُود المعْتِمِ
ألقَتْ إليكَ يدُ الحنيف زِمامَها فأقَلْتَ عثْرَتها ، وقلتَ لها اسْلمى !
وبعثتَ عهـد الراشدين بصوْلةٍ شرْعُ السَّماءِ بهـا حَديدُ المعْصَمِ
فرعَيْتَ عزَّ الصَّوْلجان ومَجْده وَخطرْتَ فى وَرَعِ النَّبىِّ الملْهَمِ
وحملْتَ مسبَحة كأنَّ مَدارَها فَلَقُ الهـدَى لِلحائر المتبَرِّمِ
حبَّاتُها فِلَذُ القلوب خواشعاً عطَّلْـنَ باللَّثاتِ آمالَ الفمِ
نَسَقٌ من المُلْكِ انفردْتَ بعِزِّه لِسِواكَ فِى التَّاريخِ لمْ يَتقَـدَّمِ

***

فى دَوْلَةِ الإحْسَان قامتْ عُصْبةٌ للخَيْرِ فى جَنبات عَرْشِكَ تحْتَمى
تأسُـو إذَا جرحَ الزَّمان ، وَتَنْبَرى قدَراً يُـكفْـكِف دمعةَ المتيَتِّمِ
كم ثاكلٍ ردّت فواجعَ قلبها نِعماً ، وأسبغَتِ النَّعيم لِأيِّمِ
ستَّارة الأعْراض يَغْمُرُ جودُها لَيْـلَ الحرائرِ فى بَياضِ الأنْعُمِ

وتُرَابُها للمُعْوِزين غَرائِسٌ ... للْقُوت ، تُثْمِرُ فى خريف المُعْدِمِ
تُعْطِي ولا مَنٌّ يَشُوبُ عَطاءها ... وتجودُ جود العدل للمتظلِّمِ
مِنَنٌ تدبُّ إلى النفوس خَفِيَّةً ... يَجري بها قدَرُ الإلٰه المنعِمِ
فكأنّها الأحلامُ تهبطُ فى الدجَى ... للبائسين بخَشْعَةٍ وتحَرُّمِ
شَرَفُ العطايا أن تَزُفَّ وحيدةً ... كالسِّرِّ بين تَخَفُّرٍ وتحشُّمِ !
هي كَعْبَةٌ — للبُؤس منْ إحسانها ... بِشْرُ النبات بِغَيْثِهِ المترحم
للعِلْمِ فى أكنافها ريُّ النُّهَى ... وَلِشَكْوَةِ العِلَّاتِ بُرْءُ المُسْقَمِ
مَوْلَاىَ أَسْعِدْها بنُورك إنها ... بِهُدَاكَ تفرَعُ سابحاتِ الأنجُمِ
هِمَمٌ سبقْنَ خُطَى الزَّمان بِعَزْمَةٍ ... أَوْقَدْتَها سَبْقَ القَضاءِ المبْرَمِ
هتفَتْ بكَ الدُّنْيا فرَدَّ هُتافَها ... شَعْبٌ يُفَدِّى بالقُلوب وبالدَّم !

محمود حسن اسماعيل

في النقد الأدبي

الخيال في الأدب IMAGINATION

للأستاذ أحمد الشايب

المدرس بكلية الآداب

تعريفه — أقسامه — صلته بالأدب والعلم — مقاييسه النقدية

— ١ —

رأينا فيما سبق أن العاطفة هي العنصر الأدبي الأول ، إذ كانت سببَ خلود الأدب ، وفارِقَته من العلم ، وأدلَّ على شخصية الأديب . ثم قلنا : إن العاطفة التي نحكم عليها بالصدق أو القوة أو السمو هي العاطفة التي يثيرها الأديب في نفوسنا نحن القراء أو السامعين لأن نفوسنا هي مظهر تأثيره الأدبي ، وإليها تنتهي هذه الجهود الأدبية شعراً كانت أو نثرا

والآن ، نسأل هذا السؤال : كيف يستطيع الشاعر أو الناثر أن يثير في نفوسنا هذه العاطفة الأدبية ؟ كيف يستطيع المحب أن يبعث في نفوسنا الشوق والجوى ؟ وكيف يمكن الحزين أن يوقظ الأسى والحسرة بين جوانحنا ؟ وكيف يلهب الحماسيُّ نار الغضب والكرامة في قرائه أو سامعيه ؟

أيستطيع أحدهم إثارة العاطفة بمجرد أن يدَّعيها أو أن يذكر اسمها أمامنا ؟ لا ، ليس هذا من طبيعة الفن الأدبي في أصله ، وإلا كان جميع الناس أدباء . أيمكن هذا بدراسة العواطف وتحليلها ؟ لا فذلك من علم النفس ، وهو أسلوب يصل بصاحبه إلى المعرفة ليس غير ، شأنه في ذلك شأن دارس النبات أو الحيوان كلهم يتناول مسائل علمية موضوعية لا دخل فيها للأدب ولا للفنون جميعاً بهذا الأسلوب . وإذاً ، فكيف تُبعث العاطفة في نفوس الآخرين ؟

الطريقة الطبعية التي يسلكها الأديب مع قرائه وسامعيه هي نفس الطريقة التي سلكها مع نفسه أو سلكتها معه الحياة . وذلك أن الشاعر — مثلا — أمام

موت صديق أو عظيم ، وهذا الموت سيِّئ الآثار ، شديدُ الوقع ، متنوع المظاهر الأليمة ... حتى كانت النتيجة أَنْ حَزِن هذا الشاعر . وهنا نقول : إن عاطفة الحزن ثارت فى نفس الشاعر بسبب ما شهد حوله فى هذه الحياة ... ويريد هذا الشاعر بدوره أن يثير فى نفوسنا عاطفة حزينة تشبه العاطفة التى في نفسه ... فماذا يفعل ؟ هو بين اثنتين : إما أن يأخذ بيدنا ويعرض على بصرنا وسمعنا ما رأى وسمع ، وفى هذه الحال يكون حكمنا حكمه ... ولكن هذا العمل ليس فناً أدبياً فلنتركه ، وإما أنه يعمد إلى اللغة أو الأدب فينقل — بوساطته — إلينا هذه الصور التى شهدها وأحسّها . فإذا نحن قرأناها مُصوَّرة فى شعره حَزِنّا لحزن الشاعر وشاركناه فى شعوره . وحينئذ يكون الشاعر قد أثار عاطفة الحزن في نفوسنا

هذا الشاعر هو البحتري فى رثاء المتوكل على الله :

حَلَّ على (القاطول) أخلقَ دارُهُ ... وعادت صروف الدهر جيشاً تُغاوره
كأنَّ الصبا تُوفى نُذورا إذا انبرت ... تُراوحه أذيالُها وتباكِرُهْ
ورب زمان ناعم ثمَّ ، عهدُه ... ترِق حواشيه ، ويُورق ناضرُه
إذا نحن زُرناه أجدّ لنا الأسى ... وقد كان قبل اليوم يَبهجُ زائره
تَغيّر حسن الجعفرى وأنسه ... وقُوّض بادى الجعفرى وحاضرُه
تحمّل عنه ساكنوه فجاءة ... فعادت سواءً دوره ومقابرُه

ماذا فعل البحترى ؟ لم يذكر الميت إلى الآن . ولم يزعم الحزن بهتاناً وكذباً ولم يأمرنا به ، وإنما عمد إلى طريقة التصوير أو الرسم واستخدمها في شعره وصفاً فعرض علينا آثار الموت ، ومظاهر الخراب ، ووازن بين عهدى الحياة والموت ثم تركنا — بعد عرض هذه الصور — وشأننا ، ولا شك أن شأننا هنا هو الحزن لاغيره . وسبب هذا أنه أشهدنا أسباب حزنه هو لتجعلنا نشاركه في هذا الشعور . ومثله فى هذا مثل من يعرض عليك لوحة رسمت عليها آثار الزلازل وويلات الحروب ؛ ليثير فى نفسك بغض الحرب ومحبة السلام . ويسير البحترى سيرته المثلى حتى ينتهى إلى قوله :

ولم أَنس وحشَ القصر إذ ريع سِرْبُه ... وإذ ذُعرت أطلاؤه وجآذرُهْ

وإذ صِيحَ فيـــه بالرحيل فهتكت على عَجَل أســـتارُه وســـتائره

هذه القوة ، وهى مشاهدة الأشياء ، ثم تصويرها لنا بمثل هذا الشعر تصويراً كأنه أمر حقيق . هى التى تسمى الخيال

— ٢ —

أستطيع هنا — رغبة فى الإيجاز — أن أترك لعلم النفس هذه التعاريف وكثرة الأقسام التى يذكرها للخيال أو التصور وما يتصل بهما . وإنما أقف عند نوعين مشهورين للخيال : أحدهما الخيال الابتكارى أو الخالق ، والثانى يسمى الخيال التصويرى أو التفسيري . فهذان النوعان ألصق الأنواع بفن الأدب وأكثرهما دوراناً على الألسنة

يلاحظ الإنسان أشياء كثيرة ، ويلم بمعارف شتى تختزن فى نفسه لحين الحاجة إليها . فإذا ما عَرضت له مناسبة مّا ، ألّف منها صورة تَصَوّرية تلائم مايبغى من إيضاح أو تأثير ، وأبسط الأمثلة لهذا النوع أن يتصور الإنسان مخلوقاً له رأس الإنسان وجسم الأسد أو عكس ذلك ، فهذه الصورة الخيالية غير موجودة عادة ، ولكنّ عناصرها الفردية موجودة يشهدها الإنسان ، ويلم بها كل يوم تقريباً ، فالخيال المبتكر هو الذى يختار من العناصر المختزنة مجموعة يؤلف منها صورة جديدة . وليس مثل هذا هو ما يبغيه الأديب ، وإنما نجد المظهر الرائع لهذا النوع عند ما يبتكر الروائى أو الممثل شخصية طريفة يجمع فيها صفات الكمال المثالى الذى يُتخيل ولا يتحقق ، أو صفات النقص الوضيع الذى لايراه الرائى ممثلاً كله فى كائن حى ! أو صفات الفكاهة والسخرية الغريبة ، هذا النوع تتوقف مكانته على الصور المخزونة عند الأديب ، وعلى مُثله التي يتصورها ، وعلى براعته في حسن تأليفها . يقول رسكن Ruskin فى حديثه عن الشعراء والرسامين : « إن كلا من الشاعر والرسام يلتقط في ذاكرته كل ما رأى وسمع طول حياته ، ويحفظه بالدقة كما تُحفظ الأشياء فى المخازن الكبيرة ، فالشاعر لا ينسى أتفه أنغام المقاطع التى سمعها في بداءة عمره ، والرسام لاينسى حتى أدق طِيات الأقمشة

وأشكال الأوراق والأحجار ، وفى كل هذه المعارف المتنوعة غير المحدودة يهيم الخيال . فيستخرج منها فى أى وقت شاء مجموعات من الآراء ، والأغراض ، أو الصور المتناسبة المنسقة الدقيقة »

هذا النوع الابتكارى هو عمدة الراوى والممثل ، وهو من خواص هـذه الفنون الممتازة الحديثة للآداب الأوربية . وعندى أن الأدب العربى القديم لم يحظ بهذا النوع إلا إذا لحظنا مسألتين : الأولى هـذه الصور التى نراها فى القصص ، والتى تمثل لنا إنساناً طويلاً يأخذ السمكة بيده من البحر ويشويها على الشمس ، أو بطلاً يقتل بضربة واحدة مائة رجل ونحو ذلك . الثانية ما تُضْفِيه المدائح والأهاجى على الرجال من أمثلة الكرم والجود والشجاعة ، أو اللؤم والذلة والبخل ؛ وهى صفات لا تتمثل فى رجل تمثيلاً واقعياً . على أن ذلك الثانى لم يبلغ فى النضج ما يراه المحدثون مثالاً لهذه الشخصيات المبتكرة

وأما النوع الثانى فهو الجدير بالوقوف عنده لأنه خيال الأدب العربى الممتاز ، وطابعه الشائع ؛ وهو ما وجدت مثاله عند البحترى كما أسلفنا

فلنعرف أولاً كيف نشأ ، وما سر وجوده ؟ لاحظنا فى رثاء البحترى لجوءه إلى الخيال ليستطيع تصوير عاطفته أولاً ، ثم إثارة مثلها فى نفوسنا ثانياً . وسبب هذا الاضطراب أن اللغة الحقيقية التى نراها في المعاجم إنما وجدت للتعبير عن الأفكار والحقائق العقلية والعلمية فقد وضعت بإزائها ، فهى لذلك تعجز عن أداء العواطف والانفعالات . إذ أن هـذه قوية بطبيعتها تسمو على مستوى الحقائق والعقليات الخالصة ، فحينما تسيطر على الأديب عاطفة يحب التعبير عنها يشعر بعجز هذه اللغة الحقيقية ، فيلجأ — بتأثير الخيال — إلى خلق لغة أخرى تلائم آثار العاطفة فى نفسه وقوتها ؛ فنراه يشبه الماء بالفضة ، والبستان بالفردوس ، والشجاع بالأسد ؛ وأحياناً يترك التشبيه إلى الاستعارة لأنها أقوى ، وآخر الأمر يستخدم الكناية

نحن أمام لغة جديدة لا تقوم على كلمات مفردة ، أو تراكيب إسنادية عادية

بل تجمع بين المتشابهات ، أو المتناقضات ، أو المتناسبات ... لماذا ؟ لأن الماء مثلاً — لصفائه — لم يبق فى نظر الأديب ذلك الماء المعروف لنا ، وإنما ارتقى فى نظره درجة ، فصار من حقه على هذا الشاعر أن يصله بالفضة ، وهكذا الشأن فى الشجاع ، والوجه الجميل ، والقوام اللدن ، والضمير الحى ، والعزيمة الماضية ... كلها فى حاجة إلى هذه اللغة البيانية التى تلائم ما فيها من قوة وجمال . ولأذكر مثالاً آخر لهذا النوع التصويرى ، أو التفسيري ، أو الوصفى ، قول ابن خفاجة يصف فرساً أشقر فى حرب :

ومُطهَّمٍ كسَرقِ الأديم كأنما ألفت معاطفُه النجيعَ خِضَابا
طرِبٌ إذا غنى الحسام ممزَّقٌ ثوب العجاجة جيئة وذهابا
قدحت يدُ الهيجاء منه بارقا مُتلهباً يُزجى القتام سحابا
ورمَى الحِفاظُ به شياطين العِدى فانقضَّ فى ليل الغُبار شِهاباً
بَسّامُ ثغرِ الحَلْىِ تحسب أنه كأس أثارَ بها المِزاجُ حَبابا

فالفرس هنا ذو صور شتى ، كل منها تلائم صفة من صفاته المتصوَّرة ، فهو مرة فرح بما يكسوه من دم الطعان حتى كأنه خضاب سرور ، وأخرى إنسان يطرب لغناء الحسام — وغناؤه ضربه الشديد — ثم يمزق ثوب الغبار ذاهباً جائياً وثالثة نراه برقاً متلهباً يُزجى هذا الغبار الشبيه بالسحاب ، ورابعة هو شهاب ينقض على الأعداء ليصعقهم ، وأخيراً نرى حليه — ما يزين سرجه ولجامه — متألقاً كالكأس علاها الحباب

كل صورة من تلك الصور تصلح وحدها مثالا لهذا الخيال التصويرى ، فمثلا يقول : طَرِبٌ إذا غنى الحسام . نجد نشاط الفرس وثباته فى المعركة يصور أو يفسر تفسيراً راقياً جميلا ، يفسر بالطرب ، لأن الطرب إنما يكون عن سرور ورغبة ، فالفرس ليس مقسوراً على هذا الموقف وإنما هو مدفوع إليه بمحض الرضا والولوع ، وكذلك باقي الصور الموزعة بين التشبيه والاستعارة

— ٣ —

ما طبيعة هذا الخيال ووظيفته ؟ هذا النوع ليس ابتكار مجموعات جديدة ، وإنما هو الوقوف عند الشيء الموصوف للتعبير عن مغزاه الحقيقى أو عن قيمته الروحية . ونعود إلى شرح ذلك ، هب أنك واقف أمام النيل ، فماذا ترى ؟ لاشيء سوى هذه السفن الغادية الرائحة ، والماء الجارى ، والأشجار الباسقة ؛ والبيوت الشامخة ، وهي أشياء مألوفة يراها أقل الناس ويراها الحيوان ، إلا أن ما يراه أحدهما لا يتجاوز الحس إلى المعنى ، ولا يعدو هذه الأحجام والألوان والحركات ولكنك — بقوة الخيال — تتعمق إلى ما وراء موقع العين أو الأذن ، فتدرك الأزل القديم ، والتاريخ المسطور فى مجراه ، والهدوء الرتيب أو الجلال الخالد ، وتسمع ضحكات كليوباترة ، وجدال موسى وفرعون ، وترى العرب يملكون الوادى ، والمصريين يطلبون الاستقلال . كل تلك المعانى من نتاج هذا الخيال الذى يبعث عاطفة الاجلال أو الاعجاب فى نفسك ، فاذا شئت تصويرها عمدت إلى لغة هذا الخيال فينشأ فن الوصف الأدبى ، وليس من الهذر هذه الصور ، فانها عند العقلاء والأدباء المعنى الحقيقىّ لمظاهر الحياة ، طبعية كانت أو إنسانية

الفائدة الأولى لهذا الخيال أنه عماد الوصف الأدبى ؟ وهنا نذكر أن هناك ما يسمى الوصف العلمى أو الحسى ويقوم على الواقع المحسوس فيستخدم الأرقام والمقاييس ، والأحجام ، والأبعاد ، لأن صاحبه عالم أو مهندس معمارى يفهم الأشياء من جسمها وأعضائها ، وأما ما نريده هنا فهو الوصف الأدبى الذى يتجاوز هذه المظاهر أو يفسرها غير عابىء بهذه التفاصيل والدقائق التى لا تفسر شيئاً من سر الطبيعة أو الصناعة ، وقد سبق كلام فى ذلك ثم رأيت مثاله منذ حين فلنتركه

وفائدة أخرى لهذا الخيال الوصفى أو الوصف الخيالى ، أنه يصور لنا الأشياء صوراً أجمل من صورها المشاهدة الحسية ، فقد نقرأ وصف الحديقة ، أو الزهرة ، أو الفتاة ، فنجده أجمل منها جميعاً ، وذلك واضح طبعى ، لأن الوصف الذى نراه فى الشعر أو النثر ، يجمع شيئين . (١) الشيء الموصوف الذى يشهده كل الناس

(٢) ثم تفسيره أو سره المستور . وقد يعبر النقاد عن ذلك بعبارات أخرى كقولهم : إننا نرى الأشياء من خلال عين الأديب الواصف . وكقولهم : إن الوصف الأدبى يكمل نقص الطبيعة أو يزيل سذاجتها ويكشف سرها .

وإتماماً لهذه الناحية نذكر أن هـذا الوصف الأدبى — بسبب اعتماده على الخيال — يتوقف على مزاج الأديب وطبيعته ، لأن هذه الطبيعة تلون المشاهد بلونها غضباً ورضاً ، وبهجة وحزناً ، حتى إنك لترى عجباً فى ذلك ، فالشعراء يختلفون فى تصوير الشىء الواحد تبعاً لأمزجتهم ، والشاعر الواحد يصور الشىء الواحد صورتين مختلفتين ، فى وقتين مختلفين تبعاً لتغير مزاجه ، أو وجهة نظره ؛ فشوقي المسالم الهادىء يقول :

فدعْ كل طاغيةٍ للزمان فإن الزمان يُقيم الصَعرْ

وشوقى المستأسد يقول :

دُنياك من عاداتها ألا تكون لأعزل

والشيب فى رأي المعرى :

والشيب أزهار الشباب فما له يخفى ، وحسن الروض فى الأزهار

وهو عند الشريف الرضى :

قلت : ما أمنُ مَن على الرأس منه صارمُ الحد فى يد الأيام ؟

ونجد ابن خفاجة يصف الشجرة المنوّرة فيراها مرة :

لفّاء حاك لها الغمام مُلاءة لبست بها حَسناً قميصَ صباح

وهو نفسه يقول فيها مرة ثانية :

حَطَّ الربيعُ قِناعها عن مفرِق شَمِط كما ترتدُّ كأسُ الراح

— ٤ —

ليس الوصف وحده محتاجاً إلى الخيال ، فإن الرسائل ، والخطب ، والمقامات ، والروايات ، تعتمد عليه اعتماداً واضحا لايحتاج إلى إيضاح . وهنا أقف عند بابين أو فنين من الفنون الأدبية العامة لأتبين صلتهما بالخيال ، هما : التاريخ ، والنقد

الأدبى . لا يستغنى المؤرخ عن الخيال إذا شاء أن يكون تاريخه قيّما ثم جميلا . ليس التاريخ جمعَ الحقائق وسردَها فى هـذه المؤلفات الضخمة ، وإنما هو إحياء هذه العصور الماضية من جديد إحياء يتناولها من نواحيها جميعاً ، وهـذا الإحياء لا يقوم إلا بمساعدة الخيال . لا بد من تصوير البيئات القديمة ومقاييسها السياسية والاجتماعية والفنية . وطرق تصورها الأشياء ، لفهم ما يُسمى روح العصور التاريخية ، هذا من الناحية الأولى . ثم يجب تصور هؤلاء الرجال والنساء تصورا قائماً على أمزجتهم ، وآمالهم ، ومواهبهم ليُعرضوا علينا كأنهم أحياء أمامنا يفكرون ، ويخالون ، ويعملون متأثرين بهذه البيئات التى احتوتهم ، وليس مؤرخاً ذلك الذى لا يدرك الفروق بين العصور المختلفة أو بين شخصياتها العديدة . . . وليس من شك في أن الخيال قد يضلّل المؤرخ حينما يبالغ فى تصور الوقائع ، أو الأشخاص ، متجاوزاً الحقائق الواقعة سياسية أو اجتماعية فينسلخ بذلك عن التاريخ إلى فن أدبى آخر هو القصص Epic . والأجدر أن يجعل المؤرخ حقائقه صلب عمله ثم يلبسها من خياله روحاً يهب لها الحياة ، ويعيدها سيرتها الأولى ، ويكسبها جمالا أدبياً تكون به شيِّقة خالدة . وإذاً فليس كتاب ابن الأثير مثلا تاريخاً ، بل مرجعاً لحوادث التاريخ وحكايتها ، أو سجلا يرجع إليه طلاب القصص التاريخي .

والناقد إذا أراد أن يكون أديباً وجب عليه أن يضيف إلى أصول النقد الأدبى عنصر الخيال الخاص به ليقوم بشيئين اثنين : إدراك شخصية المنقود وبيئته ، ثم فهم أدبه فهماً صحيحاً وموازنته بغيره ؛ وبذلك يكون نقده وديًّا غير عصبى أولاً ، وإيضاحاً ثانياً . فحين أدرس المتنبى يجب أن أتصور نزعته الطامحة ، وبيئته غير المسعفة لأستطيع فهم شعره على هذا الأساس فلا تغرب عندى شكايته وسخريته وحماسته ، ويكون موقفى منه موقف الشارح الموضح لفنه وبواعثه ، وأخيراً أستطيع الإنصاف فى نقده وتقديره . أى شىء يصل بيننا وبين روح العصور الماضية غير الخيال ؟

— ٥ —

ليس الخيال نافعاً فى الأدب وحده ، بل يتدخل فى معارفنا وعلومنا كذلك . أليست معارفنا الأولى مكونة من المشاهد الحسية الخالصة ؟ بلى ، فإذا ما قرأنا فيما بعد وصفاً لأشياء أخرى لم نرها استعنا على تصويرها بهذه الصور الحسية الأولى تشابهاً أو تناقضاً . على أن فهم الكلمات اللغوية يقوم فى ذهننا على تكوين صور لمعانى هذه الكلمات ، وهى صور صحيحة على الرغم من إبهامها أو نقصها أحياناً . والخيال من وسائل التربية الحديثة يعتمد عليه المربون فى دراسة التاريخ والرسم ، وعمل النماذج وغير ذلك

والخيال العلمى ، ما هو ؟ عملية تقوم على فروض يمكن أن تأتى بنتائجها الخاصة ، فحينما وجد الرجل البخار وقوته تخيل صورة وضعه فى أنابيب وتسليطه — مثلاً — على آلات يديرها فتكون الحركة ، والسرعة ، والصناعة ، والقوة ، وهكذا . والفرق الجوهرى بين الخيال العلمى أو العملى وبين الخيال الأدبى : أن الأول نتيجة لدافع عقلى . والثانى نتيجة للعاطفة ، وكلاهما فى الحقيقة متعة للنفس ، مرة لناحيتها العقلية ، وأخرى لناحيتها الوجدانية أو العاطفية ، وليس فى استطاعة منصف أن يفصل بينهما مطلقاً إلا إذا استطاع الفصل بين مظاهر الشعور النفسى وتمزيق المواهب الانسانية . هل تحليل الزهرة إلى عناصرها يذهب بجمال سحرها ، وتآلف ألوانها ، وعميق وحيها ؟ ! قد يقلل من ذلك ولكنه لا يمحوه

— ٦ —

وأخيراً ، كيف نحكم على الخيال ؟ وما مقاييسه الفنية ؟

أما الخيال الابتكاري — وهو لا يعنينى هنا كثيراً — فيقاس بمقدار هذه الصورة المبتكرة من حيث تصويرها للصفات المراد تصويرها بطولة أو بلاهة أو سمواً أو ضعة ، ثم بمقدار ملاءمتها لباقى الشخصيات الروائية الأخرى ، فكلما كانت الصورة طريفة ، قوية ، مستكملة خواص البطولة ، حسنة الاتصال بسواها ، كانت جيدة وإلا تعرضت للطعن والتجريح

وأما الخيال التصويرى فأحب أن ألفت النظر بالنسبة له إلى أنه معروف عندنا فى علوم البلاغة تحت عنوان علم البيان وبعض البديع ، ومن يدرس التشبيه ، والمجاز ، والكناية ، وحسن التعليل ، والتمثيل مثلا ، يكون قد درس بعض وسائل الخيال التصويرى .

وبناء على ذلك نستطيع أن نضع لهذا النوع مقياسين اثنين :

أحدهما : عام يقوم على درجة تصوير الخيال للعاطفة عمقاً ، وجمالاً ، وقوة ، وسموًّا . فإذا شعرنا بأن العاطفة التى أثارها الخيال محققة لهذه المقاييس التى شرحناها قبل الآن ، حكمنا أولاً للعاطفة ، ثم أردفنا ذلك بالحكم للخيال . وأما إذا وجدنا فتوراً في العاطفة فإننا بِعرَض من أن نتهمهما جميعاً ، ما دام بينهما اتصال دقيق متبادل يسير طرداً وعكساً

والثانى مقياس خاص أو هو تفصيلى يقوم على حسن التشبيه والتمثيل وعلى جودة الاستعارة ، وعلى درجة الكناية ، وذلك كله مفصل في كتب البلاغة العربية لا أجدنى محتاجاً إلى تكراره هنا

أحمد الشايب

أسس الاصلاح فى دار العلوم

للدكتور على العنانى

الأستاذ بدار العلوم

تمهيد

يرتكز النهوض والرقي فى الأمم على النهوض والرقى في المعارف والعلوم والعقلية المهذبة الناضجة ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتكوين المعلم الصالح والنهوض بالتعليم ؛ ولذلك كانت العناية بأمر المعلمين هى الأساس الأول الذى ترتكز عليه مقومات الحياة الراقية والاجتماع الصالح لدى كل أمة تريد الرقى وتعمل للنهوض .

وقد توفقت مصر من فجر نهضتها الحديثة إلى ذلك ، فأنشأت للمعلمين دار العلوم ومدرسة المعلمين ؛ وقد أدى هذان المعهدان رسالتهما على أكمل وجه وأسمى غاية بالنسبة إلى مقتضيات الأحوال ومطالب الزمن ، واستمرا على ذلك عهداً غير قصير ؛ ولقد حدث أخيراً أن تطورت العقليات وزادت مطالب الزمن وهذان المعهدان يتقدمان فى أداء مهمتهما ولكن بنسبة لا تساير تماماً كل ما تتطلبه الحاجة من النهوض بالمعلمين والتعليم والحياة العقلية فى البلاد ؛ وعلى الأخص فى استكمال ما لا يزال بعيداً عن لغتنا ، وفى الوقوف على كل جديد من عقليات الأمم الناهضة منتجةِ المدنية الحديثة الحاكمة الآن فى كل الشعوب ؛ وكان من أثر ذلك أن نهضت عقليتنا بما أوتينا من الاطلاع على معارف الأمم الراقية مع تخلف المعلمين المتخرجين في دار العلوم عند ما كانت عليه من قبل ، وتحويل مدرسة المعلمين إلى معهد ليس من الطبيعى أن يقوم بتكوين المعلمين ، وعدم إمكان تحويل كلية اللغة فى الأزهر أو كلية الآداب في الجامعة إلى الاختصاص بتخريج المعلمين مع أنهما تتزاحم فى هذا السبيل .

ولقد نشأ عن ذلك حالة شاذة ، وهي تزاحم كلية اللغة الأزهرية وكلية الآداب

ومعهد التربية على الاستئثار بدار العلوم باندماجها في إحدى هذه الجهات مما يخالف الوضع الطبيعى ولا يحقق الغرض من تكوين المعلم الصالح القادر على أداء رسالته طبقا لحاجة الوقت ووفقاً لطبيعة الزمن والتطور العقلى الحديث .

والعمل الطبيعى الضرورى الآن إزاء هذه الحالة هو الإسراع بالإصلاح العاجل فى تكوين المعلمين فى بيئة خاصة بالمعلمين ، تستكمل فيها تربية المعلم كل ما لا يتيسر لها طبعاً وهى محولة على أية جهة أخرى ليست محل اختصاص لذلك .

والمعهد الوحيد الذى له هذا الاختصاص إنما هو دار العلوم ، والحالة الحاضرة الآن — بالنسبة إلى ما وصلت إليه عقليتنا ودرجة الرقى فى التعليم عندنا وتخلف دار العلوم وهى المعهد الوحيد الصالح لتكوين المعلمين عن الاضطلاع الكامل بشئون تلك العقلية وعن القدرة الكاملة على مسايرة هذا الرقى الحديث فى التعليم — فيستدعى العلاج العاجل فى انتشال دار العلوم من تخلفها الحالى من أن تؤدي للتعليم واجبها فى إعداد المعلمين القادرين على حمل أعباء التعليم من كل الوجوه والسير به إلى الأمام فى رقيه المطرد وخدمة العلم المستمرة في طلب المزيد .

هذا العلاج الوحيد المطلوب يمكننا أن نعبر عنه باسم (إصلاح دار العلوم) وأن نذكره فيما يلى بهذا التعبير ؛ وأدنى سبيل لضمان النجاح فى هذا الإصلاح وتحقيق الغرض منه إنما هو تركيزه على أسسه الطبيعية المرتبطة بالسبب الباعث عليه والمحققة للغرض المطلوب منه ؛ وبما أن إدارة الدار قد كونت لجاناً من هيئة التدريس بها للنظر فى مسائل هذا الإصلاح وتمحيص نواحى الصواب فيها واختيار المفيد مما يتعلق بها فإنى قد راجعتها ووجدت أنها فى فروع لا تتصل بأصول توحد وجهات النظر بين أعضاء كل لجنة من جهة وبين قرارات اللجان من جهة أخرى مما تتشعب معه المناقشة ، ويصح أن تنبو بعض نتائجها أو كلها عن الصواب وأن يحدث اختلاف فى تقارير اللجان ؛ لذلك رأيت أن أدلى برأيى مجملا فى سبب الإصلاح بدار العلوم والغرض المقصود منه والأسس الضرورية التى يرتبط بها كل فروع هذا الإصلاح فى جميع نواحيه ، وأن أدون هذا الرأى لسهولة الاطلاع عليه .

سبب الاصلاح والغرض منه

اتضح لنا من الإجمال التمهيدى السابق أن تكوين المعلمين يجب أن يكون فى بيئة خاصة ؛ وقد كانت هذه البيئة منحصرة فى دار العلوم والمعلمين العليا ؛ والثانية قد تحورت إلى معهد للتربية ، ففقدت بذلك اختصاصها وبقيت دار العلوم وحدها متمتعة بهذا الاختصاص ؛ غير أن دار العلوم على ما بها من رقى فى الثقافة الدينية والأدبية اللغوية قد أصبحت الآن لا تؤدى رسالتها على الوجه الأكمل لحرمان أبنائها من تعلم لغة أجنبية حية تمنحهم المرجع الجامع للثقافة الحديثة المؤهلة إلى الوصول إلى كل ما يحتاجه التعليم وما يمكن المعلم الباحث من خدمة المعارف والعلوم .

هذا ولا شك نقص كبير فى الدار وفى أبنائها يجب تلافيه وسبب أساسى للإصلاح فيها مع ما يتبعه من الأسباب الثانوية التى لا حاجة إلى ذكرها فى هذا الإجمال .

وإصلاح الدار لهذا السبب الأساسى وما يتبعه من أسباب ثانوية إنما يكون لغرض ضرورى هو تكوين المعلم الصالح بها تكوينا يكون به قادراً على الاضطلاع بمهمة التعليم بما يتناسب مع طبيعة الوقت ودرجة الرقي العلمي الحديث ، ويساعد على خدمة العلم ورفع مستوى العقلية المصرية إلى ما يجب أن تكون عليه الآن وفى المستقبل القريب والبعيد .

إذا نحن قد تبين لنا ذلك وأذعنّا بوجه الصحة فيه فمن السهل علينا بعد ذلك أن نهتدي إلى أسس الاصلاح المزيل لأسباب النقص والممكن من الوصول إلى الغرض المطلوب دون تعثر فى الطريق وتشعب متنافر فى الأطراف والفروع ودون السير على غير هدى فى شعبة التجارب والرأى الخطير .

أسس الاصلاح

وأسس الاصلاح المنشود تنحصر في ثلاث جهات عامة تدخل فى كل واحدة

منها طائفة من فروع هذا الاصلاح ، وهى الجهة الادارية ، والجهة الثقافية ، وجهة ختامية يترتب الاصلاح فيها على الاصلاح فى الجهتين السابقتين .

الجهة الادارية

وأساس الإصلاح فى الجهة الإدارية رفعها إلى الدرجة التى تجعلها فى صف الإدارة فى المعاهد العالية وكليات الجامعات . ويدخل فى هـذا الباب الفروع الآتية وهى :

(١) رفع دار العلوم إلى كلية (٢) إنشاء مجلس لها

(٣) تعيين رؤساء للأقسام العلمية

(٤) تنظيم هيئة التدريس بتقسيمها إلى أساتذة ، وأساتذة مساعدين ، ومحاضرين ، ومدرسين ؛ ووضع كل فريق منهم فى درجات من نوع درجات هيئات التدريس فى الكليات .

(٥) تعيين الجهة التى تتغذى منها الدار وما يشترط فى الطالب الذى يلتحق بها

(٦) الفصل فى مسألة السن من جهة تحديده أو إطلاقه

(٧) وضع خطط الدراسة لزمن الحصص وعددها فى اليوم وفى الأسبوع وتوزيعها على المواد

(٨) تحديد سنى الدراسة (٩) نظام الامتحانات وحالات الرسوب

(١٠) وضع اللائحة الداخلية لنظام العمل اليومى والمكافآت والعقوبات

الجهة الثقافية

والاصلاح فى هذه الجهة إنما يكون أساسه النهوض بها إلى الدرجة التى تمنح المعلم الإلمام العام بنواحى التفكير الإنسانى فى الدين والفلسفة والأدب والعلوم مع التخصص فيما هو أمس بحاجة المعلم ومصلحة التعليم . ويدخل فى هذه الناحية الأساسية الفروع الآتية :

(١) تقسيم مواد الدراسة إلى أربعة أقسام أصلية : وهى قسم الدين ، ويدخل فيه تاريخ الديانات والتوحيد والتفسير والحديث والأصول والفقه . وقسم الفلسفة

ويدخل فيه تاريخ الفلسفة العام والفلسفة العربية والمنطق والأخلاق . وقسم الأدب ، ويشتمل على علوم اللغة العربية واللغات السامية ولغة أوربية حية . وقسم العلوم ، ويدخل فيه تاريخ نشأة العلوم وتطورها والعلوم التى يتقرر تدريسها بهذا القسم

(٢) تقسيم المواد الدراسية إلى قسمين أحدهما يراعى فى تدريسه طريقة التحصيل والثانى يدرس بطريقة البحث والتحليل

(٣) تقسيم طريقة التدريس إلى قسمين : أولهما يرجع إلى نظام الدرس والعمل فى مواد التحصيل ، والثانى إلى طريقة المحاضرة فى مواد البحث والتحليل

الجهة الخامسة

ويرتكز الإصلاح فى هذه الجهة على تحديد قيمة الشهادة وما ينتظره حاملها بمؤهلاته العالية التى حصل عليها بعد إصلاح الدار فى الإدارة والتثقيف ، ويدخل فى ذلك ما يأتى :

(١) وضع شهادة دار العلوم فى مستوى شهادة الدراسة فى الكليات والاشتراك معها فى الاسم .

(٢) إعطاء الحق لحامل هذه الشهادة أن يتقدم ببحث علمى إلى نيل شهادة الدكتوراه

* * *

هذه هى أسس الإصلاح فى دار العلوم التى يجب النظر فيها قبل البحث فى نفس هذا الاصلاح ، حتى إذا ما استقر الأمر عليها كما أجملتها أو بعد تعديل فيها أو تغييرها بما هو أجدى منها ، تيسر لواضعى الاصلاح المنشود تنسيقه على وجه مؤتلف لا تنافر فيه ولا اضطراب . وأقوى البناء ما وضع على أساس ، وأوهنه ما يتساند على الأطراف .

على العنانى

علم النفس

وصلته باللغة والأدب والاجتماع

للأستاذ محمد خلف الله

المدرس بالجامعة المصرية

— ١ —

مقدمة

هذا الموضوع — على طرافته — حلقة من سلسلة مباركة ، بدأها من قبل أساتذتنا وإخواننا فى علم النفس ، فذللوا بها صعوبة الأداء اللغوى ، ومهدوا فيها طريق التأليف . وقد اجتمعت لدىّ فيه طائفة صالحة من الأبحاث (فى كتاب معد للطبع) رأيت أن أقدم بعض نواحيها إلى قراء صحيفة « دار العلوم » جاعلاً نصب عينى غرضين أساسيين :

الأول : أن أساهم فى التعريف بنظم الدراسة النفسانية وتطبيق الصالح منها فى دراساتنا وأبحاثنا المصرية

والثانى : أن أقوم بنصيبى فى خدمة اللغة العربية من تجديد فى دراساتها ، وتوسيع لثروتها ، وتحديد لمصطلحاتها ، حتى تقوم بوظيفتها فى الأبحاث العلمية الحديثة على الوجه الأكمل ، وحتى تتمشى وروح الدقة فى العصر العلمى الحاضر

وقد آثرت فيما كتبت أن أدع الناحية التاريخيـة جانباً ، وأن أقتصر على أحدث ماوصل إليه علم النفس ، لأعرض منه صورة لطيفة ، يلذها المربِّى والقارئ ويجد فيها جمهورنا المثقف عوناً على تتبع الحركة الفكرية فى الممالك الراقية . وأنا فى هذا أتبع نموذجاً فى البحث والتأليف لفت نظرى كثيراً أيام دراستى فى الخارج وعلى الأخص فى انجلترا ، إذ وجدت القوم يتجهون إلى الأمام دائماً فيما يفكرون

ويعملون ؛ فهذا المؤلف ينقد رفيقه ، وذلك الباحث يبتدئ من حيث انتهى أخوه ، وهكذا يتناول القوم تراثهم العلمى فيزيدون فيه ، ويبنون كما بنت أوائلهم ، ويجمعون فى طريقتهم بين الاستمرار والتجديد

هذا وقد خصصت الأجزاء الأولى من البحث لنمو اللغة وترقى الفكر عند الطفل ، وعلاقة كل ذلك بمقدار الذكاء عنده ؛ وهذا منزع حدا بى إليه الميل الأدبى الذى أشربته منذ الصغر ، والدراسة اللغوية التى تيسرت لى قبل تخصصى في علم النفس ؛ وكان مما شجعنى على سلوكه أن رأيت الأبحاث النفسانية الحديثة (وقد جعلت ميدانها التصرف الغائىّ ، واللغة بعض ذلك التصرف ، بل عنوانه وترجمانه) قد ولجت على اللغة أبوابها ، وأوغلت فى كشف أسرارها على أساس علمى تجريبي ، فأصبح عالم فقه اللغة ، وعالم النقد الأدبى ، يعتمدان على النتائج التجريبية لعلم النفس فيما يقرران من نظرية أو يسوقان من برهان . وهذا دين قام يوفيه علم النفس الحديث للغة ، فقديماً أذاع الشعر والقصص كثيراً من أسرار النفس ، وأمدّ الفلاسفة والنفسانيين بالمادة التى ارتكزوا عليها فى دراساتهم ، وقديماً أسدى علم النقد الأدبى إلى علم النفس أيادى جمة بما هذّب من استعمال الألفاظ ، وحدد من مدلول العبارات التى كان يستعملها العلماء فى التعبير عن النفس وأحوالها ، والعقل وتجاربه ، والتصرف ومظاهره . ولهذا كان إذا ذكر علماء النفس بالمعنى العام دخل فيهم الشعراء والروائيون والكتاب

وقد ظل هذا القران بين الأبحاث النفسية الأدبية ، والأبحاث النفسية العلمية ، ردحاً من الزمن ، حتى أخذت الدراسات الطبعية قالبها العلمى المضبوط ، وسرى الأثر منها إلى دراسات النفس ، فأصبحت فرعاً يدرس لذاته ، ونشأ بينه وبين القرين القديم جفوة وبعاد . هذا التنائى لم يكن منه بد ، فان الباحث العلمى الذى يحاول أن يصل إلى قواعد وقوانين عامة للتجارب ، مضطر أن يضع فروضاً ونظريات ، وأن يزن الألفاظ بميزان حساس ، وقد يغلو فى ذلك فينقلب علاجه للموضوع أبحاثاً نظرية جدلية ، لا تدنى من فهم الطبيعة الانسانية ، وإنما تباعد

عنه ، وتخرج بعلم النفس عما قال فيه ابن رشد : « وعلم النفس أغمض وأشرف من أن يدرك بصناعة الجدل » هكذا كانت الحال فى القرن الماضى حين كانت الأبحاث النفسانية إنما يقصد منها شحذ القريحة والتفنن فى ضروب الحجج ، والمهارة فى التفريع والتدقيق ، على أن ذلك لم يدم طويلا ، فقد بدأ الناس يدركون أن هذه النظريات النفسانية على ما بينها من تناقض وخلاف ، ممكنة التطبيق فى الحياة العملية ، فطبق بعضها ونجح ؛ وانصرفت همة الكثيرين من الباحثين إلى ما يسمى الآن علم النفس التطبيقى ، وأصبحت ترى حتى علماء الأدب وفقهاء اللغة يغشون حدائق هذا العلم ليقتطفوا منه ما يعينهم على فهم التجارب والآراء الانسانية

ولست فى حاجة أن أنوه هنا بما لعلم النفس الآن من منزلة فى الشعوب المتحضرة فقد أصبح عماد المربى ، وقوام التاجر ، وسلاح السياسى ، وعدة الطبيب ؛ وأصبح القوم يعتبرونه المحور العام للدراسات الانسانية ، عليه تعتمد هذه الدراسات ، وفيه تجد أساسها الذى ظلت تنشده زمناً طويلا ، ولئن كان القرن التاسع عشر قد اصطبغ فى تفكيره بصبغة علوم الحياة ، إن القرن الحاضر ليعتبر عصر العلوم الانسانية ، ففيه تحررت هذه الدراسات من ربقة النظريات الفلسفية ، وأخذت تدنو رويداً من حظيرة العلوم الحديثة ، حتى أصبح المعمل والقياس والتجربة دعائم أبحاثها ، وحتى أصبحت الفلسفة ربيبتها ونهايتها لا مصدرها وبدايتها

هذا التحول الكبير فى وجهة النظر العلمى يدركه كل من درس الفلسفة أولا ، واصطدم بنظرياتها وألغازها حتى تشعبت به السبل واختلطت عليه الموارد فراح يبغى نجوته فى فرع كعلم النفس مبنى على المشاهدة والقياس ، ولقد قدر لى فى ثمانى السنوات التى قضيتها فى أوربا أن سلكت هذه السبيل ، فدرست الفلسفة وفروعها من علوم نفس واجتماع وسياسة ومنطق وأخلاق وجمال وإلهيات ، فما إن قطعت شوطاً حتى وجدتنى أميل إلى التخصص فى ناحية واحدة هى ناحية علم النفس ، فدرسته عملا وتجربة فوق دراسة البحث والنظر ، ثم اخترت من ميادينه الواسعة ميدانين : سيكولوجى اللغة ، ونفسانية الأطفال

فوهبتهما معظم جهدى وزمنى ، وقضيت حوالى السنتين متنقلا فى المدارس الابتدائية أدرس الأطفال فى منطقهم وتفكيرهم ، ثم دونت بعض النتائج فى رسالتى التى قدمتها لدرجة الماجستير من جامعة لندن

هذه الدراسة الشخصية التى قمت بها هى التى عنيت الآن أن أنقلها إلى القارىء فى ثوب عربى ، وحرصت أن أجعلها صورة متحركة للطفولة من مهدها إلى رشدها ، وقرنت فيها النتائج بمصادرها ، حتى يسهل على إخوانى المربين وطلبة الفلسفة وعلم النفس واللغة ، تتبعها فى مواطنها والاستزادة منها ؛ وسأتناول فى المقال التالى طرق الدراسة النفسانية التى ستتكرر الاشارة إليها فى نقط البحث ، إن شاء الله .

محمد خلف الله

بين القديم والحديث

الدلالة النفسية
للألفاظ والتراكيب العربية

بقلم سيد قطب
المدرس بمدرسة حلوان الابتدائية

أخيراً جداً استطاعت المدرسة القديمة فى الأدب العربى أن تعترف بأن اللغة كائن حى يتبع الناطقين به وبيئتهم ، ويساير تقدم الأفكار والعلوم ، ويتأثر بالسياسة والاقتصاد والاجتماع ... إلى آخر صفات الكائن الحى الذى يتطور وينمو

ولكن هذا الاعتراف لم يعد الدائرة النظرية عند هذه المدرسة ؛ لأنه جاء مجاراة للأفكار الحديثة عن اللغات ، لا اقتناعاً عقلياً أو نفسياً بهذه الحقيقة . ولذلك لم يتعد أثره عند أبنائها ترديد هذا القول في كتبهم — أو مذكراتهم المدرسية بتعبير أدق — وفى مقالاتهم التى يكتبونها فى بعض الأحيان . وظل هذا القول بعيداً عن التطبيق العملى ، فى نقد الآثار الأدبية والنظر فى الأعمال الفنية الحديثة

ومن هنا كان النزاع بين المدرستين القديمة والحديثة ، وكانت هذه الصيحات التى نسمعها من المدرسة القديمة عند ظهور كل مؤلف حديث ؛ ولا سيما دواوين الشعر ؛ إذ كان هذا اللون من الأدب هو الذى يتضح فيه الخلاف ؛ لأن التعبير النثرى عادة يكون تصويراً لحقائق تكاد تكون متفقاً عليها ، أو لأنواع من الأحاسيس لا ترقى إلى مرتبة الوجدان الشعرى — فى الغالب — فلا يختلف التعبير اختلافاً يدعو إلى النزاع

على أن الخلاف فى حقيقته ليس خلافاً لغوياً أو أدبياً كما يحسب الكثيرون ، وإنما هو اختلاف عقليتين ، لا تكادان تتفاهمان على أساس ، فى النظرة إلى اللغة والتعبير ، بل فى النظر إلى الحياة نفسها ، فى جملتها وتفصيلها

فأما المدرسة القديمة ، أو العقلية القديمة ، فترى فى الألفاظ العربية وطرق الأداء العربية ، نوعاً من الأصنام المعبودة ، لها قداسة وحرمة ؛ وتراها غاية فى ذاتها ، لا وسيلة تصوير ؛ فيصعب حينئذ عليها أن ترى لهذه الألفاظ والتراكيب صوراً وأشكالاً غير ما عهدته فى الأدب القديم

وأما المدرسة الحديثة ، فالألفاظ والتراكيب عندها أدوات للتصوير ، تختلف باختلاف الصور المراد إبرازها ، وباختلاف طريقة كل مصور فى الأداء ؛ وترى أن طريقة الأداء هذه تختلف اختلافاً صغيراً أو كبيراً ، تبعاً للأمزجة الشخصية ، ولأمزجة الأمم الناطقة باللغة إذا تعددت هذه الأمم ، كما هو حال اللغة العربية . فلا بد تبعاً لذلك أن تختلف طرق استعمال هذه اللغة ، وأن تخضع لطريقة الأداء الخاصة لكل أمة من الأمم . وطريقة الأداء هذه اتجاه عقلى ونفسي ، قبل أن يبرز ألفاظاً وتراكيب . والتقيد بصحة الألفاظ وصحة التراكيب ليس معناه التقيد بدلالتها الوصفية أو العرفية ، إذا اختلفت البيئة وتفاوتت أساليب الحياة

وقد يكون هذا الكلام نظرياً مجملاً ، ولهذا أتولى شرحه وترجمته إلى أمثلة محدودة فيما يلى :

* * *

لسنا نعرف بالضبط عمر اللغة العربية ، والذى نعلمه علم اليقين عنها يبدأ بالعصر الاسلامى ، أما العصر الجاهلى فاننا نعرف أشياء مبعثرة عن نهايته ، ونجهل كل الجهل أوائله

ومع هذا فنحن نفرض أن عمر هذه اللغة قبل الاسلام يساوى عمرها بعده ، ونفرض أن ظروف التطور والتحول التى أحاطت بها فى شطر عمرها الأول ، تعادل الظروف التى أحاطت بها فى شطر عمرها الثانى — وهذا فرض متسامح فيه كثيراً — ثم نطالب بأن يكون تطورها الفعلى فى الشطر الثانى ، مساوياً لتطورها فى شطرها الأول فحسب . فماذا نرى ؟

نرى فى الشطر الأول ، أن ألفاظاً كانت قد وضعت لمحسوسات ملموسة ،

فارتقت إلى محسوسات غير ملموسة ، ثم إلى (مدركات كلية)

ونرى تراكيب استعملت أولاً لحالات مجسمة أو واقعة ، فارتقت منها إلى حالات معنوية مجردة

ونرى أساليب متباينة ، على حسب الموضوعات التى تعبر عنهـا والمعانى التى تصورها

وأمثلة القسم الأول كثيرة . أذكر منها :

(١) كلمة « شرف » فقد وضعت أولاً « للمكان المرتفع » ثم عبر بها عن « العلو » ثم صارت إلى المعنى النفسى الذى تدل عليه

(٢) كلمة « كتابة » فقد كانت أولاً « للقيد » ، ثم صارت إلى معنى « التقييد » ، ثم انتقلت إلى مدلولها الحالي

(٣) كلمة « سبب » فقد كانت أولاً « للحبل » ثم صارت إلى « الصلة » بين شيئين ، ثم توسع فى هـذا المعنى الأخير ، إلى أن يكون وجود شىء داعياً لوجود شىء آخر

وأمثلة القسم الثانى كثيرة كذلك فى الأمثال العربية وسواها من الاستعمالات التقليدية الشبيهة بالأمثال . أذكر منها :

(١) « بلغ السيل الزبى » فقد كان مورد المثل بلوغ السيل الحقيق إلى المرتفعات الحقيقية ، ثم صار مضربه لكل أمر جاوز حده .

(٢) « الصيف ضيعت اللبن » فكان في مورده صيف ولبن حقيقيان ، ثم صار يضرب لكل من فوت فرصة وعاد يطلبها .

(٣) قولهم : « أثلج الله صدره » فهو مأخوذ من البرد الحقيق المطلوب في بلاد حارة كبلاد العرب ، ترى النعيم فى نسمة باردة . ثم صار يقال لكل من تطلب راحته النفسية .

وأمثلة القسم الثالث كثيرة فى الأساليب المتنوعة حسب الأغراض المنوعة ، مما لا يحتاج إلى إثبات نصوص خاصة يطول بها هذا البحث دون حاجة

ثم نرى غير هـذا كله ، ألفاظاً وضعت للحى ، عبر بها عن غيره ، كقول

القرآن الكريم : «والصبح إذا تنفس» وألفاظاً لغير العاقل عبر بها عنه كقولهم : « صلب العقيدة » و « عذب الحديث » وألفاظاً وضعت للمحس ، عبر بها عما لايحس ، كقولهم : « ناء عليه الدهر بكلكله »

وهكذا وهكذا ، فى كل الاستعارات والمجازات

* * *

هذا طرف يسير مما وصلت إليه اللغة من التطور والتحول ، والبعد عن أصولها الوضعية في الألفاظ والتراكيب المختلفة ، في شطر عمرها الأول

فإذا نحن تصورنا اطراد سيرها فى هذا السبيل الطبيعى مدى الشطر الثانى ، فى التطور والتحول والبعد عن الأصل ، فأى تعنت إذاً هذا الذى يحاوله من يضطرك للوقوف عند الدلالات الأولى للألفاظ والتراكيب والأساليب ؟

والذى يبيح لكلمة الشرف أن تتطور حتى تصل إلى معناها الذى وصلت إليه فى آخر العهد الجاهلى ، لم لا يبيح لكلمة «الفنان» مثلا أن تتطور من معناها الأصلى إلى معناها الذى يخطِّئه اللغويون في هذه الأيام ؛ مع أن خطوات تطورها أقصر من خطوات كلمة « الشرف » مثلا ؛ فهذه وصلت إلى أن تكون اسم « معنى » وتلك لا تزال اسم « ذات » . والأول أسبق فى مدارج الرقي .

والذى يبيح لكلمة «يتنفس» أن تسند إلى الصبح ، منذ ذلك العهد البعيد ، لم لا يبيح لكلمة « يلثم » أن تسند للفجر ، أو النور ، فيقال :

ألمح الفجر وراء الغلس يلثم الكون ببشر وابتسام

أو يقال :

يلثم النور وجهها وهى نشوى تغمض الجفن لذة أو دلالا

وهذه وتلك لا تعدوان ما ورد فى الاستعمالات العربية القديمة ، ولكنهما لم تردا بأعيانهما ، ولهذا وحده لاتقبلهما المدرسة القديمة هما وأمثالهما من التعبيرات

* * *

وبعد فقد أخذت البحث حتى الآن مأخذاً متواضعاً ، لأصور مقدار العنت الذى تحاوله المدرسة القديمة ؛ ولكن المسألة فى الحقيقة أوسع من هذا ، ويجب

أخذها بصراحة تامة ، تخرج الألفاظ والتراكيب العربية عن حرمة القداسة التى يريدونها لها ، وتخضعها للبحث العلمي ، فى قوة وجلاء .

يجب ألا نجد فى نفوسنا حرجا من المصارحة بأن هذه اللغة ليست لغتنا الأصلية ، وإنما هى لغة شعب آخر ، يختلف عنا فى كثير من التقاليد والعادات والأفكار والبيئة ، والعوامل الاقتصادية والسياسية . . . إلى آخر ما يختلف فيه شعبان .

وأن كل ما يربطنا بهذا الشعب ، إنما هو الصلات الدينية ، والتراث الأدبى ؛ وهاتان الناحيتان لا تستغرقان النفس الإنسانية المتشعبة المناحى .

وإنه تبعاً لذلك ، لا بد أن تظل هناك فجوات كبيرة ، بين مزاجنا ومزاجه ، وأفكارنا وأفكاره ، وعواطفنا وعواطفه ، وآمالنا وآماله . . . وحينئذ لا بد أن تختلف طرق أدائنا وتعبيرنا تبعاً لهذا الاختلاف ؛ ولابد أن تجدّ بيننا صور فكرية ونفسية لم يستشعرها واضعو اللغة الأولون ؛ فنختار لها نحن أداء من نوع خاص ، لم يوجد فى طرق الأداء المعروفة لهذه اللغة ، وإلا بقى جانب كبير من أحاسيسنا مكبوتاً بدون تعبير ، ويمكن هنا الاستشهاد بتطور الفنون الجميلة — وهى أداة تعبير وتصوير[1] .

وأحب أن يرسخ فى الأذهان أن ما نعبر عنه بالأسلوب ، لا بد أن يختلف فى شعب عنه فى آخر ولو توحدت اللغة التى ينطقان بها ، وأن هذا الاختلاف ضرورة عقلية لا فكاك منها ، وليست داخلة فى نطاق الإرادة ليقبل الإنسان منها ما يريد ويرفض ما يريد ، ما دام صادقا فى إحساسه ، صادقا فى التعبير عنه .

وأحب أن يرسخ فى الأذهان كذلك أن المدرسة الحديثة ، حين يرد فى أدبها بعض الأساليب الخاصة ، لا تتعمد بذلك أن تخرج على العربية المتعارفة ، ولكنها لا تجد فيها ما يصلح للتعبير عن نوع خاص من الخلجات لم يسبق أن أحسه الشعب العربى ، حتى يوجد التعبير عنه فى لغة ،أو أحسه في ضعف وفتور ؛ فتلجأ

(١) تتسع هذه الاشارة لمبحث كامل ، تستعرض فيه المدارس الفنية المختلفة وطرقها وأسباب تطورها وتداخلها

حينئذ إلى خلق استعمالات وصور جديدة من الأداء ، تناسب هـذه الخلجات الجديدة فى حدود اللغة العربية الصحيحة ؛ وسيأتى تفصيل ذلك بالأمثلة .

* * *

ثم نعود إلى ما كنا فيه ، لنقول : إنه فوق ما تقدم من الاختلاف الطبيعى الذى لا حيلة فيه ، بين الشعب العربى والشعب المصري ، فإن مفردات هذه اللغة وتراكيبها الغالبة ، قد وضعت فى عصر البداوة للشعب العربى نفسه ؛ ولم تساير اللغة حضارة هذا الشعب فيما بعد بنسبة تقدم هذه الحضارة ، وذلك لوجود روح من التحفظ الدينى ، أوجد ما يشبه الجمود فى الوضع والاشتقاق بعد عهد الجاهلية وصدر الإسلام ، فبقيت صور الألفاظ العربية محدودة — على سعتهـا — بحدود النفس البدائية الأولى للعرب ، فى الوقت الذى جدت فيه ألوان من الحالات النفسية المركبة والراقية دون أن يوجد لها ما يقابلها من الألفاظ والتعبيرات .

ولقد اضطر فنانون عظماء من العرب فى العهد العباسى : كأبى نواس وابن الرومى ثم المتنبى ، إلى ابتداع كثير من صور التعبير ، وإلى إدماج كثير من المشتقات الجديدة فى شعرهم ، مسايرة للحاجة النفسية ، وهي التى تنشىء الألفاظ ، وتبدع طرق الأداء . وحصل أكثر من هذا فى الأندلس ، فى أوزان الشعر وطرق الأداء

وكذلك اضطر جماعة من العرب المحدثين فى عصرنا هذا ، ممن عاشوا فى أمريكا ، أن يبتدعوا صوراً جمة من صور التعبير ، وأن يختطوا طرقاً جديدة من طرق الأداء ، لا عهد للغة العربية بها فى عصر من العصور

على أن اللغة العربية ، لو سايرت فى الوضع والاشتقاق وطرق الأداء نهضة الشعب العربى في عصوره الذهبية ، ما استطاعت — مع هذا — أن تفى بحاجتنا نحن اليوم ، مالم تخضع للتعديل والتحويل والابتداع . وذلك لسببين :

(الأول) ماقدمته من بيان الاختلاف بين طبيعة الشعبين ، اختلافاً ينقص أو يزيد ، ولـكنه موجود على كل حال .

(الثانى) أن خطوات النهضة العربية في عصورها الذهبية ، تتخاذل أمام النهضة الحالية ؛ وقد تضاعف التراث العقلى والفنى مرات ، بمـا أضيف إليه بعد

تلك النهضة ، وكل هذاله أثره فى الحاجة إلى الألفاظ الجديدة وطرق الأداء الجديدة

وقد أسلفت أن سلالة هؤلاء العرب ، الذى سكنوا المُهَاجر ، لم يجدوا فى هذه اللغة الغناء كله ، فأضافوا وابتدعوا وتصرفوا .

* * *

والدليل على أن هناك اختلافاً لابد منه تبعاً لاختلاف الحياتين ، نجده فى صلب اللغة ؛ فلو أنها كانت لغتنا الأصلية ما أمكن أن توجد فيها ألفاظ وتعبيرات بالذات ، منتزعة من صميم البيئة العربية الخالصة ، من هذا :

« أثلج الله صدره » وقد سبق الحديث عنها — و « سقيا لفلان » فباعثها الجدب الذى كان يهدد البلاد العربيــة فيجعل السقيا أمنية تتمنى ، ولا حاجة بنا نحن لهذه الأمنية والنيل يروينا ويغرقنا ! — و « ذهبت ريحهم » ، أو « هبت ريحهم » وهو مأخوذ من أثر الريح فى خيام العرب ورحلتهم فى الصحراء ، و « أخذ زمام الأمر فى يده » و « حدابى إلى كذا » وهو مأخوذ من قيادة الإبل ، و « لم يبق فى قوس الصبر منزع » و « أعطى القوس باريها » وهو مأخوذ من أدوات القتال الخاصة بشعب بدوى

فهذه التعبيرات وأمثالها ، وهذه المفردات الداخلة فى صلبها ، ما كانت لتوجد فى اللغة لولا نشأتها فى بيئة خاصة

ومن الإنصاف ألا تطلب لهذه اللغة أن تحتوى ألفاظاً وتعبيرات لم توجد فى هذه البيئة بالفعل ، وما هى بمستطيعة أن تحويها جميعاً فقد تزيد فى ناحية وتقصر فى ناحية إذا أخذها شعب آخر ، له بيئة أخرى ، وجعلها لغة له ، ولابد لهذا الشعب الجديد من التصرف فى هذه اللغة الأجنبية عنه ، حتى توافق مقتضيات حياته ؛ وحسبه أن يحافظ على صحة ألفاظها ، وصحة إعرابها ، وعلى ما يستطيع المحافظة عليه كذلك من طرق أدائها ، ودلالة ألفاظها وتعبيراتها ؛ ثم يتصرف فيما عدا ذلك بالوضع والاشتقاق ، وتحويل الدلالات ، وطرق الأداء . وهــذا ما أخذت تحققه المدرسة الحديثة اليوم ، فأثار المدرسة القديمة وأقلقها !

* * *

وأنا على يقين لا شبهة فيه ، أن هذه اللغة إنما حافظت على أوضاعها الأولى فى مصر ، لأنها كانت لغة شعب فاتح قوى ، فى عهد اضمحلال وخمول للشعب المحكوم ، حتى ضاقت خلجات نفسه ، وضمرت نوازعه ومطامعه ، فلم يجد به حاجة ملحة إلى التحوير فيها والتعديل ، ثم إلى الخلق فيها والابتكار

ودليلى على ما أقول : أن هذه النهضة المصرية الحديثة ، وعمرها لا يتجاوز نصف قرن ، قد استشعرت هذه الحاجة الملحة فى أولى خطواتها ، وسيزداد إلحاح هذا الشعور كلما اتسعت آفاقها النفسية والفكرية ، وقويت مميزاتها الذاتية

وأن العهود السابقة فى مصر ، على ضعف بيئة الشعب المصرى فيها ، وضيق آفاقه النفسية والعقلية ، وضمور إحساسه بشخصيته ، لم تستطع الصبر التام عن التحوير والتعديل .

وهؤلاء شعراء مصريون مواهبهم ضئيلة ، وآفاقهم ضيقة ، مثل البهاء زهير ، وابن نباته ، قد حصروا هذه اللغة فى شعرهم ، واختاروا طرقاً للأداء فيها لم تألفها فى بلادها الأصلية ، وإن كان ذلك كله فى نطاق ضيق محدود ، مطبوع بطابع التهافت والضعف

ولا يعدم قارئ شعراء هذه الفترة أن يجد من هذا كثيراً ، وهو كما ترى مصرى معرب

ولا خطر فى الحقيقة من هذا التلقيح ، لأن بنية اللغة تحتمله ، وصدرها ينفسح له ، وقد استطاعت أن تهضم كثيراً من اللغات الفارسية والعبرانية والسريانية ، بل الهندية والرومية ، طائعة فى ذلك أو كارهة ، لأن الركود مستحيل فى اللغة ، إذا كان الذى ينطق بها فى حالة تجدد ونشاط

* * *

وهناك حقيقة أخرى خاضعة للبحث النفسى العلمى ؛ فقد أسلفت أن هذه اللغة وضعت غالبية ألفاظها ، وحددت طرق استعمالها ، وصور أدائها ، إبان طفولة النفس العربية وبداوتها

فالآن أقول : إن النفس البدائية البسيطة ، الضيقة المجال ، المحدودة التجارب

التى لم تختزن فى عقلها الباطن ثروة من الأحاسيس والانفعالات ، تميل إلى التحديد والبيان الحاسم فى الخوالج النفسية ، والأحكام العقلية ، والتعبيرات اللغوية ؛ وذلك لقربها من « الإدراك الحسى » للجزئيات ، وبعدها عن الشعور الشامل بالكليات

وفى عالم الحس ، تتميز الأشكال ، وتتباين الأضداد ؛ فالمستدير غير المثلث والمستطيل ، والأسود ينافى الأبيض والأحمر ، وهكذا ...

وفى النفس المبتدئة لا يجتمع الإحساس وضده فى وقت واحد ، فالفرح لا يوجد مع الحزن ، والألم لا يجتمع مع اللذة ، والتواضع لا يلتقى مع الكبرياء ، والخير لا تحتويه النفس مع الشر ... وهكذا

هذا وذاك فى عالم الحس ، وفى عالم النفس البدائية . أما فى عالم المعانى ، وفى العالم العقلى الراقى ، وفى النفس المركبة المنفسحة الجوانب ، فتلتقى الأضداد الظاهرية ، وتجتمع المتناقضات الخارجية ؛ لأنه لا تضاد ولا تناقض فى هذا العالم الفسيح

وليس هذا كلاماً طائراً خياليًّا ، فالأمثلة الواقعة فى الحياة تبرهن على ذلك وتشرحه ، وإليك المثال :

(١) الرجل الذى يعوج سلوك زوجه ، أو إحدى قريباته ، فيبلغ به الحنق أن يقتلها دفاعاً عن عرضه . ماذا يكون شعوره بعد هذا ؟ ألا تلتقى فى نفسه لذة الانتقام والحفاظ على العرض بألم الجريمة ولوعة الفقدان ؟ فماذا علينا حين نعبر عن هذه الحالة بأنها « لذة أليمة » أو « ألم لذيذ » ؟

(٢) الشاب الذى يحب فتاة ، ويتغلغل هذا الحب فى نفسه ، ثم تصادفه فى ذلك آلام شديدة ، حتى ليكره هذا الشعور الذى يجشمه ما لا يطاق . ألا يجتمع فى نفسه الحب مع الكراهة لهذا الحب ؟ فماذا علينا حين نسمى هذا : « الحب المكروه » ؟

(٣) الفتاة التى يهجرها خطيبها إلى فتاة أخرى ، وهى تضمر له الحب ولكنها تغار ، ثم تلج بها الغيرة حتى لتود موته ولا يكون لسواها ؛ وإذا بها تسمع أن خطيبها الهاجر قد غرق فى النيل ، وقد كان فى نزهة نيلية مع غريمتها . ألا تجتمع

فى نفسها فرحة الشماتة وحزن الفجيعة ؟ فماذا علينا لو سمينا هذه الحالة النفسية « الفرح الحزين » ؟

فى هذه الأمثلة (وقد تعمدت البساطة فى اختيارها ، فتعقد الحالات النفسية وراء هذا بكثير) فى هذه الأمثلة تناقض لفظى نعم ! ولكن ليس هناك تناقض في الواقع ، بل هناك صدق فى التعبير يحتم هذا اللون منه ، كما أسلفت فى الحديث

وهذه الأمثلة ونظائرها ، هى التى تثور عليها المدرسة القديمة ، وتجعلها مادة لتندرها فى اجتماعاتها الخاصة ، أو نقداتها الساخرة

* * *

وإذا كنا نرى ونسلم برقى الحواس منذ بدء الخليقة حتى اليوم ، ونعلم أن العين التى كانت لا ترى إلا النور والظلمة ، ترقت إلى تمييز الأشباح ، ثم إلى تمييز أجزاء الجسم الواحد ؟ ثم انتهت إلى أن تدرك الأجزاء والكل فى لمحة واحدة

ونعلم أن الأذن التى كانت تدرك النغمة المفردة ، ولا تستطيع التمييز بين النغمات المختلفة أو المتقاربة ، قد ارتقت إلى أن صارت تطرب لنغمات « الاركستر » وهى تتباين علوًّا وانخفاضاً ، وتختلف نوعاً ولوناً ، ثم تأتلف منها فى الأذن نغمة واحدة شجية

إذا كنا نرى ونسلم باستطاعة الحاسة أن تجمع مرئيات ، أو أصواتاً مختلفة في آن ، فكيف لا نسلم باستطاعة النفس المركبة المعقدة ، أن تجمع الأحاسيس المتنوعة المتناقضة ظاهرياً فى آن ؟

ومتى سلمنا باجتماع هذه الأحاسيس ، فلم لا نسلم بالتعبير عنها فى صورة ترسمها رسماً صادقاً فى تناقضها واجتماعها ولو لم يرد مثلها فى التعبيرات العربية ؟

نعم ! كيف لا نسلم بهذا ، إلا إذا كان إخلاصنا للأشكال اللغوية ، أقوى من إخلاصنا للصدق ؛ وتعلقنا بالنصوص والأوراق ، أشد من تعلقنا بالحياة والاحساس؟

* * *

ولقد كان هناك نوع من العذر للقدامى لو أنكروا مثل هذا ، لأن الحالات

النفسية التى تقتضيها لم تكن موجودة ، أو وجدت ولكن لم يكن هناك ما يفسرها لهم ، لتأخر الدراسات النفسية لديهم .

ولكنا نحن اليوم قد وقفنا على كثير من البحوث « السيكلوجية » التى تكشف خبيئة النفس الانسانية — إلى حد ما — وجدت لدينا نظريات علمية ، كفيلة بتفسير هذه الحالات الوجدانية المعقدة

فنظريات « فرويد » عن « العقل الباطن » ومحاولات التحليل النفسى « لأدلر ويونج » وسواهما ونظرية « السلوكيين » معتمدة على تجارب « بافلوف » وغيره كل هذه الثروة يجب أن تعيننا على فهم النفسية الانسانية ومخبآتها ، فتفسر لنا تعبيراتها وأداءها

وفي اعتقادى أن الباحث اللغوى ، كالناقد الأدبى ، لا بد له من هذه البحوث حتى يستطيع تفسير التطورات اللغوية ، والاتجاهات الأدبية ، ويفسح صدره لها ولا يقسو فى الحكم عليها ، لأنه يفهم الدافع إليها

وربما يلوح هذا القول غريباً ، ولكن غرابته تزول ، متى سلمنا أن «التعبير» لا يكون إلا إذا سبقه « الانفعال » ، وأن الانفعالات يجب الاهتداء فى تفسيرها بالبحوث النفسية

فنظريات العقل الباطن ، والتحليل النفسى ، تقول لنا : إن هناك فى كل نفس انفعالات مكبوتة تحاول الظهور ، وإن كبتها ومحاولة ظهورها يسببان كثيراً من الحالات النفسية الكامنة ومن التصرفات الظاهرة ، لا تفهم إلا بهذا المفتاح ، وإنه قد يجتمع نتيجة لذلك ، فى وقت واحد ، فى النفس الواحدة ، عدة انفعالات متباينة تبدو لا علاقة للواحد منها بالآخر

فاذا وجدت تعبيرات عن مثل هذه الحالات ، فلا بد أن تجمع بين ما يلوح متناقضاً ، وهو موجود فى صميم النفس الانسانية

ونظريات السلوكيين تقول لنا : إن تصرفاتنا فى الحياة إنما هى انعكاسات شرطية وتستشهد بتجربة « بافلوف » مع الكلب الذى كان لعابه يسيل إذا دق جرس

خاص ، لأن هذا الجرس اقترنت دقاته قبل ذلك بمجىء الطعام ، وبتجاربه الأخرى وتجارب سواه

فاذا وجدت فى النفس الانسانية حالة شبيهة بهذه ، فلن نفهمها ، حتى نعرف الشرط الذى اقترن بالانفعال الأول ، وكذلك لن نفهم التعبير الذى قد تبعثه هذه الحالة إلا بهذه الدراسة النفسية

* * *

وسأعرض حالات مثالية ، لتوضيح ما تقدم :

هناك تعبيرات عن أحاسيس منشؤها « تتابع المعانى » وهي حالة نفسية معترف بها فى أبسط الدراسات النفسية ، ومن أسبابها الاقتران الزمانى أو المكانى ، مثل تعبير « المعانى الحمراء » . فكيف تكون المعانى حمراء ؟

التفسير أن هذه المعانى كان قد سبق وجودها فى النفس ، مقترنة بضوء أحمر ، أو لون أحمر على العموم ، فإذا تكرر خطورها فى الذهن ، خطر معها اللون الأحمر ، وإذا كان هذا الذهن مجسِّما (والتجسيم موجود في كثير من الطبائع) تخيل لهذه المعانى شخصية مقترنة بالضوء الأحمر ، فإذا هى حمراء !

وطبيعى أن الشاعر لم يفكر هذا التفكير ، ولكن هذه الخطوات تمت فى عقله الباطن ، وهو الذى يمد الفنان بالإحساس والتعبير

وبعض الناس يتخيل للأصوات ألواناً ، وعلته هذا هو الاقتران فى الذهن كما سبق التمثيل

كما أنه يجد تفسيراً علمياً آخر :

فالمعروف أن الذبذبات الصوتية ، والذبذبات الضوئية ، التى ينشأ عن تموجها سماعنا للصوت ، ورؤيتنا للضوء . هذه الذبذبات فيها أوجه شبه كثيرة فى شحناتها الكهرطيسية (الكهربة المغنطيسية) . ولها درجات متفاوتة ، وطبقات ذاهبة صعوداً وهبوطاً

وطبيعى أن كل درجة صوتية تحدث فى النفس انفعالاً غير الطبقة الأخرى ،

التى ترتفع أو تنخفض عنها . وكذلك درجات الضوء تحدث انفعالات نفسية على حسب ارتفاعها وانخفاضها

فإذا تشابه الانفعال النفسى الذى تحدثه طبقة اللون البنفسجى مثلاً فى نفس ما مع الانفعال الذى تحدثه طبقة خاصة من الصوت فى هذه النفس ، أخذ هذا الصوت ذلك اللون الذى شابهه فى إحداث الانفعال ، فأصبح « الصوت البنفسجى » !

ومسألة تشابه الانفعال الضوئى بالانفعال الصوتى محتملة ، لتشابه كثير من صفات الضوء والصوت كما أسلفت

وكذلك يمكن تفسير هذا وأمثاله « بتداخل الأحاسيس » وهو عيب ، أو خاصة ، ولكنه مزية فى الفنان ، تساعده فى الإحساس والتخيل

وينشأ عن تداخل الأحاسيس ، أن يحس الإنسان المسموع منظورا ؛ والمنظور مسموعا ، والملموس منظوراً أو مسموعاً ، أو هما معاً ، كما فى حالة المصابين بالعمى أو الصمم ، الذين يتخيلون صوراً وأصواتاً لما يلمسونه دون أن يروه أو يسمعوه

فلا غرابة إذن فى « الصوت البنفسجي » أو « الجسم الضاحك » أو « تسمع العين ضحكتها » أو « لفتات منغمة » ... الخ

* * *

وهناك تعبيرات عن حالات نفسية ، منشؤها التخيل ثم « المشاركة الوجدانية » وهى حالة نفسية معترف بها كذلك

ومثال هذا أن يخلع الإنسان على الجماد حياة فيخاطبه ويأنس به ، وعلى الحيوان إدراكا ، فيتفاهم وإياه . ومعظم الاستعارات قائم على هذا الأساس

فإذا رأينا شاعراً يذكر « المصباح الساهد » أو « العيون الظامئة » أو « أحلام النخيل » أو « فكرة جسم » أو « اليد المفكرة »

فهذه الحالة النفسية التى ذكرتها كفيلة بتفسير الدافع لاختيار هذه التعبيرات وبيان صدقها فى التصوير

* * *

وهناك تعبيرات منشؤها « طبيعة التجسم » وهى حالة نفسية متعارفة . ومثال

ذلك أن تتخيل للمعانى المجردة ، ذواتاً محسوسة ، تحس وترى ، والمصورون الفنانون يمتازون بهذه الطبيعة ، فيتخيلون العدالة — كما رسموها — امرأة تمسك بيدها ميزاناً وهى معصوبة العينين . والمعرفة امرأة تمسك بيدها مشعلاً ، ونهر النيل رجلاً ضخم الجسم قوى العضلات ترقد على أفخاذه وصدره أطفال ترمز إلى روافده ... وهكذا

فإذا رأينا شاعراً يذكر : « الرجاء الدامى » أو « الأمل البسام » أو الألحان الجريحة » أو « الآمال الهاتفة الراقصة » أو « الصمت الذاهل الشريد » الخ فهذه الطبيعة تفسر هذه التعبيرات ، وتشرح مافيها من الصدق والجمال .

* * *

وبعد — مرة أخرى — فقد تقيدت فى بحثى بعنوان المقال ، فتحدثت فقط عن « الألفاظ والتعبيرات » . ولكن هذه ليست كل شىء بين المدرستين القديمة والحديثة ؛ وإن وراءها لمجالاً أوسع للخلاف ، وأحق بالعناية والالتفات ؛ ذلك مجال اختلاف الإحساس بالحياة بين هاتين المدرستين ، واختلاف فكرتهما عن الحياة ، كما قدمت

فالمدرسة القديمة ضيقة الإحساس ، بدائية الشعور ، قليلة الذخيرة النفسية والتجارب الوجدانية ، بمقدار انفساح الاحساس فى المدرسة الحديثة ، ووفرة الذخيرة النفسية لديها ، والتجارب الوجدانية

ولهذا تضيق الأولى بالأخيرة ، لأنها تطالعها بألوان من الإحساس لاعهد لها بها ، بعد ما ألفت ألا تتسع إلا للون واحد من ألوان العواطف والخوالج ، تعرف له صورة واحدة ذات معالم وحدود ، فتحسب أن كل ما فى هذه الأحاسيس الجديدة ، إنما هو اختلاف فى التعبير ، والواقع أنه اختلاف فى الحالات النفسية ، التى استدعت هذا التعبير .

والآن وقد طال الحديث ، وتشعب البحث ، لا أجدنى مستطيعاً أن آتى بالأمثلة التى تصور هذه الحالة ؛ فلأدع ذلك إلى فرصة أخرى وحسبى اليوم ما قررته بشأن « الألفاظ والتعبيرات »

سيد قطب

الثقـــافة

معناها ـــ حدودها ـــ عواملها

للأستاذ عبد الحميد حسن

المفتش بوزارة المعارف

نتحدث عن الثقافة ، وعن الرجل المثقف ، والسيدة المثقفة ، وننشد في مدارسنا قسطاً قليلاً أو كثيراً من الثقافة ، ونرى ذلك لا بد منه لحياة المتعلمين ، ونهتم فى نظامنا التعليمى بمرحلة الثقافة العامة ، إلى غير ذلك مما ينبئ أن الثقافة من دعائم الحياة الناهضة ، وأن قسطاً منها لا بد منه لوحدة التفاهم بين الجماعات والشعوب ، فما معنى هذا ؟ وما الثقافة ؟ وما حدودها ؟ وما عواملها ؟ ولماذا ننشدها ؟

ولعل أول ما نتجه إليه هو أن نعرف ما يقصد بالرجل المثقف ، وأن نتعرف أمثلة له فى الخارج : أهو الطبيب الماهر ، أم المهندس البارع ، أم الأديب الملم بفنون القول ، أم القاضى المحيط بدقائق القانون ، أم الاقتصادى الذى له بالنظم المالية خبرة شاملة ، أم السياسى الذى لا تتعاصى على مواهبه معضلة ؟

أم ماذا عسى أن يكون من أصناف المتعلمين ؟ أهو الذى درس الآداب وفروعها واللغة وقواعدها ؟ أم الذى أحاط بالعلوم الطبيعية والرياضية ؟ أم الذى تزود بقسط وافر من التاريخ وأسباب التبدل الدولى وتحول مراكز المدنية من بقعة من بقاع الأرض إلى غيرها ؟

وهل يرجع الجانب الثقافى فى هؤلاء أو أحدهم إلى مهارتهم ومقدرتهم العقلية وبراعتهم الفكرية ؟ أم هو راجع إلى ما حصلوا من معارف أو ما وهب لهم من ذكاء ؟ أم إلى ما اكتسبوا من لباقة وخبرة ؟

قد يكون هؤلاء جميعاً مثقفين على اختلاف فيما تخصصوا فيه من علوم أوفنون ؛ وقد يكون بعضهم بعيداً عن الثقافة ضئيل الإلمام بما يقربه منها على غزارة ما جمع من حقائق فى المادة التى اختص بها ، فالثقافة إذن ليست هذا الجانب العلمى

أو الفنى الذى فاضوا في الاستزادة منه وتعمقوا فى دراسته ؛ وإن ما تتطلبه الثقافة من معارف لاينتمى إلى علم واحد خاص ولا إلى مجموعة من العلوم أو الفنون بعينها ؛ ولكن لاجدال فى أن الثقافة تتضمن جانباً علمياً يحصله الإنسان بالدراسة والمزاولة ، بل إن هذا القدر العلمى وذلك الجانب التحصيلى هو محور الثقافة وعامل ذو شأن فى أهم مظاهرها ومقوماتها .

فماذا عسى أن يكون هذا الجانب ؟ وما حدوده ؟ وإلى أى علم ينتمى ؟

وقبل البحث فى هذا ننظر فيما عسى أن يكون هناك من صفات أخرى تتم بها الثقافة إلى جانب التحصيل العلمى

إن الإلمام العلمى وإن كان هو أهم مقومات الثقافة ليس وحده الذى يحقق الثقافة . فالمثقف ليس هو الذى يملأ جعبته بالحقائق ويكدسها فى عقله أو يجرى لسانه بها مجملة أو مفصلة دون اعتداد بصفات أخرى ينبغى أن تتوافر حتى تتم الثقافة فى درجة من درجاتها . ولابد إلى جانب المعرفة من عوامل أخرى أهمها المواهب المصقولة والعقل المرهف والمهارة . ولكن ليس المقصود بها مهارة يدوية أو صناعية ، بل المراد هو المهارة فى صوغ المعلومات وترتيبها والتفكير فيها تفكيراً منظما منسجما ، وحسن التعبير عنها واللباقة فى أدائها

فعناصر الثقافة إذن هى :

(ا) كسب المعارف (ب) كسب المهارة (ج) لباقة اجتماعية وانسجام فى الصوغ وحسن الأداء

ولنذكر بعض الآراء فى الثقافة نوضح بها بعض وجهات النظر ونتبين من خلالها ما يزيد البحث تحديداً :

(١) هى نوع من الصقل العقلى والفني

(٢) هى الإلمام بخير ما عرف وقيل

(٣) هى القدرة على التفكير المنظم وعلى الكلام والكتابة مع ميل إلى الفن الجميل والآثار الأدبية والاعجاب بها ، واحترام التقاليد والمثل العليا

(٤) هى النظر فى الحقائق والقدرة على الانتفاع بها وشحذ المواهب العقلية

(٥) هى مقدرة اجتماعية وقوة يتعاون فى إيجادها عوامل ثلاثة : الحقائق التى نلم بها ، والبراعة التى نكسبها ، والقوة العقلية التى ننميها

(٦) هى صقل الأفكار والآراء والنظريات الانسانية مع فهم القوانين الاجتماعية

(٧) ليست هى الالمام بالآثار العلمية فحسب أو التهام الحقائق التهاماً جافاً بعيداً عن الحياة الاجتماعية التى تصهرها وتصقلها وتصوغها صوغاً يخرجها أمام الناس

(٨) هى أن يفهم الانسان المجتمع ويلم بما يؤثر في أفراده وعقلياتهم واتجاههم الحيوى .

* * *

من كل هـذا يظهر أن هناك عاملاً أساسياً فى الثقافة وهو التحصيل لغاية خاصة تتصل بالمجتمع وبخير ما أنتج العقل الإنسانى . فإن الثقافة ليست صفة فردية منعزلة عن المجتمع وما فيه وهى إنما تنمو فى بيئة اجتماعية . أى أنه لابد أن تكون هذه الحقائق مما يدور فى المجامع ومما له صلة بالحياة فى مظاهرها العامة . ولا بد أيضاً من صقل هذه المعلومات وإنضاجها حتى لا تكون جافة نابية . وعلى قدر تخير هذه الحقائق تخيراً يقرب من حاجات المجتمع يكون أثرها وقيمتها فى الثقافة

قلنا إن العامل الأساسى فى الثقافة هو التحصيل والمعرفة ، وهذا يصل بنا إلى نقطة أخرى ، وهى الفرق بين الثقافة والذكاء ، وهل الذكاء من العوامل المهمة فى الثقافة

ويبدو من العوامل التى استعرضناها وقلنا إنها من مقومات الثقافة أن الذكاء ليس من العوامل الأساسية فى الثقافة ، على أنه لا يتعارض معها . فالذكاء له حدود وله مقاييس ابتكرها العلماء . أما الثقافة فمقياسها الأساسى هو التحصيل والقدرة على حسن عرض المعلومات فى مهارة ولباقة وانسجام . وقد يكون فى ثنايا ذلك شىء من الذكاء ، ولكنه ليس شرطاً أساسياً فى الثقافة ، كما أن الثقافة ليست شرطاً أساسياً فى الذكاء ؛ فقد يكون الذكى طفلاً لم تصل معارفه إلى حد الثقافة التامة الشاملة ؛ وقد يكون المثقف متوسط الذكاء ، فالثقافة إنما تتطلب المواهب المتعادلة لا الذكاء المفرط

* * *

ولننتقل بعد هذه الالمامة العامة إلى البحث فى ذلك العامل الأساسى وهو التحصيل ، لنتعرف حدوده العامة والخاصة ، ولنصل إلى تحديد الشعب العلمية التى يتضمنها وإلى ما يجب تحصيله من كل منها ، أى أن نتعرف المحيط الثقافى وعمقه

هل الثقافة هى الإلمام بكل شىء ، أو التوفر على بعض العلوم وإتقانها ؟

ليس هذا ولا ذاك هو ما تتطلبه الثقافة ، فالإلمام بكل شىء يصل إلى أن تكون المعلومات سطحية ، ومتعمق فى علوم محدودة أو في علم واحد دون الإلمام بشىء آخر مما له فى الحياة شأن ، قصور ... فالثقافة ليست بحراً لا ساحل له أو غوراً لاقرار له

وإذا كان كلا طرفى التحصيل : الإلمام بكل شىء ، والتوفر على علم واحد ، ليس مما يحقق الثقافة ، فماذا عسى أن نسلك بالمتعلم من السبل فى التحصيل ليكون مثقفاً ؟

يجدر بنا فى هذه الصدد أن نحل المعضلة بطريقة نوفق بها بين الالمام الشامل أو الاحاطة العامة وبين التعمق النافع مع الابتعاد عن التحصيل السطحى الأجوف غير الجدى ، فمعرفة كل شىء لا تصل بنا إلى شىء ، والتوفر على شىء واحد يعزلنا عن كل شىء

وهل معنى هـذا أن نقول إن معرفة القليل من موضوع ما هى الثقافة ، والتعمق فيه هو التخصص ؟

إن الحل على هذا الأساس إنما هو حل على أساس الكم ، وهذا لا يصل بنا إلى المطلوب . ولا ينبغي أن تكون الكثرة أو القلة فى مقدار مايحصله من المعلومات هى الأساس فى الثقافة .

لعلنا إذا رجعنا إلى بعض ما سردناه فى حقيقة الثقافة استطعنا أن نصل إلى الحل المنشود : فقد تبين من خلال ما أشرنا إليه أن الثقافة ليست صفة فردية ، بل هى صفة اجتماعية تتصل بالمجتمع وشئونه ، والمعلومات التى ترتكز عليها الثقافة هى ما كانت ذات صلة بالمجتمع ، وهى التى تصقل فى البيئة الاجتماعية . فالمجتمع عامل قوى فى تحديد ما ينبغى أن يلم به الوطنى المثقف من المعارف لكي يعيش عيشة صالحة ويشارك الأفراد فى الرأى ويبادلهم وجوه التفكير . وإن الاتجاه إلى المجتمع

يحدد لنا الطريق . على أنه يجدر بنا أن نعلم أن كل مجتمع تغمره صفات ونزعات وتسيطر عليه وتوجهه توجيهاً خاصاً حيناً من الدهر . وقد تعصف الأحداث ويدور الزمن دورته فتتبدل هذه النزعات وتتغير تبعاً لذلك وجهات النظر فى الثقافة وفى المحيط العلمى الذى تنتزع منه مواد الثقافة :

فى أوربا بعد عصر النهضة كانت الآداب القديمة اليونانية واللاتينية هى منبع الثقافة والمعرفة ولم يكن للعلوم شأن يذكر .

ثم نالت العلوم نصيبها من العناية والبحث وأصبحت ذات شأن فى البيئات التعليمية وأصبح الالمام بالكون ومظاهره الطبيعة مما يرتبط به خير المجتمع وصارت العلوم عنصراً من عناصر الثقافة

ثم اتسع النطاق بتقدم الزمن وتدرج المدنية فى نهوضها ، وسارت الثقافة تابعة لذلك تستمد حدودها من هذا المحيط الاجتماعى المتجدد طبقاً لسنه الرقى ، وترتكز فى تخير عناصرها على محور ثابت وهو الصلة بخير المجتمع ، فما له ارتباط بهذا يدخل فى ميدان علوم الثقافة

ومن هذا يتبين أن القاعدة التى نستطيع أن نسترشد بها فى تخير مواد الثقافة هى حاجة المجتمع فى معاملات الأفراد والالمام بما لابد منه للحياة بين المجتمع ، مع استخدام ذلك استخداماً عاماً والانتفاع به فى شؤون الحياة

ويتجه كل شعب فى التحصيل الثقافى إلى الذخائر التى أنتجها المجتمع وتركها السابقون وتوفر على العناية بها الجيل الحاضر ، فهذه الذخائر تراث لاغنى عنه وحلقة اتصال بين الأفراد فى تعاونهم العقلى وتفاهمهم

وإن اختلاف الشعوب فى حياتها ونزعاتها وماضيها وتراثها العلمى ليوحى بشىء من التباين في المحيط الثقافي لكل منها . غير أن ما هنالك من قدر مشترك فى الشعوب من صفات إنسانية ونزعات عقلية وميول عامة ومقاصد حيوية ، يجعلنا لا نجحم عن تحديد المواد الدراسية اللازمة لكل شعب ، وإن كان هذا التحديد لا يمنع من بعض التغيير الطفيف مما تقتضيه الأحوال

والمواد التى تدرس للثقافة ينبغى أن تمكن الفرد من معرفة الأصول العامة للحياة فى المجتمع ومعاملة أفراده . وهذا يشمل المواد الآتية :

اللغة — الفنون الجميلة — التاريخ والتربية الوطنية — الرياضة — العلوم الطبيعية — علم الحياة — الاقتصاد — طبقات الأرض — شيء من الفلسفة

هذا فيما يتعلق بالمحيط الثقافى وما يتضمن من مواد علمية . فلننظر بعد ذلك هذا العمل الثقافى فى كل علم من هذه العلوم

وإن القاعدة التى نسترشد بها فى ذلك هى بعينها التى روعيت فى تحديد المحيط الثقافى ، وهى أن يلم الفرد بما لابد منه للحياة فى المجتمع من معارف لكي ينتفع بها فى الشئون العامة وليتخذ منها عوناً على الحياة الصالحة ووسيلة لتبادل الرأى مع أنداده من أفراد المجتمع حتى تقترب وجهات النظر ويسهل التفاهم والتعاون على الخير

ولسنا بصدد التفصيل الشامل لما يختار من العناصر فى المواد المختلفة ، ولكننا نضرب بعض أمثلة تبين الاتجاه فى الاختيار .

ففى دراسة موضوع فى الطبيعة كالآلات البخارية لا نتجه إلى دراسة التركيب التفصيلى العلمي لها بل نتعرض للمحركات وأثرها فى العمران وللآلات التى تسير بالبخار أو بالزيوت أو بالكهرباء وعلاقة ذلك بالصناعة وبالحياة فى المدن والريف وأثره فى رخاء الانسان وصحته وخيره العام .

وفى موضوع كالمجالس المحلية لا نرمى إلى التفصيل السياسى بل نتجه إلى البحث فى الطرق التى تسير عليها هذه الهيئات فى العمل وفى أثر ذلك فى نظام المجتمع ومصالحه

وفى دراسة اللغة للثقافة العامة لا نرمى إلى أن يتعلمها الفرد لكى يعلمها غيره بل ليتمكن بدراستها من النهوض الفكرى والانسانى وليفهم من ذخائر المجتمع ما يصله به وبأفراده حتى تكون وحدة التفاهم شاملة مشتركة

وتدرس الفنون الجميلة لا لتجعل الفرد فناناً بل لتنمى فى نفسه حب الجمال والاعجاب بمظاهر الكون وبما نسقه ذوو الذوق السليم

وهكذا نجد أن الإعداد الثقافى إنما يرمى إلى ما يجعل الحياة نافعة للجميع وسنعالج الموضوع من بعض النواحى المتصلة به فى كلمة أخرى

عبد الحميد حسن

أسلوب المتنبى

للأستاذ عبد الوهاب حمودة
المدرس بكلية الآداب

الأسلوب هو القالب الذى يُفرغ فيه الشاعر شعره ، والمنوالُ الذى ينسج عليه الكاتب كتابته ، والطابع الذى يطبع به الخطيب خطبته أو القاصُّ قصته وهو صورة من النفس ، ولون للذهن ، ومرآة للخُلُق ، بل هو كما قال بوفون : (Buffon) الأسلوب هو الرجل نفسه (Le style est l'homme même) وقال القاضى الجرجانى فى كتابه الوساطة :

وقد كان القوم يختلفون وتتباين أحوالهم فيرق شعر أحدهم ويصلب شعر الآخر ، ويسهل لفظ أحدهم ويتوعّر منطق غيره ، وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق ؛ فإن سلاسة اللفظ تتبع سلاسة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة ، فترى الجافىَ الجلف ، كزَّ الألفاظ ، معقّد الكلام ، وعْر الخطاب ، حتى إنك لتجد صورته فى ألفاظه ، وسحنته فى لهجته ؛ قال كسرى لحاجب بن زرارة : « يا حاجب ، ما أشبه حجر التلال بألوان صخورها ! » قال حاجب : « بل زئيرَ الأسد بصولتها »

فالشاعر إذن يطبع الكلام بطابعه ويلونه بشخصيته ويصبغه بأصباغ نفسه ، فأسلوب المتنبى هو المتنبى نفسه . فقد كان ألواناً وأنماطاً . تبعاً لحالات طبعه وأنماط حياته . وتنوع مزاجه

كان أبو الطيب كما وصفه الواصفون : رجلاً ملءَ العين . قوياً بديناً ، جسيماً خليقاً ، عادىّ الخلق ، قوىَّ الأساطين ، وثيق الأركان ، جيد الفصوص ، فيه غرابة فى زيه . هذه هى أوصافه الجسمية

أما طباعه وأخلاقه فقد كان أبو الطيب بعيد الآمال ، كبير المطامع ، كثير الزهو بنفسه ، دائم الاعجاب بمواهبه ، وهو كما قال الحاتمى : قد التحف برداء الكبر

والعظمة ، يخيل إليه أن العلم مقصور عليه ، وإن الشعر لا يغترف من عذبه سواه ، ولا يرى أحداً إلا وهو يرى لنفسه مزية عليه . وكان قليل الميل إلى الهزل والنزوع إلى اللهو والطرب ، إذ قلما يجتمع اللهو والألم فى النفس الكبيرة الطموح :

وغير فؤادى للغوانى رميّة ... وغير بنانى للزجاج ركاب
تركنا لأطراف القنا كل شهوة ... فليس لنا إلا بهن لِعاب

* * *

أفيقا ، خُمار الهم بغّضنى الخمرا ... وسكرى من الأيام حبّبنى السكرا
تَسر خليلىَّ المدامةُ ، والذى ... بقلبىَ يأبى أن أُسر كما سُرَّا

وكان قد طمع فى الملك وجن به جنوناً ، وكان صريحاً لا يعرف المداراة ولا المداجاة ، حاد المزاج ، مرهف الحس ، سريع التأثر ؛ إذا غضب اهتزت أعصابه وثارت نفسه ، فأصبح كأنه زوبعة ثائرة ، أو بركان فائر ، أو نار مندلعة

وكان شجاعاً مقداماً ، عاش متبرماً بالحياة ساخطاً عليها ، حاقداً للوك عصره لأن الأيام لم تنله أمنيته . فالحياة فى نظره حرب ضروس ، علاقة الانسان فيها بالانسان علاقة المقاتل بالمقاتل ؛ والقوة فى نظره هى أصل الأخلاق والفضائل ، والسيادة هى غاية الحياة :

كل حلم أتى بغير اقتدار ... حجة لاجئ إليها اللئام

* * *

فلا تحسبنَّ المجد زِقّاً وقينة ... فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وأن ترى ... لك الهبوات السود والعسكر المجْر
وتركك فى الدنيا دوياً كأنما ... تداول سمع المرء أنمُلُه العشرُ

هكذا كانت أخلاق المتنبى : نزوع إلى الكفاح والنضال ، وبعد عن الضحك ، وطبع صريح لا يتحرك إلا لمناظر الفخامة والروعة ، ولا يسحر إلا بأبهة العظمة وشارات الصولة . وأكبر الظن أنه لم يعشق فى حياته حتى يذلله العشق ويخضد

من شوكته ، ويلين من شكيمته ، ويهذب من غروره ، ويسلس من قياده ؛ فبين أخلاق المتنبي وبين المرأة مجافاة ؛ وهو قد صرّح بذلك فى شعره حيث يقول :

وترى المروّةَ والفتوة والأبو ة فىَّ كلٌّ مليحة ضرّاتِها
هن الثلاث المانعاتي لذتى فى خلوتى ، لا الخوف من تبعاتها

فهذه الأخلاق وتلك الطباع ترى ماثلة فى أسلوب أبى الطيب شاخصة فى شعره . وإليها مرد جلِ محاسنه ، وعنها يصدر أكثر مساوئه

فأخلاق المتنبي أحد عوامل ثلاثة أثرت فى أسلوبه . والعامل الثانى هو البادية ؛ فالمتنبي ابن البيد والفيافى . من أفق البادية نبت أسلوبه ، وفى جو البادية نما خياله ، فهى أول مدرسة تلقى فيها تعاليمه ، وأول بيئة سطرت آثارها فى ذهنه ؛ عرضت عليه الحضارة طراوتها ونعومتها فلم تنزع به عن بدويته ولم تنسه حب باديته . والعامل الثالث دراساته

فقد عُرف المتنبي بأنه لازم أهل العلم والأدب ، وأكثر من غشيان دكاكين الوراقين ؛ فكان علمه من دفاترهم ؛ وقد رُزق حافظة قوية — وهى عماد الأديب —

قال أبو الفتح عثمان بن جنى : كان المتنبي يحفظ ديوان أبى تمام والبحترى ويستصحبهما فى أسفاره ويمجدهما ، فلما قُتل توزعت دفاتره ، فوقع ديوان البحترى إلى بعض من درس علىَّ وقد رأيت خط المتنبي وتصحيحه فيه .

فهو من حُفاظ اللغة ورواة الشعر ؛ ليس هذا فقط ، بل قد نظر فى كتب الفلاسفة والمناطقة ، لا سيما أنه فى جنب سيف الدولة ؛ حيث اتفق له هناك كلُّ ما يعين على النبوغ ونضوج القريحة .

نجد كل ذلك مسجلاً مسطراً فى أسلوب شعره ، ونسيج بيانه . فأسلوب المتنبي فى جملته وتفصيله هو أسلوب القوة والعظمة ، والرجولة والفتوة ، لا أسلوب الضعف واللين ، والتوشية والرقة .

فألفاظه دَويٌّ ومَضاء ، كأنها أشخاص حية تتحدث إليك وتنطق وعليها مهابة ووقار ؛ أو كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم للطراد .

وتراكيبه كأنها حصون من فولاذ أو قلاع من صوّان ، تقرأ شعره فتُحس

جلجلة الطبول وقصف الرعود ودوىّ المدافع وجرجرة السيول ، تملأ سمعك ألفاظه ، وتفيض بشدقيك كلماته ، وتلمح من خلال ذلك شخصية المتنبي قوية للكفاح والنضال لا للاستخذاء والتمسح بالأقدام .

وهذا أثر من أخلاقه ولون من طباعه وظل من بداوته .

وأصدق ما يشاهد ذلك فى وصفه للمعارك ؛ وفخره بنفسه ومدحه لمن أحبهم وأخلص إليهم كسيف الدولة ، وفى أهاجيه الناريه كهجائه لكافور ؛ حتى فى غزله ، فهو — على أنه غزل فني صناعى — مملوء بالرجولة والعزم المسدد والنفس الأبية العنيفة .

وحتى فى المعانى التى يقلد فيها غيره يأخذها ويكسوها من بروده الخشنة وثيابه الصلبة .

قال أبو الشيص الشاعر :

لقد جرى الحب منى مجرى دمى فى عروقى

فقال المتنبي فى نفس طويل وباع واسع وألفاظ ممدودة :

جرى حبها مجرى دمى من مفاصلى فأصبح لى عن كل شغل بها شغل

وقال البحترى فى وصف القلم :

تعنو له وزراء الملكِ خاضعةً وعادةُ السيف أن يستخدم القلما

أخذ المتنبي الشطر الثانى فقال بعد أن نسجه على منواله ، وسكب فيه روحه الصاخبة :

حتى رجعتُ وأقلامى قوائلُ لي المجد للسيف ليس المجد للقلم
اكتب بنا أبداً بعد الكتاب به فانما نحن للأسياف كالخدم

وقال دعبل فى أسلوبٍ لينٍ رقيقٍ غزلى :

لاتأخذا بظلامتى أحداً قلبي وطرفى فى دمى اشتركا

وقال المتنبي :

وأنا الذى اجتلب المنيةَ طرفُه فمَنِ المطالَبُ والقتيلُ القاتلُ

وقال أبو نواس فى تواضع وهوادة :

سنة العشاق واحدة فاذا أحببت فاستكنِ

فقال أبو الطيب وملأ به الأفواه وهز الأسماع :

تذلل لها واخضع على القرب والنوى فما عاشق من لايذل ويخضع

وقال أبو نواس :

وكلتَ بالدهر عيناً غيرَ غافلة بجود كفيك تأسو كل ماجرحا

أخذه أبو الطيب فقال :

تتبعَ آثار الرزايا بجوده تَتَبُّعَ آثارِ الأسنة بالقتل

وقال أبو تمام :

عَزَّبته العلا على كثرة الأهـــل فأضحى فى الأقربين جنيباً

وقال أبو الطيب :

وهكذا كنت فى أهلى وفي وطني إن النفيس غريب حيثما كانا

وقال ابن المعتز :

وما يُنتقصْ من شباب الرجال يُزَد فى نهاها وألبابها

وقال أبو الطيب :

ليت الحوادث باعتنى الذى أخذت منى ، بحلمى الذي أعطت وتجريبى

فما الحداثة من حلم بمانعة قد يوجد الحلم فى الشبان والشيب

وقال أبو تمام :

قريب الندى نائى المحل كأنه هلالٌ قريب النور ناء منازله

وقال أبو الطيب :

كالشمس فى كبد السماء وضوءها يعشى البلاد مشارقاً ومغاربا

وقال البحترى :

وإذا ما تنكرتْ لى بلاد أو صديق فاننى بالخيار

قال أبو الطيب وخلع عليه من مزاجه وقوة روحه لباساً متيناً :

إذا صديق نَكِرْت جانبه لم تعينى فى فراقه الحيـــل

فى سعةِ الخافقين مضطرب وفى بلاد من أختها بدل

وقال البحترى :

لو أن مشتاقاً تكلف فوق ما فى وسعه لسعى إليك المنبر

وأبو تمام :

لو سعت بقعة لإعظام أخرى لسعى نحوها المكان الجديب

فيقول أبو الطيب :

تحاسدت البلدان حتى لو انها نفوس لسار الشرق والغرب نحوكا

أما فى نسيبه وغزله فيقول :

أحيا وأيسر ما قاسيت ماقتلا والحب جار على قلبى وما عدلا

والوجد يقوى كما تقوى النوى أبداً والصبر ينحل فى جسمى كما نحلا

لولا مفارقة الأحباب ماوجدت لها المنايا إلى أرواحنا سبلا

بما بجفنيكِ من سحر صلى دنفاً يهوى الحياة وأمّا إن صددت فلا

والمتنبى فى غزله خضع للمؤثرات الثلاثة : الأخلاق والبادية والدراسات فأخلاقه صيرت غزله قوياً خشناً بعيداً عن الميوعة واللين والضعف والتأنث أما أثر البادية فى غزله . فانه درج فيه على مذهب شعراء البادية فهو القائل :

إذا كان مدح فالنسيب المقدم أكل فصيح قال شعراً متيم

فلست ترى فى أضعاف نسيبه آثار نفس ذلها الهوى وأسقمها الحب ، فلا كبد حرى ولا قلب مقروح وإذا تغزل كان مثله الأعلى الفنى هُنّ الأعرابيات البدويات :

من الجآذر فى زى الأعاريب حمرَ الحلى والمطايا والجلابيب

إن كنت تسأل شكا فى معارفها فمن بلاك بتسهيد وتعذيب

أزورهم وسواد الليل يشفع لى وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

وأما أثر الدراسات فى هذا الغزل فيكفى أن نعرف أنه غزل صناعى لا حقيقى فهو فى جملته صور قد صورها قبله كثير من الشعراء فاختار أبو الطيب منها ما يلائم حياته : حياة رجل قائد حربى منكود الحظ سيئ الطالع تعلوه الكآبة ويتملكه الحرمان

وهنا من الحق علينا لأبى الطيب أن ننصفه فنقول : إنه وإن كان فى غزله مقلِّداً لكثير من الشعراء ، مردِّداً ما اعتادوه من صورهم : كتشبيه القوام بالغصن ، والوجه بالشمس أو القمر ، والشَّعر بظلام الليل — إنه مع ذلك له صور مخترعة فاتنة ، تدل على عبقرية وصفاء قريحة ، وذوق فنى بالغ ، من ذلك قوله :

حشاشة نفس ودعت يوم ودعوا فلم أدر أىَّ الظاعِنَين أشيع
أشاروا بتسليم فجُدنا بأنفس تسيل من الآماق والسمُ أدمعُ

* * *

أتراها لكثرة العشاق تحسب الدمع خلقة في المآقي

* * *

أعيدوا صباحى فهو عند الكواعب وردوا رقادي فهو لحظ الحبائب

* * *

عزيز أسا من داؤه الحدق النُّجْل عياءٌ به مات المحبون من قبل
فمن شاء فلينظر إلىّ فمنظرى نذير إلى من ظن أن الهوى سهل
وما هى إلا لحظة بعد لحظة إذا نزلت فى قلبه رحل العقل

على أن هذه المقدمة من النسيب التى صحبت المتنبي في كثير من قصائد المديح ، قد يتركها أحياناً ويستبدل بها مقدمة فلسفية من الشعر الغنائى يبث فيها أحلامه وتجاريبه وشكواه . يشاهد هذا الأسلوب كثيراً فى مدائحه لبدر بن عمار ، ولسيف الدولة ، ولكافور ؛ والآن لقد حان أن ننقل القول على أسلوبه فى المدح ، وهو الباب الذى استغرق جل ديوانه . فأسلوب المتنبي فى المديح لم يكن أسلوباً واحداً ، بل هو عدة أساليب ، تبعاً لاختلاف المقامات وتنوع الحالات والأزمات النفسية التى كان يقع فيها

فتارة نجد أسلوبه فى المدح لا تبدو عليه دلائل التعظيم ولا أمارات الصدق ، بل هو مدح للضرورة الملحة والحاجة القاسية ، فيشيع فى هذا النوع المبالغة الممقوتة ، والتشبيه الممتهن ، والخيال المتكلف ، والفن المبتذل ، والمقدمات الغزلية ،

والتراكيب السقيمة المنتقدة : كما فى مدحه لجل من لقيهم فى أول أطوار حياته من أهل أنطاكية وحلب واللاذقية ومنبج ، من صغار الأمراء الأعاجم وضعاف الولاة والقضاة . وفى هذا النوع من الأسلوب يذكر نفسه ويفتخر بعظمته وربما كان نصيبه هو من المديح أكبر من نصيب الممدوح

وأحياناً نجده يقلع عن التقليد ويخلص للممدوح حيث وجد فيه مثله الأعلى الذى يتعشقه ، والرجلَ القويّ الذى يتصوّره . وبعد أن كان فى أسلوبه الأول ومنهجه السابق يُنذر ويتوعد ويتكلف ويتصنع ، إذا به يقلل من التكلف ويكف عن التعقيد ؛ فيصبح الأسلوب مشرقاً ، والبيان مستقيماً متيناً ، يترك فيه المقدمات الغزلية وينسى الفخر بنفسه ، إلا إذا أحس دس الدساسين وسعاية الواشين . ومن هذا النوع مدحه لسيف الدولة ، فإنه قد بلغ فيه الذروة وسما فيه إلى القمة

وتارة نجده يتعمد أن يكون أسلوبه فى المديح مؤلماً ، فيصور آلامه ومصائبه ويصف دهره وأهله ، ويكشف عن نفسه وآمالها ، ويأتى بالأخيلة الخبيثة ، والمبالغات التهكمية ، والتصورات الخداعة ؛ فهو مديح أشبه منه بالهجاء ؛ وذلك كما فى مدح كافور . غير أن هذا الأسلوب سهل كله ، خلو من الركاكة والسقم وضعف النظم ، ويمتاز هذا النوع بخصوبة الحِكَمَ وضرب الأمثال . ولنكتف للتمثيل لذلك بما يأتى من قصيدة في مدح كافور :

إنما يفخر الكريم أبو المسـ ـكِ بما يبتنى من العلياء
تفضحُ الشمسَ كلما ذرّت الشـ ـمسُ بشمس منيرة سوداء
إن فى ثوبك الذى المجدُ فيه لضياءً يُزرى بكل ضياء
إنما الجلد ملبس ، وابيضاض النـ ـفس خير من ابيضاض القباء
مَن لبيض الملوك أن تُبدل اللو نَ بلون الأستاذ والسَّحناء
يا رجاءَ العيون في كل أرض لم يكن غيرَ أن أراك رجائى

وهذه أبيات من أخبث المديح وآلم الهجاء ، لأن ذا اللونِ الأسود ليس أمرّ عليه من أن تذكرَ له الألوان ، ولا سيما الأبيض منها . وبضدها تتميز الأشياء .

هذا هو أسلوب المتنبى فى المديح . على أن هناك أسباباً أخرى أتاحت لأبى الطيب الإجادة فى المديح وهو بجانب سيف الدولة :

(١) فانه فضلاً عن أن المتنبى وجد فى سيف الدولة الرجل العربىّ المستقل الذى يعظم العرب ويحاسن القرامطة الذين يميل أبو الطيب إلى مذهبهم وعقائدهم ، فأنه يتفق معه فى المبدأ ، وهو البحث عن المجد من طريق الحرب والقوة ؛ فوجد فيه المثل الأعلى الذى يصبو إليه ويهيم به .

(٢) ثم رأى أنه دخيلٌ على شعراء سيف الدولة وهم كثر ، فلا وسيلة للتغلب عليهم إلا من طريق الشعر وهو كل بضاعته ، فاهتم أن يجيد ، وتحركت نفسه للقول بعاطفة صادقة وشعور طبيعى للمحافظة على هذا الرغْد من العيش والطريف من النعيم .

(٣) ثم كثرة عيون النقاد حوله ومنهم سيف الدولة نفسه ؛ وليس من الهين اليسير على نفس كنفس المتنبى أن تستسيغ النقد وتجيز التنقص منها وتنام على الحط من قدرها .

على أن شدة التحرى هذه وحمل النفس على الإبداع والاختراع والترفع عن الطيران فى جو الشعراء الذين حوله ، أوقعه فى التعمق والإغراب والإبهام والغموض لقصور الألفاظ واتساع المعنى .

أما فى الهجاء فله أسلوب واحد موجع ، ولسان مر ، تبدو فيه نفسه النارية وخلقه الصريح وشجاعته وعصبية مزاجه ، فلا يدارى ولا يصانع ، وهو صورة لأخلاقه إلا أنها عكسية مقلوبة ، إذ كان يهجو أعداءه بضد ما كان يمدح به أولياءه وبعكس ما يراه هو مثلاً أعلى للرجولة ، وصورة صادقة للفضائل ؛ فهجاؤه أظهر أثر للطبع والخلق والمزاج ؛ وهو صورة لصدق العاطفة ومرارة النفس المحرومة الحاقدة الساخطة . وقل أن نجد فيه تعقيداً أو ركة أو هلهلة فى النسج أو تكراراً فى الحروف مما عيب مثله عليه ، وهو متأثر فيه بأسلوب ابن الرومى من حيث ذكر النقائص الخِلْقية والصفات الجسمية .

أما أسلوب المراثى عند أبى الطيب فهو من الأساليب التى تحمل شارته وتلمح عليها توقيعه

فعادة الشعراء فى مراثيهم أن تفيض عيونهم بالعبرات ، وقلوبهم بالحسرات وصدورهم بالزفرات ، ونفوسهم بالأنين ، وألفاظهم بالدمع السخين ، كما فى شعر الخنساء مثلا أو ابن الرومى في رثاء ولديه .

أما شاعرنا في رثائه — وقد رثى عشرة أشخاص — فقد كان حزنُه حزنَ فيلسوف ، وبكاؤُه بكاء قائد حربى ، وألمُه ألم متمرد ، وحسرتُه حسرةَ عظيم ساخط : ما خضع ولا ذل ، ولا استسلم ولا ضعف

هذا الأسلوب نجده فى رثاء من يهمهم أمره ويمتون إليه بقرابة أو صلة : كرثائه فى جدته ، وأم سيف الدولة وأخته وابنه ، فقد ملأ رثاءهم بالسخط على الحياة والتبرم بالدنيا وأهلها وبالحكم البالغة والوصف القوى

وله أسلوب آخر فى المراثى يظهر عليه التقليد والصناعة والضعف ، وفراغ القلب من الألم والنفس من الحزن ، وذلك لأول عهده بالرثاء ؛ فقد رثى ابن إسحق التنوخى ولم يبلغ عمره العشرين حينذاك بقوله :

ما كنت أحسب قبل دفنك فى الثرى أن الكواكب فى التراب تمور
ما كنت آمل قبل نعشك أن أرى رضوى على أيدى الرجال تسير
خرجوا به ولكل باك خلفه صعقات موسى يوم دك الطور
والشمس فى كبد السماء مريضة والأرض واجفةٌ تكاد تَمُور

أما فى رثاء والدة سيف الدولة ، فاقرأ له :

نعد المشرفيّة والعوالى وتقتلنا المنون بلا قتال
نصيبك فى حياتك من حبيب نصيبك فى منامك من خيال

أما في حلبة الوصف فقد كان أبو الطيب مجلّيا ، ولا سيما فى وصف المعارك ؛ إذ كان لروحه وطبعه الأثر البالغ فيها ؛ فشعره فى وصف الحروب صورته الناطقة أو هو كما قال ابن الأثير :

إذا خاض فى وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع من أبطالها . وقامت أقواله المسامع مقام أفعالها .

فتحس وأنت تقرأ شعره صدق الشعور والمقدرة الفنية فى التصوير ، والافتنان فى الوصف ، والدقة فى الخيال

وليست إجادة أبى الطيب فى وصفه للمعارك فحسب ، بل هو قد أحسنَ فى وصف البادية كذلك : من صحارى وجبال ، وخيل ونياق ، ووفق فى وصف الحيوانات : من ظباء وكلاب صيد وآساد .

وهو فى هذه الأوصاف يظهر في أسلوبه أثر البادية أولا ، حيث شاع فيه الغريب من اللفظ ، ثم أثرُ ذهنه وحاسَّته الفنية ثانياً ، حيث رزق أبو الطيب دقة الملاحظة ، والمقابلة بين الأضداد والألوان . فمما جاء فى وصف أسد في غِيله وأجمته :

فى وَحدةِ الرهبان إلا أنه ... لا يعرف التحليل والتحريما
يطأ الثرى مترفِّقاً من تيهه ... فكأنه آسٍ يَجُسّ عليلا
ويَرُدُّ عُفْزته إلى يَافوخه ... حتى تصير لرأسه إكليلا

وله فى وصف ذَقنِ الأيائل وهو نوع من التيوس الجبلية :

لها لِحًى سُودٌ بلا سِبال ... تَصْلُحن للاضحاك لا الإجلال
كلُّ أثيثٍ نبتُها مِتفالِ ... لم تُغْذَ بالمسك ولا الغوالى
ترْضَى مِنَ الأدهان بالأبوالِ ... ومن ذكىِّ المسك بالدَّمالِ
لو سُرِّحَتْ في عارِضَىْ مُحتال ... لعدها من شَبَكاتِ المالِ

ولنوازن بين وصف البركة للبحترى ، ووصفها للمتنبى حتى يبين لنا من هذه الموازنة مبلغ أثر البادية فى وصف المتنبى : يقول البحترى :

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها ... والآنسات التى لاحت مغانيها
ما بال دجلة كالغيرى تنافسها ... فى الحسن طوراً وأطواراً تباهيها
كأن جنّ سليمانَ الذين ولوا ... إبداعها فأدقوا فى معانيها
تنصبُّ فيها وفود الماء معجلةً ... كالخيل خارجةً من حبل مُجريها

كأنما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجرى فى مجاريها
إذا علتها الصبا أبدت لها حُبكا مثل الجواشن مصقولا حواشيها
فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها وريقُ الغيثِ أحياناً يباكيها
إذا النجوم تراءت فى جوانبها ليلا، حسبت سماءً رُكبت فيها

هذه هى الا خيلة الحضرية التى تناسب حضارة القرن الرابع الهجرى .
والمتنبى يقول :

والموج مثل الفحول مزبدةً تهدر فيها وما بها قَطَمَ
والطير فوق الحباب تحسبها فرسانَ بُلقٍ تخونها اللُّجُمُ
كأنها والرياح تضربها جيشا وغًى : هازمٌ ومنهزم
كأنها — فى نهارها — قمرٌ حفّ بها من جِنانها ظُلَمُ
فهى كاويّةٍ مطوّقةٍ جُرِّد عنها غشاؤها الأدَمُ

بقى أن نصف أسلوب أبى الطيب فى الحكم

أسلوبه فى الحكمة والمثل أسلوب سهل مشرق ناصع لا التواء فيه ولا اعوجاج وألفاظه موسيقية عذبة ، نجد فيه كثيراً من المقابلة بين الصفات يزيد فى جمالها الفنى ويكشف عن أغراضها ومعانيها ، وهو من صغره قد بدت فيه حاسة التعميم والتمثيل وصوغ المعانى فى صورة كلية موجزة مختصرة ، وأظهر شىء فى حِكَمه أنه صبغها بصبغة نفسه فصدرت وكأنها مراسيم ملكية من غير أن يمهد لها أو يسوق الحجج والأمثلة والشواهد على صحتها ؛ فهو يخالف المعرى فى ذلك ؛ فالمعرى يتردد ويكثر من الموازنة والتحليل ، أما المتنبى فيسوق حكمه فى لهجة قاطعة لا نقض فيها ولا إبرام ولا هوادة ولا دوران ، بل هو كالواعظ المتزمت يلقى على الناس عظاته من فوق منبره فى صرامة وحزم كما يصنع الأستاذ مع تلاميذه والشيخ مع مريديه اعتداداً منه بنفسه ووثوقاً منه برأيه . والسر فى خلود حكمته هو أسلوبها ، وما فى صياغتها من قوة وما فى بنيانها من متانة ، ولأنها عملية أو أكثرها عملى يصادفها الإنسان في حياته كل يوم ويلقفها من حوادث الأيام وعبر الزمان ، يقول :

واحتمال الأذى ورؤية جانيه غذاء تضوى به الأجسام

***

خليلك أنت لا من قلت خلى وإن كثر التجمل والكلام

***

لا تعذُلِ المشتاق فى أشواقه حتى يكون حشاك فى أحشائه

***

وكن على حذر للناس تستره ولا يغرنك منهم ثغر مبتسم

***

وكل امرئ يولى الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب

***

فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده

***

فاطلب العز فى لظى ودع الذلّ ولو كان فى جنان الخلود

وهو من قول الناس : النار ولا العار .

وانظروا إلى قول عنترة هذا المعنى عينه ولكن الصياغة مختلفة والأسلوب ليس واحداً :

ماء الحياة بذلة كجهنم وجهنم بالعز أطيب منزل

فن المتنبي

المتنبي فنان مُبدعٌ ، ومصور ماهر ؛ فقد رزق دقة فى الحس ، وإرهافاً فى الأعصاب ، ورقة فى الشعور ، وقدرة على التصوير ، وخصوبة فى الخيال ؛ وهذه الخصائص جديرة بأن تخلق منه رجلاً فناناً

وفنه ممثل فى الأخيلة البديعة والموسيقى المدوّية ، وفي حسن التنسيق وجمال التقسيم ، والمقابلة بين الألوان

روى أبو الفتح ابن جنى قال : قرأت على أبى الطيب قوله :

وقد صارت الأجفان قرحاً من البكا وصار بهاراً فى الخدود الشقائقُ

فقلت : (قرحى) من غير تنوين ، فقال لى المتنبى : إنما قلت أنا (قرحاً) لأنى قلت

بعدُ بهاراً ، فهو إذن كان يقصد إلى هذا الجرس فى الألفاظ ، وذلك التقسيم فى الأجزاء ؛ ومن فنه قوله يصف ذكاء بدر بن عمار :

هان على قلبه الزمان فما ... يبين فيه غم ولا جذَلُ
تعرف فى عينه حقائقه ... كأنه بالذكاء مكتحل
أشفق عند اتقاد فكرته ... عليه منها ، أخاف يشتعل

وقوله يصف تمايل الرماح :

تبيتُ رماحه فوق الهوادى ... وقد ضرب العجاجُ لها رواقاً
تميل كأن فى الأبطال خمراً ... عُلِلْنَ بها اصطباحاً واغتباقاً

وفى هذه القصيدة يقول :

وخصر تثبت الأبصار فيه ... كأن عليه من حدق نطاقاً

ومن التصوير المعجب قوله يصف نفسه بالألفة وأنه لو عاد شاباً لما هان عليه مفارقة الشيب إلا وقلبه موجع وعينه باكية :

خُلقتُ ألوفاً لو رجعت إلى الصبا ... لفارقت شيبى موجع القلب باكياً

ووصف موقف وداع وصفَ فنان مصور ، آلته حساسة صادقة الحسن :

وجلا الوداعُ من الحبيب محاسناً ... حسنُ العزاء وقد جُلينَ قبيح
فَيَدٌ مسلّمة وطرف شاخص ... وحشاً يذوب ومدمع مسفوح

واخترع فأبدع في تصوير القلب وقد تواردت عليه الأحداث وتكاثرت عليه المصائب وتوالت فوق رأسه الرزايا حتى أصبح لا يحس ألماً ولا يبالى حَزَناً ؛ يقول الخزيمى :

لقد وقرتنى الحادثات فما أُرى ... لنازلة من ريبها أتوجع

وقال أبو الطيب :

رماني الدهر بالأرزاء حتى ... فؤادى فى غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتنى سهام ... تكسرت النصال على النصال

وقد وصف ضرب السيوف للرقاب ، وطعن الرماح للقلوب ، فقال :

كأنَّ الهامَ فى الهيجا عيون وقد طُبعت سيوفُك من رقاد
وقد صُغتَ الأسنة من هموم فما يخطرن إلا فى الفؤاد

وانظر إلى تصويره الموت تصويراً لم يسبق إليه

وما الموت إلا سارق دق شخصه يصول بلا كف ويسعى بلا رجل

أما الموسيقى فأمثلتها كثيرة منها :

نصيبك فى حياتك من حبيب نصيبك فى منامك من خيال

***

فالموتُ أعذرُ لى ، والصبر أجمل بى والبر أوسع ، والدنيا لمن غلبا

***

فقرُ الجهول بلا قلب إلى أدب فقر الحمار بلا رأس إلى رسَنِ

***

فيا شوق ما أبقى ، ويا لى من النوى ويادمعُ ماأجرى ، ويا قلب ماأصمى !

***

ضاق الزمان ووجهُ الأرض عن ملك ملء الزمان وملء السهل والجبل
فنحن فى جذل ، والروم فى وجل والبَر في شغل ، والبحر فى خجل

ولنقف من البيت الثانى من هذين البيتين وقفة قصيرة لنتبين ما فيه من صور متقابلة ، وأضداد متعاكسة : الجذَل لهم والوجَل للروم ، والشغل فى البر والخجل في البحر لندى يديه

ولصُوره طابَع خاص تعرف به ، وذلك إنه أولع بالجمع بين الألوان المتضادة ، والصفات المتقابلة ؛ فهو كالمصور الماهر ، يصور الصورة باللون الأسود ، ثم يجلل حواشيها باللون الأبيض ، لتبدو الصورة زاهية زاهرة . أوَليست العيون التى فى طرفها حَوَر هي تلك التى اشتد سوادها ، واشتد بياضها فكانت قاتلة ساحرة ؟

قال يمدح سيف الدولة :

يا مليك الورى المفرِّقَ محياً ومماتاً فيهم وعزًّا وذلا
قلد الله دولةً سيفُها أنت حُسَاما بالمكرمات مُحَلَّى

فبـــه أغْـنَتِ الموالىَ بذلا وبه أفنتِ الأعادىَ قتلا
وإذا اهتز للندى كان بحرا وإذا اهتز للردى كان نصلا
وإذا الأرض أظلمت كان شمساً وإذا الأرض أمحلت كان وبلا

والطابع الثانى : أن خياله أكثر ما تستمد أجزاؤه من الحروب والمعارك والأسنة والرماح والطعن والضرب

غير أن هذا الفن عند المتنبي هو من نوع واحد ولون مطرد ؛ إذ كله مستمد من حياة مظلمة الجوانب كامدة الألوان ليس فيها أثر للبشاشة ولا بريق للابتسامة . لهذا كانت روح أبى الطيب التى سُكبت فى هـذا الفن روحاً منقبضة مكافحة لم ترزق لطف مدخل ، ولا حسن احتيال ، ولم توهب رقة ملمس ولا نعومة مسّ ؛ بل هى تستقبلك بالرماح والنصال حيثما واجهتها ، وبالمعاقل والحصون أينما صادفتها وبالزوابع والعواصف كلما لاقيتها ، وبالسخط والحنق أنى حادثتها وكاشفتها ؛ فضحكها غليظ خشن ، وصوتها مدوّ مفزع

وتركك فى الدنيا دوياً كأنما تداولَ سمع المرء أنمـلُه العشرُ

لذا كره كثير من الناس أسلوب أبى الطيب ، ونفروا من فنه وشعره ، وثقل عليهم ظله ، وغلظ عليهم طبعه . هـذا إلى أن شعره مستغرق فى نفسه مشحون بشئونه الخاصة ، ليس للإنسانية فيه نصيب ، ولا للعواطف المشتركة العامة منه قسط

وأغلب الظن أن الذى أفسد على أبى الطيب فنّـه وبغّـض إلى الناس جماله هى تلك العوامل الثلاثة : طبعه وبيئته ودراساته

أما طبعه فما فيه من عناد ، وما به من غرور ، قد حمله على ألا يهذب شعره ولا يقبل تنقيحه . وكبرياؤه عن التقيد بما يتقيد به الشعراء عادة ، وثورته على كل مألوف ، واحتقاره لـكل تقليد ؛ ومزاجه النارى وأعصابه الملتهبة ، وشذوذه فى كل شىء — دفع به كلُّ هذا إلى أن يلقى بالكلمات كيفما اتفقت ، ويصوغ البيت فى أى صورة وقعت . وزيادة منه فى عناده للناقدين وأغاظته لعلماء اللغة والنحويين يعبث كما يشاء ، فيقدم ويؤخر ، ويحذف ويحشو ، فيقع في تكرير الحروف المطردة النغم

ويرمى بالقافية المعقدة يختصم فى فهمها الناس .

أنام ملءَ جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

وها هو مثل يثير الضحك ويمثل لنا عناده وغروره . قال من قصيدة يمدح بها سيف الدولة :

أَقِلْ أَنِلْ أَقْطِعِ احْمِلْ عَلِّ سَلِّ أَعِدْ

زِدْ هَشَّ بَشَّ تفضلْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ

ولما أنشد هذا البيت رآهم يعدون الفاظه فقال وزاد فيه :

أَقِلْ أَنِلْ أَنْ صُنِ احملْ علّ سَلِّ أَعِدْ

زِدْ هَشَّ بَشَّ هَبِ اغفرْ أَدنْ سُرَّ صِلِ

فرآهم يستكثرون الحروف فقال :

عِشِ ابق اسمُ سُدْ قُدْ جُدْ مرِ انْهَ رِفِ اسْرِ نَل

غِظِ ارمِ صِبِ احْمِ اغزُ اسِبِ رُعْ زَعْ دِلِ اُثْنِ نُل

أفبعد هذا شذوذ ووراء هذا حمق ؟

أما بيئته ، وأعنى البادية ، فهى صاحبة الأثر فى استخدام الألفاظ الغريبة والكلمات الخشنة النافرة التى لا تلائم ذوق القرن الرابع الهجري

أما دراساته فقد أوقعه تقليدُه لبعض الشعراء الذين أولع بهم فى الإغراب والتنقيب عن الوحشى من حكم الجاهلية والتورك على الصيغ الشاذة والتراكيب الجافة والتحذلق فى الأساليب ، والأكثار من الجناس والمقابلة . وأستاذه فى ذلك أبو تمام .

ثم دراسته للفلسفة والعلوم جعله يدخل ألفاظ المصطلحات العلمية فى الأساليب الشعرية ويستخدم التراكيب المنطقية . قال :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجب والخلف فى الشجب

فقيل : تخلصُ نفسُ المرء سالمةً وقيل : تشركُ جسمَ المرء في العطب

***

من اقتضى بسوى الهندى حاجته أجاب كل سؤال عن هل وبلم

* * *

ولا واحداً فى ذا الورى من جماعة ولا البعض من كل ولكنك الضعف
ولا الضعف حتى يتبع الضعف ضعفه ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

وهناك هنات أخرى عرف بها أسلوبه نكتفى عنها بما ذكرناه

وأظهر الخصائص فى تراكيبه الإكثار من استخدام أسلوب القصر :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى * إذا قلته نشدت للأكفاء * إنما تنجح المقالة فى المرء

وتفسير ذلك سهل ، فهو أثر من الوثوق بالنفس والاعتداد بالرأى ، أو صورة من صور المبالغة

والخاصة الأخرى استخدام التصغير فى أساليب الهجاء ، وهذه صورة لحنق النفس والاستخفاف والتهكم :

أولى اللئام كويفير بمعذرة فى كل لؤم وبعض العذر تفنيد

* * *

ونام الخويدم عن ليلنا وقد نام قبل عمى لا كرى

* * *

أذم إلى أهل الزمان أهيله فأعلمهم فدم وأحزمهم وغد

وبعد فهل وفق المتنبي وأجاد ؟ نعم أجاد كل الإجادة فمحاسنه تربى على مساوئه ، وجمال أسلوبه يزكو على قبيحه . إلا أن الذى أظهر تلك المساوئ وكبّر من تلك الهفوات ، المتنبي نفسه ، فتعاظمه وكبره وغروره وتعاليه كثّر من حساده فأخذوا يحصون عليه السيئات بحق وبغير حق ، ويجسمون الهنات منصفين تارة وغير منصفين أخرى

أما فى الحق والإنصاف فقد ظفر المتنبي الظفر كله بسلامة المعانى وجمال الخيال وقوة التراكيب ، وإن خلا من جمال التوشية ومحاسن التطرية ونعومة الحضارة :

ما أوجه الحضر المستحسنات به كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب
أفدى ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

عبد الوهاب حمودة

الفكاهـــة فى الأدب

بقلم أحمد هاشم عطية
المدرس بمدرسة فؤاد الأول الثانوية

إن فى طبيعة الانسان ، ميلا إلى التأنيس والتفرج ، تتمثل مظاهره عادة فيما يرتسم على ثغر المتهلل من الابتسام والتبلج عند الشعور بلطف النادرة والاستحسان لما تتضمنه الملحة الفائقة من لطف الانطباق على ما يستخف النفوس إلى الفرح

ولقد جعل الله ذلك المظهر من السرور من خواص الانسان المتميز بقوة العقل والمنطق ، وإن كان بعض العلماء يرى أن غيره من الحيوان الملهم ، قد يصل أحياناً إلى ما يشبه الاعجاب والضحك ، ولكن المعروف أن الله سبحانه وتعالى قد آثر بنى آدم بهذه النعمة التي أضافها فى الذكر إلى نفسه وجعلها معادلة للحياة كما جعل البكاء بإزاء الموت فى قوله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا » والضحك واللعب إذ وقعا موقعهما ، وحسن اختيار الموضع اللائق بهما كان اللعب جداً والضحك وقاراً ، وصار كلاهما قسطاً ضرورياً لعلاج البدن وجمام النفس والاستعداد لاستئناف ما يتحمله العاملون من تكاليف الحياة وهم على أهبة من النشاط والمضاء

ولقد ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ومزح وفرح وضحك الصالحون وفرحوا .

وكان يوحنا وشمعون من الحواريين . وكان يوحنا لا يجلس مجلساً إلا ضحك وأضحك من حوله ، وكان شمعون لا يجلس فى مجلس إلا بكى وأبكى من حوله فقال شمعون ليوحنا : ما أكثر ضحكك ! كأنك قد فرغت من عملك ، فقال له يوحنا : ما أكثر بكاك ! كأنك قد يئست من ربك ، فأوحى الله إلى عيسى عليه السلام : إن أحب السيرتين إلىّ سيرة يوحنا . وسمى العرب ذوائبهم وأجوادهم بالطلق

والضاحك والضحاك والوضاح وبسام العشيات . ولو كان الضحك نقصاً لما أضافه الله فى الذكر إلى نفسه ولما وضعه فى معرض المنة على عبادة فى الآية السابقة

تختلف الأمم وأجيال البشر فى مضاحيكها ونوادرها . وللأوطان الإقليمية وللآداب العامة وطرق الاكتساب وضروب الحرف وأنواع الصناعات أكبر أثر فى تأليف هذه النكات ، حتى لقد تعد الملحة الحارة فى قوم ، باردة شديدة البرودة عند آخرين .

وأعظم البيئات التى تنشأ فى هذه الدعابات هى بيئة الفُرّاغ المياسير من متأدبى الحواضر فى الغالب الذين يأخذون مجالسهم على أفواه الدروب أو فى دور من يتملحون بسمرهم وجمال نوادرهم من الخلفاء والأمراء وذوى النعمة .

ولقد حفلت الأمصار العربية فى أزمان مختلفة بكثير من أولئك الفراغ وحملة النادرة والمتكسبين بالسمر من طبقات الرواة والأدباء والشعرا والمغنين وأصحاب الأعاجيب وأهل الصناعات المختلفة ، وملئت بملحهم ونوادرهم المبسوطات العربية من أمهات كتب الأدب .

وأول من تندر وتكسب بالنادرة فى الإسلام الفاخرى بالمدينة ، وأشعب بمكة ، ولم يتورع التقى ابن الجوزى عن جمع النوادر لطوائف مختلفة من الناس فى كتاب سماه « الموشى فى النوادر » ، وألف الجاحظ كذلك رسائل مختلفة ونسج على منوالها كثير من المتقدمين والمحدثين ، وكان من أشهر من ألف فى ذلك الباب فى عصرنا المغفور له الشيخ حسن الآلاتى ، فقد وضع فى المجون والفكاهات كتابا من ثلاثة أجزاء سماه « ترويح النفوس ومضحك العبوس » .

وها نحن أولاء نشير إلى بعض ما استملحناه من جمهرة ما عثرنا عليه فى مطالعاتنا المختلفة من هذه النكات ، ونبدأ ببعض ما أثر من ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن بعض أصحابه ومن أتى بعدهم .

كان رسول الله صلى عليه وسلم يمزح ولا يقول حقاً :

أتته عجوز أنصارية ، فقالت : يا رسول الله ، ادع الله لى بالمغفرة ، فقال لها : أما علمت أن الجنة لا يدخلها عجوز ؟ فصرخت المرأة ، فتبسم رسول الله صلى الله

عليه وسلم ، وقال لها : أما قرأت قوله تعالى : « إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً عرباً أترابا » ؟ أي أنها ستكون شابة حينئذ .

ونظر عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أعرابى قد صلى صلاة خفيفة فلما قضاها قال : اللهم زوجنى بالحور العين ؛ فقال عمر : يا هذا أقللت المهر وأعظمت الخطبة

وكان نعيمان من أصحاب رسول الله البدريين مشهوراً بالمزاح . خرج مرة مع أبي بكر الصديق إلى بُصرى وكان فى الحملة سوسيط ، وهو بدوى أيضاً ، وكان سوسيط على الزاد ، فجاء نعيمان وقال له : أطعمني ، قال لا ، حتى يأتى أبوبكر . فقال نعيمان : والله لأغيظنك ، وجاء إلى أناس جلبوا ظهراً فقال : ابتاعوا منى غلاماً عربياً فارهاً إلا أنه دعّاء له لسان لعله يقول : أنا حر . فإن كنتم تاركيه فدعوه لا تفسدوا علىّ غلامى . قالوا : بل نبتاعه منك بعشر قلائص . فأقبل بها يسوقها وأقبل بالقوم حتى عقلها ثم قال : دونكم هذا هو . فقالوا : قد اشتريناك ، فقال : سوسيط هو كاذب أنا رجل حر فقالوا : قد أخبرنا بذلك . ووضعوا فى عنقه حبلاً وذهبوا به ، فجاء أبو بكر رضى الله عنه فأخبر بذلك فذهب هو وأصحابه فردوا القلائص على أربابها وأخذوه وأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بالقصة فضحك منها حولا

وسمع أبو الأسود الدؤلى وكان بخيلاً ، مسكيناً يقول : من يطعم الجائع ؟ فقال : على به ، فلما جاء أمر له بطعام ، فلما أكل وذهب ليقوم قال له أبو الأسود : إلى أين ؟ لتزعج عباد الله كما أزعجتنى ! أخرجوه فى الأدهم ؛ فبات مقيداً حتى الصباح

قيل لأشعب : قد لقيت رجالا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلو حفظت أحاديث تتحدث بها ! فقال : أنا أعلم الناس بالحديث . فقيل له : حدثنا ، قال : حدثنى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهم قال : خلتان لا تجتمعان فى مؤمن إلا دخل الجنة... ثم سكت ، فقيل له : هات ما الخلتان ؟ قال : نسى عكرمة إحداهما ونسيت أنا الأخرى .

قال أشعب : جاءتنى جارية بدينار وقالت : هذا وديعة عندك ، فجعلته بين الفراش ، فجاءت بعد أيام وقالت : بأبى أين الدينار ؟ فقلت : ارفعى الفراش وخذى ولده فإنه قد ولد . وكنت قد تركت إلى جنبه درهماً ، فأخذت الدرهم وتركت

الدينار ، وعادت بعد أيام فوجدت معه درهماً آخر فأخذته ، وفى الثالثة كذلك ، وجاءت فى الرابعة ، فلما رأيتها بكيت ، فقالت : مايبكيك ؟ قلت : مات دينارك عند الولادة ؛ فقالت وكيف يكون للدينار ولد ؟ فقلت لها : تصدقين بالولد ولا تصدقين بالولادة ! !

وغضبت سكينة بنت الحسين بن علىّ على أشعب فحلفت لتحلقن لحيته ، ودعت بالحجام ؛ فلما تناوله ليحلق له قال : انفخ أشداقك حتى أتمكن منك ، فقال له أشعب : ياعدو الله ، أمرتك أن تحلق لحيتى أو أمرتك أن تعلمنى الزمر !

وجلس بعض المتشبهين بالقضاة على دكان حانوت لرجل يتنخس فى الدواب فطبق الشيخ باب حانوته بعمامته وطيلسانه ، وحضر إليه رجل من صناع الكلام فقال له : أبنى حماراً ليس بالصغير المحتقر ولا بالكبير المشتهر ، إذا خلا له الطريق تدفق ، وإذا كثر الزحام ترفق ؛ إن أقللت علفه صبر ، وإن أكثرته شكر ، فقال له النخاس : والله ما أجد فى الناس حماراً بهذه الصفة ؛ ولكن اصبر ، فان مسخ الله هذا الجالس حماراً ابتعته لك ، وأصبت حاجتك إن شاء الله .

وقال إبراهيم بن سبابة المغنى لبشار الأعمى : ما سلب الله من مؤمن كريمتيه إلا عوضه عنها إما الحفظ والذكاء ، وإما حسن الصوت ؛ فما الذى عوضك من عينيك ؟ قال : فقد النظر إلى بغيض مثلك

خرج المهدى للعيد فغلبه فرسه حتى أنهى به إلى خباء أعرابى ، فقال : يا أعرابى هل من قرى ؟ قال له نعم ، وأخرج له فضلة من مُلَّة فأكلها وفضلة لبن فسقاه ، ثم أتى له بشراب فسقاه قعباً ، فلما شرب قال أتدرى من أنا ؟ قال لا والله ، قال أنا من خدم الخاصة ، قال بارك الله فى موضعك ، ثم سقاه آخر ، فلما شربه قال : أتدري من أنا ؟ قال زعمت أنك من خدم الخاصة ، قال: بل أنا من قواد أمير المؤمنين ، فقال له الأعرابى : رحبت بلادك ، وطاب مزادك ومرادك ، ثم سقاه قدحاً ثالثاً فلما فرغ منه قال يا أعرابى أتدرى من أنا ؟ قال زعمت أخيراً أنك من قواد أمير المؤمنين ، قال لا ولكنى أمير المؤمنين ، فأخذ الأعرابى الشراب وأبعده وقال والله لئن شربت الرابع لتقولن إنك لرسول الله ! فضحك المهدى ثم أحاطت بهم الخيل

فنزل أبناء الملوك والأشراف ، فطار قلب الأعرابى فقال له المهدى : لا بأس عليك . وأمر له بصلة ، فقال : أشهد أنك صادق ، ولو ادعيت الرابعة لصدقتك !

ورفع قهرمان لبشار فى حسابه الشهرى : جلاء مرآة بعشرة دراهم ، فقال بشار : يا لله ؛ جلاء مرآة أعمى بعشرة دراهم ! والله لو صدئت عين الشمس ما كان جلاؤها على الله عشرة دراهم .

ورأى بعضهم أعمى يحمل على كتفه جرة ، ويمسك بيده الأخرى مصباحاً مضاء ! فقال له : يا هذا ، أنت أعمى فلم تحمل هذا المصباح ؟ فقال : حتى لا يلقانى أعمى البصيرة مثلك فيعثر بى .

ولزم رجل من الثقلاء دار الجاحظ ، وألح عليه فى كتاب شفاعة لرجل يعرفه حتى أعياه وأبرمه ؛ فكتب له الجاحظ كتاباً ، فأخذه الرجل ، فلما خرج فضه فإذا فيه : « كتابى إليك مع من لا أعرفه ولا أوجب حقه ، فإن أنت قضيت حاجته لم أحمدك ، وإن رددته لم أذمك » فعاد الرجل إلى الجاحظ ، فقال له : لا بأس عليك فهذه علامة بينى وبين المكتوب إليه إذا أردت العناية بإنسان ؛ فقال الرجل : إذن فقطع الله لسانك ، وأعمى بصرك ، وقصم صلبك ، فقال له الجاحظ : لماذا ؟ فقال له الرجل : لا بأس عليك ، فهذه علامة بينى وبين الله إذا أردت الدعاء لانسان

وهجا ابن الرومى أحد الولاة فدس له السم فى كعكة ، فلما أكلها وأحس بالسم ، قام ليخرج ، فقال له الوالى : إلى أين ؟ فقال : إلى الموضع الذى بعثتنى إليه فقال له : أقرئ والدى منى السلام ، فقال له : حمّله غيرى فليس طريقى على النار .

وأمم العالم التى يظن أنها فى شغل عن هذه المجالس بما يترادف فى ميادين العمل عندها من النزاع المستمر والجد المتواصل ، لا تخلو من نوادر وأضاحيك ، حتى لقد صار هذا النوع من الهزل فناً تسامى فيه المتمهرون من ذيوع الصيت وتعالم الأمر إلى مراتب الأفذاذ من رجالات التاريخ

ولا تزال دور التمثيل ومسارح الخيالات فى بلاد العالم تجد الحاجة شديدة ماسة إلى هذه الأدوار الهزلية التى تغرق الجماهير عند مشاهدتها أو سماعها فى الضحك والاستلقاء والفحص .

وفى الغالب أن المأثور عند الفرنسيين ، أو الانجليز ، أو الألمان أو غيرهم من الحكايات فى هذا الموضوع ، قد لا يصيب من نفوس المشارقة موضعاً يذكر .

ويشتهر أهل مصر بالتقليس وإرسال النوادر ، حتى غلب ذلك على كثير من أدبائهم وشعرائهم ، وقد نبغ من هؤلاء فى عصرنا الحاضر المغفور لهم : الشيخ على الليثى ، والشيخ حسن الآلاتى ، والنجار ، وحفنى بك ناصف ، وكان خاتمة أهل الظرف والاحسان للملح حافظ ، والبابلى ، فقد بلغا الغايات فى استيلائهما على النفوس بمحاسن الطرف وما أثر عنهما رحمهما الله من النوادر .

ومن ملح هذا العصر :

أن المغفور له الشيخ على الليثى من سمّار عزيز مصر الخديو إسماعيل والخديو توفيق المقربين لديهما كانت له حجرة خاصة به . فمر المهردار يوماً على هذه الحجرة ، فرأى فيها مكتباً فخماً ، وأثاثاً جميلاً والليثى جالس على المكتب ولا عمل له فى الدولة !

فأمسك المهردار طباشيرة وكتب على باب الحجرة : (إنما نطعمكم لوجه الله) ومضى ، فقام الليثى ليرى ما كتبه المهردار ، فرأى تلك الجملة ؛ فتوجه في الحال إلى مكتب المهردار وكتب على بابه :

عملت ساقية من ذهب تروي رياض الجلّنار
علقت فيها الطور عصى علقت فيها المهردار

* * *

وكان المرحوم حفنى بك ناصف فيه دعابة وخفة روح تلازمانه حتى فى شعره ، فمن ذلك قوله فى تكريمه لخليل بك مطران فى قاعة الجامعة المصرية القديمة وكان قد أنعم عليه بوسام :

مطران ما حققت أمرك شيء أراه يزين صدرك
ما أنت فى الآداب مطراناً ولكن أنت بطرك

ومن دعاباته الفكهة قصيدة فى شكر وزير الحقانية عند ترقيته إلى وكالة محكمة قنا وفي وصف تلك المدينة :

قالوا شخصت إلى قنـــا يا مرحباً « بقنا » وإسنا
قالوا قنا حر فقلـــت وهـل يرد الحر قنا
ها قد أصبت البرد والبـــرداء والقلب اطمأنّ
قـد خفتِ النفقات إذ لا أشترى صوفاً وقطناً
وفرت من ثمن الوقو د النصف أو نصفاً وثمناً
فاذا بدت لى حاجـــة فى الغسل ألقى المـاء سخناً
أو رمت طبخاً أو علا ج الخبز ألقى الجو فرناً
عش فى القرى رأساً ولا تسكن مع الأذناب مدناً

وكان للمرحوم الأستاذ عثمان بك لبيب حمار يثقل عليه فى دروب القاهرة وفى الذهاب إلى المدارس للقيام بعمله ، فسرقه اللصوص

وبلغ الخبر المرحوم محمود أفندى سلامة صاحب جريدة الواعظ فقال يرثى الحمار المسروق :

قف بسوق الحمير وانظر ملياً هل ترى أدهماً أغر المحيـــا

خلسته يد اللصوص صباحاً موكفاً ملجماً معداً مهيأ
فخـلا اُصطبله وأصبح قاعاً صفصفاً خاوى العروش خلياً

كان يا حسرتا عليه صبوراً قانع النفس راضياً مرضياً
كم ليال على الطوى قد طواها حامداً شاكراً ولم يشك شياً
لا لفقر وضيق عيش ولـكن كان فى الزهد راغباً وتقياً
لو أتاح الاله للبهم رســـلاً كان فى أمة الحمير نبياً
ليت شعرى أين الأمان وهذا جحش عثمان قد عدمناه حياً
كان عوناً له إذا رام ظعناً وخليـــلاً لدى المقام صفياً

كان إن قلت (هِشْ) أجابك طوعاً وإذا قلت (حا) اُنتضى سمهرياً
لك فيه العزاء عثمانُ أما سالبوه فسوف يلقون غياً

ومن نوادر البابلى وهى بلدية طبعاً :

أنه سافر مرة إلى الاسكندرية ، ونزل فى فندق واستأجر غرفة بسريرين فزاره صديق له فقال له وقد دهش : أنت وحدك فلماذا استأجرت غرفة بسريرين ؟ فقال له البابلى : « حتى أشبع نوم يا أخى »

* * *

وكان حافظ والبابلى يسيران يوماً بحلوان ومعهما المرحوم أحمد جاد وكان مشهوراً بحلاوة النكتة البلدية ، وحافظ ينشد بيتاً لأبى تمام ، والبابلى ينشد بيتاً لكثمرى ، وأحمد جاد يسير بينهما مطرقاً فقال له حافظ مالك تمشى بيننا ساكتاً كالحمار ؟ فقال له جاد : لا ، بل أنا أعزك الله كالعريش

* * *

وإمام العبد من زجالى هذا العصر وشعرائه ومجانه كان يقول في مجالسه: حافظ ! ومن حافظ ؟ أنا أخلق فى اليوم عشرين حافظ وشوقي . ومن شوقى؟ أنا أخلق فى اليوم عشرين شوقى! وبلغ ذلك حافظا ثم ذهب إمام إليه ليتسلف منه ريالا . فقال له حافظ : والله يا مولاي كما خلقتنى !

أحمد هاشم عطية

الوضوح والغموض وطبيعة الادب

بقلم عبد الباقى ابراهيم

المدرس بمدرسة فاروق الأول الثانوية

منذ عقدين من السنين أو أقل ، كان الحديث فى موضوع كهذا يبدو غريباً فقد كان الأدب يخلقه الشعراء والكتاب فى ذلك العهد واضحاً ، وما غمض منه كان مستوحشاً غريباً كأنه فى غير بيئته

كان القراء يقبلون على أدب المنفلوطى ما ألف أو ترجم لوضوحه و« بساطته » إقبالاً شديداً ، حتى ندر فى تلاميذ ذلك العهد من لم يقرأ كل ما أخرج المنفلوطى على حين كان حديث القمر مثلا للرافعى لا يجد قبولاً

ولم يكن للشعر إلا مدرسة واحدة هى مدرسة شوقي وحافظ وحفنى وأضرابهم تلك المدرسة التى كانت تؤمن بالوضوح بفطرتها الملهمة .

أما الآن فقد تبدلت الحال كثيراً ، فقد أصبح الغموض فى الأدب مذهباً ورأياً له أنصار يدافعون عنه ويحتجون له ، فإنى أذكر أنى سمعت الدكتور الأديب « زكي أبا شادى » ينتصر له فى أثناء حديث بينى وبينه ، وأحسبه كتب فى ذلك أيضاً ، وأذكر أن أستاذاً كبيراً من أساتذة الأدب فى مصر أشار إلى هذا المذهب فى أثناء درسه إشارة مقرونة بالعطف عليه ، بل قد ذهب إلى أبعد من هذا إذ فضل أبا تمام على البحترى من ناحية ذات صلة قوية بغموض المسلك وخفاء المقصد .

ثم ننظر فى الشعر العصرى فإذا كثير منه لا تكشف عبارته عن قصد ولا تبين عن غرض ، ولقد تقرأ البيت مرة بعد أخرى فإذا هو فى النهاية أشد غموضاً وأكثر خفاء

وقد تكون ممن أدركوا حظاً وافراً من اللغة وممن يستطيعون أن يفهموا فلسفة (كانت) على خفائها وشدة غموضها ، وتعجز مع ذلك عن أن تدرك معنى

بيت من هذا الشعر تدل عليه طبيعة التركيب

من أجل هذا عقدنا هذا البحث لنكشف فيه عن طبيعة الأدب كما نفهمها ثم ننظر أى الأسلوبين أدنى إلى هذه الطبيعة صلة ، وأقرب منها رحما ؛ فإنه يلوح لنا أنه لا شيء يضر الفن أكثر من أن تصرفه عن طبيعته حتى يتناكرا ، وتبعده عن جوهره حتى يتنافرا

وقبل أن ندخل فى صميم بحثنا نرى أن نحدد ما نعنيه بالوضوح والغموض تحديداً دقيقاً

إننى لا أقصد بالوضوح أن يكون المعنى ساذجاً فطريا قد تناوله الأديب من كتب فلم يكلف ذهنه فى الوصول إليه مشقة

ولا أن يكون قد صار مألوفا لكثرة ما تناهبته الأذهان وتواردت عليه الأفهام ، فما هو إلا أن تسمع العبارة حتى يهجم على نفسك ويسبق إلى فهمك

وإنما ظنى به أن يكون التركيب نفسه بكلماته ونظامه يدل عليه ويكشف عنه فلا يضطرنا إلى ضروب من التأويل لا نطمئن إليها ولا نجد البينة عليها من الألفاظ نفسها

ونحن ندخل فى مرتبة الوضوح ، المعاني التى توحى بها الكلمات أو العبارات إيحاء فلا نقف عند الحد الضيق الذى تحدده القواميس للكلمة ، فإن الشاعر أو الكاتب قد يستعمل كلمة يدل بها على ما هو أوسع كثيراً مما لها فى القاموس ، ومن أجل هذا كان فهم الشاعر فهما تاماً ، وقدره حق قدره ، بحاجة إلى الذوق ، وإلى الصلة الروحية التى تجمع بينه وبين الناقد

ولا نقصد بالغموض أن يكون المعنى عميقاً قد سافر إليه الذهن أو تعب فيه الخيال أو ارتفع به مبدعه عن الأفق العادى للأدباء ، فعمق المعنى فى رأينا هو بُعْده وارتفاعه عن أفق الذهن العادى ؛ أما الغموض فهو قصور التركيب نفسه — مع أن النظام يجرى على القانون العربى — عن أن يكشف عما فى النفس دون لَبس . فهما شيئان مختلفان

وكما نرى العمق والغموض مختلفين نرى أن العمق لا يدعو لزاماً إلى الغموض

ولا يضطر إليه حتى لا يكون للأديب مندوحة عنه ، وآية ذلك تظفر بها فى كثير من النثر وفى كثير من الشعر ؛ فكثير من القراء يعرفون أنه قد ترجم إلى النثر العربى آثار لنيتشة الفيلسوف الأديب الألمانى فى « مجلة العصور » ولجيتى « آلام ڤرتر: للزيات » وڤاوست :« الدكتور عوض » ولشكسبير: «المقتطف» ولأناتول فرانس : « أناتول فرانس فى مباذله : للأمير شكيب أرسلان »

وما من شك في سمو أفكار هؤلاء وعمقها ، إذ كان لكل منهم حظ غير يسير من الفلسفة ، وكان لبعضهم نصيب كبير من البحث العلمى الدقيق ، وقد اتسع لمن ترجموا لهم أن يصوغوا أفكارهم فى أساليب بلغت الغاية من الإبانة والوضوح

وفى الشعر نستطيع أن نجد أمثلة كثيرة تجمع بين الوضوح وسمو المعنى وارتفاعه وإن شئت فقل عمقه ، وقد اخترنا هنا من هذه الأمثلة لشاعرين يختلفان عصراً وبيئة ولكنهما يتفقان فى نزعة واحدة ، هى ازدحام الأساليب بالمعانى البعيدة العميقة وهما المتنبى والعقاد

المتنبى يمدح :

إلى سيد لو بشر الله أمة ... بغير نبي بشرتنا به الرسل
رأيت ابن أم الموت لو أن بأسه ... فشا بين أهل الأرض لانقطع النسل

* * *

فكم عين قرن حدقت لنزاله ... فلم تغض إلا والسنان لها كحل
وحالت عطايا كفه دون وعده ... فليس له إنجاز وعد ولا مطل

وله أيضاً :

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه ... لمّا أتى الظلمات صرن شموسا
أو كان صادف رأس عازر سيفه ... فى يوم معركة لأعيا عيسى
أو كان لج البحر مثل يمينه ... ما انشق حتى جاز فيه موسى
أو كان للنيران ضوء جبينه ... عُبدت فكان العالمون مجوسا

وله أيضاً :

كأن سخاءك الإسلام : تخشى ... إذا ما حلت عاقبةَ ارتداد

كأن الهـام فى الهيجا عيون وقد طبعت سيوفك من رقاد
وقد صغت الأسـنة من هموم فما يخطرن إلا فى الفؤاد

للأستاذ عباس العقاد :

قال من قطعة له بعنوان « أمام قفص الجيبون »

العب الآن وانتظر بعدُ حقبا ترق فى « سلم الرقى » وتعل
كيف لم تصعد السلالم وثبا أيهـا الصاعد الذى لا يَمَـلُّ

* * *

انتظر يا صـديق شيئاً فشيئا تطبخ القوت كله بيديكا
غير أنى إخال ما كان نيئاً منه ، أجدى فى الحالتين عليكا

* * *

انتظر يا صـديق مليون عام أو ملايين لست والله أدرى
إن تدانيت بعدها من مقامي فقصارى المطاف أن لست تدري

وله بعنوان « صيام الفـكر »

دع اليوم زاد الفكر فى صفحاته أنا اليوم عن زادى من الفكر صائم
وقد يهجر العقل الـكتاب تديناً كما تهجر القوت الجسوم الطواعم

فى هذه الأمثلة التى يمكنك أن تجد كثيراً من طرازها ، استطاع شاعرنا أن يخضعا الأسلوب لهما وأن يروضاه رياضة ماهرة للـكشف عن معان لا يصل إليها الذهن إلا بعد سمو وتحليق

ويزيدك اقتناعاً بصحة ما ذهبنا إليه أن ترى المعنى الذى ذلل ووطئ لـكثرة تداوله يتناوله الشاعر تناولاً غير موفق ، فإذا هو سبيل إلى الغموض وطريق إلى الخفاء . وخذ مثلاً على ذلك قول أبى تمام فى عبد الله بن طاهر :

أهن عوادى يوسف وصواحبـه فعزما ، فقـدْما أدرك النجح طالبُه

فقد أراد أبو تمام أن يقول « إن النساء هن اللائى صرفن يوسف عن رشده وإذن فلا تثق بهن فى إغرائك بالعـدول عن رحيلك إلى عبد الله وامض لطيتك فى إصرار وعزم »

إن المعنى الذى جاء به أبو تمام وهو اتهام النساء فى النصح ليس مبتكراً ولا بعيدا ، فقد جاء فى الحديث « إنكن صواحبات يوسف » والنتيجة التى رتبها عليه كانت فى حاجة إلى حلقة مفقودة من الألفاظ تهدي إليها ، وهو لم يخلق جوا يجعل الذهن يمضى إليها دون التواء كأن يأتى بحوار بينه وبين المرأة كما فعل أبو نواس فى قوله :

تقول التى من بيتها خف مركبي عزيز علينا أن نراك تسير

إلى آخر الأبيات المعروفة ، من أجل هذا كان أبو تمام غامضاً فى هذا المعنى القريب التناول، ومن أجل هذا عابه الآمدى وقال له أبو العميثل «لم لا تقول مايفهم!»

ولعلنا بعد ما تقدم نكون قد وفقنا إلى تحديد الوضوح والغموض تحديداً يعيننا في حلقات البحث التالية إن شاء الله

عبد الباقى ابراهيم

مع الشعراء

نقـــــد الشعر

بقلم فايد العمروسى

المدرس بمدرسة المنيرة الابتدائية للبنين

يجرنا الكلام فى نقد الشعر ، إلى لمحة خاطفة فى طبيعة الشعراء .

فمنهم ذو الموهبة الخاصة ، وهو المنكوب الذى لا يبرأ أبداً ؛ ومنهم المقلد ، الذى يعيش مع الأحياء فى مستوى واحد ، وهو السعيد الذى لا يعرف الألم إلى نفسه سبيلاً ، والأول هو من يبرز لنا : « أدب الشخصية » أو أدب « الكيان الذاتى » ذاك لأن طبيعته موهوبة من الحسّ والحيوية والقوة الروحية ، مابه تمتزج بكل مظهر من مظاهر الحياة ، فتخرجه صورة صادقة من نفسه ، وأنموذجاً دقيقاً لشخصيته ، وفرق بين هـذا وبين الناظم الذى يحسّ مظاهر الحياة إحساساً فطرياً فيصورها كيفما وقع عليها نظره السريع ، دون أن يكون بينها وبين نفسه اتصال ، وهذا الشاعر — مع التساهل فى التسمية — هو الموجود فى معظم الحياة الأدبية الحاضرة ، وهو هو الذى يسعد بالغنيمة من الجزاء والتقدير ! !

* * *

إن صلة الشاعر بنفسه ، هى ميزان العظمة والنبوغ ، فكلما اشتدت الصلة بينهما ، طغت النفس عليه وحجبته بأجنحتها فلا يستطيع التخلص منها ، ولا يجد سبيلا إلى الفرار من تحت هذا الضغط العنيف ، فهو أبداً متلاش فيها ، ذائب في حوضها ، ومن هنا تظهر شخصيته فى إنتاجه رغم أنفه ، ويمتد ظلالها فى كل وادٍ يسلكه ، وكل جوّ يحوم فيه ؛ فهو في الرثاء والتهنئة والمدح والوصف والغزل وفي الفكر والتأمل ، وفى كل خاطرة توقظها فى نفسه صور الحياة ونوازعها — هو فى كل هـذا ذو طابع لا يتغير ، وفى موسيقية لها إيقاعها الخاص به ، وبين

ظلال من الألوان التى شبت تحت عرشها نفسه الفطرية الأولى !

ولعلّ هذه الخصائص هى ما ميزت شعر « لامرتين » شاعر الحب والجمال بطابعه الخالد ، وأضفت على ليالى « ألفريد دموسيه » أنغاماً تأملية حزينة احتوت نفسه وقلبَه ، وهى هى تلك الخصائص التى بها خَلُدَ « شِلِى » الشاعر الانجليزى ، فى مقطوعات حياته الغرامية الصاخبة ، وهى هى نفسها ما أبقت على شعر « كِيتْس وبيرون » الشاعرين الانجليزيين رغم قلة إنتاجهما وقصر عمريهما !

فقوة الشخصية — مهما كان نوعها — هي التى تخلد فن صاحبها ، وبقدر ظهورها أو تلاشيها يكون تقديره والاعتزاز به ... والشاعر من هذا النوع ممتاز بأمرين : بصدقه فيما يحس ، وبقدرته على تصوير هذا الحس بريشة كُنهِه الذاتىّ ، لا بريشة الطلاء والزخارف والألوان ، وهو بتلك القوة منبع صادق بالفيض والإلهام قبل أن يكون للبواعث الخارجية أثر فى الاثارة والاذكاء !

أما ذلكم الشاعر الذى ينظم فيجيد ، وينمق فيبدع ، ويوقع فيُنَغّم الإيقاع من غير روح أو حرارة أو صدق ، يمدح كل عظيم بصفات واحدة لا تتغير ، ويرثى كل راحل ببكاء واحد لا يختلف ، ويصف الليل بأنه ظلمة وهدوء ، أو قمر ونجوم لا غير ، وينظر إلى الصحراء فيحسبها رمالا واتساعاً فحسب ، ويرنو إلى البحر فيحسبه أمواجاً وشواطىء ، ويعنو إلى الروض فيخاله خضرة وأشجاراً مجردة من الأثر ، وعارية من التأمل والفكر الناضج ... أما ذلكم الشاعر فهو والناس سواء ، لم يخرج عن مألوفهم ، ولم يتجاوز دائرة أفكارهم ! ! إذا تغزل سبته ملامح الوجه ، ورشاقة الأعضاء ، ولطف التناسق ، وإذا تذكر سرد الحقائق مجردة كأحدوثة الأطفال وقصص المؤرخين ، وإذا حاول أن يفكر عَلِق فكره بالسطحىّ من الأمور ، وعجز عن أن يمد هذا الفكر بالتأمل العميق ... هذا الشاعر لم يحمل إلينا رسالة الشعر الخالدة ، التى تسجل لصاحبها فى تاريخ الفكر والانسانية لقب الانسان الممتاز

* * *

وحرام أن تبيح القوانين الشعرية لقب « الشاعر » لمن كانت هذه شاكلته ، فالفكر والصدق والشعور والقلب ، مواهب غالية لا بد من توفرها فى الانتاج الأدبى لينال فى الحياة تقديرها المعنوى من الاجلال ، وحيث يخلو الانتاج منها فما أجدره بالفناء ! ولا تختلف هـذه المواهب عمـا عناه الأستاذ « العقـاد » بـ « الشخصية » التى نفاها عن المرحوم « شوقى » فى جميع إنتاجـه الشعرى و عندى أن « شوقي » ليس هو وحده الذي فقد الشخصية ، فإن أغلب شعراء عصر الانتقال إلى عهد النهضة الحديثة من هذا النوع ، غير أن « شوقى » وإن فقد شخصيته لم يفقد فى شعره عبقرية « الفنان » المبدع ، فوق ما امتازت به ميوله من أنه الشاعر الشعبي الخالد !

على أننى أبيح « للناظم » الذى يتمشى مع الصنعة والاجادة ، ولا يستطيع مزجها بنفسه وطبعها بطابعه الخاص — أبيح له أن يحذق صنعته ويشبعها إجادة وإتقاناً ، ولـكن لا أستطيع أن أقول إنه « شاعر » بالمعنى الذى تحدده مهمة الشعر السامية ، أبيح له هـذا وأعذره كل العذر ، إذ لو كانت له نفسيه قوية لظهرت — وإن حجبها — ولو كان له روح لخفق فى كل خاطرة من خواطره ومَن مِنَ الشعراء الأقدمين — إلا قليلاً — خالف النمط الذى سار عليه شوقي ؟ كلهم من هذا النوع ، لأنهم عاشوا فى أجواء اجتماعية مختلفة ، تطلبت مرافقها أن تتلاشى شخصياتهم ، وتفنى أرواحهم ، فلم يحفلوا بالشعر إلا كصنعة كلامية ، أجودها ما جرّ الـكسب وقرّب من الملوك والأمراء ، وما أعتقد أن حياة « شوقى » كانت غير حياتهم فى شىء !

* * *

وبعد : فسيقول قائل : أين نقد الشعر من هذا الـكلام ؟ وأحب أن يعرف السائل أن نقد الشعر معناه فهمه ... وما احتوته هذه الـكلمة إنما هو فهم للشعر وتفهم لمختلف الطبائع التى تنتجـه ، ومحاولة لوزن أقدار تلك الطبائع على ضوء الشعر الذي نريده ، أو الذى يريده الفن الشعرى الـكامل ! وإليك صورة من نقد الشعر أو « فهمه »

يسمع هذا بيتاً من الشعر فيصيح على الفور « الله ! » ثم تسأله ماذا فهم من البيت ؟ فيجيبك لا أدري ؟ ... ويسمع ذاك بيتاً من الشعر فيطلب منك الإعادة فتعيد ! ثم يطلبها ثانياً فتعيد : ثم يصمت فى إطراقة من البلادة ليجيبك بعدها بتلك الكلمات « اللفظ ده إيه ؟ ودى مصدر أو اسم مصدر و ... و ... الخ »

ومعنى هذا ، أن السامع الأول ذو ملكة فنية تيقظت إلى الناحية الموسيقية فى البيت ، دون أن تترسم قواعد اللغة فيه ، فاهتز وطرب كمن تشجيه الألحان ، ويسبح فى خيال الأنغام وهو لا يدرى لأصولها معنى ، وأن الثانى ليست فيه تلك الملكة ، فهو مقفر من الحس الفنى ، وغير صالح لغذاء المعنى أو الروح ، وكلا الاحساسين ليس صالحاً وحده لسماع الشعر أو نقده ، لأن الأول موسبق بحت ، والثانى نحوى بحت ! وكلاهما مخطىء فى التقدير ، عابث فى الحكم إذا حكم ، غير أن الأول قريب من الصلاحية ، لأنه موهوب بأكبر عناصر الشعور وهو الموسيقية ، أما الثانى . فما أجدره بفهم « العرائض والبلاغات ! »

القصيدة الشعرية كطاقة من الأزهار المنسقة ، فاذا نثرت أزهارها واحدة واحدة هتكت حرمتها ، وشوهت روعتها ، وأهنت جلالها ، فلا تبعث فى النفس ما كانت تبعثه فيها من الفيض والنشوة والشعور بالجمال

والبيت الواحد من القصيدة كالزهرة العذراء ، تنظر إليها العين لتستشعر جمالها ، وتستشف عذوبتها ، فى صمتها المعبر ، وحيائها العفيف ، ثم ينتقل الحس بها إلى الفكر ، ليأخذ طريقه إلى التأمل والامعان ، فاذا ما عبثت بعذريتها ، وشرحت تلك الزهرة بأصابعك الأثيمة إلى جزئياتها ، ذلت كبرياؤها ، وأصبحت نظرية علمية ، لا معنى سحرياً جميلا !

إذن فالنظر الفنى إلى القصيدة ، يجب أن يكون نظراً كليًّا ، لا جزئياً لأنها كتلة واحدة تعبر عن معان نفسية ، مصدرها القلب ، وفيضها الشعور ، والقلب والشعور متحدان دائماً فى التعبير عن العاطفة ، نحو مؤثر واحد من المؤثرات ، فمن الخطأ أن نفرق بين الشعور الواحد فى قصيدة ما ... بأن نحللها بيتاً بيتاً ،

أو أن نهد كيانها بالنظر إلى ألفاظهـا التى أعدها رخيصة ، إذا قيست بالمعنى الرائع الذى تحمله القصيدة إلى الناس

ولست أقصد بهذا الـكلام أن نغض النظر نهائياً عن دقة التراكيب وسلامة التعبير وصحة الألفاظ . كلا : ولـكن أريد من الناقد أن يكون ذا موهبتين : موهبة الفن الشعري ، حتى يُحس جلاله وعذوبته ؛ وموهبة القوة اللغوية ، التي تستشعر النقص فى المرحلة الأخيرة من النقد ، دون أن يغض هـذا النقص — المقبول — من تقديره لفنية القصيدة ، أو يؤثر فى إحساسه نحوها

* * *

ومثل ناقد الشعر ، كمثل اثنين يستمعان إلى أنغام موسيقية تمثل قطعة فى معنى من المعانى ، أحدهما لا يستشعر من الموسيقى إلا رنين صوتها ، والثانى موهوب فـنى يستشعر كمالها أو نقصها . فلا شك أن الأول إذا تعرض للنقد كان جريمة كبرى على الفن ، وتهجماً شنيعاً على معنى لا يحسـه ولا يتذوقه ، وليس فى استعداده الفكرى مايهيئ له أسباب التأمل فيه . ولا شك أن الثانى أهل للملاحظة وجدير بالتعليق على ما يسمع من الأنغام ، من حيث قوتها أو ضعفها ، أو رقتها أو تجافيها ، فاذا لم يكن تعليقه من ناحية أصول الفن ، فلا أقل من أن يكون من ناحية الحسّ والوجدان ... وناقد الشعر واحد من هذين الاثنين وكفى !!

* * *

للموسيقى الذائع الصيت « بتهوفن » قطعة موسيقية اسمها « أمواج الدانوب » قطعة صامتـة تحس من خلالها رعشة المياه ، وخلجات الأمواج الصغيرة ، وقفزاتها فى المدّ وانحسارها فى الجزر ... أيحسّ معناها وجلالها سامع مقفر من الحسّ الفنىّ والشعور الانسانىّ الممتاز ؟ طبعاً لا . وما تلك القطعة إلا قصيدة فلنهيئ لها من يسمعها ، ليحسّـها ... لينقدَها .. !

* * *

قابلني مرة — فى الطريق العامة — واحد من كبار المثقفين فحياني قائلاً :

قرأت قصيدتك « وداع عهد » التى تقول فيها :

ذكرت العهد فانسابت برغمي دمعة حرّى
وأحبسها فتغلبنى فأسكبها دماً مُرًّا

ولى اعتراض على ما قلت . قلتُ : تفضل بابدائه . قال : كيف يكون الدم مُرًّا ؟ ففهمت فوراً عقلية مولانا ... وأردت التخلص من اعتراضه الوجيه ... بأسهل رد بديهى محسوس ! قلت : لقد ذقته بلسانى . فتعجّب !! وقال : أذقت الدم بلسانك ؟ قلت : وأسكنته جوفى ! فزاد تعجبه ! فأكدت له ذلك فاقتنع ! ثم قال : إذن هى حقيقة لا مجاز ؟ قلت : وأمّ الحقيقة !

وهذا مثل من نقاد الشعر ، تطوف بذهنه المعانى الحسية دائماً فيتصور فى : « وأسكبها دماً مرًّا » أننى سكبتها دماً أحمر قانياً وطعمه مرٌّ كالحنظل !

ومثل آخر من نقده أو فهمه :

قرأ أديب هذين البيتين لإسماعيل صبرى :

ولما التقينا قرب الشوق جهده شجيّين فاضا لوعة وعتابا
كأن صديقاً فى خلال صديقه تسرب أثناء العتاب وغابا

ففهم الأديب من البيت الثانى سوء نية الشاعر . وذلك من لفظ « خلال » ثم فهم من « تسرب وغابا » أن أحدهما ابتلع الثانى فى جوفه ، وهذا بعض ماقال :

« ثم كيف كان تسرب الصديق فى خلال صديقه ؟ هل حمله الآخر فى بطنه حتى تمر عليه تسعة أشهر فيلده ؟ وكيف تسرب بجملته من اخمص قدميه إلى ناصيته ؟ الحق أنه تسرب فاحش مبتذل ، ولو أنه تسرب قلبه إلى قلبه لكان ظريفاً مستملحاً ، يريد الناقد بهذا ، الإشارة إلى بيت المرحوم « الرافعى » :

وشدّ الهوى قلباً لقلب كأنما يريد الهوى إنفاذَ قلب إلى قلب

هذا أديب مؤلف فهم البيت كما سقته الآن ، فكيف يفهم الشعر غير الأدباء إذا كان المشتغلون بالأدب فى معالجة فهمه وتذوقه يفهمون معنى « تسرب وغابا » على أنهما يفيدان عملية الابتلاع بعد الأكل والمضغ ، أو يفيدان أن الحبيب مع

حبيبه حين اللقاء كالحوت مع فريسته حين الابتلاع ؟ !

وكيف يفهم الأديب قول شاعر الحب والجمال « لامارتين » :

وبنفسى فى ساعة الموت صمت يحتوينى كصمتة القبلات

بين قلبين فى عناق طويل دائم الصمت بالغ الخفقات

سيقول الأديب : كيف ينام الحبيبان فى القبلات ! وكيف يكون فى القلبين رعد وزلازل ؟

وأخيراً : قد يحسن التطويل فى هذا الموضوع ، واعلنى راجع إليه فى العدد الآتى ، متناولاً فى ذلك أيضاً دراسة الأدب فى مصر ، وإذا عشت ، فإنى فاعل ذلك إن شاء الله ؟

زايد العمروسى

بين الحقيقة والخيال

— ٣ —

صفحة من محاسن القرآن

للأستاذ عبد اللطيف المغربى

المفتش بوزارة المعارف

أظلنا شهر الصيام فبسط على النفوس المؤمنة سلطانه ، وضرب حولها نطاقاً من خشية الله وعظمته ، وغمرها بضروب من صادق اليقين ، وفتح لها أبواباً من المعرفة المشرقة ، وطالعها بالإنابة إلى الساحة المطهرة : ساحة العمل الصالح والزلفى لله ابتغاء ما عنده من ثواب مدخر ، ونعيم مقيم . وكان لا بدّ للناس بعد يوم طال بياضه وكثرت جهوده ، من ليل معاقب يطلقون فيه النفوس على صفائها ، ويأخذون فيه بالمتع المباحة ، ليجمّ النشاط على العبادة ، وتدوم القدرة على الطاعة

وفى ليلة من تلك الليالى الباسمة ، دفعني الشوق إلى دار من تلك الدور الشرقية القديمة ، التى يتجلى فيها جمال الشرق وكرمه : من أفنية فسيحة ، وغرف رفيعة ، تتجاوب فى جوانبها روائع الفن ، وتتسع فى محيطها الأرائك لعلية القوم وأشرافهم وعلمائهم وأدبائهم وتجارهم ؛ فيسمرون صدراً من الليل ، يقطفون من ثمر الحديث ألواناً ، وهم على أحسن ما يكون : طيب نفس ، ووفرة أنس ، ورقة شمائل ، وعذوبة منطق ، وبراعة مناظرة ، وحسن مساجلة ؛ وتلك صفحة من صفحات الاجتماع الشرقى تكاد المدنية تمحوها ، ويد التجديد تطمس معالمها وتعبث بها كما عبثت بكثير من عاداتنا فأحالتها إلى صور شوهاء لا شرقية ولا غربية . فعلى تلك العصور سلام الله ، وعلى تلك المجالس العلمية دمعة الأسى تنحدر إليها فى جوف الماضى

ولما أخذت مكانى من القوم فى بهرة المجلس ، سمعت صوت قارئ عذب كأنه

صوت البلبل إذا بسمت له الطبيعة ، ومشى إليه الربيع فى أجمل حلله الموشاة ، فجاء بأروع نغم ، وأرق إيقاع . وقد شاء صاحب الدار أن يفرد لقارئه مكاناً في أبهاء المنزل قريباً من المجلس ، فكان موفقاً فى اختياره ، حتى يدع لمن أراد الاستماع إلى قوله مناه ، ومن أراد لهو الحديث هواه .

وكان بين شيوخ المجلس شيخ وقور رائع الطلعة ، عظيم اللحية ، حسن السمت ، طويل الصمت ، حديد البصر ، يجيل فى الحاضرين طرفاً سريع التقلب ؛ وكان يأخذنى بصره حيناً بعد حين فى كثير من الحذر والترفق ، فحدثتنى نفسى أنى رأيت هذا الوجه من قبل . وانتفض المجلس انتفاضة انصرف على أثرها نصف أهله ، فخلا بجوارى مكان أسرع إليه ذلك الشيخ المهيب وألقى تحيته إلىّ ، فعرفت فى نبرات صوته وحسن جرسه ووفرة أدبه وجميل خلقه ، دلائل فضل ونبل تمت إلى النفس بسالف ألفة ، وسابق معرفة ، ولكنى لم أستطع أن آخذ برأي قاطع فى أمر صاحبي حتى ترامى إلينا صوت القارئ وهو يقول « الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدو نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار » فأخذت صاحبى رعدة شديدة لجلال هذا القول ، وسمعته يردد : ما أظلم الإنسان لنفسه ولغيره . وما أعدلنا معشر الطيور ! فقلت له وما أنت والطير ؟ فبدت على محياه ابتسامة رقيقة تنم على معنى خفي فى نفسه ، وتطوى وراءها سراً يعتلج فى صدره ؛ ثم قال أليس من المظلمة أن نلتقى غير مرة ونأخذ بأطراف الأحاديث ، حتى إذا ضربت الأيام بينى وبينك بقليل ليلها ونهارها أظلك النسيان ، وأنا لا أزال على عهد المودة مقيما ؟ فنال هذا القول من نفسى كل منال ، وحدجته بنظرة فاحصة فإذا هو صديقى «العصفور» فأقبلت عليه أصافحه وأعتذر إليه وأمنحه ودى وعطفى حتى رضى عنى ، وما كان ذلك منى إلا اشتغال بال ، والتواء حال . ثم خضنا فى الأحاديث :

العصفور — لقد ملك على إعجابى وقيد سمعى هذا القرآن الكريم الذى رفع

للبلاغة أعلى منار ، وصور البيان فى أجمل صورة ، وشأى العرب اللسن المقاول بأسلوبه الفرد الممتاز الذى لا يشبهه أسلوب إنسانى ، وتحداهم أن يعارضوه فوقفوا أمامه عاجزين ، وألقوا إليه قياد التسليم ، وظل معجزة الدنيا تتهاوى الأيام فى ظلاله ، وتتعاقب على أنواره ، وهو لا يزداد إلا رفعة وروعة ، وجدة وبهجة ، فتبارك الله رب العالمين

أنا — لله درك يا أديب الطير ، طالما سرنى ذوقك وأعجبنى حسن تقديرك للأمور ، ووزنها بمعيار العدل والحكمة ، وتلك طبيعة فيكم يا معشر الطير ، لقد نزهكم الله عن العوامل النفسية : من بغض وحسد وتنافس ، فأصبحتم تنظرون إلى الأمور بعين البصيرة الصافية لا يحول بينكم وبينها شائبة من شوائب الهوى ، فجاءت أحكامكم صادقة ، ومقاييسكم صحيحة محكمة

العصفور — هل افترى أحد من الناس الذين سمعوا القرآن وغلب عليه هواه فتلقاه بغير ما تلقيته به من التقدير وعظيم الإعجاب ؟

أنا — لقد كان من دلائل عظمة القرآن أن يكثر حساده من العرب وغيرهم ، فقال قوم من العرب إنه سحر ، ومنهم من قال إن محمداً الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم قد افتراه ؛ وأتى بعد هؤلاء من يزعمون أن أسلوبه غير معجز وقد كان فى مقدرة العرب أن يعارضوه ، ولكن الله صرفهم عن ذلك فلم يفعلوا . أما سمعت بعد هذا سخفاً ؟ وهكذا يتوالى العداء للقرآن على مر العصور لحاجة فى النفس

العصفور — حقاً إن ما تقوله لمعن فى الغرابة ، متناه إلى أبعد حدود الدهشة ؛ إنى لأفهم أن العرب الذين وصفوا القرآن بأنه سحر موتورون ، وقد قالوها كلمة يرفهون بها عن أنفسهم ويلتمسون لها المعذرة من القصور عن محاكاة القرآن . أما أولئك الذين قالوا إنه مفترى ، والذين قالوا إن أسلوبه غير معجز ، فما عذرهم فى ذلك ؟ إنى لا أجد أبلغ فى تقريع هؤلاء المأفونين من أن أدعوهم إلى شيء واحد إن كانوا من أرباب البيان وأهل البصر بالبلاغة وفنون القول : أيرون فيما بينهم وبين أنفسهم أن أسلوب القرآن كأسلوب رسول الله صلى الله عليه

وسلم فى أحاديثه ورسائله ؟ إن من أراد أن يتعرف وجوه الشبه بين كلامين ، عرضهما على الناحية الفنية من وجوه البلاغة ورائع الخيال وحسن التصوير وقوة الصوغ وغزارة المعاني ، وبغير هذه الناحية لا تصح لقائل دعوى ، ولا يستقيم له منطق ، ويقع فى العذر البغيض . إنى أشهد الله أنهم يشعرون إن كانوا من رجال البيان وأهل الفن بعظم الفرق بين كلام الله جل شأنه ، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما يشعرون بعظيم الفرق بين كلام الرسول وكلام غيره من الفصحاء ، وهم لا ينكرون فى أنفسهم أن القرآن تفيض عليه إشراقة نور إلهية ، وأن الحديث تغمره مسحة بشرية نبوية ، ولكنهم مصابون بآفة الهوى . وأزيد الذين قالوا بالإعجاز بالصرفة بياناً وتقريعاً : هل رأوا فيما قرءوا من بيان عربى أسلوباً جديراً بأن يقرن إلى أسلوب القرآن فى عظمته وروعته وتجويده وابتكاره ؟ إنهم بلا ريب لن يجدوا شبيهاً لهذا الأسلوب ، ولو وجدوه لتقدموا به إلى الناس وعقدوا به الموازنة بين الكلامين ، فأقاموا حجتهم ، وأصابوا بغيتهم . وما كان لهم أن يظفروا بهذا ، ولا سبيل إلى تحقيق مرادهم بغير هذا إن كانوا جادين فيما يقولون ، ولكنهم صرعوا وحادوا عن طريق الحق ، لعجزهم عن إيراد الكلام البليغ الذى يشبه القرآن ، فأرسلوها قضية تنطق بضعفها وصغارها ، وتشهد لهم على مرّ الزمان بما انطوت عليه نفوسهم المريضة من البغض المردى والحسد المهلك . ألا ساء مايحكمون

أنا — إذن ماذا ترى فى قول بعض الباحثين فى الأدب : من أن العرب فى الجاهلية كان لهم نثر فنى ؛ وأن شواهد ذلك النثر ليست صحيحة لأنها فى جملتها من صنع الرواة ، وأن القرآن شاهد من شواهد النثر الجاهلى يصح الاعتماد عليه ، وأن العرب ما فهموا القرآن إلا لأنه يشابه ما كان عندهم من النثر ، وهم لا يخاطبون بغير مايفهمون

العصفور — ليس لهذا المنطق دلالة ولا استقامة ، وإنما هو كلام ذكر فيه شىء وأغفل شىء آخر ، وقضيته سيق بعض مقدماتها وأغفل البعض الآخر ، فجاء الاستنباط غريباً صارخاً ناطقاً بتخاذله وضعفه . ألا ترى أن القائل حين

قدر القرآن صورة للنثر الفنى الجاهلى ، كان ينبغي له براً بالحق والفن، ونزولا على دواعى المنطق المستقيم أن يعرض صوراً من هذا النثر الفني الجاهلى ثم يوازن بينها وبين القرآن فى أساليبها وألفاظها وحسن صوغها وسامى معانيها ورائع خيالها ، فإذا استقامت له الموازنة صحت قضيته ، ورفعها البحث العلمى إلى مصاف الآراء الجديرة بالتقدير .

ولكنه حين علم أن هذه الموازنة لايمكن أن تتم لجأ إلى أن النثر الجاهلى الذى يرويه الناس مصنوع فى جملته ، وبذلك يكون النثر الفنى الجاهلى الصحيح مفقوداً فلا يطالب بالموازنة بينه وبين القرآن، وله بعد ذلك أن يرسل قضيته كما يريد ؛ وهذا من أغرب ما يكون ؛ فكيف يصح فى العقل صحة حكم بلا دليل ؟ وإن البحث العلمى الحديث ليوحى بالوقوف بالقضايا العلمية التى لم تنهض الأدلة على إثباتها ، دون أظهارها للناس ولو كان صاحبها معتقداً بلا ريب صحتها ، حتى تقوم الأدلة على صدقها . وليس يصح فى شرعة العقل والمنطق أن يكون النثر الجاهلى قد فقد دفعة ، بل لابد أن تفلت منه قطعة أو أكثر من مطاردة الأيام ، وإذن يكون فى مجموع النثر الجاهلى المصنوع بعض نثر جاهلى صحيح ، فهل رأى أحد من الذين قرءوا هذا النثر (الصحيح والمزيف) فى بطون الكتب ما يشبه القرآن فى بلاغته وقوة صوغه وروعة أساليبه ؟ إن أحداً من الناس لن يجد هذا النثر ، وقد عجز عن العثور عليه طالبوه منذ قرون خلت ، وإذن فلا دليل على هذه القضية ، وستظل كذلك ضعيفة

وأشد ما يلقانى بالدهشة قول هذا الباحث الأديب « فلا مفر إذن من الاعتراف بأن القرآن يعطى صورة صحيحة من النثر الفني لعهد الجاهلية ، لأنه نزل لهداية أولئك الجاهلين ، وهم لا يخاطبون بغير ما يفهمون »

ومغزى هذا أن العرب ما فهموا القرآن إلا لأنه صورة صحيحة لما عندهم من النثر وإلا مافهموه ، وعلى هذا فكل من فهم كلاماً وجب أن يكون ذلك الكلام صورة مشابهة لكلامه وإلا ما فهمه ، وهذا قول ضعيف مردود لا يقبله العقل والمشاهدة والتجربة ، فأنا أفهم شعر شوقي وحافظ ، فهل يجب أن يكون شعرى كشعرهما ؟ ويطربنى نثر المنفلوطى الكاتب الرقيق ، وأتنقل به فى رياض أنيقة ،

ولا أستطيع أن أحاكيه أو أرِد أقرب موارده ، وأسمع القطعة الموسيقية العذبة فأسبح فى عالم الخيال ، وتبلغ بى أسمى منازل السرور ، ولا أقدر على صوغ لحن من ألحانها ، وأرى الصورة الزيتية وضاءة مشرقة تنطق بأرق محاسن الفن ومباهجه ، فتهتز لها جوانب النفس طرباً ، ولا أوفق لمد خط من خطوطها ، فهل ترى كيف برزت هذه القضية تتهالك اعياء ، وتنبو عن مذاهب العقل والمنطق والبحث الحديث !

ولقد وفق العرب أيها الصديق إلى فهم القرآن عن طريق فطرتهم الصافية وسليقتهم العربية ، أكثر مما فهموه عن طريق أدمغة فحسب ، وإلا لكان لكل أعجمى برع في لغتهم أن يفهم القرآن كما فهموه ، وليس ذلك صحيحاً ، فنحن قد تحررنا من سلالات عربية تنقلت بها الأيام ، وأتقنا لغة العرب فقها وصناعة ، ولا نزال مع هذين الأمرين نلاقى صعوبة فى فهم أسرار القرآن ، ونبذل جهداً فى تذوق محاسن إعجازه ، ولو كانت اللغة وحدها كافية فى فهم أسرار القرآن لكنا نفهمه فهماً تاماً لأول وهلة من سماعه ، كما كان يفهمه العرب المطبوعون ؛ وليس الأمر كذلك كما ذكرت لك .

فالعرب لهم من هدى اللغة إلى فهم القرآن هدى الفطرة العربية الموروثة عن جمال الصحراء ، وخفة الروح ، وصفاء النفس ، وحرية النشأة . ألم تر إلى ما يروى من أن بدوياً سمع قارئاً يقرأ قول الله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله » ثم أخطأ فقال : « والله غفور رحيم » ففزع الأعرابى لذلك وقاطع القارئ منكراً عليه هذا الاضطراب وهو لا يحفظ القرآن ففطن القارئ وقال : « والله عزيز حكيم » .

فأشرقت أسارير البدوى وفاضت نفسه سروراً وقال : هذا ماينبغى أن يكون .

هذا مقام ياصديق ليس الحكم فيه للغة هنا ؛ إنها كانت تقبل مثل القول الأول مادام جارياً على قانون الكلام وأصول القول ؛ وإنما مرجع الأمر كله هنا إلى الذوق والفطنة ، وهما الدعامتان اللتان اعتمد عليهما العرب فى فهم القرآن بعد دعامة اللغة .

فالعرب المطبوعون هم أقدر الناس فهماً للقرآن بفطرتهم ، ويليهم الذين تعلموا العربية صناعة فأجادوها . والذين لسانهم غير العربية لا نصيب لهم من فهم أسرار القرآن وإعجازه . وقد عرض الامام الباقلانى لهذا الموضوع بكلام لا بأس بإيراده قال : « قد بينا أنه لا يتهيأ لمن كان لسانه غير العربية من العجم والترك وغيرهم أن يعرفوا إعجاز القرآن ، إلا أن يعلموا أن العرب قد عجزوا عن ذلك ، فاذا عرفوا هذا بأن علموا أنهم قد تحدوا على أن يأتوا بمثله وقُرِّعوا على ترك الاتيان بمثله ولم يأتوا به تبينوا أنهم عاجزون عنه ، وإذا عجز أهل ذلك اللسان ، فهم عنه أعجز ، وكذلك نقول : إن من كان من أهل اللسان العربى إلا أنه ليس يبلغ فى الفصاحة الحد الذى يتناهى إلى معرفة أساليب الكلام ووجوه تصرف اللغة وما يعدونه فصيحاً بليغاً بارعاً من غيره ، فهو كالأعجمى فى أنه لا يمكنه أن يعرف إعجاز القرآن إلا بمثل ما بينا أن يعرف به الفارسي الذى بدأنا بذكره ، وهو ومن ليس من أهل اللسان سواء »

وهنا نقف وقفة ننقد فيها قول الامام الباقلانى فنوافقه على رأيه فى أن من كان لسانه غير العربية من العجم والترك وغيرهم ، لا يعرفون إعجاز القرآن إلا بالتوقيف والسماع، لفقد الوسيلتين إلى ذلك وهما اللغة وذوقها ، ونعارضه فى قوله : « إن من كان من أهل اللسان العربى ولم يبلغ فى الفصاحة الحد الذى يتناهى إلى معرفة أساليب الكلام ... فهو كالأعجمى فى أنه لا يمكنه أن يعرف إعجاز القرآن » فان هذا غير الحق . والواقع أنه يصيب من العلم بإعجاز القرآن نصيباً يلائم مقدار ثقافته ومنزلته من العربية ، وهو بلا ريب أنفذ بصراً فى هذا الأفق من الأعجمى المحض . وإنى لضارب لك مثلاً قريباً : هأنذا رجل ثقفت العربية ولا أظن أنى بلغت الحد الذى يتناهى إلى معرفة أساليب الكلام كما يرى الامام ، ومع ذلك أشعر من نفسى بمقدرة على فهم كثير من أساليب القرآن ، وأتذوق صوراً ليست بالقليلة من محاسن إعجازه ، وكيف يعقل أن يسوى أعجمى لسانه غير العربية بمن كان من أهل اللسان العربى ولم يبلغ الحد الذى يتناهى إلى معرفة أساليب الكلام ؟

ثم استطرد الامام الباقلانى فقال : « فأما من كان قد تناهى فى معرفة اللسان ووقف على طرقه ومذاهبه ، فهو يعرف القدر الذى ينتهى إليه وسع المتكلم من الفصاحة ، ويعرف ما يخرج من الوسع ويتجاوز حدود المقدرة ، فليس يخفى عليه إعجاز القرآن ، كما يميز بين جنس الخطب والرسائل والشعر ، وكما يميز بين الشعر الجيد والردىء والفصيح والبديع والنادر والبارع والغريب » وإنى لموافقه على قوله هذا محتفظ برأيى فى أن من يعرف العربية صناعة كهذا الذى وصفه الامام لا يحسن أن يفهم إعجاز القرآن فهماً عميقاً صحيحاً كالعرب المطبوعين على اللغة وذوقها من الرعيل الأول ، فإن اللغة قداستحالت وصارت صناعة تكتسب ، وقد ترامت إلى ذوقها العام شكول مختلفة من النافع والضار ، بالفتح والاختلاط وامتزاج الأجناس ، ومحال أن يتكافأ ذوقان : فطرى أصيل ، ومكتسب دخيل .

أنا — لله أنت يا أديب الطير : كم من يد لك تسديها إلى العلم ، وجولة صادقة فى ميدانه تتكشف عن جلاء وحقائق وصدق بحث .

ولمّا قرّ بيانه وهدأت شقشقته ساد السكون وطال الصمت بعد هذا الإجهاد الذى لحق صديق العصفور ، وتجلى صوت القارئ فى أروع مظاهرة وحلاوة إيقاعه ، فنظرت العصفور مطرقاً برأسه ممعناً فى التفكير ، تنم أسارير وجهه ومايتضح على مقاطعه من تأثر وإشراق ؛ على أنه يعانى أمراً جديراً بالنظر والتقدير ، حين كان القارئ البارع يتلو قول الله عز وجلّ : « إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيرا » فأومأ إيماءة مفاجئة خفق لها قلبى ، واعتدل فى مجلسه وطوقنى بنظرة طويلة تبدو من خلال صفائها دخيلة نفسه ، وكذا الطيور لا تعرف كتماناً وليس لها سر مستور كالإنسان ، ولا تحمل ضغناً ولا هماً وإنما تنظر إلى الحياة من جانبها السار الفياض بأنواع الجمال والغبطة ، فلا تراها إلا متنقلة صائحة بأناشيد البهجة والحبور ؛ وإذا صاحبى يقول : أسمعت ما ختمت به هذه الآية من ختام بعد غاية فى الانسجام والملاءمة لمعناها ؟ وهو « إنه كان بعباده خبيراً بصيرا » بعد أن ذكر أنه يعلم أحوال عباده وأنه يجرى أرزاقه عليهم وفقاً لما تقتضيه مصالحهم وأحوالهم فيبسطه لمن يشاء ويقدره لمن يشاء على كثرة عددهم

لا تخفى عليه فى هذا السبيل منهم خافية ، ثم بيّن أن أحوالهم ومصالحهم معلومة له فى السر والعلن وهذا منتهى الإحاطة والشمول بالختام بكلمة «خبير» الملاءمة للسر ، وكلمة « بصير » المناسبة للجهر ، وهذا غاية البلاغة

أنا — كأنك تقصد أن فواصل القرآن ملائمة تمام الملاءمة لما يقدم قبلها من معانى الآيات

العصفور — هذا الذى أقصده ، ولست أعلم أنكم يا معشر الأنس تسمونها فواصل ، ولقد نبهنى هذا القارىء الكريم بقراءة هذه الآية إلى هذا المعنى الذى لم أفطن إليه من قبل . فله جزيل الشكر

أنا — هذا طراز جديد من البحث رائع معجب ، فهل لك أن تزيدنى فى هذا السبيل بياناً فقد شوقتنى إليه

العصفور — إن الأمثلة تتداعى فى ذهنى وتتكاثر علىّ وإنى لذاكر بعض مايجول فى صدرى ، استمع إلى قول الله تعالى : « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس ، والله سميع عليم » لما كان الحلف يتعلق بقول ونية ختمت الآية بكلمة « سميع » الملاءمة للقول ، وكلمة « عليم » الموافقة للنية . ثم استمع إلى الآية بعدها « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم » إنك لترى هذه الآية قد اشتملت على نوعين من اليمين : اللغو وهو مالا عقد معه كالذى يسبق به اللسان أو ينطق به صاحبه جاهلاً معناه ، ويمين الجد الذى صاحبته النية وبه تكون المؤاخذة ، وقد ختمت الآية بكلمة « غفور » الملاءمة للأول غير المقصود ، وكلمة « حليم » الملاءمة للثانى ، فالمراد أن الله حليم لا يعجل بمؤاخذة صاحب هذه اليمين ليبقى طريق التوبة مفتوحاً أمامه . وهذا من أعجب ما ترى من أساليب القرآن التي تفيض بهذه الفواصل الرائعة البالغة أعلى ذروة من السمو البلاغى

وإنى لما رأيته من طربك إلى معرفة أسرار الفواصل أزيدك شيئاً آخر . قال تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نِعِمَّا يعظكم به ، إن الله كان سميعاً بصيراً » فتأدية

الأمانات إلى أهلها ، والحكم بين الناس بالإنصاف ، عمل يتضمن أقوالاً وأفعالاً ، فتمَّت الآية بكلمة « سميع » الموافقة للأقوال ، وكلمة « بصير » المناسبة للأفعال . ولو ذهبت بك أستقصى أسرار الفواصل لطال بى الطريق وعظمت علىَّ الشقة ، ولكنى أكتفى بما سردت لك وفيه الكفاية ، لتذوق ما تريد من أسرار الفواصل بالقياس إليه

أنا — أشكر لك هذه المنة التى أسديتها إلى العلم والأدب . وكان الوقت قد حان للانصراف فقمنا ذاهبين ، حتى إذا كنا فى منتصف الحديقة بين الأشجار مال صاحبى إلى ظل شجرة قد تجمع على يمين السارى لكثرة الأضواء الواقعة عليها من اليسار ، فما شعرت إلا بصوته العذب يحيينى وبخفق أجنحته فى الهواء ، وانطلق فى سواد الليل يشق طريقه إلى عشه ، وأنا مقيد النظر إلى هذه الجهة ، معجب بهذا الصديق العظيم الذى سرتنى بصحبته الأيام

عبد اللطيف المغربى

على هامش البطولة والوفاء

رجلس

بقلم عبد العزيز عتيق
المدرس بمدرسة عباس الابتدائية للبنات

١ — قصة من قصص الحروب القديمة التى كانت بين رومة وقرطاجنة
٢ — رجلس: قائد رومانى كبير، أخذه القرطاجنيون أسيراً فى إحدى حروبهم
٣ — تبدأ القصة بزيارة بعض القواد القرطاجنيين لرجلس فى سجنه
٤ — لقد كانت غايتهم من هذه الزيارة، أن يحملوا رجلس على أن يمهد السبيل للصلح بينهم وبين رومة

— ١ —

رجلس : لقد أخبرت من حراس هذا السجن أنكم تريدون التحدث معى أيها السادة .

قرطاجنى : نعم ، بذلك بعثناهم إليك . ولقد أتينا الآن لنعلمك أن الحرب الحالية يجب أن تقف عند هذا الحد . إن هناك خسائر فادحة من الأرواح أصابت كلا الفريقين ، ولذلك فكرنا حتى انتهينا إلى ما يصح أن نصالحكم عليه ! وقد أتينا الآن لترجع إلى رومة ، فتعرض على قومك أقصى ما يستطيع القرطاجنيون أن يقبلوه أساساً للصلح ، وردّ جيوشهم عنكم !

رجلس : لست أدرى لماذا تتجشمون كل هذا السير ؟ أللصلح جئتم أيها السادة المنتصرون ؟ وكيف أقدر أن أساعدكم ؟ ألست الآن أسيراً لديكم ؟

قرطاجنى : نحن موقنون أن الرومان لا يعرفون شيئاً عما أصاب جيوشهم

هنا فى إفريقية ، ولا عن الحال المعنوبة التى صار إليها الجنـد بعد هذه الهزيمة . وفى اعتقادنا أنهم متى عرفوا أنك قد خسرت الموقعة فإنهم سيرحبون بفرصة الصلح معنا !

رجلس : أيها السادة : أعتقد أن رومة ستكسب هذه الحرب ، كما أعرف أن شعبنا هيهات أن يُسَلم ، أو يُسرِّح جيوشه ، حتى يدخل من باب قرطاجنة ، ويقرّ فيها ! وإذاً فعلام وكيف الصلح معكم ؟ ؟

قرطاجنى : يجب أن تظل مستيقناً يارجلس أن رجال رومة المسئولين ، لن يُقرّوك على هذا الوهم متى فهموا أنك الآن أسيرنا ، وأن البقية الباقية من جيشك فى أيدينا ، وأن قرطاجنة صارت أمنع من عقاب الجو أمام هجمات قواتهم التى هى الآن فى حوزتنا وتحت رحمتنا !

رجلس : إن ما قلته — أيها السيد — حق ، غير أن الرجال الذين هم أعظم منى فى بلادى على أهبة الاستعداد للتضحية بأرواحهم ، وبذل حياتهم رخيصة فى سبيل رومة ! على أن من أكبر أمنياتى ألاّ تستغرق هذه الحال العصيبة الراهنة أطول من ذلك الوقت ! ولـكن ماذا أعمل ؟ وأى شىء تريدونه منى يا رجال قرطاجنة ؟

قرطاجنى : نريد أن نرد عليك حريتك ، وأن ندعك ترجع إلى رومة بشرطين تتعهد على الوفاء بهما ، وإلا كان من المتعذر أن نجعلك تمضى !

رجلس : إذاً دعونى أعرف ما هذان الشرطان ، لأقرر أيكون الوفاء بهما فى مقدورى وطاقتى أم لا ؟

القرطاجنى السابق يجب أن تعاهدنا على أنك حينما تصل إلى رومة . تقرر فى الحال لمواطنيك مقدار خسائركم فى الموقعة التى أُسرتَ فيها ، كما تقرر فى كثير من التفصيل كم من الجنود قتلوا ، وكم أُسروا . إنهم حينما يسمعون كل ذلك منك ، لن يشكوا فيه ، وحينئذ لا يعجزهم أن

يفهموا أن رومة قد خسرت الحرب ، فيميلوا إلى السلام والمهادنة والصلح !

رجلس : إنى أستطيع أيها الرجال أن أعد بذلك . ولكن ماذا يكون الحال إذا أبَوْا الصلح ، وثاروا عليه ؟

القرطاجني : إذا أبوا الصلح كان من الواجب أن ترجع إلى قرطاجنة ، حيث هذا السجن الذى أنت فيه الآن . وذلك هو الشرط الثانى !

رجلس : أعاهدكم على هذين : سوف أقرر لهم خسائر الموقعة ؛ ولن أعجز عن ذكر العدد الحقيق لمن قتلو أو أسروا . وكقائد رومانى يفي بكلمته ، أعد بأن أعود إليكم إذا أبى رجال رومة الصلح والنظر فى شروطه !

قرطاجني : إذا لقد اتفقنا ، وفى الغد سنعرض على حكومة قرطاجنة ، ما انتهى إليه حديثنا ، ثم نلتمس لك الأمر ، لتعطى حرية العودة على ظهر أول سفينة تقلع إلى رومة !

رجلس : أشكركم أيها السادة ، وسعدتم مساء

القرطاجنيون: سعدت مساء يا رجلس

— ٢ —

« رجلس جالساً فى منزله مع عدد من قواد الجيش الرومانى ، ورجال الحكومة »

رجلس : مرحباً بكم أيها الأصدقاء فى منزلى

سِنسنَّاتس : إنه لسرور عظيم يا رجلس أن تكون ثانياً فى رومة ! وليس أسعد لرومة من أن تتاح لها الفرصة التى ترى فيها قوادها ! وإن مما تحتاج له أفئدتنا أن حرب القرطاجنيين قد احتفظت بكثير من خيرة رجالنا فى أفريقية ! ولقد سمعنا أنك عائد إلينا بأخبار جديدة من أعدائنا ! !

رجلس : إن ما سمعتموه أيها السادة حق ، فقد عدت لأقرر لكم أن الحرب فى إفريقية مائلة ضدنا الآن ، وأننا قد خسرنا المعركة الماضية التى اشتركت فيها

هوراشيوس: خسرناها يا رجلس ؟ ؟

رجلس : نعم ، فى هذه الموقعة كان كل جنودى بين أُسارى وقتلى ...! حتى لقد أُخِذتُ أنا نفسى أسيرا

هوراشيوس: وأنت يا رجلس ؟

رجلس : نعم !

هوراشيوس: وكيف نجوت إذاً ؟

رجلس : لقد أطلقنى القرطاجنيون لأصارحكم بحال الحرب الحقيقية ، ولأعرض عليكم أنكم إذا رجوتم الصلح ، فإنهم يستطيعون أن يُملوا عليكم الشروط التى يريدونها ! !

سنسناتس : صلح ؟ ! أأنت يا رجلس ، يا أيها الجندى تأتى إلينا لتتكلم عن الصلح مع العدو ؟

رجلس : نعم ، بهذا أرسلنى وعاهدنى ، وها أنا قد وفيت بوعدى !

سنسناتس : ولكن ما رأيك أنت كروماني يغار على كرامة وطنه ، وكقائد يعرف حقيقة الحال هناك فى إفريقية ؟

رجلس : وهل تأخذون بمشورتى إن أنا أشرت أو تكلمت ؟

الحاضرون : لتتكلم يا رجلس ! لتتكلم طويلاً كما تحب ! إنه ليهمنا أن نسمع كل مافى نفسك !!

رجلس : إننى كقائد رومانى أنصح إلى أبناء وطنى أن يرفضوا هذا الصلح بقوة ، وألا ينظروا فى شروطه ! حقاً إننا قد خسرنا فى عدة مواقع وأن قواتنا فى إفريقية لا تقدر الآن على أخذ قرطاجنة ، ولكن

عقيدتى الراسخة أننا فى مدى قصير سننتصر ثانية . إن القرطاچنيين خسائرهم فادحة ، وإن تعبهم وسأمهم من الحرب يغلبان عليهم ، ولذلك فهم يعرضون الصلح علينا توجساً من المستقبل !

سنسناتس : هذه أخبار سارة يا رجلس ! وإذا كنت أنت الشخص الوحيد الذى نستطيع أن نثق فى أقواله عن النتيجة وحال جنودنا المعنوية فهل تشير علينا بمواصلة الحرب ؟

رجلس : نعم ، بكل وسيلة افعلوا ، إنكم إذا واصلتم الحرب بعض الوقت ، فإن قرطاچنة ستصير في قبضة أيدينا !

سنسناتس : إننى عن نفسى ، وعن كل رومانى حكومة وشعباً ، أريد أن أعبر عن الشكر العظيم لما قلت ! لقد جعلت بهذا التوجيه الجديد واجبنا نحو إنقاذ سمعتنا الحربية ماثلاً أمامنا

— ٣ —

« بعض الرومانيين يدخلون على رجلس ،
وهو يتكلم مع أسرته »

سنسناتس : لقد أتينا نتحدث إليك عن القواد ورجال الحكومة فى رومة — إن رغبتهم شديدة فى أن تُلقَى إليك قيادة أحد الجيوش الجديدة . الجيوش التى قد أعددناها وهيأناها للمسير إلى إفريقية

رجلس : أهذه رغبتهم ؟

سنستاتس : أجل ، فهم يعتقدون أن خبرتك الطويلة ، وفهمك التام لحالة الحرب فى إفريقية ، وما تستدعيه من خطط واستحكامات يجعلك الرجل الأول الذى يناط به هذا الواجب !

رجلس : لا تأسف إذا قلت لك : إن هذا مستحيل تماماً !

سنسناتس : مستحيل ؟ لماذا ؟

رجلس : لأنه يتحتم علىّ أن أرجع غدا

سنسناتس : إلى أين ؟

رجلس : إلى قرطاجنة !

زوجته : (متعلقة به) ترجع إلى قرطاجنة ! محال ! لن أستطيع السماح لك بفراقنا مرة أخرى ! لتبق هنا بين أطفالك تنظر إليهم وترعاهم ! إنى أتوسل إليك أن تشفق على وعليهم قبل أن تعزم !

سنسناتس : ترجع إلى قرطاجنة ؟ إنه لغباء ! أتدرى ما ذا سيحدث لك حينما تعود إليهم فتذكر أن حكومتنا قد رفضت أن تنظر فى الصلح ؟

رجلس : كنت أعرف جيداً أن قومنا لن يرضوا بصلح لا تكون فيه قرطاجنة جزءاً من إمبراطوريتهم ، غير أنى قد وعدت بالعودة فى الحال إلى قرطاجنة ، عند رفض الصلح

زوجته : إن معنى ذلك هو موتك المحقق !!

رجلس : إننى أعلم هذا المصير تماماً منذ أن تركت قرطاجنة ؛ ولكنى أردت أن أودع أطفالى ، وأن أجعل زوجتى تعرف أنى أريدها شجاعة كما يجب أن تكون المرأة الرومانية ، كما أردت أن أستحث رومة على مواصلة القتال ، فاعتقادى الجازم أنه لن تمضى بضعة أشهر حتى يرفرف العلم الرومانى على ربوع قرطاجنة !

سنسناتس : يالك من شجاع يارجلس ! إن اسمك لن يُنسى من قلوب الرومانيين !

رجلس : كل ما أبغيه أن تُعنى رومة بزوجتى وأطفالى كي لا يحتاجوا أبداً إلى المال أو الأصدقاء ! والآن وداعاً يا أبناء وطني ! وداعاً فالصباح قد أوشك وما زال لدى الكثير مما أريد أن أقوله لزوجتي وأطفالى قبل الرحيل !

الرومانيون : عم مساء يارجلس ! إن كل ماتفوهت به الآن سنعلنه فى الصباح إلى أبناء رومة جميعاً ! أجل سنذيعه عليهم ليعلّقه كلُّ رومانى داخل

إطار فى أطواء نفسه ، وأعماق فؤاده . فما كانت الامبراطورية ، إلا صنعَ رجال من طرازك ، ووليدةَ كلمات مُشربة بالقوة والثقة والإيمان ككلماتك !

— ٤ —

(رجلس يعود إلى قرطاجنة)

القرطاجنيون : ماذا وراءك يا رجلس ؟

رجلس : لقد وفيت بوعدى وعدت لكم

قرطاجني : ألم يقبلوا الصلح ؟

رجلس : نعم ، لقد رفضوه وثاروا عليه .

قرطاجنى : ألم تذكر لهم حقيقة الحال هنا ؟

رجلس : بلى . ذكرت ، ولكنهم رومانيون يغنون دائما للموت !

قرطاجنى : إننا نريد أن نعرف ماذا كانت إجابتهم على مطالبنا .

رجلس : إجابتهم ؟ إجابتهم جيوش مستأسدة ، إن لم تصلكم غدا فبعد غد !

قرطاجنى : الجيوش التى عبأتها أنت ، ثم أتيت فى طليعتها هادئاً ! !

قرطاجنى آخر : إن هذا الرجل الدموى خطر علينا فى الحرب والسلم فاقتلوه !

قرطاجنى ثالث : لا تقتلوه فقط ، بل مثلوا به تمثيلا وحشياً فظيعاً !

قرطاجنى ثائر : بل تمثيلا يزلزل كيان كل رومانى على وجه هذه الأرض !

القرطاجنيون : أجل ، اقتلوه ! اقتلوا هذا الرجل الغامض ، فدمه نصف انتصار !

رجلس : افعلوا ما شئتم ، ولكن لا تنكروا أنى وفيتُ لكم بشرطيكم !

قرطاجنى : صه أيها البركان الآدمي ! أميتوه سريعاً يا رجال !

رجلس : ثقوا أنكم لا تقدرون على موتى

قرطاجنى : لا نقدر ؟ اسحقوا يا رجال هذا النمر الرومانى المأفون !

قرطاجنى : أجل لتجعلوا أشلاءه الآن طعاما لهذه الطيور الإفريقية المحلقة

رجلس : لتفعلوا بهذا الجسم ، بهذا القفص الفانى ما تشاءون ، أما الروح فانه ينتظركم هناك فوق هذه المنحدرات ، وعلى سفوح تلك التلال لينقل جيوش الرومان وسفن الرومان إلى قرطاجنة على بحار تزخر من دمائكم

قرطاجنى ثائر : لتخرسوا هذا الرومانى المتوقح ! أميتوه ! أميتوا هذا الجبل الناطق

رجلس : (وعلى شفتيه آخر ابتسامة) أجل أميتوه يا غربان إفريقية ليحيا !

* * *

لقد وفى رجلس بوعده حين عاد إلى أعدائه ، ولقد كسب الرومانيون الحرب فى النهاية ، وانتصروا انتصاراً عظيما !

ولكن الأجمل من كل الانتصار ، هو أن التاريخ لم ينس كم كان رجلس شجاعاً وفياً ، وستذكر الأجيال أن رجلس جاد بحياته الغالية فى سبيل كلمة الشرف التى عاهد عليها أعداءه القرطاجنيين !

(عن الانجليزية) عبد العزيز عتيبه

الجندى والشباب

بقلم محمود ابراهيم محمد

المدرس بمدرسة الأمير عمر طوسون بالأسكندرية

شاد الحياة على كريم حياته ومضى يُبارى الدهر فى عزماتهِ
متعطشٌ للموت يستبق الخُطا كيما ينالَ الخلدَ من نَهَلاته
لا ينزل الفزعُ الأليمُ بنفسه قلب الشجاع يَوُزّ فى لباته
خُلقت أنامله لقائم مرهفٍ الموت يلمع فى صفاء شباته
من عزمه نُسجت غِفارة رأسه وشبابه الوثّاب من عُدّاته
هو فيصل التاريخ فى هجماته الحكم رهن حياته ومماته
أملُ البلاد على مضارب سيفه فإذا كبا فالويلُ فى كبواته
والنصر معقود بحسن بلائه ووفائه ومضائه وثباته
هو حارس الوطن الكريم وأهله لا ينثنى فى الذّبِ عن حُرماته
تلقاه فى عُدد الحروب كأنه ليث تجمع فى كُسا لبَداته
قصف المَدافع بعض ما يلهو به وتطَايرُ الهاماتِ من لذاته
تَهْمى الدماء على أسنة رمحه كالغيث جاد القفرَ من ثرّاتِه
ينقض فى جوف الظلام كأنه من رُسل عزرائيل فى صرعاته
يتخطف الأرواحَ من آجالها ويجود بالأشلاء فى رَحَباته
أَلِفَ السهادَ فما تُيَمِّمُ نحوه إلا رأيتَ الذئبَ فى يقظاته
جَلْد على مضَض الصراع وبأسه لا يعرف التَّسْآمَ فى كرّاته
وكأن هيكله بناءٌ شامخ لا تهدم الأنواء من لَبِنَاتِه
لو رحت تبحث فى قرارة نفسه لوجدت نجوى النَّصرِ فى طياته

***

كم ذا يروح مضرجا بدمائه وبشاشة الإيمان فى قسماته

يشدو بلحن الحُبِّ فى أوطانه ويوقع الأنغـــامَ فى أناته
وإذا تمثَّـل للخلود بموته لفظَ البقيةَ من لظى نفثاته
قدَرَ الجميعُ فداءه فبنوْا له قبرا يحوط المجد كل جهاته
هو روضة عبقت بضائِعِ نشرها تتضوع الأنفاس من نفحاته
هو رمز تقديس الجهود لمن به نهض الوجود على كثيب رفاته
فلو اُن تقديس الجهودِ عبادةٌ لرأيتـــه معبود كل عِداَته

***

ربوا الشـبابَ على الجلادِ فإنه ظفر المُـدافع عن نجيع حياته[1]
فالوحش لولا شِرَّةٌ فى طبعه لغـدا مجدَّل فاتكٍ بفـلاته
والخير لولا الشر أمسى ربعه من سطوة الطاغين فى غَمَـراته
إنى أرى الحق الصراح محجبا منذا يجلى الحق من شبهـاته
السيف إن يجفُ القراب فإنه يفرى الشكوك على أسيل ظباته

***

قالوا السلام فقلت : لحن مسامرِ ما أروع الألحان في نبراته
السـلم لا يشرى بقالة قائل لـكن ينال على ضرى فتكاته
كيف السلام وقد تقوض عرشه والحرب شبت من لسان دعاته
السـلم معبود ولـكن الورى طبعوا على الإلحاد فى نزغاته

***

واليوم تحفزنا الخطوب لدرئهـا هلاَّ سللنا العزم من رقداته
طوفان حرب قد تفاقم شره يشوى المُـسالم فى لظى ويلاته
فالصين تنتهب انتهـابة جائع ضارٍ يخبُّ اليوم فى نزواته
ورياض أندلس أراها صوَّحتْ والبوم دفَّ على رُبا خرباته
أخشى تطالعنا الحياة بشؤمها وشباب مصرٍ فى عميق سباته

(١) النجيع : الدم

فنكون نهباً فى كثيف عجاجة ويسوّد التاريخ من صفحاته

***

ماضيك يابن النيل أنضر صفحة خط الوجود بها خلود بُناته
لبس الزمان بهم جديد شبابه كالروض شاع الحسن فى جنباته
بعثوه يزخر بالمحامد والعلا كالبحر يألق في سنا دُراته
من كل مكرمة لو اُن شعاعها للشمس ما أفلت بفضل ثباته
نشروا على الدنيا حضارة ملكهم نمطا يُدِلُّ على الوجود بذاته
آثارهم فى الخافقين موائل تنبى بضافي المجد فى داراته
العلم أشرق من سماء بلادهم والفن شَبَّ على أكف حماته
والعزم أورى من زناد نفوسهم والبأس أعضل فى يمين كماته
دانت لسطوتهم جبابرة الورى فغدا بها المصرى نخر لداته
يتفزع الصنديد من لفتاتهم فيروح رهن القيد من فزعاته
العزة الشماء طىُّ نفوسهم منذا يرجى العيش فى ذلاته
يشرون بالمهج الحياة منيعة حسْب الجبان مذلة بنجاته
لم تعيهم بالعزم أحلام المنى مهما ترامى الحلم في غاياته
لو مر بينهمُ خيال سابح لبس الحقيقة فى مدى لحظاته

***

هذا تراث الخالدين أراكمُ أشبابَ مصرٍ فى حمى راياته
تتقاعسون وفي الرياح حياتكم يا ويل نفس الحر من غفلاته
البر ينذر باندلاع لهيبه والبحر يرمى الموت من ظلماته
والأفق يُرعدُ والصواعق جمة والريح (بالمكروب) نبل رماته
والناس قد سئموا جمال طباعهم فتنمروا كالوحش فى فلواته
كل يدبر صيده من قرنه فأكولهم مأكولهم بغداته
الله يعلم ، لا نريد ضراوة لكن نريد العيش فى ضفواته
والمرء يكرهه الزمان وأهله أن يلبس المرذول من شهواته

ادفع بنفسك فى المخاوف جاسراً تلق الأمان يُشع فى مومائه

***

هبوا انفضوا عنكم زمانة[١] عهدكم وتخلصوا بالجد من آفاته
وابنوا كما بنت الجدود فإنكم تتسنمون المجد فى ذرواته
واستلهموا الماضى يضاعف أزركم ويمدكم بالرشد من عبراته
هيهات يكتسب المهابة راغب إلا بماضى العزم فى نزعاته
فالبحر أروع ما يشاهد ثائراً ويحفه الاجلال فى دفعاته
والليل لولا سدفة فى أفقه ما راع مُفْلى[٢] الدو فى سرياته
والنيل لا يأتى بفيض مياهه ما لم يخضب من دما صخراته

محمود ابراهيم محمد

(١) الزمانة : الآفة

(٢) المفلى : الذى يقطع الفلاة سيراً . والدو : الصحراء . السريات : جمع سرية (السير ليلا)

قصة تلميذ فى القاهرة

ورقه النصيب

بقلم محمد سعيد العريان

المدرس بمدرسة شبرا الابتدائية للبنات

جلس « إسماعيل » على المقعد الخشبى بجانب غرفته على السطح ، يغنى فى حنين الواجد ولهفة المشتاق بعض أغنيات بلاده ، ويتابع بعينيه الشمس الغاربة منحدرة انحدارها اليومى كأنها جمرة كبيرة تطفأ فى النيل .

* * *

كان يعيش وحده فى هـذه الغرفة من منزل كبير فى حى (بولاق) يشرف من بُعد على النيل ، فكان أنسه وسلوته أن يجلس ببابها عصر كل يوم ، من لدن عودته من المدرسة حتى يعم الظلام ؛ ثم ينهض فيسرج مصباحه ويكبّ على مصوّراته ودفاتره .

وقد انحدر منذ عام واحد من بلده في الصعيد الأدنى ، عقب حصوله على (الشهادة) ليتم معارفه فى مدرسة الفنون .

كم كان مفتوناً بالقاهرة قبل أن يهبط إليها ، ولوعا بها أشد الولع ؛ ولعله لم يمعن فى الجد والدأب للحصول على الشهادة ، إلا لأنه كان موعوداً بالبعثة إلى القاهرة إن جاز الامتحان !

فلما هبط إليها ، راحت تتضاءل وتتضاءل فى عينيه ، حتى لم يبقَ منها إلا هذا الحى العتيق الذى يسكنه ، وهذه الطريق الملتوية التى يسلكها كل يوم بين المدرسة والبيت ، وهذا السطح الذى يشرف منه على أطلال الحلم السعيد ، أطلال القاهرة التى عرفها في الخيال واستمتع فيها بلذة المنى ووهم الحب ودنيا الشباب !

وكم كان يتمنى أن يتيح له الحظ ليلة سعيدة من تلك الليالى العابثة التى عاشها فى القاهرة أول ما هبط إليها ! ولـكن ... من أين له المال ؟

إنه ما يزال يذكر فى لهفة وشوق تلك الليالى السعيدة ؛ وما يزال يذكر أيضاً فى ألم وحسرة أنه احتمل مما أنفق فى تلك الليلات ما لم تكن له به طاقة ، من ألم الجوع وذل الحرمان ؛ وأبى أن يكتب لأبيه يومئذ أنه فارغ اليد مما أسرف على نفسه وقنع من أحلامه بهذه السكنى الهادئة ، وأن يعيش من الجنة فى ظل حائطها الفينان .

وعرف فيه بنات الدار شابا جمّ الحياء ، عفيف اللسان والنظر ؛ فألفْنَ الصعود إلى السطح فى الأصيل يستمعن إلى ترجيع أغانيه فى طرب ونشوة ، ثم يتفرقن قبل أن يزحف الظلام ؛ وألف إسماعيل أن يراهن كل يوم وأن يبادلهن الحديث البرىء فى شئون وفنون ... وزال الحجاب بينهما على الأيام .

* * *

وأطال إسماعيل الجلوس يومئذ حتى غابت الشمس ولم تصعد واحدة ؛ ترى ماذا منعهن الليلة ، وقد اعتاد واعتدن منذ شهر أو يزيد — منذ سكن هذه الدار — أن يجالسهن جميعاً أو أشتاتاً ساعة أو بعض ساعة كل مساء ؟

ومد الظلام رواقه على القاهرة وعلى قلب المبعد اللهفان !

ودخل غرفته فأشعل مصباحه وبسط دفتره ، فإذا هو لا يكاد يرى ، وإذا الكلمات والسطور تتلوى أمام عينيه ، كما تشاهد فرقة زنجية راقصة ! فطوى دفاتره ، وارتدى ثيابه ، وخرج إلى الطريق .

كانت الليلة ليلة الجمعة ، فلم يجد حرجاً عليه أن يقضيها فى (السيما) ... ووقف ببابها متردداً ، وهو يحصى النقود فى جيبه ، وعيناه تتبعان المارة أزواجاً وجماعات ، وهو وحده من بينهم لا يتأبط إلا همه ! ليته كان يستطيع أن يدعو واحدة من صديقاته فى الدار إلى نزهة ، فيصحبها ذراعاً إلى ذراع فى الطريق كهؤلاء الذين يرى ! ولكن من أين له ، من أين له المال ؟

كم يكفيه ليقضى ليلة سعيدة فى صحبة فتاته ؟ لقد عرف القاهرة الآن عرفاناً تاماً فلا سبيل إلى أن يُخْدع . سيشاهد معها (السيما) فى شرفة ذات أستار ، ويتعشيان معاً فى مطعم فاخر ، ثم يستقلان سيارة إلى الهرم ، ويشترى لها مما

تهفو نفسها إليه فى الطريق ، وبعدئذ ... وبعدئذ يعودان إلى الدار

وفرغ من حسبته وهو يبسط أصابعه ويقبضها يحصى ما يراه سينفقه ، وعيناه تأخذاه كل من يمر به ... ... جنيه ، جنيه واحد سيمنحه سعادة ليلة ، هكذا قدّر حسبته ! وسخر من نفسه حين انتهى إلى ذاك : من أين له الجنيه ؟

ومر به غلام يبيع الجنيهات بالقروش ، يبيع النصيب ؛ ومد إسماعيل يده فأعطى البائع قرشاً ، وتناول ورقة فطواها بعناية ووضعها فى جيبه ، كأنما هو يطوى الجنيه الذى سيصل بين يقظته وأحلامه . ثم عاد إلى البيت فلم يشهد السيما

لم يفكر فى شىء من أمره فى تلك الليلة ، فنام ملء عينيه وملء بطنه ! ورأى أباه فى المنام بجلبابه الأسود الفضفاض ، وعمامته التى تكبس أذنيه وبعض وجهه ، جالساً بين غرائر الفول على ظهر المركب المبحر إلى الشمال ، يحصى ربحه ونفقاته ، وقد اغبرت لحيته وعلا التراب كتفيه

ونهض فى الصباح فنسى كل ما كان من أمره ، وصعدت إحدى صواحبه إلى السطح لبعض شأنها ، فحيتْه وحياها وهو يبتسم ؛ كأنما يخفى عنها نبأ سارا يريد أن يفجأها به . وعادت الفتاة وعاد إسماعيل إلى شئونه

وأوقد النار وراح يهيئ الفول بيده على طريقة بلاده . سوف لا يتغدى فى المدرسة هذا اليوم ، وفى فطوره الفول ما يغنى عن الغداء فلا تختل ميزانية اليوم !

ومرّ يومان ، وراح إسماعيل يكشف عن بخته بين أوراق النصيب ...

وترقّب الفتيات أن يسمعن غناءه فيصعدن إليه ، ولكنه لم يعد ، واستقل أول قطار إلى الصعيد ...

مائة جنيه ! يا للبخت ! لم تكن أحلامه لترتفع إلى ذلك ! إنها لثروة ...

وقسم النقود قسمين ، واشترى حافظة ثمينة فوضع فيها بعض ما ربح ، وخاط جيبه على الباقى ... لقد دبر أمراً ليخدع أباه حتى لا يحرمه المال كله

* * *

وخرج « الشيخ متولى » من المسجد ، يداعب سبحته بأصابعه ، ويتمتم بالتسبيح والدعاء ، وهو فى همٍّ لمقدم ولده من غير داعية ...

وقبّل الفتى يد أبيه وقال له وهو يبتسم :

— « الحمد لله على سلامتك يا أبى ، لقد كنت مشتاقاً إليك ! »

— « مشتاقاً إلى ! وهل جئت من أجل ذلك ؟ حسبتُك رجلاً يا إسماعيل ! »

— « نعم ، ولكن ... »

— « ... ولكن الرجل يجب أن يكون على قوة احتمال وصبر ، ولستَ ولدى إن لم تكن رجلاً »

— « بلى ، وإنما قدمت لأمر ... »

— « أىّ أمر ؟ »

— « لقد ربحت خمسين جنيهاً فرأيت أن أجعلها عندك ! »

— « خمسين جنيهاً ؟ »

— « نعم ! »

وانبسطت أسارير الرجل ، وداعبتْ شفتيه ابتسامة ، واتسعت حدقتاه ، وعاد يقول :

— « ومن أين لك رأس المال ؟ لم تخبرنى من قبل أنك فى تجارة ! »

— « لقد ربحت ورقة نصيب ! »

— « وَىْ ! ورقة نصيب ؟ قِمار ؟ مَيسر ؟ »

واستوى عوده ، وانكمشت يده ، واختلجت شفتاه ، ثم قال :

— « لا لا ، ويحك ! لا تجعلها فى مالى ، إننى رجل شريف ، إن مالى من عرق جبينى فلا أريد أن يمحقه المال الحرام ! »

— « أبى ! »

— « اُسكت ! قم فردها إليهم ، دعهم يفرقونها على أصحابها المساكين . مِن يدِ كمْ بائس اجتمعت القروش حتى عادت خمسين جنيهاً ؟ إنهم يخدعون الجهال البائسين فيسلبونهم القروش القليلة التى يملكونها ، ليوهموهم أنهم سيقاسمونهم بعض ما يجمعون ، بعضَ ما يسرقون ! »

— « وهل يمكن ... ؟ »

— « يمكن أو لا يمكن ، فلن أجعلها فى مالى ، إنها ملوثة ، قذرة ؛ هل تعرف من أين اجتمعت ؟ »

— « لا أعرف »

— « المال الحلال يُعرف دائماً مأتاه ... »

كان قلب الولد جذلان ووجهه عابس ، ولم تنته المناقشة بينهما إلى حد ؛ فقد تحرَّج الشيخ الورع أن يضمَّ ربح (الميسر) إلى ماله ، ولكنه لم يسأل نفسه عما سيفعل ولده بالمال

وعاد إسماعيل إلى القاهرة ، ولكنه لم يعد إلى داره إلا بعد ليال ثلاث

وأطل الفتيات من خلف الأبواب يشهدن إسماعيل عائداً إلى الدار ، يصعد الدرج فى زهو وكبرياء ، وعليه حلة جديدة ، وفى عينيه فتور وتكسُّر ينبىء أنه قضى ليله سهران

وترامى إليهن غناؤه من فوق السطح أكثر حناناً وفتنة ، كما بدا هو أكثر مرحاً ونشاطاً مما كان ، وتبادل الفتيات النظر ، ثم ولجن غرفهن وغلّقن الأبواب

لم تحاول واحدة منهن أن تصعد إليه برأى صواحبها ؟ فقد بدا لهن مما تغير من هيئته وحركاته أنه شخص آخر غير إسماعيل الذي يعرفنه ويثقن بعفته وأدبه وكأنما أُلقى إليهن جميعاً معنى واحد ، فخجلن أن يبدون له ، وإن أخذت كل واحدة منهن تؤمل أن تجد فرصة من غفلة رفيقاتها لتصعد إليه وحدها

وسبقتهن (فلانة) إلى ذاك ، ولكنها لم تُظهر له أو لواحدة منهن أنها تعمدت الصعود إليه .

واستقبلها إسماعيل ضاحكا ، وهز يدها بلطف ، وجلسا يتبادلان الحديث ، ثم افترقا إلى ميعاد ... ووجد الفتى تعبير رؤياه ، وكان حلماً أشرق عليه الصبح فأتمته اليقظة التى تصنع الأحلام !

ولكنه لم يقنع بسعادة ليلة ، وعاد يتعرف القاهرة من جديد ، القاهرةَ التى فتنته قبل أن يراها ، والتى ذاق فيها من ألم الحرمان أكثر مما ذاق من لذة الوهم ؛

وراح ينتقم لشهواته التى قمعها على ألم وضيق عاماً وبعض عام ونفدت دراهمه !

* * *

لم تجرِ سفينة الشيخ متولى مجراها كما كانت ، فركدتْ ريحه ، وأدبرتْ أيامه ؛ وعادت الأيام تقتضيه مضاعفة الجهد وبذْل الموفور .

وجلس إسماعيل مع أبيه ذات يوم صائفٍ بباب متجره ، ومرّ بائع النصيب ؛ وتحلّب لعاب الفتى وطارت أمانيه إلى هناك ، إلى القاهرة وليالى القاهرة ، وإلى فلانة وصواحب فلانة ! ولكنه أفاق من حلمه إذ رأى ذراعه إلى ذراع أبيه ... والتفت فإذا بائع النصيب واقف ، وإذا أبوه يخرج من جيبه أوراقاً يكشف بينها عن بختة ، ثم يمزقها ويلقيها ؛ وإذا هو يشترى غيرها فيطويها ويجعلها فى جيبه ، ليضم صدره على أمل جديد ... !

وتَبالَهَ الفتى فنهض من مجلسه ليخفى ابتسامة ساخرة ، وعلى طرف لسانه كلام ...

لم يعد الشيخ متولى إلى سؤال نفسه : « من أين اجتمعت هذه الجنيهات التى يحاول أن يشتريها بالقروش ! فلعله كان يعلم أنها اجتمعت من قروشه الكثيرة التى أدّاها هو إلى باعة البخت ، منذ تعلم أن يحاول شراء البخت بالمال ... منذ ربح ولده ... ! »

* * *

وضحك (إبليس) من الشيخ متولى وهو يمزق الأوراق ويشترى غيرها ، وقال لشيطان صغير وهو يعلّمه :

« أُنظر هذا الأبله ؛ ما أرسلت إليه ابنَه إلا برسالتى ، فقد علقتْه الحِبالة . حَسْبُ الإنسان الضعيف أن أُرِيَهُ الحرامَ مرة ؛ فهذا أول عملى فى طبيعته... »

قال الشيطان الصغير : « ثم بعد ذلك ؟ »

قال المعلِّم : « بعد ذلكَ — أيها الأبله — طبيعتُه ... ! »

محمد سعيد العريان

عظيم دولة الموحدين
عبد المؤمن بن على
نشأته — خلقه — أدبه

للأستاذ محمود البشبيشى
المدرس بدار العلوم

تمهيد

قامت دولة الموحدين على أنقاض دولة المرابطين بالمغرب ، وإنما عرفت بهذا الاسم لأنها نشأت على أساس فكرة دينية خاصة تخالف فكرة (المرابطين) ؛ فإن هؤلاء كانوا يتحرجون من البحث فى العقائد ، فلا يسمحون بالجدل ، ولا يرحمون من يخوضون فى المسائل الكلامية أو يثيرون جدلاً فى العقائد ؛ وإنما همهم المرابطة فى الثغور ، والتمسك بظواهر النصوص الدينية لا يبغون عنها حولا ، ويرون فيها السلامة والنجاة من الزلل ، ولذلك أصاب كتب الغزالى فى عهدهم ما أصابها من المصادرة ، حتى كان اقتناء كتاب منها أو التحدث برأى فيها جريمة قد تؤدى إلى الهلكة أو السجن واستصفاء المال(١)

(١) حصل ذلك في عهد أمير المسلمين (على بن يوسف بن تاشفين) المرابطى الذى تولى عام ٤٩٣ هـ ، ولكنه مع تعصبه وشدة كراهيته لأهل الجدل والرأى لم يعمل بمشورة (مالك بن وهيب) أحد علماء دولته الذى أشار عليه بقتل (محمد بن تومرت) عقب المناظرة التى عقدت فى مجلس الخليفة بين ابن تومرت وجمهور من العلماء ؛ فقد قال (مالك) : إن ابن تومرت رجل مفسد لا تؤمن غائلته ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه ، وإن وقع هذا في بلاد المصامدة ثار علينا منه شر كثير ، وأشار بقتله ؛ فتوقف (علي بن يوسف) وقال : (علام نأخذ رجلا من المسلمين نسجنه ولم يتعين لنا عليه حق ، وهل السجن إلا أخو القتل ؟ ولكنا نأمره أن يخرج من البلد وليتوجه حيث شاء) فتوجه (ابن تومرت) ومن معه إلى مدينة (سوس) وفيها ظهرت دعوته ؛ وليس عجباً أن يفتى (مالك) هذا بما أفتى وهو ممن يشاركون فى الفلسفة ، فأنه متأثر بروح العصر ، حريص على إرضاء الخليفة لا يظهر معه علومه إلا ما تروج سوقه فى ذلك الزمان

فلما قامت (دولة الموحدين) كان لها رأى غير ما يراه (المرابطون)، إذ كانت آراء (أبي الحسن الأشعرى) قد ملأت رءوس القادة والمؤسسين لهذه الدولة، ومذهب الأشاعرة مبنى على الرأى، وللجدل الدينى المنطق فيه نصيب كبير، على أن شيخ هـذه الدولة (محمد بن تومرت) لم يكن يقف فى مسائل العقائد عند آراء الأشاعرة، بل زاد عليها الأخذ ببعض آراء المعتزلة: كنفي صفات المعانى، وظاهر أن مبنى هذا الرأى عند القائلين به، إثبات الوحدانية لله على أكمل وجوهها، ونفى كل مظان التعدد، لاعتقادهم أن القول بصفات المعانى وهى قديمة يقتضى تعدد القدامي.

من أجل ذلك أطلق المعتزلة على أنفسهم لقب «أهل التوحيد» وأخذ عنهم (الشيخ بن تومرت) هذا اللقب، وأطلقه على الدولة التى كان له الفضل فى تأسيسها (دولة الموحدين)

١ — كيف قامت دولة الموحدين؟

لما اضطرب أمر المرابطين فى بلاد الأندلس والمغرب، ظهر سنة ٥١٥ هـ بمدينة (سوس) من بلاد المغرب الأقصى شيخ من البربر كان ينتسب إلى الحسن ابن على كرم الله وجهه يسمى (محمد بن عبد الله بن تُومَرْت) أخذ العلم عن علماء الشرق: كالغزالى (بالشام)، وأبى بكر الشاشى من علماء الفقه وأصول الدين (ببغداد) وكان ذا دهاء عظيم، ونفوذ روحى كبير، فقام يدعو إلى الله: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وكان سبباً فى نشر مذهب الأشاعرة ببلاد المغرب، فالتف حوله جماهير المصامدة[1] ووجوههم وجعل يكثر من ذكر المهدى المنتظر، ثم ادعى أنه ذلك المهدى ورفع نسبه إلى آل البيت فانقاد له الناس، وما زال يحرض المصامدة على حرب المرابطين بمراكش ويبشرهم بأنهم سيملكون ملك فارس والروم، حتى قويت شوكته، وكثر جنده؛ فقاموا معه لحرب المرابطين، وأمر على الجيش (عبد المؤمن ابن على) ولقبه بأمير المؤمنين، ثم دامت الحرب بين الفريقين حتى انتهى الأمر

(١) المصامدة ولمتونة: جذمان عظيمان من البربر

باختلال أحوال المرابطين ، وشهد (ابن تومرت) مصيرهم قبل موته سنة ٥٤٣ هـ

قام بالأمر بعده أمير المؤمنين (عبد المؤمن بن على) وهو من المصامدة ولكنه كان ينتسب إلى قيس عيلان العدنانية وكان مولده مدينة (تلمسان) من أعمال الجزائر سنة ٤٨٧ هـ واستوثق له الأمر بموت (على بن تاشفين) سلطان المرابطين سنة ٥٣٧ هـ فملك المغرب الأقصى والأوسط ، ثم بلاد الأندلس ، وتوفى سنة ٥٥٨ هـ

وكان عبد المؤمن فصيح المنطق جزل الألفاظ محبباً إلى كل من يراه حتى كان (ابن تومرت) ينشد كلما رآه :

تكاملت فيك أخلاق خصصت بها فكلنا بك مسرور ومغتبط
السن ضاحكة ، والكف مانحة والصدر منشرح ، والوجه منبسط

وكان قد تلقى العلم على (ابن تومرت) ولازمه طويلا واكتسب منه دهاء وفطنة ومعرفة واسعة بطريقة التأثير فى السامعين وقد دلت مواقفه على أنه جمع بين الفطنة والأدب وحسن السياسة

٢ — دهاؤه وحسن سياسته

يدلنا على دهائه وحسن سياسته ما فعله مع أمراء (بجاية) بعد ما أزال ملكهم وما فعله مع قبائل (بنى هلال بن عامر) الذين أغاروا من الشرق على القيروان فعاثوا فى الأرض فسادا ، وكان الفاطميون بمصر قد خلّوا بينهم وبين بلاد المغرب لغرض سياسى (١)

وذلك أن (عبد المؤمن) لما استقر ملكه بالجزائر ومراكش تطلع إلى مملكة الصنهاجيين التى تجاوره من الشرق ، وكان في حوزة بنى حماد الصنهاجيين شيعة الفاطميين فحاصر (بجاية) واستولى عليها سنة ٥٤٠ هـ وملك قلعة بنى حماد المشهورة ثم أسر الملك (يحيى بن العزيز المنصور الصنهاجى) وأخذه وأعيان دولته إلى مراكش وبالغ فى إكرامهم وأنزلهم منزلاً كريماً ، وبهذا قوض ملكهم ، وجعلهم جلساءه وذوى الصدارة فى مجلسه ، فأمن مكرهم وقطع آمالهم فى استرداد ملكهم

(١) لما انحرف الصنهاجيون عن مذهب الشيعة واتصلوا بخليفة (بغداد) أغرى الفاطميون بهم بنى هلال وكانوا ينزلون صعيد مصر وشرقيها وذلك فى منتصف القرن الخامس

أما بنو هلال فقد كانوا يسيطرون بجندهم على القيروان وهم الذين تغلبوا على الملك (تميم بن المعز بن باديس) من بنى زيرى بن مناد الصنهاجيين [١] ثم أقلقوا مملكة بنى حماد الصنهاجيين أصحاب (بجاية) فى غربىّ القيروان حتى صالحهم ملكها (المنصور بن المنتصر) جد يحيى بن العزيز الذى أسره (عبد المؤمن) على أن يكون لهم نصف ما تغله البلاد وأقطع رؤساءهم بعض الجهات فى مملكته

فلما عزم (عبد المؤمن) على دخول الأندلس بعد اضطراب أحوالها وتطلع الافرنج إلى فتحها وإغارتهم على بعض جهاتها ، أراد أن يتقى شر بنى هلال وأن يأمن غاراتهم على بلاده إذا ماشغلته بلاد الأندلس ، وأراد فى الوقت نفسه أن يعزز جنده بصفوة من بنى هلال الذين مارسوا الحروب طويلا ، فدعاهم إلى الجهاد والسير معه إلى بلاد الأندلس ووجه إليهم هذه القصيدة :

أقيموا إلى العلياء هوج الرواحل ... وقودوا إلى الهيجاء جُرْدَ الصواهل
وقوموا على الأعداء قومة ثائر ... وشدوا على الأعداء شدَّةَ صائل
بنى العم من عليا هلال بن عامر ... وما جمعت من باسل وابن باسل
تعالوا فقد شدت إلى الغزْو نية ... عواقبها موصولة بالأوائل
هى الغزوة الغراء والموعد الذى ... تنجّز من بعد المدى المتطاول
أهبنا بكم للخير والله حسبنا ... وحسبكم ، والله أعدل عادل
فما ههنا إلا صلاح أموركم ... وتسريحكم فى ظل أخضر هاطل
وتسويفكم نعمى ترف ظلالها ... عليكم بخير عاجل غير آجل
فلا تتوانوا فالبدار غنيمة ... وللمدلج السارى صفاء المناهل

فلما سمعوا منه هذه الدعوة خفوا معه سراعاً فجعلهم فى جيوشه وعبر بهم الزقاق ، وثم جعلهم جماعات ووزعهم على حصون الأندلس فاستوطنوها ، ثم أمر فيهم ابنه (يوسف) فكثرت أعقابهم بالأندلس وفيهم زُغبة ورباح وجُشَم بن بكر

(١) لما ارتحل الفاطميون إلى مصر تركوا على القيروان بنى زيرى بن مناد الصنهاجى وكانوا شيعتهم وأعوانهم

وبهذا الأسلوب الحكيم قوّى عبدالمؤمن جيشه ، واتقى خطر بنى هلال على ملكه ؛ فأدرك الغايتين فى وقت واحد

٣ — عبد المؤمن الخليفة الأديب

لا عجب أن يكون عبد المؤمن بن على محارباً صنديداً ، فكل شىء حوله يوحى بالشجاعة ويبعث فى نفسه حب الحروب وشنّ الغارات ، ولا عجب أن يكون له ذلك الدهاء العظيم وقد تخرج على (ابن تومرت) الذى عرفنا من دهائه وعقله ما عرفنا

وإنما قد يبدو عجيباً أن يكون هذا القائد المغوار الذى قضى أكثر عمره فى الكر والفر ، ونشأ فى جو لم تتوطد فيه الثقافة الأدبية ، أديباً يقول الشعر وينقده ويزن أقدار الشعراء بميزان دقيق ؛ ولكن لا عجب ؛ فإن اتجاهه الشخصى وملازمته للشيخ (ابن تومرت) جعلا منه ذلك الشاعر والناقد البصير . فأما شعره فقد روى له صاحب (المعجب فى أخبار الأندلس والمغرب) ما وجهه لبنى هلال . وأما نقده وإدراكه قيمة الشعر فليس أدل عليهما من إيراد هذه الفقرة من (الكتاب المتقدم) مع تصرف يسير ؛ قال صاحب (المعجب) :

« خرج (عبدالمؤمن) يقصد الأندلس ، فسار حتى نزل مدينة (سَبْتة) فعبر البحر ونزل بجبل (طارق) وسماه جبل الفتح ، فوفد عليه وجوه الأندلس للبيعة : كأهل مالقة وغرناطة ورندة وقرطبة وأشبيلية ، وكان له بهذا الجبل يوم عظيم اجتمع له فيه وجوه البلاد ورؤسائها ، ودعا هو بالشعراء فاجتمع فى مجلسه منهم صفوة من شعراء الجزيرة وغيرهم ، فكان أول من أنشد فى مجلسه (أبو عبد الله محمد ابن حبوس) من أهل مدينة (فاس) وكان يجرى على نحو طريقة (ابن هانئ الأندلسى) فى تخير الألفاظ ذات الجلبة فأنشد :

بلغ الزمان بعدلكم ما أمّلا وتعلمت أيامه أن تعدلا
وبحسبه أن كان شيئاً قابلاً وجد الهداية صورة تتشكلا

ثم أنشده رجل من سلالة الشاعر الشريف الطليق المروانى فقال :

ما للعدى جُنَّةٌ أوقى من الهرب

وهنا ابتدره (عبد المؤمن) بقوله : إلى أين إلى أين ؟

فقال الشاعر :

أين المفر وخيل الله فى الطلب ؟

وأين يذهب من فى رأس شاهقة وقد رمته سماء الله بالشهب

حَدِّثْ عن الروم فى أقطار أندلس والبحر قد ملأ العبرين بالعرب

فلما أتم القصيدة قال (عبد المؤمن) : بمثل هذا تمدح الخلفاء !

ثم أنشده شاعر من أهل (أشبيلية) يعرف بابن السيد :

غمض عن الشمس واستقصر مدى زحل وانظر إلى الجبل الراسى على الجبل!

أنى استقر به ؟ أنى استقلّ به ؟ أنى رأى شخصه العالى فلم يزل ؟

وهنا قال له (عبد المؤمن) : لقد ثقلتنا يا رجل ! وأمر به فأجلس :

ثم أنشده الوزير الكاتب (أبو عبد الله البلنسى) المعروف (بالرصافى) فقال :

لوجئت نار الهدى من جانب الطور قبست ما شئت من علم ومن نور

من كل زهراء لم ترفع ذؤابتها ليلاً لِسار ولم تشبب لمقرور

فيضية القدح من نور النبوة أو نور الهداية تجلو ظلمة الزور

ما زال يُقْضمها التقوى بموقدها صوّام هاجرة قوّام ديجور

نور طوى الله زند الكون منه على سقط إلى زمن المهدى مذخور

وآية كأياة الشمس بين يدى غزو على الملك القيسى منذور

ومنها يصف أسطول (عبد المؤمن) :

لما تسابقن فى بحر الزقاق به تركن شطّية فى شك وتحيير

كأنه سالك منه على وشَلٍ والأرض من مُهَج الأسياف مقطور

من السيوف التى ذابت لسطوته وقد رمى نار هيجاها بتسعير

ذو المُنْشآت الجواري فى أجرّتها شكل الغدائر فى سَدْل وتضفير

أعدى المياهَ وأنفاسَ الرياح لها ما فى سجاياه من لين وتعطير

وربما خاضت التيار طائرةً بمثل أجنحة الطير الكواسير

كأنما عبرت تختال عائمةً فى زاخر من جَدى يمناه معصور

حتى رمت جبل الفتحين من كثب بساطع من سناه غير مبهور

وهى قصيدة طويلة نكتفى منها بما تقدم . هذا وقد وجد على ظهر كتاب (الحماسة) بخط عبد المؤمن بن على هذان البيتان :

وحكمٍ بالسيف لا تعبأ بعاقبة وخلها سيرة تبقى على الحقب

فما تنال بغير السيف مرتبة وما ترد صدور الخيل بالكتب

وإذا لم يكونا من كلامه فهما شاهد على حسن ذوقه الأدبى وتأثره فى أموره بروح الأدب العربى

وبعد فانا نستطيع أن نعتبر (عبد المؤمن) من الشعراء ذوى البصر بالشعر ونقده بعد ما سمعنا من شعره وتعليقاته السريعة الدقيقة على ما قاله أولئك الشعراء وإذا كان الشىء يُذكّر بضده فلا بأس أن أذكر هنا موقفاً لكبير المرابطين (يوسف بن تاشفين) يظهر لنا الفرق العظيم بينه وبين كبير دولة الموحدين ؟

عاد (يوسف بن تاشفين) إلى بَر العُدوة (مراكش) من الأندلس بعد ما رد الفرنجة في المرة الأولى ، فلما أعاد الفرنج غارتهم عليها استجار به (المعتمد ابن عباد) كما استجار به أولا ، فجعل فى رسالته لابن تاشفين قول (ابن زيدون) :

بنتم وبنا فما ابتلّت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا

حالت لبعدكمُ أيامنا فغدت سوداً ، وكانت بكم بيضاً لياليا

فلما قرئ عليه الكتاب هز رأسه وقال : يطلب منا جوارىَ بيضاً وسوداً !!

فلما شَرَحَ له بعض مَن فى حضرته معنى البيتين قال : (جَيِّد) . اكتبوا إليه (إن دموعنا تجرى عليه وإن رءوسنا توجعنا من بعده) !

والآن يصح لنا أن نعتقد أنه لو استراح (عبد المؤمن بن على) من الغارات والحروب ، واستقر به الحال طويلا ، لكانتْ حياته شعلة تذكى فى نفوس الشعراء والعلماء جذوة العلم والأدب ، وربما كان عصره — لو تحقق له ذلك — في طبقة عصُور الناصر والحكم وابن عباد

ولو لم يكن له إلا تنشئة ابنه (يوسف بن عبد المؤمن) على حب العلم والأدب حتى رَعى الفلاسفة وأبرز للعالم كفاية (ابن رشد) و (ابن طفيل) وغيرهما ، لكان جديراً بهذا وحده أن يعتبر فى مقدمة الملوك عناية بالعلم والأدب

٤ — موازنة بين عبد المؤمن بن على ويوسف بن تاشفين

هذا ولا بأس قبل ختام هـذا البحث من عقد موازنة بين كبير المرابطين وكبير الموحدين :

(ا) فهما يتفقان فيما يأتى :

١ — كلاهما كبير دولةٍ أفريقية من البربر ، وكلاهما دخل الأندلس مدافعاً عن الإسلام .

٢ — كلاهما أزال دولة من الدول الإسلامية ؛ فـكبير المرابطين أزال دولة آل عباد بأشبيلية ، وكبير الموحدين أزال دولة بنى حماد الصنهاجيين شيعة بنى عبيد

٣ — كلاهما مع ابنه يحقق معنى المثل المشهور (الولد سر أبيه) فأما على ابن يوسف بن تاشفين فقد لقى الغزالى وكتبه من اضطهاده ما شرحناه ، وأما (يوسف بن عبد المؤمن) فهو العالم الذى شهد له فلاسفة عصره ، وفى عهده نهضت الفلسفة ، وفى رعايته ظهرت كفاية (ابن رشد) فألف كتبه الخالدة فى تلخيص آراء أرسطو وشرحها

(ب) ويختلفان فيما يأتى :

١ — كان ملك المرابطين عنيفاً مسرفاً فى النكال عند ما أزال دولة بنى عباد ، فانه حملهم أسارى أذلاء وألقى بأميرهم (المعتمد) فى غيابات السجون حتى مات ، وعلى العكس منه ملك الموحدين ، فقد كان كريماً نبيلا بعد ما أزال دولة الصنهاجيين فأنزل ملـكها وكبراءها منزلا كريماً بمراكش

٢ — كان كبير المرابطين مغالياً فى المحافظة والتحرج ، شديد الوطأة على الفلسفة وأهل الرأى ، أما كبير الموحدين فقد كان عالماً يحب البحث ويرتاح للعلم ويمهد بصفاته وكفايته لظهور الآراء الحرة .

٣ — الفرق بينهما شاسع فى الناحية الأدبية ، فأما عبد المؤمن فحسبه قصيدته لبنى هلال ونقداته الظريفة لقصائد الشعراء يوم نزل الأندلس ، وأما كبير المرابطين فحسبه مسألة (الجوارى السود والبيض) !

محمود على البشبيشى

النقـــــد الادبى
قديماً وحـــديثاً

بقلم حسنين حسن مخلوف
المدرس بالمدرسة الخديوية

أحسب أن النقد الأدبى ماشى الانسان في جميع مراحل تفكيره من قديم العصر إلى حديثه ؛ فالاجتماع الانسانى فى كل أمة من الأمم التى جاوزت طور الهمجية يدعو إلى الرأى وإلى البيان وإقامة الحجـة وترويض العقول بفنون الآداب ، ولا بد أن يحدث ذلك أثره في النفوس ، من رضا أو سخط ، ومن إعجاب أو استكراه ، ويختلف تأثر العقول باختلاف النفوس وثقافتها ودرجة استعدادها ومقدار ارتباط الـكلام بخـيرها أو شرها ؛ فالخطيب والشاعر والـكاتب مدوا الناس بعصارة أفكارهم ، ونقلوا العقول من طور إلى طور ، وسيظلون مصابيح هداية ومجال معارك أدبيـة مادام العقل مطبوعاً على وزن كلامهم . والعواطف والأفكار تأخذ بحظ وافر من تراث الأدب ، وتنتقى من ثمرات الأفكار ما يروقها فاذا كان الشاعر ملهما بارع الشعر احتاج شعره إلى من يقدره ، ويزنه وزناً صادقاً فيتذوق جمال الشعر ومبلغ حظه من القوة أو الضعف ؛ فيكون ذلك داعياً إلى لفت الأنظار إليه وإلى نتاجه

وإذا كان المنشىء يخـدم الأدب بإنشائه ، فالناقد ذو أثر حى في ترويج الأدب أو تزييفه . وعلى كل حال فالحقيقة يخدمها أصدقاؤها وأعداؤها على السواء إذ تنجلى عنها الغشاوة ، ويجد القارىء رياضة فكرية عاليـة فى جولان العقول وتشعب الآراء ، وذلك يأخذ بيد الأدب إلى الآفاق العالية ، ويتأثر الأديب بتمحيص الآراء فيتجنب المزالق ، ويمضى صعداً إلى سماء الأدب المشرقة الوضاءة ؛ فيطلع على الـكون بنور أدبه ، ويذيع صيته بين الناس ؛ فـكما أن الأدب محتاج أشد الحاجة إلى الإنشاء والابتكار ، فهو لا يستغنى عن وصف ذلك الأثر الأدبى وتقديره

قال أرسطو : « لقد تناولت الأشعار التى ألفها أصحابها بعناية فائقة ، ولقد سألت كلاً منهم عما عناه بشعره ، فلم يكن منهم من استطاع الإجابة عن سؤالى ؛ ولقد جمعنى وإياهم مجلس ضم كثيراً من المعجبين بهم وبأشعارهم ؛ فلم يكن بين الحضور رجل إلا وهو أقدر على التحدث عن تلك الأشعار من الشعراء أنفسهم ؛ ولقد أدركت حينئذ أن الشعراء لا يكتبون الشعر لأنهم حكماء ، بل لأن لديهم طبيعة أو موهبة قادرة على أن تبعث فيهم حماسة »

فلقد فرّق أرسطو بين إنشاء الأدب وبين نقده ، وبـيّن أن نقده ضرورى لبيان قيمته ومراميه ، وأبان الفرق بين إلهام الأديب الذى يكون وقت إنشائه فى جوّ نفسى خاص حين تكون جمرة ذهنه متقدة يصدر عنها الشرر ، وبين الناقد الذى يضع الكلام مواضعه ، ويقيسه بمقياس الفكر والذوق والعاطفة ، وأن المقدرة على خلق الأدب تختلف عن المقدرة على تحليله تحليلاً منطقياً ، وقد فطن المتنبى إلى ذلك فقال :

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصمُ

وكان ابن جـنّى يشرح ديوان المتنبى ، ثم يقرأ ما شرحه عليه ؛ فكان المتنبى يدهش لشرح بعض الأبيات ؛ لأن تحليل المعنى لم يكن ليخطر له على بال ولم يقصده ، مع أن العقل المنطق لا يرى غير ما يراه الشارح ؛ فتبين من ذلك الفرق الواضح بين ملكة الأديب وعقل الناقد ، وأن الأدب لا يستقيم إلا بهذين الأصلين : الإنشاء والنقد

والنقد الأدبى هو تقدير النص الأدبى ، وبيان درجته الفنية ، وتمييز الأدب الراقي من التافه الذى لا يعول عليه

أعتقد أنه لم تُعْنَ أمة من الأمم بنقد آثارها الفنية مثل ما عنى العرب ، لأنها أمة كلام وعناية بآثار العقول ، بطبيعة حياتهم ونظام معيشتهم ، ثم توارث ذلك الخلف عن السلف ، وإذا كان لكل أمة فن من الفنون تعرف به ويشتهر عنها ، فالعرب إنما يذكرون بالفصاحة والبيان ؛ فلا عجب أن عظم إنتاجهم الأدبى على توالي العصور ، واشتدت عناية الأدباء قديماً وحديثاً بنقد كلامهم والحفل له ،

وبلغوا في نقدهم منزلة عظيمة بحسب اختلاف العصور والأجواء الاجتماعية والسياسية . ولا عبرة بأولئك الأدباء الذين أوصلتهم حرفة الأدب إلى المنازل الرفيعة وعاشوا على ترديد نغمات قيثارة العرب ولوك أسمائهم وأحاديثهم ، ثم ينكرون فضل العرب على فن النقد ، ويجحدون ما بذلوه من مجهود فى تقدير شعر الشعراء ، ونثر الكتاب ، وخطابة الخطباء

وعيب نقاد العرب فى نظرهم أنه كان يجب عليهم أن يعيشوا ويدركوا عصر كانت وشاتوبريان وسانت بيف وتين ، ليقولوا بقولهم ، ويحللوا العواطف والأفكار والميول

وإنه مهما يكن من أمر النقد الحديث وإخضاعه للنظريات العلمية ؛ فإن النقد الفطرى ، والاعتماد على عفو الخاطر ووحى النفس فى تقدير نص أدبى ومنزلة أديب من الأدباء — يشترك فيه أديب باريس وبرلين ولندن ، وأديب البصرة والكوفة ودمشق وبغداد والقاهرة . وقد يفعل ذلك فى النفوس لصدوره عن خبير به ، ويوجه إلى الأدب الصحيح أكثر مما تفعله الكتب الضخمة فى اتجاهاتها وفروضها

والنقد الأدبى بمصر فى العصر الحاضر لم يجد أديباً يوجهه توجيها صحيحاً ويخدم الأدب الخدمة المخلصة . فإن نقاد الأدب أغلبهم من المتصلين بالصحافة وحظهم من الأدب الأوربى أكبر من حظهم من الأدب العربى الخالص . وإلا فمن منهم قرأ دواوين الشعراء فى كل عصور الأدب ؟ ومن منهم درس أصول الأدب من معينها حقًّا ، ووقف عندها طويلاً ، وأفنى جذوة عمره فى ذلك ؛ ثم أخذ من الأدب الأوربى بنصيب وافر ، وبعد ذلك تصدر للحكم على الأدب العربي ، وفكر تفكيراً صادقاً فى تغذيته بالأدب الإفرنجى ؛ فلم يعقّ القديم ، ولم يتورط فى الإغراق والتعصب للجديد ؟ ومبلغ علمى أن فى الشام بعض أفراد من هذا النوع الذى أصفه

على أن الأدباء فى مصر يتعجلون الشهرة ، ويسرعون إلى ابتغاء المكانة العالية قبل أن ينضجوا ، والسر فى ذلك خصب البلاد ، وكثرة النعمة ، وتعدد مظاهر الجاه والثروة ، وحب الكسل ، والقرب من أصحاب السلطان . وذلك مما حط

النقد الأدبى فى هذا العصر ، وجعل أكثره شهادات جامحة فى نقد الأدباء بعضهم لبعض ، لايقصد بها وجه الأدب بل المدح والذم ، فالنقاد في مصر قضاة ظالمون ، وفى ذلك خطر عظيم نرجو أن يبرأ منه الأدب فى مصر الحديثة

والأدب فى العصر الحاضر قل فيه النبوغ والوصول إلى أوج الأدب ، وتقارَب الأدباء فى نتاجهم ، وتجانسوا فى درجاتهم ، والسبب فى ذلك على ما أظن أن الأديب مشغول عن الاختصاص بالأدب ، وقصر النفس عليه ليله ونهاره إلى أسباب العيش من طرق أخرى غير الأدب المحض والسبح فى بحار الآداب كل الوقت ، ولا يكون ذلك إلا إذا قدر أولو الأمر الحاجة إلى الأدب العالى ، وكافئوا الأدباء على أدبهم ، وشجعوا الإنتاج وأكثروا من المباريات ؛ فكفلوا للأدباء الحياة من طريق الأدب فحسب ، وما ذلك على مصر الناهضة بعزيز .

أما النثر فقد وصل إلى منزلة راقية من بعض نواحيه ؛ فعظمت فيه الاستفاضة والبحث فى نواحى الموضوع وتوفيته ، وإن كانت السياسة هى الشغل الشاغل لكتاب الصحف ، وهذا ما نأى بهم عن جودة النثر ودقة الابتكار ، وروعة الخيال ؛ فالأدب عجالة يكتبها الكاتب ليسد بها فراغاً ، ولا يخلو من جولات فكرية حسنة ، أما كد الفكر والعمل على تغذية القراء وتثقيف عقولهم ، ففى المنزلة الثانية ، ولا يعنى بذلك إلا بعض كتاب المجلات . ولقد صدق أستاذنا المرحوم مصطفى صادق الرافعى طيب الله ثراه حين قال (إن الصحافة تجنى على فنِّيَّة الأدب)

وأما الشعر فهو أكثر اتصالاً بالماضى منه بالحاضر ، وهو لا يمثل الحياة الحاضرة والمدينة الحديثة تمثيلا كاملا إلا في أبيات شاردة فى أثناء القصيدة . ومع أن مصر قد تنازعتها عوامل كثيرة ، وكانت السياسة أظهر شيء فى حياتها الأخيرة ؛ فإن الشعراء لم يعتادوا بعد الخروج عن أجواء المدح والوصف على الطريقة القديمة .

ولقد قرأت وأنا أكتب هذه السطور قصيدة للشاعر اللبنانى حليم دموس بعنوان (فلسطين الشهيدة) وفيها (وإن كانت على النمط القديم) أبيات تمثل السياسة الأوربيه وتصفها وصفاً دقيقاً ومنها :

حذار بنى قومى ففى الغرب عصبة تعـــد الدواهى ثم تملى فتكتب
فإن كاشفتكم بالسياسة خلسة فـلا تقربوها ، فالسياسة عقرب
إذا وعدو (الغربى) فالبرق صادق وإن وعدوا (الشرق) فالبرق خلب
أيقسم قطر وهو يمشى لوحـدة إذاً فلتنح بغـداد ولتبك يثربُ

وفى مصر شعراء قديرون على تحليل الحياة والعالم المائج بصنوف العواطف والأفكار وأنواع الابتكار ونواحى الجمـال ، ولـكنهم لم يألفوا تصوير ذلك حق التصوير ، ولم يتعودوا خدمة الأدب إلا من ناحية الغزل المصطنع الذى لا يصور عاطفة ولا يستدعى الإعجاب .

وربما سمعت المغنيين الشهيرين عبـد الوهاب وأم كلثوم فانصرفت نفسى عن المعنى والتصوير إلى النغمات الفنية والصوت الموسيقى .

ولقد قصر الشعراء بنات أفكارهم على التيارات المصرية ، فإن كانت فى مدها إتجهو إليها ، وإن كان فى جزرها انصرفوا عنها .

وأنا أريد أن يكون الشعر صورة صحيحة للحياة ، وفى رأيى أن الشعر العربى يمثل حياة العرب فى عصورها المختلفة إلا في العصر الحاضر ؛ فان أردنا فهم الحياة واضطرابها الفكرى والسياسى فى العصر الأموى التمسناها فى الشعر ، وإن أردنا أن نفهم الحياة الجديدة فى العصر العباسى التمسناها فى الشعر أيضاً . أما العصر الحاضر فلو جمعنا دواوين الشعراء وقرأناها لم تـكفنا لفهم الحيـاة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في مصر فى هذا الزمن

أما الخطابة فليست بواعثها كبواعث الشعر والنثر فى كل العصور ؛ فهى بنت الظروف والحوادث ، وهى كمياه البحر إن عصفت بها الرياح ماجت واضطربت وأحدثت دوياً يسمعه القاصى والدانى ، وانبعثت مع الخطابة القدرة والبلاغة والتصوير والتأثير ؛ وإن هدأت الرياح صار الماء ساكناً هادئاً لا يحس أحد صوته

والخطابة إنما يخلقها الغضب والايمان بفكرة سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية والناس فى مصر إنما يغضبون للسياسة ، لذلك أخرجت خطباء مصاقع ، ولم أجد أحداً يغضب للاقتصاد إلا طلعت حرب باشا ، وما رأيت من يغضب للاجتماع

إلا فتاة متحمسة تكتب فى الأهرام عن قضية الفلاح ، وتلقب نفسها (ابنة الشاطىء) فلقد سمعتها تخطب في بؤس الفلاح ، ووجوب التفكير فى شأنه والعناية به ، فهزت أوتار القلوب بقدرتها على التصوير ونقلت التأثر من نفسها إلى أنفسنا

والمحاضرات الاجتماعية فاشية فى مصر ، ولكنها لا تزيد على أنها تحليل للموضوعات ، ودرس أقرب إلى العلم منه إلى الخطابة . لذلك لا تحدث فى مصر دوياً ، ولا تجاوز الآذان إلى القلوب

النقد فى العصر الجاهلى

كان الشعر أهم فنون الأدب قبل الاسلام ، وما زال يرقى حتى وصل إلى درجة الكمال ، ولا بد أن يكون النقد أثر فيه تأثيراً شديداً حتى نضج وأوفى على الغاية . أما تدوين ذلك النقد فى عصور التدوين فلم يكن إلا نتفاً مبثوثة فى تضاعيف كتب الأدب ، ومقتضبات هي قلّ من كثر مما نقد النقاد وأخذ الشعراء بعضهم على بعض ، وإلا فأين صور العراك الأدبى الذى كان يعقد كل عام فى سوق عكاظ وغيرها من الأسواق ؟ وأين صور التثقيف للشعر وتربية الملكات حتى كانت أسرة زهير بن أبى سلمى كلها من الشعراء ؟ لا شك أن مجالات النقد كانت قائمة فى نواحى الجزيرة ، وحلبات الشعراء كانت تعقد بين القبائل فى النوادي الحين بعد الحين ، وكانت حوافز الشعر كثيرة ، وعوامل الاجادة ملحة ؛ فكانت القبيلة تقيم الولائم والأفراح إذا نبغ فيها شاعر ؛ لأنه معقد شرفها ، والذائد عن أحسابها وأنسابها ، ولقد كان العرب جد حريصين على سلامة لغتهم وفهم أسرارها لئلا تكون فى القصيدة كلمة نابية أو معنى غير ملائم

سمع طرفة بن العبد المتلمس ينشد بيته :

وقد أتناسى الهمَّ عند احتضاره بناج عليه الصيعَرِيّة مكدم

فقال طرفة : استنوق الجمل ، لأن الصيعرية سِمة تكون فى عنق الناقة لا البعير

وأخذ العرب على المهلهل بن ربيعة أنه كان يبالغ فى القول ، ويدعى فيه بأكثر من فعله ؛ ولاشك أن هذا نقد لصدق القائل ، وأنه يجب أن يكون القول صادراً

عن عقيدة ، ولذلك كانوا إذا سمعوا شاعراً أو خطيباً أجاد الكلام وبلغ الغاية يقولون : فلان أصاب المحزّ ، وطبق المفْصِل . وهذه ناحية من نواحى النقد التى يهتم بها فى العصر الحديث

ولو حفظ لنا التاريخ ماقيل فى سوق عكاظ حين أسمعت الخنساء النابغة الذبيانى قصيدتها فى رثاء صخر التى منها :

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علمٌ في رأسه نار

فقال لها : لو لا أن أبا بصير — يعنى الأعشى — أنشدنى لفضلتك على شعراء الموسم ؛ يقصد أنه لو لا أنه سبق بإصدار حكمه لفضلها — لو حفظ لنا التاريخ الحوار الذى قد حدث لكانت أسبابه أنها صادقة الشعور والإحساس ، بليغة الألفاظ جيدة المعانى

ولو نقل لنا غضب الشعراء أو رضاهم عن أبطال الموسم ، وأقوالهم فى ذلك ، لعظمت لدينا آثار النقد عند القدماء ، ولكن ما وصل إلينا لا يكفي فى الحكم على النقد فى العصر الجاهلى ؛ ذلك أن هذا الطور من أطوار الحياة العربية كان فذّاً فى التاريخ العربى ، إذ كان العرب قابعين فى جزيرتهم إلا قليلاً ، وكانت حياتهم فطرية ، ونظام حياتهم متشابهاً ، والنفوس العربية فارغة للقول والنضال الأدبى الذي طال عهده ؛ فلم يغتربوا عن أوطانهم العربية إلا للتجارة أو طلب الشعراء للجزيل من المال فى الحيرة حيث المناذرة ، وجلّق حيث الغساسنة ، ثم يعودون إلى بواديهم ، ويقضون العمر الطويل فيها ؛ لذلك توافر الوقت للاختمار ، وصقل اللغة ثم التسليم إلى لغة قريش ، وجعلها اللغة الرسمية للعرب عامة

وقد توالت العصور الإسلامية وهم يقولون : « أشعر الناس امرؤ القيس إذا غضب ، وزهير إذا رغب ، ، والأعشى إذا طرب ، والنابغة إذا رهب »

ولما أراد الله لهذه اللغة الكمال حق أن يجىء القرآن بها لتخلد على التاريخ ، وتبقى ما بقيت الدنيا

وجملة القول أن النقد فى العصر الجاهلى كان معتمداً على الفطرة ، ووحى الخاطر ، وتقدير اللفظ والمعنى ، وقوة التأثير ، وملاحظة كل عيب يمكن أن يمس

القصيدة فى المعنى والاستعمال وأعاريض الشعر وقوافيه .

قيل إن النابغة لما قال قصيدته التى منها :

أمن ال ميـة رائح أو مغتدِ عجلان ذا زاد وغـير مزوّدِ

زعم البوارح أن رحلتنا غـدا وبذاك خبرنا الغداف الأسودُ

لم يجرءوا أن ينبهوه إلى اختلاف حركة الروى الذى يسمى فى علم العروض الإقواء ؛ فلما دخل يثرب أسمعوه غناء من هذه القصيدة ، ففطن فلم يعد إلى ذلك وأصلح البيت بقوله : « وبذاك تنعاب الغراب الأسودِ »

وأجود الشعر عندهم المعلقات ، إذ هى تمثل حياة البادية وقوة الشعر تمثيلاً صحيحاً من حيث العناية بتخير الألفاظ ، ووصف كل ناحية من حياة العرب فى ركن من القصـيدة ؛ وقد رجح نقاد الأدب أن تسميتها بالمعلقات مجازية ، فهم يسمون القصيدة الجيدة سمطاً ، والسمط هو القلادة النفيسة التى تعلق فى العنق ؛ فالمعلقات معناها السموط والقلائد ، وحماد الراوية هو الذى أطلق عليها المعلقات ، ولعله يقصد هذا المعنى . قال أبو زيد القرشى صاحب جمهرة أشعار العرب : « هؤلاء أصحاب السبع الطوال التى يسميها العرب السموط »

أما النقد الأدبى فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم فقد حفلت كتب الأدب بالكثير منه ، وجال النقاد جولات قوية نافعة فيه ، وإن كانت غير مرتبة فهى فنية وسنعرض لها فى المقال التالى إن شاء الله .

« المدرسة الخديوية » حسنين حسن مخلوف

فتح طارق ابن زياد
بلاد الأندلس

بقلم عبد العظيم على قناوى

المدرس بمدرسة المعادى الابتدائية

قضى الأمر — أو كاد — واندثرت حضارة أسسها فى الغرب الإسلام على أيدى رجاله الأنجاد ، من اثنى عشر قرناً ونصف قرن على قوائم وطيدة من العلم والعرفان ، ورواسى راسخة من الإصلاح والعمران ، فزها العالم بتلك الحضارة غربيه وشرقيه قروناً عدة ؛ هذا لأنه مصدرها ، وذاك لأنه مهبطها ، رفع الإسلام فى ذلك الدهر أعلام المحبة والمودة ، فكان الدين السمح لا تعرف الموجدة قلوب أبنائه ، والمشرع العذب لا يُحَلَّأ أحد دون رشف مائه ، والشرع الحنيف لا يصيب بغير الحكمة والموعظة من أعدائه ، فدعا أبناء ذلك الدين الفاتح أهل تلك البلاد إلى التعاطف ؛ لا بين المسلمين وبينهم فحسب ، بل بين المسيحيين بعضهم على بعض ، وبين أولئك وبين اليهود ؛ حقناً للدماء ، وإبقاء على الذماء ، وإخلاداً إلى العمل المجدى ، وتفرغا لدعوة الحق ، فأزهرت البلاد أيما إزهار ، وازدهرت مقاطعاتها أعظم ازدهار ؛ حتى لقد كانت فتنة الأجيال فى الروعة والجمال ، فلها الفنون لا تدانى ، والصناعات لا تحاكى ، والمعارف لا تبارى ، والآثار لا تسامى ؛ على رغم ما كان يُكاد لملوكها ليلاً ونهارا ، إعلاناً وإسرارا ؛ يتقونه بكل تقية ويفتدونه بأى وسيلة لا تبيح حرمة ، ولا تهدر كرامة ، فكم هادنوا وحالفوا لا جبناً ولكن حفاظاً على دماء غالية أن تهدر ، وكم حاربوا وناضحوا لا ولعاً بتأريث البغضاء بل استئصالاً للداء أن يستشرى ؛ حتى أدركها ما يدرك كل كائن وأصابها ما يصيب السامق الصاعد من خفوق وهبوط ، وسقوط وحبوط ، فأخذت تدب فيها عوامل الوهن والفناء ، وتسرى فى أوصالها الأوباء والأدواء ، على قوة مناعتها وحصانة بيئتها ، ولكن الأعداء — وقد حشدوا لها أعظم حشد —

وقفوا لها كل مرصد ، وشهروا فى وجوه أبطال الفتح ، والعلم ، والسلم كل مغمد حتى هوى نجم الرشد والهداية ، وسقط علم المدنية والحضارة ، وطرد العرب منها من القرن الخامس عشر الميلادى إلى أوائل القرن السابع عشر ، وبلغ عدد المطرودين نحو ثلاثة ملايين عربى « كانوا نخبة المسلمين وأعظمهم صناعة وعلما ، فكان ما حدث للمسلمين من الفرنج أمام ضعفهم فى إسبانيا ، وما حدث منهم فيها أمام قوتهم وإمكانهم تنصير الفرنج بالقوة من الرحمة بالضعيف وحرية الدين حادثة يراها — حتى من لا يريد أن يرى — ، ويستدل بها على مبلغ الفرق بين آداب الأمتين[1] » ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقى بك ؛ إذ يقول :

نزل الهلال عن السماء فليتها طويت وعم العالمين ظلام
أزرى به وأزاله عن أوجه قدر يحط البدر وهو تمام

والآن — وقد أفنى بعض أبناء تلك الأمة العربية بآثارها العريقة بمخلفاتها بعضا ، وخربوا ما عمر لهم العرب ، ونقضوا ما أقاموا من حضارة لم يستطع أن ينال منها كر الليالى والأيام فنالت منها صواعق المدافع ، ومن آثار سخرت من الدهر ، فسخّر عليها وارثوها قذائف الطير — نرى إحياء ذكرها أسى على مدنية ضاعت فى عصر يزعمون أنه عصر المدنية ، وحزناً على حضارة طواها من يدعون محيي الحضارات ، فى قارة يسمونها حقاً سيدة القارات ، ولا علينا إن ذكرنا ، فإن الذكرى تنفع المؤمنين ، ولا إخالها إلا نافعة مجدية

الفتح

فتحت الأندلس مختتم سنة ثنتين وتسعين هجرية فى عهد أمير المؤمنين « الوليد بن عبد الملك » بعد أن استأذنه فى فتحها عامله على إفريقية « موسى ابن نصير » وكان قائداً بطلاً « عاقلاً شجاعاً كريماً تقياً لله تعالى ، ولم يهزم له جيش قط ، وكان والده نصير على جيش معاوية ، ومنزلته لديه مكينة » ، فهو قد ورث القيادة كابراً عن كابر ، فأذن له بعد أن أيقن أنه لا خطر على جيوش المسلمين ؛

(١) دائرة معارف القرن الرابع عشر الهجرى للأستاذ فريد وجدى المجلد الأول ص ٦٦٢

إذ كتب إليه الخليفة ناصحاً : « خضها بالسرايا حتى ترى ، ولا تغرر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال » ، فنفذ موسى أمر مولاه ، وأنفذ السرايا ، فلم يصب إحداها سوء ، وحينئذ نثر موسى كنانته ، وعجم أعواد أعوانه ، فلم يجد أشد بأساً ، ولا أصلب عوداً ، ولا أوفى حزماً ، ولا أصدق عزماً ، ولا أندى صوتاً ، ولا أروع بياناً من طارق والى « طنجة » ، ومتى اجتمعت كل هاتيك الصفات فى رجل فالنصر أول همه ، فقلده قيادة الجيش ، ولا يذكر المؤرخون الشيء الكثير عن شخصه ، فهم غير متفقين حتى فى نسبه ، فيرى بعضهم أنه عربى ينتسب إلى كندة ، ويزعم آخرون أنه إفريقى متعرب ، ولكنى أوثر الرأى الأول ؛ لفصاحته ، وشدة مُنته ، ولأن موسى فى ذكائه وفطنته ما كان ليطمئن فى مثل هذا الأمر الجلل إلى غير العربى ، على أنه لا يعنينا نسبه كثيراً ، فقديماً قيل : « أصل الفتى ماقد حصل » وهذا شأن طارق ؛ إن لم يكن ذا حسب ونسب ، ومال ونشب ، فقد كان ذا عزمة فتية ، وإرادة حديدية ، ويجمل بنا قبل حديث الفتح أن نلم إلمامة وجيزة ببعض أسبابه :

أولاً : عرفت الأندلس بالحسن والجمال ، والغنى والثروة ، فتربتها خصبة ، وحدائقها نضرة ؛ تجرى من تحتها الأنهار ، وتجنى منها الأثمار والأزهار ، وهى وفيرة الغنى بالمعادن ، ففيها الذهب والفضة والشبه والنحاس ؛ وبها النفائس الغالية ، والجواهر النادرة ، وهذا قل من كثر مما وصفت به فى النثر والشعر قال أبو عبيد البكرى :

« الأندلس شامية فى طيبها وهوائها ، يمانية فى اعتدالها واستوائها ، هندية فى عطرها وذكائها ، أهوازية فى عظم جبايتها ، صينية فى جواهر معادنها ، عدنية فى منافع سواحلها ، فيها آثار عظيمة لليونانيين أهل الحكمة ، وحاملى الفلسفة » وقال الوزير لسان الدين ابن الخطيب [1] :

« خص الله بلاد الأندلس من الربيع وغدق السقيا ، ولذاذة الأقوات ، وفراهة الحيوان ، ودزُور الفواكه ، وكثرة المياه ، وتبحر العمران ، وجودة اللباس ،

(١) نفح الطيب الجزء الثانى ص ١٤٩ « الطبعة الأخيرة »

وشرف الآنية ، وكثرة السلاح ، وصحة الهواء ، وابيضاض ألوان الإنسان ، ونيل الأذهان ، وفنون الصنائع ، وشهامة الطباع ، ونفوذ الإدراك ، واحتكام التمدن والاعتمار بما حرمه الكثير من الأقطار مما سواها » ؛ وقال غيرها :

« إنها جزيرة قد أحدقت بها البحار ، فأكثرت فيها الخصب والعمارة ، فمتى سافرت فيها من مدينة إلى مدينة ، لا تكاد تنقطع من العمارة ، ما بين قرى ومياه ومزارع ، والصحارى فيها معدومة ، ومما اختصت به أن قراها غاية من الجمال ؛ لتصنع أهلها فى أوضاعها وتبييضها لئلا تنبو عنها العيون ، فهى كما قيل :

لاحت قراها بين خضرة أيكها كالدر بين زبرجد مكنون

وما قاله الشعراء فيها أنصع وأبدع ، فهم ليسوا فى حاجة إلى استيحاء الخيال أو تخيل الجمال ، فحسبهم أن ينظروا ليشعروا ، ويتأملوا ليرتلوا ، ويسمعوا شدو البلابل ، ليوقعوا على قيثارة المفاعل ؛ فمن ذلك قول ابن سفر المريني :

فى أرض أندلس تلتذ نعماء ولا يفارق فيها القلب سراء
وليس فى غيرها بالعيش منتفع ولا تقوم بحق الأنس صهباء
وأين يعدل عن أرض تحض بها على المدامة أمواه وأفياء ؟
وكيف لا يبهج الأبصار رؤيتها وكل روض بها فى الوشي صنعاء ؟
أنهارها فضة ، والمسك تربتها ، والخز روضتها ، والدر حصباء
وللهواء بها لطف يرق به من لا يرق وتبدو منه أهواء
ليس النسيم الذى يهفو بها سحرا ولا انتثار لآلى الطل أنداء
وإنما أرج الند استثار بها فى ماء ورد فطابت منه أرجاء
وأين يبلغ منها ما أصنفه ؟ وكيف يحوى الذى حازته إحصاء ؟

وحسبنا هذا ، فما قيل فى وصفها كثير ، من نظيم ونثير

ثانياً : رغبة الخلفاء والأمراء فى نشر الاسلام ، ورفع ألويته فوق ربوع العالم ؛ حتى يسود المعمورة نظامه ، وتشمل الكون تعاليمه ، ويدين لذلك الدين المسماح الشرق والغرب

ثالثاً : اضطراب الأمر بين أمرائها ، وتفكك عناصرها ، والإحن تأكل

صدور كبرائها ، والأحقاد تغشى بصائر زعمائها ؛ فهذا يبكى ملكا سلب ، وذاك يندب عرضاً انتهك ، وثالث يشكو ظلماً عم ، مما جعل كل فرد فى نفسه شيعة ، وكلا يسعى لأخيه بالدس والوقيعة ، هذا إلى ما تسامعوا به عن عدالة العرب فى حكومتهم ، وتأمين الناس على دينهم وثروتهم ، ومساواتهم فى الحقوق بين خاصتهم وعامتهم ، حتى جعلوا العدل أساس ملكهم ، وصيروا التآلف والإخاء شعار مجدهم

تلك الأسباب وسواها هي التى حملت موسى بن نصير إلى أن يستمع إلى مشورة يليان أمير « سبتة » فى الفتح ؛ حتى يخلو له الجو من لذريق مليكه عدوه اللدود ؛ لسلبه عرض ابنته كرهاً ، « وقد كان من سير أكابر الأعاجم بالأندلس وقوادهم أن يبعثوا أولادهم الذين يريدون منفعتهم ، والتنويه بهم إلى بلاط الملك الأكبر بطليطلة ؛ ليصيروا فى خدمته ، ويتأدبوا بأدبه ، وينالوا من كرامته ؛ حتى إذا بلغوا ، أنكح بعضهم بعضا ، استئلافاً لآبائهم ، وحمل صدقاتهم ، وتولى تجهيز إنائهم إلى أزواجهن ، فاتفق أن فعل ذلك يليان عامل لذريق على « سبتة » وكانت يومئذ فى يد صاحب الأندلس ، وأهلها على النصرانية ، ركب الطريقة بابنة له بارعة الجمال[1] تكرم عليه ، فلما صارت عند لذريق وقعت عينه عليها فأعجبته ، وأحبها حباً شديداً ، ولم يملك نفسه حتى استكرهها وافتضها ، فاحتالت حتى أعلمت أباها بذلك سراً بمكاتبة خفية ، فأحفظه شأنها جدا ، واشتدت حميته وقال : ودين المسيح لأزيلن ملكه وسلطانه ، ولأحفرن تحت قدميه ، فكان امتعاضه من فاحشة ابنته هو السبب فى فتح الأندلس بالذى سبق من قدر الله تعالى[2] »

جهز موسى جيشاً عدته سبعة آلاف جله إفريقيون وقله عرب ، ومن « طنجة » اخترق به طارق المضيق على أربع سفن ليوليان ، وكان لطارق العين الساهرة ، واليد الضاربة ، والرأى الحازم ، والعزم الصارم ؛ ليثل عرش سالب شرفه ومقوض مجده لذريق ، فما زالت السفن تنقل الجيش حتى توافى بالجبل المسمى الآن « جبل طارق » ومنه سار طارق فاتحاً حتى فتح فرضة الأندلس

(١) كانت تدعى « فلورندا »

(٢) ورد بالجزء الثانى من النفح صفحة غمرة ١٧٥ (الطبعة الأخيرة)

« الجزيرة الخضراء » وبلغ لذريق الخبر فوقع عليه وقع الصواعق ، وسار من « قرطبة » فى جيش جرار يتراوح بين السبعين ألفاً ومائة ألف ، فلم تضطرب لطارق سكينة ، ولا تزعزعت له عزيمة ، ولكنه أخذ بالحزم ، فبعث إلى موسى يسأله مددا ، فأمده بخمسة آلاف على سفن أعدها ، ولما تكامل الجيش أحرق طارق السفن ؛ حتى يقطع على الجيش أمل العودة إلى بلادهم إن لم يتح لهم النصر ، وقام فى الجيش خطيباً ، فخطبهم خطبته العاصفة القاصفة التى تجعل من المنخوب الرعديد الأسدَ الصنديد ، كل كلمة من كلماتها صواعق وحمم ، وكل فقرة من فقراتها سعير يلتهب ، ويكفيها وصفاً أنها عصفت بدولة ، وقوضت دعائم مملكة ، وثلّت عرشاً مؤثلا ، وقد اشتملت على سياسة بارعة ، وحنكة رائعة ، فمنّاهم وأملهم ، ووعدهم ورغبهم ، فمن هذا الذى لا يرغب أن يكون للملوك سيداً ، ولأبنائهم ربا ولبناتهم مولى ، فاسمع إليه يقول لفتيان يجرى فى عروقهم دم حار فوار : « واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا ؛ استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فما حظكم فيه أوفر من حظى ، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات فى الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التجان ، وقد انتخبكم الوليد ابن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عزبانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا ؛ ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم لمجالدة الأبطال الفرسان »

ومما تتحدث به كتب التاريخ : « أن طارقاً رأى فى منامه النبى صلى الله عليه وسلم وحوله المهاجرون والأنصار ، قد تقلدوا السيوف ، وتنكبوا القسى ، فقال له: يا طارق ، تقدم لشأنك ؛ ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قدامه » . فاستيقظ فرحاً منتشياً يملأ الفخر عطفيه ، وبشر أصحابه . تلك رؤياه قد تكون حقيقية ؛ فالرجل مبلبل الخاطر مضطرب البال ، فليس غريباً أن يرى فى نومه ما يشغله فى يقظته ، وقد تكون خيالية دفعه إلى اختراعها رغبته فى إثارة جنده ، وبعث العزيمة فى نفوسهم والحمية فى قلوبهم ، فهذا رسول الله يتقدمهم ؛ وليس هذا الخيال غريباً على من يحرق السفن حتى لا يكون فى العودة أمل

وسار بعد ذلك فأصاب عجوزاً أندلسية ، فقالت له : إنه كان لها زوج عالم بالحدثان ، فكان يحدثهم عن أمير يدخل بلادهم فاتحاً ، ويصفه بأنه ضخم الهامة ، وأنت كذلك ، وبأن فى كتفه اليسرى شامة عليها شعر ، فإن كانت بك هذه العلامة فأنت هو . فكشف طارق ثوبه فإذا بالشامة فى كتفه على ما ذكرته ، فاستبشر بذلك هو ومن معه . ورأينا فى هذه القصة رأينا فى حديث الرؤيا ، قد تكون خيالية ، فأوحى إلى العجوز بما تقول ليقوى عزائم جنوده بأكثر من برهان ؛ وكأنى به يقول لصحابته : هاتان آيتان باهرتان ، وعلامتان واضحتان بينتان ؛ فلا تخشوا عديداً كثر ، ولا عُدَداً وفرت ، فلنا النصر المؤزر ، حدثنا به النبى رؤيا ، وحدثنا به العلم بشرى

وقبل التقاء الجمعين أرسل لذريق فارساً موسوماً بالنجدة والبأس ، معروفاً بالشهامة والمنة ليحرز عدد جيش طارق ، فرآه جنود المسلمين ، فتواثبوا عليه يريدون الفتك به ، ولكنه نجاه جواده ، إذ سابق به الريح ، ووصل إلى سيده يلهث وهو يقول : « خذ على نفسك ، قد جاءك من لا يريد إلا الموت ، أو إصابة ما تحت قدميك ، قد أحرقوا مراكبهم إياساً لأنفسهم من التعلق بها ، وصفوا فى السهل موطنين أنفسهم على الثبات ، إذ ليس لهم فى أرضنا مهرب » . فاشتد هلع لذريق ، وعظم جزعه وفزعه ، وخارت قواه المعنوية ، على حين تضاعفت قوة جيش طارق المعنوية بما قدمنا ، وناهيك بما لها من أثر ؛ إنها تقتحم المعاقل والحصون ، وتدك القلاع والسدود ، ولها ما ليس للكتائب والفيالق من نصر مبين

وفى أواخر رمضان سنة ثنتين وتسعين التقى الجمعان بعد أن أمَّن طارق أولاد غيطشة الذي اعتدى لزريق على ملكه ، فسلبه من وارثيه الشرعيين ، ومناهم طارق برد ضياعهم إليهم ، وكانت ثلاثة آلاف ضيعة ، وبرز لذريق فى جنود غفيرة وعدد وفيرة ، وقلوب منخوبة ، ونفوس مقهورة ؛ وطارق فى جيش قليلة عِدته ضئيلة عُدته ، ولكنه ذو قلوب جياشة ، ونفوس وثابة ، إن لقيت ربها فإلى الجنة وإن ظفرت بالحياة فلها الفخر والمنعة ، يحوط لذريق ملوكه وجموعه وكهنته

وبطارقته ، وتخفق فوق رأسه بنوده وألويته ، قد ركب فرساً أشهب عليه سرج من ذهب كلل بالياقوت والزبرجد ، وعلى رأسه ظلة من الديباج إن وقته وهج الشمس ؛ فلن تقيه لهب الحرب ، وفى قدميه خفان من الذهب المرصع

أما طارق وجنوده فبرزوا عليهم اللأم والزرد ، وفوق رءوسهم العمائم البيض وبأيديهم القسي ، قد تقلدوا السيوف واعتقلوا الرماح

التقى الجمعان قبيل شذونة ، وحمى وطيس الحرب ، واشتد أوارها ، واشتعلت نارها ، وإذ رأى طارق لذريق هجم عليه هجمة الأسد الهصور ، وانقض أصحابه معه انقضاض البزاة والنسور ، وأعملوا السيوف ؛ حتى تخاذلت عنه ميمنته وميسرته ، وكان قائداها ابنى غيطشة ، وتفرق مَن حوله ، وبقى فى شرذمة لا تصد عنه عادى المنون ، وتخلص إليه طارق ، فضربه ضربة أطاحت رأسه ، وأطاحت مع رأسه عرشه ، فلما رأى المخلصون له من جيشه مصرعه ، ثاروا واستبسلوا ، فجنت النفوس ، وتطايرت الرءوس ، وتجلدوا على ذلك أياماً انتهت بالفتح المكين والنصر المبين ، وتابع طارق الفتح ، والمدائن تفتح له صدورها بعد تمنع ، وتسلم له عذارها بعد تأب قاصد وتدلل ؛ حتى وصل إلى قرطبة فدخل فيها ، واستولى على نفائس لا يبلغها الوصف وذخائر لا يقدرها الحصر ، ومنها بعث البعوث لفتح المدن والحواضر : كمالقة وغرناطة ، وسار هو إلى طليطلة ، فلم يكن يقف فى طريق تلك البعوث إلا بغاث الطير ، لا تلبث أن ترى الحمام فتطير

ذلك حديث الفتح ، لا يقلل من أهميته أو يحد من عظمته أن نرى تلك الدولة قد دالت أيامها وعادت سيرتها الأولى ، وذلكم طارق بن زياد البطل الخالد فى القلوب وحسبه بحب القلوب خلدا ، الماجد فى التاريخ ، وأعظم بحديث التاريخ مجداً ، الحميد الإيثار ، ومن يستحق دون المؤثر حمدا ، القوى بسياسته وفتحه ، ومن أعظم من السياسى الفاتح أيْدا . ذلكم طارق يستقبل أميره الناقم عليه بعد أن كلفه جليلا فأنجزه ، وأعده لخطير من الأمر فأنفذه ، وأعطاه لواء ضعيفاً فعززه ، يستقبله لا فى صلف المفتخر أو زهو المنتصر ، بل فى تواضع وهو المستلئم الدارع ، وفي خضوع وهو قائد الجيش اللجب وذو الفوز الساطع ، وفى قناعة ولو أراد لكان الطامح

الطامع ، وكأنى بابن نصير خشى أن يزدهى طارقا نصره ، فيشق عصا الطاعة ، ولـكن طارقا كان الجندى النبيل والقائد العظيم ، وما أشبه موقفه هذا بموقف قائد المسلمين الأول خالد بن الوليد حينما عزله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عن إمارة الجيش فرجع إلى صفوف الجند :

يقوده حبشى فى عمامته ولا تحرك مخزوم عواليها

بل كان الجندى المطيع لرئيسه الذى كان من هنيـة مرءوسا ، وصار تابعاً وكان من قبل متبوعاً ، وعاد مأموراً ومن لحظة كان آمراً ، كذلك كان طارق الجندى المجهول إذ أصبح لموسى الجندى الشديد الطاعة ، وصرنا لا نعلم من أمره بعد أن تم الفتح على يديه ويدى موسى بن نصير إلا أنه عاد إلى الشام ، وبهامات ، ونختم كلمتنا تلك بأبيات من شعره إن فاتها حسن المطلع فحسبها نبل المنبع ، وإن تعدتها روعة القريض فلها بقائلها المجد العريض .

ركبنا سفينا بالمجـاز مقـيّرا عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوساً وأموالاً وأهلاً بجنـة إذا ما اشتهينا الشيء فيها تيسرا
ولسنا نبالى كيف سالت نفوسنا إذا نحن أدركنا الذى كان أجدرا

عبد العظيم على قنارى

مقابس من كتاب معجم الأدباء ليـــاقوت

للأستاذ عبد الخالق عمر

الأستاذ بدار العلوم

أقول مقابس وأخالف القائلين : مقتبسات ، ذلك أنهم يقولون : ما جرى على اسمى الفاعل والمفعول مما بدئ بميم زائدة فقياسه التصحيح للمذكر إن كان عاقلاً وللمؤنث إن كان غير عاقل ، واستثنوا من ذلك ماجاء من كلام العرب مكسراً مثل : ميمون ومشئوم وميسور ، إلى ذلك مما يكون سبع كلمات أو يزيد ، ولست أدرى وربك ما هذا التحكم الصرفي بعد أن جاء هـذا العدد مجموعاً جمع تكسير ، وربما قالوا : إنه جاء في الشعر والضرورة أساغته ؛ ولـكن مراضع جاءت فى كتاب الله الـكريم ، وجاء فى منثور العرب مطاليق ، وإذن فلا ضرورة لهذا الفرض الصرفى ، وبهذه المناسبة أستطرد لذكر أفعال إذا أسندت دلت على قيام الحدث بالمسند إليه من غير عمل منه ولا تأثير له فى غيره مثل : اخضر وما ماثلها من أفعال الألوان ومثل : غص وشل وشرق فأقول : إن مثل هذه الأفعال ليس لنا أن نبنيها للمفعول فإن وجودها فى الفاعل لم يكن من غيره ، ومثل هـذا فاعل اصطلاحا لا حقيقة ، والبناء للمفعول يقتضى مؤثراً فى المفعول ، وهذه لا مفعول لها تقتضيه فأولى بنا أن نجعلها فى كل استعمال لها مبنية للفاعل إلا إذا كانت متعدية . ولعلى مصيب فيما قلت والله أعلم بالصواب

رجع القول الى معجم الأدباء

كنت أسلفت القول فى ذكر طائفة من الشذاذ فى اللغة المتقعرين فيها ، وهأنذا أتبعه بذكر أمثلة أخرى وأبتدئ بذكر :

أحمد بن محمد بن ثوابة

أحمد بن محمد بن ثوابة بن خالد الكاتب أبو العباس ، قال محمد بن إسحق النديم : هو أحمد بن محمد بن ثوابة بن يونس أبو العباس الكاتب ، أصلهم نصارى ، وقيل إن يونس يعرف بلبابة وكان حجاماً ، وقيل : أمهم لبابة ، ومات أبو العباس سنة سبع وسبعين ومائتين ، وقال الصولى : مات فى سنة ثلاث وسبعين ، قال : وحدثنى أبو سعيد وهب بن إبراهيم بن طازاذ قال : كان بين على بن الحسين وبين أبى العباس بن ثوابة منازعة فى ضيعة فاجتمعا فى مجلس بعض الرؤساء وأحسبه عبيد الله بن سليمان ، فرد على بن الحسين مناظرة أبى العباس إلى أخيه أبى القاسم ابن الحسين فناظر أبا العباس فأقبل أبو العباس يهاتره ويطنز به[1] ، وقال في جملة قوله : من أنتم ؟ إنما نفقتم بالبذيذة[2] ، قال : فالتفت على بن الحسين إلى صبى كان معه كأنه الدنيا المقبلة فأخذ بيده وقام قائماً فى موضعه وكشف عن رأسه وقال بأعلى صوته : يامعشر الكتاب قد عرفتمونى وهذا ولدى من فلانة بنت فلان الفلانى وهى منى طالق الحرج[3] والسنة على سائر المذاهب إن لم يكن هذا الشرط الذى فى أخدعى شرط جده فلان المزين ، لا يكني عن جد ابن ثوابة . قال : فاستخذل أبو العباس ولم يحر جواباً ولا أجرى بعد ذلك كلاماً فى الضيعة وسلمها من غير منازعة ولا محاورة

قال : وكان أبو العباس من الثقلاء البغضاء وله كلام مدون مستهجن مستثقل ، منه : علىّ بماء الورد أغسل فمى من كلام الحاجم ؛ ومنه : لما رأى أمير المؤمنين الناس قد تدارسوا وتدقلموا وترنسعوا وتذوددوا تدسقن[4]

---

(١) يسخر ويهزأ ، وبابه نصر

(٢) نفقتم : ذاع صيتكم ، والبذيذة : التقشف وسوء الحال

(٣) أى الحرمة

(٤) حاولت جهدى أن أوفق إلى معانى هذه الكلمات وقلبتها على وجوه من النطق ، بفرض أنها ملحقات بالرباعى وبفرض أنها منحوتة من كلمتين ، حاولت كل هذا فلم أوفق وما أشبهها بتلك الكلمات التي كان بشار يقولها فاذا أحرج وسئل قال : اسم حمار أو جارية عندى

ولابن ثوابة أخبار كثيرة تؤيد ذكره بين أسماء الشذاذ الذين نذكرهم، منها ما يرتبط بالألفاظ، ومنها ما يرتبط بالمعاملة ؛ ونكتفي بذكر ما ذكرنا، ونأتي على طرف من أخلاقه ومعاملاته نتبين منها ما نريد إثباته له

قال الصولى : كانت بين أبى الصقر إسماعيل بن بلبل الوزير وبين العباس أحمد ابن محمد بن ثوابة وحشة شديدة لأسباب ، منها أشياء جرت فى مجلس صاعد فى آخر أيامه ، قد حدثنى رشيق الموسوى الخادم — وما رأيت خادماً أعقل منه ولا أكتب يداً — قال : كنا فى مجلس صاعد فسأل عن رجل ، فقال أبو الصقر: قد كان أنفى — يريد نفى — فقال ابن ثوابة : فى الخرء . فسمها ، فقال أبو الصقر : كيف تكلم مَن حقه أن يشد ويحد ؟ فقال ابن ثوابة : من جهلك ، أنك لا تعلم أن من يشد لا يحد ، ومن يحد لا يشد . ثم ضرب الدهر من ضربه ، فرأيت ابن ثوابة قد دخل إلى أبي الصقر بواسط ، فوقف بين يديه ثم قال : أيها الوزير « لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين » . فقال له أبو الصقر : « لا تثريب عليكم » يا أبا العباس ، ثم رفع مجلسه وقلده طساسيج [١] بابل وسورا وبرسما ، فضاعف وزاد فى الدعاء له ، فما زال والياً إلى أن توفى فى سنة ثلاث وسبعين ومائتين . هكذا ذكر الصولى والأول منقول من كتاب محمد بن إسحاق وهذا أولى بالصواب

قال الصولى : وحدثنى الحسين بن على الكاتب قال : كان أبو العيناء فى جملة أبى الصقر ، قال : وكان يعادى ابن ثوابة لمعاداة أبى الصقر ، فاجتمعا فى مجلس بعقب ما جرى بين أبى الصقر وبين ابن ثوابة فى مجلس صاعد فتلاحيا ، فقال له ابن ثوابة : أما تعرفنى ؟ قال : بلى أعرفك : ضيق العطن ، كثير الوسن ، قليل الفطن ، خار [٢] الذقن ، قد بلغنى تعديك على أبى الصقر ؛ وإنما حلم عنك لأنه لم ير عزًّا فيذله ، ولا علوًّا فيضعه ، ولا حجراً فيهدمه ؛ فعاف لحمك أن يأكله ، وسهك [٣] دمك

(١) الطساسيج (جمع طسوج) : الناحية
(٢) خار : من خر يخر لوجهه ، كناية عن الذل والضعة
(٣) سهك الدم : خبثت ريحه

أن يسفكه ، فقال له : اسكت ، فما تسابّ اثنان إلا غلب ألأمهما . قال أبو العيناء : فلهذا غلبت بالأمس أبا الصقر فأسكته

حدثنا أبو العباس التميمى : حدثنا جحظة فى أمالية قال : حضرت مجلس أبى العباس ثعلب وعنده جماعة من أصحابه وحضر أحمد بن على المادرائى فسأله عن أبى العباس بن ثوابة وقال له : متى عهدك به ؟ فقال : لا عهد ولا عقد ولا وفاق ولا ميثاق ، فقال له ثعلب : عهدى بك إذا غضبت هجوت فهل من شىء ؟ فأنشد

بنى ثوابة أنتم أثقل الأمم ... جمعتم ثقل الأوزار والتخم
أهاض حين أراكم من بشامتكم ... على القلوب وإن لم أوت من بشم (١)
كم قائل حين غاظته كتابتكم ... لو شئت يا رب ما علمت بالقلم

فقال ثعلب : أحسنت والله في شعرك وأسأت إلى القوم . وعن أبى الفرج الأصبهانى حدثنى أبو الفضل العباس بن أحمد بن محمد بن ثوابة قال : قدم البحترى النيل على أحمد بن على الاسكافى مادحاً له فلم يثبه ثواباً يرضاه بعد أن طالت مدته عنده فهجاه بقصيدته التى يقول فيها :

ما كسبنا من أحمد بن على ... ومن النيل غير حمى النيل (٢)

وهجاه بقصيدة أخرى أولها :

قصة النيل فاسمعوها عجابه ...

فجمع إلى هجائه إياه هجاء بنى ثوابة وبلغ ذلك أبى فبعث إليه بألف درهم وثياباً ودابة بسرجها ولجامها فرده وقال : قد أسلفتكم إساءة فلا يجوز معها قبول صلتكم ! فكتب إليه أبى : أما الأساءة فمغفورة والمعذرة مشكورة والحسنات يذهبن السيئات ، وما يأسو جراحك مثل يدك ، وقد رددت إليك ما رددته علىّ وأضعفته فان تلافيت ما فرط منك أثبنا وشكرنا وإن لم تفعل احتملنا وصبرنا . فقبل ما بعث به وكتب إليه : كلامك والله أحسن من شعرى ، وقد أسلفتنى

(١) أهاض : تعتريني الهيضة : وهى قيء وكرب وإسهال ، وهذا مايسمونه « الكارة » . بشامتكم : ثقلكم . البشم : التخمة

(٢) النيل (غير نيل مصر) : بجهات بغداد

ما أخجلنى ، وحملتنى ما أثقلنى وسيأتيك ثنائى . ثم غدا عليه بقصيدة أولها :

ضلال لها ! ما ذا أرادت من الصد ؟

وقال فيه بعد ذلك :

برق أضاء العقيق من ضرمه

وقال فيه أيضاً :

إن دعاه داعى الهوى فأجابه

فلم يزل أبى يصله بعد ذلك ، وتتابع بره لديه حتى افترقا

ولابن ثوابة نثر جيد ، منه : من حق المكاتبة أن يسبقها أنس وينعقد قبلها ود ، ولكن الحاجة أعجلت عن ذلك ، فكتبت كتاب من يحسن الظن إلى من يحققه

ومن فصل له إلى عبيد الله بن سليمان : لم يؤت الوزير من عدم فضيلة ، ولم أوت من عدم وسيلة ، وغلة الصادى تأبى له انتظار الوراد وتعجل عن تأمل مابين الغدير والواد ، ولم أزل أترقب أن يخطرنى بباله ترقب الصائم لفطره ، وأنتظره انتظار السارى لفجره ، إلى أن برح الخفاء وكشف الغطاء وشمت الأعداء ، وإن فى تخلفى وتقدم المقصرين لآية للمتوسمين والحمد لله رب العالمين .

وله توقيع ظريف كتبه فى إحدى الرقاع التى قدمت له فقد روى هلال ابن المحسن فى كتاب الوزراء ما يأتى : حدث على بن سليمان الأخفش قال : ذكر لى المبرد أنه كان فى يوم نوبة له عند أبى العباس أحمد بن محمد بن ثوابة حتى دخل عليه غلامه ، وفى يده رقعة البحترى فقرأها أبو العباس ووقع فيها توقيعاً خفيفاً وأمر بإصلاحها فأصلحت وأعيدت إليه . قال المبرد : فرمى بها إلى فإذا فيها :

اسلم أبا العباس وابق فلا أزال الله ظلك
وكن الذي يبقى لنا ونموت حين نموت قبلك
لى حاجة أرجو لها إحسانك الأوفى وفضلك
والمجد مشترط عليك قضاءها والشرط أملك
فلئن كفيت ملمها فلمثلها أعددت مثلك

قال : وإذا قد وقع أبو العباس : مقضية والله الذى لا إله إلا هو ، ولو أتلفت

المال وأذهبت الحال ، فقل — رعاك الله — : ما شئت منبسطاً ، وثق بما أنا عليه لك مغتبطاً إن شاء الله تعالى .

* * *

هذه طائفة من أخبار ابن ثوابة تنبيء فى الجملة عن شيء من حاله التى أشرت إليها ، كما أنها تدلنا على أن له من القول البالغ والنثر العظيم مقداراً يعد به فى زمرة الكتاب المعدودين

وكما حدثتنا هذه الشذرات عن هذا فإنها أيضاً تعرفنا أن أناساً كثيرين يحسدونه على هذا النوع من النبوغ ، ويخيل إلى أن خلق العنجهية الذى كان يتمسك به والتطرف فى الكلام يفض عنه من حوله ؛ والحق أن الخروج عن المألوف وجفاف الطبع حائل بين الشخص ومجالسيه ، وإن شئت فقل وأقاربه وأهله فإذا انضم إلى ذلك وضاعة نسبه وصغار أصله كانت الطامة ؛ ومن هذا الذى ذكرت يتضح رأيى فيه كما يدور فى خلدى أنه كاتب أديب فحسب بمعنى أنه بعيد عن الحياة الاجتماعية فى عصر يتعاظم فيه كل فرد بدراية الأدب والعلوم المعربة ولو إلى درجة قليلة وترى هذا يدور فى نثرهم ونظمهم وحديثهم فمن لم يماثلهم ير نفسه فى واد بعيد عن معاشريه ولا يسعه إذ ذاك إلا أن يظهر بمظهر المتكبر على الناس المتعالى عليهم ومن هنا تجيء الظنون فى الشخص تترى

وقد دعانى إلى كتابة ما سلف أن كثيراً من الناس صغروا من قدره وشوهوا من عقله وجعلوه طفلا لا يعى بما نسبوه إليه من البعد عن أحوال الحياة وصوروه رجلاً مضحكاً لما فيه من بله وجهل فاضحين . وإليك شيئاً مما حدثوا به عن ابن ثوابة ، قال ياقوت : قال أبو حيان فى كتاب الوزيرين[1] : حدثنا أبو بكر الصَّيْمرى قال : حدثنا ابن سمكة قال : حدثنا ابن محارب قال : سمعت أحمد ابن أبى الطيب يقول : إن صديقاً لابن ثوابة الكاتب أبى العباس يكنى أباعبيدة قال له ذات يوم : إنك بحمد الله ومنه ذو أدب وفصاحة وبراعة فلو أكملت فضائلك بأن تضيف إليها معرفة البرهان القياسى وعلم الأشكال الهندسية الدالة على حقائق الأشياء ، وقرأت أقليدس

(١) الوزيران : ابن عباد وابن العميد

وتدبرته. فقال ابن ثوابة : وما أقليدس ومن هو ؟ قال : رجل من علماء الروم يسمى بهذا الاسم وضع كتاباً فيه أشكال مختلفة تدل على حقائق الأشياء المعلومة والمغيبة يشحذ الذهن ويدقق الفهم ويلطف المعرفة ويصفى الحاسة ويثبت الروية (وما زال أبو عبيدة يرغبه حتى خضع لقوله وأحضر له رجلاً اسمه قويرى يعلمه ذلك)

قال ابن أبي الطيب : فكتبت لابن ثوابة كتاباً أستعلم فيه عن الحادث (وهنا ذكر ياقوت كتاب أبي الطيب ورد ابن ثوابة عليه . والرسالة الأولى قصيرة والرد طويل شرح فيه ابن ثوابة حاله مع قويرى النصرانى ثم مع آخر مسلم يدعى أبا يحيى ولم أر فائدة كبرى فى الإتيان بنصها غير أنى أورد منها شيئاً يجلو لنا موقف ابن ثوابة الذى من أجله رمى بالجهل والغباوة) وذلك عند ما اجتمع به قويرى فى المرة الأولى وأبو يحيى في الأخرى

يقول ابن ثوابة فى وصف قويرى : فأتانى (الضمير لأبى عبيدة) بشيخ ديرانى[1] شاخص النظر منتشر عصب البصر طويل مشذب[2] محزوم الوسط متزمل فى مَسْكَةٍ[3] فاستعذت بالرحمن إذ نزغنى الشيطان ... ثم يقول :

قال (يريد قويرى) : فأحضرنى دواة وقرطاساً ، فأحضرتهما فأخذ القلم ونكت نكْتة نقط منها نقطة تخيلها بصرى وتوهمها طرفى كأصغر من حبة الذرَّة فزمزم[4] عليها من وساوسه وتلا عليها من حكم أسفار أباطيله وأقبل علىّ وقال : أيها الرجل ، إن هذه النقطة شيء لا جزء له ، فقلت أضللتنى ورب الكعبة ؛ وما الشيء الذى لا جزء له ؟ فقال : البسيط ، فأذهلنى وحيرنى وكاد يأتى على عقلى لولا أن هدانى ربى لأنه أتانى بلغة ماسمعتها والله من عربى ولا عجمى ، فقلت أنا : وما الشيء البسيط ؟ فقال : كالله والنفس ، فقلت له : إنك من الملحدين ؛ أتضرب بالله الأمثال والله يقول : « فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون » ، وأعوذ بالله من الحين وأبرأ إليه منكم ومما تلحدون والله ولى أمير المؤمنين إنى برئ مما تشركون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . ثم قال ، فقال لى آخر من

(١) نسبة إلى الدير (٢) مهذب
(٣) قطعة من جلد (٤) تكلم بلا صوت

الجالسين أن عندى مسلماً يتقدم أهل هذا العلم ، فقلت ائتنى به ، فأتانى برجل قصير دحداح[١] آدم مجدور الوجه أخفش[٢] العينين أجلح[٣] أفطس[٤] سيء النظر قبيح الزى ... إلى أن قال يحدث هـذا الجديد المكنى بأبى يحيى : إن النصرانى نقط نقطة أصغر من سم الخياط وقال لى إنها معقولة كربك الأعلى ، فو الله ما عدا فرعون وكفره وإفكه . قال أبو يحيى : إنى أعفيك من النقطة لعن الله قويرى ، وما كان يصنع بالنقطة ؟ وهل بلغت أنت أن تعرف النقطة ؟ فقلت استجهلنى ورب الكعبة ، ونازعتنى نفسى معالجته بغليظ العقوبة ثم استعطفنى الحلم إلى الأخذ بالفضل — ولما جىء لهذا الثانى بما طلب من الأدوات خط خطاً وقال لى غير متعاظم إن هذا الخط طول بلا عرض ؛ فتذكرت صراط ربى المستقيم وقلت له : قاتلك الله أندرى ما تقول ؟ تعالى صراط ربى المستقسيم عن تخطيطك وتشبيهك وتحريفك وتضليلك إنه لصراط مستقيم وإنه لأحد من السيف وأدق من الشعر

ثم قال بعد لومه وتأنيبه وقذفه بهجر القول : أعوذ بالله وأبرأ إليه من الهندسة ومما تدل عليه وترشد إليه إنى برىء من الهندسة ومما تسرون وما تعلنون ولبئسما سولت لك نفسك أن تكون من خزنتها (جهنم) بل من وقودها وإن لك فيها لأنكالا وسلاسل وأغلالا وطعاما ذا غصة — يقول بعد ماسبق : ثم أخذت قرطاساً وكتبت بيدى يميناً آليت فيها بكل عهد مؤكد وعقد مردد ويمين ليست لها كفارة أنى لا أنظر فى الهندسة أبداً ، وأكدت بمثل ذلك على عقبي وعقب عقبى لا تنظروا فيها ولا تتعلموها ما دامت السموات والأرض إلى أن تقوم الساعة لميقات يوم معلوم اهـ بتصرف

قال ياقوت فى آخر ترجمة ابن ثوابة — وفى هذا القول يبدى رأيه فى ابن ثوابة متصوراً أن كل ما جاء فى الرسالتين سالفتى الذكر من أوضاع الكاتبين قال :

---

(١) قصير
(٢) سيء البصر نهاراً
(٣) انحسر شعره عن جانبي رأسه
(٤) صفة للأنف الذى ليس دقيقاً

قال عبد الله الفقير إليه مؤلف هذا الكتاب : لا شك أن أكثر ما فى هذه الرسالة مفتعل مزور وما أظن برجل مثل ابن ثوابة — وهو بمكانة من العلم بحيث تلقى إليه مقاليد الخلافة ، فيخاطب عنها بلسانه القاصى والدانى ، ويرتضيه العقلاء والوزراء بحيث لا يرون له نظيراً فى زمانه فى براعة لسانه ، تولى كتابة الإنشاء السنين الكثيرة — أن يكون منه هذا كله

ثم قال : فأما ماتقدم من حديث ابن ثوابة فهو غاية فى التجلف ، والرجل كان أجل من ذلك ، وإنما أتى إما من جهة احمد بن أبى الطيب لأنه كان فيلسوفاً ، وكان ابن ثوابة متعجرفاً كما ذكرنا ، فأخذ يسخر منه ليضحك المعتضد ، فإن أحمد بن الطيب كان من جلساء المتعضد ؛ وإما أن يكون أبوحيان جرى على عادته فى وضع ما أكثر من وضعه من مثل ذلك والله أعلم

عبد المتعال محمد

في التاريخ

فـــــؤاد الأول

بقلم المتولى قاسم

المدرس بمدرسة محمد على الملكية للبنات

أُهدى إلى نادى دار العلوم هـذا المؤلف التاريخى عن حياة المغفور له الملك فؤاد الأول ، وهو من تأليف الأساتذة : عبد العزيز الأزهرى ، وعلى عبيـد الله سرحان ، ومحمد مجاهد — المدرسين بالمدارس الأميرية — وقد صـدر الـكتاب بكلمة مأثورة عن جلالة المترجم له ، عما لدراسة الشعب تاريخ أسلافه وأعمال أبطاله من بالغ الأثر فى شحذ همته وتوجيه عزيمته إلى إدراك المثل الأعلى فى حياته وبعد هذه الدرة الثمينة كلمة الإهداء من المؤلفين إلى صاحب الجلالة الملك فاروق الأول . وهى طاقة شذية من زهرات ندية زفوها فى ولاء وإخلاص إلى ألمع كوكب فى سماء مصر ، وأندر غصن فى الدوحة المحمدية العلوية — وأعقبوها كلمة أخرى فى بيان الغرض الذى حدا بهم إلى تخيّر هـذه الشخصية العظيمة واختصاصها بالبحث والترجمة ، والـكشف عن مبلغ الجهد الذي بذلوا متوالياً سبعة عشر شهراً ، يغوصون بين لجج الوثائق والمذكرات والـكتب الشرقية والغربية ، حتى جمعوا مواد كتابهم ، ومزجوا عناصرها وألفوا بينها فى نسق جميـل ونظام بديع ؛ فجاء الـكتاب ناطقاً بمجهودهم شاهداً بفضلهم ، نافعاً أجل النفع لمن يسعده الحظ بالاطلاع عليه

أما الخطة التى انتهجوها لأنفسهم فى وضع الـكتاب فهى التقديم لـكبريات الحوادث بظروفها وبواعثها ، حتى تستقر فى نفس القارىء واضحة باقية الأثر ، ثم التعقيب عليها بنتائجها البازرة ؛ وربما أصدروا أحكاماً برأيهم فيها فى رفق وهدوء ، والمؤلف المعاصر ذو فضل على غيره فى رواية الحوادث وإبرازها واضحة فى معرض دواعيها وأسبابها ، وهى لا تزال عالقة بالأذهان ، ظاهرة الارتباط

بعضها ببعض ؛ فهم بذلك قدموا للجيل الناشىء ومن بعده مادة خصبة للمعرفة والموازنة والحكم القائم على أساس متين من تحرى الصدق والصواب .

أما أسلوب التأليف فقد التزموا فيه دقة التقسيم والتبويب ، فضموا كل شكل إلى شكله ، وزاوجوا بين الطوائف ، وجعلوا لكل طائفة من بحوثهم عنواناً كبيراً يضم أشتاتها ويؤلف بينها ؛ مع الافاضة التامة حتى ليخيل إلىّ أنهم كانوا يريدون أن يخصوا كل عنوان بكتاب خاص يجمعه بين دفتيه ؛ وكأنى بهم قدّروا لكتابهم حداً يربحون القلم عنده ، فأفلت زمامه من أيديهم مرات ، وذلك لما يمتاز به الكتاب من الخصب فى كل ناحية طرقوها ؛ وفى الكتاب من أجل ذلك وغيره لذة للعقل ولذة للنفس ، وإرضاء لعاطفة الإعجاب بالبطولة وجميل الصفات ، وإشباع للروح الوطنى ، وشحذ للعزائم ؛ حتى إنه ليستأثر بالقارئ ويغريه بالتتبع والاستقصاء ، فلا يشبع نهمه أو يفضى به إلى الختام ؛ وإنى لأشهد لقد قضيت وقتاً سعيداً بين أفيائه ونسائمه أغذى النفس بآيات البطولة وأعجب بروائع الأخلاق العالية ، وألمس دلائل الإخلاص للوطن ، وأشهد مبلغ حدب المليك المغفور له وعطفه على هذا الشعب المصرى الذى كان أكبر أمانيه أن يراه عزيز الجانب مرفوع الرأس بين الدول العظمى ، مساهماً بأوفر نصيب فى التقدم الإنسانى العالمى

أما الأسلوب الكتابى الفنى فيمتاز بالسهولة والروعة ووضوح المذهب واستنارة السبيل ، كأنه محدث بارع يخلب لب سامعيه ويجتذب انتباههم ، ويملك إعجابهم ؛ على أن فيه هنات قليلة ، تغض من جماله الفني ، ولكن لا تغض من قيمته التاريخية ، ولولا أن حضرات المؤلفين أساتذة فى اللغة العربية لأغفلنا الإشارة إليها

والكتاب فى الحقيقة تاريخ شامل لنهضة مصر وانتعاشها وتقدمها علمياً وسياسياً واجتماعياً وإنسانياً فى الفترة التى اقترنت بحياة المترجم له ؛ وقد كان جديراً به أن يسمى (مصر فى صدر القرن العشرين) لولا ما كان لذلك الملك العالم ، والسياسى المحنك ، والمصلح العظيم ، من عميق الأثر وحسن التوجيه فى

كل نواحى التقدم المصرى .

وقد قامت على إخراجه مطبعة مصر على ورق صقيل فى خمسين وأربعمائة صفحة من القطع المتوسط ، بحروف دقيقة واضحة جميلة ، محلى بالصور فى كثير من صفحاته ؛ فجاء غاية فى الدقة وآية فى الإتقان ، وخير برهان على ما امتازت به مطبعة مصر من جودة العمل وإحكامه

وهو مقسم ستة أقسام كبيرة :

١ — الأسرة المحمدية العلوية فى نحو ستين صفحة ، وهذا القسم يتحلى بأشهر صفات المليك ، وطريقته فى تربية ولى عهده الفاروق و . . .

٢ — القسم العلمى فى أكثر من تسعين صفحة ، وهو يزدان بعوامل الثقافة لدى المليك ، وبيان الجماعات العلمية التى عنى بها وانتعشت تحت ظل رعايته أميراً وملكاً ، والنهضة العامة فى وزارة المعارف والجامعة المصرية

٣ — القسم السياسى فى ثلاثين ومائة صفحة وهو يسجل حالة مصر قبيل الحماية وفى أثنائها ، ويجلو حوادث الثورة المصرية ، وإعلان الاستقلال ، ووضع الدستور ، وفيه عرض لأعمال الوزارات المتتابعة فى هذه الفترة التى انتهت بالمعاهدة ، وفيه موازنة بينها وبين معاهدة الحديبية ، ومعاهدتى العراق وسورية

٤ — القسم الدينى فى نحو خمسين صفحة ويتجلى فيه مبلغ احترام المليك للدين ، ورعايته للأزهر الشريف ، وعطفه على مسلمى العالم الخارجى ، وسخائه على الجماعات الخيرية ... الخ

٥ — قسم الرحلات الملكية فى أربعين صفحة ، وفيه سجل جامع لجميع الرحلات الملكية وأثرها العظيم فى مصر وأوربة ، وبيان لتنافس الشعب فى إرضاء المليك بالأعمال النافعة لأبناء الوطن

٦ — العصر الذهبى فى ستين صفحة وهو جامع لألوان الرقى المصرية من زراعية وتجارية وصناعية ، وصحية ورياضية ، وصحافية ... الخ

وهو مذيل ببيان للمراجع العربيـة والإفرنجية يشمل صفحتين كاملتين — وهذا يدل على مقدار عناية المؤلفين بهذا الكتاب حتى جاء مرجعاً نافعاً للباحثين من مؤرخ وصحفى وأديب وسياسى واجتماعى ، وفيه خير معوان للزعيم المصلح ، إذ يريد أن يستوحى الماضى حتى يأمن العثار ، ويتوقى مواطن الزلل ، ويتوخى سبيل الحكمة والرفق ، فيصل بالشعب إلى مواطن العزة والسعادة

فإلى حضرات المؤلفين نقدم أطيب الثناء على مجهودهم الموفق ، وجزيل الشكر على هديتهم الجميلة النافعة ، وإلى الله تعالى نرفع أكف الرجاء وخالص الدعاء أن يجعل لكتابهم أوفر قسط فى تربية الجيل الناشىء والأجيال المقبله ، وحفز هممهم إلى بلوغ مراتب العظمة ومنازل الكمال

المتولى قاسم

ابن المقفع

كتاب الأستاذ عبد اللطيف حمزه

بقلم محمود الطنيخى

المدرس بالمدرسة الخديوية

إخالك تعترف معى بأن ابن المقفع شخصية كبيرة ، لها أثرها المحمود فى الأدب ؛ فليس بغريب أن يُعنى الأدباء ببحث هذه الشخصية ، بل الغريب ألا يفعلوا

ويحيط الاضطراب والغموض بكثير من نواحى ابن المقفع ؛ لذلك أقبلت على قراءة هذا الكتاب ، شاكراً للأستاذ عبد اللطيف بحثه ومجهوده فيه على كل حال ، سواء اتفقت معه فى نظره أو اختلفت ، فإن ذلك لن يضيع مجهوده سدى ، ولن يجعلنى أغمطه حقه ، فله من الأدباء حسن المثوبة ومن المتأدبين الثناء الجميل

***

وفى الحق أن كثيراً من الغموض يحيط بحياة ابن المقفع ، ولذلك دأب الكاتب على كشف الغموض عنه حتى يظهرهُ كما هو لا كما يتصوره الرواة ؛ فعمد إلى المظان ، ومايل بين بعض الروايات وبعض ، مستخلصاً الحقيقة فى لفظ لين وأسلوب سهل

وغاية ما كنت أصبو له وأتمناه أن تكون وقفته أمام بعض النقط أطول مما وقف ، حتى نقر له بالحسنيين : الاستيعاب والتدقيق

مولد ابن المقفع

يكتنف الغموض مولده ، وقد تركه الأستاذ غامضاً كما هو ، فالأستاذ الجليل كرد على فى كتابه (أمراء البيان) يرجح أنه توفى وسنه حوالى الستين ، بين عامى

١٤٢ و ١٤٥ هـ ، ويرى أن ولادته تقع قبل عامى ١٠٦ و ١٠٧ هـ كما ذكرت المصادر الحديثة . فكنت أود أن يقف المؤلف عند رواية البلاذري فى كتابه (فتوح البلدان) التي ذكرها فى صفحة ٥٣ حتى نظفر بالحقيقة ؛ لا سيما أنه جعل للبصرة أربعة أطوار ، كان أستاذ الطور الرابع منها فى زعمه ابن المقفع . وكان هذا بعد موت واصل بن عطاء عام ١٣١ هـ فكأن ابن المقفع كان أستاذ البصرة وسنه حول ٢٥ أو ٢٦ سنة ، وهذا قول لا يقبله العقل بسهولة ، بل قد يرده ؛ فابن المقفع كما يذكر المؤلف وكما يذكر الأستاذ كرد على ، عاش فى أحضان والده بفارس ، وتثقف بالثقافة الفارسية ، ثم رحل إلى البصرة فى وقت لا نعلمه ، وإذن فمتى تثقف بالثقافة الفارسية ؟ ومتى تعلم العربية وشدا فيها ؟ ومتى تزعّم والبصرة كما يقول كانت فى هذا الوقت مائجة بالعلم والعلماء ، زاخرة بالأدب والمتأدبين يكثر فيها الشعراء والمتكلمون

فلو أنه حقق رواية البلاذرى لساعدته على إسناد الزعامة له فى سن متقدمة نوعاً تسمح له بالتعلم أولاً ثم بالزعامة ثانياً ، لا سيما أنه يقول فى صفحة ٥٦ : «وكان يفد على آل سليمان بن على بالبصرة رجل من البادية يقال له أبو الجاموس ثور ابن يزيد ... وقيل إنه عن هذا الرجل أخذ ابن المقفع الفصاحة وتاقى ، فصحت سليقته واستقامت عربيته ... »

لونه السياسى

أما لون ابن المقفع السياسى فقد أتى المؤلف فيه على آراء أعتقد أنه لو حقق فيها النظر لعدل عنها ونفر منها ، فما قال قبله قائل ولا تصور متصور بأن دعوة تدبر فى الخفاء وتدار فى السر لقلب دولة من أجل خليفة مجهول ، حتى إذا ما نجحت الدعوة يبعث صاحبها فى مفاوضة أناس علّهم يقبلون الخلافة . وهل يعقل أن يشترك العباسيون وبعض الموالى من الفرس فى الدعوة سرًّا ، وكلٌّ يجهل نية صاحبه : فالعباسيون يقصدون بآل البيت أنفسهم ، والموالى يقصدون

بآل البيت العلويين ؛ وتستمر الدعوة هكذا ، حتى إذا جاء وقت العلن أعلن العباسيون أنهم يعنون أنفسهم ، ويحبس أبو سلمة الخلال السفاح فى بيته شهرين من أجل البحث عن خليفة علوى ؛ وهذا حيث يقول فى صفحة ٥٩ « فقالوا : نطالب بالخلافة للعلويين ... وبدءوا دعوتهم سراً لم يكن يعلم بهم أحد أول الأمر ولكن نفراً من العباسيين علموا ذلك السر ، وأحبوا أن ينتهزوا الفرصة السانحة وخدعوهم عن أنفسهم بهذه الحيلة ؛ وهى أنهم قالوا لهم : إنا داعون مثلكم لآل البيت ، ولكن من هم آل البيت ؟ أما الفرس فيعنون بآل البيت أنهم العلويون وأما العباسيون فيفهمون أن آل البيت هم العباسيون ؛ وظل كل فريق يضمر فى نفسه ما يفهمه وما يعنيه ، وسارت الدعوة فى طريقها السرى الذى نعلمه ، حتى تجاوزته إلى طريق العلن ؛ وهنا أظهر العباسيون أنهم يقصدون أنفسهم بهذا البيت ؛ ورأى زعيم الموالى إذ ذاك « أبو سلمة الخلاّل » ... أن الدعوة صائرة على ما يكره إلى بنى العباس ، فأبطأ أول الأمر فى إعلان الخلافة ، وتلكأ بالفعل فى مبايعة السفاح ؛ بل إنه حبس السفاح فى بيته شهرين ، وحظر على الناس مقابلته ، وطفق فى أثناء ذلك يراسل بعض العلويين فى الأمر ويطلب إليهم أن يقبلوا الخلافة ...!»

وأنا بعد هذا أترك إلى المؤلف الحكم ، وأترك إليه إعادة النظر فى القصة التى حكاها المسعودى ص ٦١ لعله يغيّر ما قال ويعدل عما رأى

ابن المقفع الكاتب

عرض المؤلف فى هذا الفصل إلى نظرية أسبقية الشعر للخطابة وللنثر الفني ، وإنه في ذلك متبع لا مبتدع ، ولكنه انحرف كثيراً عن نظرية عميد كلية الآداب الدكتور طه حسين ؛ فهو لم يقصد إلى هذا مطلقاً ، ولم يجعل أى جماعة فى الطور الذى يلى بداية عهدها بالوجود تعبر عن عواطفها بالشعر بالاستنتاج الذى ذكره المؤلف فى صفحة ١٧٢ ؛ وذكر فى هذا الفصل أن خصائص تلاميذ المدرسة

الكتابية الأولى هى خصائص الخطابة ، وذكر الإيجاز فجعله للخطابة أولاً ثم للكتابة تشبيهاً لها بالخطابة فى طورها الأول . ولو رجع إلى طائفة من خطب العصر العباسى الأول أو الأموى لنقض قوله بنفسه ؛ فما كانت الخطب موجزة فى هذا العصر ، وما قال أحد قبله بأن من طبيعتها الإيجاز ، فأولى خصائص الخطابة إيراد عبارات كثيرة على معنى واحد ، لتثبيتها فى ذهن السامع ، ولإحداث الأثر المطلوب من الخطابة ؛ فيتبين من هذا أن ما عرض له المؤلف — من جعل كل فن من الفنون الثلاثة : الشعر ، والخطابة ، والنثر الفنى ، يأخذ خصائص سابقه — يحتاج إلى شىء من التمحيص والبحث . فما كان الايجاز فى الكتابة فى هذا العصر تبعاً للخطابة

وبعد ، فأشكر للأستاذ ما بذل من جهد ، وما قصد إليه من غاية

محمود الطنجى

الفهرس

٠	مقدمة	التحرير .. ..
١	عيد الاحسان (قصيدة)	: للشاعر محمود حسن إسماعيل . ...
٤	الخيال فى الأدب	: للأستاذ أحمد الشايب... ... ...
١٤	أسس الاصلاح فى دار العلوم	: للدكتور على العنانى ... ...
١٩	علم النفس وصلته باللغة والأدب والاجتماع	: للأستاذ محمد خلف الله . ...
٢٣	الدلالة النفسية للألفاظ والتراكيب العربية	سيد قطب ... ...
٣٧	الثقافة	: للأستاذ عبد الحميد حسن ... ...
٤٣	أسلوب المتنبي	: للأستاذ عبد الوهاب حمودة . ...
٦١	الفكاهة فى الأدب	: أحمد هاشم عطية .. ..
٦٩	الوضوح والغموض وطبيعة الأدب ...	: عبد الباقى إبراهيم . ...
٧٤	نقد الشعر	: فايد العمروسى ... ...
٨١	بين الحقيقة والخيال	: للأستاذ عبد اللطيف المغربى . ...
٩١	رجلس (قصة)	: عبد العزيز عتيق .. ..
٩٩	الجندى والشباب (قصيدة)	: محمود إبراهيم محمد . ...
١٠٣	ورقة النصيب (قصة)	: محمد سعيد العريان . ...
١٠٩	عظيم دولة الموحدين	: للأستاذ محمود البشبيشى ... ...
١١٧	النقد الأدبى قديماً وحديثاً	: حسنين حسن مخلوف .. ..
١٢٥	فتح طارق بن زياد بلاد الأندلس	: عبد العظيم على قناوى .. ..
١٣٤	مقابس من كتاب معجم الأدباء	: للأستاذ عبد الخالق عمر ... ...
١٤٣	فؤاد الأول (كتاب)	: المتولى قاسم .. ..
١٤٧	ابن المقفع (كتاب)	: محمود الطنيخى ... ...

مطبعة الرسالة

السنة الرابعة (المحرم سنة ١٣٥٧ هـ — مارس سنة ١٩٣٨ م) العدد الرابع

صحيفة دار العلوم

مجلة الأدب واللغة والتربية والاجتماع

تصدرها «جماعة دار العلوم»
كل ثلاثة أشهر

قررت وزارة المعارف ومجالس المديريات «صحيفة دار العلوم» في جميع مدارسها

المدير
محمد نجيب حتاتة

رئيس التحرير
محمد علي مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية
ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى
المدرس بدار العلوم

الاشتراك السنوى

في القطر المصرى ——— ٢٠ قرشاً
خارج القطر ——— ٦ شلنات انجليزية
ثمن العدد ——— ٥ قروش

مطبعة حجازى بالقاهرة
تليفون ٥٥٤٨٠

"إن باحثاً مدققاً لو أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية وأين تحيا، لوجدها تموت في كل مكان وتحيا في دار العلوم"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده



تقـــــديم

من أسعد الحوادث التى شهـدها تاريخ مصر الحديث ، زواج حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم « فاروق الأول » — كلأه الله ورعاه — إذ تجلى فيه إخلاص الشعب المصرى وولاؤه لمليـكه المحبوب ، وتسابقت طبقات الأمة إلى إعلان شعورها بما شملها من فرح وغبطة وسعادة ، حتى لقـد كانت أيام الزفاف الملكى السعيـد أعياداً شعبية خالدة على الدهر .

أقيمت الحفلات فى كل مكان ؛ وتغنت الرعية المخلصة الوفية بمحامد الفاروق ، وانبعثت أناشيدها من أعماق القلوب عذبة رائعة ، فملأت الفضاء ، وبلغت عنان السماء ، وتردد صـداها فى الآفاق ، وتنـافس الشعراء والـكتاب ، واتسع أمامهم مجال البيان ، وخضع لهم القريض ودانت اللغة ، وألهموا كثيرا من المعانى ، وتزاحمت عليهم ضروب الوجدان ، غير أنهم لم يجدوا من اللغة — وهى كل ما يملـكون من وسائل التعبير — أداة طيعة تصور ما ألهموه ، وتترجم عما وجدوه ، فانصرفوا من مديحهم إلى الدعاء إلى الله ، أن يحفظ صاحبى الجلالة الملـكين الكريمين ، ويؤيدهما بروح من عنده ، ويجعل عهدهما حافلا

بالخير والسعادة ، واليمن والبركة ، للبلاد وأهلها .

ويسرنا هنا أن نسجل أن أبناء دار العلوم والمتخرجين فيها — وهم أساتذة البيان ، وسدنة لغة القرآن — قد اشتركوا فى كل حفل أُقيم ، وفاضت قلوبهم بشىء مما تكنه لصاحبى الجلالة من إخلاص عميق ، وولاء شامل ؛ ودوَّنوا ذلك كله فى شعرهم ونثرهم ، ولذلك آثرنا أن نجمع بعضه إلى بعض ، ونشرف برفعه إلى السدة الملكية ، ليكون تذكاراً خالداً على الأيام ، واعترافا بما للأسرة الملكية الكريمة ، عليهم وعلى معهدهم القديم ، من جليل المنن

وإنا لنتقدم فى خضوع إلى صاحبى الجلالة ، وقلوبنا مليئة بالرجاء ، أن يتنازلا فيتفضلا بقبوله .

عاش الملك

غن ياشعر بالأمانى حساناً

لحضرة صاحب العزة الاستاذ على الجارم بك

انظِمِ الدُّرَّ توأماً وفريدا ... واملأ الأرضَ والسماءَ نشيدا

وإذا مرَّ بالنجومِ خيالٌ ... فتخيَّرْ منَ النجومِ عُقودا

آنَ ياشِعرُ أن تغنِّى فأرْسَلْ ... من قوافيكَ ما يَهُزُّ الوجودا

أسكتِ الصادحاتِ يهتفن فى الدو ... ح وكنْ فى عِشاشها تغريدا

حفِظتْ رَنَّةً وقد رَدَّدتها ... فابعثِ اللحنَ «جارميًّا» جديدا

واصعَدِ الجوَّ للسموات وانقلْ ... لغةَ الخُلدِ إنْ ملكتَ صُعودا

نغماتٌ من الملائكِ تسرى ... فى الفراديسِ ما عَرفنَ حدودا

صفَّقَ الكوثرُ الطهورُ لمسْرا ... ها وجَرَّ الذيولَ يمشى وَئِيدا

وسَعَتْ صوبَ همسِها كلُّ حورا ... ءَ تُدانى رأساً وتعطِفُ جيدا

والتهاليلُ تملأُ الملأَ الأعْ ... لَي وتعنو لقُدسِه تمجيدا

فرحٌ فى السَّماءِ والأرضِ بالفا ... روقِ فازَتْ به البشائرُ عيدا

* * *

غنِّ ياشعرُ بالأمانى حساناً ضاحكاتٍ وبالزمانِ وَديدا
أَجِدِ القولَ مااستطعتَ وإلاّ فمَتي يا تُرى تكونُ مُجيدا
عجزَ النايُ فابتكرْ من قوافيـ ـكَ وَرَنَّاتِهِنَّ نَايًا وَعُـودا
وتخيَّرْ من الخمـائل أَنْدا هَا وَرَدِّدْ خِلالَهَا ترديدا
هاتِها مَوْصِلِيَّةً تملكُ السمـ ـعَ وَطَرِّبْ بها وَغَنِّ « الرشيدا »
وابعث الروضَ من كَراه وقَبِّلْ وَجَنَاتٍ من زَهْره وخُدودا
وترَنَّم تُجِبْ صداكَ القَمارى وَتَمِلْ نحوكَ الغُصُونُ قُدُودا
أرْسِلِ الصوتَ رَنَّةً تملأ الدنـ ـيا وتَبْقَى عَلَى الزمان خلودا
لا تبالِ القُيُودَ مِنْ « فَاعِلاتن » أَنْتَ أَحْرَى بأَنْ تُذِلَّ القيودا
سرْ خَفِيفاً مع النسائم وابعث نَفَسًا يملأُ الفضاءَ مديدا
يُنصتُ الليل حين تُنْشدُ ياشعـ ـرُ وينفى عن مُقْلَتَيْهِ الرقودا
ضُمَّه بين ساعديك وغَرِّدْ مثلما هزّتِ الفتاةَ الوليدا
لاتَدَعْ فى لهاةِ فنِّكَ صَوْتًا إنْ رَنَا مُصْغِيًا يُرِيدُ المَزِيدا

***

قد نقدْنا لك القوافى صِحاحاً مثلما يَنقدُ الشحيحُ النقودا
وجمعْنا حُرَّ الكلام الذى عَزَّ م فأضحت له المعانى عبيدا

وحشدْنَا الألفاظَ أنْقَى من المـا ... ـءِ وأشهى مَسَاغَةً ووُرودا

وبعثْنَا الخيالَ سِحْرًا من السحـ ... ـر ونَهْجًا من البيان سَديدا

طار فى الجو ما يَمَلُّ زَفيفـــا ... وطوَى الأرضَ ما يَمَلُّ وخيدا

رِقَّةٌ لو جَرت بسمع الغوانى ... أوَّلَ الدهر ماعرفْنَ الصدودا

قد رَآهُ مُثَقَّفُ الحِسّ وَحْيًا ... ورآه مَن لا يُحِسُّ قَصِيـــدا

سار يحثو التراب فى وجهَ بشَّا ... رٍ ويَطوى ابنَ هانىءٍ والوليدا

كلما قام مُنشِدُ القوم يتلو ... ه تمنَّى مُتابِعٌ أن يُعيدا

إنَّ يومَ الفاروق يومٌ على الدهـ ... ـر فريدٌ فهاتِ قولاً فريدا

وتخيَّرْ مِنْ سحر منفيسَ سرًّا ... كتمته الكهانُ عهدًا عَهِيـدا

وصُغ الشمسَ فى الأصائِل تاجًا ... وانْسج الروضَ فى الربيع برودا

إنَّ فاروقَ فى الملوك وحيدٌ ... فلتكنْ أنتَ فى البيانِ وَحيدا

***

بَحَثَ المجْدُ فى العصور فلَمْ يلـ ... ـقَ له بين دَفَّتَيْها نَديدا

مَلِكٌ فضلُهُ تَراه قريبـــا ... ومَدَى رأيه تراه بعيـــدا

خدَمْته الأقدارُ حتى تمنَّتْ ... لو مَشتْ حولُ سُدَّتَيْهِ جنودا

وتمنَّى اخضرارُ كلِّ نَباتٍ ... لو غدا فى سماءِ مصرَ بُنُودا

همةٌ تمتطى السماءَ وعزمٌ ... يَرْهَبُ الدهرُ سيفَهُ مغمودا
وثباتٌ يَرْمِى جبينَ الليالى ... ويفُتُّ الصخرَ الأَصمَّ الصَّلُودا
مكرماتٌ سارتْ بكل مَسَارٍ ... مثلاً يسبقُ الرياحَ شَرُودا

***

يا لِوَاءَ البلادِ أىُّ لواء ... لا يُفَدَّى لواءكَ المعقودا ؟
صانه اللهُ فى يديكَ فخذه ... وتقدَّمْ به قويًّا جليدا
وَجَدَ النصرُ فى ذراه مَقيلاً ... فأبى أن يَرِيمَ أو أَنْ يَحيدا
ورأتْ مصرُ فيه عِزًّا منيعًا ... ومَثَابا رَحْبًا ، وركنا شديدا
أنتَ من معشرٍ بنوْا فارعَ المجـ ... ـدِ فأمْسَى بمصرَ صَرحًا مشيدا
عرف السيفُ أنهم جندُه البُسْـ ... ـلُ إذا صافَح الحديدُ الحديدا
أسعَدوا شعبَهم فكانوا سحابًا ... وحَمَوْا عرشَهُم فكانوا أسودا
ومضَوا للعلى سِراعًا ، وخَلَّوْا ... أنجُمَ الليلِ جاثماتٍ هُجُودا
ملكُوا مِقْوَدَ الليالى صِعابًا ... ولَوَوْا هامةَ الزمانِ عنيدا

***

يَوْمَ «فاروقَ» دُمْ على صَفْحة الدهـ ... ـر حفيلاً بالبُشْرَيَات مَجيدا
لبستْ فيكَ مصرُ أزهى حِلاَها ... ورأتْ فيك يومَها المشهودا

عَبْدُها الدهرُ والليالى إماءٌ ... والأمانِى تُريدُها أنْ تُريدا

فى ظلالِ المليكِ عَزَّتْ وَطالَتْ ... واستعادَتْ فِردوسَها المفقودا

وغَدَتْ حَلْقَةً من المجد حتى ... قد ظننا الطريفَ منه تَليدا

أقبلتْ نحو سُدَّة الملكِ العا ... لى وُفوداً تَتْلُو اليه وفودا

مَلَئُوا ساحةَ الإمامةِ حتى ... خافتِ الأرضُ منهمُ أنْ تميدا

واستحثُّوا الخُطَى فكانُوا بروقاً ... وعلاَ صوتُهُمْ فكانوا رُعوداً

والسرورُ السرورُ يلعبُ بالشـ ... ـعبِ كما هزَّتِ النسائمُ عودا

ضَحَكاتٌ تهفُو إلى ضَحَكاتٍ ... ووعودٌ بالصفو تلقَى وعودا

كلهمْ يَجْأَرون بالعزِّ للفا ... روقِ والعيشِ ناضِراً ورَغيدا

كبّروا حينما رأوكَ مُطِلاً ... وأبَحُّوا أصواتهم تحميدا

أبصرُوا طلعةً اذا ماتبَدَّتْ ... خرَّتِ الشمسُ والنجومُ سُجودا

ورأوْا سيداً يضىء شبابا ... باسما كالمُنَى ، ويَهْتزُّ جودا

قد غرسْتَ الولاءَ فى كل قلبٍ ... فتفيـــأُ فى ظله ممدودا

إنَّ عرشاً أساسُه مُهَجُ الشعـ ... ـبِ خليقٌ بأن يكون وَطيدا

فانظرِ الشعبَ لاترى غيرَ قلبٍ ... نابضٍ يحفظ الولاءَ الأكيدا

مارأت مِصرُ منذ أيامِ عمرٍو ... مثل أيامِك الحسان عهودا

قد نثرنا لك الورودَ قلوبًا ونثرنا لك القلوب وُرودا
وحَفِظْنا لك الوِدادَ نضيراً وأذعنا لك الثناء نضيدا

***

موكبٌ يبهر الشموسَ ومَجْدٌ حَمْلَقَ الدهرُ منذ رآه سُمُودا
لم يشاهِدْ سواهُ بَعْدَ ابن داو دَ سَنًا مُشرقًا ، ومُلْكا عتيدا
ومليكًا يرْعَى الإلهَ ويخشا ه ويُعْلِى الإيمانَ والتوحيدا
أكْملَ الدينَ بالزواج فأَسْدَى مَثَلاً « لو درَى الشبابُ » رشيدا
فرحٌ شامل به بلغت مصـ ـرُ مُناها وَحظَّها المنشودا
كلُّ بيتٍ به غِناءٌ وشَدْوٌ علَّم الطيرَ - إنْ شَدت - أن تُجيدا
تتمنى الأغصانُ لو رقصَتْ فيـ ـهِ مَكانَ الحِسانِ هيفًا وَغيدا
وتودُّ النجومُ لو كنَّ فيه بدلاً من سَنا الشُّموع وقُودا
يالياليِ الفاروق كونى لمولا كِ رِفاءً وللبلاد سُعودا
لمعَتْ فى علاكِ دُرَّةُ خِدْر كرُمَتْ نشأةً ، وطابت جُدودا
بلغَتْ قِمةَ الجلال فأمْسَى كلُّ مجدٍ لِمجْدِها مَرْدودا
مِنْ مِهادِ النُّبْل السنىِّ اضاءَتْ فعَلَتْ كوكبًا ، وعَزَّتْ مُهودا
وزهتْ فى مَقاصِرِ المُلكِ زَهرا ء فزانَتْ مَقامَهُ المَحْمُودا

يامليكَ البلاد فَاهْنأَ بما نِلتَ ... سعيدًا جمَّ الثناء حَميـــــدا

قد أشدنا بفضلك الوافِرِ الجـ ... ـمِّ إذا اسْطَاع شاعرٌ أن يشيدا

أجهد الشعر أنْ يرى عَزَماتٍ ... يَعجزُ الوصفُ دونها وجهودا

ومعانيـــــك لا تُحَدُّ، فماذا ... يعملُ الشعر قاصرًا محدودا ؟

وإذا ما البيانُ عَقَّ لَبيـــــدًا ... فِي المقـامِ المَهيب فاعذِرْ نبيدَا

عِشْ وحيدَ الجلال والمجد واسعد ... أمَلُ المجدِ أن تعيشَ سعيدا

وابْقَ للدينِ مَوْئِلاً وعِمـادًا ... وابْقَ للشرقِ سيِّدًا وعميدَا

على الجارم

يوم الفـــاروق

لحضرة صاحب العزة الأستاذ على الجارم بك

صفَا وِرْدُه عذبًا، وطابَتْ مناهلُهْ ... وجلَّتْ يدُ الدهر الذى عزَّ نائلُهْ

وأقبـــل مُنقادَ العنانِ مُذَلَّلاً ... تطامَنَ متْنَاه، ودانت صَوائلُه

يُطأطِىءُ للفاروق رأساً وتَنْحَنى ... أمامَ سَنَا المَلْكِ المَهيبِ كواهلُه

تلفَّتَ فى الآفاق شرْقاً ومغربا ... فلم ير فى أنْحَائِها من يُماثله

رأى مارأى! لم يَلْقَ عزْمًا كعزمه ... تَقُدُّ مواضِيه، وتَفْرِى مَناصِله

يذوبُ مَضاءُ السيف عند مضائه ... فما هُوَ إلاَّ غِمْدُه وحَمائِلُه

إذا ما انتضاهُ فالسُّعودُ أعِنَّةٌ ... إلَى ما يُرَجّى، والليالِى رَواحِله

رأى طلعةً لو أنّ للبدر مِثْلَهَا ... لَمَا انحدرتْ دون النجوم منازلُه

عليها شعاعٌ لو رَمَى حائِلَ الدجَى ... لفاخَرَ وجْهَ الصبح فى الحسن حائله

تراها فتغضى للجلال، وربَّما ... تَشَوَّفَ لحظُ العين لو جال جائله

هو الشمسُ، يدنو فى الظهيرة ضوءُها ... ويصعُبُ مَرآها على مَن يحاوله

هو الروض، أَوأزهَى من الروض نضرةً ... إذا داعبت وَجْهَ الربيع خمائله

هو الأملُ البسامُ ، رفَّ جَناحُه ... فطارتْ بهِ مِنْ كُلِّ قلبٍ بلابله

هو الكوكبُ اللمَّاحُ ، يسطعُ بالمنَى ... وتنطقُ بالغيث العَميم مَخايله

ترى بَسْمَةَ الآمال فى بَسَماتِهِ ... وتلمحُ سرَّ النُّبْلِ حين تُقابله

شبابٌ كما يَصفُو اللجين ، كأنَّما ... تَمَلَّأَ مِنْ مَاء الفَراديس ناهله

يُفَدِّيه غصنُ الدوح رَيَّانَ ناضِرًا ... إذا اهتزَّ فى كَفِّ النسائم مائله

تطلَّعَ رُمْحُ الخَطِّ يبغى اعتداله ... فعَادَ حَسِيرًا ينكُتُ الأرضَ ذابلُه

وَمِنْ أَيْنَ للرمح المثقَّف عَزْمُه ... ومِنْ أَيْن للرمح الطويل طَوائله ؟

إذا حفزَتْه الحـــادثاتُ رأيتَه ... وقَدشَكَّ أَحشاء الحوادثِ عامله

عَلاهُ تَحدّى الدهرَ فى بُعْدِ شأوه ... فمن ذا يُدانيه ؟ ومن ذا يُفاضله ؟

ورَأْىٌ كأنفاس الصباح ، وقد بدا ... تَشِفُّ مجاليهِ ، وتهفُو غلائله

وَخُلْقٌ كَمُخْضَلِّ النَّسيم بروضةٍ ... ذوائبُه نَفَّاحَةٌ وجدائله

يَمَسُّ جبينَ النيل فى رِفْقِ عاشِقٍ ... وتفتَحُ أكمَام الزُّهورِ مَساحِله

***

دعوتُ إليك الشعرَ فانقاد صعبُه ... وقد كان قبل اليوم شُمْسًا جَوافِلُه

وما كدتُ أدعو الوحى حتى سمعتُه ... تبادِهُنى آياتُه ورسائـــــله

خيـــالٌ إذا أرسلتُه إثرَ نافر ... أتتْ بأعزّ الآبداتِ حَبَائله

ولفظٌ كوجهِ الروض فى مَيعةِ الضحى وقد صدَحتْ فوق الغصون عَنادله

إذا قلتُه أَلْقَى عُطارِدُ سمعَـــه وساءل شمْسَ الأُفْقِ مَنْ هو قائله

وإنْ سارتِ الريحُ الهَبُوبُ بِجَرْسِهِ فآخِرُ أكْنافِ الوُجود مَراحله

إذا ذُكِرَ الفاروقُ فاضَ مَعينُه وتَجَّتْ قوافيهِ ، وعَبَّتْ حَوافِلُهْ

يقولُ ، ومالى حين أكتبُ قولَهُ مِنَ الفضل شَىْءٌ غير أنّى ناقله

رأى مَلِكاً يَحْيَا القريضُ بوصفه فَضائلُه جَلَّت وعمَّتْ فواضله

رأى ملكاً يُزْهَى به الدينُ والتقى شمائلُ أملاكِ السماءِ شمـــائلُه

رأى ملكاً كالنيل ، أمَّا عطاؤه فَغَمْرٌ ، وأَمّا المَكرماتُ فَساحله

فغرَّدَ فى الاجواء باسمك طيرُه وردَّدَ فى الآفاق ذِكْرَكَ هادلُه

وصاغت لك التِّبْرَ المُصَفَّى فنونُه وحاكَتْ لك البُرْدَ المُوَشَّى أَنامله

ولم يُبْقِ من نَسجِ السحائبِ زَهرةً تَرِفُّ ندى إلاّ حوَتْهَا فواصله

وصَبَّ شعاعَ الشمس تاجَ مهابةٍ لِمَنْ توّجتْهُ بالفَخار فضـــائله

وفكَّ رموزَ السحرِ من أرض بابلٍ لأجلكَ حتى استنجدْت بكَ بابله

أعدتَ له عهدَ الرشيد فأَسرَعْت إلى سُدَّةِ الفاروق تشدو بلابله

وما أنتَ فى الأملاكِ إلا قصيدةٌ تفاعيلها البرُّ الذى أنت فاعله

يهبُّ طريحَ الشعر فى دَوْلةِ النهى وتُلهِم أسرارَ البيان مقاوله

حملتُ له الريحانَ يوم زفافهِ ... نضيرَ الحواشى، ينشرُ المسكَ خاضِلُه

أزاحِمُ للفاروق حشداً كأنه ... خِضَمٌّ من الأمواج، ضاقتْ سبائله

يغطى أديمَ الأرض عزَّ اختراقُه ... وسُدَّتْ على أقوى الرجال مداخله

إذا أنتَ لم تعرفْ مدى أخرياته ... فسَلْ طرفَك المحدودَ أينَ أوائله

حملتُ له الريحانَ، أرفعُ معْصَمى ... إلى الملكِ الفردِ الذى فاز آمله

وقد ملأ الأُنسُ الوجوهَ فأشرقتْ ... من البشْر، حتى كاد يقطرُ سائله

***

طلعْتَ على الجمع الحفيلِ بموكبٍ ... يبادلك الشعبُ المنى، وتبادله

مواكبُ لم يُعرف لرمسيسَ مثلُها ... ولا خطرَتْ فى مِثلهنَّ قنابله

يحيطُ بها عزُّ المليك ومَجْدُه ... وتزْحَمُها فُرسانَه وصواهله

إذا امتلك الحبُّ النفوسَ هفَتْ له ... سراعاً، وأعطَتْ فوق ما هو سائله

رأَوْكَ فعالَوْا بالهُتاف كأنَّما ... ينافسُ نِدٌّ نِدَّهُ ويساجله

كأنهمُ جيشُ الغمائم أرَّقتْ ... رواعدُه جَفنَ الدجى وزَواجله

فلا عين إلا وهْى ترتقب المنى ... ولا صَدْرَ إلا فارحُ القلب جاذله

وقد رُفعتْ أعلامُ مصرَ خوافقا ... يغازلها مَسُّ الصَّبَا وتغازله

فإنْ كانَ مِنْ عَيْن، فإنَّكَ نورُها ... وإنْ كان مِنْ قلبٍ، فإنك آهله

وإنْ كان من دهرٍ فأَنْتَ نعيمُه وإن كان من فضل ، فإنَّكَ باذله

***

رأى فيكَ هذا الشعبُ آماله التى تمنَّى على الأيام وَهْىَ تُماطله
أَحبَّكَ حتى صار حُبُّكَ رُوحَه ونورَ أَمانيه الذى لا يُزايله
فمن شاءَ برهانًا على صادق الهوى فتلكَ الجموعُ الزاخراتُ دلائله
نثرتَ بُذور الحُبِّ فى كل مُهْجة وتلك التى تهفو إليكَ سَنَابله
حياتُك يا فاروقُ للدين عصمةٌ وأعمالك الغُرُّ الجسامُ مَعاقِلُهْ
منابره تهْتَز باسمـــك فوقها وتلتفُّ من شَوْق عليك محافله
تعفر بالتُّرْبِ الجبينَ الذى عنا له الشرق وانقادتْ إليه جحافله
لَهُ لمعَاتُ المُشرفىّ ازدهَت به على كل أبناءِ الْعُمُودِ صَيـــاقله
لياليك أَقمارُ الزمان وَسَعْدُه وَأيامكُ البيضُ الحِسَانُ أصائله
قد اختاركَ الرحمنُ موضعَ فَضْلِهِ إِذَا عَزَّ مَوصُولٌ فقدجلَّ وَاصِلُهُ

***

هنيئًا لك اليوم السعيد الذى زها على الدهر لَمَّا لَمْ يَجِدْ مايشاكله
يذكِّرُنَا المـأمونَ يَوْمَ زِفافه وقدمَشَتِ الدنيَا إِلَيْهِ تجـــامله
وَسَالَ به سيلُ النضارِ كأَنَّمَا تفجَّرَ من بين السحائب وابله

وأينَ مِنَ الْمَأْمُون أوْ مِنْ زِفافه ... جلالةُ مُلْكٍ أعجزَتْ مَنْ يُطاوله؟
أبى الدهرُ أنْ يَلْقَى لِيومك ثانيًا ... يقاربهُ فى نُبلِه أو يعادله

***

تخيرْتَ من وادى الكنانة زَهْرةً ... تتيهُ بها جنَّاتُه وَظلائله
«فريدة» مَجْدٍ، يعرفُ المجدُ قدرَها ... وتُزْهَى بها يوم الفَخَارِ عقائله
ودُرةُ خِدْرٍ أقسَمَ الخِدْرُ أنَّه ... على مثلها لم تُلْقَ يومًا سَدائله
يتيه بها ضافِى الشَّبابِ ونَضْرُهُ ... وتسمُو حَوَالِيهِ بها ، وعَواطله
تخيَّرْتَها فوق السحاب مكانةً ... وأَصْفَى من الماء الذى هُو حامله
حباها إلهُ العرش أكبرَ نِعْمَةٍ ... فجَلَّتْ أياديه ، وعَمَّتْ جلائله
فعشْ فى رفاءٍ بالبنينَ ممتَّعا ... يُضيءُ بك الوادى وَيَخْضَرُّ مَاحله
ودُمْ لبنى مصر أمانًا ورحمَةً ... فأنتَ حمى النيلِ الوفىُّ ، وعاهِلُه

على الجارم

عيـــــد أمة

للشاعر ابراهيم سليمان اسماعيل المدرس بمعلمى شبين الكوم

خلع الزمان على النفوس سرورا ... عَمَّ البلادَ : قصورَها والدورا

فاستنشقته الوُرقُ فى أغصانها ... من فائح الزهرا النضير عبيرا

وسرى على خد الرياض ففتَّحتْ ... من زهرها الحلو الجميل ثغورا

وسما إلى فكر الأديب فَهزَّهُ ... شعرا يَفيض محبةً وشعورا

***

يايوم «فاروقٍ» — وأنت لنا مُنى — ... جَمَّعتَ من شتَّى العجيب كثيرا :

الزهرُ كنا فى الرياض نزوره ... شوقا ، وكان جنابُه معمورا

فمن استخفَّ فؤادَه حتى سَعى ... وأتاك يجرى طائعا مسرورا ؟

هجر الرياضَ إلى سَناك «مراكبًا» ... محفوفةً لم تألُ فيك مَسيرا

***

يايوم « فاروق» رويدَك فى الحمى ... وانشُرْ علينا من حُلاك ستورا

انظر الى الشرفات تلقَ زخارفاً ... منصوبةً ، وهِلالَها منثوراً
وكواكبا كالزهـر فى ألوانها ... نُضِدت على طول الطريق سطورا
والنيلَ قد رقصت كواعبُ سُفْنِه ... وجلون فيه سوالفا ونحورا
الناسُ قد حشدوا إليك جسومَهم ... وجُهودَهم لم يخشَوا التبذيرا
من كل ناحية تدفق سَيْلُهم ... زُمَراً تلاقت فى ذَراك بحورا
فياضةَ الشطّين بالحبّ الذى ... ضمَّت عليه جوانحا وصدورا
من حُبِّهِمْ رَصَدُوا لوجهك طلعةً ... كالمدلج الحيران يرصد نورا
فاذا طلعت تزاحموا وتواثبوا ... وتفجّروا بُهتافهم تفجيرا
إن النفوس إذا تغلغل حبُّها ... لم يستطع لزمامها تدبيرا

***

«فاروقُ» يازين الشباب المرتجى ... أكملْ زِفافك بالرفاء قريرا
فيما تمارس من أمورك قُدْوَةٌ ... لشبابنا لو أحسنوا التفكيرا
لو يقبسون كما قبست من الهدى ... طلعوا بآفاق الحيـــــاة بدورا
ليس الذى يَبْغِي حياةً حقَّةً ... مِثْلَ الذى يبغى حياةً زورا
بانى البيوت من الزواج مُفَضَّلٌ ... عَمَّن يُشَيِّد فى البلاد قصورا

هذا يشيّد بالبنين وغيرُهُ يبنى القصور حجارةً وصخورا

***

مولاى إن الشعب من فَرْط الهوى نظم القلوبَ حيال تاجك سورا
مستبشرا بجبين وجهٍ مُشْرِقٍ صَفْوُ الحياة يجول فيه نميرا

ابراهيم سليمان اسماعيل

الجلوة الملكية

للشاعر ابراهيم مأموره

أيُّ مَجد حيالَ مجدك يُذكرْ ؟؟ هذه الشمس فى رحابك تنثرْ
ونجومُ السماء تنتظم الأفـ ـق توشّيهِ من سناك المنضر
والنهارُ الضحوكُ يبتدر الشمـ ـس بوجه على الأريكة أنور !
والنسيمُ الحفىّ يستاف رَيَّا كَ ، وفى فَوحه أريجٌ وعبهر
والرياحينُ فى الرياض تواثبْـ ـنَ ، يُضمَّخْن مِن شذاك المعطر
والصِّبا الغضُّ فى المواكب ينسا ب انسياب الجمالِ فى الروض أزهر
والكهولاتِ زايلتْ كل كهل فى مدًى يزحم النفوس ويَبْهر
والأغانىّ رنّحتْ أذنَ الدهـ ـر فوافى لدى زفافك يسمرُ

***

هذه هذه ، أغاريد ، مصرٍ أم هو الكون بين نايٍ ومِزهر؟
ضجّ فى سمعه الهتاف ودوّى منطقُ النيل فى البلاد وزمجر

لهوَاتُ الطيور تبتدع الشدْ وَ. وتُولِيه صوت مصرَ المطهّر
سال لحنًا على شفاهِ مجاليها ومن بَسْمَةِ السماءِ ، تحدَّر
فى أغانٍ عُهدن فى صوت « داو د » ومن لحن بُوقه تتفجر
وهتافٍ جرى على قصَب الخلْ د فغنّت به ضفافُ الكوثر !

***

سِرْت والشعرَ فى رحابك يا « فا روق » أحدو البيان غير مُقَصِّر
وأناديه : إيه شعرى ، فهذا هو مجْلاك والكنانة منبر
هات ياشعر من رصين القوافى هات بكر الخيال غير مزوّر
لا تَطفْ بى على عوانِس ماضيـ ـكَ ، ومِلْ بى إلى البيان تمصَّر
فاستوى يرسلُ المعانىَ أبكا راً ، ويضفى الخيالَ لا يتعثّر !
ومضى بى كما أردتُ إلى العرْ ش ، ومن دوننا جَلالةُ عبقر
فإذا الساحُ والمواكب فيها حاشدات تَسْبِى النفوسَ وتسحَر
وإذا الشعر لا يشاء مُضيًّا وإذا بى عن المدى أتأخّر
وإذا الحشدْ ، لا يطيقُ سكوتًا شهد العرشَ والمليكَ فكبر
وإذا مصرُ بالهتاف تُدوّى : ذاك ركب « الفاروق » « أللهُ أكبر »
عجَزت ريشة المصوّر وارتدّ يراعُ الأديب غيرَ مؤزَّر

فانتبذت القرطاس والقلم الفخـ ـمَ ، وأنكرت كلَّ ما كان يُسْطَر
وتسلّتْ فى الرياض لعَلىّ بجَلال البيانِ أحظى وأظفر
فإذا الصمتُ يحتوينىَ حيرا نَ ، وشِعرى هناك غيرُ مُيسّر
شهدْتنى بلابلُ النيل أسعى فتساءلن : مالذاك تحيّر ؟!
قلت : أبغى الإلهام من نفحة الرو ض ، أحيّى به الزفاف الموقّر
فتهامَسْ : أين ذاك ؟ وعن أى م معانى الفاروق جاء يعبّر ؟
أعن العرش فى الجلالة يبدو ضاحىَ الوجه باسم الثغر ، أحْورْ ؟
أم عن المُلْك بات ينتظم الشعـ ـبَ كأنّ العبادَ للبعث تحْشر ؟
أم عن الليل بات يسْتبِق الصبـ ـحَ بوجه على البسيطة أقْمر ؟
أم عن الضوء فى ائتلاق من البيْـ ـت يريك النهار ، أو هو أبهر ؟
أم عن الغيد يحتشدن جما عاتٍ ، وفى ركبها العفاف يُنصّر ؟
أم عن الزهر فى فروع العذارى يتأوّدْن كالغصون تُؤَطَّر
أم عن الجلوة المهيبةِ سارت فى احتشادٍ به الكمال تخفَّر ؟
أم عن الدِّين فى المحاريب يَجْثو والدعاءِ المجاب للعرش يَجْأر ؟
أم عن الجحْفل العرمرم فى السَّا حة ، يهتزّ لِلّواء المظفر ؟؟
أم عن الخيل فى رِحابك يرقصْـ ـن وفى موطن المنى تتبختر ؟

أم عن الحائمات هزَّ مُنَ فى الجوّ ومن نشوة العلا تتهدَّر ؟

***

أفحمتنى ، فقلت : ويحكِ ، ماذا صفتِه أنت ؟ فانتحتْ تتفكر

قلت : إيه بلابل النيل شدْوا إن وصفَ البيان فى الحق قصّر

فتناجين : والحقيقةُ تهفو هكذا الوصف نحن فى الأمر نُعْذَر

قلت : إيه بلابلَ النيل إيه إنَّ جَهد المقلِّ فى الحفل يشكر

***

هل أتاكَ الحديث من شفةَ الوا دى بيومٍ على الزمان مُشَهَّر ؟

أو رأيتَ الرِّحابَ عادت سماء بسوى وجهك الوضىء المدثّر

هذه مصرُ تحْتفى بمليكٍ ساس بالحكمة الشئونَ ودبّر

لبست حَلْيها ، وسافت شذاها وتجلت له بأروع مَظْهر !

من ملوك الخلود فى فم واديـ ـه ، وفى جَبهة البقاء تسيْطر

يافعٌ ، أروعُ الفؤاد ، مُزكًّى ، طيبُ النفس ، بالحنيف تدثّر

من وفاء البلاد إكليلُه السمْـ ـحُ ، ومن حُبها المؤكد يُضفر

وله الشمسُ ـ وهى تاج المعالى ـ تاج عزٍّ على سواهُ تكبر

لم يتح قبلُ للعياهل فى الأر ض ولم يُتَّخذ لهامة قيْصر !

رامه الشعب من قديمٍ «لرمسيـ ـس» و«للفاطميّ» رجّاه «جوهر» ؟

***

يا مليكَ البلاد : ذلك يومٌ في احتشاد الأيّام لن يتنكّر
مِهرجانٌ على المشارق مُوفٍ يحشِد الدهر رائعًا يتجمّهر
خفّ في قُدسه فراعنة الوا دي نَشاوَى الخطى تدِلّ وتفخرُ
وكأنّ الوفودَ من « عين شمس » ومن « الكرنكِ » المخلّد تخطرُ
وكأن الزفاف في « طيبة المجد » وحشدُ الجموع حولَ « الأقصر »
ذاك وادي الملوك ينتظم النيل جلالاً على السفائن تمْخُر
فانظر النيلَ ، والمواخرُ فيه تلق دنيا من الزمان تُنَشَّر
تلق عرش الجلال من آل « خوفو » ضاحِيَ الحشدين: جُندٍ وعسْكر
وتجد « أحمس » الجريءَ يُزَجّي سُفُنَ المجد تستزيد وتكثر
يمتطي المجدَ من جيادِ المعالي بعد ما أتعب النفوسَ وسخّر
وانظر السفْن في الوشائع نشوى إن فيها « تحتمس » النيلِ يزْأر
أمنت مصرُ من عوادي الليالي وزمانُ « الفاروق » بالعدل أسفَر

إبراهيم مأمون

أوليات الملك فاروق

للأستاذ عبد اللطيف المغربى المفتش بوزارة المعارف

فى وثبة التاريخ الجديدة ، فى دورة الزمن الموفقة ، فى الطالع السعيد ، والعصر المجيد — أسجل ، بعض أوليات لجلالة مليكنا المحبوب ، فخر العصر ، وزين الشباب ، وسليل المجد ، وواسطة العقد ، وبسمة الدنيا ، وطلعة اليمن ، ومشرق السرور ، ومنبع الخير ، وأمان الدهر ، وعماد الدين « فاروق الأول » أيد الله ملكه ، ورعى عصره ، وأدام سعده ، ومكن له فى الجاه والصولة ، وعقد له راية النصر خفاقة ، تجرى فى ظلالها الأيام باسمة ، وتتلاقى حولها بوارق الأمل ، وخوالج المنى ، وطوالع السعادة على خير ماترجوه مصر من مليك موفق ، أعدّه الله لها ، فكان عصره صورة منه : مضيئا كقسمات وجهه الكريم ، حرا كطبعه النظيم ، بساما كطلعته البهية ، صافيا كنفسه الطيبة ، رقيقا كشمائله العذبة ، ميمونا كنقيبته السمحة !

أضاء لنا أفْق البـلاد وكشّفت مشاهدهُ مالاَ يكشّفه الفجْر

بوجهٍ هو البدرُ المنير نـفَى الدجى سناهُ وأخلاقٌ هى الأنجم الزُّهر

وإنا لذاكرون بعض أولياته الخالدة ، مما نعطر به جوانب التاريخ الحديث ، ونحلى به صفحة الجيل الجديد ، فمن هذه الأوليات :

المعاهدة المصرية الجديدة :

لاقت مصر فى سبيل استقلالها ماشاء الله أن تلاقى : من جهاد عنيف شبت ناره قرابة عشرين عاما ، وكلما دنت من أمانيها ، ردها الدهر على أعقابها ، فاستأنفت جهادا ، ولاقت آلاما ، ومضت فى سبيلها زخارة جياشة لا تلوى على شىء مما تبذل من مال وضحايا ، ولا يعرف اليأس من أمنيتها إلى قلبها سبيلا ، على الرغم من مطـــاولة الأيام ، ومدافعة الحوادث .

حتى إذا استوفت حظها من الجهاد المقدر ، وأوفت على الغاية من لبانتها ، كتب الله لها النجاح ، وهيأ لها التوفيق ، فتمت لها المعاهدة فى مطلع عصر الملك ، الموفق « فاروق » الذى فرَق بيمينه وبركة اسمه الكريم بين عصرين مختلفين .

الغاء الامتيازات :

وكانت الامتيازات الأجنبية كالشوكة فى جنب مصر تؤلمها وتؤذيها ، والشجا فى الحلق ، لا تستطيع به أن تسيغ الحياة هانئة صافية ، فكثرت لها المصاعب والمشاكل ، وحز بها الأمر حتى ضاقت به ذرعا ، فجعلت تدعو إلى النصفة فلا تجاب ، وترسل صوتها فى كل نهزة إلى مسامع الأمم ، فلا تلقى إلا إعراضا واستكبارا ، والامتيازات — ذلك الداء الوبيل — تحز فى قلبها ، وتقطع من أوصالها ، وهى صابرة على ذلك محتسبة ، حتى إذا برح بها الألم ، ونال منها الأذى كل منال ، آذن الله لغمتها أن تنكشف ، ولمحنتها أن تنقشع ، بقبول الأمم إلغاء الامتيازات ، وكان ذلك من أوليات طلائع الخير لعصر الملك « فاروق »

وهى المآثر ليس يبنى مثلَها بانٍ ولا يسمو إلى تحويلها

عطفه على فقراء رعيته

وهو أول ملك فاض قلبه بالشفقة على رعيته ، والرأفة بضعافهم ، فولج على الفقراء أكواخهم ليتعرف حاجاتهم ويلم بأحوالهم ، ويدخل المسرة على قلوبهم ، ويغمرهم بعطاياه ونفحاته العظيمة ، إنهاضا

لهممهم، وسداً لمفاقرهم، وتفريجا لكربهم، وتخفيفا لآلامهم، وإشعارا لهم بالكرامة، وتلك مبرة يتلقاها الناس بالشكران، ويتقبلها الله بالمثوبة والرضوان، وهو فى هذا العطف شبيه بسميه الفاروق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رمزِ العدل وظله، والذى كان يطوف برعيته والليل مرخ سدوله، ضارب بجرانه، يتفقد أحوالهم ويتعهد مصالحهم، رأفة بهم وحدبا عليهم، فلله درّ الفاروقين فى السجايا والمكارم، والعطف على الضعاف والمساكين من عباد الله الذين أوصى الله بهم خيراً، وجعل فى أموال الأغنياء والموسرين لهم قدرا:

مساعٍ يضل الشعر فى كنه وصفها فما يهتدى إلا لأصغرها الشعر

وتلك لعمرى من أفضل الذخائر عند الله وأجملها أثرا، وأحمدها عاقبة، فإن العطاء يجمل إذا صادف حاجة، والغيث يُحمد إذا واجه محلا، وأفضل الصنائع إغاثة ملهوف، وإعانة ضعيف، وقد جعل الله من مزايا الإحسان إلى الفقراء، اختلاج ألسنة العباد بالثناء على المحسن، والدعاء له

أثنى عليك بنُعماك التى عظمت وقد وجدتُ بها فى القول مُنْفَسَحا

خطابه لرعيته فى المواسم العظيمة

والفاروق «أعزه الله» أول ملك يخاطب رعيته فى المذياع، ويلقى عليهم تحياته وكلماته القيمة فى المواسم العظيمة، والمواقف النبيلة: ففى حفلة تتويجه المباركة ألقى على الشعب المصرى الكريم كلمة ثمينة أعرب لرعيته فيها عن حسن تقديره لمحبتهم، وإخلاصهم لذاته الكريمة، وتفانيهم فى التعبير عن الولاء له بمختلف المظاهر، فكان لهذه الكلمة المباركة أثر حسن، مسّ قلوب رعيته فى أقل من لمح البصر، ورجْع الطرف، فجأرت بالدعاء لله أن يحفظ المليك المحبوب، وأن يوالى عليه نعمه وعطاياه.

وفى مستهل شهر رمضان المبارك أرسل جلالته الى رعيته المخلصة تهنئة وتذكرة بما لهذا الشهر العظيم من حق ورعاية على المسلمين. ولاريب أن لذلك الأثرَ الصالح فى تقويم الأخلاق، والحثِّ على التمسك بأدب الدين وهديه، والأخذ بناصر الفضيلة، وحسن الاقتداء بالمليك الصالح الموفق، محيى سنن السلف الكريم، وقديما قيل «الناس على دين ملوكهم»

ومعنى هذا أن الناس يكْلَفون بما يهتم به الملوك من الأخلاق

والنزعات والعادات ، وقد أيد التاريخ هذه القضية بأمثلة كثيرة نجتزىء بالإيماء إليها .

وبعد حفلة القران المباركة التاريخية ، التى خفق لها قلب مصر خفقة خالدة ، واحتشدت لها مصر بأجمعها فى مدينة القاهرة احتشادا لم تر مثله عين الزمان ، ولم يظفر - بنظيره جبل المقطم فى سالف الدهور - ألقى حفظه الله كلمة فى المذياع أظهر بها رضاه ومسرته لشعبه الكريم ، المتفانى فى محبته ؛ لما بذل من افتنان فى إظهار الفرح والسرور بقرانه السعيد . وفى ذلك مافيه : من أدب ملكى رائع ، وخلق فاضل ، وحسن تقدير للجميل ، مما يغرس مثل هذه الأخلاق السامية فى نفوس الرعية ، فيعملون بأمثالها كلما دعتهم إليها دواعيها .

أرأيت بعد هذا أدبا ملكيا يشع عن جلال وفطرة ، وكرم نحيزة كهذا الأدب العالى الذى جمّل الله به المليك « فاروقا » ؟ إن هذا لهو الفضل المبين

الله أعطاك المحبة فى الورَى وحَباك بالفضل الذى لا يُنكَر

استماعه الى الدروس الدينية فى المساجد :

وكان لنشأته الأولى الموفقة التى شب عليها الأثر الصالح : فى اختلاف جلالته إلى المساجد . وجلوسه فى حلقات الدورس الدينية ، يستمع إلى ما يلقى فيها من الأحكام الشرعية والعظات الدينية ، والآداب الاسلامية ، وبذلك ضرب للناس المثل الأعلى فى المساواة ، وأن الناس سواسية ، فى دين الله وساحته الطاهرة ، سواء منهم الفقير والغنى ، والضعيف والقوى ، فيجد الغنى لذلك تظامنا وتواضعا ، ويحسّ الفقير من نفسه فى دين الله عزة وكرامة ، إذا جالس — على بساط المساواة — من هو أعلى منه مقاما ، وأرفع قدرا ، وتلك سنة كريمة اختطها جلالة الملك فاروق ، بما جبل عليه من صفاء النفس وكرم الطبع وأصالة الرأى وقديما كان سميّه الفاروق عمر بن الخطاب يسير فى الطرق ويخالط الناس ، ويمتزج بهم ، ليضرب لهم المثل فى المساواة ، التى هى من مزايا الاسلام .

وليس جلال القدر ، وعلو المنزلة ، مما يحول بين المليك المعظم والقرب من شعبه ، فله من هيبة الملك ، ومحبة الشعب ، ما يرفعه إلى أعلى

قمة من التبجيل والاحترام ، ولرعيته ما يجعلها تحظى بأنواره ، وتتأدب بأدبه ، وتأنس بقربه .

كالبدر فى أفق السماء ، وضوءه يَغشى البلاد مشارقا ومغاربا

وقد كان الفاروق « أيده الله » بعمله هذا أسوة حسنة لشعبه ، فى الاعتزاز بالدين ، والاعتصام بحبله ، والتأدب بأدبه ، والتهدّى بأحكامه ، فجزاه الله عن دينه خير الجزاء .

فسيشكر الإسلام ما أوليته والله عنـــه بالوفاء ضمين

هذه بعض أوليات من فضائل مليكنا الشاب المحبوب أرويها كعنوان ليمنه وفضائله ، وليس إلى إيراد ما خصّه الله به من مزايا ، وما طبعه عليه من هبات — سبيلٌ قريب .

ومن هذه الأوليات تتجلى العوامل القوية الخصبة ، التى جعلت قلوب الرعية تفيض محبة وإخلاصا لذاته الكريمة ، وتتفانى فى الولاء لعرشه المكين ، وسيبقى هذا الحب شعارا قويا خالدا على مر الأيام ، فهو يستند إلى أساس متين من الإخلاص فى قلوب الرعية ، ومن الصفات العظيمة التى فطر الله عليها هذا المليك المحبوب ، فتكافأت المحبة والدواعى .

ندعو الله أن يديم مليكنا العظيم كوكبا وضاء فى أفق البلاد المصرية ، ماشد اصادح على فنن ! !

والله أسأل أن تعمّر صالحا فدوام عمرك خيرُ شىء يُسأل

وإنى لراج أن أكون قد شاركت بما أمتلك من بيان فى حلبة السباق فى مكارم المليك المفدى ، والذى له فى رقابنا الثناء المطرز ، وفى قلوبنا الولاء المحقق :

حسبى رضاه ، وإنى فى مسرته وودّه آخرَ الأيام أجتهد

عبد اللطيف المغربى

آمال شعب

للشاعر احمد أبو النجا بمعلمى الاسكندرية

أمانٍ بآفاق الكنانة تطلُع ... ألم ترها فى الشرق والغرب تسطع؟
يطير بها المذياع فى كل جانب ... من الأرض فالبشرى تُزَفّ وَتُسمَع
وتُزهَى بها الدنيا وتلهو بطيبها ... على الروضة الفيحاءِ ورقاءُ تسجَع
هو العيدأَو يومُ الزفاف شهدتُه ... فخلتُ نعيم الخلد فى مصر يُوضع
لبسنا به النُعمى فكل محَلّة ... تقام بها الأفراح والطبل يُقرع
فلست ترى إلا ثغوراً بواسما ... تردّد آيات الهنا وترجّع
ولست ترى إلاوجوهاضواحكا ... أساريرُها للبشر مغنى ومرتع
وخلت «ابن سيتى» بعدأن دوّخ القرى ... ودانت له الدنيا الى مصر يَرجع
على رأسه الأعلام بالنصر رفرفت ... ومن حوله الايوان بالفتح تصدع

***

ففى وجهه ماشئت من بسمة الضحى ... وفى صدره الايمان بالله ينصَع

رأيناه فى عهد الصبا وافرَ الحجا ... بتقوى وعلم فى العلا يتذرع
ويضرب أمثال النبيين فى الهدى ... فيسعى إلى الذكر الحكيم ويسمع
وهبَّ إلى الأخلاق ينفى زيوفها ... وما الشعب إلا خُلقه المترفع
له العزم إمَّا جد فى الكون حادث ... تميد به الألباب لا يتزعزع
ورأى تفل الحادثاتِ شباتُه ... ويُرمَى به هولُ الخطوب فتُقشَع

***

تغار على العلياء من كل معتد ... فإنك من دوح العلا متفرع
ففى الحسب الزاكى نشأت فزنته ... على أنه من هامة النجم أرفع
وترفع للتعليم ركنا مؤيدا ... وما شيد « الفاروق » لا يتصدع

***

ثمال اليتامى بعض ما أنت مانح ... ورد العوادى بعض ما أنت تدفع
فلا خير الا من يمينك يُرتجَى ... ولا فضل الا من أياديك يهمع

***

سلوا الأمل المعسول، هل كان طيبُه ... سوى نفحةٍ من عطفه تتضوع ؟
ألاَ وسَلُوا المحتاج ، هل رد لهفه ... سوى رغبات منه بالخير تتبع ؟
وتمت له الدنيا فتمم دينه ... « وياحبذا الدنيا مع الدين تجمع »

احمد أبو النجا

تحية الزفاف

للشاعر احمد محمد سليمان بمدرسة اسيوط الثانوية للبنات

أفْتدى بالروح بدراً سلّما ... فإذا الكونُ به فى عُرُسِ
فى محيّاه إذا ما ابتسما ... بهجةُ الدنيا وروحُ الأنفُسِ

***

دائمُ البشرِ فإن أبدى الدّلالْ ... فهْوعزّ الحسن: يحلو ويَطيبْ
جلّ من حكّم سلطانَ الجمالْ ... نافِذَ الأمر على كل القلوبْ
كلّما تاه على مُضْناه مالْ ... كلُّ شىء فيه للقلب حبيبْ
هو أنسُ الروح مهما احتكما ... عادلٌ فى حكمه غيرُ مُسى
أُوتِىَ الحسنَى مع الحسنِ فما ... منه يرجى غيرُ عطفٍ مؤنسِ

***

لم أجِدْ لى عاذِلا فى حبه ... أنا والعُذّالُ فيه مُغْرمونْ
يالَلشابِ للنُهى... من يَسْبِهِ ... يُزْهُ مُلْتذّاً بآلام الشجون
ذاكَ مِن أَسْنَى عطايا رَبِّه ... أن ترَى الناسَ عليهِ يجْمِعُون

أرأيت الملْكَ فاروقاً سما بسناه فوق عَرْش الأنْفُسِ ؟
أرأيت البدرَ فى أُفقِ السَّما زاهيا بين الجَوارى الكُنَّس؟

***

مَلِكٌ حاز الرضا .... إمَّا دعا أمَّن الشعبُ وكلُّ الشعب وَافْ
حازَ عِزَّ الدِّين والدنيا معَا بجلال الطُّهر يسمو والعفَافْ
لَوْترى الإخلاصَ بالناسِ سعى لِحِمَى الملْكِ وهنَّوا بالزفاف ؟
فاستمع فى كل صَوتٍ نَغَما طربتْ مِصْرُ به فى مَيَسِ
وانظر المَوكِبَ حين انتظما فى السما .. فى البحر .. فَوق اليَبَس

***

قُرِنَ العسْجَدُ بالدُرِّ الفَرِيدْ فزَها التاجُ عَلَى عرش السَنَاءْ
وبَدَا القُطْرَانِ فى اليوم السعيدْ فى رُوَاءِ الحُسْنِ أوحُسْنِ الرُّواء
زَهوَا عُجْبا وإعجابا بعيدْ نالت الاعيادَ منه الازدهاءْ
بَلْ لَقَدْ يُزْهيك أَنَّ الأمَمَا لَبِسَتْ فى العرس أزْهَى مَلْبَسِ
عُرْس فاروقٍ فما أبهى وما أجملَ الدنيا به إذ تكتسى

يوم الزفاف

للشاعر العوضى الوكيل المدرس بمدرسة محمد على الصناعية

أنت حلمٌ فى خاطر الآبادِ ... بهرَ النفسَ بالمعانى التِّلادِ
أنتَ كالبسْمةِ الطَّهُور بثغر النيـ ... ـل : تُرْوِى بنُورها كلَّ صاد
أىُّ نفسٍ فى مصرَ ؟ أىُّ فؤاد ... لم يَدِنْ بالولاء لابْنِ فؤاد ؟
نحنُ من هَتْفَةِ الفداءِ صَداها ... فادْعُ منَّا إلَى الفِداء وَنادِ
رَوْعَةُ النُّور فى مُحيَّاكَ هَدْىٌ ... لقوافىَّ بعـــد طولِ شِراد
فوقَ أعطافِك الشبابُ تحلى ... منكَ بالحِلْم ، والنُّهى ، والسداد
ياحبيبَ القُلوبِ مِنْ شعْبِك البَـ ... ـرِّ ، وياسيفَها غداةَ الجِلاد
فى دماءِ العبادِ حُبُّكَ يَسْرى ... مَثلَ مَسْرَى الأرواح فى الأجساد
وتكادُ الأنفاسُ تهمِسُ بالذكْـ ... ـر ، وتسْرى كالجدول المتهادى
إنَّ يومَ الزِّفاف صفحةُ مَجْدٍ ... سَطَّرَتْهَا يراعةُ الأمْجَاد
قد طوَى فى ردائه عُمْرَ أحقا ... بٍ طوالٍ حَفِلْن بالأعياد
فَجْرُه رائقٌ ، ونُورُ ضحاه ... كائتلاقِ الجمَال فى الأجياد

بسمَتْ زهرةُ الشّتاءِ ليوم مِن بيعٍ أتى بِلا ميعـــاد
هو بيْنَ الأيامِ رمزُ خلودٍ فى نُهًى أَخلَصت وفى أخْلاد
رائعٌ كالربيع ترتادُه العَيْ نُ فتهفُو لإِيّمَا مُرْتَاد
ذاكَ عيدٌ، ولستُ أَعرفُ يوماً مِثلَهُ فى مطالع الإِسْعَادِ
قد منحناهُ ما ملَكْنَا من الحبِّ م وهِمْنَا عليْـــــه كالعُبَّادِ

العوضى الوكيل

مهرجان الأمة

بقلم حسنين مخلوف المدرس بالمدرسة الخديوية

ما هذه النجوم المتألقة ؟ وما هذه الأنوار الساحرة ؟ والجمال الباهر ، والفرح الشامل ، والجمع الزاخر ، والبحر المتلاطم من أمواج الشعب ؟ ما هذه القلوب الفياضة بالحب ، والإجماع المطبق على الولاء ، والكتل البشرية المتلاحمة ، والموسيقا الصدّاحة ، والنغمات المشجية والأفراح المتجلية فى كل بيت وناد وشارع وميدان ؟

ما هذا الفناء فى الاخلاص ، والبيعة على الفداء ، والزمر الهاتفة من أعماق قلبها بصوت واحد صاعد إلى السماء ؟

كل أولئك يهتفون كأنهم زُمَر الحجيج « الله أكبر ، ليحى الملك فاروق ، ولتحى عروسه الفريدة » .

ولولا جلال الدين ، وحرمة ما بين زمزم والحطيم لقلت إن ذاك حج الألوف ، وهذا حج الملايين .

مصر الوفية تفرح بملكها ، والنيل المقدّس ترقص أمواجه لا على هزات الهواء ، بل على تكبير الملائكة فى أعلى السماء .

نعم إنه عرس الملائكة رافعة أصواتها : « أنْ قد نصر الله دين محمد على يد فاروق » فتردد نداءها الجبال والوهاد ، والبحار والأنجاد ، وكل سابحة فى السماء ، وسارية على الغبراء .

هذه الجماهير المحتفلة ، والوفود المسرعة من أقصى البلاد حرّكها باعث الأمل ، وأيقظها هاتف السعادة ، علمت أن فاروق معقد رجائها ومناط استقلالها ، ورمز وحدتها فجاءت إليه واقفة ، وبسدته متعلقة قائلة « أعد يا مولاى لمصر عهد الخلافة الفاطمية ، والعزة المصرية ، واطلع فى مصر كوكبا دُرِّيًّا يغمر ضوءه كواكب العالم ، وقل لهم إن مصر التى كانت أمّ الحضارة ودرج العالم على يديها جديرة أن تقود العالم من جديد ، وتبعث فيه روح الخير والعمران والعدالة والمساواة « تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله » « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة » نعم إن مئات القرون فى مصر ترقب مطلع الفاروق ، فقد توارث الخلف عن السلف الأملَ فى استعادة مجد مصر ،

والتطلع ليوم جديد، وعصر جديد تنشر فيه مآثر الماضين، ويستعيد مَلِكها أمجاد الملوك الأكرمين، فإذا بطالع السعد يهلّ من سدة الفاروق، ونور الأمل ينبعث من جبينه المشرق. وكان هذا القران السعيد فرصة جميلة لإظهار شعائر الولاء، ونُهْزَة كريمة للتعبير عن خالص الحب وبديع الوفاء.

إذا نحن أثنينا عليك بصالحٍ فأنت كما نثنى وفوق الذى نثنى
وإن جرَت الألفاظ يوما بمدحة لغيرك إنسانا فأنت الذى نَعنى

ولا بدع أن يكون قرانُ الملك فرحَ الأمة، فالملك هو القلب النابض لجسم الأمة، والعلم الخفاق لعزها ومجدها، وقطب نهوضها، وعنوان عظمتها، وقد منّ الله عليه بهذا الزواج السعيد، وشمله بمآثر العز الطريف والتليد. فاهتزت الأمة سروراً لأن فؤادها العطوف القوىّ بحبها وإخلاصها قد انعقدت أعراسه، فأقيمت أعراسها، وهل القلب إلا بضعة من الجسم؟ والجسم إلا مستجيب نداء القلب؟ فتحركت الأمة بهزات الفرح حركة كهربية لا يدَ لها فيها إلا يد المصباح إذا أنارته أسلاك الكهربا، والأوتار إذا حركتها أيدى العازف الماهر. فلتعذر يا مولاى أمتك إذا طارت سروراً، وذهب بها الفرح إلى حد الطرب، وبقيت

طول أيام عُرسك عاكفة على موسيقاها تنشد أهازيجها ، وتغنى على ليلاها فقد تملك حبك شغاف القلوب، وحل فى سواد العيون ، وانتظم الناس فى كل مكان يرددون نشيدا موسيقيا ويهتفون بنغم واحد «ليحى الملك الصالح» وإن فى زواج مولانا الفاروق معنى اختصت به مصر دون سائر الأمم ، فعهدُنا بالأمم فى التاريخ أن تجامل الملوك ، وتهب ما تجود به أيديهم فى مثل هذه المناسبة . أما عُرس الملك فاروق فالأمة شريكة فى هـذا الفرح ، تعد نفسها صاحبة شأن فى هذا المهرجان . وإلا فلماذا يتبرع الناس بوافر الأموال حمداً لله وشكراً ، ويتسابقون إلى الهدايا منّةً من الله وفضلا ، يهنىء بعضهم بعضاً ، ويهدى بعضهم إلى بعض . ذلك لأن فى الفاروق مزايا ضنّ الزمان بها على كل الملوك ، وادخرها لملك مصر فاروق « ذلك فضل الله يُؤْتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

وها هو ذا مهرجاننا الخاص ، مهرجان دار العلوم شيبها وشبانها أنبتهم نعمة جدك العظيم ! إسماعيل ، وأنشأتهم غَيرَتُه على اللغة والدين فعاشوا على الولاء ، وانتسبوا إلى هـذا البيت الكريم ، ونشروا لغة القرآن فى هذه الديار ؛ فبارك الله ثمارهم ، وتطلع العالم العربى إلى مصر ،

وأُعجب بثقافتها العالية ولغتها العربية العدنانية ، وقبس - وما زال يقبس - من نور فصاحتها ، وجمال أدبها ؛ فنحن — أبناء دار العلوم جنودك وجنود آبائك ، رسل الأدب والدين فى مصر :

وكان أبلغ شرف خصت به دار العلوم أن كان من رجالاتها أساتذة المليك ، والمليك أستاذ الأمة .

وإذا كان الشعب يُعرب عن ولائه وحبه لمولاه بصنوف الهدايا ، وأنواع التكريم ، فإن وسيلتنا إليك التى علمنا إياها آباؤك هذه الكلمات التى تعرب عن عظيم الإخلاص وَفائض الدعاء أن يسعد الله برعايتك شعبك ، وأن يجعل الخير معقوداً بلوائك ، والنصر حليف أعلامك آمين .

حسنين محمد مخلوف

فى القران الملكى السعيد

للشاعر خالد الشامى

فى ابتسام من الحياة السعيده كَتبَ اليمنُ للمليك فريده
أكمل اللهُ حسنَها فتناهت فى حلاها على اللآلى الفريده
وكساها الجمال ثوبا من الحسـن فماست على الحسان الخريده
كوكب السعد فى سمائك يامصـر تبدَّى بأَرض «مصر الجديده»
إنها نعمة الإله لنشء سوف يسمو على السجايا الحميده
فهى فى أطهر العقائل أصل وهى من أشرف الجدود حفيده

***

ياسليل الملوك ياهبةَ الدهـر إلينا من المواضى البعيده
عصركم زاهر ، وملكك يمن قد خبرنا به الحياةَ السعيده
نقش الشَّعب من ولائك نورا فى شغاف القلوب يتلو قصيده
فتغنى بها الشباب فخورا وتبارت مع الوليد الوليده

هى سفر المليك من كل فن خط فيه طريفه وتليده
يقرأ الشيخ فى صحائفه الغرّ فصولا من الحياة المجيده
ويراها الشباب أصدق هاد إن دعاه الهوى وخان عهوده

***

عزّز الله شَرعه بمليك عرف الدِّين ، وعدَه ووعيده
فارتقى العرش فى حماه مصونا واتقاه فى ملكه ليزيده
فاستجاب الاله دعوة شعب حل بالأمس غله وقيوده
أُشرِب الحب صافيا لمليك نُشْهِد الله أن نظل جنوده
إن عرشا تحوطه مهج الشعب سيبقى على الأصول الوطيده
قد غدت مصر فى ملاذك حصنا رغب الشرق أن تكون عميده

***

تخذ الناس من قرانك عيدا فاستزادوا من الحياة الرغيده
كلهم يلبس السرور شعارا واستعاروا من الربيع بروده
زينوا القطر نيله وقراه وجمال المليك زان صعيده
شارك «النيل» فى السرور «فرات» وتمنى على الزمان مزيده
وتغنى العراق أعذب لحن فسمعنا على النسيم غريده

***

ياقران المليك أنشأت جيـــلا يكبر الدين والخلال الرشيده

فى فعـال المليك أصدق داع لاتّباع الهدى وصدقِ العقيده

آية الدِّين جَنـــة وفلاَح لشبابٍ يصدُّ عنـــه صدوده

هذه منـــة المليك علينـا فليدمْ ملـكه السنين العديده

خالد الشامى

أمة تحمل الجميل.....

للشاعر سليم المسلمى

ملك فى صباه مولاه صانهْ وحمى ملكه وأعلى مكانهْ
كل ماناله الملوك بسنٍّ وتجاريبَ ناله بالفطانه
صاغه ربه تقيا نقيا صارفا عن سوى المعالى عنانه
حارسا شعبه ، حريصا عليه حافظا من تصدُّعٍ بنيانه

***

ياإمام الهدى « قران سعيد » لك ،للملك،للهدى،للكنانه
شعبك المخلص الوفىّ طروب كل دار من دوره مزدانه
فى قرى،فى دساكرٍ،فى كفور نصب الشعب مخلصا مهرجانه
وتساوى فى حلبة البشر حتى لتُبارِى شيوخُه شبانه
كم ضنين بالمال فى فرح «الفارو ق » أضحى سحابة هتانه
وأبِى صبية تيمَّن بالعيـــد فحلّى فى صبحه صبيانه
ولعوبٍ بالخيل قام على الدّ فّ وأوقاعه يروض حصانه
أمة تحفظ الجميل ، وشعب لك أبدى افتتانه وافتنانه

وقلوب فى كثرة الرمل أضحت وهى من فيض حبِّكم ملآنه
ألّف البشرُ بينها وازدهاها فهى تبدو جياشة فرحانه

***

يا سياجَ الدستور وَالعدل يا من بذّ أنداده وساد زمانه
عهدك الزاهر السعيد نشيد إستطابت أسماعُنا ألحانه
وجد الشعب فيه ما يرتجيه ذاق إنصافهُ ومس أمانه
لو تبيت الحملان فى الحقل ترعى لم تخف فى ظلامه ذؤبانه
واستطاع الضعيف أن يهدأ الليـ ـلَ وأن يكحل الكرى أجفانه
كل ما فيك يلهب الشعب حبا وينمِّى حنوه وَحنانه
أنت فى هذه العوالم روض لك فى كل بقعة ريحانه
وتقَوِّيك فوق جندك بالتقـ ـوى وبالبر ، عصمة وحصانه
أنت لو سرت فى بلاقع جرد لغدت وهى جنة فينانه

***

أنا لمّا رأَيت وجهك بدرا ورأيت الإيمان بالله زانه
وتجلت فيك المحاسن طرا بين أبهى سَمْت وأسمى مكانه

راعنى من جلال ربك مارا ع فردَّدْتُ : قادرٌ سبحانه !
وتسامت على القصيد معان أعجزت عن لحاقها أوزانه
فتقبل منى تهانىء عبد وهب العرش قلبه ولسانه

شبين الكوم

سليم المسلمى
المدرس بالمعلمين

المهرجان

للشاعر سيد قطب المدرس بمدارس الابتدائية

ماهْتافُ ثَمَّ فى كل مكان ؟ مادعاءٍ ثم فى كلّ لسان ؟
مانشيدٌ تسْكُبُ الدنيا به أعذب الألحان فى سمع الزمان ؟
ماشعور فاض كالوحْيِ هَفَا فهفا الشعر على كل جَنَانِ ؟
ماابتهاجٌ وسرورٌ ورِضَا وانطلاق فى التمنى والأمان ؟
مِهْرَجان العرشِ والشعبِ معاً عاش فاروقٌ ، ودام المهرجان ؟

***

قَال لى الدهرُ — وقَدْ راودته عَن خَفَاياهُ فأفْشَى وأبان :
ليس كاليوم جمالاً وسَنًى منـــذُ ما كان زمانٌ ومكان
ليس كاليوم ابتهاجاً ومُنى منذُ ما كان ابتداعٌ وافتنان
غيرُ يومين وإنى حافظٌ فى سجلِّى كلَّ ما كان وبان
يومُ ميلادٍ وفى يوم ارتقى عرشَه السامى فأعلاه وزان
ثم هذا اليومُ يومُ المهرجان عاش فاروقٌ ودام المهرجان !

أنتَ يافاروقُ خيرٌ خالصٌ بينما الخير مشوبٌ فى الزمانْ
من ضميرِ الشعب من يقظته مِنْ مناه من أغانيه الحسان
صاغكَ الله سَناء وسنى صانك الله وأعطاك الأمان ! !
صانك الله . فإنا أمة تَقدُر المحسن فى غير امتنان
كلّ يوم أنت فيه مهرجان عاش فاروق ، ودام المهرجان ! !

***

أنت فى مصرٍ قُوًى كامنةٌ منذ كانت مصرُ شعباً ذا كِيان
يُسلِمُ الجيلُ إلى تابعه هذه القوةَ تذكُو وتصان
والليالى مُرهِصَاتٌ والدُّنَى ترقبُ الميلادَ آنا بعد آن
ثُمَّ شَبَّ الشعبُ فى نهضته ناضجَ الفكرةِ مشبوبَ الجنان
فإذا فاروقُ فى طلعته تهتفُ البشرى على كل لسان
ثم كان اليومُ يومُ المهرجان عاش فاروق ، ودام المهرجان !

***

أنت صِنْوُ الشعب فى تاريخه كنتَ منه فى الأمانى يوم كان
قد تَوَافَى مولِد النهضة والمولد الضاحى ، فوافى مولِدان
وتوافى عهدُ الاستقلالِ والمرتقى السامى ، فوافت بشريان

حكمةٌ هذا التوافى عَجَبٌ شاءها الله فجاءت فى الأوان
ثم وافى اليومُ ، يومُ المهرجان عاش فاروق ، ودام المهرجان !

***

ياصديقَ الشعْب قُد نهْضته فى سباق الكون يظفرْ بالرهان
وله منك شبابٌ طامح يبعث الجرأةَ فى قلب الجبان
كلُّ قلب حين تدعو هاتفٌ : إيه لبيك ، إلى شَطِّ الأمان
إيه لبيك ، وفيه نشوةٌ وله من وجهك السمحِ ضَمان
إيه لبيك ، وقد طهّره حُبُّك السامى وروّاه الحنان
كلُّ قلبٍ خافق بالمهرجان عاش فاروق ، ودام المهرجان

***

شَعْشَعْ النغمةَ فى قيثارتى وحيُك العذبُ فجوَّدتُ البيان
وجرى الشعر وفى نَكْهَته من معانيك شَذى عرفِ الجنان
فأنا الشادى وفى روحى هوًى عبقريُّ الوحى ذاكى الافتنان
وأنا الشاعر آفاقى سَمَتْ فسما منى بيانٌ ومعان
وأنا الغريد يوم المهرجان عاش فاروق ، ودام المهرجان

سيد قطب

بناء به تزهو الحياة وتطرب

للشاعر عبد الباقي ابراهيم المدرس بمدرسة فاروق الثانوية

بناء به تزهو الحياة وتطربُ ... لخير العُلا إنجابُه حين يُنجبُ

تلفتت الدنيا إليه مشوقةً ... تجيء به أنباؤها ثم تذهب

ولاحت به مصرٌ عروسا مَشُوقة ... كما يتجلى رائع الروض معجب

لقد سبحت فى النور حتى كأنها ... لعينىَّ من مجموعة الزُّهْرِ كوكب

كأن الربيع النضرَ ينشر معرضًا ... به كل فتّانٍ يروع ويخلب

كأن رُؤى جذلانَ ساقت مواكبا ... إذا موكب ولَّى تقدم موكب

كأن خيالا عبقريا محلقا ... يصور أحلام النعيم فيُغرب

طغى البشر حتى تحسب النيل هاتفا ... يغنى وحتي تحسب الدوح تطرب

طغى البشر حتى خالط الشيخَ والفتى ... فلا حَىَّ إلا راقصٌ يتوثب

طغى البشر حتى تحسب العيش مسرحا ... يغنىِّ عليه العندليب ويلعب

وكلٌّ يؤديه بما يستطيعه ... على أن ما تُملى الطبيعة أعذب

فما أروع الأطفالَ ينشر ضحْكهم ... على الأفق بشرا نوره ليس يغرب

وما أطيب الألحان نَشْوى بهيجةً ... ترِنُّ كما رنَّ الحمام المثوب

يرددها جمع من الشعب مخلص ... أمين على إحساسه ليس يكذب

حبور تبَدَّى فى مظاهر جمةٍ ... تُبِيِّن عن صدق الولاء وتعرب

وإن كان منه ظاهر لا يفوتنا ... فإن الذى فى النفس منه لأغلب

به أظهرت مصرٌ طبيعةَ أمة ... لها حين يدعو الأمر حسٌّ مهذب

إذا فرحت هز السرور صميمها ... وإن غضبت فالجمر يشوى ويلهب

تفى مثل ما يوفى من النيل فيضُه ... وتصفو كما يصفو الشعاع فيثقب

***

أحبتك كالروح الذى فى دمائها ... وليس وراء الروح فى الحب مطلب

أحبتك إذ كرمتها وخلطتها ... بنفسك لا تنأى ولا تتجنب

أمولاى ما أسمى التواضعَ شيمةً ... لها أرَج يُصبى وسيماء تجذب

تحُف بها من روعة الملك هالةٌ ... لها وهج يُعشى العيون فتحجب

***

هو العيد عيدُ الدهر أقبل ضاحكا ... يمس بيمناه الجديبَ فيُخصب

يَمسُّ القلوب الذابلاتِ بأصبع ... تفيض بأسباب الحياة وتسكب

تكشَّفَ عن حُبِّ الشعوب لأمة ... لها فِطرة تغرى وخلق محبب
تنافس فيه الخافقان كلاهما ... بأكرمِ ما يُولى الحبيبُ ويُوْهَب
فَمَكَّن ما بَينَ الشعوب وبيننا ... وما يبتنيه الود أقوى وأصلب

***

بناءٍ على الأخلاق قام أساسُه ... وأنت به للشعب أَدنى وأقرب
وما كان عن وحى السياسة أوهوى ... ولكنها التقوى النصيحُ المجرب
وخيرَ الأسى فيه ضربت لعاهل ... يقدر إحساس الشعوب ويحسب
وليس عماد الملك ريشا وزينة ... ولكنه الأكباد تهفو وتحدب
وترغب فى الأمر الذى أنت راغب ... وتغضب إذ يوما إلى السيف تغضب
لقد منح الأرواحَ عُرسُك جِدَّةً ... كما يمنح الروضَ الربيعُ ويكسب
ولن تُخلِق الأيامُ منها نضارة ... على أن حُسن الروض يغنى ويذهب
ترَى الخير فيه والسرور تآلفا ... كما يألف النهرُ الرياض ويصحب!
وما النيل كلُّ النيل إلا سجيةٌ ... تفيض حنانا للورى حين تطرب

***

أفاروق مُليتّ الذى أنت أهلُه ... من الصفو يَسقيه الشباب فتشرب
ودامت لك الدنيا يرِفُّ نعيمها ... كما رَفَّ تاج فوق رأسك مُذهب

عبد الباقى ابراهيم

عيـــــــد أمة

للشاعر عبد الحق على شرف الدين
المدرس بمدرسة المنصورة الثانوية

فى الشَّرقِ يَهْتِفُ هاتفٌ بحياتِه ... فَتُرَدِّدُ الدنيـــا الدُّعاء لِذاتِه

مَلِكٌ يُحالفه التُّقَى وَيُظِلُّه ... وَيفيضُ بالآلاء بَحْرُ هِباتِه

فى طلعةِ الشمس المُنيرة لَمْعَةٌ ... مِنْ وَجْهِه وَجَبينِهِ وَحَصاتِه

وَطَلائع النِّيل السعيدِ شَبيهَةٌ ... بِسَخائِه وَحِبـــائِه وَجَناتِه

اللهُ مَلَّكَهُ القلوبَ وَخَصَّه ... بِوَلاءِ شَعْبٍ هائمٍ بِصِفاتِه

وَأَحَلَّهُ من كُلِّ قَلْبٍ مَنْزِلا ... الحب والاخلاص من لَبِناتِه

وَأَنالَه الخُلُقَ الكريمَ وَنيِّرًا ... يَتَفَجَّر العرفان مِنْ جَنَباتِه

يُدْلِى بِمَحْضِ الرأى أَبْلَجَ ناصِعًا ... فيشعُّ نُورُ الحقِّ من قَبَساتِه

ويُريك عزمًا فى العَظائم ماضِيًا ... تَتَفَزَّعُ الأفلاكُ مِنْ وَثَباتِه

أَضْفَى على الاِسلام ثَوْبًا حالِيًا ... مِنْ عَدْلِهِ وَصِيامِه وَصَلاتِه

وغدا وَدِينُ اللهِ يَشْكُرُ سَعْيَه ... وَيَزِيدُه شرفا جميلُ صِلاتِه

وَبَدَتْ بشائرُ سَعْدِنا مقْرونةً ... بِزِفافِهِ الميمونِ فى نَفَحاتِه

لاَ تَسْتَبِينُ العينُ غيرَ مَحاسِنٍ ... هِيَ فِي سِجِلِّ الدهرِ مِنْ حَسَناتِه

فالأرضُ تَضْحَكُ والسَّماءُ بَهِيجةٌ ... بِرُوَاءِ عُرسٍ يَزْدَهِي بِسِمَاتِهِ

عُرسٌ تَفَرَّدَ بِالْمَلاحةِ يَوْمُه ... أَنَّى ذَهَبْتَ طَرِبْتَ من حِبَرَاته

هـــذا مِغَنٍّ يَسْتَبِيكَ بِصَوْتِهِ ... وَيُرِيكَ فَرْطَ السِّحْرِ مِنْ نَغَمَاتِهِ

يَشْدُو فَيَسْتَرِقُ الْقُلُوبَ بِشَدْوِهِ ... وَيُشَنِّفُ الأَسْمَاعَ عندَ شَكَاتِهِ

وَيُصَرِّفُ الأهواء مِزْهَرُهُ الذى ... يُشجيك بالإيقاعِ مِنْ نَفَثَاتِهِ

ومواكبٌ تَتْرَى يَضِيقُ بِهَا الْفَضَا ... أَرَأَيْتَ رَكْبَ الحج فى عَرَفَاته؟

يَتَسَابقون إلى الْمَبَاهِجِ هُيِّئَتْ ... مِنْ كُلِّ صِنْفٍ حَافِلٍ بِشِيَاتِهِ

ويرون عِيدًا أن يُزَفَّ مليكهم ... زينُ الشباب وفخرُ كُلِّ لِدَاتِهِ

مولاىَ إِنَّك بالزِّفَافِ لضاربٌ ... مثلاً جميلا للسَّنَا وَحُمَـــاتِهِ

تَبْغِى الحياةَ مَجِيدةً وشَرِيفةً ... وَتُرِيد بالإصْهَارِ نَصْرَ دُعَاتِهِ

فَلْيَهْنِكَ الإمْلاكُ وَلْيَهْنَأْ بِهِ ... شَعْبٌ يُرَجِّى الخيرَ مِنْ ثَمَرَاته

* * *

« فاروق » ياخَيْرَ المُلوك وَتَاجَها ... وَسَمِيَّ مَنْ سَاسَ الملا بِأَنَاتِهِ

وسليلَ بَيْتٍ لا يُطَاوَلُ مَجْدُهُ ... شَهِدَ الزَّمانُ بِسَبْقِ كُلِّ بُنَاتِهِ

هذا زِفَافُك مُشْرِقٌ تُزْهَى بِهِ ... مِصْرٌ لِمَا قَدْ بَانَ مِنْ بَرَكَاتِهِ

تَتَعَاقَبُ الأَجْيَالُ ذَاكِرَةً لَهُ ... فَيُعَطِّرُ الأَرْجَاءَ نَشْرُ رُوَاتِهِ

عبد الحق على شرف الدين

عيد الزمان

للشاعر عبد الحميد زيدان
المدرس المنتدب لكلية المقاصد الاسلامية ببيروت

بَسَمَ الزمانُ وحقق الأحلاما ... فاطربْ وشاركْ دهرك البسّاما

غرّدْ مع الأطيار فى أفنانها ... وقُلِ القريض ، وردِّدِ الأنغاما

وارقصْ مع الأغصان فى دوحاتها ... وكن النسيم مهفهفا نعاما

تَرْجِمْ إلى الآفاق ماتحظى به ... مصرٌ ، ونشّرْ فوقها الأعلاما

واسبحْ مع الأفلاك فى ملأ العلا ... واستوحِ منه الوحى والإلهاما

واخلع على الأكوان بُردا ضافيا ... زيِّنْ به أعطافها والهامَا

واسكبْ حديثك فى المسامع سائغا ... تنعشْ به الأجسام والأفهاما

واشرب من الأفراح كأسك وابتهج ... وأملأ فؤادك نشوة وهياما

وأدِرْ سلافَ البشر فى الدنيا على ... كل الأنام إذا أدرت الجاما

أرهف سماع الخافقين وغنّنا : ... « عاد الزمان من المشيب غلاما »

« فاروق » ألبسه الفتوةَ بعدما ... شابت ذوائبُه ودق عظاما

لما رأى الأعوامَ تنقض ظهره نفض السنين وحطم الأعواما
وإذا بوادى النيل يَذكر مجدَه لما رأى الفاروقَ فيه إماما
فى مهرجان لم تر الدنيا له شبها ولم تشهد سواه زِحاما
والشعبُ مبتسمُ الثغور، مهلل وكأنما البشرى سقته مُداما

***

يا بسمة الآمال فى ثغر المُنى وابنَ الألى نالوا الخلود كراما
نسجوا من الشمس المضيئة تاجهم وتخيروا زهر النجوم وساما
سلّتهم الأقدارُ من مكنونها فوق الليالى والخطوبِ حُساما
فإذا أرادوا فالزمان منفِّذ وإذا أَبوا نذرَ الزمان صياما
كرسيهم وسع الحجاز ونوبة والواديين وقبرصا والشاما
رَدُّوا من الغرب الشموس لمشرق طالت دياجيه وجنّ ظلاما
قد أنجبوك فكنت دُرة عقدهم وزها بنورك طلعة ونظاما
فاجلس على عرش القلوب فإنها خلقت لمثلك منزلا ومَقاما
هم آثروك بحبهم وكأنما لبسوا بحبك رفعة ومَقاما
وهديتى شعرٌ حوت أبياتُه حباتِ قلبٍ بالمحبة هاما

عبد الحميد زيدان

تحية القران الملكى

الشاعر عبد الستار سلام
المدرس بمدرسة الأميرة فوزية الثانوية للبنات

شادٍ على قصر المليك يغردُ ... طَرِبٌ يشنفُ سامعيه ويُسعدُ
يُذكى المشاعرَ والعواطفَ والهوى ... ويُقيم من فرْط السرور ويُقعدُ
أرهفتُ أسماعى إليه وأينَ - لو ... أنْصَتُّ - منه الموصلىُّ ومَعْبَدُ

***

يشدو بأفراح القِران ، وإنَّه ... لأجَلُّ ما ترجو البلادُ وتَنشُدُ
أشهى إلى الأرواح من درْك المنى ... وأَلَذُّ من طيبِ الحياة وأسعدُ
فى كل قلب للمليك مودةٌ ... وبكل واد من مآثره يدُ
فليهنِ مصرَ قِرَانهُ ، وليهنه ... نسبٌ عريق فى المفاخر مُفْرَدُ

***

يا بلبل الأفراح أيْقظت الهوى ... ومِن الهوى ما يُستحَب ويُحْمَدُ

رقصت على الألحان مصرُ وأصبحت ... نشوى بحب مليكها تتأوَّدُ

لبستْ من الأفراح أجملَ زينة ... ومن المحاسن حلةً لا توجدُ

فالخافقات من البنود ووشيُها ... ذوْبُ اللجين، ونسجهُن زبرجدُ

لعبتْ بها ريحُ السرور فمالها ... لا تستقر، ومالها لا ترشدُ ؟

والشعب فى فرح يهنىء بعضُه ... بعضاً بعيدِ مليكه ويُعَيِّدُ

ما أجمل الأيام تأتى بالمُنى ... عفوا وتسعف بالمراد وتُنجدُ !

نزلت على رأى المليك وهل لها ... غيرَ المليك مؤمَّلٌ ومؤيدُ ؟

ملك على عرش القلوب قد استوى ... ويكاد من فرط المحبة يعبدُ

أولته مصرُ قيادها وزمامها ... فإذا به ربانُ مصر الأوحدُ

نجّى السفينةَ بعدما عبثت بها ... هوجُ الرياحِ وضلَّ عنها المرشدُ

فالحزمُ فيه طبيعـــة وسجية ... والعزم سيف فى يديه مجردُ

والعدلُ يبنى ركنه ويَشيِده ... ويروح يدعم ما بنى ويوطدُ

شيَم كأزهار الربيع ودونها ... نعمى الحياة وطيبها المُتَجَدِّدُ

ورث الشمائل عن أبيه وجده ... ولنعم جَدُّ المالكين محمدُ

فاروقُ حسبك فى زِفافك أن ترى ... مهجَ العباد على ولائك تُعْقَدُ !

عبد الستار سلام

فـــرح النيـــل

للشاعر عبد العزيز عتيبه
المدرس بمدرسة عباس للبنات

مِنْ حَنِينِ الرُّبَا، وَهَمْسِ الْجَدَاوِلْ ... وَخَيَالِ الضُّحَا، وَسِحْرِ الْأَصَائِلْ

مِنْ مَعَانِي الرَّبِيعِ، رَفَّتْ عَلَى الْعُشْـ ... ـبِ، وَنَامَتْ عَلَى ظِلَالِ الْخَمَائِلْ

مِنْ شَتِيتِ النُّوَارِ حُسْنًا وَطِيبًا ... مِنْ نَدَى الْفَجْرِ فِي ثُغُورِ السَّنَابِلْ

مِنْ خُشُوعِ الصَّفْصَافِ يَحْنُو لَدَى النِّيـ ... ـلِ بِأَغْصَانِهِ الْعِطَاشِ النَّوَاهِلْ!

مِنْ صَلَاةِ الْفَلَّاحِ فِي جَانِبِ الْحَقْـ ... ـلِ الْمُوَشَّى بِسُنْدُسِيِّ الْغَلَائِلْ

مِنْ مَضَاءِ الشَّبَابِ. مِنْ حِكْمَةِ الشَّيـ ... ـبِ، وَمِنْ وَثْبَةِ الْجُدُودِ الْأَوَائِلْ

مِنْ لُبَابِ الْحَيَاةِ فِي مِصْرَ وَالشَّرْـ ... ـقِ، وَمِنْ سَطْوَةِ الْحُمَاةِ الْبَوَاسِلْ

مِنْ يَقِينِ الْمِصْرِيِّ بِالسَّبْقِ وَالْإِرْـ ... ـجَازِ فِي عَصْرِكَ الَّذِي لَا يُطَاوَلْ

صَاعِدَاتٌ لَكَ التَّهَانِي جَمِيلَا ... تٍ، كَوَجْهِ الْفَارُوقِ، رَمْزِ التَّفَاؤُلْ!

***

يَا مَلِيكَ الْبِلَادِ، يَا أَمَلَ الشَّعْـ ... ـبِ، وَكَنْزًا مِنَ الْعُلَا وَالْفَضَائِلْ

وَقَفَ الشِّعْرُ عِنْدَ وَصْفِكَ مَسْحُو رًا بِنُورِ الْهُدَى ، وَلُطْفِ الشَّمَائِلْ
وَقَفَ الشِّعْرُ حَائِراً فِي مَعَانٍ فَوْقَ طَوْقِ النُّهَى ، وَذَرْعِ الْمَقَاوِلْ
مَهْرَجَانُ الْفَارُوقِ أَقْبَلَ عِيداً بِالْهَوَى عَامِرٌ ، وَبِالْيُمْنِ حَافِلْ
مَهْرَجَانُ الْفَارُوقِ مَوْسِمُ شِعْرٍ أَيْنَ مِنْهُ أَسْوَاقُهُ فِي الْقَبَائِلْ !
مَهْرَجَانُ الْفَارُوقِ أَلَّفَهُ اللّـ ـهُ ، وَصَفَّاهُ مِن مَشُوبِ الدَّخَائِلْ
مَهْرَجَانُ الْفَارُوقِ ، مَعْنًى مِنَ التَّقْـ ـدِيرِ ، وَالْحُبِّ ، وَالْوَفَاءِ الشَّامِلْ
مَا رَأَيْنَا لَهُ مَشَابِهَ إِلاَّ مَهْرَجَانَ الْفَارُوقِ : فَهُوَ الْمَاثِلْ

***

قُلْتُ لِلشِّعْرِ : أَيُّهَا الشِّعْرُ مَاذَا أَنْتَ فِي هَذِهِ الْمَبَاهِجِ قَائِلْ ؟
أَرَأَيْتَ الشُّمُوسَ تَنْزِلُ لَيْلاً فِي شِعَابِ الْوَادِي ، وَحَوْلَ الْمَنَازِلْ ؟
مَا تَقُولُ السَّمَاءُ عَنَّا إِذَا مَا أَبْصَرَتْ عُرْسَنَا ، وَتِلْكَ الْجَحَافِلْ ؟
فَسَهَا الشِّعْرُ ، ثُمَّ تَمْتَمَ بِالْوَحْـ ـيِ ، وَفِي صَوْتِهِ كَشَدْوِ الْبَلَابِلْ :
لاَ تَسَلْنِي عَنِ الْمَشَاعِلِ ضَاءَتْ فَقُلُوبُ الْعِبَادِ هَذِي الْمَشَاعِلْ
فِي سَبِيلِ الْفَارُوقِ أَطْلَقَتِ النُّو رَ ، وَأَلْقَتْ بِنَفْسِهَا فِي السَّلاَسِلْ !
وَخَيَالُ السَّمَاءِ يَحْلُمُ فِيمَنْ نَضَّرَ الْأَرْضَ هَكَذَا بِالْمَحَافِلْ !

***

قُلْتُ لِلشِّعْرِ : أَيُّهَا الشِّعْرُ مَاذَا ... أَنْتَ فِى هَذِهِ الْمَبَاهِجِ قَائِلْ ؟
أَرَأَيْتَ الْأَعْلَامَ تَخْفُقُ كَالطَّيْـ ... ـرِ وَتَبْدُو عَلَى الرُّبُوعِ الْأَوَاهِلْ ؟
أَرَأَيْتَ الْجُمُوعَ تَدْفُقُ كَالسَّيْـ ... ـلِ ، وَتَمْضِى فَمَا تُطِيقُ الْحَوَائِلْ ؟
فَسَهَا الشِّعْرُ ، ثُمَّ تَمْتَمَ بِالْوَحْـ ... ـىِ ، وَفِى صَوْتِهِ كَشَدْوِ الْبَلَابِلْ :
مَا إِخَالُ الْأَعْلَامَ فِى الْجَوِّ إِلَّا ... مُهَجَ الشَّعْبِ بِالْهَوَى تَتَمَايَلْ !
وَالْجُمُوعَ الْجَمَّاءَ مَاهِىَ إِلَّا ... مِنْ قُرَى الرِّيفِ ، وَالصَّعِيدِ رَسَائِلْ !

***

صَدَقَ الشِّعْرُ . لَيْسَ مَا كَانَ إِلَّا ... عَنْ هَوَى الشَّعْبِ لِلْمَلِيكِ دَلَائِلْ !

***

يَا مَلِيكَ الْبِلَادِ ، يَا قِبْلَةَ الشَّرْـ ... ـقِ جَمِيعًا لَدَى الْقَضَايَا الْجَلَائِلْ
يَا شَبَابَ الْبِلَادِ بَعْدَ اكْتِهَالٍ ... وَمَلَاذَ الْعِبَادِ مِنْ كُلِّ غَائِلْ
يَا ابْتِسَامَ الزَّمَانِ بَعْدَ عُبُوسٍ ... وَنَشَاطَ الْآمَالِ بَعْدَ التَّثَاقُلْ
يَا فَخَارَ الْمِصْرِىِّ فِى كُلِّ وَادٍ ... يَا عَتَادَ الْمِصْرِىِّ فِيمَا يُحَاوِلْ
خَرَجَتْ أُمَّةٌ إِلَيْكَ وَشَعْبٌ ... لَيْسَ يَنْسَى صَنِيعَكُمْ وَالْجَمَائِلْ
خَرَجَتْ لِلْمَلِيكِ تُعْلِنُ جَهْرًا ... عَنْ مَدَى حُبِّهَا بِشَتَّى الْوَسَائِلْ

***

مِنْ حُقُولِ اللَّيْمُونِ ضَمَّخْتُ شِعْرِى ثُمَّ بَارَكْتُهُ بِمَاءِ الْجَدَوِلْ
وَبِسِحْرِ الشُّعَاعِ فَوْقَ الْمَرَاعِى وَوَقَارِ النَّخِيلِ بَيْنَ الظَّلَائِلْ
وَبِوَحْيِ النَّدَى وَسَجْعِ الشَّوَادِى وَنَسِيمِ الْمَاضِى ، وَجَوِّ الْهَيَاكِلْ
وَبِرَقْصِ الْمُنَى بِآفَاقِ لَحْنٍ عَانَقَتْ شَجْوَهُ لِطَافُ الْأَنَامِلْ
فَأَنَا الْآنَ لَا أُرَجِّعُ إِلَّا مَا تَحَمَّلْتُ مِنْ شَرِيفٍ وَعَامِلْ
مِنْ تَهَانِى الْبِلَادِ عَرْضًا وَطُولًا مِنْ مُقِيمٍ بِهَا ، وَمِنْ كُلِّ رَاحِلْ
مِنْ تَهَانِى الْفَلَاحِ مِنْ عَاهِلِ الْحَقْـ ـلِ ، عِمَادِ الْحِمَى وَرَبِّ الْفَوَاضِلْ
إِنْ يَكُنْ قَدْ قَسَا الْقَضَاءُ عَلَيْهِ وَمَشَى فِى حَيَاتِهِ بِالْمَعَاوِلْ
فَهُوَ يَرْجُو عَلَى يَدَيْكَ نَجَاةً مِنْ جُحُودِ الْمَاضِى ، وَلَيْلِ النَّوَازِلِ
وَحُمَادَاهُ فِى زَمَانِكَ عَهْدٌ بِالْمُنَى مُقْبِلٌ ، وَلِلْخَيْرِ وَاصِلْ !

***

يَا أَخَا الشَّعْبِ مَنْهَجًا وَنُزُوعًا وَسَنَى الشَّعْبِ فِى ضَبَابِ الْمَشَاكِلْ
حَبَّذَا أَنْتَ يَا مَلِيكِى وَعَصْرًا فِيهِ مِنْ وَجْهِكَ الْمُنِيرِ مَخَايِلْ
حَبَّذَا أَنْتَ لِلْخِلَافَةِ وَالْمُلْـ ـكِ ، وَلِلشَّرْقِ بَدْرُهُ الْمُتَكَامِلْ
فَلَقَدْ شِدْتَ بِالْمَحَبَّةِ وَالْإِيـ ـثَارِ مَا لَمْ يَشِدْهُ أَكْبَرُ عَاهِلْ ؟

***

دُمْتَ مَوْلَاىَ ، يَا سُلَالَةَ مَجْدٍ كَرُمَتْ عُنْصُرًا ، وَطَابَتْ فَعَائِلْ !

عبد العزيز عتيق

هاك عرس الفاروق

للشاعر عبد العظيم بدوى
الطالب بدار العلوم

صَدَحَ النای فِی یَدَیه طَرُوبَا عَاطِرَ اللَّحْنِ یُفْعِمُ الـكَوْنَ طِیبَا
رَجَّعَتْهُ فی أَرزِ «لبنان» وَرْقَا ءُ هتُوفٌ ، تُطَارِحُ الْعَنْدَلِیبَا
وَعَلَى شَاطِیءِ الْفُرَاتِ صَدَاهُ رَنَّ ـ كَالسِّحْرِ ـ یَسْتَخِفُّ الْقُلُوبَا
وَعَلَى رَبْوَةِ «الشَّآمِ» هَزَارٌ كم تَغَنَّى بِهِ فهزَّ الْجُنُوبَا
وَبِوادی الحجیج رَتَّلَهُ الحَا دِی، فكاد «الصَّفَا» یَطِیرُ وثُوبَا
وَانْتَشَى مَنْبَرُ النَّبِیِّ كأنَّ الـ ـوحی منْ فَوقه یُنَاجی الْحَبِیبَا

***

صَدَحَ النَّایُ فی یَدَیهِ طَرُوبَا عَاطِرَ اللَّحْنِ یُفْعِمُ الـكَونَ طِیبَا
شَاعِرٌ فَوْقَ شَاطِیءِ النِّیلِ یَشدُو: «هاكِ عُرْسَ الْفَارُوقِ یَامِصْرُ طُوبَى»

***

مَا ابْتِهَاجُ الرِّيَاضِ، مَا بَسْمَةُ الْفَجْـــرِ يَحُوكُ الأَضْوَاءَ ثَوْبًا قَشِيبَا
مَا شُرُوقُ الآمَالِ فِي أُفُقِ الْقَلْـ ـبِ طِرَابًا يَخْطِرْنَ فِيهِ دَبِيبَا
مَا جَمَالُ الفِرْدَوسِ يَسْطَعُ فِيهَا أَلَقُ الزَّهْرِ أَوْ تَبُثُّ الطُّيُوبَا
مَا ارْتِوَاءُ الظَّمْآنِ مِنْ غَادَةِ الْكَرْـ ـمِ، تَحَسَّى الرُّضَابَ كُوبًا فَكُوبَا
مَا اهْتِزَازُ الرُّبَى، يُضَاحِكُهَا الغَيْـ ـثُ فَتُضْحِي القِفَارُ مَرْجًا عَشِيبَا
مِنْكِ أَبْهَى يَا مِصْرُ يَوْمَ تَزُفِّينَ لِعَرْشِ الفَارُوقِ شَمْسًا عَرُوبَا
ذَهَبَتْ فِي السَّمَاءِ دَوْحَةُ مَجْدٍ مِنْ بَنِي «ذِي الْفَقَارِ» تَسْمُو دُئُوبَا
نَوَّرَتْ فِي الظِّلَالِ زَنْبَقَةٌ تَسْـ ـمَى لِقَلْبِ «الْفَارُوقِ» تَنْضَحُ طِيبَا!
زَانَهَا اللهُ بِالْقَدَاسَةِ وَالْحُسْـ ـنِ فَأَضْفَتْ عَلَى الرِّيَاضِ نَصِيبَا!

***

مَوْكِبٌ لِلْخُلُودِ، يَسْبَحُ فِي النُّو رِ أَرَى طَيْفَهُ ... قَرِيبًا ... قَرِيبًا
تَتَنَاغَى الأَرْوَاحُ فِيهِ سُكَارَى تَذْرَعُ الْعَرْشَ جَيْئَةً وَذُهُوبَا
تَتَبَارَى الأَمْلَاكُ وَالْحُورُ عَزْفًا وَغِنَاءً ، وَرِقَّةً ، وَنَسِيبَا
زَفَّ «جِبْرِيلُ» فِي الطَّلِيعَةِ يَحْدُو هُ وَغَنَّى «دَاوُدُ» فِيهِ مُجِيبَا
عَجَبٌ ! تَرْقُصُ الْكَوَاكِبُ فِيهِ كَعَذَارَى أَبَدَيْنَ غَضًّا رَطِيبَا!
مِهْرِجَانُ السَّمَاءِ فِي عُرْسِ فَارُو قٍ تَهَادَى ، فَرُحْتُ أَشْدُو سَلِيبَا

مَلِكٌ تَخْشَعُ النُّجُومُ حَوَالَيْـ ... ـهِ إِذَا رَقَّ كَالصَّبَاحِ مَهِيبَا !

بَسْمَةٌ فى فَمِ الزَّمَانِ أَنَارَتْ ... مِنْ فِجَاجِ الإِسْلَامِ كَوْنًا رَحِيبَا

لَمْحَةٌ فَاضَ من « فُؤَادٍ » سَنَاهَا ... فَأَضَاءَتْ لِلشَّرْقِ لَيْلًا كَئِيبَا

سَاسَ بِالْقِسْطِ مُلْكَهُ؛ فَتَأَمَّلْ ... لَا تَرَى غَالِبًا ، وَلَا مَغْلُوبًا !

* * *

كَمْ جَثَا لِلصَّلَاةِ فاضْطَرَبَ الْمِحْـ ... ـرَابُ، نَشْوَانَ من جلالٍ، هَيُوبَا!

وَاسْتَوَى نَاهِضًا فَشَعَّ جَبِينٌ ... تَخْجَلُ الشَّمْسُ مِنْهُ أَلَّا تغيبَا

وَانْحَنَى رَاكِعًا ، يُسَبِّحُ لِلَّـ ... ـهِ وَيُزْجِى دُعَاءَه الْمَشْبُوبَا !

« أُمَّتِى ! أُمَّتِى ! بِلَادِى ! بِلَادِى ... رَبِّ حَقِّقْ رَجَاءَها الْمَطْلُوبَا !

أَيْقِظِ الشَّرْقَ يا إِلهى ! أَلَمْ ... أُمَمَ الشَّرْقِ كُلَّهَا أَنْ تَثُوبَا

لِى شَبَابٌ ! ، ولِى أَمَانٍ كِبَارٌ ! ... وَبُلُوغُ الآمَالِ أَنْ تَسْتَجِيبَا!»

هَكَذَا يُصْلِحُ الْمَمَالِكَ رَاعُو ... هَا، وَيَهْدِى الْمُلُوكُ فِيهَا الشُّعُوبَا!

***

إِي وَرَبِّى ! فَذَاكَ عَهْدُ «أَبِى حَفْـ ... ـصٍ» تَخَطَّى هَامَ السِّنِينَ وَثُوبَا

يَنْتَضِى رَايَةَ « الخِلَافَةِ » فِى مِصْـ ... ـرَ ، يُظِلُّ الضَّعِيفَ وَالْمَنْكُوبَا

فَإِذَا اضَجَّ فى « العراق » جَرِيحٌ ... وَاشْتَكَى فى «الحِجَازِ» نَدْبٌ نُدُوبَا

وَبكَى فى « الشَّآم » كلُّ أَبِىّ ... يُرْسِلُ الدَّمْعَ بالدِّمَاءِ خَضِيبَا
وَاصْطَلَى فى اللَّظَى « بتونس » شَيْخٌ ... أَرْهَقُوهُ فِى دِينِهِ تَعْذِيبَا !
يَمّمُوا شَطْرَ « عَابِدِين » فَأَلفَوْا ... ثَمَّ لِلجُرحِ بَلسما ، وَطَبِيبَا

* * *

مَلِكى ! أَنت كَالْعَقِيدَةِ ، فيضٌ ... دَافِقٌ فى الشُّعُورِ يَأْبَى النُّضُوبَا
أَنْتَ شِبْلُ الإِسْلاَمِ فى الشَّرْقِ وَالْغَرْ ... بِ ، إذا ما اشتكى زَأَرْتَ غَضُوبَا
عَرْشُكَ الزَّاهِرُ الكَرِيمُ الْمُفَدَّى ... فِى حَنَايَا القلوبِ : مُرْدًا وَشِيبَا
فإِذا مَا خَطَرْتَ فِينا عَرُوسًا ... فارْحَمِ الشَّعْبَ فِى الْهَوَى أَنْ يَذُوبَا !
صَفَّقَ النِّيلُ فِي رِكَابِكَ مَخْمُو ... رًا ، وَجَلَّى رَحِيقَةُ المسْكُوبَا
وَبِسَاحِ « الأَهْرَامِ » أَزْهَرَ حَفْلٌ ... « لِلْفَرَاعِين » شَعَّ نورًا غَرِيبَا
زَيَّنَتْهُ « نِفْرِى » تُراقِصُ « خُوفُو » ... وانْبَرى « خَفْرَعٌ » لَدَيْهِ خَطِيبًا !
وعَلَى الرِّيفِ بَهْجَةٌ وَجَلاَلٌ ... تَوَّجَا السَّهْلَ ، والرُّبَى ، وَالْكَثِيبَا
الأَراغِينُ والْمَزَامِرُ فِيـــهِ ... تُفْعِمُ اللَّيْلَ وَالضُّحَى تَطْرِيبَا
« والسَّواقِي » بين المرُوج يُغَنِّيـ ... ـنَ كَسِرْبِ الحسانِ لَحْنًا عَجِيبَا !
وَعَجُوزٍ فى الكوخِ تضرَعُ : لِلّـ ... ـهِ ، لكيما يرعى حِمَاكَ خَصِيبا !
رُبَّ طِفْلٍ يَصِيحُ « فاروق » ، فارو ... ق ! ! » وَفِى صَدْرِهِ سَمِعتَ وَجِيبَا

وَحِسَانٍ غَرَّدْنَ بِاسْمِكَ فِي الْعُشْـ ... ـبِ فَأَصْغَى نَوَّارُهُ مُسْتَطِيبَا

مِهرجانُ الحُقُولِ فِي الرِّيفِ بَارَى ... مِهْرَجانَ المدينَةِ المشْبُوبَا !

***

مَلِكِي ! حِرْتُ فِي شَمَائِلِكَ الغُرِّ ... رِ فَعُذْرًا فَلَسْتُ إلاَّ أَدِيبَا !

ملكي ! : بالرفاء ! بالعز ! بِالْمَجْـ ... ـدِ ! فَعِشْ هَانِئًا، وَعِشْ مَحْبُوبَا ! !

عبد العظيم بدوى

تحية الشعر

للأستاذ عبد الغنى نصر الدين

ناظر المعلمين بالمنصورة

يومٌ تجلّى فى الزمانِ فريدا ... فغدا به تاجُ الزمان جديدا

طلعت به نبت السماء تزفّه ... للكون وضاحَ الجبين سعيدا

مَلك السحاب طوى السحابَ بكفّه ... ورمى به خلف البحار بعيدا

مَلك الرِّياح دعا الرياح وغلَّها ... فمضت تجرّ سلاسلا وقيودا

والليل أمسى بالكواكب زاخرًا ... لاحتْ تحيّي حفلهُ المشهودا

فى كل كفٍّ للكواكب راية ... تهتزّ دُرًّا فى الفضاءِ نضيدا

والحورُ قد لبِست معارضَها وقد ... زيَّنَّ بالورد النضير قُدودا

وهبطْن بالشمع المنير مباركاً ... وتلوْن كالذِّكر الحكيمِ نشيدا

***

فاروقُ يَومك يومُ مصرَ ونيلِها ... سعِدت به الدنيا فجاء وحيدا

حلَف الزمانُ بربِّه ما أنجبت أيامُ دولتهِ كيومِك عِيدا
بل ما رأت أمُ الوجود بهاءَه من يوم أن كان الوجود وليدا

***

تلك المصابيح اللواتى نورُها فى الكَون يَنْتَهِبُ الفضاءُ صعودا
كانت قلوبُ الشعب تحرس ربَّه وتقيه فى يوم الزفاف حَسُودا
تحمى الملوكَ جنودُهم وسيوفُهم وقد اتَّخذتَ من القلوب جنودا
إن الهدايا ، والولاءُ يُعدّها عجزت بها أيدى الولاءِ عديدا
ودعالها الإخلاصُ شعبَك فانبرى مُهجا تَنَاثَرُ حول قصرك جُودا
هل للفراعنةِ الذين تقبّلوا قُربانَ مصرٍ طارفا وتليدا ؟
أن يُبعثوا والقصر مزدانٌ بهـا فيروا عيونًا قَدْ نُظِمْنَ عقودا ؟
أوهل لإسماعيل مُنْجِبِك الذى نادَوْا به يومَ الفخار عميدا
أن يشهد البيت العتيق وحوله أممٌ وأقيالٌ تحجُّ حفيدا ؟
بيتٌ على جنبَاته نبتَ النَّهى واخضرَّت الآمال عُودًا عودا
وتفجَّر الإيمان من أحواضه فهو النجاةُ لمن أراد وُرودا
وينام فيه الأمْنُ ملءَ جفونه إن كان خفّاقَ الفؤاد شريدا
ويموج فيه الشِّعر حُبا خالصا يجْرى بكوثره الفُراتِ قصيدا

لُحْ يا مليك النيل من عليائهِ ... وٱجلس على عرشِ الجدود رشيدا

خَلَقَ المهيمن عرشَ جدك رفعة ... ومهابةَ وجـــلالة وخُلودا

واعْمُرْ بيوت الله أنت إمامُها ... واسبق إليها ركّعا وسجُودا

إن المليك إذا استعزّ بدينـــه ... فقد استحق النصرَ والتأييدا

عبد الغنى نصر الدين

مهرجان الشرق والاسلام

للشاعر على الجندى

المدرس بدنها الثانوية

نفحاتُ الأزهار من أردانهْ والحَيَا المُسْتَهِلُّ فيضُ بَنَانِهْ
والربيعُ الموشِيُّ، والأفقُ الضّا حك، عنوانُ عَطْفِه وحَنانه
والنعيم المُقيمُ واليُسْرُ يَنْدَى ظِلُّه، بعضُ مُرْتَجًى مِنْ زمانه
والهدى والرشادُ والرّفقُ والحِـ لم، سِماتٌ نَمَّتْ على إيمـــانه
واقْتبال الدنيا وزَهْوُ الدّرارى وائْتلاقُ الضحا، صِبَا رَيْعانه
والسَّنا والسناء والصَّفْو واليُمْـ ـن، نِثَارٌ على «سُعُود قِرانه»
مَلِكٌ يَمْنَحُ السُّرُورَ مُحيَّا هُ ويأسو الجِراحَ عذبُ بيانه
وابتساماتُه مسالمةُ الدهـــر وإقبالُه وعَهْدُ أمـــانه
كلُّ أيامِه مواسمُ غُرٌّ حافـــلاتٌ بِطَـوْله وامتنانه
مُشرقٌ كالحسام رَفَّ على الصَّـ ـقل، وكالنَّوْر يَزْدهِي فى جِنانه
يَتعالَى لَأَلاؤُه فيُجَلِّي سُدُفاتِ الدّيجور فى إدْجانه

وَرِعُ القلب ناشئ فى حِمَى السَّمْحَـ ... ـةِ [1] تقوَى الإله قَيْدُ عِيانه

ليس يُزْهَى بالملك مَن تحته النيـ ... ـلُ يفيض الثّراء من خلجانه

حَلَّ من شعبه السَّوَادَيْن حبًّا ... فهو فى « قلبه » وفى « إنْسانه »

وأتاه الولاء كالأرجِ الذا ... ئع من «مصره» ومن «سُودانه»

جلَّ باريه صاغه زاكىَ النَّفـ ... ـس كَوَرد الرياض فى إبّانه

أفرغَ النُّبْلَ عبقريّا عليـ ... ـه وكساه الرشادَ قبـ ... ـل أوانه

أين منه «خاقان» [2] فى «بابه العا ... لى» وكسرى الملوكِ فى «إيوانه»

يطمع البدر أن ينال سناه ... فيعانى ما ليس فى إمكانه

وتجدّ النجوم تبغى عـ ... ـلاه فتحُلّ النجومُ دون مكانه

ويُبارى الوسمىُّ نائلَه الجَمَّ ... وأين الوسمىُّ من تَهْتانه ؟

***

أقبل العُرْس حاكيا صورة الخُلْـ ... ـد ووَسْمَ الجمال عن «رضوانه»

غمر الشرقَ بالمباهج حـ ... ـتى حار فى حسنه وفى إحسانه

وهفا بالشتاء — وهو قَتامٌ — ... فتجلّى « آزارُ » فى طيلسانه

الصّباحُ المجلوُّ بسمةُ فيـ ... ـه والرحيقُ المختوم صفْوُ دِنانه

---

(١) ملة الاسلام (٢) لقب سلاطين الترك

تتهادىَ الأقطارُ فَغْمَةَ رَيّا ه ، وتَرْوَى الأمصارُ من ألحانه

عا هدتنا فيه الليالى على السِّـــلم وكفَّ الزمانُ عن عدوَانه

ولبسنا النعماء نُوراً ونَوْرا وجَنَيْنَا السّرَّاء من أفنانه

انظر النيل فى الخمائل يجرى ناثراً تِبْرَه على شُطْآنه

طائفا بالزلال من كوثر الخُلْـــدِ وبالراح من معتَّق حَانه

وقَماريه كالقيـــان تغنى فتهز الألحانُ أعطافَ بانه

وقف الشعر حين ناءبه الوص فُ حسيرا يَنْعَى على شيطانه

فاته المِهْرجان فى حَلبة السّ حر ، وأزرى افتانُه بافتنانه

مَنْ لَهُ بالحسان حَوْكَ «النّواسىِّ» م وبالمُذْهَبات من «حَسّانه»

مهرجانٌ كأنه مُونِق الزهـ ـر إذا رَفَّ فى رُبا بستانه

لم يكن «للمعز» تُجْبَى له مصـ ـرُ ولا «للرشيد» فى «بَغْدَانه»

لا ، ولا ناله ابنُه بفم الصِّلْـ ـحِ عروسا يَبْنِى على «بُورانه»(١)

زُفَّ فيه الحسنُ المُحفَّف بالصَّوْ ن إلى سيف دِينه ولسانه

بدرُ تِمٍّ يُنير حاشية الأفـ ـق ويُهدى السَّنَى إلى شُهْبانه

أشبهته شمسُ النهار جمالا وكمالا فحازَها فى ضمانه

---

(١) فم الصلح : المكان الذى أقيمت أفراح المأمون حين أعرس ببوران بنت الحسن بن سهل

زهرة من مغارس الشرق تُجْلَى ـ فى ظلال المنى ـ على رَيْحانه
وشْيُها من طرازه ، وسناها من ضُحاه ، ودرّها من (عُمانه)
ياملیك الاسلام صافحك السَّعدُ ، ولا زلتَ حاليا بجُمانه
مارأى الناسُ قبل عُرسك عيدا تتبارَى النجوم فى ميدانه
حلّ « كالفِطر » بالديار فهزّ الشـ ـرقَ «من مصره» إلى « يابانه »
دمتَ تَجْلُو الأعيادَ فى رونق البشـ ـر ، وتُجرِى السرورَ مِلْءَ عِنانه
أنت فى مصر عارض مستهلّ بِلُجَيْن العطاء أو عِقيانه
أنت للنيل بسمةُ الأمل العذ بُ ونورٌ يَشِيعُ فى جِيرانه
أنت للشعب نضرةُ العمر للشيـ ـب وزهْوُ الشباب فى فِتْيانه
أنت سِمْط يُضىء فى لبّة الشر ق وتاجٌ يَبْهَى على تيجانه
أنت «ظلّ الاله» فى الأرض تَرْعَى خلقَه ، ناشرا هُدَى « قرآنه »
قد بعثت «الفاروق» بالعدل فينا وجلوْتَ « المعزّ » فى سلطانه
فالبس الملك والخلافة بُردًا أنت أرجى للدين من «خاقانه»

على الجندى

الزواج

معناه ، والاحتفال الفاروقى به

بقلم على النجدى ناصف

مفتش المعارف بالاسكندرية

لم تكن للزواج فى العصور الأولى رابطة مرعية ، ولا للأسرة نظام مرسوم . ولم تكن ثمة صيغ تعاقد يتم بها الاملاك ، وتصير بها المرأة إلى عصمة بعلها وحماه ، وإنما كان هناك تزاوج فطرى ، لا يكاد يختلف عن تزاوج الحيوان . ولا تزال بعض القبائل تتزاوج فى دنيا القرن العشرين على النمط الذى وصفنا ، أو شبيه به : فهذه يتحقق عندها الزواج بالاعتداء والسبى ، وتلك تتم عندها مراسمه بنار يستوقدها الزوجان ويجلسان إليها ، والثالثة ينعقد عندها الزواج بمهنة بيتية تؤديها المرأة للرجل ، وعلى هذا النحو . فلا احتفال بالزواج ، ولا اكتراث له ، وقلما يكون بين الرجل والمرأة من دواعى الحب والتعاطف إلا ما يكون

بين الحيوان والحيوان . وبقاء المرأة فى حوزة زوجها رهن بسلامته من عدوان المعتدين ، وغلبتهم عليه .

أما قيمة المرأة فى قومها فلم تكن موحدة فى القبائل والشعوب ، ولا مستقرة على حال واحدة ، وإنما كانت مختلفة الشأن ، مضطربة الأوضاع ، وأكثر ما كانت تتأثر به فى هذا وذاك الصبغة الغالبة على القبيلة أو الشعب ، ونوع الحكم الذى كان يسيطر عليه .

فالمرأة فى القبيلة الحربية كانت أهون شأنا ، وأضيع حقا ، من أختها فى القبيلة الصناعية ، المخلدة إلى الدعة والسلم ، لأن الحرب أجدر أن تباعد بين المرأة والرجل بما تكشف من ضعف المرأة ، وقصور طاقتها عن مجاراة الرجل فى المخاطرة وركوب الأهوال ؛ فيحمله ذلك على الإدلال عليها ، بل التبرم بها ، وإنكار كل مزية فيها وتتمثل له كلا عاجزا لا منفعة له ، ولا خير يرجى منه ؛ ولا كذلك الصناعة ؛ لأن للمرأة فيها مجالا ، ولها بأعمالها اضطلاع وبصر . فأسباب المشاركة فيها موصولة ، والتفاهم من طريقها ميسر . وهى بذلك جديرة أن تكشف للرجل عن بعض مزايا المرأة ، وأن تمثلها فى عينه خلقا صالحا يمكن الانتفاع به ، والتعويل عليه ، فيخفف من غلوائه وتجبره ، ويثوب فى معاملتها إلى بعض الحكمة والاتزان .

لذلك كان للمرأة فى المجتمع المصرى القديم مقام معلوم ، لايكاد يقل عن مقام الرجل فيه ؛ إذ كانت تحضر معه المحافل العامة ، وكان طلاقها صعبا نادراً ، وتعدد الزوجات على إباحته لم يكن شائعا ولا متداولا .

أما المرأة الصينية فكانت حالتها الاجتماعية متأثرة بأسلوب الحكم فى بلادها تأثرا واضحاً ، فكان خضوع المرأه لطغيان بعلها تاما مطلقا ، كخضوع الشعب لطغيان عاهله ، واستسلامه لارادته وأهوائه ولولا أن الصناعة ألانت من قسوة الصينيين على المرأة ، ولطفت من إحساسهم ، لظلت معاملتهم لها قاسية غشوما ، فقد كان الرجل يشترى المرأة كما يشترى سلعة ، وكان يتسرى ما شاء من النساء غير مقيد بعدد معين ، وكان للرجل أن يبيع زوج ابنه المتوفى كما يبيع أثراً من آثاره . كذلك كانت المرأة الرومانية فى عصور الاستبداد ذليلة مضيعة الحقوق ، فقد كان للرجل أن يبيع زوجته وأولاده إذا شاء ، وأن يقتل منهم من يشاء ويستحيي من يشاء ، لا معقب لحكمه ولاراد لارادته .

ذلك هو معنى الزواج فى القرون الأولى ، وهو « كما ترى »

معنى فطرى يلائم طبيعة الحياة التى كان عليها الانسان إذ ذاك . أما فى العصور الأخرى فقد تغير معناه على التدريج وأصبح الفرق بين المعنيين اليوم ، كالفرق بين ما كان عليه الانسان من همجية مظلمة وتأخر شديد ، وما صار إليه من مدنية باذخة ، وتقدم عريض .

فالزواج اليوم مطلب من مطالب الفرد فى حياته الخاصة ، وحاجة من حاجات المجتمع لا غنى عنها فى تعاون آحاده على البقاء ، وصيانة كيانه من عوامل الفساد والانحلال . فهو متعة شخصية تنزع إليها النفس فى حال صحتها ، واستقامة طبعها ، وسلامة فطرتها من التضليل والزيغ ، إيثارا للأنس والاستقرار ، والتماسا للتخفف من متاعب الحياة وهمومها ، بما تفيض الزوجة الصالحة من العطف والرحمة ، وتشيع من الرفاهة واللطف ، وما تقدم من التشجيع والمساعدة ، وما تفسح من الآمال ، وتثير من العزائم . وهو ضرورة لازمة من ضرورات الاجتماع ، لأنه بركة تزكو بها الحياة ، ويتتابع بها النسل جيلا بعد جيل ، وعصمة تصون النفس ، وتباعد بينها وبين كثير من المآثم والشرور ، ورابطة تؤلف بين الأسر ، وتقضى على الفوارق بين الأصهار ، فإذا هم أكفاء متعادلون ، لا اعتبار بينهم لاختلاف الجنس أو التفاوت فى الجاه والثراء .

لذلك دعا الله إليه ، ورغب فيه فلاسِفة الاجتماع من أنصار التعمير والبناء ، وعنيت به الأمم الطموح كعنايتها بسائر المرافق الخطيرة : تشجع عليه ، وتعمل على شيوعه بين طبقات الشعب ، بتيسير أسبابه ، والمعاونة على تكاليفه ، وتصويره فى أعين الشباب واجبا قوميا لا مفر من أدائه ، ذيادا عن حقيقة الوطن ، وإعلاء لكلمته ، وبسطا لنفوذه وسلطانه ، بالاستكثار من جنوده ، وتزويده بمدد من الفتاء والقوة غير مقطوع ولا ممنوع .

ولولا أن جعل الله للنفس فى الزواج متعة ومآرب أخرى ، لغلب الإعراض عنه ، وقلت الرغبة فيه ؛ لكثرة أعبائه ، وثقل قيوده ، وتعدد تبعاته .

وبحسب الزواج من جلالة الخطر ، وضخامة الفضل فى صلاح أمر الانسان ورفع قواعد الأمة ، وتثبيت أركانها ـ أن يباكره مولانا المليك الراشد المحبوب وهو مايزال فى مطلع الشباب ، ونداوة العود ، فضرب بما عمل أبلغ الأمثال للشبان ، ونهج بهم أهدى السبل وأليقها بالرجولة الكاملة ، والوطنية المنتجة ، بعد أن فشا فيهم الاعراض عن الزواج ، ولج بهم النفور منه ، فاستحكمت الأزمة ، وعى بعلاجها

المصلحون ، وأشفق ذوو الرأى والحكمة على مصير هذا البلد الأمين أن تنتابه الأخطار ، أو تعترض فى طريقه المعاطب .

وهكذا عودالله هذه الأمة الكريمة الوفية ، كلمانازلتها الأحداث أو ساورتها المخاوف فى شأن من شئون حياتها — أن يقيِّض لها مُنقِذا من أوليائه الأنجاد : يرُدُّ عنها عوادى الأيام ، أو يؤامنها من خوف ، ويطمئنها من قلق . وآيات ذلك كثيرة متلاحقة منذ فجر التاريخ إلى اليوم . ومنها فى العصر الحديث هذه المآثر الباقية التى أسداها إلى مصر ساكن الجنان محمد على . حين صارت إليه مقاليد الحكم فيها ، وقد عركتها المحن ، وتلقفتها الفوضى من كل جانب ، فلم تدع شأنا من شئونها إلا عاثت فيه ، ونالت منه نيلا شديدا ، فقد أحيا مواتها ، وأصلح فسادها ، ورد عليها الثقة والرجاء .

ثم جاء إسماعيل على فترة من جده العظيم ، فتدارك غراسه ، وحاطه بأسباب الرعاية والتمكين ، فزكا الغراس وأثمر ، وآتى أكله كريما طيبا .

ثم قامت الحرب الكبرى ، واصطلت مصر بنارها ، وكتب الله لحلفائها النصر ، ولكنهم جحدوا بلاءها معهم ، وأبَوا أن يعترفوا

بحقها فى الحرية والكرامة ، كالدول الرشيدة المستقلة ، فغضبت غضبتها ، وهبت تسترد حقها المهضوم كاملا غير منقوص ، وبرزت لها إنجلترة فى الميدان تذودها عنه ، وتنكر المطالبة به ، وخلت الدول بينهما ، فالتقتا وجها لوجه ، واستمر التدافع والنزاع ، وإنهما فى التكافؤ لعلى طرفى نقيض ، فهذه مصر مسالمة عزلاء ، وتلك إنجلترة مستكملة العدة والعتاد ، وقد أبطرها الظفر فى الحرب الكبرى فعتت عن وعودها ، ولم تكف عن الوعيد ، وانطلقت تعمل على صرف الأمة عن مطالبها بالقوة حينا ، وبالخداع حينا آخر

أحداث جسام ، وأهوال فوق أهوال ، وتجارب قاسية ، تتلوها تجارب أشد قسوة ، وأنكى أثراً ، صمدت لها البلاد أكثر من عشرين عاما ، فكانت فى أثنائها أحوج ما تكون إلى قائد أيد حاذق ، يحسن قيادها فى الجهاد ، ويعيد نهضتها الفكرية أن تجمد ، أو يطوف عليها طائف انتكاس ، فاختار الله لها فؤادا ، فكان رجل الساعة حقا ، بما اجتمع له من الأهلية ، ونفاذ العزم ، وصلابة الخلق ، ورباطة الجأش ، ولم يرجع إلى ربه حتى رأى بعينيه أساس الصداقة والتحالف ، توضع بين مصر وإنجلترة ، فى جو من المودة وحسن التفاهم .

عقدت المحالفة بين الأمتين ، وآن لمصر بعقدها أن تدع جهاد خصمها ، وتنصرف إلى جهاد نفسها . وجهاد النفس هو الجهاد الأكبر كما روى فى الأثر . وعلى قدر حظ الأمة من النجاح فيه ، يكون حظها من النجاح فى معترك الحياة ؛ لأن الأخلاق قوام الأمم ، وملاك أمرها ، ومصر قد أنهكتها المحن ، وبهرها زخرف المدينة الغربية ، ورانت عليها تقاليد العصور الخالية ؛ فغيرت من سمتها ، ونالت من أخلاقها ، وأضعفت ثقتها بمقوماتها ، فوقفت حيالها حائرة لاتدرى ماذا تصنع بها ؟ وليس أهدى من الدين سبيلا ، ولا أبصر منه طبا بتربية الأخلاق ، وتقويم العوج ، وتكوين الشخصيات الجادة .

فكانت البلاد منذ أظلها العهد الجديد فى أشد الحاجة إلى قدوة عالية ، وهداية رشيدة ، توجهها إلى الدين ، وتسلك بها صراطه المستقيم فجاءها الفاروق « أيد الله ملكه ويمن عهده !! » فأعلى كلمة الدين ، واعتصم بالله فى جميع أمره ، وفعلت هذه القدوة الصالحة فعلها المرجى فى الناس فاهتدى الضال ، ووثق المستريب ، واستقر الحائر المضطرب ، وعمرت المساجد بالمقيمى الصلاة ، وغشيها من لم يكن يغشاها ، ولا يدرى ما الخير فى غشيانها ؟

وأعتقد أن سيكون قرانُ المليك السعيد ، فاتحةَ عهد طيب فى حياة الشباب المصرى إن شاء الله ، عهد تسوده الرغبة فى الزواج والإقدام عليه ، فقد يماقيل «الناس على دين ملوكهم» . ولن يكون رائد الشبان فى هذا المقام محاكاة المثل الأعلى الذى ضربه لهم المليك التقى ، والتأثر بروحه الطاهر وحسب ، ولكن سيحفزهم إلى الزواج قبل هذا أو ذاك الحب الخالص لشخصه المحبوب ، ذلك الحب الشامل ، الذى تنطوى عليه كل نفس ، ويفيض به كل قلب ينبض بالحياة ، فى هذا الوادى السعيد .

ولقد درج الإنسان على حب الفرح والتولع به ، فهو لذلك يتلمسه فى شتى المناسبات وفى الذكريات السعيدة ، ويتخذ له من هذه وتلك أعيادا فردية ، وأخرى قومية عامة . والقران من غير شك مناسبة ذات شأن فى حياة الفرد ، وذكرى الاحتفال به حين تتتابع الأيام عليه — من أسعد الذكريات وأحبها إلى قلبه ؛ لأن القران فاتحة عهد جديد فى حياته ، يقوم على الإيثار ، والتواد ، والتعاون ، والاستقرار ، والجد ، والإحساس بالتبعة ، وكمال الرجولة ، فهو جدير أن يكون مبعث فرح ، ومدعاة احتفال . وما أبلغ العرف العام ، وأسلم

ذوقه ، وأشد توفيقه ، حين سمى الاحتفال بالقران فرحا ، وأطلق تسميته به من كل قيد وتخصيص ، فغلب اسم الفرح عليه ، واستأثر هو به ، كأن الفرح بغيره غير جدير أن يتسمى باسمه .

وإذا كان الإنسان فى فرحه الشخصى لا يأمن الشطط ، والوقوع فى الإسراف ، بما يزينه له التفاخر ، ويغريه به البذخ ، وتدفعه إليه العاطفة الجموح ، أو التقليد الخاطىء ، أو نحو ذلك . فإنه ليكون بمنجاة من ذلك كله فى أفراح الملك مهما يفتن فى ألوان المباهج . ويصطنع من ضروب الزينة ؛ فإنما تشرف الأشياء بشرف متعلقها ، وتفيد من عظمته وجلاله . ولقد يكون العمل من واحد بعينه رذلا ممجوجا ، بل سوءا مستكرها ، ويكون هو نفسه من آخر مزية وفضيلة ، لا يجمل به أن يتخلى عنها ، ويصير إلى نقيضها . والملك فى سماوة مجده وشرف مكانته ، رمز عظمة الأمة ومظهر كرامتها وعزها ، ومناط السيادة منها ، فالتأنق فى الاحتفال لقرانه ، والافتنان فى التعبير عن البهجة به ، والمشاركة فيه ، ولاء لصاحب التاج ، وإخلاص لعرشه الرفيع ، ووطنية سامية ، ودعاية ناجحة لعظمة مصر ، وفخامة شأنها ، وتصوير بليغ الدلالة على نضوج الشعب ، وكمال تربيته .

ولقد أدركت الأمة ذلك كله ، وفهمته على وجهه الصحيح ، وقدرته حق قدره ، فأحسنت القيام بواجبها فى الاحتفال بقران الفاروق كل الإحسان . ولم تدع وسيلة من وسائل التعبير عن فيض الحب ، وخالص الولاء ، وعظيم الابتهاج إلا اصطنعتها ، وافتنت فى اصطناعها ماشاءت وشاء لها الذوق السليم ، والطبع الكريم ، فإذا المهرجان فريد فى نوعه ، لا نعرف له نظيرا فى تاريخ مصر كله .

فما من مدينة ، ولا قرية ، ولا دسكرة فى أدنى البلاد وأقصاها إلا أخذت بنصيب من المشاركة فى البهجة على وجه من الوجوه ، وما من أحد فى مصر من الوطنيين والأجانب على اختلاف السن ، وتباين المنازل والأقدار — إلا انشرح صدره ، وخفق قلبه خفقه الحنين والتيمن والغبطة والرجاء . بل ما من أداة من الأدوات فى أى ناحية من نواحى الحياة المصرية إلا تأثرت بالاحتفال المبارك . وأدت نصيبها المقسوم فيه ، زينات منسقة ، وأعلام مرفوعة ، وأزاهير منضودة ، وأنوار متلألئة ، وطبيعة مشرقة ، وطبول تقرع ، وموسيقا تصدح ، وأغانىّ ترجع ، وخيل ترقص ، وسيوف تشهر ، ورماح تشرع ، ونيران تطلق ، وطائرات تحلق ، وهتاف يدوّى ، ومحافل تعقد ،

وفنون تعرض ، وثغور باسمة ، ووجوه مستبشرة ، وحركة ونشاط فى كل شىء .

وثمة مزية جليلة ، بل مأثرة مباركة شاملة ، اقترن بهـــا قران الفاروق العظيم على نمط فذ . لا أحسب أن للبلاد عهدا بمثله فى أى عصر من العصور . تلك هى الصبغة الشعبية التى اصطبغ الاحتفال بها ، والروح الإنسانى العطوف الذى سيطر عليه ، وظهر فيه على صور شتى ، تتجه كلها وجهة واحدة ، وتلتقى عند غاية واحدة كذلك . هى البر ، والترفيه ، وإدخال السكينة والبهجة ، فانهلت الصدقات من كل جانب غيثاً مدراراً على دور البر والفقراء ، وحملت الهدايا إلى المرضى فى مراقدهم ، ومدت الموائد ، وأعدت الكسا ، فأصاب من هذه وتلك البائس والمحروم ، فكان الاحتفال بحق موسم بر ومرحمة ، ومهرجان غبطة واستبشار .

بارك الله فى الفاروق من ملك مرجو الخير ، مؤيد الملك ، ورضى الله عن فريدة الجيل من ملكة سعيدة الجد ، ميمونة الطالع ، وأقر الله أعينهما ، وأمتع البلاد بحياتهما ، وجعل قرانهما المبارك مقرونا بالسعادة والرفاء والبنين !!

على النجدى ناصف

عيد قران الفاروق

للشاعر علي شرف المديه

المدرس بدمياط الأميرية

هَاتِ حُلْوَ القَرِيضِ يَوْمَ قِرَانِهْ ... إِنَّ عُرْسَ الفَارُوقِ يَوْمُ رِهَانِهْ

وَأْتِ بِالْمُشْرِقِ الْوَضِيءِ وَأَطْلِقْ ... لِكُمَيْتِ الخَيَالِ كُلَّ عِنَانِهْ؟

وَابْعَثِ الشِّعْرَ أَمْرَدَ الْوَجْـ ... ـهِ جَمِيلاً يَهْتَزُّ فِي عُنْفُوَانِهْ

زَهَرَاتُ الرِّيَاضِ وَشْيُ قَوَافِيـ ... ـهِ، وَرَقْصُ الْغُصُونِ مِنْ أَوْزَانِهْ

وَابْتِسَامُ الْعَذْرَاءِ إِشْرَاقُ شِطْرَيْـ ... ـهِ، وَخَمْرُ الْجُفُونِ سِحْرُ بَيَانِهْ

لِزِفَافٍ فِي صَفْحَةِ الدَّهْرِ فَذٍّ ... لَمْ يَنَلْهُ مُتَوَّجٌ فِي زَمَانِهْ

لَمْ تَحُزْ مِثْلَهُ أَكَاسِرَةُ « الْفُرْ ... سِ » وَلَا السَّابِقُونَ مِنْ رُومَانِهْ

وَتَرُ « الْمَوْصِلِيِّ » وَحْيُ أَغَانِيـ ... ـهِ وَشَدْوُ «الغَرِيضِ» مِنْ أَلْحَانِهْ

وَدَّتِ الأَنْجُمُ الثَّوَاقِبُ لَوْ كُنَّ ... ثُرَيَّاتٍ يُشْرِقْنَ فِي أَرْكَانِهْ

وَعَذَارَى الْفِرْدَوْسِ لَوْ كُنَّ يَوْماً ... فِي زِفَافِ الْفَارُوقِ بَعْضَ قِيَانِهْ

وَحَمَامُ النَّعِيمِ رَجَّعَ فِي الشَّوْ ... قِ لُحُونَ الحَنِينِ فِي أَفْنَانِهْ

وَظِبَاءُ الوِلْدَانِ لَوْ يَسْمَحُ الدَّهْـ ... ـرُ بِحَمْلِ الشُّمُوعِ فِي مِهْرَجَانِهْ

حَوْلَ تَاجٍ جُنُودُهُ مُهَجُ الشَّعْـ ... ـبِ، وَحَبُّ الْقُلُوبِ مِنْ أَعْوَانِهْ

رَفَّ مِنْ حَوْلِهِ جَنَاحٌ لِجَبْرِيـ ... ـلَ هُيَامًا وَمَسَّهُ بِجَنَانِهْ

لَيْلَةٌ كَالصَّبَاحِ أَبْصَرَهَا الأُفْـ ... ـقُ فَأَلْقَى الغَرِيبَ مِنْ طَيْلَسَانِهْ

وَاسْتَحَالَ الزَّمَانُ فِيهَا نَهَارًا ... أَبَدِيًّا مَا مَالَ عَنْ مِيزَانِهْ

جَمَعَتْ كُلَّ طَارِفٍ وَتَلِيدٍ ... مِنْ فُنُونِ الْهَنَا وَمِنْ أَلْوَانِهْ

عَدَّ فِيهَا مِنَ الْهَنَاءَةِ وَالأُنْـ ... ـسِ لِرَاءٍ مَا لَيْسَ فِي حُسْبَانِهْ

عَلَّ فِيهَا نَظِيرَ مَا وَعَدَ اللهُ ... بِهِ الْمُتَّقِينَ بَيْنَ جِنَانِهْ

مَالَ بِالشَّعْبِ نَشْوَةُ الأَمَلِ الْحُلْـ ... ـوِ، وَطَافَ الْبَشِيرُ فِي بُلْدَانِهْ

وَجَرَى النِّيلُ بَيْنَ إِفْرِنْدِهِ الأَخْـ ... ـضَرِ تِبْرًا يَفِيضُ فِي شُطْآنِهْ

بَيْنَ عُرْسٍ بِصَفْحَتَيْهِ ضُحُوكٍ ... مِنْ أَزَاهِيرِهِ وَمِنْ رَيْحَانِهْ

وَلُحُونٍ سِحْرِيَّةٍ رَدَّدَتْهَا ... أَنْمُلَاتُ الْحَرِيرِ فِي خُلْجَانِهْ

وَخَمِيلٍ يَحْكِي ظُهُورَ الطَّوَاوِيـ ... ـسِ نُقُوشًا تَخْتَالُ فِي قِيعَانِهِ

وَمُرُوجٍ كَأَنَّهَا رَفْرَفُ الْخُلْـ ... ـدِ يَرِفُّ النَّدَى عَلَى أُقْحُوَانِهْ

مُذْهَبَاتِ الأَصِيلِ رَفَّتْ عَلَيْهَا ... خُضْرَةٌ لِلنَّبَاتِ فِي أُرْجُوَانِهْ

تَجْتَلِي الْعَيْنُ فِي ثِيَابِ رُبَاهَا ... فَرَحًا لِلرَّبِيعِ قَبْلَ أَوَانِهْ

شَارَكَ التَّاجَ عُرْسَهُ فَطَوَى الأَيَّـ ... ـامَ طَيًّا شَوْقًا لِعِيدِ قِرَانِهْ

***

مَلِكٌ عِزُّنَا عَلَى عَرْشِهِ الرَّا ... سِي، وَمَجْدُ الْأَوْطَانِ فِي صَوْلَجَانِهْ

عَلَوِيٌّ يَتِيهُ فِي فَرْقِهِ التَّا ... جُ وَضِيئًا وَفَخْرُهُ مِن مَكَانِهْ

وَيَكَادُ الْجُمَانُ مِنْ دُرِّهِ السَّا ... طِعِ يُبْدِي الْخَفِيَّ مِنْ وُجْدَانِهْ

يَسْبِقُ الطَّاعِنَ الْمُجَرِّبَ فِي الرَّأْ ... يِ، وَلَمَّا يَهْتَزَّ فِي رِيعَانِهْ

وَطِرَازٌ مِنَ الْمُلُوكِ جَدِيدٌ ... عَزَّ عَهْدُ الْعُرُوشِ عَنْ أَخْدَانِهْ

رَدَّ لِلدِّينِ مُخْلِصاً عَهْدَهُ الغَا ... بِرَ أَيَّامَ بَالِغًا رَفْعَ شَانِهْ

وَحَبَاهُ عَهْدَ الْخَلَائِفِ فِي مِصْ ... رَ، وَشَادَ القَوِيَّ مِنْ بُنْيَانِهْ

رَفَعَ الوَجْهَ خَاشِعًا فَكَسَا المِحْ ... رَابَ نُورًا يَفِيضُ مِنْ إِيمَانِهْ

فَهْوَ فِي الشَّرْقِ قُدْوَةُ المَلِكِ الصَّا ... لِحِ يُزْجِي الرَّشَادَ فِي شُبَّانِهِ

أُمَّةٌ تَحْتَ ظِلِّهِ بِمَكَانٍ ... كَمَكَانِ السَّفِينِ مِنْ رُبَّانِهْ

عَقَدَ اللهُ مَجْدَهَا بِحِمَى العَرْ ... شِ وَأَجْرَى النُّهُوضَ فِي سُلْطَانِهْ

***

قَامَ يُزْجِي الوَلَاءَ لِلتَّاجِ شَعْبٌ ... ضَاقَ رَحْبُ الفَضَاءِ عَنْ أَبْدَانِهْ

فِي وُفُودٍ كَعَارِضِ الغَيْثِ يَهْمِي ... دَافِقَاتٍ كَالنِّيلِ فِي فَيَضَانِهْ

حَانِيَاتِ الضُّلُوعِ تَهْوِي كَمَا حَنَّ ... غَرِيبٌ أُدِيلَ عَنْ أَوْطَانِهْ

لِشُعُورٍ يُضِيءُ بَيْنَ حَنَايَا ... هَا وَرَفْهُ الشُّعُورِ فِي إِعْلَانِهْ

صابيات إليه لولا جلال التا ... ج ألقت بالنفس فى أحضانه
كيف لا تظهر الولاء لفارو ... ق هياماً والكل من إحسانه
تجتلى طلعة الصباح على الكو ... ن ووجه الربيع فى نيسانه
بين عين بنورها تفتديه ... وفؤاد يلج فى خفقانه
طلعة تمسح العناء عن القلـ ... ـب وتجلو الآلام عن أسوانه
فى جبين الفاروق آمال شعب ... باسمات ؛ والشىء من عنوانه

على شرف الدبه

أشرقا فى مطلع الملك السعيد

للشاعر عمر الله الجمل المدرس بشبرا الثانوية

اغْنَمى يامصرُ أيامَ التدانى واشرَبى الصفوَ على نَيْلِ الأمَانى
وخُذى عن رَبَّةَ الشِّعرِ الأغانى وَتَغَنَّىْ بجلالِ المِهْرَجَانِ
واطْرَبى جُهْدَ مناكِ واسْعدى
وابْلُغِى أوجَ عُلاكِ واصْعدى
وانْثُرى بَيْنَكِ أزهارَ التهانى واهتفى يامصرُ: عاشَ الملكان

***

مِهرجانٌ صَانَ للعرش بَهاه وَقِرَانٌ صاغَ للتاج حِلاَه
يملأ الأكوانَ من نُورِ سناه جلّ من أبدع مِن عزِّوشان!
دُرَّةٌ فى مفرِق الملك « فريدة »
هاتِهِ فى طلعة البدرِ وحيدة
جمع اللهُ بهِ شمْلَ الزمان وانجلَى للشعبِ عن أسمى المعَانى

***

اطربى جهدَ مناكِ واسْعدى
وابْلغى أوج علاكِ واصْعدى
وانثُرى بينك أزهار التهانى واهتفى يامصرُ : عاشَ الملكان

***

أشرِقا فى مطلع الملك السعيدْ واسْتَهلاّ بَاكِرَ العهدِ الجديدْ
وأقيما صالحَ الحُكمِ الرشيد فى ظِلال الله والسبعِ المثانى
فى شباب العمر يامصرُ انعمى
وَبِرَغْمِ الدهر يامصرُ احكُمى
قد دعاكِ للمعالى داعيـــان غُرّتَا المُلك وعيدُ المِهرجانْ
اطرَبى جهـــدَ مُناكِ واسْعدى
وابْلغى أوج علاكِ واصعدى
وانثرى بينك أزهار التهانى واهتفى يامصرُ : عاشَ الملكان

***

عمر الله الجمل

لحـــن الزفاف

للشاعر فايد العمروسى

المدس بمدرسة المنيرة الابتدائية

فى عَالَمِ الأفلاكِ أُغنيةٌ سَرَتْ ... هَتفتْ لَهَا رُسُلُ السماءِ وكبَّرَتْ

سارَت مُعطَّرَةَ النشيدِ فأيقظت ... عُلْوِيّة الألحانِ حتى رددّت

نَغَمُ الزمانِ على خُطاها راقصٌ ... رقصَ النّهى عَبِقَتْ بكأسٍ أسكرت

سِحْرِيةُ الأوتارِ أطربَ لحنُها ... وادى الملائكِ فى العُلا فتبسّمت

طافت على الأقدارِ وهْى سواهرٌ ... هزّ الغناءُ وَقارَهَا فتلفّتت

نظرتْ الى الفاروق فى أفراحه ... فترنّحتْ لهنائِه واستبشرتْ

كَتبتْ له الآمالَ فى صفحاتها ... ورعَتْه فى العرْشِ العلِىّ وأيّدت

هو زهرةُ الآمالِ فى أحلامها ... مامسّتْ الأنْداءَ حتى فتّحت

هو روضةُ الأهرامِ توّجت الرُّبا ... فزَهَتْ بأطيابِ المُنى وتعطّرت

هو مهجةُ الشعبِ العريقِ تجمّعتْ ... بشغَافِها مهجُ القلوبِ ورفْرفت

***

مولاىَ سعدُك فى الحياة ميمّمٌ ... بسمتْ له شمسُ الوجود وأشرقت

ومباهجُ الدنيا ببابك أقبلتْ ... ماأسعدَ الدُّنيا إذا هىَ أقبلت !

مَلِكٌ ، هو النّجوى لمأْمَلِ أُمَّةٍ ... أَللهُ كمّله بما قـــد أمّلت

فى وجههِ نُعْمَى الأمانى هللّتْ ... وبقلبه بُشرَى المودَّةِ أينعت !

ماجَادت الأزمان قطُّ بمثله ... وهْىَ التى فى جُودِها ماأكرمتْ

فيضٌ من التوفيق زيَّنَ مُلكَهُ ... الدينُ والدنيا لديه تجمَّعتْ

هتفتْ له النجوى بأستارِ الدّجى ... ورَنَتْ لنورِ جلاله فتخشّعت

الكائناتُ على مَنَاهِجِ خَلقها ... علِقتْه حُبًّا مذرأته وهللّت

سُبحانَ من حَشد القلوبَ بعرشِه ... كم لحنَّتْ فيه الهوى وتعشّقت

***

يامنقذَ الآمال من عثراتها ... ومُعيدَ فرحتها إذا سعى أدْبرت

هذا القرانُ سليلِ أُسْرتك التى ... كم توَّجت مجدَ الملوك وأنْجبت

وَلَدَتْكَ فى صحوِ الزمان موفّقاً ... الأُمْنيَاتُ على جبينك سُطّرت

طلعتْ بك الأيامُ فى فجر المنى ! ... ودَعَتْكَ للآمال حتى أزهرت

أهرامُ وادِى النيل تهمس فى العُلا ... وتُذيعُ من أخبارِ مصرٍ ماوعت

أدركْ منازلَها فدتك مواهبى ... وأعدْ إلينا ماروته وخلّدت

كانت بأعْلامِ الزمان منارةً ... سطعتْ على قمم الحيَاةِ ولألأتْ

الشرقُ مهبطِ عالَمٍ من فيضِه ... نَهلتْ شعوبُ الأرض منه فأُترِعَت

أدرِكْهُ يافاروقُ فى فجرِ الصِّبا يسمو على أُمَمِ الوجود كما سمت

***

مولاىَ ياأسمى الملوكِ مواهبًا وَأعزَّ نفسٍ بالكمال تفرَّدت

أندى من الزهر الندِىّ حنانُه وأرقُّ من نفْح الرياضِ إذا صفت

أحلَى من الأملِ الشهىّ وفاؤُه وَألذُّ من مُتَع الغرام وقد حلت

مولاىِ يامَن زان غُرَّةَ عصرِه وأعادَ للأيام مفخرةً مضت

عهدُ ندىٌّ للبلادِ ونيلِها مَلَكتْ به استقلالَها وتزينت

صوتٌ من الإلهام هَزَّ كيانَها فصحتْ على نغَم المنى وتبقّظت

هِمَمُ الشبابُ لها فُؤادٌ ضاحكٌ كم أشعلتْ نارَ الجهاد وسعّرت

سيُعيد مجدَ الشعب مالكُ أمرِه ويردّ عنه العادياتِ إذا طغت

ياماَنحَ الأيام فضلَ رخائها ومبدّداً كُرَبَ الخطوب إذا دَجتْ

الشعبُ شعبك ماتروم وفاءه فبك اقتدى، وعليك أنفسُه انطوت

والنيلُ نِيلُك ، أرضُه وسماؤه ورياحُه فى أىّ وادٍ حوّمت

دانت إليك هواتفُ الأرواحِ فى وادى الكنانة فاصطفتك وسبّحت

***

فاروقُ حولَك حين تدعو أمةٌ لمعتْ بوارقُ مجدِها فتذكّرتْ

ستَشِيدُ صرحَ العالياتِ بعهدكم ... وتعيدُ مفخرةَ العصورِ وماحوت

وإذا القلوبُ تجمّعتْ آمالُها ... صمَدتْ على رغمِ الخطوبِ وظَفَّرت

يامالكَ القُطرينِ يارَبَّ الحِمَى ... ياخفقةً يدمِ القلوبِ توقَّدت

إنى حسبتُ مواهبي فى لحنها ... تَشْفِى وجيبَ القلبِ فيكَ فماشفت

لا اللحنُ أبدى ماتَكنّ جوانحى ... أبدا ولا نفحاتُ شِعرى قدوفَت

لك وحْدَكَ الإبرام ياأمل الورَى ... يَاخَطْرَةً بهوَى الضميرِ تكلمت

هذى الجموعُ وأنت رمزُ رجائها ... لجأتْ لموئلكَ الكريمِ وطوّفت

طافتْ بموسيقى الزمانِ ومالها ... أملٌ سوى حُبٍّ لذاتكَ قدّست

مترنحاتٍ كالأمانى أقبلت ... مترنماتٍ كالبلابل غرّدت

هبطتْ ببابك منشداتٍ لحنها ... لحنُ القداسةِ ماروتْه وأنْشدت

إنَّ العنايةَ مِن وراءِ حجابها ... مسحَتْ جبينَكَ ياملِيكُ وقبّلت

ويدُ الرعاية فى لطيفِ قضائها ... كتبتْ لكَ النصرَ الرفيعَ وصفّقتْ

فايد العمروسى

أفراح الملوك

للشاعر فرحات عبد الخالق

مدرس بمدرسة كوم حمادة الابتدائية

مَالِي أُرَى النيلَ السعيدَ طَرُوبَا ... وَتَلُوحُ لِي مِصْرُ الفَتَاةُ لَعُوبَا

وَالنَّيِّرَيْنِ تَضَاحَكَا ، فكأنما ... زُفَّت ذكاءُ إلى الهلال خطيبا

واهتَزتَ الدّنيا ؛ فخَفَّ ملوكها ... للمهرجان ، أهِلَّةً وصليبا

بعثوا الهدايا يخطبون وداده ... فاروقُ ، يا لَكَ خاطبا مخطوبا !!

وتساءل الهرَمانِ : ما بال الحمى ... ثَمِلاً بأفراح المليك طروبا ؟ .

تالله ، لم نشهد على طول المدى ... كقرانه ، بين الملوك عجيبا !

شعْب يزف إلى المليك ولاءه ... وتُرَى هـــدایاه إليه قلوبا !

يتسابقون إلى الولاء ، كأنَّه ... أملٌ تحلى للورَى محبوبا

يحدوهم الحبُّ العميق ، لِذَاته ... حتى لتحسبهُ هَوًى مكتوبا ؟

قَسَمَتْ رعيته رضاه ، وعطفه ... غمر الجميعَ بعيدهم وقريبا

مَلِكٌ على النيل المبارك عرشه وعليه كان رقيُّه محسوبا
يُضفِي عليه فى الرخاء نعيمَه ويذود عنه فى البلاء خطوبا
فأرته أمته غداة قرانه كيف الولاءُ مضرّمًا مشبوبا ؟
فترى الجميعَ يباركون قرانه شبانَهم ، ونساءَهم والشيبا

***

يا عهدَ فاروقَ المليك تحيّةً من مِصْرَ تنفحُ مثل عهدك طيبا
عهد طليعته بها استقلالها أبْشِرْ به عهداً أغرّ خصيبا
الخير كل الخير فى لحظانه بقيا لعهدك يا « مليك » وطوبى !

آية الاخلاص

للشاعر محمد صالح الزبدى

المدرس الأول بمدرسة القبة الثانوية

اليومَ عيدٌ للمليك وشعبهِ رادَ الْمَسَرَّةَ سيدٌ ومَسُود
اليومَ عيـــــدٌ للعباد فأينما سارُوا فذاك نعيمُهُ مَمْدُودُ
فى كل نادٍ فى البلاد ومَحْفِلٍ آياتُ إخلاصٍ بَدَتْ وعُهودُ
هذى المعاهدُ زَيَّنت جَنباتِها أعـلامُ بشْر رَفرفتْ وبُنودُ
أوَما تَرى « بالقبة الغراء » عيـ ـداً مستفيضاً نَدَّ منـهُ العيد
ويقاسم الجيشُ الوفىُّ « مليكَه » فرَحاً فَدَامت للوفاء جنودُ
وانساب من شتّى الجهات ميمِّمٌ قصرَ « المليك » : طوائفٌ ووفود

***

« مَلِكٌ » تأرَّجَ فى الممالك ذِكْرُه فحَبَتْهُ تُحْفَتَها الملوكُ الصِّيدُ
أسْمَى مَقامٍ فى البلاد جلالةُ الـــفاروق » سَيِّدٌ قومه المودُودُ
مَلَكَ السبيلَ إلى الرشادِ بحكمةٍ مشفوعةٍ بالرأى وَهْوَ سَديدُ

الحزمُ فيـــه سجيةٌ موروثةٌ ... لا غرْوَ إنْ تبِـعَ الأرومةَ عُودُ

« ملكٌ » لهُ فى كلّ يوم آيةٌ ... يَحْدُوهُ فى أُفقِ الكمال صُعُودُ

***

مولاىَ إنَّ القطْرَ عمَّ رحَابه التـ ... ـكبيرُ والتسبيحُ والتَّحْمِيدُ

كلُّ العُصورِ السالفاتِ نوازعٌ ... نحوَ القديم ، ودَأْبُكَ التجديد

أعليتَ للدينِ الحنيفِ مَنَارَهُ ... وعَبَدْتَ طوعاً ، صانَكَ المعبُود!

سُسْتَ البلادَ بهمةٍ عَلَوِيَّةٍ ... ونصيبُك الإكبارُ والتَّمْجِيدُ

فاجلسْ على عرشِ القلوب مُهَنَّأً ... والعرشُ يومئـــذٍ بكم مجدودُ

دُمْتمُ ودامَ لعزِّكم وجلالكم ... مُلْكٌ على مَرِّ الزمان عَتيدُ

محمد صالح الريدى

أفراح أمة

الشاعر محمد عبد الغنى حسن
المدرس بمدرسة المنصورة الثانوية

زِدْنَ وجهَ الحمى سنا وجمالا ... نضّر اللهُ باسمك الآمالا
أمة حطمت بهمتك القيـ ... ـدَ وألقت عن نيرها الأغلالا
تَخِذت من خُطاك فى سبب المجـ ... ـد سبيلا ومن علاك مثالا
نَهضَتْ للحياة تستعذب المرْ ... وقامت تستصغر الأهوالا
لم تجد فى العلا مُحالا عليها ... خاب مَن ظن فى الحياة مُحالا

***

يازعيمَ الشبابِ عهدُك يُمْنٌ ... نلت فى مصر منزلا لن يُنالا
ياملیك الصلاح والدين أبشرْ ... أصلحَ اللهُ باسمك الأحوالا
وجرى الفلك فى يديك يمينا ... بعد ما سار فى العُباب شمالا
مطلع للهدى لجأنا اليه ... وخذلنا على يديه الضلالا
أمة أصبحت خُطاها خفافا ... بعد أن كُنّ فى الحياة ثقالا
أثقلت ظهرَها السنونُ فألقتْ ... فى بواكير عهدك الأثقالا

أيها البدر قد بهرتَ ضياء ... وتألّقت مطلعا وجَلالا
وبلغتَ الكمالَ فى ميعةِ العُمـ ... ـر كما تبلغ البدور الكمالا
أنظروا البدر فى عُلاه تروه ... كان من قبلُ فى السماء هلالا

***

أقبلَ السعدَ فى البلاد ووافى ... زادكُ اللهُ عندنا إقبالا
أنت فى مصر كالربيع نضيراً ... أنت كالشِّعْرِ رقّةً وخَيالا
أنت كالزهر فى الرياض نديّا ... أنت كالماء صافيا سلسالا
أنت فى الحلم قد شأوت الرواسى ... أنت فى العقل قد بززت الرجالا
أنت غصن الزيتون سلما ولكن ... أنت كالسيف حِدة ونِصالا
أيها الدَّيِّنُ التقىُّ سَلاما ... كنسيم الصبا هوى وَاعتلالا
لم تضيع من دين ربك شبرا ... فى ضلال ولم تضع مثقالا
قمتَ تبنيه بالصلاح وتحمى ... ركنه الحق إنْ وَهى أو مالا
تفتح النهجَ للشباب وتُدْنى ... من خُطاه وتَضرب الأمثالا
أَسدٌ فى مطارف الملك يحمى ... شرفَ الغاب إن مشى أوجالا
لم تعطل شعائر الله يوما ... أَو تقطع من حبلها الأوصالا
أو لم تقض للمساجد دَيْنا ... وهى تشكو من الرجال المطالا

تتعالى «الله أكبر» فيهـــا صاعدات فى الجو سحراً حلالا
ويرن الأذان فيهـــا كأنا نسمع اليوم فى السماء «بلالا»

***

إنمـــا الدِّينُ قوة فادَّرِعْه واتخذه إلي العـلا أحبـالا
إنه يبرىء النفوس وَيشفى من مراض القلوب داء عضالا
فتح المسلمون بالدين ملـكا عربيـا ودوخوا الأبطـالا
عرب فى ملابس البدو لـكن حشوهم همة تهد الجبـــالا

***

نحن فى عهدك السعيد سنحيي أملا ضائعا ومجـــداً مُدالا
نعشق المجدَ والمحبُّ إذا ما سئـل النفس يستقل النوالا
إن مَن يخطب المليحة يُرخصْ فى هواها الفـؤادَ والأموالا

***

اسمع اليومَ فى السماء دعاء أرسلته قلوبنـا إرسـالا
فيه من نغمة المـلائك صوت يبعث الشعر أو يهيج الخيـالا
صاعـدا فى السماء وجهتـه اللـ ـهُ ويطوى لأجله أميـالا
إنهـا دعوة تجاب وتُقضَى كرمُ الله لم يخيِّبْ سؤالا

أنت ألهمتَ بالبدائع فكرى ... وَجدَ الشِّعرُ فى علاك مجالا
إنها فرصة لكلِّ بيان ... يحسن الصوغ أو يجيد المقالا
جوّدُوا باسمك القصيدَ وغنوا ... بالمعانى وزينوا الأقوالا
هزّهم عيدُك البهيجُ فمالوا ... رُبّ غصن على النسائم مالا
وإذا الطير صادف الروض والما ... ء تثنى عُجبا وتاه دلالا

***

قل لِقَطر الندى «فريدةُ» أحلى ... منك أمنية ، وأوفى جمالا
غصنها طيب المنابت زاك ... مدّ فى دوحة الكمال وطالا
بيتها شاهق أقام به المجـ ... ـد وألقى بساحتيه الرحالا
لاتقِسْها « بينت طولون » ظلما ... أتسوّى بالدرة الصلصالا ؟

***

شهدت مصرُ فى زفافك عيداً ... ما عهدنا بمثله أجيالا
إنها فرحة المقيد أضحى ... فى ثياب الأحرار يمشى اختيالا
إنها فرحة الكنار المُغنّى ... وجد الماء والربى والظلالا
إنها فرحة السجين المهنا ... ودّع القيد خلفه والنكالا

إنها فرحة « الكنانة » نالت فى زمان الفاروق الاستقلالا

***

عشتما للبلاد ذُخرا جميلا وتمتعتما السنين الطوالا
يطمئن الحمى ويسكن قلبا فى ظلاليكما ويهدأ بالا
تبنيان الحمى بناء جديدا وتُقيمان ركنه المنهالا
تبعثان الحياة فيه ليحيا وتزيدان عزمَه إشعالا
تُنجبان الكريم من كل شِبل أسدُ الغاب يُنجب الأشبالا

***

عمرُ بنُ الخطاب كان إماما لم يُطَفِّفْ فى الأمة المكيالا
لم أجد بينه وبينك إلا شبها فى الصفات أو أمثالا
كان فى دينه بخيلا ولكن كان فى الجود والندى مبذالا
أنت أشبهته وزدت عليه ولقد تُشبه الرجالُ الرجالا

محمد عبد الغنى حسن

نشيد الزواج الملكى

للشاعر محمد عجاج

المدرس الأول بمدرسة فاروق الأول الثانوية

ياطيورَ الأيْك غنى السامعينْ وابعثِي الألحان حيناً بعد حينْ
واملئى الدنيا غِنـاء وحنين وانثرى الورد شمالا ويمينْ

***

مصرُ تيهى بالأمانى وامرحى رتِّلى حلوَ الأغانى واصدحى
واملئِي الدنيا سرورا وافرحى بزفاف الملْك خير المالكين

***

ياربوعَ النيل باهى العالَما والبسى الأفراحَ ثوبا مُعْلَما
عُرْسُ فاروق به النيـــل سما ومشى يختال بين العالمين

***

ياملِيكاً ، جانِبَ اللهِ اتَّقَى أنتَ بدر فوق مصرٍ أشرقا
قد كسوتَ العرشَ أثواب التقى ولبستَ المجدَ من دنيا ودينْ

ياضياءَ النيل يانعم الضياءْ أنت للعرش وللدين سماءْ
ولك الشعب على الدهر فداءْ فاسلمِ الدهرَ وعش طول السِّنينْ

***

عرشك العالِى المفدَّى قبلةٌ شخصك الغالِى المرجَّى كعبةٌ
عهدُك الخصب لمصرٍ نعمةٌ قد أعَدْتَ اليومَ عهد الراشدين

***

إن هـذا اليومَ فى التاريخ عيدْ يوم زُفَّتْ مَلْـكةُ النيل السعيدْ
للمليك الصالح الهادِى الرشيـدْ زينةِ المُلكْ وخير المصلحينْ

***

عرشُ مصر للمعالى جمعاَ وضيـاء العزّ فيـه سطعا
عاشتِ المَلْـكة والملكُ معاَ بالهنـــــاء والرفاء والبنينْ

محمد عجاج

عيد القران الملكى

للشاعر محمود ابراهيم

مدرس بمدرسة الأمير عمر طوسون الابتدائية بالاسكندرية

عزَّ الخيالُ فبات غيرَ مساعِدِى ... أيْنَ الخيالُ وأينَ وَحْىُ فرائِدِى

مالى أرومُ نشيدةً عُلويّةً ... تبْقَى لجيد الدهرِ خيرَ قلائدِ

ويهزّنى صفوُ الزمان فأنبرِى ... للشدْوِ باللحنِ الكريمِ الخالد

ما حيلةُ الشعراء إمّا قصّرُوا ... هُمْ يَشْهَدون جلال مَلكٍ ماجد

أزْرِى على وحْىَ القريض سناؤُه ... وعَلا منارةَ كل قلبٍ راشِدِ

هو للزمان قصيدةٌ مجلوّةٌ ... رَفَّتْ بأنفاس الخلود الوَافِد

هتفت بها حُوريةٌ فى خُلْدِها ... فَشَأَتْ بِضَافِي السحرِ كُلَّ قصائد

نَهلت به الدنيا رحيقَ نعيمِها ... وصفت كما يصفو فُؤادُ العابِدِ

لَبِستْ به الأيامُ تاجَ شبابِها ... فبَدَت تألَّقُ فى سناها الزائد

عَقَدت لواءَ النصرِ فوقَ جبينه ... كفُّ الاله فما يُرامُ لحاسد

***

فَسِماتُهُ فيها البشائرُ تجتلى تَمَّت بمعسول الرجاء الحاشد
فيه فؤاد صِيغَ من لَمَع المنى هو نُبل عاطفة، ونبل مقاصد

***

فِعلى هداه تُنال كلّ رغيبةٍ ويَلين للطاعات قلبُ الجاحد
حالَ الزمانُ بعهده سعدا فما يُرْوَى له إلا كريمُ مجائد

***

لك فى الضمائر ذمةٌ مرعيـة وولاءُ جانحة، وصدق مجاهد
الله أولاك الزمامَ تقوده للماجدات وأنت أمجد قائد
هذى القلوبُ وأنت مالكُ رشدِها أيقظتَها من بُغضه وتحاسد
ونفخت فيها نفْخة قُدْسيّةً فتجمّعت فى عزّة وتعاضدَ
وتطلّعت تبغى الوثوبَ إلى العلا فى عزمةِ «الفاروق» دونَ تقاعد

***

إشراق عيدك بالقِرانِ تفتّحت غرفُ الجنانِ له بشوقٍ زائد
نادت به الدنيا فرجّع صوتها صوتَ الملائكِ فى جميلِ تناشُد
هبَّتْ له الأرواحُ نشْوى شاقَها عيدُ الحياةِ وعيد مَلْك شائِد
لو شِمْتَ أفراحَ السماءِ رأيتها مَجْلُوّة بطرائفٍ وتلائد

أهدت اليك «فريدةً» من حُورِها ... الطهرُ جَمَّلَها بخيرِ محامِد

زُفّت إلى مَلِكِ الملوكِ يَزينُها ... شرفُ الأُرومة والنِّجارِ التالد

فالنيل من طَرَبِ الزّفاف وأنسه ... يختال بين محافل ومَحَاشِد

والناس قد ملك السرورُ زمامَهم ... فهُمُ جميعا فى شعور وَاحد

فلتهنأ الأيام ، ولتنجبْ لها ... ذخرَ الحياةِ مَدى الزمان السائد

محمود ابراهيم

آية الاخلاص والولاء

للاستاذ الشاعر محمود الشبيني

المدرس بدار العلوم

صادحَ الروض ذاك عيد الزمانِ هات مَارَقَّ من بَديع الأغانى
هاتها عذبةً يَهيم بهـــا القلب ويضعى لجرسهـــا الملَوان
يملأ البرَّ والبحـــارَ صداها ويدوّى على لِوى «نَعْمـــان»
وأنظم الروض فى المليك نشيدا أين منه قلائد العقيـــان ؟

***

مَاتَرَى الطير تملأ الجو صدحا وتَبُثُّ الزمان لحن الأمانى ؟
وهْى شتى الفنون مابين مُصغ راح يتلو صحائف الغدران
ومَشُوق يستودع الأيك سرا وطروب يشدو على الأفنان
وخطيب ترف للكون بشرا ه على منبر من الأغصان
عَلَّ بين المليك والطير عهداً هل نسيتم حمامةَ « البرلمان » ؟!

***

وأقاحى الربا تُطلّ على النهر وتفترُّ عن ثغور الحسان
وأزاهيرها تأرَّجن طيبا أتراها تَبثّ عَرف الجنان ؟
كسجايا « الفاروق » أيده الله يفيض الندى على الوديان ؟

***

وقدود الأزهار فى الروض نشوى كقدود والحسان فى المهرجان
تتـــدانى لألفة وعناق ثم تنأى لعودة وتدان !

***

ونسيم الأصيل يعبث بالسر و فيهتز هزة النشوان
فتراه كالغيد طورا ، وطورا « كفؤاد المحب فى الخفقان »
بينما يسمع الدعاء فيصغى كتقى يرجو هـدى الرحمـان
إذ به يسمع الغنـاء فيمضى فى اضطراب المتيم الولهـــان
كل مافى الوجود أشرق لمـا سـجعت وُرْقه ببشرى القران
لـكأنى بالـكون ينشد لحنـا صـار ملء القلوب والآذان
وكأن الأملاك تمشى مع المو كب فى هالة من الرضوان
موكب الزهر ، أين منك بيانى ؟ أنت فوق النهى وفوق البيان
يابشير النعماء يامتعة الروح وياشارة الرضـا والأمان

أنت فى محفل الزفاف نشيد ... لحنته مزاهر الريحان

أنت فوج من الجنان فقل لى : ... كيف أفلت من يدى «رضوان» ؟!

مبلغ القول فيك أنك شىء ... لم تمتع بمثله العينان

***

ماأرى الجو غير مسرح أنس ... ملأته روائع الألحان

نغمات الأطيار غيرى تبارى ... فى الزفاف السعيد صدح القيان

ودعاء الوفود يخترق الجو م فيطغى على رنين المثانى

وكأن السماء نافست الأر ... ض فلاحت فى وشيها الفتان

***

كيف لا تفرح العلا بزفاف ... جمع المجد والتقى بقران ؟!

كيف لا يهتف الزمان بملك ... عهده درة بتاج الزمان ؟

كيف لا تسعد البلاد بملك ... خلقت كفه من الاحسان ؟

كيف لا تزدهى المنابر فخرا ... بمليك يعتز بالقرآن ؟

ملك عرشه القلوب وملك ... أيدته قواعد العرفان

ملك تاجه نسيج من الطهر ... على مفرق من الإيمان

ملك يكشف الظلام برأى ... كسنا البرق فى تقى وحنان

ملك عزمه يفل شبا الدهر ويُلْوى بدِرعه والسنـــان

***

مهرجانُ الفاروق يحرسه الله بشير النعمى بكل مـكان
مُشرق كالرياض بلّهـا القطر فأوحت عيونها بالمعـانى
باسم كالنعيم يرجـع للنفـس رجـوع الحيـاة للأبدان
فاذا « مصر » بالتهانىء نادت جاوبتها جوانب « السودان »
وإذا صاح « بالمغارب » داع آزرته منابر « الأفغـان »
وإذا ما شدا « بصنعاء » شاد رجعت شدوه ربا « لبنان »
يا مليـكا سمـا بمصر فعزت وتغنى بفضلهـا المشرقان
نغمات الولاء حالت قريضـا مشرقا وجهـه بنور التهـانى
هو عِقـد الوفاء قـد نظمتـه لغة الروض لا عقود الجمـان
لست فيه أسعى لبحر « عمان» لا ، ولم أنتهب عقود الغوانى
وسجايا « الفارق » أسطع نورا ما احتياجى إذاً لبحر «عمان» ؟!
ذاك حسبى من الولاء ، وإلا فبحسبى ما قد أكنّ جنـانى

محمود البشبيشى

عاهل الشرق

ألقاها الشاعر محمود حسن إسماعيل بين يدى حضرة صاحب الجلالة الملك ، فى الحفلة الساهرة التى أقيمت بقصر عابدين ابتهاجا بالزفاف الملكى

شُدِّى المزاهر فى القلوب . . ورتلى ... نغمَ السماء لعرشك المتهلل

واستلهمى طيرَ الجنان غناءَه ... وصفاءَ ملعبه بشط الجدول

وإذا الخميل سجا ورفرف طيره ... هاتى من الفردوس أرخم بلبل

ودعيه يصدح للمليك بآية ... عُليا . . لغير جنانه لم ترسل

يامصر عرشك فى المباهج رافل ... فردى النعيم بشاطئيه وارفلى

حور الفرادس ينتظرن . . فأسرعى ... لصباحهن وبشريه وهللى

واستوقفى ركب الملائك ، واهتفى ... للشمس : هلت شمس مصر فأقبلى

وتزودى من طهرها وسنائها ... زادَ الأشعة قبل أن تتنقلى !

***

« فاروق » نجمك فى البشائر سابح ... فقدِ العصور بنور مُلكك واعتل

واسكب على الأيام مما نلته ... بشرا يصفق كالرحيق السلسل

ذهبت تسير وراء عصرك خشعا ... تقتات منه أمانى المستقبل

مولاى : دعها ترتوى من شاطىء ... فى ظل تاجك عبقرى المنهل

أنت الأمان بها لكل محير ... وبشارة الدنيا لكل مؤمل

***

« فاروق » حبك آية علوية ... نزلت من الأرواح أقدس منزل

الله ألهمها لشعبك شرعة ... كالوحى يلهم للنبي المرسل

حشدت بساحتك الجيوش بمثلها ... «رمسيس» لم يخطر بأعظم جحفل

فاهتز أجناد الملائك فرحة ... وهفوا اليك بعزة وتأمل

لم هذه الأسياف حولك والظبى ... والله فوقك حارس لم يغفل ؟

هى للحمى والعرش نصر خالد ... لمحت بشائره عيون الصيقل

***

هتف البشير بيوم عرسك .. فانبرت ... زهر الكواكب فى بروجك تجتلى

وأطلت «الأهرام» تشهد موكبا ... « خوفو » بمثل علاه لم يتنقل

أرواح شعبك حائمات فوقه ... ينهلن ساكب طهره المتسلسل

خشعت كما خشع الحمام .. ورتلت ... دعواتها كبغامه المترسل

وأتتك ضافية الحنان كأنها ... أسرابُ طيرٍ يستبقن لجدول !

فرويت غُلتها ، وكنتَ لقلبها ... بُشرى المنى لليائس المتعلل

يا فرحةَ الأوطان طُف بزمانها ... برءا يطوِّف بالسقام المعضل

وُدَّ الأسى عنها ، كما رد السنا ... فى الفجر غاشية الظلام المسبل

انشر هدراك على مفارقها ، كما ... نشرَ السنافلقُ الصباح المنجلى

وأعدْلها التاريخ أصيدَ شامخا ... يُزهَى بتاجك فى الزمان المقبل

أنت المنارة فى دُجَى أيامها ... والغوثُ عند الحادث المتبدل

زُفَّت اليك الحورُ أطهرَ ما برت ... فى خلدها كفُّ الإلٰه المفضل

طهرُ الملائك نشّرته هالةٌ ... شمسُ الربيع بنورها لم تنجلى

الخلد عَطّرها بأطيب زهرة ... نَبتت لديه بشط أعذب منهل

والفجر زَفّ لها عرائسَ حامه ... يخطرن بين تبسم وتهلل

والتاج ظللها بأروع موكب ... بَهج ، بعز الصولجان مكلل

فأتتك مشرقةَ الجلال كأنها ... تهليلةُ الفردوس للمتبتل

نصر يزف ، وفرحة أبدية ... تهتز فوق جبينك المتهلل

***

« فاروق » ليلتك الخلود فقل لها : ... زُفِّي الخلودَ الى الحمى ، وتمهلى

كادت لها الأفلاك تحشد موكبا ... وتسير خلف ركابك المتنقل

بيضـــــاء أترعت النعيمَ بظالها ... ونسختها للدهر أقدس مشعل

سجد الزمان لها ، وأقسم خاشعا ... بالله يا بيضـــــاء لا تتعجلى

طال انتظارى من عوالم « آدم » ... لأراك: فانتظمى القلوب ،وأقبلى

وتخطرى . . فبمثل نورك مازهت ... أعراس «قيصر» فى الزمان الأول

* * *

يا عاهلَ الشرق اصطفاك زمانه ... لتكون للاسلام أكرَم موئل

لك فى بيوت الله أروعُ سجدةٍ ... سطعت قداستُها بريح الصندل

مشت الخلافة نحو عرشك تبتغى ... للشرق والاسلام كل مؤمل

مولاى ! قُدْها فى حماك إلى ذرا ... عصر بسيف «الراشدين» مظلل

واسمع نشيدا من دَمى سلسلته ... طيرُ الخلود بسحره لم يهدل

أشجاك تغريدى .. فهاك ملاحنى ... هتفتْ بوحى من سناك منزل

للشاعرين بلاغـــــة صخابة ... حُشدت بلفظ فى الحلوق مجلجل

وأنا الذى شعرى نفاثة مهجتى ... سكبت جداولها بهمس السنبل

يوم الفخار سنلتقى . . أنت العلا ... وأنا الصدى فى ظل عرشك فاصغ لى

محمود حسن اسماعيل

زفاف المنى للقلب

للشاعر محمود رزق سليم

المدرس بمعهد الاسكندرية الدينى

حَمَامَ الحمى هذا أوانك فاسجعِ ... وَردّد على الأسماع ألحانَ مبدع

ورجّع، فدتك النفس من متفنن ... خبيرٍ بأنواع الأغانىّ مولع

حواليك أطواء النفوس جميعها ... لوُ كنْتَك الفيحاء تغدو وترتعى

فما بينها إلا حمائمُ نالها ... لُغوبُ الهوى الفياضِ فى كل موضع

فتسفر إحْدَاها وتكتم غيرها ... فيالهما من مُسفِر ومقنّع

***

فشنف بمأثور الهديل وبثّها ... حديثَ المحبّ الواصل المتمتع

فقد جادت الأيام وافترّ ثغرها ... وهلّ زمان الصفوِ بالمتمنّع

وقد قام فى مصرَ الفتيةِ أهلُها ... بقلب ملىء بالمسرّات مترع

أهاب بهم داعى المنى فسعوا إلى ... زفافِ مليك أروع القلب ألمعى

زفافِ المنى للقلب، والمجدِ للعلى ... وبدرِ السما الزاهى إلى أخت يوُشَع

مليك بلاد النيل ـ واليومُ يومه هنيئا لك الدنيا ، فعش وتمتع

ألا ليت هذا اليوم طال بما به لنقضى لُبانات الفؤادِ الموزع

لقد أشبهت ساعاته بفنونها زمانَ ربيع ضاحك الوجه ممرع

وقد طرِبت مصرٌ ليوم مليكها ففاض عليها البشر فى كل موضع

معالمُ أفراح وآياتُ زينة بكل مصيف فى البلاد ومَرْبَع

فنون براها الحبّ من خير وحيه ونافس فى إتقانها كلّ لوذعى

وشارك فلاح البلاد أميرها فلم يدعا ظنًّا يتاح لمدعى

فجاءت موشّاةً كأن حليها أفانينُ ديباجِ الرياض المرصع

تكاثر فى كل النواحى عديدها فما بينها شبر ولا قيدُ إصبع

من النمط العالى الذى فى انتهابه لذاذات طرف وانتشاءات مسمع

فما بيننا إلا فتى مترنحٌ وإلا مشيبٌ ذو فؤاد مشعشع

تخال اللبالى حين تبصر ما بنا سقتنا الحميا أربعا إثر أربع

***

مليكَ بلاد النيل مدحةُ مخلصٍ حللتَ بدنيا قلبه خيرَ موضع

تقبل تهانى الشعب يرفعها إلى رِحاب مليكٍ ناظرٍ متسمع

سليلِ الملوك الصيد نسلِ محمد ومن شيدوا الأوطان بعد التضعضع

شموسٌ بأفق النيل من خير معدن ... طلعن على الأيام أفضل مَطْلَع
هموا نزعوا بالنيل مما أصابه ... «إلى المجدِ والعلياء أكرمَ منزع»

***

فمن مثلُ إسماعيل تملؤه المنى ... ويذخر فى برديه أكبرُ مطمع
براه الذى يبرى الجبال متانة ... بعزمة طمّاح وجرأة أروع
إذا كلّفَ الدهرَ الأبى عنا له ... وإن أمر الدنيا العصيّةَ تصدع

***

ومن كفؤادٍ فى المكارم والعُلا ... وهمة نفس أصغرت كلَّ مفزِع
دعا مصر يوما فاستجابت دعاءه ... بعزمة وثابٍ إلى العز أشجع
وكان إذا ماضوع الجوَّ صوتُه ... ونادى أجابته إجابة مُسرِع
ولبت نداءً للمعالى انتهاؤه ... وشمّت عبير المجد فى المتضوِّع
براها لأهليها جنانا فسيحة ... وأحيا ضحايا الجهل فى كل بلقع
وشاد لها ركنا متينا بناؤه ... فليس لمر الدهر با لمتصدع
ونشّأ فاروقا على العدل والندى ... وبالحلم ربى شبله والتورّعِ

***

فلما بدا الفاروق وازدان عرشه ... وآن بزوغُ البدر من خير مطلعِ

أحاطت به كلُّ القلوب وأظهرت ولاءً وفاءً ؛ لا ولاءً تصنع

ألا يا مليك النيل إنا رعية لها فى الشباب النضر أوسع مطمع

شباب له فى كل يوم عجائبٌ يضيق لها جهد المسنّ المطبَّع

فيرتجل الرأىَ العزيز ارتجالُه ويفصل فى الأمر الشديدِ المروِّع

ألا يا مليك النيل إنا رعيـــة لها فى الشباب النضر أوسع مطمع

مرِ الدهرَ يسمع والليالىْ مطيعة وأفئدةُ الأيام نشوى لما تعى

وفِضْ قوة فينا تجدْ خير أمة وماشئت بالإصلاح والخير فاصنع

وإنا ألفنا الرأى عندك صالحا يصيب - إذا مان الهوى - كلَّ مقطع

جمعت على العرش القلوبَ فبينها أواصرُ حُبّ فى هواك مجمع

وزرت بيوت الله فى كل جمعة زيارة إصلاح لها وتورّع

وشدت بذكر الدين فى كل لمحة وأعليت ذكر الله فى كل مجمع

ووزعت قلباً فى رعاياك عادلا فيالك ذا قلب رحيم موزع

فلا بدع أن تهفو إليك نفوسُنا تحييك فى ليل أغرّ ممتع

ألا جعل الله الليالىَ مثلـــه ليالىَ عيدٍ فى حماك مرجّع

لقد عم فيه الخير والجود والندى فأُسعِد محزون وأُشبع مرتعى

ونال الفقيرُ اليوم ما كان يشتهى وآب بعيش مستلذٍّ موسّع

وأهدت إليك الصيدُ من كل موطن هدايا محب مخلص متضرع
فما بنيها إلا أداة وتحفـــــة يدالفنّ والتها بأتقن مصْنَـع
فياليت لى مالا ، ويا ليت لى غنى ويالیت هذا الدهرَ فى صفوه معى
إذن لملأت الساح درا وجوهرا بقدرة فنان وحنْـكة لوذعى
ولـكن لى قولا طليا مزاجه من الـكلم الصافى ولفظٍ مسجع

***

عش الدهر يافاروق واحكم مسددا ونفسك أَهْنِئْها وقلبَك متع
ودُوما معا . عُرسٌ سعيدٌ موفق . يحيطـكما الرحمن فى كل مشرع
ألا وانسلا للنيل أشبالَ عزه فمن ماجدٍ يبنى له وسميذع
فكم لبلاد النيل عندك منيةٌ وكم أمل يسعى بها وتطلع
إذا ما بنيت اليوم بالسعد والتقى وصفو مقيم بالهناءات مترع
ستبنى لنا من بعدُ أهرامَ سؤدد تدين لها أهرام خوفو وخفرع

محمود رزق سليم

زفاف فاروق

للشاعر محمود غنيم

المدرس بكوم حمادة الابتدائية

طربت لعُرسك مصرُ يابنَ فؤادِ ... فكأنما هو مُلتقى الأعيـــاد

بالفِطر والأضحى الكنانةُ تحتفى ... فيهِ . وبالنيروز والميلادِ

فى كلِّ قلب مهرجانٌ قائمٌ ... وبكلِّ أذنٍ قام يهتفُ شادِ

مَلِكٌ قد اقترن السرورُ بعهده ... فكأنما كانا عَلَى ميعادِ

أوَ ماترى قلبَ الدُّجى متوهِّجًا ... يبدو كقلب الصب يومَ بعادِ

نُقِشَتْ حواشِى الليلِ نقش صَحيفةٍ ... بالنور لا ببراعة ومدادِ

لم تبدُ أنجمُهُ لتُرسِلَ ضوءَها ... لكنْ لتشهَدَه مع الشُّهَّادِ

غنَّوْا لِفاروق فألفيتُ اسمَهُ ... أشجى صدًى من رنَّةَ الأعْوادِ

وزهت ثُرَيَّاتٌ حلفت بأنها ... ليست كنور جبينه فى النادى

قذفوا «النيازك» فى الفضاء فخلتها ... مشبوبةً من عزمه الوقادِ

أغنته عن باق الزهورِ خلائقٌ ... نفاحةٌ مثلُ الزهور نوادِ

ماذا أقول عن البدور وعُرْسِها ؟ عُرسُ البدور يجَلُّ عنْ إنشادى
خَلِّ الشبابَ الغضَّ فى رَيْعَانِهِ وعَراقة الآباء والأجدادِ
وَدَع العلا والمَجْدَ ويحكَ جانبًا فى الصَّمْت مايغنى عن التِّعداد
نثروا الزهورَ وقمت أنثر بينهم شعرى. وشعرى طارفى وتلادى
إن الزهور قصيرةٌ أعمارُها وقصائدى تبقى عَلَى الآبادِ
شعرٌ تودُّ الحورُ عند سماعه لو صغْنَ منه قلائدَ الأجيادِ

***

قُلْ للشباب أَصَبْتَ أَيَّةَ قُدوةٍ فى شخصِ فاروقٍ وَاكبرَهادِ
لما رأى وَلَعَ الشبابِ بكلِّ ما فى الغرب صاح بهم وقال: بلادى
وبنى بها ريحانةً مصريَّةً معصومةً من هُجنة الأَولادِ
عذراء نَضَّرت الكنانةُ عودها من أهل بيتٍ ناطقٍ بالضَّادِ
رَشفَتْ من النيل العتيدِ رَحيقَه وتفيَّأَت منه ظِلالَ الوادى
ولو ابتغى شمسَ الضحى عِرْسًا له لرأيتَها هَبطَتْ من الآرادِ
قل للعريبِ بقلبه وغرامِهِ : ما أقفرت مصرٌ من الأغيادِ
لاتبْنِ بامرأةٍ وتهدمَ منزلاً خيرُ الزواج تزاوجُ الأندادِ
لسنا بمصريين إن لم تؤثروا مصراً بكلِّ محبة ووداد

كم فوق شطِّ النيل أهيف شادنٌ ... فتن الغصونَ بقدِّهِ المياد

يرنو بلحظٍ فاترٍ ، بل فاتكٍ ... فتكَ السيوفِ وهنَّ فى الأغماد

من عهد «فاتنةٍ القياصر» لم تزلْ ... مصرٌ مراحَ نواعمِ الأجساد

***

فاروقُ ، لم لكَ آيةٌ شعبيَّةٌ ... كُبْرَى تمسُّ شغافَ كلّ فؤَادِ

أحصنت فى شرْخ الشباب وطالما ... ألْقى الشبابُ إلى الهوى بقيادِ

قالوا: كَبَحْتَ النفسَ قلنا: فارسٌ ... يعتادُ منذُ صباهُ كَبْحَ جيادِ

ومن الشبيبةِ حكمةٌ وَرجولةٌ ... لا تُحْسَبُ الأعمارُ بالْأَعْدَادِ

هاتِ المسرةَ واسقِ شعبك إنَّهُ ... شعبٌ إلى كأسِ المسرة صادِ

لم يستظلَّ بمثل عهْدِكَ مذهوى ... عن عرشه فرعونُ ذو الأَوْتَادِ

درجت قرونٌ وهو عانٍ مُرْهَقٌ ... يكفيه ماعاناه من أَجهادِ

بَعْدَ السهاد يطيبُ للعين الكَرَى ... والنصرُ يُدْرَكُ بعدَ طول جهاد

وطنٌ عتيد من شبيبتك اكتسى ... حُلَلَ الشباب قشيبةَ الأبرادِ

حتى سألتُ: أمصر فى شرخ الصبا ... أم مصرُ أقدمُ من ثمودَ وعادِ ؟

طوقتَ أعناق البلاد بطول ما ... أسديتَ من مِنَنٍ وبيضِ أيادِ

فعجبتُ كيف أسرت مصراً بعدما ... حرَّرتَها من رقِّ الاستعباد

يا ثالث العُمَرَيْن أنت أريتنا بالعيْن ما يُروى عن الزهَّادِ
أقبلتَ فى جيل يصلِّى جاهداً ويصومُ لا لِلّه بل للزاد
حرَصوا على الدنيا ؛ وكل جديدةٍ تَبْلَى وكلُّ ذخيرةٍ لنفَادِ
فلعلَّ أنفسَهُمْ بهَدْيكَ تهتدى فتروجَ سوقُ الرُّوح بعد كسادِ
وهى الحنيفةُ دينُ كلِّ حضارةٍ وعدالةٍ وهدايةٍ ورشادِ
شاء المهيمنُ أن تكونَ عِمادَها هيهاتَ يتركُها بغير عماد
اختَلْتَ فى بُرْدِ الزِّفافِ وفى غدٍ تَخْتَالُ فى بُرد النبىِّ الهادى
إنَّ الخلافةَ كلَّما ذُكِرَ اسمُها شَخَصَتْ إليك حواضرٌ وَبَوادِ
يا رُبَّ يومٍ فيه قد وَفَدَتْ على مصرٍ ومصرُ كثيرةُ الوفَّادِ
إنّا أَوَيْناها غداةَ تشرَّدَتْ وَعَدَتْ على « دارِ السلام» عوادِ
أَوَمَا اسْتَعَارَ التُّركُ منَّا تاجَها لجبينِ « محمودٍ » ورأسِ « مُرَادِ »
مَنْذَا سواكَ يُعيدُ عَهْدَ «أُمَيَّةٍ» بدِمَشْقَ « وَالعبَّاسِ » فى بغدادِ ؟

* * *

أصميْتَ بالتقوى صُدورَ معاشرٍ مسخوا محيَّا الدينِ بالألحادِ
لِلّهِ إذ تَرِدُ المُصلَّى خاشعا تسعى إليه بخَطْوكَ المُتهادِى
وكأنَّ ركْبَكَ لا يسيرُ على الثَّرى وكأن جبريلاً لركبك حَادِ

مَلِكٌ يتوِّج مَطْرِفَيْهِ بالتُّقَى نورُ الصَّلاح عليه أبلج بَادِ
عجباً له يخشى الزمانُ نِزَالَهُ وعَلَيْهِ تبدو خشيةُ العُبَّادِ
إنَّا عجمنا عودَهُ فاذا له وجهُ البدورِ وصولةُ الآسادِ
حلوٌ مريرٌ، صارمٌ متسامحٌ أرأيتَ كيفَ تقابُلُ الأضدادِ؟
ما عيدُه إلا غداةَ تعُدُّهُ فى شعبه فردًا من الأفرادِ
عرشٌ على الدُّستورِ قام أساسُه فإذا به أرسى من الأطوادِ

* * *

بُوِّئْتَ يا فَارُوقُ عرشًا كان فى أيدى فراعنةٍ بمصرَ شِدَادِ
هُمْ شاركوا الأربابَ فى ملكوتِها كم صاح صائحُهم وقال: عِبَادى
ضَمِنُوا بقاءَ جُسومِهِمْ وَرُسُومِهِمْ والحادثاتُ روائحٌ وَغَوادِ
قم سائل الأهرامَ عن تاريخهم ما فَصَّلَ التاريخَ مثلُ جمادِ
هنَّ الثقاةُ من الرواةِ بُرِئْنَ من عَصَبِيَّةٍ وَسَلِمْنَ من أحقادِ
فأَعِدْ لنا عَهْدَ الجُدود وَهَاتِ ما تركوا لمنْ تركوا من الأحفادِ
هَاتِ الذخائر وَالسِّلاحَ لأُمَّةٍ عزلاءَ، واستكثر من الأجنادِ
هـذا الزمان مسلحٌ لا يحتفى بعهودِ سِلْمٍ أو صُكُوكِ حِيَادِ
أو ما رأيت الطامعينَ بخيلِهِمْ حَوْلَ الحِمَى يقفُون بالمِرْصَادِ

فَاجْعَلْهُ أنْ ذاقوهُ سُمَّانا قعاً واجعله أَن مَسُّوهُ شوكَ قتَادِ

فاروقُ دم واسلم لشعبٍ مخلصٍ بنفيسهِ وبنفسهِ لك فَادِ

سَلْ كُلَّ قَلْبٍ فِي الكنانةِ نابضٍ عما يريدُ ، يجبْكَ :أنتَ مُرادى

محمود غنيم

نشيد الزفاف الملكى

للأستاذ محمود البشبيشى
المدرس بدار العلوم

رجِّعى ياورْقُ أَلحانَ السُّعُودْ
وابْعَثِى فى الْكونِ أَنغامَ الخلودْ
وَانْشُرِى الصَّفْوَ عَلَى هَامِ الوجود
غَرِّدى ، فَالْيَومُ عيدُ أَىُّ عيدْ

***

يحرسُ اللهُ المَليكَ المفتَدَى
مَلكٌ كَفَّاهُ عَزْمٌ وَنَدَى
وَجْهُهُ نُورٌ وَطُهْرٌ وَهُدَى
عَهْدُهُ يزهى على عَهْدِ الرشيدِ

***

عَهْدُهُ تاجٌ على هَام الْعُهُودْ

كُلُّهُ رِفْقٌ وَيُمْنٌ وَسُعُودْ
وَصُعُودٌ لِلْعُلَا أَيُّ صُعُودْ
إِهنِىء يا مِصْرُ بالعهدِ السعيدْ

***

يَا مَلِيكَ النيلِ يا صِنْوَ الْعَلَاءْ
مِصْرُ تَشْدُو اليومَ آياتِ الولاءْ
وتَبُثُّ الكَوْنَ أنغامَ الهناءْ
بِزِفَافِ المَلِكِ السَّمْحِ المجيدْ

***

الفهـــــرس

ص		التحرير
٣	مقدمة	
٥	غن ياشعر بالأمانى	: لحضرة صاحب العزة الاستاذ على الجارم بك
١٢	يوم الفاروق	: لحضرة صاحب العزة الاستاذ على الجارم بك
١٨	عيد أمة	: للشاعر إبراهيم سليمان اسماعيل
٢١	الجلوة الملكية	: للشاعر إبراهيم مأمون
٢٦	أوليات الملك فاروق	: للاستاذ عبد اللطيف المغربى
٣٥	آمال شعب	: للشاعر أحمد أبو النجا
٣٧	تحية الزفاف	: للشاعر أحمد محمد سلمان
٣٩	يوم الزفاف	: للشاعر العوضى الوكيل
٤١	مهرجان الأمة	: بقلم حسنين مخلوف
٤٦	فى القران الملكى	. للشاعر خالد الشامى
٤٩	أمة تحمل الجميل	: للشاعر سليم المسلمى
٥٢	المهرجان	: للشاعر سيد قطب
٥٥	بناء به تزهو الحياة وتطرب	: للشاعر عبد الباقى إبراهيم
٥٨	عيد أمة	: للشاعر عبد الحق على شرف الدين
٦٠	عيد الزمان	: للشاعر عيد الحميد زيدان
٦٢	تحية القران الملكى	: للشاعر عبد الستار سلام
٦٤	فرح النيل	: للشاعر عبد العزيز عتيق
٦٨	هاك عرس الفاروق	: للشاعر عبد العظيم بدوى

ص		
٧٣	تحية الشعر	. للاستاذ عبد الغنى نصر الدين
٧٦	مهرجان الشرق والأسلام	: للشاعر على الجندى
٨٠	الزواج	: بقلم على النجدى ناصف
٩٢	عيد قران الفاروق	: للشاعرعلى شرف الدين
٩٦	أشرقا فى مطلع الملك السعيد	: للشاعر عمران الجمل
٩٨	لحن الزفاف	: للشاعر فايد العمروسى
١٠٢	أفراح الملوك	: للشاعر فرحات عبد الخالق
١٠٤	آية الأخلاص	: للشاعر محمد صالح الريدى
١٠٦	أفراح أمة	: للشاعر محمد عبد الغنى حسن
١١١	نشيد الزواج الملكى	: للشاعر محمد عجاج
١١٣	عيد القران الملكى	: للشاعر محمود إبراهيم
١١٦	آية الأخلاص والولاء	: للشاعر محمود الشبيشى
١٢٠	عاهل الشرق	: للشاعر محمود حسن إسماعيل
١٢٤	زفاف المنى	: للشاعر محمود رزق سليم
١٢٩	زفاف فاروق	: للشاعر محمود غنيم
١٣٥	نشيد الزفاف الملكى	: للاستاذ محمود البشبيشى